تمهيد

القرآن والسنة النبوية

منذ شهور قليلة صدر للكاتب الروائى الشهير نيبول V. S. Naipaul كتاب بعنوان « بين المؤمنين : رحلة فى بلاد الاسلام Among the Believers ; An Islamic Journey» يسجل فيه انطباعاته وملاحظاته أثناء رحلة قام بها فى أربع دول اسلامية هى ايران وباكستان وماليزيا واندونيسيا . وقد استغرقت الرحلة ستة شهور اتصل خلالها بقطاعات كبيرة ومتنوعة ومختلفة من الناس فى تلك المجتمعات الأربعة .

ومنذ البداية تجد نيبول يركز على مسألة هامة ترددت كثيرا فى صفحات الكتاب التى وصلت الى ٤٣٠ صفحة ، وهى حالة التمزق العنيف الذى أصاب « المؤمنين » - كما يسمى سكان البلاد التى زارها - وذلك لتوزعهم العقل والوجدان بين الاسلام التقليدى بكل معتقداته وتعاليمه وقيمه وبين متطلبات الحضارة الغربية الحديثة بكل ما تقدمه من تقدم مادى وعلمى وتكنولوجى . ويعلق نيبول على هذا الموقف بغير قليل من السخرية والاستهزاء بهؤلاء « المؤمنين » الذين يتوقعون من الآخرين ، أى الغربيين ، أن يستمروا فى الخلق والابداع والابتكار والاختراع ، بينما

يستمرون هم في استخدام تلك المبتكرات والمخترعات والافادة من منتجزات تلك الحضارة بوجه عام . ويقول في ذلك « لقد كان الشعور بالتمزق عميقا الى أبعد حدود العمق لدى عدد من الأشخاص الذين قابلتهم في طهران ، وظهر ذلك واضحا بوجه خاص لدى رئيس تحرير احدى الجرائد اليومية الذي ارسل ولديه لمواصلة تعليمهما في الولايات المتحدة . كان جزء من عقله وفكره يمل عليه ان يسلم نفسه تماما لعقيدته ودينه وإيمانه وأن يقف موقف المعارض من كل ما نشأ بعيدا وخارجا عن ذلك الايمان . . . كان يشعر برغبة قوية في أن يظل متمسيا لأطول وقت ممكن الى ذاته في عالم غريب يشعر بابتعاده عنه وانفصاله منه باستمرار ؛ ولكنه كان يدرك ويعترف في الوقت نفسه ، وبالجزء الثاني من عقله وتفكيره ، بأن ذلك العالم الخارجي الغريب عنه هو الذي يسيطر ويسود على كل شيء وانه يؤلف جزءا من مستقبل أولاده » .

وخلال كل صفحات الكتاب يكرر نيبول مثل هذه الأقاويل التي تكشف عن مدى معارضة « المؤمنين » للحضارة الغربية ورفضهم لها ويصف موقفهم عموما بالنفاق ، على اعتبار أنهم لا يرفضون الانجازات التكنولوجية بالذات لتلك الحضارة ، ويرغبون في الوقت ذاته في تحقيق ذلك « النقاء » الذي يعتبرونه هو جوهر الاسلام ، وينادون من أجل ذلك بضرورة العودة الى ذلك الماضي الطاهر النقي الذي كان يسود في صدر الاسلام ، ومع ذلك فانهم يعجزون تماما عن تقديم أي تصور واضح لفكرة الدولة الاسلامية التي يدعون الى قيامها ، والتي يرون أنها سوف تحقق ذلك الطهر أو النقاء ، كما أنها سوف تقوم وترتكز على دعائمه ، ويشعرون ازاء ذلك العجز بكثير من الاحباط الذي يعبر عن نفسه في الغضب الثوري العنيف الذي قد يصل الى حد القتل . فرفض الحضارة الغربية ينصب اذن على كل ما أنجزته وانتجته هذه الحضارة ، ويستوي في ذلك التقدم المادي التكنولوجي أو الافكار والفلسفات والايديولوجيات الغربية ، بل وأيضا المسلمين أنفسهم الذين تأثروا بتلك الحضارة نتيجة لاقامتهم في المجتمع الغربي ، وانعكس ذلك التأثير في آرائهم ونظرتهم الى الحياة واعتناقهم لفلسفات الغرب وأيديولوجياته والتعبير عنها عن قصد أو بغير وعي . . وقرب نهاية الكتاب يحاول نيبول تلخيص انطباعاته في عبارات قليلة فيقول : « والظاهر أن ذلك الاسلام الذي يظهر الآن في أواخر القرن العشرين يثير عددا من القضايا السياسية ، ولكنه في نفس الوقت يكشف عن ضعف وقصور أسس هذه القضايا وأصولها ، وهو قصور كان ظاهرا في الحقيقة خلال التاريخ الاسلامي كله ، ونقصد بذلك أن اسلام أواخر القرن العشرين يعجز عن تقديم أية حلول سياسية أو عملية لتلك القضايا السياسية التي يثيرها ، وكل ما يقدمه في هذا الصدد هو الايمان وحده . . انه يقدم النبي الذي سوف يحل كل شيء ، على الرغم من أن النبي (ﷺ) نفسه مات منذ بعيد ولم يعد له وجود . . ان هذا الاسلام السياسي يتجسد في هيأة الغضب والفوضى » . وفي آخر فقرة من الكتاب يقول « ان الحياة التي دبت مؤخرا في الاسلام لم تأت من داخل الاسلام وانما جاءت من الأحداث والظروف الخارجية ، أي نتيجة لانتشار الحضارة العالمية . لقد كانت نهاية القرن العشرين هي التي

أعطت الاسلام ثوريته بأن أضفت معاني جديدة على الأفكار الاسلامية القديمة عن المساواة والوحدة ، كما هزت تلك المجتمعات الساكنة المتخلفة هزا عنيفا . ان أواخر القرن العشرين ، وليس الايمان ، هي التي تستطيع توفير الأجوبة عن تلك المشكلات والقضايا وهذه الأجوبة تتلخص في المؤسسات والتشريعات والنظم الاقتصادية . ومن المفارقات أن نجد أنه بعد كل حركة الاحياء الاسلامي وكل الصحوة الاسلامية ، أو المد الاسلامي الذي يبدو أنه ينظر الى الوراء أو الى الماضي فان كل ما سوف يتبقى في كثير من الدول الاسلامية ، وبعد كل تلك العواطف والانفعالات المستمدة من الايمان بالنبي ، أقول ان كل ما سوف يتبقى هو فكرة الثورة الحديثة . »

ومثل هذه الآراء والأفكار تتردد بكثرة في الوقت الحالي في معظم الكتابات التي ظهرت أخيرا عن الاسلام ، والتي تتناول بوجه خاص الصحوة الاسلامية الحديثة . واذا كان نيبول رواليا اعتمد في هذا الكتاب على الانطباعات التي خرج بها من لقاءاته العديدة مع قطاعات كبيرة من سكان المجتمعات التي زارها أثناء رحلته ، فان بعض العلماء من الأجانب المتخصصين في الدراسات الاسلامية وبعض المؤرخين والمستشرقين يتبنون مثل هذه الآراء ويعبرون عنها في كتاباتهم . فالأمر ليس قاصرا اذن على الكتابات غير العلمية او شبه العلمية وانما يتعداها الى بعض الكتابات الأكاديمية ، حيث يتكلم اصحابها عن امور مثل كراهية المسلمين ـ وبخاصة « المؤمنين الحَرْفيين » ـ للغرب وحضارته المادية التي توصف في العادة بانها حضارة زائلة « ومريضة » . ويصل الامر ببعض هؤلاء الكتاب الى الكلام عما يسمونه بطفيلية المسلمين او (تطفلهم) الذي يتمثل في الاعتماد على الانجازات المادية التي حققها الغرب ، وكذلك في الثروات الهائلة التي حققها العالم الاسلامي ـ أو بعض دوله ـ بفضل استخدامهم التكنولوجيا الغربية التي يكرهون الحضارة التي انتجتها . ويأخذ هؤلاء الكتاب على هؤلاء « المؤمنين » موقف العداء الذي يقفونه من « التاريخ الدنيوي » ومن التفسير التاريخي للأحداث ، وتفضيلهم التفسير الديني أو اللاهوتي الذي لا يرتفع ـ وبخاصة عند الحَرْفيين المتزمتين منهم ـ عن مجرد مراعاة الشعائر والطقوس ، وأخذ القرآن والنصوص الدينية القديمة بحرفيتها ، والاعتقاد بأن كل المشكلات يمكن حلها عن طريق انشاء الدولة الاسلامية التي لا يستطيع واحد منهم تحديد مقوماتها تحديدا واضحا .

والغريب أن نجد عالما مثل المؤرخ البريطاني تريفور روبر H. R. Trevor - Roper يردد مثل هذه الأقوال في مقال له بعنوان « Born Again» نشر في مجلة The New York Review of Books بتاريخ ٥ نوفمبر ١٩٨١ ، كما يبدو أنه يتقبل ، ولو الى حد ، وصف نيبول للاسلام بأنه دين طفيلي ، « وانه كان مجرد ريح جافة هوجاء هبت من الجزيرة العربية واكتسحت أمامها كل ما كانت تصادفه في المجتمعات والبلاد الأكثر استقرارا والاكثر ثقافة ، فحملت معها فنون وعلوم سوريا ومصر وبلاد

اليونان والهند » . ولكنه يلاحظ أن ذلك لم يتم الا بعد انتهاء فترة الغزو والفتح وبعد أن أصبح في استطاعة الاسلام أن يكون « دينا مفتوحا » فيتقبل التنوع والاختلاف ويعترف بالدَّيْن والفضل للثقافات الأخرى . اما الآن فان هؤلاء المحافظين الرجعيين أو الحَرْفيين هم اقل تسامحا بل واقل أمانة ، اذ بينما هم يرفضون (ظاهريا) الغرب باعتباره حضارة مريضة ، كما يقولون ، فانهم يعيشون سرا عليه ويتمتعون بكل ما يهيؤه لهم من ترف دون ان يقدموا هم البديل لذلك . ولكن من الانصاف ان نقول ان تريفور روبر Trevor-Roper لم يلبث في نهاية ذلك المقال ان اعترف بان الاسلام ـ او على الاصح « الاحياء الاسلامي » ليس مجرد (حالة) يمكن للمرء ان يقنع بفحصها ودراستها وتشخيصها ، او انه مجرد مجموعة من المفارقات التاريخية التي ثارت في حياة الناس هنا وهناك على ايدي عدد من الرافضين والثائرين ، انما هو في رأيه (حركة) بكل معاني الكلمة ، وان هذه الحركة لم تنته بعد ، بل ان هناك مرحلة تالية سوف تصل اليها في وقت لاحق .

•••

وبصرف النظر عما يقال عن طفيلية الاسلام او تطفله فان ثمة عددا من الامور التي يحسن ان نشير اليها .

الامر الأول :

هو ان الاسلام جاء لكي يقيم مجتمعا متكاملا له نظمه الاقتصادية والسياسية والقانونية والاجتماعية ، وان ينشيء حضارة متكاملة لها ، كما هو الحال في كل الحضارات ، جانبها المادي بالاضافة الى الجانب الروحي الذي يتمثل في نسق المعتقدات والقيم والاخلاق . ولقد افلح الاسلام في خلق ذلك المجتمع وتلك الحضارة التي غطت منطقة كبيرة من العالم تمتد من الغرب حتى الهند واندونيسيا ، كما افلحت في ان تغزو بعض مواطن اوروبا الجنوبية وان كانت انحسرت عنها فيما بعد . وليس ادل على رسالة الاسلام الحضارية من ان أولى الآيات التي نزلت من السماء على النبي تحمل ذلك المعنى الحضاري : « اقرأ باسم ربكَ الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ». وليس المقصود بالقراءة هنا مجرد تتبع الكلمات بالعين او ترديدها باللسان ، وانما القراءة هنا رمز على طلب العلم والمعرفة . فالقراءة بهذا المعنى وسيلة من ارقى وسائل الاتصال ونقل المعلومات بين البشر وبين المجتمعات المختلفة . انها اداة لخلق الحضارة المتقدمة مثلما هي رمز على هذه الحضارة المتقدمة .

الأمر الثاني :

هو أن الاسلام ، كحضارة ، كان قادرا دائما على الأخذ والعطاء ، شأنه في ذلك شأن كل الحضارات التي تستعير من غيرها وتعطي من مقوماتها ومنجزاتها لغيرها من الحضارات . فالمسألة هنا ليست مسألة

تطفل من الاسلام على الحضارة الغربية التى أفلحت فى أن تحقق فى العصر الحديث كثيرا من المنجزات التى لم تستطع الحضارة الاسلامية فى حالتها الراهنة الوصول اليها . ومن الطبيعى أن تأخذ الحضارة الأكثر تخلفا من الحضارة الأكثر تقدما ، وهى فى هذه الحالة النواحى العلمية والتكنولوجية ، مثلما سبق لحضارة الغرب أن أخذت عن الحضارة الاسلامية فى القرون الوسطى ما أنجزته فى مجال العلوم المختلفة . ولو أننا قبلنا المنطق القائل بطفيلية الاسلام لأمكن تطبيقه على غيره من الأديان . أولم تكن المسيحية فى عهودها الأولى طفيلية ، حسب هذا المنطق ، على الحضارة اليونانية الرومانية « المريضة » التى رفضتها ؟ ألم يكن المسيحيون يتكلمون دائما عن الدولة المسيحية دون أن تكون لديهم فكرة واضحة عن مقومات تلك الدولة ونظمها وتنظيماتها ومؤسساتها ، فيما عدا عدم التسامح مع غير « المؤمنين » ؟ والاستاذ تريفور روبر نفسه يقول فى ذلك « أن المجتمعات المسيحية ازدهرت لأنها عاشت فى وقت من الأوقات على غيرها وتطفلت عليها ، وذلك بعد أن مرت بمراحل وفترات من التعصب وعدم التسامح والصراع ، ثم بدأت تأخذ من غيرها من المعتقدات والمذاهب والنظريات والنظم وتتمثلها جميعا ، فاصبحت جزءا منها يعطيها كثيرا من القوة . وهذا هو ما حدث بالفعل بالنسبة للاسلام فى عصور عظمته وتقدمه وازدهاره ، حين أفلح فى أن يغزو ويخضع العالم من المغرب حتى أندونيسيا بفضل الرسالة التى كان يحملها ويريد تبليغها للناس » . وعلى ذلك فليس ثمة ما يدعو العالم الاسلامى فى حركته الاحيائية الحالية الى أن يتنكر تماما للحضارة الغربية ويرفضها برمتها ، بما فى ذلك منجزات العلم الحديث . والمهم هو التوصل الى صيغة تحقق المزاوجة بين القيم الاسلامية ومنجزات العلم والتكنولوجيا بما لا يتعارض مع تلك القيم .

الأمر الثالث :

وهو مرتبط بما سبق قوله ، هو أن الاسلام دين يدعو الى التجديد والى تحقيق التقدم للجنس البشرى ووسيلته فى ذلك كما ذكرنا هى العلم الذى جاء ذكره فى الآيات الأولى من القرآن الكريم وفى مواضع اخرى كثيرة بصور مختلفة .

والمرحوم الشيخ عبد الحليم محمود فى كتابه عن « القرآن والنبى » يلاحظ أنه فى هذه الآيات الأولى ترد كلمة « القرآن » مرتين وكلمة « العلم » ثلاث مرات ، كما جاء فيها ذكر « القلم » . بل لقد أقسم الله سبحانه وتعالى بالقلم : « ن ، والقلم وما يسطرون » . وكما أن القراءة ترمز الى طلب المعرفة فانها تعنى أيضا (قراءة) الكون بكل مافيه من مظاهر وحياة . والقرآن الكريم يحض فى كثير جدا من المواقع على التفكير وعلى طلب العلم والتأمل وتحكيم العقل : « ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » ، « ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ، « ان فى ذلك لآيات لأولى الالباب » ، وغيرها كثير . ووسيلة العلم فى ذلك

ـ كما يستشف من هذه الآيات ـ هى النظر ، أى البحث والتجربة اللذان يفتحان أمام الانسان مجالات هائلة من المعرفة ويساعدانه على التعرف على طبائع الاشياء والقوانين التي تحكمها . وليس المقصود بالعلم هنا العلم بأمور الدين فقط ، لأن القرآن الكريم يدعو صراحة الى النظر فى الكون وظواهر الطبيعة وصنوف البشر وأنواع النباتات والحيوانات ، كما يدعو الى البحث فى كل ما يتصل بالعالم المحسوس والنظام الدقيق الذى تسير الأمور والأحداث بمقتضاه : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون » ؛ « الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير» . والآيات التى تعزز ذلك كثيرة ، وسوف يجد القارىء أمثلة عديدة لذلك فى الدراسات التى يضمها هذا العدد . والمهم هو أن العلم بهذا المعنى يساعد المرء على التعرف على الطريق السليم ويبصره بعظمة الله الذى أتقن كل شيء صنعه .

والواقع أن الكتاب الغربيين المنصفين انفسهم انتبهوا الى موقف القرآن والاسلام من العلم وقارنوه بموقف المسيحية والكتاب المقدس فى ذلك . ويكفى أن نشير هنا الى ماذكره موريس بيكاى Maurice Bucaille فى كتابه : « الكتاب المقدس والقرآن والعلم La bible, le coran et la science » حيث يقول : « أما فى حالة الاسلام فان الموقف من العلم كان مختلفا على العموم اختلافا كبيرا عما كان عليه فى الكتاب المقدس . وليس ثمة أوضح من الحديث الشهير عن النبى صلى الله عليه وسلم الذى يقول فيه : « اطلبوا العلم ولو فى الصين » ، أو ذلك الحديث الآخر الذى يجعل من طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . وثمة حقيقة أخرى هامة وهى أن القرآن بينما يدعو الى طلب العلم يضم هو نفسه كثيرا من الملاحظات عن الظواهر الطبيعية ، كما يضم تفصيلات تفسيرية تتفق فى عمومها مع المعلومات العلمية الحديثة ، وليس ثمة ما يماثل ذلك فى الأسفار المسيحية ـ اليهودية » (صفحة ١١٥) .

وليس المقصود بهذا على أية حال أن نحاول أن نبحث للعلم الحديث عن مبررات فى القرآن أو أن نستشهد بنتائج العلم الحديث واكتشافاته على صدق ما جاء فى القرآن من أحكام تتعلق بالكون وبالخلق وظواهر الطبيعة وما اليها . فليس القرآن فى آخر الأمر كتابا علميا تحتمل أحكامه الصدق والكذب كما هو الحال بالنسبة للعلم ، وان كان الملاحظ أن الحقائق التى وصل اليها العلم التجريبى لا تصطدم بالحقائق القرآنية . وهذا على أية حال يفتح الباب أمام ضرورة اعادة النظر فى اسلوب تفسير القرآن بحيث يتجه التفسير الى مجالات جديدة لم تكن ميسورة للمفسرين القدامى ، وهي مجالات تتعلق بالضرورة مع ما أحرزه العلم الحديث ومع ما توصل اليه العقل الانساني من كشوف في مختلف فروع المعرفة . فالقرآن ،

بحكم وضعه ، كتاب يصلح لكل عصر ، ولا تقتصر أحكامه على زمن معين ، ولذا كان لا بد من قراءة القرآن بنظرة متجددة تتمشى مع تطورات العلم والعصر ، مع المحافظة طيلة الوقت على روح القرآن وروح الاسلام . فليس ثمة اذن ما يبرر الأخذ بمبدأ اغلاق باب الاجتهاد ، او التمسك بكل ما ورد في التفاسير القديمة من آراء وافكار ، مع الاعتراف بأن هذه التفاسير كتبها علماء وفقهاء كانوا أئمة عصرهم في الفقه وامور الدين ، ولكن كان يحكمهم بطبيعة الحال ما كان متاحا لهم من علم ومعرفة في ذلك الحين . والملاحظ على العموم ان الغالبية العظمى من تفاسير القرآن الكريم كانت تهتم اهتماما بالغا بالناحية اللغوية البحتة ، كما ان جانبا كبيرا من الافكار والآراء التي ابدوها حول الكون لم يثبت صحتها وتحتاج الى نقد وتمحيص . ولذا فان من الغريب ان نجد الكثيرين يقبلون في الوقت الحالي كل آراء هؤلاء الفقهاء والمجتهدين الكبار القدامى وكبار المفسرين ويأخذونها على انها اقوال ثابتة لا تحتمل النقاش ولا تقبل المراجعة . وليس من شك في ان اقفال باب الاجتهاد مسئول الى حد كبير عما نحن فيه من تخلف في مسألة النظر العقلاني الى امور الاسلام ، وبخاصة تلك الامور المتعلقة بالحياة اليومية . والملاحظ ان الكثيرين من فقهائنا الآن لا يكادون يبدون رأياً في اي مشكلة من المشكلات التي تعن لهم او تعرض عليهم الا بالعودة الى هؤلاء العلماء السابقين او الاحالة اليهم والى كتاباتهم على الرغم من تغير الظروف عن تلك التي كانت سائدة في ايامهم .

ومحاولة تفسير القرآن تفسيرا حديثا أو اعادة التفسير لن يقلل ابدا من الجهود التي بذلها هؤلاء الأئمة القدامى الكبار . ونحن نعرف على اية حال ان هؤلاء الأئمة الكبار انفسهم كانوا يراجعون احكامهم مثلما فعل الامام الشافعي حين جاء الى مصر واطلع على آراء الليث بن سعد فأعاد النظر في مذهبه . ولم يقلل ذلك بأي حال من الاحوال من شأن الامام الشافعي ولا من مكانته ؛ بل ان الامر على العكس من ذلك تماما . كذلك يلاحظ ان بعض هذه التفاسير لا يخلو من الاسرائيليات التي لم يكن في استطاعة المفسرين القدامى ان يتعرفوا على زيفها ويطهروا تفاسيرهم منها ، وذلك فضلا عن الميل الواضح الى اسناد بعض القصص غير الحقيقية لبعض الانبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن ، وهي قصص لا يقبلها العقل من ناحية ، او تتعارض تعارضا تاما مع ما اثبته البحث التاريخي حول الاحداث والوقائع التي عاصرت هؤلاء الانبياء . ولكن لا بد من الاعتراف في الوقت ذاته بأن ثمة جهودا مضنية بذلها بعض المفسرين المحدثين للتحرر من المنحى اللغوي الذي يغلب على معظم التفاسير ، والذي كان يرى ان كل لفظ له معنى محدد بالذات هو المعنى الوارد في المعاجم والقواميس . وقد حاولت هذه التفاسير الحديثة نسبيا ان تأخذ في الاعتبار ما حققته العلوم الطبيعية والانسانية من تقدم ومن انجازات . ويكفي ان نشير هنا الى تفسير الشيخ طنطاوي جوهري والمسمى « الجواهر في تفسير القرآن الكريم المشتمل على عجائب بدائع

المكونات وغرائب الآيات الباهرات » وهو عنوان يدل على الاتجاه العام الذي يسيطر على الكتاب . فقد حاول الشيخ طنطاوي جوهري ان يلم في ذلك التفسير بكل ما أتيح له الوصول اليه من نتائج العلوم المختلفة ، لدرجة ان البعض وصف تفسيره ـ حسب ما يقول المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود ـ بانه كتاب طبيعة وكيمياء وفلك وتربية اكثر مما هو كتاب تفسير . وبصرف النظر عن هذا الرأي في تفسير الشيخ طنطاوي جوهري ، فالذي لا شك فيه هو اننا في أشد الحاجة الآن الى قراءة جديدة للقرآن تتجاوز قيود التفسير اللغوي البحت ، وتأخذ في الاعتبار ما وصل اليه العلم الحديث من كشوف ، وبحيث تقرب القرآن الى ذهن القارىء العصري الذي تبهره منجزات الحضارة الحديثة لدرجة قد تصرفه عن أمور دينه .

أحمد أبو زيد

***

القرآن والتاريخ

عبدالعزيز كامل *

مدخل

آثرت ان اجعل عنوان هذه الدراسة « القرآن والتاريخ » ، لأبتعد ـ قاصدا ـ عن عناوين اكثر تحديدا مثل : « فلسفة التاريخ في القرآن » ، « التفسير القرآني للتاريخ » أو ، « كيف يفسر القرآن التاريخ ؟ » . وذلك لأنه ـ حتى في التفسير العام ـ تعددت المدارس الفكرية مع ايمانها جميعا بالله ورسوله ، وإن القرآن كتاب الله ووحيه المنزل على النبي عليه الصلاة والسلام .

وتنوعت المداخل الى القرآن ، وتنوعت معها المناهج : ما بين التفسير المأثور الى التفسير المعقول ، الى اهتمامات بجوانب اكثر من غيرها ، كالأحكام او اللغة[1] . .

من اجل ذلك ، لا تريد هذه الدراسة من ان تكون محاولة لفهم العلاقة بين القرآن والتاريخ وهي ثلاثة أقسام أساسية :

(١) عناصر التاريخ : من الزمان والمكان والأحداث والأشخاص والأبطال .

(٢) مناهج التاريخ : من جمع المعلومات وتحقيقها وتفسيرها .

(٣) صناعة التاريخ : وهي الافادة من المناهج في صناعة حياة جديدة . وهذا هو الهدف الاسمى من الدراسات التاريخية كما يصوره القرآن .

---

* المحاضر بالموسم الاسلامي بالكويت وقد شغل المناصب التالية :
١ ـ استاذ الجغرافيا البشرية بجامعة القاهرة .
٢ ـ مدير جامعة الكويت .
٣ ـ نائب رئيس مجلس الوزراء للشئون الدينية ووزير الاوقاف وشئون الأزهر بجمهورية مصر العربية .

(١) السيوطي : الاتقان في علوم القرآن : معرفة تفسير القرآن وتأويله ٢ : ١٧٣ ـ ١٨٦ ط . م الحلبي القاهرة ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م وهو من اول المراجع في علوم القرآن .

القسم الأول

عناصر التاريخ

أولا ـ الزمـان

في القرآن انواع من الزمان أبرزها ثلاثة :

(١) الزمان الكوكبي : وهو هذا الزمان الذي نقيم عليه حساباتنا ، من ايام واقسامها ومضاعفاتها . وفيه **يقول الله تعالى** :

ـ « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب . وكل شيء فصّلناه تفصيلا » . (**الاسراء : ١٢**) .

أ ـ وبهذا الزمان الكوكبي تتحد اعمار الافراد ومراحل السن :

ـ « **ووصينا الانسان** بوالديه احسانا . حملته امه كرها ووضعته كرها . وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ، حتى اذا بلغ اشده ، وبلغ اربعين سنة ، قال : رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت علي وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه . واصلح لي في ذريتي . اني تبت إليك ، وإني من المسلمين » (**الأحقاف : ١٥**) .

ب ـ وهو الزمان الذي تتحدد به العبادات اليومية :

ـ « **أقم الصلاة** لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر . إن قرآن الفجر كان مشهودا » (**الاسراء : ٧٨**) .

جـ ـ والعبادات السنوية او عبادة العمر كالحج :

يقول تعالى عن الصوم :

« شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان . فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا او على سفر فعدة من أيام أُخر » (**البقرة : ١٨٥**) .

وعن الحج يقول تعالى من حيث ارتباطه بالزمان :

ـ « **الحج** اشهر معلومات . فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج » . (**البقرة : ١٩٧**) .

د ـ ويربط العبادات ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي كالزكاة ، بالزمان ، فيقول عن الثمار :

ـ « وآتوا حقه يوم حصاده » (**الانعام : ١٤١**) .

هـ ـ ويربط به أعمار الامم ودورات ازدهارها وافولها . يقول تعالى في قصة قارون :

ـ « أولم يعلم ان الله قد اهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة واكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » (**القصص : ٧٨**) .

ويقول تعالى عن منكري البعث :

ـ « والذي قال لوالديه أفٍّ لكما اتعدانني أن اخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن ان وعد الله حق فيقول ما هذا الا اساطير الاولين » (**الأحقاف : ١٧**) .

وللقرن ـ لغويا ـ مدلولان :

أولهما زمني : مدته عشر سنين الى مائة سنة والثاني بشري : الأمة تأتي بعد الأمة ، وأهل كل زمان ، مأخوذ من الاقتران ، فكأنه المقدار الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في اعمارهم وأحوالهم[٢] .

(٢) ما قبل الزمان الكوكبي :

يقول تعالى : « ولقد خلقنا السماوات والارض وما بينهما في ستة ايام وما مسنا من لغوب » (**ق : ٣٨**) .

والكواكب ـ بما فيها من اجرام نعلم بها عدد السنين والحساب داخلة ضمن هذا « الخلق » . فمفهوم « يوم » في هذه الآية مختلفة عن « اليوم » الذي نتعامل به في حياتنا .

(٣) ما بعد الزمان الكوكبي :

يقول تعالى عن يوم القيامة :

ـ « يوم تبدل الارض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار » (**ابراهيم : ٤٨**) .

وفي القرآن عناية كبيرة بمشاهد القيامة :

« اذا السماء انفطرت . واذا الكواكب انتثرت » . واذا البحار فجرت . واذا القبور بعثرت . علمت نفس ما قدمت وأخرت » . (**الانفطار : ١ ـ ٥**) .

وترد في القرآن الكريم آيات تدل على طول ذلك اليوم ، بعد ان تبدل الارض غير الارض والسماوات :

« تعرج الملائكة والروح ، اليه في يوم كان مقداره خمسين الف سنة » (**المعارج : ٤**) .

ويقول : « وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » (**الحج : ٤٧**) .

يقول الامام ابن كثير في تفسيره[٣] : ان مقدار الف سنة عند خلقه ، كيوم واحد عنده ، بالنسبة الى حكمه . (يعني يوم الجزاء) .

(٤) الزمان النفسي : وفيه يبدو احساس الانسان بطول الزمن او قصره . ويضرب الله له مثالا بحوار يدور يوم القيامة :

« قال : كم لبثتم في الارض عدد سنين ؟

---

(٢) ابن منظور : لسان العرب ٣-٧٦ ط . دار لسان العرب . بيروت .

(٣) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٤ . ١٣٠ ط . الاندلس بيروت ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م .

قالوا : لبثنا يوما او بعض يوم فاسأل العادين .
قال : ان لبثتم الا قليلا لو انكم كنتم تعلمون . افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون » (المؤمنون : ١١٢ ـ ١١٥) .

وصفوة لقول ان الزمان في القرآن : مقاييس معلومة ، ومقاييس مجهولة ، سابقة ولاحقة ، واحساس به ، قصرا او امتدادا ، يطغى على القياس المعلوم .

وليس الزمان وحده هو المتغير :

هذا التبدل في المقياس والاحساس لا يقتصر على الزمان . فللانسان ـ في القرآن ـ وجود لاحق لوجود الزمان الفلكي المعروف ، ومع تبدل الارض والسماوات تتبدل قوى الانسان وما حوله من موجودات .

يقول تعالى في وصف البصر يوم القيامة :

« لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (ق : ٢٢) .

ويذكر عن جزاء المؤمنين :

« وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجري من تحتها الانهار . كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها ازواج مطهرة وهم فيها خالدون » (البقرة : ٢٥) .

وما نود ان نفصل في هذه المشاهد ، وإن جمع بينها انها صور من الغيب ، يربطها مجرد التشابه ، بما في دنيانا ، ويعرض لها هذا البحث بقدر ما تؤثر على حياتنا الدنيا . وبعبارة أخرى : بقدر ما تؤثر على تاريخنا الانساني في ارض العمل ، لا في افق الجزاء الأخروي .

اجزاء الزمان : مقارنة

وهناك فارق يستوقف النظر بين معالجة القرآن لأجزاء الزمان ومعالجة العهد القديم ، وبعض الكتب الدينية الاخرى التي عرضت لطول الزمان كما في التراث الهندي .

في العهد القديم :

حصر سفر التكوين نفسه في اطار زمني ضيق جعله مجال التاريخ الانساني من بدئه الى احداث السفر ويبدأ الاصحاح الخامس من سفر التكوين هكذا :

« هذا كتاب مواليد آدم . يوم خلق الله الانسان على شبه الله عمله ، ذكرا وانثى خلقه وباركه ، ودعا اسمه آدم يوم خلق . وعاش آدم مائة وثلاثين سنة » (تكوين ٥ : ١ ـ ٣) وتتعاقب بعد هذا ذرية آدم : إسما إسما ، وعمرا عمرا ، حتى طوفان نوح ، ثم تتعاقب سلالته إسما إسما ، وعمرا عمرا . ويعقب

موريس بوكاي على هذا بقوله . « ولكي نكون اكثر قربا من الحقيقة ، لنقل ان خلق العالم ـ بحسب هذا التقدير العبري ـ يحدد تقريبا بسبعة وثلاثين قرنا قبل الميلاد[٤] ثم يقول بعد دراسة السلاسل الزمنية في السفر « هناك اذن استحالة اتفاق واضحة بين ما يمكن استنتاجه من المعطيات الحسابية لسفر التكوين الخاصة بظهور الانسان ، وبين اكثر المعارف تأسسا في عصرنا[٥] » .

في القرآن :

أما القرآن فلا يعرض سلاسل أجيال تعاقبت من لدن آدم . ولا تعاقب في اسماء ولا أنبياء ، مكتفيا بمعالم بارزة في تاريخ النبوات ، ذاكرا بكل وضوح أن الانبياء في القرآن بعض المرسلين . يقول تعالى : « ولقد ارسلنا رسلا من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وماكان لرسول ان يأتي بآية الا باذن الله » (غافر : ٧٨) .

وبهذا احتوى القرآن امتداد الزمان الذي اثبته العلم لحياة الانسان على هذه الأرض ، واحتوى الاتساع المكاني في الازمان المتعاقبة ، وما قام فيها من حضارات ، وما اعتنقه اهلها من قيم واخلاقيات تقارب او تشابه ما نادت بها الأديان السماوية التي ذكرها القرآن تفصيلا .

مدى العناية بأجزاء الزمان :

ويعني القرآن بأجزاء الزمان بقدر ما تساعد على توضيح القصص القرآني : معرفة واعتبارا .

وهو يكتفي فيها احيانا بالاجمال ، اذا كان وحده يعني . . كما في قول الله مدافعا عن رسوله ومبينا ان الوحي من عند الله :

« قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله ، افلا تعقلون . فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ، انه لا يفلح المجرمون » (يونس : ١٦ ـ ١٧) .

وفي قصة يوسف نقرأ اسلوبين في معاملة الزمان : فبعد ان أبي يوسف الاستجابة لمراودة امرأة العزيز . وشهد شاهد من اهلها بما يثبت براءته . قال العزيز « يوسف أعرض عن هذا . واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين » (يوسف : ٢٩) ولكن اصرت امرأة العزيز على متابعة ما هي فيه . ويأتي قول الله تعالى « ثم بدا لهم بعد ما رأوا الآيات ليسجننّه حتى حين » (يوسف : ٣٥) وتسير القصة حتى ينبيء

(٤) موريس بوكاي : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص ٤٧ ط . المعارف القاهرة ١٩٧٨ (الترجمة العربية) .
(٥) بوكاي (١٩٧٨) ص٥٠ .

يوسف صاحبيه في السجن بتأويل ما رأيا في المنام ، « وقال للذي ظن انه ناج منهما اذكرني عند ربك . فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين » (يوسف : ٤٢) .

ونقف عند قوله تعالى « حتى حين » وقوله « بضع سنين » فالمدة التي قضاها يوسف ـ رغم اهميتها ـ غير محددة في القصة . و « بضع » لغويا قد تكون بين الثلاث والتسع . وعدم التحديد هنا يزيد من الاحساس بالظلم الواقع على يوسف ، وبفساد نظام الحكم وفتنة ، فسادا يمكن ان يبقى فيه البرىء سجينا مدة لا حساب للزمن فيها . السجين دفعته اهواء الحكم وسلطة الحاكمين الى السجن . وقد تدفعه الى النور شهادة ساقي الخمر ، او وساطة من حاشية الحاكم .

ويبدو حساب الزمن دقيقا اذا كنا بسبيل التخطيط وانقاذ الناس من المجاعة المنتظرة . لا مجال هنا لبضع سنين او الى حين . ولكن المجال لتجميع جهود وتحديد مدة وتنظيم عمل . وفي هذا يقول الله تعالى عن الخطة التي رسمها يوسف ليقابل بها المجاعة المنتظرة :

« قال : تزرعون سبع سنين دأبا ، فما حصدتم فذروه في سنبله الا قليلا مما تأكلون . ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » (يوسف : ٤٧ ـ ٤٩) .

والخطة ثلاث مراحل : سبع سنين لكل من المرحلتين الاولى والثانية وواحدة للمرحلة الثالثة . ولكل من الثلاث عمل يختلف عن الاخرى :

الاولى : تحديد مدة ، وانتاج زراعي ، ينبغي ان يرتفع فيه معدل الانتاج « دأبا » . ومع وفرة الانتاج تقييد الاستهلاك ويتمثل في قوله تعالى « الا قليلا مما تأكلون » وذلك من اجل ادخار اكبر قدر ممكن من المحصول يتمثل في قوله تعالى « فما حصدتم فذروه في سنبله » .

الثانية : مرحلة استهلاك منظم يتوفر فيها عدالة التوزيع ودقته ، فلا يأتي الاستهلاك على كل المخزون . ويتمثل هذا في قوله تعالى « يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون » .

الثالثة : مرحلة اعادة الاستثمار ، وذلك بعد ارتفاع الفيضان ـ بعد قحط السنوات السبع ـ فتجد الارض البذور المدخرة ، فيزرع الناس ويحصدون ويعصرون .

ارتبط حساب الزمان هنا بالتخطيط والعدل ، كما ارتبط اغفال الزمان بالتسيب والظلم . وكان تعريف الزمان وتنكيره ، عاملا ساعد على ابراز الظاهرة الاجتماعية . ويبدو من هذا كيف تخدم الحقيقة التاريخية

هدف القصة في القرآن . وان تحديد الزمان فيه ، على اساس انتقائي ، مرتبط بالهدف وهو العبرة ، دون اقتصار على مجرد المعرفة . وفي خواتيم هذه السورة نقرأ الربط بين السرد والهدف في قوله تعالى :

« لقد كان من قصصهم عبرة لأولي الالباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (يوسف : ١١١) .

●●●

ثانيا : المكــان

(١) عندما شرح السيد محمد رشيد رضا قصة آدم في « تفسير المنار » قال عن المكان في القرآن :

« ولكون التاريخ غير مقصود له ، لأن مسائله من حيث هو تاريخ ، ليست من مهمات الدين ، من حيث هو دين ، وانما ينظر الدين من التاريخ الى وجه العبرة دون غيره ، لم يبين الزمان والمكان كما بينا في سفر التكوين »(٦) .

ويبدو ان هذا رأي رشيد رضا في الامكنة والازمنة التي لم يذكرها القرآن . اما ما ذكره من الامكنة والمواضع ، فله فيه رأي آخر . فعند دراسته سورة هود خصص بحثا لقصص القرآن ، جاء في مزاياه ـ في اعجازها العلمي ـ « ما في قصص الاقوام من المسائل التاريخية والموضعية »(٧) .

(٢) ويذهب محمد خلف الله في كتابه « الفن القصصي في القرآن الكريم » الى ان القرآن لم يقصد الى التاريخ الا في القليل النادر الذي لا حكم له ، وانه على العكس من ذلك ، عمد الى ابهام مقومات التاريخ من زمان ومكان . ومن هنا يتبين ان القوم قد عكسوا القضية حين شغلوا انفسهم بالبحث عن مقومات التاريخ ، وهي غير مقصودة ، واهملوا المقاصد الحقيقية للقصص القرآني(٨) .

(٣) وكان لعلماء الاسلام في شبه القارة الهندية الباكستانية موقف آخر ، فقد عنوا بالتاريخ الجغرافي للقرآن . واخرج العلامة سليمان الندوى في هذا كتابه « ارض القرآن » . واتخذه مظفر الدين الندوي اساسا لكتاب « التاريخ الجغرافي للقرآن » وعني فيه بالتحديد الزمني للنبوات ، وتحقيق الاعلام ،

(٦) السيد محمد رشيد رضا : تفسير المنار ١ : ٢٧٩ ط . المنار ١٣٤٧هـ / القاهرة .

(٧) تفسير المنار ١٢ : ٤٢ .

(٨) محمد احمد خلف الله : الفن القصصي في القرآن الكريم ص٩ . القاهرة ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ .

والصلات بين اسماء الاشخاص والشعوب التي يعرض لها ومواطنهم ، دون ان يربط تلك المواطن في اطار وحدة او نمط جغرافي[٩] .

ولكاتب هذه السطور وجهة نظر في مدى عناية القرآن الكريم بالمكان ، يلخصها فيما يلي[١٠] :

المسجد الحرام : مركز الخريطة .

أهم مكان يعني به القرآن الكريم هو المسجد الحرام . هو اول بيت وضع للناس . فيه آيات بينات مقام ابراهيم .. ومن دخله كان آمنا . وهو قبلة المسلمين في الصلاة . وإليه يحج المسلمون ، وتشد الرحال .

منطقة القلب :

هذا البيت هو مركز منطقة القلب في قصص القرآن والتاريخ الانساني ، التي ذكر الله فيها اكبر عدد من الاسماء متجمعة : البيت . مكة . مقام ابراهيم . الصفا . والمروة . عرفات . المشعر الحرام . وتضمها الآيات الثلاث الآتية :

١ - « ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم » (الانعام : ٩٢) فهذه ثلاثة .

٢ - « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما » (البقرة : ١٥٨) وهذان اثنان .

٣ - « فاذا افضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام » (البقرة : ١٩٨) فهذان اثنان بهما تمام السبعة .

هذا الى مكان جاء بصفته لا باسمه وهو الغار الذي اوى إليه الرسول في الهجرة النبوية (التوبة : ٤٠).

---

(٩)

SAYED MUZAFFAR UD— DIN NADVI:
A GEOGRAPHICAL HISTORY OF THE QUR'AN
SH. M. ASHRAF. LAHORE, PAKISTAN. REP. 1974

وهناك ابحاث اخرى عن التاريخ في القرآن والتفسير الاسلامي للتاريخ ، سنشير اليها في مواضعها من البحث .
وكتاب مظفر الدين الندوي - على ايجازه - من الكتب التي ينبغي قراءتها في هذا المجال .
كانت طبعته الأولى عام ١٩٣٦ مبنية على كتاب « ارض القرآن » لمولانا سليمان الندوي الذي صدر باللغة الاردية عام ١٩١٥ وهو يلخص المصادر المتصلة حتى ذلك التاريخ . ثم كانت الطبعة الثانية لكتاب مظفر الدين عام ١٩٦٥ ثم اعيدت عام ١٩٧٤ . وعنايته الرئيسية بجغرافية الجزيرة العربية ثم شعوب القرآن .

(١٠) عبد العزيز كامل : محاضرة عن « مدخل جغرافي الى قصص القرآن الكريم » القيت في قاعة الامام محمد عبده بالازهر الشريف عام ١٩٦١ ، وهي اساس الفصل الأول من كتاب عنوانه « في أرض القرآن » مع اضافات ميدانية تم بها الكتاب في الاردن عام ١٩٧٧ ، ١٩٨٠ . وسيصدر الكتاب - ان شاء الله - في سلسلة « عالم المعرفة » مطبوعات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - بالكويت

نطاق الغزوات :

وحول منطقة القلب هذه نطاق اوسع يمكن ان نسميه « نطاق الغزوات » جاءت فيه الاماكن الآتية :

١ ـ المدينة ، في قوله تعالى « ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب ان يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » (التوبة : ١٢٠) . ووردت باسم يثرب في سورة الاحزاب « يا اهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا » (آية ١٣) .

٢ ـ وخص الله غزوة بدر بثلاثة اماكن نقرؤ ها في قوله تعالى : « ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة » (آل عمران : ١٢٣) .

« اذ انتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب اسفل منكم » (الانفال : ٣٤) وهذه تقع جميعا الى شمال غرب منطقة القلب .

٣ ـ وجاء مكان آخر الى الجنوب الشرقي من مكة في قوله تعالى :

« لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا . . » (التوبة : ٢٥) .

فهنا نرى اتساعا في المساحة وقلة في عدد الاماكن المذكورة بأسمائها .

الدائرة الثالثة :

واذا اعتبرنا البيت الحرام او مكة مركز دائرة نصف قطرها نحو ١٢٠٠ كيلومترا وجدنا اليمن والعراق والشام ومصر تقع على محيط هذه الدائرة او قريبا منها . وفي نطاق هذه الدائرة او الحلقة الثالثة وقعت معظم احداث القصص القرآني .

١ ـ ومن المركز يمتد محور جنوبي الى اليمن وبه قصص عاد ونبيهم هود :

« واذكر أخا عاد اذ انذر قومه بالاحقاف » (الاحقاف : ٢١) وهي جبال الرمل باليمن . ويصف الله مواطنهم بالغنى .

وجاء في هذا المحور ذكر سبأ :

« لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال » (سبأ : ١٥) ولا زالت آثار السد والجنتين باقية .

٢ ـ ومن المركز يمتد محور شمالي ، يذكر فيه الله عدة اماكن متتابعة على طريق التجارة ، جاءت في سورة الحجر :

أ ـ قرى لوط في قوله تعالى « وجاء اهل المدينة يستبشرون » (الحجر : ٦٧) ثم وصفها بقوله « وانها بسبيل مقيم » (الحجر : ٧٦) . وهي المؤتفكات في قوله تعالى « والمؤتفكة اهوى » (النجم : ٥٣) .

ب ـ اصحاب الايكة في قوله تعالى « وان كان اصحاب الايكة لظالمين » (الحجر : ٧٨ ـ ٧٩) وهي مدين في قوله تعالى . « والى مدين اخاهم شعيبا » (الاعراف : ٨٥) .

جـ ـ ديار ثمود وهم اصحاب الحجر في قوله تعالى « ولقد كذب اصحاب الحجر المُرسلين ، وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ، فأخذتهم الصيحة مصبحين . (الشعراء : ١٤٦ ـ ١٥٠) .

وتضم هذه الاماكن قصص لوط وشعيب نبي مدين ، وصالح نبي ثمود .

فروع المحور الشمالي :

ويتفرع هذا المحور الشمالي الى ثلاث شعب :

أ ـ الأولى شمالية تصل بنا الى المسجد الاقصى في قوله تعالى :

« سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » (الاسراء : ١) .

وذكر الله ديار الروم في قوله تعالى :

« غُلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين . لله الامر من قبل ومن بعد » (الروم : ٢ ـ ٤)

ولم تصرح الآية بذكر قرية سورة يس وان قال بعض المفسرين انها انطاكية من بلاد الشام[١١] . ويتصل بالشام قصص ابراهيم وذريته .

ب ـ الثانية : شمالية شرقية : ويمكن ان نعتبرها امتدادا لقوس بلاد الشام الموصل الى العراق . واليها جاءت الاشارة في قوله تعالى :

« وما انزل على الملكين ببابل » (البقرة : ١٠٢) وتتصل بالعراق قصص نوح وابراهيم .

جـ ـ الثالثة شمالية غربية : الى مصر . وردت باسمها الصريح كما وردت سيناء :

« اليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي » (الزخرف : ٥١) .

« وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين » (المؤمنون : ٢٠) وترتبط بها قصص ادريس ـ في بعض الاقوال ـ وابراهيم . واسحق وبنيه . واسماعيل . ويوسف . وموسى . وعيسى . ومحمد في ليلة الاسراء وبولده ابراهيم من مارية القبطية .

---

(١١) الزمخشري : تفسير الكشاف : ٤/٨ ، الحلبي ، القاهرة ١٩٤٦ .

ما وراء الدائرة الثالثة :

وهناك قصص لم يذكر الله مكانها في القرآن وابرزها :

١ ـ مجموعة ما قبل الطوفان : وبخاصة قصة آدم .

٢ ـ مجموعة سورة الكهف وان كثرت فيها الاقوال . ويهمنا منها في هذه الدراسة انها تعطي الامتداد المكاني في التاريخ في قول الله تعالى « حتى اذا بلغ مغرب الشمس » (الكهف : ٨٦) .

« حتى اذا بلغ مطلع الشمس » (الكهف : ٩٠) .

ولا يصرفه التجوال عن مسئوليات محددة عليه ان يحملها :

« حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا » (الكهف : ٩٣) وهنا اقام معهم السد محكما قويا وشاركوا في العمل . وعندما رفعه واختبره قال :

« هذا رحمة من ربي » (الكهف : ٩٨) .

كما جاءت قصة موسى وصاحبه ، وقصة اصحاب الجنتين ، واصحاب الكهف ، وان تراوحت الآراء في مكان الكهف بين الاردن وآسيا الصغرى .

وصفوة القول في المكان :

ان مركز التاريخ الانساني كما يصوره القرآن هو البيت الحرام : اول بيت وضع للناس . وحوله منطقة القلب التي ترتبط بها شعائر العبادة الاساسية من الصلاة والحج : الوحدة والتوحيد ، والكسب الحلال للانفاق الحلال « وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » (ابراهيم : ٣٧) . وحولها دائرة الغزوات حيث يتمثل الدفاع عن العقيدة وحمايتها ، وتليها دائرة الاعتبار في القصص الممتد على المحورين الشمالي بفروعه والجنوبي ، ثم دائرة واسعة غير محدودة تمثل وجوب السير في الارض لمزيد من الاعتبار ، سيرا الى مطالع الشمس ومغاربها ، وعملا في مجال العقيدة والانشاء والتعمير ، والحصول على مزيد من العلم مع التواضع الدائم لله . وهي معان تمثلها جميعا قصص صورة الكهف دون ان تنفرد بها .

مقارنة :

ولم يكن من اهداف القرآن ان يستغرق الاماكن حصرا وتسجيلا . وانما اكتفى بان اورد لنا نمطا واضحا من الدراسة يتمثل في مركز ودوائر متتابعة في الاتساع ومحاور تربط بين القلب والاطراف ، ودعوة الى مزيد من الدراسة « قل سيروا في الارض فانظروا » (العنكبوت : ٢٠) وهي بدورها ممهدة لتطوير في المجتمعات وبناء افضل للتاريخ الانساني .

وأود هنا ان اذكر ما اتجهت اليه الدراسة التاريخية المعاصرة من نظرة عالمية وامتداد في المكان اثمرته سهولة المواصلات وزيادة الاحتكاك بين الشعوب وتيسر المزيد من البحوث التاريخية والاثرية ، وما يرتبط بها من وثائق كان النسيان قد طواها ، او عدا عليها الخراب او طمرتها الرمال .

وما يرتبط بهذا من دراسات ناقدة ، وعناية بالتطور العام ومقوماته الاجتماعية والاقتصادية ودور الشعوب والحضارات النائية او المنسية فيه[١٢] . كل اولئك مما يتسع له افق القرآن . بل ما يدعو اليه القرآن من البحث عن مزيد من المعرفة عبر الزمان والمكان والتنوع الموضوعي .

●●●

ثالثا : الأحــداث

المدى الزماني :

تعرض احداث القرآن لبدء الخلق :

« هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم » (البقرة : ٢٩)

كما تعرض حياتنا وتقلبنا فيها ، وتفاعل الانسان مع الانسان ومع الكون :

« هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » (الملك : ١٥) .

وتذكر نهاية هذه الحياة الدنيا وما وراءها من مشاهد القيامة والجزاء والحساب :

« يأيتها النفس المطمئنة . ارجعي الى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » (الفجر : ٢٧ ـ ٣٠) .

ومن المنطقي ـ وهذا هو المدى ـ ان تكون احداث التاريخ المذكورة في القرآن اختيارا لا حصرا ، دون ان تحدد ـ دائما ـ مراحل زمنية بالسنين والقرون ، الا حيث تقتضي العبرة شيئا من التحديد ، كما في قصة يوسف .

---

(١٢) في الاتجاهات الحديثة لكتابة التاريخ انظر :

GEOFFREY BARRACLOUGH: HISTORY

وهو الفصل الثالث من

UNESCO (1978) : MAIN TRENDS OF RESEARCH IN THE SOCIAL AND HUMAN SCIENCES:

القسم الثاني من المجلد الاول ابتداء من ص٢٢٧ ـ ١٨٧ وبخاصة (الاتجاهات المعاصرة) من ص٢٣٣ ، ويلخص في اهم الاتجاهات الحديثة : سرعة التقدم ، واتساع آفاقه ، اذا ما قورنت بالعصر السابق ، والانتقال الى الحضارات الآسيوية والافريقية ، ودور الشعوب في حركة التاريخ ، واثر البيئة العلمية والتقنية والعوامل الاجتماعية والاقتصادية

التنوع الموضوعي :

وتمثل احداث قصص القرآن قطاعات متكاملة من حياة المجتمعات وتبين مناشطها المتنوعة .

ومع ان قصص الانبياء ابرز ما في القرآن من تاريخ ، الا ان القصص القرآني تعددت فيه المحاور وزوايا الرؤية ، وابرز الى جوار الانبياء ، شخوصا قاموا بأدوار ايجابية في تأييد الرسالة ، وشخوصا قاوموا الحق وحاربوه .

واذا كانت هذه الدراسة تتناول « ابطال التاريخ » فيما تستقبل من اقسام ، الا ان الذي يعنينا ، في هذه المرحلة ، هو ابراز التنوع الموضوعي في القصص ، ومن امثلته : الاساس العقائدي في قصة ابراهيم ـ وان كان مشتركا بين الانبياء ـ ، الجانب الاقتصادي في قصة شعيب ، الصناعي في قصة داود ، القضائي في قصة سليمان ، التخطيطي في قصة يوسف ، التبشير والانذار في قصة يحى ، والاتجاه الروحي في قصة عيسى ، وقد جاء يوازن ايغال اليهود وغلوهم في المادية وحرفية النصوص والرسوم .

ثم تأتي الجهود المتكاملة في تكوين الفرد والاسرة والمجتمع والدولة ، مع الاستفادة من التراث الانساني السابق ، وبناء المستقبل ، في خاتم النبيين محمد عليه وعليهم جميعا الصلاة والسلام .

يقول الله تعالى :

« قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعا ، الذي له ملك السماوات والارض ، لا اله الا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » (الاعراف : ١٥٨) .

وتتوازى مع هذا المحور الاساسي في قصص الانبياء ، محاور فرعية لقصص بعضه ملحق بها ، وبعضه مستقل عنها ، كقصة ذي القرنين واصحاب الكهف وقصة الرجلين ولأحدهما جنتان ، وهذه كلها في سورة الكهف ، وقصة اصحاب الجنة في سورة القلم . وتتنوع الانشطة في هذه المحاور الفرعية ، كما تنوعت في قصص الانبياء : فتبدو متعددة الاهداف : في قصة ذي القرنين : عدلا وتشييدا ومشاركة في المشروعات ونشرا للدين . وتبدو دعوة الى التكافل والبذل في قصة اصحاب الجنة . وتبدو ايمانا بالله يعصم الانسان من الاغترار بماله ، والاستطالة به على الناس ، فهذه الاستطالة الظالمة باب من ابواب الشر وزوال النعمة ، كما في قضية صاحب الجنتين في سورة الكهف . وهي جميعا ـ كما في قصص الانبياء ـ مع تنوعها ـ تعود الى بناء الحياة على الايمان بالله والاخاء بين الناس ، وهو الهدف الأول للقرآن .

وحدة القصة ووحدة السورة :

وهناك خلاف اساسي بين نهج العهد القديم والجديد في عرض القصص ونهج القرآن :

يتبع العهد القديم السرد التاريخي التتابعي : يبدأ سفر التكوين بخلق السماوات والارض ، ثم خلق الانسان ، وقصة آدم وحواء والخطيئة ، ونزول آدم وزوجه الارض وتتابع ذريته . .

واذا ما سرد قصة لا يعود اليها . فالاسفار تترى في تسلسل تاريخي : بعد التكوين اسفار الخروج ، اللاويين ، العدد ، التثنية . وهذه الاسفار الخمسة تنتهي بموت موسى . ومن بعدها اسفار انبياء بني اسرائيل وملوكهم وقضاتهم .

اما العهد الجديد فالسرد فيه يتوازى : اربع روايات مختارة لحياة سيدنا عيسى كتبها من شهدوه او جاءوا بعده : متى ومرقس ولوقا ويوحنا ، ثم اعمال الرسل ورسائلهم ورؤ اهم .

منهج القرآن مختلف . فهو غير مسبوق ، ولم يتبعه المسلمون من بعد ، في كتابة السيرة النبوية ، او التاريخ الاسلامي ، او التاريخ العام .

فالقصة ترد احيانا اكثر من مرة وتبين الدراسة المستأنية انه لا تكرار ، وانما هو عرض لزوايا متعددة لقصة واحدة . ويرجع تعدد زوايا الرواية الى تعدد اهداف العرض التاريخي في القرآن كما توضحها الآيتان التاليتان :

يقول تعالى :

١ ـ « وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » (هود : ١٢٠) .

٢ ـ « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الالباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (يوسف : ١١١) والآية الأولى في خواتيم سورة هود ، وفيها تتعدد القصص ، والثانية ختام سورة يوسف وهي مخصصة لقصة برأسها .

نماذج لوحدة السورة :

واذا عرضت السورة من القرآن لمجموعة من القصص ، فانها تعرضها من زاوية رؤ ية اساسية تركز على هدف من اهداف القصص القرآني : وكأن السورة في ذاتها وحدة ، والقصة وحدة فيها ، لها اتساقها مع بقية القصص في ذات السورة ، واتساقها مع زوايا اخرى من القصة ذاتها في مواقع اخرى من القرآن .

١ ـ ولنبدأ بوحدة السورة ونأخذ « الذاريات » كنموذج :

القسم في مطلعها بالذاريات . والقصص المعروض ـ فيها بعد وصف الكافرين والمؤمنين ـ : ابراهيم ولوط وموسى وعاد وثمود ونوح . ثم ختام فيه اخذ شديد للكافرين وتثبيت للمؤمنين . والسورة ستون آية ، في نحو اربع صفحات . فالآيات قصيرة وبعض الآيات كلمتان : « والذاريات ذروا . فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا . . . » .

والبدء بالذاريات : الرياح ، فيه دلالة على سرعة ايقاع السورة . ومما يزيد من الاحساس بسرعة الايقاع ، قصر الآيات وسرعة الانتقال من معنى الى آخر ، ومن قضية الى اخرى ، بما يحمل الى النفس سرعة التبدل والتغير . وبعد آيات القسم تأتي آيات سريعة في وصف الكافرين :

« قتل الخراصون ، الذين في غمرة ساهون . يسألون أيان يوم الدين . يوم هم على النار يفتنون . ذوقوا فتنتكم ، هذا الذي كنتم به تستعجلون » (الذاريات : ١٥ - ١٦) .
حتى ختام هذا المقطع ، جاءت فيه كلمة « تستعجلون » متناسبة مع « الذاريات » و « الجاريات » .
ونحس بعد هذا هدوءا في الايقاع في المقطع الثاني في وصف المؤمنين ، وان ربط في سرعة بين العمل الدنيوي والجزاء الأخروي ، في تعاقب وتداخل :
« ان المتقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين » (الذاريات : ١٥ - ١٦) .

وبعد ان يصف مظاهر احسانهم من العبادة وبذل المال والتأمل في الانفس والآفاق - وهي مصادر معرفة وايمان - ينتقل الى قصة ابراهيم في سرعة تبدو حتى في حركته وهو يكرم ضيفه .
« فراغ الى اهله فجاء بعجل سمين ، فقربه اليهم قال : الا تأكلون » (٢٦ - ٢٧) ويبشرونه بغلام عليم . . وفي « عليم » دلالة على حياته - وصف فيه اختصار الزمن - وانه سيكون على علم . ثم يسأل عن خطبهم ، ويعلم انهم جاءوا لعذاب قوم لوط . وفي سرعة نقرأ قوله تعالى عن القرية الظالمة :

« قالوا انا ارسلنا الى قوم مجرمين . لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين . فاخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين . وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم » (٣٢ - ٣٧) . وانظر الى السرعة في الانتقال من حديثهم مع ابراهيم ، الى عذاب المسرفين ونجاة المؤمنين !

ولك ان تدرك سرعة الايقاع ، اذا نظرت الى تكثيف قصة موسى ، وكيف ان الهدف من العرض السريع واحد ، وهو سرعة اخذ ربك القرى وهي ظالمة وانتصاره لأوليائه :

« وفي موسى اذ ارسلناه الى فرعون بسلطان مبين ، فتولى بركنه وقال ساحر او مجنون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم » (٣٨ - ٤٠) .
وهكذا تتعاقب قصص عاد وثمود . حتى نوح ، تأتي قصته في آية واحدة « وقوم نوح من قبل انهم كانوا قوما فاسقين » (٤٦) .

ثم دعوة فيها نفس الايقاع للمؤمنين :
« ففروا الى الله اني لكم منه نذير مبين » (٥٠) . ويأتي في ختام السورة انذار مقابل للانذار الاول :
« فان للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب اصحابهم فلا يستعجلون . فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون » (٥٩ - ٦٠) .

حتى لفظ « يستعجلون » جاء في اولها وآخرها ، متناغما مع : الذاريات في سرعتها ، فراغ الى اهله ، ففروا الى الله . . وكأن وعد الآخرة حاضر يكاد يلمس باليدين ، ومن قبله انتصار الله لعباده ، وسرعة اخذه الطاغين .

٢ ـ ومن سورة الذاريات ننتقل الى سورة طه :

واذا كان محورها الاساسي قصة موسى مع مدخل يخاطب الله فيه رسوله ، وتعقيب بقصة آدم ثم خاتمة ، فانك تحس انها « مناجاة » بين الله ورسوله .

« طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى . الا تذكرة لمن يخشى » (١-٣) .

موسيقية السورة . الفواصل . اسلوب الخطاب، كأن يد الرحمة تمر على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وتملؤه سكينة .

والانتقال الى قصة موسى تحس فيه نفس المسار :

« وهل اتاك حديث موسى . اذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس او اجد على النار هدى » (٩-١٠) .

وتستطيع العودة الى السورة لتحس هذا التدرج مع الرسول في عرض القضية ، والترفق في عرض الرسالة : آنست نارا . قبس . هدى . .

« فلما اتاها نودي يا موسى اني انا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى ، وانا اخترتك فاستمع لما يوحى » (١١-١٣) .

وحتى الاستعداد للقاء فرعون ، ورحمة الله بموسى وهو يشد ازره بأخيه ، ويعطيه اكثر من معجزة : معجزة تنفصل عنه وهي العصا ، ومعجزة لا تنفصل وهي اليد . وتتوالى المشاهد ، وكلها تأييد ورعاية ، لتربط على قلب الرسول وهو في طريقه في ابلاغ رسالة ربه .

وفي قصة آدم تجد وضوح المغفرة والتوبة بعد الخطيئة كما تجده من قبل في رعاية الله له في الجنة :

« ان لك الا تجوع فيها ولا تعرى . وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى » (١١٨-١١٩) .

وبعد الخطيئة :

« وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » (١٢١-١٢٢) . ويتنزل آدم ومعه من الله ، بعد الهداية ، وعد بهداية ابنائه :

« قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو . فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى » (١٢٣) .

وفي ختام السورة انذار للكافرين وبشرى للمهتدين . ويتكرر لفظ هدى في آخرها كما جاء في اوائلها وسياقها :

« قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من اصحاب الصراط السوي ومن اهتدى » (١٣٥) .

٣ ـ تعرض زاوية ثالثة من سورة القصص :

في المطلع جلال ورهبة وتصوير معسكرين ، في ايقاع جليل تكاد ان تسمع فيه مسار الجيش وانين المستضعفين ، وطول الصراع بين الايمان والطغيان :

« طسم . تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . ان فرعون علا في الارض وجعل اهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح ابناءهم ، ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين . ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » . (١-٦) .

ومع بروز اطراف الصراع واهدافه ، نتساءل عن القائد الذي سيدير هذا الصراع امام فرعون . اين هو ؟ ما عمره ؟ وما كفاءته ؟ فاذا بك تقرأ في الآية التالية مباشرة :

« وأوحينا الى ام موسى ان ارضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني ، انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » (٧) وتسير القصة وتجد فيها تفاصيل تربية موسى وكيف رعته امرأة فرعون ، وكيف انقذه ناصح امين من قوم فرعون ويقضي سنوات في اهل مدين ، ثم يكلمه الله في سيناء ويبدأ مرحلة جديدة من الصراع بينه وبين الملأ من قوم فرعون . هذا البسط في القصة يتبعه قول الله مخاطبا رسوله :

« ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما اهلكنا القرون الاولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون . وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين . ولكنا انشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر . وما كنت ثاويا في اهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين » (٤٣ ـ ٤٥) .

ان كلمات : القرون الاولى . تطاول عليهم العمر . . تحمل الى نفس السامع والقارىء طول الصراع بين الايمان والجحود .

وترد في السورة بعد هذا ، قصة قارون وقد كان من قوم موسى فبغى عليهم ، لتبين ان الحق لم يكن مرتبطا بقوم ولا عرق : فمن قوم موسى البغاة ، ومن قوم فرعون المؤمنون « من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها » (الاسراء : ١٥) .

ويأتي ختام السورة محصلة للصراع فيها :

« ولا تدع مع الله إلها آخر . لا إله إلا هو . كل شيء هالك الا وجهه . له الحكم واليه ترجعون » (٨٨) .

هذه نماذج تبين التركيز على زوايا ثلاث من اهداف القصص القرآني :

١ ـ انتصار الله للمؤمنين من الكافرين : في سورة الذاريات .

٢ ـ الربط على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين : في سورة طه .
٣ ـ شدة الصراع بين الايمان والكفر : في سورة القصص .

وهناك اهداف ومناهج اخرى غير هذه ، ولكن المقصود ـ في هذه المرحلة ـ بيان تعدد زوايا الرؤ ية في عرض الاحداث ، ومع تعدد هذه الزوايا تسقط قضية التكرار ليحل محلها التكامل . وان هناك وحدة في القصة ، ووحدة في السورة مع تعدد القصص فيها[١٣] وهو منهج تفرد به القرآن الكريم في عرض الأحداث .

●●●

رابعا : الأشخاص والابطال :

أسماء الاسفار والسور :

أطلق الطبري على كتابه اسم « تاريخ الرسل والملوك » ، ومن قبل نقرأ في العهد القديم : اسفار « الملوك » و « القضاة » ، واسفارا تحمل اسماء انبياء بني اسرائيل ، وتحمل الاناجيل الاربعة اسماء كاتبيها : متى . ومرقس . ولوقا . ويوحنا . اما اعمال الرسل فيحمل كل منها اسم صاحبها مع اشارة الى المكان الذي وجهت اليه الرسالة او قيلت فيه .

وبمراجعة فهرس سور القرآن الكريم نرى تنوعا كبيرا في اسمائها له دلالاته وقد يكون للسورة اسم واحد وهو كثير ، وقد يكون لها اسمان فأكثر من ذلك[١٤] . كالفاتحة وهي ام الكتاب . وسورة براءة وهي التوبة . وسورة غافر وهي المؤمن[١٥] . وقد ثبتت اسماء السور بالتوقيف من الاحاديث والاثار وتتمثل في **هذا التنوع الآفاق الآتية :**

أولا : عالم الغيب وارتباطه بعالم الشهادة :

١ ـ اسماء الله الحسنى وصفاته : فاطر . غافر . الرحمن .
٢ ـ اسماء الانبياء وصفاتهم ومعجزاتهم وآلهم : آل عمران . يونس . هود . يوسف . ابراهيم . مريم . لقمان . محمد . الاسراء . المزمل . المدثر .

---

(١٣) في العرض العام للقصة كوحدة ، انظر :
ـ عبد الوهاب النجار : قصص الانبياء . ط . الحلبي القاهرة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م .
ـ وفي عرض الوحدة الفنية للسورة وزوايا الرؤية . انظر : محمد احمد خلف الله : الفن القصصي في القرآن الكريم
ـ وفي مناقشة العلاقة بين الجانبين الفني والصدق التاريخي . انظر : عبد الكريم الخطيب : القصص القرآني . في منطوقه ومفهومه من ص٢٩٧ الى ص٣٣٩ . دار الفكر العربي . القاهرة . ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م .
ـ وفي ترتيب القرآن وتناسب سوره : السيوطي : تناسق الدرر في تناسب السور . وقد نشره عبد القادر عطا باسم « اسرار ترتيب القرآن » مع مقدمة طويلة وتحقيق . دار الاعتصام . القاهرة . ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م .
(١٤) السيوطي : الاتقان ١ ـ ٥٦ .
(١٥) نفس المرجع ١ : ٥٤ .

٣ ـ الكتب التي انزلها الله : الفرقان .
٤ ـ الملائكة : الصافات .
بعبارة اخرى : الخالق . الرسل . الكتب . الملائكة .

ثانيا : الكون والارض :

٥ ـ ظاهرات فلكية وجوية : البروج . النجم . القمر . النور . الرعد . الذاريات .
٦ ـ الزمان واجزاؤه : العصر . الفجر . الفلق . الضحى . الليل .
٧ ـ الارض واجزاؤها : الحجر (ديار ثمود) . الاحقاف (ديار عاد) . الطور (في سيناء) . الكهف .
٨ ـ الصخور والمعادن : الحديد .

ثالثا : الحياة النباتية والحيوانية :

٩ ـ البقرة . الانعام . النمل . العنكبوت . النحل . الفيل . التين .

رابعا : الحياة الانسانية

١٠ ـ خلق وحياة الانسان : العلق . الانسان . الناس .
١١ ـ المدن والتجمعات الانسانية : البلد . قريش . سبأ . الروم .

خامسا : العقيدة والعبادات والمعاملات :

١٢ ـ العقيدة والعبادات : المؤمنون . السجدة . الاخلاص .
١٣ ـ المعاملات ونظام الأسرة والاخلاق : النساء . المنافقون . المطففين . التحريم . الطلاق . المجادلة .

سادسا : الجهاد والشئون الدولية :

١٤ ـ الانفال . براءة . الفتح . العاديات . النصر .

سابعا : في الآخرة والجزاء :

١٥ ـ الاعراف . الجاثية . الواقعة . التغابن . القيامة . النبأ . التكوير . الانفطار . الانشقاق . الغاشية . الزلزلة . القارعة .

ففي اسماء السور شمول يتلاءم مع نظرة القرآن الكلية لأمر الوجود . النظرة التي تضم المبدأ والمعاد . والانسان والكون ، ومناشط الحياة الانسانية ، ويتحدث فيها القرآن عما دق من الخلق كالنمل ، كما يتحدث عما عظم كالسماء ذات البروج ومواقع النجوم .

تكامل النماذج :

وتنعكس هذه النظرة على شخوص التاريخ في القرآن وابطاله . فالقرآن ليس مجرد تاريخ انبياء ولا تاريخ ملوك . من الانبياء من اغفل القرآن ذكره « منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك »

(غافر : ٧٨) وعنايته بالملوك والحكام محدودة : نماذج اعطاها تبين مشاهد من الحكم ، هي لمن بعدهم عظة وذكرى .

وشخوص القرآن مجموعة بشرية متكاملة بحيث كانت مصادر للالهام وأسوة للناس مصداقا لقوله تعالى فيما قص على رسوله من الانبياء « اولئك الذى هدى الله فبهداهم اقتده » (الأنعام : ٩٠) . واذا كان المصطفى ـ وهو رحمة الله المهداة وخاتم النبيين ـ يدعوه ربه الى الاهتداء بمن سبق من الانبياء ، فما احرانا ان نطيل الوقوف عند هذه النماذج الانسانية ، ومن ارتبط بقصصهم . او جاهد على فترة منهم .

العمر :

في الانبياء نجد نماذج متكاملة من الاعمار : طفولة عيسى ، وشباب ابراهيم ، وكهولة محمد ، ثم شيخوخة ابراهيم ونوح . ويقابل هذا من النساء : طفولة مريم وشبابها ونضج امرأة فرعون وايمانها ، ثم زوج ابراهيم وقد تقدمت بها السن « قالت يا ويلتي أألد وانا عجوز وهذا بعلي شيخا ، ان هذا لشيء عجيب » (هود : ٧٢) .

المؤمن في اسرته :

ونقرأ نماذج متعددة من الأسر وموقع المؤمن فيها : نجد الابن المؤمن والأب الكافر في قصة ابراهيم . والأب المؤمن والابن الكافر في قصة نوح . والزوج الصالح والزوجة غير الصالحة في قصة نوح ايضا . والزوجة المؤمنة والزوج الكافر في قصة امرأة فرعون . والأب الصالح وقد توزع ابناؤه بين الصلاح والحسد والأحقاد كيوسف واخوته ، حتى أكرم الله الجميع بالتوبة وجمع الشمل .

رحمة الله :

ونرى في القصص القرآني رحمة الله وقد ادركت رضيعا لا يدرك من امره شيئا :

« وأوحينا الى أم موسى ان ارضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني . انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » (القصص : ٧) .

وشابا وقف وحيدا يدافع عن الحق « قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم » (الانبياء : ٦٠) . ثم كان من قومه ان : « قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين . قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم » (الأنبياء : ٦٨ ـ ٦٩) .

وتدرك شيخا كبيرا امضى السنين داعيا الى الله فلم يستجب له الا القليل . يقول الله تعالى عن نوح :

« فكذبوه فأنجيناه والذين آمنوا معه في الفلك واغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمين » (الاعراف : ٦٤) .

وقد تدرك الرحمة وحيدا كيونس عندما التقمه الحوت ثم نبذه في العراء . او جمعا محصورا بين الماء والعدو :

« فلما تراءى الجمعان قال اصحاب موسى : انا لمدركون . قال : كلا ، ان معي ربي سيهدين » (الشعراء : ٦١ - ٦٢) .

وقد تكون النجاة برا ، كما في هجرة المصطفى من مكة الى المدينة ؛ أوبحرا كما في قصة نوح والسفين .

الانتصار وعلاقته بحياة القائد :

وقد يرى القائد النصر بعينه كما في حياة المصطفى :

« اذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا » (النصر ١ - ٣) .

وقد يعيش عمره مجاهدا ولا يشهد وراءه الا القليل من المؤمنين . وفي قصص موسى وعيسى عبرة . يقول الله على لسان موسى :

« قال : رب اني لا املك الا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال : فانها محرمة عليهم اربعين سنة يتيهون في الارض فلا تأس على القوم الفاسقين (المائدة : ٢٥ - ٢٦) .

الاختبار :

وقد يختبر الله الانسان في صحته وماله كما في قصة أيوب . وفي الهجرة من وطنه وهي قدر اكثر من نبي ورسول . وقد تنهى حياته بأن يموت شهيدا كما في قصة يحيى . وقد يلقى في السجن كيوسف . وقد يختبره الله باقبال الدنيا كسليمان « قال : هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر ام اكفر » (النمل : ٤٠) .

وقد يبتلى بأن يصد عنه قومه ويرموه بالجنون والسحر والكهانة والكذب . وقد لقى الرسول هذا كله واحتمله ، ونقى القرآن الكريم هذا كله ، وسجل الصراع الشديد وصبر الرسول والمؤمنين معه . يقول تعالى « أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ الا ان نصر الله قريب » (البقرة : ٢١٤) .

النصر :

ومع هذه الاختبارات يسجل القرآن الكريم النصر للايمان والمؤمنين « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد » (غافر : ٥١) ويعتبر هذا وعدا إلهيا « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » (الروم : ٤٧) . هذا اذا اخذوا بأسباب النصر من مادية ومعنوية . وربطوا بين العقيدة والسلوك . وبغير هذا لا ينطبق عليهم تعريف الايمان كما وضحه الرسول (ﷺ) في حديثه الشريف :

عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت يا رسول الله ، قل لي في الاسلام قولا لا أسأل عنه احدا بعدك . قال قل : آمنت بالله ثم استقم . اخرجه مسلم .

قصة الاب الاول : نقطة البدء في التاريخ الانساني :

وكل انسان يشعر بارتباطه بالأب الاول ومنه يبدأ التاريخ الانساني في القرآن :

« يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والارحام ، إن الله كان عليكم رقيبا » (النساء : ١) .

والقرآن يخاطبنا بقوله :

« يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما اخرج ابويكم من الجنة (الاعراف : ٢٧) .

وفي سفر التكوين نقرأ قصة آدم بعد خلق السماوات والارض ، ونقرؤها في مطالع سورة البقرة ، بعد الفاتحة ، وبيان صنوف الناس : المؤمن والكافر والمنافق ، ودعوة الله الناس جميعا الى عبادته .

ولكن في القصة جانبا يحتاج من دارس التاريخ الى وقفة . فهنا نقطة البدء : التي يلتقي فيها عرض القرآن بالعهد القديم في جوانب ، ويختلفان في جوانب جوهرية :

الاتفاق في أب اول وأم أولى ، وفي كرامة البدء ، ثم في تعرض الابوين للاختيار .

ولكن نقطة الخلاف الجوهرية في « التوبة » : ان الله سبحانه وتعالى تاب على آدم وغفر له ذنبه :

« فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم » (البقرة : ٣٧) .

« وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » (طه : ١٢١ ـ ١٢٢)

جاءت التوبة فيما نزل من القرآن بمكة في سورة طه ، وما نزل في المدينة في سورة البقرة .

كانت عند آدم وزوجه حرية الاختيار . وكانت تجربته الأولى نجاحا : عندما علمه ربه الاسماء ، ثم امره ان يخبر بها الملائكة ، فقام بأمر الله . ما ضل ولا نسى .

« وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا : سبحانك ، لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العزيز الحكيم . قال : يا آدم انبئهم باسمائهم ، فلما انبأهم باسمائهم قال : الم اقل لكم اني اعلم غيب السماوات والارض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » (البقرة : ٣١ ـ ٣٣) .

وجاءت بعد هذا حرية الاختيار . . وهي التجربة الثانية :

« فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من وقال سوآتهما . وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور » (الاعراف ٢٠ ـ ٢٢) .

وكانت التجربة صراعا بين الطموح بكل مغرياته ، وبين صريح أمر الله . كانت تجربة أولى في حرية الاختيار ، تاب منها آدم وقبل الله توبته ، وتلقى من الله كلماته ، وجعله خليفته في الأرض . وهو نبيٌّ مكرم . هذا بعد ان كفل له في الجنة امورا هي حاجات الانسان الاساسية .

« ان لك الا تجوع فيها ولا تعرى ، وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى » (طه : ١١٨ ـ ١١٩)
والجوع ذل الباطن ، والعرى ذل الظاهر ، والظمأ حر الباطن ، والضحيان (وهو البروز للشمس) حر الظاهر ، كما يقول الامام ابن كثير[١٦] . ولكن امتد طموح آدم الى ما وراء ذلك : الملائكية والخلود ، فوق ما كرمه الله به من العلم .

فحياة آدم في الجنة كانت مدرسة ومرحلة تجارب . اما الخلافة عن الله فهي في الارض .
« واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة (البقرة : ٣٠) .
التدريب هناك . والعمل هنا . والحساب هنا وهناك . وثمرة العمل يبدو بعضها في الدنيا ، وبعضها في الآخرة .
« من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (النحل : ٩٧) .
ويأتي الانسان الى هذه الدنيا بصحيفة بيضاء ليست فيها خطيئة سابقة . فتوبة الله على آدم سبقت ، وكلمات الله تهديه الطريق . لا لعنة . لا عقوبة . لا عداوة بين الرجل والمرأة . ولا بين الانسان والارض . ولا بين الانسان والحيوان . وهذه الصورة القرآنية تخالف ما يصوره الاصحاح الثالث من سفر التكوين .

الانسان والارض :
والانسان ابن هذه الارض :
« والله انبتكم من الارض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الارض بساطا . لتسلكوا منها سبلا فجاجا » (نوح ١٧ ـ ٢٠) .
ويدعونا الله الى السير فيها :
« هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها ، وكلوا من رزقه واليه النشور » (الملك : ١٥) .

تتابع الرسل :
ويأتي الرسول بعد الرسول . وكل واحد منهم يقاوم فسادا في المجتمع . ويحاول ان يعيد الناس الى التوحيد والاستقامة . والقرآن يعتبرهم جميعا نسقا واحدا مهما تباعدت بينهم الاماكن والازمان . يقول الله تعالى بعد ان قص علينا من أنباء الرسل ، من ابراهيم الى عيسى :

---

(١٦) تفسير ابن كثير : ٤ : ٥٤٢ ط . الاندلس ، بيروت .

« ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون . وتقطعوا امرهم بينهم كل الينا راجعون . فمن يعمل من الصالحات وهومؤمن فلا كفران لسعيه وانا له لكاتبون » (الانبياء ٩٢ ـ ٩٣) .
ويأتي ختام سورة الأنبياء وصفا لمشاهده الآخرة والجزاء ، مطابقا لأوائلها « اقترب للناس حسابهم » ثم اشارة الى بدء الخلق ، وآيات الله الداعية الى الايمان ، وعمران الحياة بالعمل الصالح .

فقصص الانبياء ـ بكل اجمال ـ تصوير متكامل لبناء الحياة : توحيداً لله ونبذا لعبادة الاصنام والشهوات ، وعدلاً بين الناس ، واجتنابا للظلم ، وصبرا كريما على الاذى ، وعونا للضعيف ، وشجاعة في كلمة الحق . .

خاتم النبيين :

واذا كانت حياة كل نبي قد تميزت بميزة او عدد من المميزات التي برزت اكثر من غيرها ، كالصبر عند ايوب ، وقوة الحجة عند شعيب ، ومقاومة الكفر والظلم بالحلم والكلمة الطيبة والمعجزة عند عيسى . فان حياة المصطفى عليه الصلاة والسلام جاءت جامعة لجوانب الجهاد باوسع مدلولاته : بالقلب واللسان واليد وتكوين الفرد والمجتمع والدولة ، والدفاع عنها داخليا ضد المؤامرات والنفاق ، وخارجيا بالنشاط السياسي والعسكري ، مع العناية بالبناء الاخلاقي والاجتماعي والاقتصادي . جاءت هذه الحياة تجمع ما في حياة الانبياء السابقين ، كما يقول مولانا سليمان الندوي ، لتكون حياة النبي الخاتم[١٧] .

عصمة الانبياء وبشريتهم :

ويدور قصص الانبياء في القرآن في اطار من العصمة التي يتمثل فيها جانبان : بشرية الرسول واتباعه لأوامر الله :

« قل انما انا بشر مثلكم يوحى اليّ أنما الهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاولا يشرك بعبادة ربه احدا » (الكهف : ١١٠)
ويؤكد القرآن بشرية الرسل في اكثر من موضع من كتابه :
« وما ارسلنا من قبلك المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق » (الفرقان : ٢٠)
ويصدق عليهم قانون الموت والحياة :
« انك ميت وانهم ميتون » (الزمر : ٣٠)

---

(١٧) سليمان الندوي : الرسالة المحمدية : وهي ثماني محاضرات في السيرة النبوية ورسالة الاسلام ، القاها في مدراس بالهند (١٣٤٤ هـ) من ص١٣٦ ـ ١٣٧ ، ص١٤٤ ـ ١٥١ تحت عنوان : ما اعطى الله الرسل جميعا اعطى الله ازواجه محمد (ﷺ) وحده ، محاضرات بين النبي (ﷺ) والانبياء ، مدرسة محمد (ﷺ) كانت جامعة للطوائف والامم ، مكتبة الفتح ، دمشق ، ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م .

وقوله تعالى : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات او قتل انقلبتهم على اعقابكم » (آل عمران : ١٤٤) .

وهم جميعا عباد الله ، خلقهم من تراب :

« ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » (آل عمران : ٥٩)

والله اصطفاهم :

« ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض . والله سميع عليم » (آل عمران : ٣٣ - ٣٤) .

وفي اطار هذه العصمة النبوية البشرية ، تتحرك احداث قصص الانبياء في القرآن .

وفي هذا تخالف عن جانب مما نسبته اسفار العهد القديم الى الانبياء ، ومن نماذج ذلك قصص لوط وداود وسليمان ، وما فيها من امور تتعلق بالسلوك الشخصي والاخلاقي وحرمة الجار والرضا بعبادة الاوثان في بيوت الانبياء[١٨] .

الابطال المجهولون :

ومما تفرد به القرآن عنايته بالابطال المجهولين في التاريخ . ولك ان تعود الى تاريخ الطبرى « تاريخ الرسل والملوك » ، والى اسفار الملوك والقضاة في العهد القديم ، والى قصص الابطال في الملاحم القديمة .

ويخصص القرآن لبعض الابطال المجهولين عددا من الآيات ، وتفاصيل من الحوار واشادة بالمواقف ، ويسلط عليهم من الاضواء اكثر مما يسلط على بعض الانبياء .

وقد حاول بعض المؤرخين والباحثين تقصي اخبار هؤلاء الابطال المجهولين : اين عاشوا ؟ اسماؤهم ؟ ومن كانوا على عهده من الملوك ؟ وانتهت الاجتهادات ببعضهم الى آراء ، كما في دراسة مولانا ابو الكلام ازاد عن ذى القرنين[١٩] وقد جاءت في سورة الكهف . وكذلك الدراسات المتعلقة

(١٨) انظر . د . بطرس عبد الملك وآخرون : قاموس الكتاب المقدس . بيروت ١٩٦٤ (ويعقب على خطايا داود بقوله : ومع ان داود ارتكب في بعض الاحيان خطايا يندى لها الجبين خجلا ، الا انه انما نظرنا الى نسبة التقدم الروحي الحقيقية التي كانت سائدة في ذلك العصر لرأينا في هذا شيئا انما يخفف شيء الى حد ما) ص٣٦٦ . ومن ذلك خطيئته في حق اوريا الحثي (١ ملوك ١٥ : ٥) وخطيئة لوط (تكوين ١٩ : ٣٠ - ٣٨) ومع انها جاءت صريحا في سفر التكوين الا ان قاموس الكتاب المقدس عندما عرض لها قال : وتحت تأثير المسكر ارتكب لوط خطيئة الزنى مع من حرم عليه الزواج منهن (م ص٨٢٤) واستحى الكاتب ان يذكر النص صريحا . اما القرآن الكريم فيجعل عصمة الانبياء وطهرهم والايمان بهم جزءا من العقيدة ، « لا نفرق بين احد من رسله » (البقرة : ٢٨٥) .

(١٩) مولانا ابو الكلام ازاد : شخصية ذي القرنين ، المذكورة في القرآن . مجلة ثقافة الهند ص٢٢ . سبتمبر ١٩٥٠ . دلهي الجديدة الهند .

باصحاب الكهف ، ولا زالت هذه القصة مصدر الهام لكثير من الكتاب شرقا وغربا[٢٠] ولكن الذى يعنينا من هذا كله ، ونود ان نقف عنده ، ان القرآن الكريم يتجاوز في هذه المجموعة من القصص بعض عناصر التحديد من الاسماء والاماكن والازمنة ، وان تباين هذا التجاوز من قصة الى اخرى . واكثر نماذج الابطال المجهولين تفصيلا في القرآن هي « مؤمن آل فرعون » .

وتبدأ قصته من قوله تعالى :

« وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه اتقتلون رجلا ان يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم . وان يك كاذبا فعليه كذبه . وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم . ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب » (غافر : ٢٨) .

الى قوله تعالى :

« فستذكرون ما اقول لكم . وافوض امرى الى الله . ان الله بصير بالعباد . فوقاه الله سيئات ما مكروا . وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ، ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون اشد العذاب » (٤٤ ـ ٤٦) .

ثم يذكر ربنا بعد ختام القصة ومشاهد القيامة ، قاعدة وثيقة الصلة بكل داع الى الله :

« انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم . ولهم اللعنة ولهم سوء الدار » (٥١ ـ ٥٢) .

والقصة مما تفرد به القرآن . وهي درس في الدفاع عن الحق والدعوة اليه . لجأ فيها المؤمن الى تذكير قومه بالآخرة ، ثم ذكرهم بقوم نوح وعاد وثمود ، وربط جحودهم بما حدث من آبائهم بعد وفاة يوسف « حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا » وكيف وقف المؤمن يعارض فرعون وهو يأمر وزيره هامان ان يبني له صرحا يبلغ به اسباب السماوات ليطلع الى اله موسى . ثم دعا قوم فرعون الى اتباع

---

(٢٠) تراجع التعليقات والشروح على قصة اهل الكهف وذي القرنين في الترجمة الانجليزية لمعاني القرآن والشروح التاريخية والجغرافية في :

MAULANA ABDUL MAJID DARYABADI:
THE HOLY QURAN, VOL.1 PP. 276 —286.
TAG COMPANY. KARACHI, PAKISTAN, 1971

وهو يذكر المراجع التي استند اليها في ترجيح وجهة نظره في الاشخاص والاماكن.
وانظر ايضا وجهة نظر اخرى في :
ـ رفيق وفا الدجاني : اكتشاف اهل الكهف ، منشورات مؤسسة المعارف . بيروت ١٩٦٤ . ويذهب الى ان الكهف القريب من عمان عاصمة الاردن ، مع مخالفة الرأي القائل بأنه قرب افسوس في آسيا الصغرى (عبد المجيد [illegible] (١٩٧١) المرجع السابق ١ : [illegible]) وان كان القرآن يوجه عنايته اساسا الى العبرة الاخلاقية من القصة دون تحديد الاشخاص ، الا حيث تقتضي العبرة ذكرهم .

الحق . وصرح الرجل بإيمانه بعد ان كان يكتمه ، وحذر قومه مغبة سيئات ما مكروا . ونجى الله المؤمن وحاق بآل فرعون سوء العذاب .

ونقرأ في سورة يس قصة مؤمن دافع عن رسل عيسى الى مدينته :
« وجاء من اقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم اجرا وهم مهتدون (يس : ٢٠ ـ ٢١)

وفي سورة الكهف اكثر من قصة : اصحاب الكهف . قصة صاحب الجنّتين الذى اغتربما عنده ، ويأتي صاحبه المؤمن يبصره بالرشد ويحذره مغبة الجحود ، وقصة العبد الصالح الذى تعلم منه موسى . ثم اخيرا قصة ذى القرنين .

ومع ان المدار الرئيسي لهذه القصص جميعا هو الايمان بالله تعالى ، الا ان مناشط هؤلاء الابطال في المجتمع متنوعة ، وتمثل الحرف الرئيسية زراعة وصناعة وتشييدا .

وهذه البطولات المجهولة ممتدة ولا تزال تظهر في نصرة الحق . يقول الله تعالى :
« من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه . فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » (الاحزاب : ٢٣) .

وجزاء الله لكل عامل من هؤلاء قائم :
« فاستجاب لهم ربهم انى لااضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى بعضكم من بعض . فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم واوذوا في سبيلى وقاتلوا وقُتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الانهار ثوابا من عند الله . والله عنده حسن الثواب » (آل عمران : ١٩٥) .

والآيات دعوة الى متابعة المسيرة في بناء الحياة على الخير وعمرانها بالعمل الصالح وهي تنير السبيل امام بطولات جديدة دون ان تقصرها على مواقع محددة من المجتمع .

وصفوة القول ان البطولة في القرآن لا تقتصر على الانبياء ، وان كان لهم فيه النصيب الأوفى ، ولا تقف كثيرا عند الملوك ، وانما تمتد مظلتها لتشمل الابطال المجهولين والجموع المؤمنة .

واذا كانت العناية قد زادت في الاتجاهات التاريخية المعاصرة بحركات الشعوب والجماعات الانسانية ، وفيها الكثير من البطولات المجهولة . فان قطاعات التاريخ التى عرضها القرآن الكريم تضم هذا جميعا وتتسع له .

●●●

القسم الثاني

مناهج التفسير

بين التسجيل والتفسير :

يبدو التأثر بالقرآن الكريم في مناهج كبار مؤرخي الاسلام . وسأذكر نموذجين أساسيين :

الاول : الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠هـ) في كتابه « تاريخ الرسل والملوك » .

والثاني : ابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨هـ) في مقدمة تاريخه .

وكانت عناية الطبري موجهة اساسا الى تسجيل الوقائع التاريخية ، ونسبة كل رواية الى صاحبها . فتاريخ الطبري « كتاب رواية » يقول في مقدمته :

« وليعلم الناظر في كتابنا هذا ان اعتمادي في كل ما احضرت ذكره فيه ، مما شرطت اني راسمه فيه ، انما هو على ما رويت من الاخبار التي انا ذاكرها فيه ، والآثار التي انا مسندها الى رواتها فيه ، دون ما ادرك بحجج العقول ، واستنبط بفكر النفوس ، الا اليسير القليل منه ، اذ كان العلم بما كان من اخبار الماضين ، وما هو كائن من انباء الحادثين ، غير واصل الى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم ، الا باخبار المخبرين ونقل الناقلين ، دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس . فما يكن في كتابي هذا من خبر يستنكره قارئه او يستشنعه سامعه ، من اجل انه لم يعرف له وجها من الصحة ، ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم انه لم يؤت في ذلك من قبلنا ، وانما أتي من قبل بعض ناقله الينا ، وأنا انما ادينا ذلك على نحو ما أدي الينا »[21]

ويستوقفنا من هذا النص كيف كرر فيه الطبري اقتصاره على المروي ، « دون ما أدرك بحجج العقول ، واستنبط بفكر النفوس » ، وان جهده كان التحري في امانة النقل وهي مسئوليته . اما المتن نفسه ومضمون الخبر فعهدته على ناقله اليه ، وان كان فيه ما يستنكره القارىء .

أما ابن خلدون فكان له موقف ايجابي في نقد المتن ، ثم خطوة اوسع في قراءة التاريخ . ولنذكر ان ابن خلدون عاش في القرن الثامن الهجري ومطالع التاسع ، بينما كانت حياة الطبري في القرن الثالث ومطالع الرابع ، وان ابن خلدون عاش التاريخ دراسة وممارسة ، واحتك بالحكم ، ودخل معاركه ، في حياة عريضة ، جعلت له موقف الناقد لما يقرأ ، والمحاول الوصول الى قواعد العمران البشري فيما مارس وما قرأ ، وان ظل كتاب الطبري المورد الاساسي لكل مؤرخ فهو « اوفى عمل تاريخي بين مصنفات العرب ،

(٢١) ابن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١ / ٧ ، ط المعارف ، القاهرة .

اقامه على منهج مرسوم ، وساقه في طريق استقرائي شامل : بلغت فيه الرواية مبلغا من الثقة والامانة والاتقان . اكمل به ما قام به المؤرخون قبله ، كاليعقوبي ، والبلاذري ، والواقدي ، وابن سعد ، ومهدً السبيل لمن جاء بعده كالمسعودي ، وابن مسكويه ، وابن الأثير ، وابن خلدون » [٢٢] .

وتعريف ابن خلدون للتاريخ يحدد موقفه منه :

« فان فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والاجيال ، وتشدّ اليه الركائب والرحال . اذ هو في ظاهره لا يزيد على اخبار عن الايام والدول ، والسوابق من القرون الأُول . ويؤدي الينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الاحوال . وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق » [٢٣] .

فمنهج ابن خلدون : معرفة الاخبار وتحقيقها وتعليلها . وهو يدافع عن اضافة التحقيق الى معرفة الاخبار فيقول :

« ان فحول المؤرخين في الاسلام قد استوعبوا اخبار الايام وجمعوها . وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها او ابتدعوها ، واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها وادوها الينا كما سمعوها ، ولم يلاحظوا اسباب الوقائع والاحوال ولم يراعوها ، ولا رفضوا ترهات الأحداث ولا دفعوها . . فالتحقيق قليل » [٢٤] .

ويمثل ابن خلدون بهذا مرحلة جديدة ، لا تقف عند ابعاد مرحلة الطبري مع علو شأنه . وهو يذكر هؤلاء الاسلاف بالاسم ويذكر منهجهم ، ثم من جاءوا بعدهم فعنوا بالتواريخ الخاصة ، بعد ان كانت عناية الاسلاف بالتواريخ العامة . ومن بعد هؤلاء جاء عصر التقليد . ودعاه هذا الى ان يضع كتابه :

« فأنشأت في التاريخ كتابا ، رفعت به عن احوال من الاجيال حجابا ، وفصلته في الاخبار والاعتبار بابا بابا ، وابديت فيه لأولية الدول والعمران عللا واسبابا ، وبنيته على اخبار الامم الذين عمروا المغرب . . وهم العرب والبربر . . فهذبت مناحيه . . وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا . . وشرحت فيه من احوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الانساني في العوارض الذاتية ، ما يمتعك بعلل الكوائن واسبابها » [٢٥] .

وتبدو عبقرية ابن خلدون في دراسته الاجتماع الانساني وشئون العمران ، وهي البحوث التي يطلق عليها الآن اسم « علم الاجتماع » . وقد وقف على هذه البحوث مقدمة مؤلفه في التاريخ . والى هذه

---

(٢٢) نفس المرجع : من مقدمة محمد ابو الفضل ابراهيم لتحقيق تاريخ الطبري ١ : ٢١ .
(٢٣) مقدمة ابن خلدون بتحقيق علي عبد الواحد وافي ١ : ٢٠٩-٢٠٦ ط . البيان العربي . القاهرة ١٩٥٧ .
(٢٤) نفس المكان .
(٢٥) نفس المرجع ١ : ٢١٢-٢١٣ .

الناحية ترجع اهم اسباب شهرته وتخليد اسمه بين قادة الفكر في العالم ، فقد تمخضت بحوثه هذه عن علم جديد لم يسبق اليه . . [٣٦]

عندنا - اذن - دائرتان اساسيتان متداخلتان يتحرك فيهما المؤرخون المسلمون :

اولا : الخبر واختياره وتحقيقه .

ثانيا : التفسير والربط ومحاولة استخراج القوانين

ولا تكاد تخرج حركة المؤرخين عنهما . فلننظر الى مراكز هاتين الدائرتين في القرآن الكريم ، ونرى كيف تحرك مؤرخونا من المراكز على خطوط تأخذ في الطول ، وتتسع - مع طولها - محيطات دوائر العمل ، وان ظلت امينة الارتباط بمراكز الدوائر .

●●●

أولا - الخبر واختياره وتحقيقه

تعبير القرآن عن التاريخ : اكثر من تعبير يستخدمه القرآن للخبر : القصص . الأنباء . البلاغ . الذكر . الحديث . وقد يأتي التعبير مجردا او موصوفا :

« نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن » . (يوسف : ٣)

« وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » . (هود : ٢٠)

- « هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو إله واحد وليذّكر أولو الألباب » (ابراهيم : ٥٢)

- « وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » . (الزخرف : ٤٤)

- « واذكر اخا عاد اذ انذر قومه بالاحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه الا تعبدوا الا الله اني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم » . (الاحقاف : ٢١)

- « الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » . (الزمر : ٢٣)

على ان هناك صفة حرص القرآن على نفيها عنه ، وهي انه اساطير الاولين . وهي التي حاول مشركو قريش وصف القرآن بها ، وقد وردت فيه تسع مرات ، كلها منسوبة الى الكفار والمشركين . من ذلك قوله تعالى عنهم :

- « حتى اذا جاءوا يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا اساطير الاولين » . (الانعام : ٢٥)

---

(٣٦) نفس المرجع . مقدمة المحقق ١ : ٥٥ .

بينما ترد اشتقاقات اخرى من مادة سطر ، مقبولة ، مثل قوله تعالى : « ن . والقلم وما يسطرون » (القلم : ١) « والطور وكتاب مسطور » (الطور : ١ - ٢) و « كان ذلك في الكتاب مسطورا » (الاسراء : ٥٨ ، الاحزاب : ٦) .

والاساطير - لغة - تنصرف الى الاباطيل والاحاديث العجيبة[٢٧] . وبهذا ينفي القرآن عن نفسه ما عرفت به الاساطير من صفات ، مؤكدا انه الحق والصدق :

- « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » . (الكهف : ١٣)

ومن هذا « الحق » و « الصدق » في القول ينبع كل صدق في العمل التاريخي ، وأوله صدق الرواية . وتبدو هذه اروع ما تبدو في المحافظة على القرآن ذاته :

فهو « كلام الله » : « وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه » (التوبة : ٦)

وهو للناس هدى ونور وحياة :

« وكذلك اوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدي الى صراط مستقيم » (الشورى : ٥٢)

توثيق خبر السماء : وقصة كتابة القرآن من عهد النبي عليه الصلاة والسلام آية آية ، وترتيبه بأمر الرسول ، كما يأمره الوحي ، وجمعه ، وحفظه مجموعا ، ثم جمع المسلمين على مصحف جامع ، والصحابة الذين قاموا بهذه المسئوليات جميعا ، فردا فردا ، والجهود العلمية التي اتبعوها . كل اولئك يمثل قصة غير مسبوقة ولا ملحوقة في حفظ الكتاب الأكبر لأي دين من الاديان . والقرآن - في الاسلام - هو المصدر الأعلى للتاريخ .

كان الصحابة يسيرون الى هذه الغاية في نور من قوله تعالى « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (الحجر : ٩) فكانوا ادوات العناية الألهية في حفظ كتاب الله . ثم هو الكتاب الاكبر لدين ، يستطيع المؤمنون به ، حتى من سن الطفولة وصدر الشباب ، ان يحفظوه جميعا في الصدور .

في القرآن : الكلام وحي ، والترتيب وحي . ولقد كان القرآن يتزل على الرسول مرتبطا بالحوادث وتطور الدعوة . فاذا قام كتاب الوحي بكتابة ما يتزل من القرآن امرهم الرسول قائلا : ضعوها بعد آية كذا ، او بعد سورة كذا . ويحدد لهم موضعها .

ولما كان نزول القرآن مستمرا في حياة الرسول ، كان موضع كل آية يتحدد مع نزولها ، دون ارتباط بالترتيب التاريخي او طول السور . [٢٨]

(٢٧) لسان العرب : مادة سطر . والاساطير الاباطيل . يقال : سطر فلان على فلان اذا زخرف له الاقاويل ونمقها .
(٢٨) السيوطي : الاتقان ١ : ٦٢ .

ويتقل « دراز » نصوصا من اقوال المستشرقين الذين عنوا بهذا الامر :

- فعن (لوبلوا) في كتاب « القرآن والتوراة العبرية : « من الذي لم يتمنّ لو ان احدا من تلاميذ عيسى الذين عاصروه قام بتدوين تعاليمه بعد وفاته مباشرة » . وقوله « ان القرآن هو اليوم الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه أى تغيير يذكر » .

- وعن (نولدكه) قوله عن النص القرآني « انه احسن صورة من الكمال والمطابقة » . [٢٩]

فالمدرسة الاولى في الاسلام وفي تحقيق النص « هي المحافظة على نص القرآن الكريم » . ينطبق هذا على التاريخ كما ينطبق على غيره من العلوم النقلية والعقلية .

توثيق الحديث الشريف : وصاحبت هذا ثم ازدهرت مدرسة المحافظة على حديث النبي عليه الصلاة والسلام وكانت هذه معركة علمية ثانية . معركة بكل معاني الكلمة ، اقتضت ظهور علوم جديدة لم تكن معروفة من قبل ، ابرزها علم الرجال . وهو مجموعة من العلوم انفردت بها الحضارة الاسلامية في توثيق مصادرها ، وافادت منها في معالجة تاريخها وعلومها .

وما من شخص ارتبط بالحديث الشريف - من قريب او بعيد - الا تتبع علماء الرجال حياته وثقافته ورحلته : ممن اخذ العلم ؟ وأين ومتى التقى كلا منهم ؟ مستواه في الحفظ والضبط . ثبات هذا المستوى او اضطرابه . ما سبب الاضطراب ؟ ضعف صحة ؟ ميل الى فئة أو نحلة ؟ ثم تتبع سلاسل السند التي ينقل عبرها الحديث ، ثم نقدها ، ونقد المتن نفسه . آفاق من المعرفة تفردت بها الحضارة الاسلامية ، وأعطت تحقيق النص وتوثيقه مكانته في عالم الاخلاق والعلم :

- « ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا إعدلوا هو اقرب للتقوى » (المائدة : ٨)

ومن دقة علمائنا ان العدالة لا تتوفر الا باجتماع امور كثيرة . اما الجرح فيثبت بشيء واحد . اي بقول شخص واحد ، لأن الجرح مقدم على التعديل ، فمن وثقه اشخاص ولكن طعن فيه شخص واحد ، قدم الجرح (اي الطعن) على التعديل (اى على شهادة الاشخاص الذين وثقوا هذا الراوي) وعليه تستبعد روايته [٣٠] .

وجاءت اعمال مؤرخي الاسلام في ظل هذا الاخلاص بدءا بمعرفة الخبر وتحقيق النص والأمانة في النقل . يقول عليه الصلاة والسلام :

« نضّر الله عبدا سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها . فرب حامل فقه غير فقيه . ورب حامل فقه الى

(٢٩) محمد عبد الله دراز : مدخل الى القرآن الكريم . الفصل الثاني : كيف جمع نص التنزيل المحكم . ويذكر في هذا الفصل اقوال المستشرقين في توثيق القرآن ص٣٩ - ٤٠ . ط . دار القلم - الكويت ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

(٣٠) مصطفى السباعي : السنة ومكانتها في التشريع . ويبين في الفصل الثالث ص٩٠ - ١٠٢ جهود العلماء في مقاومة حركة الوضع . والفصل الرابع في ثمار هذه الجهود ص١٠٣ - ١٣٣ مع عناية بعلوم الحديث يلخص فيها ما ذكره الامام النووي في كتابه « التقريب » ط . المكتب الاسلامي بدمشق وبيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

من هو افقه منه . ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : اخلاص العمل لله ، والنصيحة للمسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فان دعوتهم تحيط من ورائهم » (الشافعي عن ابن مسعود) [٣١] .

وكذلك ارتبط حفظ احاديث الرسول بتسجيلها :

فعن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال :

« كنت اكتب كل شيء سمعته من رسول الله (ﷺ) فنهتني قريش . وقالوا : تكتب كل شيء ورسول الله (ﷺ) بشر يتكلم في الرضا والغضب ؟ فأمسكت عن الكتاب حتى ذكرت ذلك لرسول الله (ﷺ) . فأومأ باصبعه الى فيه وقال : اكتب . فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه الا حقا » (اخرجه ابو داود) [٣٢] .

وعن ابي هريرة (رض) قال :

« شكا رجل من الانصار الى رسول الله (ﷺ) فقال : يا رسول الله اني لأسمع منك الحديث فيعجبني ولا احفظه . فقال (ﷺ) : استعن بيمينك وأومأ الى الخط » (اخرجه الترمذي) [٣٣] .

تحقيق الخبر في تاريخ العقيدة والانبياء : حدد القرآن موقفه من تاريخ العقيدة والانبياء ـ كما جاء في الكتب او العقائد السابقة ـ بثلاثة امور :

الاول : تحرير العقيدة : فهي التوحيد الخالص :

ـ « الله لا اله الا هو الحي القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وانزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس ، وانزل الفرقان » (آل عمران ٢ ـ ٣) .

وبهذا ينفي القرآن تأليه ، غير الله او بنوته ، سواء كان هذا الغير : وثنا او ظاهرة طبيعية او انسانا .

ثانيا : تبرئة الانبياء والصالحين من تهم باطلة . من ذلك قول الله دفاعا عن طهارة مريم ابنة عمران :

« وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما » (النساء : ١٥٦) .

ثالثا : ان القرآن نزل « مهيمنا » على ما جاء في الكتب السابقة : يقول الله تعالى :

« وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق . لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا . ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة . ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات . الى الله مرجعكم جميعا ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » (المائدة : ٤٨) .

والقرآن لا يكتفي بتسجيل الحق فيما يقول ، وانما يلجأ الى البرهان العقلي ، وبرهان الفطرة ، ويدعو الناس الى التأمل فيما يسوقه من الادلة . من ذلك قوله تعالى عن التوحيد وهو يقرره :

---

(٣١) التبريزي : مشكاة المصابيح ١ : ٧٨ حديث رقم ٢٢٨ . ط . المكتب الاسلامي ـ دمشق ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦١م .

(٣٢) ابن الديبع الشيباني : تيسير الوصول ٣ : ٢٠٥ ط . الحلبي . القاهرة ـ ١٩٧٠م .

(٣٣) نفس المكان .

ـ « ام اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون . لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا . فسبحان الله رب العرش عما يصفون » (الأنبياء : ٢١ ـ ٢٢) .

فتعدد الآلهة يقتضي تعدد الآراء والاحكام ومحاولة بعضهم السيطرة على بعض :

ـ « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله . اذا لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون » (المؤمنون : ٩١ ـ ٩٢) .

وهنا نجد ربطا بين تحقيق الخبر كحقيقة تاريخية ، وإثباته بالدليل العقلي ، وتحريره من اى تحريف دخل على بساطة العقيدة وسلامتها .

الآفاق المفتوحة وسنن التاريخ : واذا كان الوحي هو المصدر الأعلى للمعرفة حقا ومنهجا ، فان القرآن يدعو الناس الى آفاق مفتوحة بلا حدود ـ الا حدود قدراتهم ـ ليكونوا اقدر على القيام بمهمتهم التي رسمها لهم وهي : خلافة الله في ارضه .

وهو يدعو الناس الى فتح آفاق النفس والكون والسعي في هذه الارض بحثا عن حقائق وحضارات سبقت ، ومجالات من العلم تنتظر جهود الانسان .

فمعرفة الانسان دائرة او دوائر آخذة في الاتساع ، وسط مجالات لا نعرف لها حدودا ، هي علم الله . وفي هذا نقرأ قوله تعالى :

ـ « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » (الكهف : ١٠٩) .

والانسان ـ كل انسان ـ مدعو بالامر الألهي الاول « اقرأ » وبالدعاء الذي علّمه الله رسولَه « وقل رب زدني علما » (طه : ١١٤) الى السير في هذه الارض طلبا لمزيد من المعرفة :

ـ « قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشىء النشأة الآخرة . ان الله على شيء قدير » (العنكبوت : ٢٠)

ويقول تعالى :

ـ « اولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم . وكانوا اشد منهم قوة . وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الارض . انه كان عليما قديرا » (فاطر : ٤٤) .

« وعاقبة الذين من قبلهم » صميم الدراسة التاريخية . و « عاقبة » ربط بين سبب ونتيجة ، لا مجرد رصد لواقع تاريخي .

هذه العاقبة تحدث اذا توفرت مقدماتها . وهذا الترابط هو « سنن » او قوانين الحياة . وفي هذا يقول الله :

ـ « قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » (آل عمران : ١٣٧ ـ ١٣٨) .

فحركة التاريخ بصريح القرآن سنن وقوانين .

الفطرة والنفس : ولو تأملنا في قول الله تعالى :

ـ « فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيِّم ولكن اكثر الناس لايعلمون » (الروم : ٣٠) .

وربطناها بآيات « سنة الله » كقوله تعالى :

ـ « سنة من قد ارسلنا قبلك من الرسل ولا تجد لسنتنا تحويلا » (الاسراء : ٧٧) .

ـ « فهل ينظرون إلا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » (فاطر : ٤٣) .

حين نربط بين هذه الآيات المتعلقة بسنة الله ، وفطرة الله ، وجدنا الفطرة هي السنن الالهية التي تقوم عليها الحياة . والناس هم مادة التاريخ . ونفي التبديل والتحويل يبين قواعد تسير عليها الحياة . وامام الانسان اختيارات بين هذه السنن ، كقواعد الرياضة ، يختار القاعدة ، فاذا توفرت مقدماتها ، جاءت نتيجتها تابعة لها .

وتصف الآية الكريمة ، الاسلام ـ دين القرآن ـ بأنه الفطرة التي فطر الله عليها الناس . وان السنن التي اوردها الله فيه ، هي الاصلح لمسار الحياة الانسانية ، وبالتالي لتصوير التاريخ . وسنصل الى هذا في الجزء التطبيقي والاخير من هذه الدراسة .

ولكن الذي يعنينا الآن ، ان عرض القرآن للقطاع الانساني التاريخي السابق ، والمعاصر للاسلام ، يقوم على « فطرة » و « سنن » و « قوانين » [٣٤] . فالتاريخ في الاسلام ليس تدفقا عشوائيا ولا سلسلة من الأنيات المتتابعة غير المترابطة .

سؤال اهل العلم : ويضيف القرآن الى الوحي والرحلة في الآفاق والتاريخ ، سؤال اهل الذكر ، كمصدر من مصادر المعرفة في عمومها ، والتاريخ جزء منها : يقول تعالى :

ـ « وما ارسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم فاسألو اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ، بالبينات والزبر . وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون » (النحل : ٤٣ ـ ٤٤) .

●●●

(٣٤) محمد احمد الغمراوي : الاسلام في عصر العلم ص/ ٠٩ ويدرس في هذا الفصل الاول : الاسلام والفطرة . ط . دار الانسان . القاهرة . ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م .

ثانيا : نقد الخبر وتعليلـه :

خطوة ابن خلدون : في تحقيق متن الخبر تبدو الخطوة التي خطاها ابن خلدون بالتاريخ الاسلامي ، وهو فيها مستند ايضا الى القرآن الكريم ، وفي مقدمته يضرب ـ اولا ـ مثالا من العهد القديم عن عدد الذين كانوا مع موسى في الخروج . . . ولندع ابن خلدون يبين طريقته :

« وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع ، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا وسمينا ، لم يعرضوها على اصولها ولا قاسوها على اشباهها ، فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط . . وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المؤرخين في جيوش بني اسرائيل ، وان موسى عليه السلام احصاهم في التيه ، بعد ان اجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها ، فكانوا ستمائة الف او يزيدون . ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعهما لمثل هذا العدد من الجيوش . . لكل مملكة من الممالك حصة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها ، وتضيق عما فوقها ، تشهد بذلك العوائد المعروفة والاحوال المألوفة »[٣٥] .

وينقد ابن خلدون هذا الخبر عن طريقة المقارنة بملك الفرس ودولتهم وامتدادها « ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريبا منه »[٣٦] . ثم نقدها على اساس من ان العدد لو كان مقبولا لكان حجم الدولة كبيرا « فان العمالات والممالك في الدول على نسبة الحامية والقبيل القائمين بها في قلتها وكثرتها »[٣٧] . ثم نقدها على اساس من معدلات التكاثر الطبيعية لبني اسرائيل ما بين موسى واسرائيل وهم اربعة آباء ، ويبعد ان يتشعب النسل في اربعة اجيال الى مثل هذا العدد »[٣٨] .

وينتقل بعد هذا الى نقد اخبار عن التابعة ملوك اليمن ، وجيوش المسلمين والنصارى . وينقد ما يتناقله المفسرون في تفسير قوله تعالى « الم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد » (الفجر : ٦-٧) فيجعلون لفظ ارم اسما لمدينة وصفت بأنها ذات عماد اي اساطين وانها مدينة قصورها من الذهب . . ذكر ذلك الطبري والثعالبي والزمخشري .

وينقد ابن خلدون هذه القصة بأن هذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الارض ، وصحارى عدن التي زعموا انها بنيت فيها هي في وسط اليمن ، وما زال عمرانه متعاقبا ، والادلاء تقص طرقه من كل وجه . . وقد ينتهي الهذيان ببعضهم الى انها غائبة وانما يعثر عليها اهل الرياضة والسحر ، مزاعم كلها اشبه بالخرافات »[٣٩] .

---

(٣٥) مقدمة ابن خلدون ١ : ٢٢٠ .

(٣٦) نفس المكان .

(٣٧) نفس المرجع ١ : ٢٢١ .

(٣٨) نفس المكان .

(٣٩) نفس المرجع ١ : ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

ثم يحاول بعد هذا ان يعلل ذهاب الاخباريين هذه المذاهب والوقوف على تلك الحكايات التي هي اقرب الى الكذب ، المنقولة في عداد المضحكات ، ثم لا يزيد في القول عن العماد بأنها عماد الاخبية بل الخيام .

ومن تفسير القرآن ينتقل الى نقد الحكايات المدخولة في التاريخ الاسلامي كقصة العباسة اخت الرشيد مع جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي . .

وتستطيع ان تجد سندا لكل من الطبري وابن خلدون ، او على الاصح ، لكل من المنهجين ـ من القرآن الكريم .

الجهد الاكبر لمدرسة الطبري تحقيق الرواية . وهذا حق يتقبله ابن خلدون ، ويخطو بعده الى تحقيق الخبر في ذاته ووزنه بميزان العقل على اسس من الدراسة المقارنة ـ كما رأينا في عدد بني اسرائيل ـ او من مصادمة الواقع كما في ارم ذات العماد ، او من مصادمتها للاعراف كما في قصة العباسة . .

والقرآن يدعونا الى الخطين معا : تحقيق الرواية ، وتحقيق الموضوع او المتن ، يقول تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم . ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا » (الاسراء : ٣٦) .

ولو كان الامر مقتصرا على « تجميع » المادة العلمية لكان السمع والبصر يكفي ، وهي الابواب الاساسية للاتصال بالعالم الخارجي . ولكن « الفؤاد » هنا يفيد عملا داخليا يضم القبول العقلي والنفسي للمادة المجموعة . القبول بعد العرض على اضواء النقد الخارجي والداخلي .

القرآن وتفسير التاريخ : ارتبطت محاولات تفسير التاريخ ـ اكثر ما ارتبطت ـ باتخاذ محور اساسي تقوم عليه نظرية متكاملة . وتعود المحاور ـ في الاغلب ـ الى التخصص او الاهتمام الرئيسي لصاحب النظرية .

اقول نظرية : لانها جميعا تلتقي عند « اختيارات » من التاريخ ، يقيم منها صاحبها هيكلا عقليا ، يحاول به ان يفسر التاريخ العام . وهو بحر تصب فيه الاحداث جميعا ، يصفو احيانا ، وتشتد عواصفه وتثور امواجه في حركة لا تتوقف .

واحتلت الصدارة عند اصحاب فلسفة التاريخ عوامل متعددة : البطولة والابطال . العوامل الجغرافية . الابتكار والتقليد . العوامل والانساق الاجتماعية . العوامل الاقتصادية . ودخل عامل

« الحركة » في نظام دوري او متجدد : كما نجد عند ابن خلدون و « شبنجلر » و « هيجل » و « كارل ماركس » ثم عند « ارنولد توينبي »[٤٠] .

والذين درسوا تفسير التاريخ من الكتاب المسلمين عنوا بالدراسة المقارنة بين بعض هذه النظريات والفلسفات وبين آيات من القرآن الكريم . وامامي عند اعداد هذه الدراسة ثلاثة كتب :

١ ـ المفهوم القرآني للتاريخ : مظهر الدين صديقي (١٩٦٥) . عني فيه بدراسة القرآن وتغيرات التاريخ ومفاهيم التاريخ في العهد القديم والجديد والقرآن . وتعليقات على ما ذكر القرآن من التاريخ العربي القديم ، والتاريخ اليهودي والمسيحي ، ويختم الكتاب بدراسة مقارنة عن المفهوم القرآني للتاريخ مقارنا بفلسفات التاريخ الحديثة[٤١] .

٢ ـ تفسير التاريخ : عبد الحميد صديقي (١٩٨٠) . كان الكتاب في صورته الاولى مقالات ، كل منها مستقل بنفسه ، وان جمعتها وجهة نظر واحدة . وتضم بحوث الكتاب : النظرة الاحيائية للتاريخ . فلسفة هيجل للتاريخ . الفكرة المادية عن التاريخ . التفسير الاسلامي للتاريخ . الخاتمة[٤٢] .

واذا كان الكتاب الاول قد عني بالتتابع التاريخي وانتهى بالفلسفات المعاصرة ، فان الثاني عرض اهم الاتجاهات المعاصرة لينتهي الى التفسير الاسلامي للتاريخ كما يتصوره .

٣ ـ التفسير الاسلامي للتاريخ : عماد الدين خليل (١٩٧٨) . وفصول الكتاب بعد المقدمة : التفاسير الوضعية الاساسية : عرض ونقد . الواقعة التاريخية . المسألة الحضارية . سقوط الدول والحضارا :

وفي التفاسير الوضعية عرض التفسير المثالي عند « هيجل »، والمادي عند « ماركس » و « انجلز »، والحضاري عند « توينبي » (التحدي والاستجابة) والذين نقدوا « توينبي » مثل « سوروكن ». وفي

---

(٤٠) تراجع في الدراسة المقارنة لهذه العوامل : الفصول الخمسة الاولى من الجزء الأول من قصة الحضارة لـ (ويل ديورانت) وفيها يدرس (١) احوال الحضارة (٢) والعوامل الاقتصادية (٣) والسياسية (٤) والاخلاقية (٥) والعقلية .

WILL DURANDT: THE STORY OF CIVILISATION., PART 1
OUR ORIENTAL HERITAGE, CHAP. 1— 5 PP1 — 89
SIMON & SCHUSTER, NEW YORK, 1954.

والكتاب ترجمة عربية نشرتها الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية بالقاهرة .

(٤١)

MAZHERUDDIN SIDDIQI: THE QURANIC CONCENT OF HISTORY

مظهر الدين صديقي : المفهوم القرآني للتاريخ .

ISLAMIC RESEARCH INSTITUTE, PAKISTAN.
DISTRIBUTED BY OXFORD UNIV. PRESS, 1965.

(٤٢) عبد الحميد صديقي : تفسير التاريخ . ترجمة كاظم الجوادي دار القلم ـ الكويت ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .

الواقعة التاريخية درس مساحتها ومداها الزماني والمكاني ، والفعل الالهي المباشر وغير المباشر ، وفي المسألة الحضارية درس التركيب الثنائي في الكون (الصراع . التناقض . التقابل . الخير والشر) وفي الفصل الاخير عن سقوط الدول والحضارات ، درس مظاهر وآثار الاختلال السياسي والاداري والاقتصادي ، وان الاسلام يقيم الحياة على التوازن[٤٣] .

وسبقت هذه المجموعة من الكتب دراسات عنيت ـ في بعض فصولها ـ في جمع وتحقيق المعلومات : ومن ابرزها « مصطلح التاريخ » لأسد رستم[٤٤] . و « منهج البحث التاريخي » لحسن عثمان[٤٥] .

وأعود فأقول : انني لا احاول صياغة نظرية شاملة اسلامية او قرآنية في تفسير التاريخ ، وافضل ان اقول مع مظهر الدين صديقي : ان القرآن لا يقدم لنا فلسفة كاملة الصياغة ، ولكن به معطيات محددة ، بغيرها لا نستطيع ان نتصور التاريخ في وضوح .

هذا الى ان المفهوم الحديث لفلسفة التاريخ ، يقتضي ان التاريخ تحكمه قوانين نوعية تخضع لها كل المجتمعات على سواء . وهي نقطة خلافية . بعض الكتاب يشك في امر هذه القوانين ، وفي قضية التكرار في التاريخ . .[٤٦] ولكنا هنا لسنا بصدد عرض هذه الاتجاهات ، وانما نحاول ان نفهم ما في القرآن من امر « الفطرة » و « السنن » بمفهومها القرآني دراسة وتحليلا .

ولقد ادرك الصحابة ـ من اول الامر ـ الترابط الوثيق بين الفكرة والعمل ، او بين دراسة التاريخ وصناعة التاريخ ، وكان القرآن هو الكتاب الذي يعقد المؤمنون آياته وهو يتنزل . واستطاعوا ان يكونوا جماعته في مكة ، ثم مجتمعه ودولته في المدينة ، قبل ان يكتمل نزوله . وكانت حياة المسلمين تصويرا حيا لما يصنعه القرآن في نفوسهم .

عن ابن مسعود ، قال :
كان الرجل منا اذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن[٤٧] .

●●●

---

(٤٣) عماد الدين خليل : التفسير الاسلامي للتاريخ . دار العلم للملايين ، بيروت [illegible]م
(٤٤) اسد رستم : مصطلح التاريخ . المكتبة العصرية . صيدا ، بيروت [illegible]م . (وهو اول كتاب [illegible]) .

(٤٥) حسن عثمان : منهج البحث التاريخي . ط [illegible] . دار المعارف . القاهرة ١٩٧٠ . [illegible]
(٤٦) مظهر الدين صديقي (١٩٦٨) ص١٩٥ .
(٤٧) تفسير الطبري [illegible] .

القسم الثالث

صناعة التاريخ

أقصد بصناعة التاريخ تطبيقه ، وذلك بالاستفادة من اوامر الله ونواهيه وسننه التي دعا الناس الى الاعتبار بها ، وصياغتها حياة جديدة .

التوحيد والوحدة : واول ما دعا القرآن الناس اليه : توحيد الله والاخاء الانساني في ظل المودة دون استعلاء عنصري او طبقي ، والعمل الصالح في هذه الحياة ، والايمان بالجزاء . وان هذا ما جاء به الانبياء من قبل . فدين الله واحد . والاسلام ـ بمفهومه الشامل ـ يضم الديانات والانبياء جميعا . ـ « ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون » (سورة الانبياء : ٩٢) .

ولكن هناك مباينة واضحة بين الاسلام وما سبقه من الانبياء في اثبات النبوة :

طبيعة معجزة القرآن : ولقد وضح النبي صلى الله عليه وسلم هذه المفارقة في حديثه الشريف : ـ « ما من الانبياء من نبي الا قد اعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وانما كان الذي اوتيت وحيا اوحى الله الي ، فأرجو ان اكون اكثرهم تابعا يوم القيامة » (رواه مسلم عن ابي هريرة)[٤٨] .

فالقرآن ـ من هذه الزاوية ، مفارقة لمعجزات الانبياء السابقين جميعا . والاعجاز فيه ، بآية واحدة او عشر آيات او به جميعا . وهو في نفس الوقت ـ مفارق لكلام البشر . ولم يؤثر عن فصحاء العرب ـ مع علو مكانتهم وكبريائهم وشدة التنافس بينهم ـ ان حاول احدهم معارضة القرآن الكريم ، رغم انهم شنوا الحروب على قاعدة الاسلام . ادعوا انه سحر يؤثر (المدثر : ٢٤) وقالوا : اساطير الاولين ، اكتتبها فهي تملى عليه بكرة واصيلا (الفرقان : ٥) دون ان يقوم منهم من يقول : هذا قولي اعارض به القرآن .

ولقد ذهبت معجزات الانبياء الاخرى وطواها التاريخ : عصا موسى . ناقة صالح . حمار العزير . البحر الذي انشق امام موسى . النار التي همدت عند القاء ابراهيم فيها . طوفان نوح . . واصحاب الكتب

---

(٤٨) مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري ، حديث رقم ١٩ ص١٣ . تحقيق محمد ناصر الدين الالباني . ط . وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية . الكويت . ١٣٨٨هـ ، ١٩٦٩م .

السابقة ما اصابها ، ويقي المنسوب الى الانبياء فيها ـ بشهادة اهلها ـ اجزاء من كتاب اكبر . فهي كتب تاريخ دين ، او تاريخ انبياء ، وليست النص الذي انزله الله(٤٩) .

وانتهى عهد المعجزات الكونية : والحقيقة الكبرى وراء هذا كله ، هو انتهاء عهد المعجزات الكونية . واقوى شاهد على حدوثها ما اثبته القرآن الكريم من عصمة الانبياء وطهارتهم ، وما اجراه الله على ايديهم من معجزات كانت الوسيلة الى اقناع الاقوام او الاسلوب الذي اخذ الله به الكافرين ، كالخسف والاغراق والصواعق .

والله تعالى يقول في كتابه :

ـ « وما منعنا ان نرسل بالآيات الا ان كذب بها الأولون » (الاسراء : ٦٩) .

وعندما تحدى مشركو قريش النبي صلى الله عليه وسلم ان يأتي بالمعجزات الكونية كالانبياء السابقين ، سجل الله هذا الحوار في كتابه :

ـ « وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا . او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجّر الانهار خلالها تفجيرا . او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تأتي بالله والملائكة قبيلا . او يكون لك بيت من زخرف ، او ترقى في السماء . ولن نؤمن لرقيك حتى تنزلّ علينا كتابا نقرؤه . قل : سبحان ربي ، هل كنت الا بشرا رسولا » (الاسراء : ٩٠-٩٣) .

واذا كان الله قد ايد رسوله ببعض المعجزات كتكثير الطعام بين يديه ـ وقد حدث هذا مع انبياء سابقين وجاء فيما حفظته كتبهم ـ الا ان هذه لم تكن المعجزة الكبرى في الاسلام ، ولم تكن مجال التحدي بين الرسول وقومه .

واذا كان العهد النبوي قد جمع بين المعجزة الاساسية وهي القرآن ، وبعض المعجزات الكونية ، فقد ذهبت هذه المعجزات مع التاريخ ، كما ذهبت معجزات الانبياء السابقين وبقي القرآن وحدة معجزة غير

---

(٤٩) يقول قاموس الكتاب المقدس (١٩٦٤) عن نص الكتاب المقدس :

« . . الا انه لم يصل الينا بعد شيء من النسخ الاصلية التي كتبها هؤلاء الملهمون او كتابهم . وكل ما وصل الينا نسخ مأخوذة عن هذا الاصل . واقدم النسخ من مخطوطات العهد القديم في اللغة العبرية هي التي وجدت في وادي قمران قرب البحر الميت ويرجع تاريخ بعض هذه المخطوطات الى القرن الثالث قبل الميلاد . واقدم مخطوطات من العهد القديم بجملته في اللغة العبرية ترجع الى القرن العاشر الميلادي » . ص٧١٣ .

ـ ثم يقول : « واقدم نسخ بعض اسفار العهد الجديد وجدت مكتوبة على البردي وترجع الى القرنين الثاني والثالث الميلاديين » ص ٧٦٤ .

ـ وانظر ايضا موريس بوكاي (١٩٧٧) في نفس الموضوع :

« كان الكتاب المقدس قبل ان يكون مجموعة اسفار ، تراثا شعبيا لا سند له الا الذاكرة وهي العامل الوحيد الذي اعتمد عليه نقل الافكار . وكان هذا التراث يُتغنى . كان الناس يغنونه في جميع المناسبات » ص٢٠ .

ـ وانظر رحمة الله بن خليل العثماني الكيرانوي : اظهار الحق . تعريف وتحقيق : محمد كمال قرابع . توزيع الاهرام ١٣٩٨هـ . ١٩٧٨م .

الفصل الثاني من الباب الثاني عنوانه : في بيان ان اهل الكتاب لا يوجد عندهم سند متصل لكتاب من كتب العهد العتيق والجديد . ص٥١ ـ ٧٩ ثم يدرس الاختلافات فيها في الفصل الثالث ص٧٩ ـ ١٦٢ . وفي الرابع يفحص قضية الالهام . واما مصدر كتابتها جميعا ص١٦٢ ـ ١٨٣ .

فهذه ثلاثة مراجع : اولها مسيحي ، والثاني مسيحي اعتنق الاسلام . والثالث مسلم مختص بالدراسات المقارنة .

مسبوقة ولا ملحوقة . معجزة لها صفة الاستمرار ما بقيت الحياة . وبقاء القرآن معجزة ، تنسخ مراحل المعجزات الكونية . ولا يبقى امام المسلم الا ان يعتمد مع ايمانه ، على جهده العلمي وتخطيطه لحاضره ومستقبله .

واصبح على المسلم اذا اراد ان يتبع القرآن ان يعيش بنورين : نور الوحي ونور العلم . والوحي في الاسلام هو المصدر الاعلى للعلم ، وهو الذي يدعو المسلم الى استخدام حواسه وتوسيع آفاق معرفته قياما بمسئولية خلافة الله في ارضه .

ختم النبوة : ويرتبط هذا ايضا بعقيدة ختم النبوة في الاسلام .

فمع انتهاء عهد النبوات ، بقي ان يحسن الناس تنفيذ الخطوط الرئيسية التي ذكرها القرآن ، ليصوغوا بها حياتهم ، ويصنعوا تاريخهم .

من سنن القرآن في التاريخ :

ويوضح القرآن سننا متوازنة تترابط فيها المقدمات والنتائج . وفي هذا التوضيح تبدو الآفاق التي يعني بها القرآن ، للافادة منها في صناعة التاريخ :

(١) الترف وعلاقته بالحكم :

فالقرآن يربط بين الترف في العيش او الحكومة وبين الفساد في الحكم . والربط مستمر في كل الآيات الثمان التي جاء فيها ذكر الترف : وصفا للمترفين او حالة الترف ذاتها وآثارها ، وكيف انها تعقب الضياع في الدنيا وسوء الحساب في الآخرة . يقول تعالى : ـ

« وما ارسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها : انا بما ارسلتم به كافرون » (سبأ : ٣٤) .

ولماذا يغير المترف نظام حياته ؟ وهو يحصل على الكثير ولا يبذل من الجهد الا القليل ؟ وهو ان تولى مسئولية الحكم فكثيرا ما يعتمد على غيره ، ولا يحسن اختيار معاونيه ، فهو يختارهم على شاكلته . وتنحدر المسئوليات من يد الى يد ، وتضيع مصالح الناس بين الاستغلال واللامبالاة والاهدار . . . يقول تعالى : ـ

« واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا . وكم اهلكنا من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا » (الاسراء : ١٦ ـ ١٧) .

« اردنا » في هذه الآية ارادة كونية ، هي قانون في الحياة « امرنا » جعلناهم امراء . وفيها قراءة بتشديد الميم : « امّرنا » . فاذا استولى المترفون على الحكم في قرية « فسقوا » اي خرجوا عن امر الله . « فحق عليها القول » جاءت النتيجة مترتبة على المقدمة « فدمرناها تدميرا » .

والمترفون اعداء اي تطور وتقدم . يكفيهم ما كان عليه الآباء . والاتباع والتقليد اقرب اليهم من الاجتهاد

وتحمل مسئولية الجديد من الآراء والمواقف . ولو كان الجديد عودة الى الفطرة السليمة . والفطرة هي صبغة الله وسنته في خلقه يقول تعالى عن التقليد وعلاقته بالترف وموقفهما من قضية الايمان وعبادة غير الله :ـ « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم . ما لهم به من علم ان هم الا يخرصون . ام آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون . بل قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون » (**الزخرف : ٢٠ - ٢٣**) .

ويصل الحوار الى ذروة يدعوهم فيها الرسول الى أهدى مما وجدوا عليه الآباء . . فلا يكون منهم الا الكفر :

« قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا : انا بما أرسلتم به كافرون » (**الزخرف : ٢٤**) .

مع ابن خلدون في قيام الدولة ثم حصول الترف :

واذا كان القرآن الكريم قد بين أثر « دفع الله الناس بعضهم ببعض » وأثر الترف . . فلننظر كيف افاد ابن خلدون من هذين الأمرين ، كنموذج للربط بين قواعد العمران كما وصل اليها ، واصولها من كتاب الله .

يقول في « فصل في ان الغاية التي تجري اليها العصبية هي الملك » .

« وذلك لأنا قدمنا ان العصبية بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل امر يجتمع عليه . ثم ان القبيل الواحد ، وان كانت فيه بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة ، فلا بد من عصبية تكون اقوى من جميعها ، تغلبها وتستتبعها وتلتحم جميع العصبيات فيها ، وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى ، الا وقع الافتراق المفضي الى الاختلاف والتنازع . « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض »[٥٠] (**البقرة : ٢٥١**).

ثم يتابع بعد هذا اتساع هذه العصبية وقوتها حتى تبلغ غايتها من الاستيلاء على الدولة . . ويعقب على هذا بفصل عنوانه : « فصل في ان من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم » وكيف يستوى الناس خصب العيش والتأنق فيه ؟ . .

« وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون اشرافهم على الفناء فضلا عن الملك ، فان عوارض الترف في النعيم كاسرة من سورة العصبية التي بها التغلب . . فقد تبين ان الترف من عوائق الملك . « والله يؤتي ملكه من يشاء »[٥١] (**البقرة : ٢٤٧**) .

---

(٥٠) مقدمة ابن خلدون ٢ : ٤٣٩ .
(٥١) نفس المرجع ٢ : ٤٤١ .

ويقول في فصل تال « في ان من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس » .

« واذا تأذن الله بانقراض الملك من امة حملهم على ارتكاب المذمومات . . وسلوك طرقها ، فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة ، ولا تزال في انتقاص الى ان يخرج الملك من ايدهم ، ويتبدل بهم سواهم « واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »[٥٢] (الاسراء : ١٦) .

ونستطيع ان نتتبع غير قليل مما جاء في مقدمة ابن خلدون عن قيام الدول وانقراض الملك ، لنرى كيف يربطه بالقرآن الكريم ، وبنماذج من التاريخ ، ولنبين جذورا من مقدمته ، وان لم تكن « كل » النتائج التي وصل اليها مقبولة ممن جاءوا بعده ، شأن اي جهد بشرى . « هذا وكثير من القوانين والافكار التي انتهى اليها ابن خلدون لا تكاد تصدق الا على الامم التي لاحظها ، وهي شعوب العرب والبربر ، والشعوب التي تشبهها في التكوين وشئون الاجتماع . بل لا تصدق على هذه الامم نفسها الا في مرحلة خاصة من مراحل تاريخها ، وهي المرحلة التي شاهدها او انتهى اليه علمها »[٥٣] .

ومن هنا تجد اعجاز القرآن في ذكره القواعد والقوانين اجمالا . . على قاعدة « اجمال ما يتغير وتفصيل مالا يتغير[٥٤] » ثم من هذه القوانين العامة انطلق الباحثون المسلمون في فلسفة التاريخ ، وكان من اشعاعهم ما انار الطريق لمن جاءوا بعدهم . .

والذي اود ان اركز عليه القول : كيف ان القرآن دعا ـ في التاريخ ـ الى المعرفة والتحقيق والتعليل على مستوى الحدث او الاحداث او المنظور العام للتاريخ ؟ .

(٢) خطورة سيطرة رأس المال على الحكم :

وهي من القواعد العامة التي يوجه القرآن إلى تأملها ، ويحذرنا من آثارها . بقوله تعالى : « ولا تأكلوا

---

(٥٢) نفس المرجع ٢ : ٤٤٦ .

(٥٣) مقدمة علي عبد الواحد وافي لمقدمة ابن خلدون ١ : ١٣٤ ـ ١٣٥ .

وانظر ايضا : محمود اسماعيل : قضايا في التاريخ الاسلامي : منهج وتطبيق . فصل عنوانه : التفسير الاجتماعي لثورات القرامطة في القرن الثاني الهجري . يقول : ومن المفيد ان نشير الى اهمال ابن خلدون على العرب والزنج والبربر . وفي تأريخه للثورة لا يلتزم كثيرا بآرائه النقدية التي ضمنها مقدمته . ونظرته التفسيرية الفلسفية للتاريخ التي تستقصي الاحداث وتكشف عن عللها من جميع جوانبها لم يطبقها في نظرته الى الثورة . ص١٠٣ ط . الثانية . دار الثقافة الدار البيضاء . المغرب ١٩٨١

وانظر أيضا : اسد رستم : مصطلح التاريخ (١٩٥٥) :

« في كلام ابن خلدون ضعف ظاهر . ومصدر الضعف ان طبائع العمران التي ذكرها في مقدمته شيء اقل ما يقال فيه انه غير مستقر او راهن . فما يتعلق من طبائع العمران بالطبيعة ، فقد انتظمت ظواهره وثبتت نواميسه ، ويصح فيه تطبيق نظرية ابن خلدون . اما ما يتعلق من طبائع العمران بالمجتمع البشري ، فلسنا نستطيع قبوله . وذلك ان العلماء لم يتمكنوا بعد من تعيين نواميس لعلم الاجتماع ، كما فعلوا في العلوم الطبيعية . ولم تكونوا لن تكون نواميس ثابتة لا تتغير ، بل تقريبية » (ص٣٩) .

(٥٤) محمود شلتوت : الاسلام عقيدة وشريعة : ص٤٩٧ ـ ٤٩٨ . ط . الثالثة . دار القلم القاهرة ١٩٦٦ .

اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من اموال الناس بالاثم وانتم تعلمون » (البقرة : ١٨٨) .

وفي الآية توضيح لدورة شريرة للمال : ان يجتمع في ايد محدودة العدد قوية التأثير ، لا تتقي الله في طريق جمع ولا استغلال فقير . وانظر الى الشمول في قوله تعالى « ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل » : ان تكون حركة المال كسبا وانفاقا وتوزيعا على اسس باطلة . . ثم يتجه اصحاب المال بجزء منه الى الحاكم ، يشغلونه به ، ويخدرون حواسه لكيلا يحس بما يعملون . . ثم يعودون على الناس بمزيد من الاستغلال ، يعوضون به ما بذلوا للحاكم ، ويضيفون اليه مكاسب جديدة . . وهذا اثم جديد مضاف الى باطل قديم .

ولك ان تنظر الى هذه القاعدة العامة في ضوء ما ترى من خطورة سيطرة رأس المال ، ومن ضرورة العدل في التوزيع وفتح المجال امام الانتاج الطيب والكسب الحلال .

في ضوء هذه الآية تستطيع ان ترى الزارع الذي ظلمه الاقطاع ، والعامل الذي ذابت حياته في المناجم ، والملاح الذي مزقت شباك الصيد وملح البحر يديه ، ثم غدا التاجر الكبير على صيده . ترى هؤلاء المظلومين عبر التاريخ ، وترى استغلال السادة من رجال المال والاقطاع والسطوة ، وحركة المال في اليد الاثمة ، تحرم صاحب الحق وتكنز الذهب والفضة ، الا من رحم ربك ، وقليل ما هم .

ويعطي القرآن امثلة لمن كنز الذهب كقارون وكيف كان مصيره ، ومن حاول حرمان الفقير حقه كأصحاب الجنة في سورة القلم :

« فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فاصبحت كالصريم . فتنادوا مصبحين : ان اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون ان لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا انا لضالون . بل نحن محرومون » (القلم : ١٩ - ٢٧) .

نموذج من صناعة التاريخ بلا معجزات :

وكانت حياة الرسول تصويرا حيا لانتقال التاريخ الانساني من عصور معجزات الأنبياء الى عصور جديدة يحمل فيها الانسان مسئولية عمله ، ويخطط له على هدى وبصيرة ، دون ان ينتظر انفلاق البحر او تفجر الماء من الصخر ، او تحول العصا الى ثعبان .

واعطانا القرآن النماذج التطبيقية للارتباط الوثيق بين الاسباب والنتائج الملموسة ، واقربها ما حدث في غزوة احد عندما خالف الرماة عن امر الرسول عليه الصلاة والسلام وانكشفت ثغرة كان يحميها الرماة . واستطاع خالد بن الوليد ان يستغلها ، فهاجم منها الجيش الاسلامي ، ووقعت في المسلمين مقتلة عظيمة ، استشهد فيها سبعون ، وجرح سبعون ثم تماسك المسلمون بعد الجراح والشهداء . والتقوا

حول الرسول ، ودافعوا عن لوائهم بكل بطولة ، ولم يستطع العدو ان يحقق أياً من هدفيه : اقتحام المدينة او قتل الرسول .

وعندما تساءل بعض الصحابة عن سبب ذلك وكيف استطاعت قريش ان تحقق ما حققت بينما الرسول على رأس الجيش الاسلامي وعليه ينزل القرآن ؟ جاء قول الله تعالى محددا قوانين النصر والهزيمة .

« اولما اصابتكم مصيبة (أي في احد) قد اصبتم مثليها (اي في بدر) بأن قتلتم سبعين واسرتم سبعين . قلتم : اني هذا ؟ قل : هو من عند انفسكم ان الله على كل شيء قدير » (آل عمران : ١٦٥) .

فالنصر صناعة ، والهزيمة صناعة ، ومن الممكن ان ينالكم ما نالكم ولو كان الرسول قائدكم ، ما دمتم قد خالفتم عن امره ، ولم تنفذوا الخطة التي وضعها لكم ، وارتضيتموها قبل المعركة(**) .

وشيء قريب من هذا حدث في حنين :

« ولقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا . وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين » (التوبة : ٢٥ - ٢٦) .

وبهذا بين القرآن لسير المعارك قوانين ، كما بين للحياة قوانين . وميزتها انها تجمع بين امرين ، الاول : الربط الطبيعي بين السبب والنتيجة . والثاني : المستوى الاخلاقي الذي يمارس به المسلم عمله ويمارس به المجتمع مسئولياته .

واذا ما تمسك المسلمون بالقانون الاخلاقي وحده ، دون القانون الطبيعي الذي يربط الاسباب بالنتائج ، او تمسكوا بالقانون الطبيعي واهدروا المستوى الاخلاقي ما كانوا مطبقين القرآن .

وما يريده القرآن ان نصنع التاريخ على اساس من الجمع بين التخطيط العلمي الدقيق ، والمستوى الاخلاقي الكريم معا . .

تصوير الشاطبي لهذه الصناعة :

ونستطيع ان نستعير تعبير الامام الشاطبي عن مقاصد الشريعة ، لصناعة التاريخ في القرآن . يقول :

(**) عبد العزيز كامل : دروس من غزوة احد . فصل بعنوان : تحليل قرآني . وفيه دراسة مفصلة للمنهجية العلمية في غزوة احد ص١٠٩ - ١٢٤ . ط . ثالثة . دار المعارف . القاهرة ١٩٧٩ .

« الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الاوسط الاعدل ، الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه .. فان كان التشريع لأجل انحراف المكلف ، او وجود مظنة انحرافه عن الوسط الى احد الطرفين ، كان التشريع رادا الى الوسط الاعدل ، لكن على وجه يميل فيه الى الجانب الآخر ليحصل الاعتدال فيه »(٣٦) .

ويضرب امثلة متعددة لهذا « الطريق الوسط الاعدل » فيقول : « اولا ترى ان الله تعالى خاطب الناس في ابتداء التكليف خطاب التعريف بما انعم عليهم من الطيبات والمصالح كقوله تعالى : « الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم » (البقرة : ٢٢) فلما عاندوا وقابلوا النعم بالكفران .. اقيمت عليهم البراهين القاطعة بصدق ما قيل لهم .. فلما لم يلتفتوا اليها لرغبتهم في العاجلة اخبروا بحقيقتها وانها في الحقيقة كلا شيء ، لأنها زائلة فانية . وضربت لهم الامثال في ذلك كقوله تعالى « انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء » (يونس : ٢٤) . وكقوله تعالى : « انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة » (الحديد : ٢٠)(٣٧) .

ويذكر الامام الشاطبي بعد هذا نماذج من التوسط بين التشدد في الامتناع عن الطيبات والافراط في التمتع بها . وكذا الامر في الانفاق فهو وسط بين الاسراف والتقتير . ويجمل هذا في قوله :

« فاذا نظرت في كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط . ولعل هذا اذا رأيت في النقل عن المعتبرين في الدين من مال عن التوسط . فاعلم ان ذلك مراعاة منه لطرف واقع او متوقع من الجهة الاخرى ، وعليه يجري النظر في الورع والزهد ، واشباههما ، وما قابلهما . والتوسط يعرف بالشرع ، وقد يعرف بالعوائد ، وما يشهد به معظم العقلاء ، كما في الاسراف والاقتار من النفقات »(٣٨) .

عامل الحركة ومسار التقدم :

ويبدو من تصوير الشاطبي ، كيف ان « الاختيار » ليس امرا ثابتا ، وانما هو اختيار متحرك دون افراط ولا تفريط . وهو رغبة في اعادة التوازن لأي انحراف في المجتمع ، وذلك في مجال الضروريات الخمسة التي ذكر انها مقاصد الشريعة وهي : حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال(٣٩) .

---

(٣٦) الشاطبي (ابو اسحق) : الموافقات ٢ : ١٦٣ وما بعدها . وكتاب الموافقات قمة شامخة في اصول التشريع الاسلامي ، شرح عبد الله دراز وضبط عبد الله دراز . ط . التجارية . القاهرة اعادت تصويره : دار المعرفة . بيروت لبنان (بدون تاريخ) .

(٣٧) نفس المرجع : ٢ : ١٦٣ ـ ١٦٤ .

(٣٨) نفس المرجع : ٢ : ١٦٧ ـ ١٦٨ .

(٣٩) نفس المرجع : ٢ : ٨ ـ ١٢ .

هذا الاختيار والتوازن والتحرك في ضوء الشريعة بين مشكلات الحياة ، من اجل الصعود بها الى مستوى ارفع .

فهناك امران : توازن وصعود ، وهما مظهران لحركة التاريخ . وهي حركة متواصلة هادفة : ـ

« هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا » (الفتح : ٣٨) .

فلا مجال للقول بأن مسار التاريخ كما يصوره القرآن مجموعة متتابعة من المواقف أو الأثبات غير المترابطة ، وإنما ينتظمها هدف كبير يوضحه القرآن .

كذلك لا مجال للنظرة المتشائمة التي تقول بانحدار التاريخ بعد عصر النبوة استنادا الى الحديث الشريف :

ـ ان خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . ـ وكثيرا ما يتناسون بقية الحديث وهي ـ ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون . ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن . (رواه مسلم عن عمران بن حصين)[٦٠]

فالخيرية في الحديث نوعية تتعلق بالتشريع ، وبمستوى المواقف التي استطاع بها الصحابة والتابعون وتابعوهم ، ان يقيموا قواعد هذا الدين ، ويقوموا بأعباء فترة التأسيس الاولى بتضحياتهم ومعاناتهم وهي فترة لا تتكرر . وهناك مقاييس نوعية تبين تقدما في مجالات اخرى متعددة ، من ابرزها : مساحة ارض الاسلام ، وزيادة عدد المسلمين ، وانتشار الحضارة الاسلامية وزيادة دخل الفرد ، ودخل الدولة . وبهذا تنبأت احاديث شريفة مثل قوله عليه الصلاة والسلام :

ـ « والذي نفسي بيده ليفتحن عليكم فارس والروم . ولتصبن عليكم الدنيا صبا ، وليكثرن عندكم الخبز واللحم » (رواه الطبراني عن عبد الله بن بسر)[٦١] .

يضاف الى هذا ، الامل الفسيح الذي يتمثل في قوله عليه الصلاة والسلام :

ـ « مثل امتي مثل المطر ، لا يدري أوله خير أم آخره » (رواه الترمذي عن انس)[٦٢] .

فمن الخطأ اخذ حديث واحد دون وضعه في الاطار العام من الاحاديث الاخرى في بابه ، او الاستناد الى نص قرآني دون اخذه في سياق النصوص الاخرى في نفس الموضوع .

---

(٦٠) مختصر صحيح مسلم للمنذري ج٢ ، ٢٢٤ ، حديث رقم ١٧٥٣ .

(٦١) المتقي الهندي : كنز العمال ٣٠ ، ٢٢١ ، حديث رقم ١٣٣٦ .

(٦٢) مشكاة المصابيح للتبريزي ٣ ، ١٧٩٣ ، حديث رقم ٦٢٧٧ ط . مكتبة التراث الاسلامي ، حلب ط . المكتب الاسلامي ، دمشق ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م .

واذا رجعنا الى كتاب الموافقات للامام الشاطبي ، وجدنا فيه نماذج للنظر في الآية ـ تشريعا ـ في سياق الآيات الاخرى في نفس الموضوع ، وعلاقة ذلك بالظروف التي نزلت فيها الآية أو قيل فيها الحديث . وبهذا تبدو الآيات والاحاديث « سلاسل » متصلة لا احكاما متفرقة . . وتتجمع هذه السلاسل حتى تصل الى الاهداف الخمسة الرئيسية التي اشار اليها في بناء فكري متكامل متناسق .

وما ينطبق على مصادر الشريعة الاساسية من الكتاب والسنة ، ينطبق على اقوال الذين عرضوا بعد هذا لمسار التاريخ الاسلامي والعالمي كما تصوروه : فاذا وجدنا فيهم من يدعو الى مزيد من الزهد ، كانت دعوته ـ في الاغلب ـ وسط ظروف اشتد فيها انغماس الناس في متاع الدنيا . واذا وجدنا دعوة شديدة الى التمسك بالمصادر مع حذر من مصادر معرفة وافدة ، كان هذا نوعا من رد الفعل خوفا على تفكك الوجود الاسلامي ثم انجرافه في تيار الحياة ، كما يجرف السيل حطام قرية دمرها اندفاع تياره . والنموذجان المتقابلان هنا : كتابات الامامين الغزالي وابن تيمية .

ويأتي الخطر في التصور من الآراء الاحادية او المبنية على اختيارات جزئية يحاول بها صاحبها ان يؤكد وجهة نظر محددة في ذهنه من قبل . وفي كتابات بعض الذين عملوا في ميدان الاستشراق نماذج من هذه الاحكام التي بنيت على حقائق جزئية[١٢]

• • •

خاتمـــة :

يبدو من هذا ، كيف يعني القرآن بعناصر الدراسة التاريخية من الزمان والمكان والاحداث والاشخاص والابطال . ثم بمناهج هذه الدراسة من المعرفة وتحقيق الرواية وتعليلها ، ثم يتخذ من هذا كله ركائز لصناعة تاريخ جديد ، رابطا بين الماضي والحاضر بامتداداتها الموضوعية ، والزمانية والمكانية ، وبين المستقبل ، في هذه الآفاق جميعا ، واضعا المسئولية الاساسية على الانسان في عمله ليتخذ طريقا قائما على الايمان والمعرفة . ولا يحاول القرآن ان يتخذ من الفكر الاحادي سبيلا يغلب به عنصرا من عناصر الحياة ، كالاقتصاد او الصراع الطبقي او التحدي الحضاري ، وانما يزن هذه جميعا في مواقعها ، ويعطي من الامثلة ما يوضح به هذا المنهج ، مع بيان ان النور الاكبر الذي يسير به الفرد والمجتمع من الحياة ، هو ما

---

(١٢) مالك بن نبي : الظاهرة القرآنية ٥٤ ـ ٦٠ بعنوان مدخل الى دراسة الظاهرة القرآنية . ترجمة عبد الصبور شاهين . ط . دار الفكر بيروت ١٩٦٨
وانظر : مصطفى السباعي : السنة ومكانتها في التشريع . ط . الثانية (١٩٧٦) ص ٦٠ ـ ٣٧ وفيه مناقشة لآراء (جولد تسيهر) . وذكر رأي المستشرق ... في ... (السويد) ... جولد تسيهر كان في القرن الماضي ... المستشرقين ... جولد تسيهر ... في القرن الماضي ... جولد تسيهر في رأيه ، ص ١٦ . وفيه ... السباعي الفصل السادس من كتابه ... السنة مع المستشرقين ، وفيه دراسة مفصلة لآراء جولد تسيهر ونقدها ص ١٨٧ ـ ٢٣٥ .

يربط الناس بالله ، وما يربطهم بعضهم ببعض ، فاذا الامر توحيد ووحدة ، تراعي فروق الزمان والمكان والبيئة ، دون ان تفقدها هذه الظروف وحدتها الاصيلة .

الاهتداء بالقرآن في كتابة التاريخ :

وكما ان القرآن هو الملهم الاكبر لأي شاعر او ناثر او كاتب بالعربية ، دون ان يحاكيه من يهتدي به ، فكذلك هو في التاريخ : نسيج وحده ينير الطريق للمؤرخين دون ان يكون نموذجا للمحاكاة في كتابة التاريخ . لا يوصف القرآن الا بانه « القرآن » بصفاته وآثاره التي ذكرها الله فيه : نور وهدى وتبيان وتفصيل وذكرى وعبرة وتصديق .

نستطيع ان نستهدي به في الافادة من عناصر الزمان والمكان والاحداث والابطال ، والقاء الاضواء على زوايا متعددة من الحدث الواحد او القصة الواحدة . ونستطيع ان نستهدي به في حب المعرفة ، وفي امانة العرض ، والتحقيق الدقيق ، وتفسير التاريخ وصناعة التاريخ ، تماما كما كان ، ولا يزال ، المحرك الاقوى في آفاق الحضارة الاسلامية جميعا ، دون ان يكون نموذجا يحتذى في كتابة اي مرجع في موضوع متخصص من موضوعاتها .

***

العلوم البيولوجية في خدمة تفسير القرآن الكريم
منهاج وتطبيق

عبد الحافظ حلمي محمد

القرآن الكريم تنزيل رب العالمين ، والمعجزة الخالدة لرسوله الأمين ، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم . وهو كتاب الاسلام والعربية ، ودستور هذه الأمة ، أمة الاسلام ، أمة القرآن . فلا عجب إذن أن كان ، وسوف يكون دوما إن شاء الله ، ملء أفئدة المسلمين وعقولهم،ومناط اهتمام علمائهم وعوامهم على السواء ، بل إن أعداءهم حاولوا جاهدين أن ينفذوا إلى سره ، فانهم قد أدركوا أن هذا الكتاب هو الذي أخرج المسلمين من الظلمات إلى النور ، وهو الذي حررهم ووحدهم ، وأطلق عقولهم من كل قيد ، وفجر مكنون طاقاتهم ، فجعلهم ـ عندما وَعَوْه واتبعوه ـ أئمة وقادة ، وانتقلت اليهم ، بين عشية وضحاها ، مشاعل التقدم والحضارة .

وامتثالا لدعوة القرآن نفسه عكف المسلمون على تدبر آياته ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها ﴾ (محمد : ٢٤) . وكان من الطبيعي أن يتفاوت اجتهاد المسلمين في فهم آي القرآن الكريم بتفاوت معارف عصورهم وبتفاوت إدراك أشخاصهم ، مع حد أساسي من الفهم الصحيح للقرآن الكريم عرفه المسلمون منذ سمعوه يتلى عليهم أول مرة ، أدركوه بفطور حسهم البلاغي اللغوي الدقيق وبما تعلموه في مدرسة النبوة الأولى . (وهذه نقطة جوهرية أسارع باثباتها ، وسأعود إليها فيما بعد) . فبالاضافة إلى علوم الدين وعلوم اللغة ، لجأ المفسرون إلى النقل من أنباء وروايات الأمم التي قبلهم ، ومن ثم مايعرف عموما بالاسرائيليات ، ثم اتجهوا إلى الاستعانة ببعض معطيات العلوم المعاصرة لهم ، ومن ثم نشأ ما يسمى خطأ أو تجوزا بالتفسير العلمي للقرآن الكريم .

وقد نشأ من هذا الموقف قضية احتدم فيها الجدل بين السابقين ، ولكن لعلها تفاقمت في هذه الأعوام ، فقد أصبح الجمع بين الدين والقرآن من ناحية ، والعلوم الطبيعية الكونية من ناحية أخرى ، بضاعة مزجاة رائجة على صفحات الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية ، على اختلاف ألوانها ، ومنطلقة من مكبرات أجهزة الاذاعة وبرامج التليفزيون . وكثير مما يُكتب أو يقال عن التفسير العصري أو الاعجاز العلمي للقرآن الكريم قد يخلب لب العوام بل بعض المثقفين ، ولكنه في الوقت نفسه يثير حنق المتخصصين ، فسدنة الدين وحماته غاضبون (انظر ، مثلا : بنت الشاطيء ، ١٩٧٠ ؛ محمد حسين الذهبي ١٩٧٨ ؛ محمد سعيد البوطي ، ١٩٧٩) وكذلك رجال العلم ساخطون (انظر ، مثلا : محمد رضا محرم ، ١٩٨٠) . والناس ، بين افتتان بأقوال « العصريين » وتقدير لموقف المتحفظين ، وقفوا حيارى ، لا يدرون أين جانب الحق وأيُّ الفريقين يتبعون .

بهذا أجد لزاما عليّ ، قبل أن أعرض بعض النماذج لما تستطيع العلوم البيولوجية أن تسهم به في خدمة فهم القرآن الكريم ، أن أقدم بين يدي القارىء مناقشة هادئة لأهم الحجج التي يسوقها الطرفان المتنازعان بغية إزالة الشبهات ، وتوطئة لرسم منهاج دقيق يجمع بين التحرز الواجب والتفتح النافع ..... والله من وراء القصد ، وهو وحده المستعان والمسئول أن يعصمنا من الزلل .

القرآن الكريم يحسم القضية :

ومن بين ما يقول المعترضون إن القرآن الكريم لا شأن له بالعلوم الطبيعية ، وإنما هو كتاب أنزل للناس للارشاد والهداية وبيان التكاليف وأحكام الآخرة . وهذا ، ولا شك ، قول حق ، ولكنه ليس كل الحق . وذلك أن الله قد شاءت حكمته أن يكون إرشاد الناس وهدايتهم بوسائل متنوعة ، وهو سبحانه وتعالى خبير بعباده ، فهو تارة يخاطبهم بما يمس قلوبهم مسًا رقيقا رفيقا ، وهو تارة أخرى يقرع عقولهم قرعا قويا شديدا ، فكان من أبرز ما جلى به أبصارهم وأنار بصائرهم حضه إياهم على التدبر في آيات خلقه . وإلا فقل لي بربك لماذا كان احتفال القرآن الكريم بذكر السموات والأرض ، والشمس والقمر ومنازله ، والمشارق والمغارب ، والبروج والنجوم والكواكب ، والليل والنهار والفجر والغسق ، والظلمات والنور ، والبحار والأنهار والعيون ، والرياح اللواقح والعقيم ، والسحاب الثقال والمركوم والمبسط والبرق والمطر ، والجبال الراسيات والجدد البيض والحمر والغرابيب السود ، والأرض الهامدة والأرض المهتزة الرابية ، والجنات والنخيل والأعناب والتين والزيتون ، والطلح والسدر واليقطين ، والنمل والنحل وجناح البعوضة وبيت العنكبوت ، والطير الصافات والابل والخيل والأنعام ، واللبن يخرج من بين الفرث والدم ، والشراب الشافي يخرج من بطون النحل ، وسلوك النحلة سبلا ذللها لها الله ، وخلق الانسان من تراب ومن ماء مهين ، وتطوره في ظلمات الرحم خلقا من بعد خلق ، وشفتيه ولسانه وسمعه وبصره وفؤاده ، واخراج الحي من الميت والميت من الحي ...... وهذه كلها أمثلة قليلة بعيدة عن تمام الحصر مما يوجهه

القرآن الكريم إلى أولي الألباب ، الذين يعقلون ويتفكرون ويتدبرون ، ناعيا على غيرهم من ذوي القلوب التي يحرمها ماعليها من أكنة وأقفال من رؤية الحق ونور اليقين .

لا ، بل إن القرآن الكريم ، في وضوح بيّن ، قد جعل الايمان لحمة في نسيج محكم سداه معارف العلوم الطبيعية الكونية . تأملوا معي قوله تعالى : « **إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ماخلقت هذا باطلا ، سبحانك فقنا عذاب النار** » ـ آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ . فهكذا حصر ذكر الله بين قوسين محيطين به من التفكر في بديع خلقه ، وهكذا يسير الأسلوب القرآني في بلاغة معجزة وانتقال سريع من لفت الأنظار الى آيات الله الكبرى في خلق الكون ، الى ذكره تعالى في جميع أحوال الذاكر ، الى التفكر والتأمل ، الى الانتهاء الى الايمان بالله الخالق الحكيم وباليوم الآخر ، والتوجه اليه سبحانه بالدعاء ، والدعاء مخ العبادة .

معنى « العلم » في القرآن الكريم :

وعلى الرغم من هذا كله نجد من الناس من يقول لك ما للقرآن وعلوم الكون ، ويؤكد لك أنه من المغالطات التي لاتغتفر أن تقول ان مادة « علم » (التي وردت بمشتقاتها ٨٥٥ مرة في القرآن الكريم) تتسع لتشمل معارف العلوم الطبيعية بمعناها الحديث ، فهم يضيقون واسعا ويأبون الا أن يكون كل علم مشار اليه في القرآن الكريم علما دينيا ، وأن العلماء المذكورين في القرآن الكريم هم علماء الدين وحدهم .

وشيء يسير من استقراء معاني لفظ العلم في القرآن الكريم كفيل بأن ينير لنا الطريق ، فعندما يخاطب الحق ، جل شأنه ، رسوله صلوات الله عليه ، في سورة البقرة : « .... **قل ان هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولانصير** » ـ (١٢٠) ، وفي سورة طه : « .... **ولاتعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه ، وقل رب زدني علما** » ـ (١١٤) ، فالعلم هنا هو ولاشك العلم الالهي اللدني بمعناه الشامل . أما في موضع آخر من سورة البقرة : « **وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم** » ـ (٣١ ، ٣٢) ، فكتب التفسير تقول ـ من بين ماتقول ـ إن الله علم آدم « أسماء الأجناس وعرفه منافعها » .... وهذه هي علوم الدنيا . وكذلك عندما يلفت الخالق المبدع أنظارنا الى بعض أوجه حكمته في خلق القمر : « **وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب** » (يونس : ٥) . فالعلم هنا يعني مايحصله الانسان في حياته ، أي يعني كل مايدركه عن طريق حواسه وفكره .

وانك لو حاولت أن تتبع الفعل « علم » في القرآن الكريم ، لوجدته منسوبا الى الله تعالى ، والى الناس فرادى وجماعات وبالتعميم والتخصيص وفي أزمنة مختلفة ، والى الجنة والى النفس .... الخ . وليس هذا على سبيل

الحصر ، وانما للدلالة على اتساع معنى اللفظ ، في اللغة وفي استعمال القرآن الكريم،حتى يشمل العلم المنسوب الى كل هؤلاء الفاعلين المختلفين والمتفاوتين في نوع علمهم ومقداره وقدره . وعلى أية حال ، اننا نجد القرآن الكريم يحسم هذه القضية أيضا اذا احتكمنا اليه ، فهذا ما ارتحت اليه منذ سنين ، بعد حيرة وتردد ، عندما تأملت قوله تعالى : « **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، انما يخشى الله من عباده العلماء ، ان الله عزيز غفور** » ـ (فاطر : ٢٧ ، ٢٨) . فخشية الله هنا انما أتت بعد ذكر مباحث علوم الجيولوجيا والبيئة والوراثة والنبات والحيوان والأجناس البشرية * . وفي هذا اشارة الى أن معرفة المشتغلين بهذه العلوم لبعض الأسرار المذهلة وراء هذا التنوع الرائع في الخلق ، هي التي تبعث في قلوبهم الخشية من بديع السموات والأرض ، « إذ شرط الخشية معرفة المختشي والعلم بصفاته وأفعاله ، فمن كان أعلم به كان أخشى منه .... » ، كما يقول الامام البيضاوي في تفسيره .

على الرغم من هذا قرأت لعالم فاضل (وهبة الزحيلي ، ١٩٧٨) يدعو الى عدم الفصل بين العلوم « المادية » والعلوم الشرعية أو الدينية ، ولكنه في معرض دفاعه عن أن علماء الدين هم « العلماء ورثة الأنبياء » رفض أن يكون العلماء الذين يخشون الله والمذكورين في سورة فاطر هم « علماء المادة » ، وذلك لأن من يخشى الله منهم قلة « ولأن أوصاف العلماء المذكورة في سورة فاطر عقب آية (انما يخشى الله) لاتنطبق عليهم ، فأوصافهم : تلاوة القرآن ، واقامة الصلاة ، والانفاق سرا وعلانية » (ص ٢٦) ، مشيرا الى قوله تعالى : « **ان الذين يتلون كتاب الله ، وأقاموا الصلاة** ، وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، يرجون تجارة لن تبور » ـ (فاطر ، ٢٩) . ففي سبيل حرمان المؤمنين من علماء الطبيعيات والكونيات قصر الكاتب الفاضل تلك القُرَبَ والعبادات على العلماء ، وكأنها ليست من شأن عامة المؤمنين الصالحين ، فضلا عن أن ما جاء في هذه الآية الكريمة جاء بصيغة تقرير خبري جديد تتصدره « ان » للتوكيد والابتداء . وجدير بالذكر أن لفظة « علماء » لم ترد في القرآن الكريم الا مرتين ، هذه احداهما التي نتكلم عنها ، والثانية عن علماء بني اسرائيل أي علماء الدين ، فكأن علماء الشريعة والمؤمنين من علماء الطبيعية قد اقتسما هذا الشرف مناصفة !

العلماء يعكفون على خدمة تفسير القرآن في كل زمان :

كان الرسول الأمين ، صلوات الله وسلامه عليه ، يفسر للمسلمين الأوائل ماغمض عليهم من آي القرآن الكريم ، وكذلك فعل الصحابة الأجلاء ، رضوان الله عليهم . ولكن سرعان مادعت الضرورات الى جمع تدوين الأحاديث الشريفة ، ومنها ماكان متعلقا بتفسير القرآن الكريم ، ثم دونت كتب للتفسير ثم تشعبت مذاهب

* لا يسارعن معترض منكم الى القول بأنا نعني بقولنا هذا ان هذه « العلوم » موجودة في القرآن الكريم ، وأنه سبق اليها ... الخ ، فهذا مالا يقول به عاقل .. ولكن المقصود هو أن هذه الاشارات الى الآيات في الخلق هي موضوع دراسة المشتغلين بتلك العلوم بمسمياتها الاصطلاحية الحديثة .

المفسرين واتجاهاتهم وتنوعت مزاياهم ، كما هو معروف (أحمد الشرباصي ، ١٩٦٢ ، مصطفى الطير ، ١٩٧٥ ، منيع عبد الحليم محمود ، ١٩٧٨) . واتصال العرب بغيرهم من الأمم ودخول هؤلاء في الاسلام أوجب وضع قواعد مدونة للنحو والصرف والبلاغة والبديع والعروض وفقه اللغة ، وماإليها من فنون العربية وآدابها ، التي كان العرب الخلص يعتمدون فيها على سليقتهم المفطورين عليها . ولكننا نعلم أن عاملا هاما آخر قد شجع على نمو هذه العلوم وازدهارها ، ألا وهو دراسة القرآن الكريم وتدوين تفاسير له كما قدمنا ، حتى أن تلك العلوم كانت تسمى « العلوم الخادمة » لعلم التفسير الشريف . وعلم التفسير تاج العلوم ، فالعلم ـ كما يقول الألوسي في « روح المعاني » ـ يكون بشرف موضوعه وشرف معلومه وغايته وشدة الاحتياج اليه ، وعلم التفسير حائز لجميعها . ويجد الاطلاع على بعض أمهات كتب التفسير وعلوم القرآن وماكتب عن دلائل اعجازه فيه بيان لأهمية الخدمات التي أدتها تلك العلوم في ذلك المجال الشريف ، ولمقدار العناية التي بذلها أولئك العلماء ـ الأجلاء بأي مقياس قديم أو حديث ـ للقرآن ولغة القرآن . وهذا العصر الذي نحياه كثيرا مايوصف بأنه عصر الذرة أو الطاقة الذرية أو البيولوجيا الجزيئية أو الحاسبات الألكترونية أو بما شئت من منجزات العلم البارزة فيه ، ولكنه عصر العلم على أية حال . وأعتقد أنه ينبغي على المتمكنين من العلوم الطبيعية أن يتقدموا لينالوا شرف الاسهام في خدمة تفسير القرآن الكريم في هذا الزمان ، وانما بضوابط دقيقة ومنهاج قويم .

هذه الخدمة ضرورة وفريضة ، ولكنها فرض كفاية :

والقرآن الكريم ، كما قدمنا ، حافل بذكر آيات الله في خلقه متخذا من التفكر فيها مدخلا رحيبا الى الايمان بالله ، عن طريق الاستشعار بوحدانيته سبحانه وبقدرته وبديع صنعه . ويتخذ القرآن الكريم أساليب بلاغية متنوعة في الدعوة الى النظر في آيات الله ، فهو تارة يأمرنا بذلك أمرا : « **قل انظروا ماذا في السموات والأرض** ... » (يونس : ١٠١) ، « **انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه** ... » (الأنعام : ٩٩) ، وتارة أخرى يحضنا على ذلك حضا جميلا : « **أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت . والى السماء كيف رفعت . والى الجبال كيف نصبت . والى الأرض كيف سطحت .** » (الغاشية : ١٧ ـ ٢٠) ، بينما يأتي هذا في مواضع أخرى بصيغة تقرير قاطع : « **أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء** ... » (الأعراف : ١٨٥) . وهذه الصيغ كلها من رب العزة تنزل في نفس المؤمن منزلة الأمر . فالمسألة عنده اذن مسألة فريضة وتكليف .

ولكن من البديهي أن يتفاوت هذا التكليف بالنظر في آيات الله من مؤمن الى مؤمن ، ومن قارىء للقرآن الى قارىء ، اذ أن نظرهم هذا يتفاوت بتفاوت استعدادهم ومقدرة ادراكهم وحصيلة معارفهم . فالسموات ، مثلا ، آيات رائعة معجزة عند الأمي وعند عالم الفلك المتخصص على السواء ، وان كان العالم أقدر على الاحاطة بجلال الاعجاز في خلقها ، ومن ثم كانت خشيته العميقة لخالقها . فمن هنا كان النظر الفطري البسيط والنظر

المتأمل المتعمق ، وكلاهما مطلوب ومشروع ومفيد ، وهذا سر من اسرار بلاغة القرآن ، بيد أن التعمق لايتوفر الا للقادرين عليه ، **فهو إذن فرض كفاية عليهم ، كما أنهم مكلفون أيضا بتبصرة غيرهم بعلومهم وما انتهى اليه نظرهم ، فقد أمرنا أن نتعلم ونعلم ونهينا عن كتمان العلم .**

وقد اهتدى الأسبقون الى تفاوت الناس في فهمهم للقرآن ، فمن ذلك مايقتبسه الشرباصي عن الراغب الأصفهاني من كتابه « مقدمة التفسير » : « ثم ان القرآن ـ وان كان في الحقيقة هداية للبرية ـ فانهم لن يتساووا في معرفته ، وانما يحظون به بحسب درجاتهم واختلاف أحوالهم ، فالبلغاء تعرف من فصاحته ، والفقهاء من أحكامه ، والمتكلمون من براهينه العقلية ، وأهل الآثار من قصصه مايجهله غير المختص بفنه ، وقد علم أن الانسان بقدر مايكتسب من قوته في العلم تتزايد معرفته بغوامض معانيه ، ... » (أحمد الشرباصي ، ١٩٦٢ : ٤٠ ـ ٤١) . ولعله من فضول القول أن نقول بعد ماقدمناه ان علماء العلوم الطبيعية ليسوا بدعا بين هؤلاء الذين ذكرهم الأصفهاني .

ليس المطلوب « تفسيرا » علميا أو عصريا :

وليس هذا الذي نؤيده وندعو اليه يؤدي بنا الى كتابة « تفسير علمي » أو « تفسير عصري » للقرآن الكريم ، وليس بمقصود منه أن نقحم حقائق العلم على التفسير اقحاما ، أو أن نفتعل مناسبات حشرها افتعالا متعلقين بأهداب لفظ ، أو لاوين لمعنى من معاني آي الذكر الحكيم للجمع بينه وبين حقيقة علمية او فرض لم يزل في حاجة الى تمحيص ، ولو أدى بنا الحال الى قطع العبارات عن سياقها قطعا ، أو الى التهجم على الغيبيات فتصورها كما يزينها لنا خيالنا أو هوانا . فهذا كله قد حدث فأثار ـ بحق ـ ثائرة الغيورين على كتاب الله ، أحيانا الى درجة التطرف في رفض أي أمر مقبول ومعقول .

ثم إن هذا الذي ندعو إليه ليس من قبيل ما أسماه السابقون « تفسيرا بالرأي » ، واختلفوا فيه اختلافا كبيرا ، وانتهى فيه بعضهم إلى الاباحة بشروط . فمع أن المسلمين الأوائل كانوا شديدي التحرج في تفسير كتاب الله العزيز بعلم غير مروي أومنقول ، إلا أن الامام ابن جرير الطبري في القرن الرابع الهجري قد نجح ، رغم إقراره بهذه القيود ، « بحذق ومهارة » ـ كما يقول آدم متز في كتابه عن الحضارة الاسلامية ـ في أن يتكلم في تفسيره برأيه في أمور وقدم مؤلفا فريدا « جمع فيه الرواية والدراية » . (آدم متز ، ١٩٦٧ : المجلد الأول ٣٦٣ ـ ٣٦٤) . ولكن الذي نعنيه هو الاستعانة بالمعارف العلمية المتاحة في عصر المفسر ، من قبيل ما نجده واضحا في تفسير البيضاوي وابن كثير (في القرن الثامن الهجري) ـ بل عند من سبقهما ولاشك ـ ثم عند الألوسي (في القرن الثالث الهجري) ، على سبيل المثال .

فما المطلوب منا ، إذن ؟ :

فما المطلوب منا إذن ؟ المطلوب عندي هو أننا إذا قرأنا ، مثلا ، قوله تعالى : « **أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت** » ، استجبنا إلى هذه الدعوة الربانية **بما لايتنافى القطرة السليمة أو يعارض تفسيرا تقليديا** ، وأظهرنا مانزال تكتشفه الدراسات الحديثة عن معجزات بيولوجية رائعة في ذلك المخلوق الفريد ، الذي نستطيع أن نثبت أنه خُصَّ بالذكر ، من بين مالا يحصى من مخلوقات الله ، نموذجا يتدبر في دراسته المتدبرون ، وأنه ليس صحيحا ما يقوله البعض من أن الابل ذكرت لمجرد مناسبتها لخطاب البدو والأعراب . فالمعجز حقا أن هذا صحيح ولكنه ليس الحق كله ، فالجمل ـ والجمل بالذات ـ هو الآن نموذج فريد تشير إليه كتب علم الأحياء الحديثة في أوروبا وأمريكا !

ومطلوب أيضا أنه إذا ذُكر لحم الخنزير بين اللحوم المحرمة ، وجب علينا ـ بعد الامتثال والطاعة لحكم التحريم ـ أن نلتفت إلى أن التحريم هنا هو تحريم مُعَلَّل ، وإلى أن لحم الخنزير ينفرد من بين الأنواع الأخرى من اللحوم المذكورة بأنه حرام لذاته ، أي لعلة مستقرة فيه أو غالبة اللصوق به ، لا لعلة عارضة عليه كما هي الحال في أنواع اللحوم الأخرى المحرمة ، أي أنه ينبغي علينا أن نبحث هذه العلة بحثا علميا دقيقا ، لا أن نردد ما تتناقله بعض التفاسير مما يسهل دحضه وتفنيده .

وينبغي علينا ، أيضا ، أن نتعمق فهمنا قوله تعالى ، في سورة الأنبياء : « **وجعلنا من الماء كل شيء حي** » ، فنبين البلاغة الكاملة في استعمال اللفظ « جعلنا من » ونضيف الى ما هو معروف متناقل مايزيده تأييدا . وكذلك عن « العظم الحي » و« النار من الشجر الأخضر » في ختم سورة يس ، وخروج الحي من الميت وخروج الميت من الحي ... الخ . وجدير بنا أن نشرح للناس عظمة القسم بمواقع النجوم ، والاعجاز في تنوع الخلائق كما ورد في سورة فاطر ، وإيلاج الليل في النهار ، وسبح الأجرام السماوية في أفلاكها ، وكيف يمسك الرحمن الطيور في جو السماء ، وكيف تتفجر الأنهار من الحجارة ، وكيف يكون شرب الهيم .... الخ .

ومطلوب منا أيضا أن نجتهد في تحديد المسميات الواردة في القرآن الكريم ، كحوت يونس والسدر واليقطين والطلح والفوم والمن والسلوى ، فضلا عن أن نزيد الناس معرفة بمناسبة ذكر الأعناب والتين والزيتون والرطب ، وكذلك ما جاء في كتب التفسير من الاسماء كشجر المرخ والعفار ، وما الى ذلك . وتوضيح معاني هذه المفردات خدمة كبرى اجتهد فيها السابقون ، وبذلتها الامم الاخرى لكتبهم . واذكر ان الاستاذ الدكتور عبد العزيز كامل قد دعا في جامعة الكويت منذ سنوات الى تصنيف معجم عصري شامل يشمل مفردات من قبيل ما ذكرت ، وكذلك مواقع البلدان واسماء الاشخاص والاقوام السابقين ، وما الى ذلك مما ذكر في القرآن (اوكتب التفسير) .

وجميع ما ذكرت ليس فيه تكلف او افتعال او تهجم بالكلام في تفسير كتاب الله العزيز بغير علم ، وليس فيه

معارضة لتفسير سلفي معتمد برأي عصري مبتدع ـ وهذا شرط اساسي . بل انني لا ارى مانعا من الاجتهاد في فهم ما لم يستقر عليه رأي المتأولين ، اوما لم ينته فيه العلم الى رأي قاطع ، ما دمنا لا نمس جوهر التفسير او نجزم بأن هذا هو المعنى المقصود ، مسلمين بان الله اعلم بمراده . فلماذا لا نقدم غاية ما يبلغه اجتهادنا وترتاح اليه نفوسنا وعقولنا في فهمنا كيف كانت السموات والارض رتقا ففتقهما الله وما هي الظلمات الثلاث التي يخلق فيها الانسان ؟ وما هو المقصود بالنطفة والعلقة والمضغة المخلقة وغير المخلقة ؟ ونحو ذلك .

واذا اريد ان تضم هذه « الخدمة العلمية » للتفسير معه في كتاب واحد ، فيمكن أن تنفصل عنه تماما في تعليقات علمية تطبع في هامش مستقل ، وبذلك يترك « التفسير » لأهله ويحافظ على متنه كما يراه العلماء من اصحاب اختصاصه . وهذه التعليقات غالبا ما تكون وجيزة حتى لا تعطل استمرار القراءة . وهذا هو الذي اتبعه المجلس الاعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة عندما اصدره « المنتخب في تفسير القرآن الكريم » . وقد تولت كتابة التعليقات العلمية فيه لجنة من الخبراء ، شرفتُ بالعمل فيها اكثر من خمسة عشر عاما قبل ان تنهي اعمالها . ولكن كثيرا ما يستحب ان تتناول هذه التعليقات بشيء من التفصيل ، وهو امر ضروري للايضاح والاقناع ... وهذا يكون من قبيل ما يقدمه هذا العدد من « عالم الفكر » .

منهاج وشروط :

ذكرنا فيما تقدم أن تبصرة المسلمين بالنواحي العلمية المتعلقة بحسن الفهم لتفسير القرآن الكريم أمر مرغوب فيه وعلى الأخص في هذا الزمان . ولكن هذا لا يعني أنه أمر مستباح لكل من اشتهاه ، فقد ذكرنا انه فريضة ولكنه من فروض الكفايات لا يتحمله إلا القادرون على أمانة أدائه . ومن هنا وجب وضع منهاج رصين محدد ينبغي الالتزام به ، ووضع شروط ينبغي توفرها فيمن يتعرض للاجتهاد في ذلك المجال .

والتعليق العلمي على تفسير آي الذكر الحكيم أمر يختلف عن مجرد عرض فصول قصيرة أو طويلة من كتب العلوم المبسطة مع استحضار قدرة الخالق سبحانه وتعالى (وهذا أمر لا غبار عليه) . فالتعليق العلمي على التفسير ينبغي أن يكون موجها الى الكلام عن موضع محدد مرتبط به ارتباطا وثيقا . وقد نجد في الآية الواحدة مواضع متعددة مما قد يدعو الى تناول كل منها على حدته أولا ثم الالتفات الى المغزى العام من ترابطها . وهذا التعليق ـ أو التعليقات ـ ليس « تفسيرا » للآية الكريمة وانما هو عون على فهم ذلك التفسير أو إكسابه أبعادا أعمق أو آفاقا أوسع .

والتعليق العلمي على موضع بذاته في تفسير القرآن الجليل لا يعني عزل ذلك الموضع عن السياق العام الذي ورد فيه هذا الموضع . وقد يكون هذا السياق العام واسع الحدود ، ولكنه ينبغي أن يكون قائما واضحا في ذهن المعلق . وكذلك على المعلق أن يتتبع المواضع الأخرى المتشابهة أو المقاربة لما يتعرض له في تعليقه ، فالقاعدة التي

يعرفها طلاب العلوم القرآنية أن القرآن يفسر بعضه بعضا . هذا فضلا عن أن هذا التتبع يجنّب المعلق التكرار ويعصمه من الانزلاق في فهم متعارض للأمر الواحد في مواضع مختلفة . كما أنه من ناحية أخرى قد يظهر سرا من أسرار الفروق البيانية اللطيفة بين تلك المواضع .

والفكرة العلمية التي يعرضها المعلق ينبغي ألا يُفهم منها أية معارضة جوهرية للتفسير المتفق عليه للآية الكريمة . أما اذا كان ثمه وجهات نظر بين أهل الاختصاص في فهم الآية الكريمة فلا بأس من أن يرجح التعليق العلمي واحدا من تلك الآراء . وعدم معارضة التعليق العلمي للتفسير أمر بالغ الأهمية إذ أن عدم الالتزام به كان في معظم الأحوال أخطر منزلق قاد بعض المعلقين إلى الخطأ . وعندي أن الجزم بأن التعليق العلمي الحديث هو الفهم الصحيح لآية قرآنية وأن فهم السابقين لها لم يكن صحيحا هو أول ما يشكك في صحة مناسبة ذلك الفهم « العلمي » لها . فليس من المقبول أن يظل معنى الآية خافيا لم ينكشف إلا لمفسر عبقري في هذا الزمان . فهذا لا يتفق مع بلاغة القرآن الكريم الذي أنزل ليفهمه أول من سمعه من العرب ذوي الفطرة السليمة في فهم لغتهم . بل إنه كثيرا ما تعرض لنا في كتاب الله العزيز آيات ليست في حاجة إلى تفسير . بل إنها تكون بنصها أوضح وأقرب إلى العقل والقلب من أي تفسير لها .

وجميع ما ذكرت يحدد لنا الشروط الواجب توافرها فيمن يتصدى لأداء هذه الخدمة العلمية في فهم تفسير آي الذكر الحكيم . فأولها بداهة أن يكون متمكنا من علمه الذي يتحدث فيه (وعدم تحقق هذا الشرط هو آفة كثير من الهواة الذين يخوضون في هذه الأحاديث) . وثانيها . وليس بأقل شأنا من سابقه . أن يكون حسن الالمام بقواعد اللغة العربية . جيد الفهم للألفاظ التي يتعرض للتعليق عليها ولفقه استعمالها . وهذا أمر أساسي . وليس أبلغ على هذا من قول الامام مالك . رضي الله عنه . الذي نقلته بنت الشاطىء عن الزركشي والسيوطي : « لا أوتىُ برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا » (بنت الشاطىء ، ١٩٧٠ : ٣٤) . (ولكن لا يفوتني أن أنوه هنا بما سبق أن أكدته وهو أن المعلق العلمي ليس ، على أية حال ، « مفسرا » للقرآن) . وينبغي على ذلك المعلق أيضا أن يكون ملما من علوم القرآن بالمقدار الضروري الذي يمكّنه من فهم التفسير .

ومعظم هذه الشروط لا نتصور أن تتوفر عادة في رجال العلوم في هذا الزمان ، ولكن الذي يؤهلهم لبعض مقتضيات تلك الشروط استعداد شخصي خاص يعززه رجوعهم إلى أمهات كتب التفسير الأصلية رجوع المتعلم المتأني لا اطلاع القارىء المتجوّل . فاذا تعذر عليهم هذا كان عليهم أن يسألوا أهل الذكر فيما لا يعلمون . فهذا أقل مقتضيات التحرز وعدم التورط في الكلام في كتاب الله بغير علم . وقد رأيت أن اجتماع نفر من المهتمين بهذا الأمر في تخصصات علمية متنوعة ومن بينهم فقهاء اللغة وعلماء الدين جدير بأن يحقق هذه الشروط عن طريق تكاملهم مجتمعين ، وليس هذا الأمر بمستكثر على هذا الأمر الجليل . (وهذا من قبيل لجنة « خبراء العلوم » السابقة بالمجلس الأعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة التي سبق أن أشرت اليها ، وقد كانت لجنة مستقلة عن لجنة « التفسير ») .

وأعتقد أن هذا المنهاج فيه من التحرز ما يرضى كل متحفظ غيور على كتاب الله العزيز من أن يخوض في تفسيره الخائضون بغير علم . ولقد أتيح لي غير مرة أن أعرض هذا المنهاج في بعض أحاديثي أمام صفوة من المثقفين فيهم أئمة أجلاء من علماء الدين المتمكنين فأقروني عليه ، بل أيدوني فيه وزادوا قلبي اطمئنانا إليه (عبد الحافظ حلمي محمد ١٩٧٩ ، ١٩٨٠) .

بعض أخطاء المجتهدين :

وكان من الطبيعي ألا يلتزم المجتهدون دوما بمثل هذا المنهاج الذي بيناه ، فلم يكن بمستغرب أن يجانب بعضهم الصواب ، وقد يكون من المفيد قبل أن نطبق ذلك المنهاج تطبيقا إيجابيا ، أن نبين مزاياه بطريقة سلبية ، أي ببيان مغبة عدم الالتزام به أو ببعض شروطه . فمن ذلك أنه عندما ركب الانسان أول مركب في الفضاء ، خفّ من يقول لنا إن هذه المركب هي الدابة التي تخرج من الأرض لتكلم الناس (إشارة إلى الآية ٨٢ من سورة النمل) ، ثم تبعه من يقولون بل إن هذا هو النفاذ من أقطار السموات والأرض بسلطان (إشارة إلى الآية ٣٣ من سورة الرحمن) ، وأن هذا السلطان هو سلطان العلم ! وغني عن البيان أن هذا وذاك مخالفان للعلم وللتفسير والمنطق وسياق القرآن جميعا ! فالتزلق جاء هنا من عدم الالمام بما جاء في كتب التفسير عن هذه الآية الكريمة ، أو حتى من عدم الحس الفطري بالمعنى البلاغي لهذا التحدي الشديد للانس والجن أن يخرجوا من ملك الله ويفروا من قضائه (وإلى أين؟) . هذا فضلا عن أن العلم لم يزعم على الاطلاق أن تلك « القترات القصار » التي قفزها الانسان خارج نطاق جاذبية الأرض تعتبر خروجا من أي شيء إلا في ذلك النطاق شديد التواضع أمام ملك الله الذي لا يحد . وكأني بمن يقول بهذا يعني أن الانس والجن قد قبلوا التحدي ونجحوا في الانتصار عليه ! وقد بلغ من خلابة المعنى أن تقبله بعض علماء الشريعة (صلاح الدين خطاب ، ١٩٧٠) ، ولكنني أشهد أنه بالحوار المقنع قد عدل عن هذا القول كثيرون .

وشبيه بهذا قول القائلين بأن ذكر الذرة وما هو أصغر منها (إشارة إلى الآية ١٦ من سورة يونس ، ومواضع أخرى) دليل من القرآن الكريم على أن الذرة ـ بمعناها الفيزيائي الكيميائي الاصطلاحي الحديث ـ ليست أصغر الجسيمات في تكوين المادة ، وأن القرآن الكريم قد سبق العلم الحديث في هذا بكذا مئات السنين (واعجبوا معي الى هذا الحرص الشديد على وضع القرآن الكريم والعلوم الحديثة في سباق !) . وهنا أيضا يتضح أن الفهم الخاطىء لمعاني الألفاظ (وأبرز معنى للفظ الذرة في اللغة هو الهباءة) وللمعنى البياني المقصود وهو التصغير والتهوين والتقليل ، كالقطمير والنقير وحبة الخردل والورقة ، في مواضع أخرى . هذا فضلا عن إدراك أن لفظ الذرة بالمعنى الاصطلاحي الحديث ، لم يدخل اللغة العربية إلا في وقت متأخر وعلى سبيل ترجمة غير حرفية ولا دقيقة (وإن شاعت وكانت مقبولة لطيفة) للمصطلح الأجنبي « Atom » ، أي غير المنقسم أو غير القابل للانقسام .

وثمة مثال ثالث لا يقل غرابة ومجافاة للحقيقة عن سابقيه ، وهو قول من رأوا بأن المقصود من انتقاص الله الأرض من أطرافها (الرعد : ٤١ ، الأنبياء : ٤٤) إشارة الى النقصان البطيء المستمر للمحور الطولي للأرض نتيجة دورانها كما تدل عليه القياسات العلمية ، وأن هذا أيضا « سبق » و « إعجاز علمي » للقرآن الكريم . والعجيب أن هذا الرأي يتقبله بعض المتحفظين ، مع أنه مخالف تماما للسياق القرآني في الموضعين ، إذ أنه إشارة الى انتقاص أرض الكفار بما يفتحه الله للمؤمنين منها نشرا لدعوة الحق ، وقراءة الآيات السابقة واللاحقة مباشرة للآيتين المشار إليهما كفيلان بالاقناع لمن يريد أن يقتنع ؛ هذا فضلا عن أن هذا الرأي مثال لتأويل حديث يحتم أن المعنى الصحيح للآيتين الكريمتين ظل خافيا على المسلمين هذه القرون الطوال منذ نزل القرآن . وليس من البلاغة في شيء الاشارة الى أمر خافٍ تماما عن المخاطبين ، بل إنه حتى في هذا الزمان لا تكشف عنه الا القياسات العلمية ، ولا شأن له واضحا في حياة البشر ، وليس فيه عبرة لمن يعتبر .

وأعتقد أن في هذه الأمثلة الثلاثة الغناء عن ذكر كثير غيرها .

ما يقال عن الاعجاز العلمي للقرآن وسبقه للعلم :

وثمة قضية أخرى خطيرة لا بد من إثارتها ، فلقد شاع وذاع بين كثير من يجمعون بين تفسير القرآن الكريم وقضايا العلوم الحديثة مسارعتهم في كل موضع الى القول بأن القرآن الكريم قد سبق العلم في هذا أو ذاك من تلك القضايا . وهذا منزلق خطير له محاذيره ، فانه غالبا ما يكون قولا جزافا غير مستند على أي أساس علمي أو تاريخي . فالأمر الذي يكون موضع التأويل لا يعدو في الغالب أن يكون إشارة لطيفة في القرآن الكريم لظاهرة كونية طبيعية ـ هذا اذا صح تخريج المؤوِّل لمناها ـ وليس من الصواب في شيء الزج بتلك الاشارة الكريمة الى تحميلها فوق كل ما تحتمله ووضعها موضع التسابق مع أي مبحث علمي مفصل . هذا فضلا عن أن المُؤوِّل يستحضر بعض فصول التاريخ العلمي الحديثة ، منذ ما سمي عصر النهضة وما بعده ، غير ملتفت الى أن المعارف البشرية كانت في عهد نزول القرآن متضمنة ما اهتدت اليه الأمم الأولى في الحضارات السابقة . والكلام في السبق التاريخي يفتح بابا للجدل ليس من اليسير في كثير من الأحيان الانتهاء فيه برأي . ولنتأمل ـ على سبيل القياس ـ المعارك الجدلية الكثيرة التي دارت حول تحديد ما حققه المسلمون في إبان نهضتهم الكبرى في عصر حضارتهم الذهبي ، ومحاولة المكابرين رده كله أو جله الى الاغريق .

فاذا جاز ، مثلا ، أن تشرح للناس ما وصل اليه العلم عن القوى التي تجذب الأجرام السماوية بعضها الى بعض ثم تحفظها متباعدة عن بعضها البعض دون أن تتداعى ، وأن تقول إن هذه القوى كأنها المعنية بالعَمَد التي لا نراها في قوله تعالى : « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها » (الرعد : ٢) ، فانه لا يجوز أن نقول إن القرآن الكريم قد سبق الى ذكر قانون الجذب العام في الرياضة الفلكية النيوتونية . كذلك اذا قرأنا قوله

تعالى : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم .. » (الأنعام : ٣٨) جاز لنا أن نقول : « تنتظم الكائنات الحية في مجموعات يختص كل منها بصفات تكوينية ووظيفية وطبائع معينة . وفي الآية الكريمة تنبيه الى تباين صور المخلوقات وطرائق معيشتها ، فكما أن الانسان نوع له خصائصه فكذلك سائر أنواع الأحياء . هذا ما يكشفه علم التصنيف كلما تعمق دراسة نوع منها » (المنتخب في تفسير القرآن الكريم ، ١٩٧٨ : ص ١٧٨) . ولكن لا يجوز أن نعلق قائلين بأن هذا يدل على أن القرآن الكريم قد سبق كارلوس لينيوس في وضع علم التصنيف . فالآية أولا ليس فيها تصنيف ، لا وفقا لنظام لينيوس ولا غيره من المصنفين ، ثم إن محاولات التصنيف ضاربة في التاريخ قبل لينيوس وإنْ كان هو واضع أسس المنهاج الذي يتبعه البيولوجيون حتى وقتنا الحاضر . ومن قبيل هذا الذي قيل عن سبق القرآن الكريم الى قوانين الجاذبية وعلم التصنيف قيل أيضا عن انشطار الذرة وارتياد الفضاء وقصر المحور القطبي للأرض ، في الأمثلة الثلاثة التي سبق ذكرها ، وفي كثير غيرها مما يضيق المجال عن حصره وذكره . ولكن لعل أعجب ما قرأت هو رأي كاتب فاضل من علماء الدين يقول إن في قوله تعالى « وإذا العشار عطلت » من سورة التكوير تنبؤ باختراع وسائل الانتقال الحديثة من سيارات وقطارات وطائرات واستخدامها بدلا من الابل (والعشار من النوق ونحوها ما مضى على حملها عشرة أشهر) ، مع أن السياق كله في تعداد أحداث من أحداث يوم القيامة ، ومع بعد المعنى المذكور لأكثر من سبب !

ان القرآن الكريم كتاب منزل من خالق الكون العليم بأسراره ونواميسه ، بل انه سبحانه وتعالى هو مبدع هذه الأسرار وفاطر تلك النواميس . فمن العبث أن نعقد سباقا لا محل ولا معنى له بين كتاب الله العزيز - تنزهت كلماته - وبين علوم البشر ، فهي حتى وان بلغت في هذا الزمان شأوا عظيما ليست الا لمحات من علم الله الشامل الكامل . إن الأقوال الواهية عن « السبق العلمي » للقرآن الكريم لن تقنع غير المؤمن بأن القرآن الكريم كتاب منزل من عند الله وليس من قول محمد النبي الأمي ، صلوات الله وسلامه عليه ، فاننا اذا أردنا أن نقنع غير المؤمنين بهذا وجب علينا أن نلجأ الى أسلوب أكثر إحكاما . ان موريس بوكاي ، الطبيب والباحث الفرنسي ، يقول في كتابه عن « دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة » :«...لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية ، فلم أكن أعتقد قط بامكان اكتشاف عدد كبير الى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقته تماما للمعارف العلمية الحديثة ، وذلك في نص كتب[1] منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا » . (موريس بوكاي ، ١٩٧٨ : ١٤٤) ... ثم ان بوكاي ، عندما يقارن نصوص القرآن الكريم ، بمقابلاتها في الكتب المقدسة الأخرى يقول : « ان تصريحات القرآن على العكس مطبوعة بالايجاز في القول والاتفاق مع المعطيات الحديثة للعلم » (ص : ١٧٤) . وقد تعرض بوكاي لبعض

(١) كان لي تحفظ على لفظ « كتب » في هذه الترجمة العربية ، فلما أتيح لي الاطلاع على الترجمة الانجليزية للكتاب ، التي اشترك المؤلف في نقلها عن الفرنسية ، وجدت اللفظ المقابل : " Compiled " ، أي جمع

التعليقات العلمية على مواضع متعددة في القرآن الكريم ، قد توافقه على بعضها وقد تختلف معه ـ من حيث المنهاج والموضوع ـ في بعضها الآخر ، ولكنه لا يفتأ يؤكد هذا الذي ذكره في الاقتباس الأخير ، وهو دليل سلبي ولكنه قوي ، من أنه لم يجد في القرآن الكريم ما ينافي العلوم الحديثة في شيء . وفي أثناء كتابة أصول هذا المقال ، وقعت في المعرض السادس للكتاب العربي بالكويت (نوفمبر ١٩٨٠) ، على كتيب رصين بين فيه كاتبه الفاضل هذا المعنى بجلاء ووضوح ـ (محمد الصادق عرجون ، ١٩٧٧ : ٦٩ ـ ٧٠) . وقد استشهد الكاتب بأقوال الامام الفيلسوف ابن رشد : « وإذا كانت هذه الشريعة الاسلامية حقا داعية الى النظر المؤدي الى معرفة الحق فانا معشر المسلمين نعلم على طريق القطع أن النظر البرهاني لا يؤدي الى مخالفة ماورد به الشرع فان الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له ونحن نقطع قطعا أن كل ما أدى اليه البرهان القطعي وخالفه ظاهر الشرع أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي وهذه القضية لا يشك فيها مسلم » ـ (عرجون : ٧٠) .

وهذا الصدق المطلق الذي يجده العلماء في القرآن الكريم هو مصداق لقوله تعالى : **أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً** ـ (النساء : ٨٢) . ويتضح مما يقوله الامام البيضاوي أن الاختلاف المشار اليه في الآية الكريمة ليس قاصرا على « تناقض المعنى وتفاوت النظم » ـ أي بين آيات القرآن نفسها ـ وانما يشمل أيضا « مطابقة بعض أخباره المستقبلة للواقع دون بعض ، وموافقة العقل لبعض أحكامه دون بعض » . وهذا هو أهم وجه للاعجاز العلمي للقرآن الكريم ، فهذا الصدق المطلق لا يتأتى الا من العليم الخبير الذي لا يحد علمه زمان أو مكان ، وهذا الكمال لا يكون إلا له وحده سبحانه . وهذا المعنى هو الذي استشعره سير جيمس جينز (الفلكي العظيم ، الذي اشتهر بيننا بكتابه الذي ترجم الى العربية بعنوان : « الكون الغامض ») عندما قرأ عليه العالم الهندي عناية الله مشرقي معنى الآيتين ٢٧ و٢٨ من سورة فاطر ، فصرخ قائلا : « ماذا قلت ؟ ـ انما يخشى الله من عباده العلماء ؟ ! مدهش ! وغريب ، وعجيب جداً !! ان الأمر الذي كشفت عنه دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة (أي بحوث سير جينز نفسه) ، من أنبأ محمدا به ؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة ؟ لو كان الأمر كذلك ، فاكتب شهادة مني أن القرآن كتاب موحي من عند الله ... لقد كان محمد أميا ، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه ، ولكن « الله » هو الذي أخبره بهذا السر .. مدهش .. ! وغريب ، وعجيب جدا !! » ـ (وحيد الدين خان ، ١٩٧٣ : ١٣٢ ـ ١٣٤ ، عن مجلة « نقوش » الباكستانية) . وتفاصيل الرواية ممتعة وذات مغزى ، ويمكن الرجوع اليها في مصدرها .

وكتاب الله العزيز كله معجز ، ويستطيع العلماء أن يتلمسوا دلائل اعجازه في شتى المجالات ، فاذا ماكنا بصدد « اعجازه العلمي » تحتم علينا أن نتوخى الدقة التامة ، فلا نفتعل مناسبة أو نتشبث بلفظ أو نحمله فوق كل ما يحتمل أو نجهل أو نتجاهل حقائق التاريخ . وينبغي أن يكون لنا في الأئمة السابقين أسوة حسنة حين نرى دقة مناهجهم العلمية عندما تناولوا القرآن الكريم من نواحيه اللغوية والبلاغية والتشريعية .

القرآن الكريم أجل وأعظم من أن يكون كتابا في العلوم :

إعجاب المسلمين الصادق بالقرآن الكريم إعجاب لا يفوقه إعجاب ، وهم في ذلك محقون الحق كله . بيد أن إعجابهم هذا قد جعل بعضهم يتصور أن علوم الدنيا كلها ينبغي أن تكون متضمنة فيه ، ولذلك فهم ينادون بضرورة « استخراج » العلوم من القرآن ، وربما كانوا في ذلك مستحضرين فهما معينا لقوله تعالى من الآية ٣٨ من سورة الأنعام « ... **ما فرّطنا في الكتاب من شيء** ... » ، مع أن المفسرين يرجحون ـ أو يقبلون على الأقل ـ أن المقصود بالكتاب هنا هو اللوح المحفوظ . فالامام الغزالي ، يذكر في « جواهر القرآن » أن علوم الانسان ـ ما كان منها واندرس فلم يعد معلوما ، أو ما هو معلوم منها في الحال ، أو سوف يعرف في المستقبل ـ هي « جميعها مغترفة من بحر واحد من بحر معرفة الله تعالى وهو بحر الأفعال ، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له ... » ـ (ص ٢٦) . وهو يقول إن العلوم وراء علوم الدين « كثيرة كعلم الطب والنجوم وهيئة العالم وهيئة بدن الحيوان وتشريح أعضائه وعلم السحر والطلسمات وغير ذلك » ـ (ص ٢٥) . أما تخريجه لمعنى وجودها في القرآن الكريم فيمكننا الاكتفاء بمثال واحد منه : « مثلا الشفاء والمرض كما قال الله تعالى حكاية عن ابراهيم (**واذا مرضت فهو يشفين**) وهذا الفعل الواحد لا يعرفه الا من عرف الطب بكماله إذ لا معنى للطب الا معرفة المرض بكماله وعلاماته ومعرفة الشفاء وأسبابه ... » ـ (٢٦ ، ٢٧) .[٢]

ويرى الأستاذ مصطفى الطير (١٩٧٥) أن جلال الدين السيوطي يرى ما يراه الغزالي ، وكذلك أبو الفضل المرسي يرى ما يراه الغزالي والسيوطي . ولكننا قد رأينا أن الغزالي لم يقصد إلا اشتمال القرآن على إشارات لطيفة الى تلك العلوم . ويغلب أن يكون هو مقصود من يقول مثل هذا القول في هذه الأيام ، الا المبالغين . والواقع أن كتاب الله العزيز ليس كتابا في العلوم ، قديمها أو حديثها ، وانما هو أجل من ذلك وأعظم ، فمن السذاجة حقا أن نتصور أن النبي ، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، قد بعث ليبشر بانشطار الذرة أو ارتياد الفضاء ، أو حتى بكروية الأرض أو تفلطحها عند القطبين أو قانون الجاذبية وما الى ذلك . فهذه الأمور كلها ليست عقائد ، ثم انها ليست في حاجة الى رسول من السماء ، وانما هي معارف يحصلها البشر بأنفسهم ، فالله سبحانه وتعالى قد وهب الانسان خليفته في الأرض من الملكات مايستطيع بها تحصيلها وادراكها.ثم انها لم تكن صالحة في معظم الأزمنة الماضية للدعوة الى الايمان بجوهر الدين ، لأنها سلسلة من المقدمات والنتائج ، لكل منها أوان مناسب له ووسائل متطورة لا ظهاره ..ولو أن الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، قد مزج بدعوته شيئا من هذا ، لما آمن به أحد ، ولخسر القضية في دعوته وهي الايمان بالله ووحدانيته . ومع ذلك فالقرآن ـ كما ذكرنا ـ حافل بحض الانسان على طلب العلم ، ولكن بوسائله ومداخله الطبيعية ، من التفكر والتدبر والنظر وإزالة الغشاوات عن الأبصار والبصائر

(٢) الصفحات المشار اليها هي من صفحات المتن لا المقدمات .

وتحطيم الأقفال عن الأفئدة والقلوب . وكان هذا خيرا وأبقى لأن أي كتاب في العلم ، مهما كبر حجما أو عظم شأنا فهو كتاب محدود . أما إيقاد جذوة الفكر وطلب العلم عند الانسان فهي هبة لا تخبو ولا حدود لها .

« حقائق » العلم وظنونه :

من الحجج التي يثيرها معارضو الاستعانة بالعلوم في فهم تفسير القرآن الكريم أن ما يسمى « حقائق العلم » ليس سوى فروض ونظريات يعتقد رجال العلوم فترة من الزمان في صحتها ثم لا يلبثون أن يثبتوا بأنفسهم بطلانها ، ولذلك لا يجوز ان نرجع اليها عند دراستنا لآي الذكر الحكيم . وهذا القول ـ على إطلاقه هكذا ـ غير صحيح ، بل إنه قد لا يقل خطأ عما يقوله أنصاف المتعلمين من أن العلم ـ بمدلوله الاصطلاحي الشائع في هذا العصر ـ هو وحده الحقيقة وكل ما سواه وهم باطل !

وهذه الاقوال ينقصها ، ولاشك ، الفهم الصحيح لطبيعة العلم . والغريب أنني في ممارستي العلمية الطويلة وجدت أن كثرة الكلام في المنهاج العلمي يغلب أن تدور خارج ميادين المشتغلين بالعلم ، الذين ينصرف معظمهم ـ من الشبان على الاخص ـ الى بحوثهم دون أن يجدوا متسعا من الوقت أو فسحة في النفس للتأمل في مثل هذه الأمور . ولكن لاشك أن رجال العلوم الذين حسن تعليمهم وتدريبهم يبصرون بمعاني الفرض والنظرية والقانون والقاعدة والملاحظة والتجربة ، بل إنهم يعرفون فيما بعد أن هناك في العلوم حدسا وظنا وذوقا وحكما ـ وإنْ حاول كثير منهم إنكار ذلك محتمين بحصانة المنهاج العلمي وموضوعيته ودقته الصارمة (بفردج ، ١٩٦٣) . وما من رجل علم حق لايستطيع أن يميز الفروق بين تلك المعاني التي ذكرناها ـ حين توجد الفروق ـ لأن هذا جزء من تدريبه الأساسي ـ كما ذكرنا ـ ويرسخ بعلمه بالممارسة والاطلاع ، كما أن فلسفة علمه تبصره بحدود علمه وامكانات مدركات حواسه والأجهزة المكملة لها أو المضخمة لقدراتها .

ورجال العلم ـ كغيرهم ـ يتفاوتون طبعا في الملكة والدراية ، ولو أنهم أقل من غيرهم تفاوتا في معرفة « أصول » علومهم التي يتخصصون فيها ، ولكن رجل العلم المتمرس يعرف تماما ماهو « صادق » أو « حقيقي » في علمه ، ولكنه يعلم أيضا أن هذا الصدق ليس بالمعنى المطلق للحقيقة الذي يسمو اليه الفيلسوف أو الصوفي المستبطن . أما « الحقيقة » ـ التي يعرف رجال العلوم معناها وحدودها ـ فهي صادقة ولاتبطل ، ولكنها قد تزداد ، مع الزمن وجهود العلماء المتتابعة ، تفصيلا ووضوحا وجلاء . ولنضرب لذلك مثلا الكشف عن تكون الكائنات الحية العليا من خلايا ، فهذه القاعدة العامة ظلت حقيقة ثابتة منذ نحو قرن ونصف قرن ثم ازدادت رسوخا وتأكيدا (ومع ذلك فهي لم تزل تسمى « النظرية الخلوية » ، فتأمل !) ، ولم يبطلها أن عرفنا من صور الخلايا ما لايكاد يعد ، ولا ماكشفت عنه المجاهر الضوئية والالكترونية من كروموسومات وليسوسومات وما إلى ذلك ، ولاما كشفت عنه علوم الوراثة والكيمياء الحيوية والفيزياء الحيوية والبيولوجيا الجزيئية من جينات وأحماض نووية

وجزيئات ملفوفة ونحو ذلك . وقس على هذا أيضا مايعرف « بالنظرية الذرية » ، فإن اكتشاف الجسيمات المتعددة في داخل الذرة : من بروتونات والكترونات ونيوترونات وما إلى ذلك ، وعلاقات بعض هذه الجسيمات ببعض ، ودورانها وقفزها وتصادمها وانفلاتها ، وانشطار الذرات واشعاعها ، ..... هذا كله لم يبطل الحقيقة الأولى وهي أن كل عنصر من عناصر المادة يتكون من ذرات ! وقس على ذلك مرة ثانية أن الأفكار الأساسية التي توصل إليها جريجور مندل في علم الوراثة منذ أكثر من قرن ، في غفلة من أبناء عصره ، لم تزل صحيحة إلى اليوم رغم التطور الهائل الذي حققه علم الوراثة الجديد ، وهكذا ....

وهذا كله هو مصداق ماتسميه طبيعة العلم المرنة وطبيعة العلم النامية وهما ميزتان ناجمتان عن فضول العلماء الذي لايحد ، ودأبهم الذي لاينقطع في السعي وراء المعرفة ، وعن تراكم نتائج بحوثهم واتقان وسائل إمدادهم بتلك النتائج - وعلى الأخص في هذا العصر ، وعن تقدم وسائل البحث التي تفتح على الدوام آفاقا للعلماء لم يكونوا من قبل يألفونها ، ثم عن التفاعل المثمر بين حصائل أفرع العلوم المختلفة وتورع العلماء الصادقين عن خطيئة التعصب والجمود . والنمو المطرد والمرونة الدائمة للعلوم هما سر حيويتها وتقدمها ، وليس من الصواب اعتبارها دليلا على قصورها وبطلانها . إن العلوم غير مقدسة والعلماء ليسوا معصومين من الخطأ ، ولكن العلوم ليست وهما أو خبالا أو بنيانا ركيكا . إذن فما هو سر القول بأن العلوم الطبيعية ليست أهلا لأن تنضم - في تواضع غير متكلف - إلى « العلوم الخادمة » لتفسير القرآن الكريم ؟ أعتقد أن الاعتراض ناشيء من مصدرين : **أولهما عدم فهم طبيعة العلم واتخاذ أعظم مزاياه منقصة فيه ، كما ذكرنا ، وثانيهما هو خطأ التطبيق ، من قبيل** الأمثلة التي ضربناها . ولعل مثالا تقليديا آخر كثر ترداده يزيد الأمر وضوحا ، وهو تأويل بعض السابقين للسموات السبع ، التي تكرر ذكرها في القرآن الكريم ، بأنها أفلاك الكواكب السبعة السيارة ، فلما كشفت المناظير عن كواكب أخرى لم تكن معروفة من قبل ، هاج المحتجون - بحق - وقالوا : أرأيتم كيف عرضتم كتاب الله العزيز لتفسير خاطيء حين زججتم بالعلوم « المتغيرة » إلى مجال فهمه وتأويله ؟ وحقيقة الأمر أن التأويل كان غير مقبول من أساسه لأنه لايعتمد على فهم علمي سليم ، فكيف تكون أفلاك كواكب المجموعة الشمسية سموات ، وهي لاتعدو بضع هباءات حول نجم متوسط الشأن في مجرة مغمورة تائهة بين الملايين ؟! وهذا المثال أعتبره نموذجا لما لايصلح إلا للتأويل البلاغي ، ولذا ينبغي أن نمسك عن الخوض فيه . **وحري بأهل العلم ألا يسهموا في خدمة تفسير القرآن إلا بما تطمئن اليه عقولهم ونفوسهم ويتفق مع الفهم الصحيح للقرآن الكريم ولعلومهم ، كما سبق القول)** .

وبعد فماذا نحن فاعلون ؟

---

¹ قد عرضنا نماذج من التمحل والافتعال والتورط في اخطاء ظاهرة وقع فيها بعض من أباحوا لأنفسهم حق الاجتهاد فيما يسمونه « التفسير العلمي » للقرآن الكريم . ولعل عذرهم في هذا هو حماسهم لاثبات ما يتصورون

أنه « اعجاز علمى » للقرآن الكريم يتأكد من « سبقه » للعلم الحديث . كذلك حسن نيتهم فيما يفعلون . وان كان حسن النية فى أمر جليل كهذا الأمر لا يكفى . فهل الحكمة أن تنكص على أعقابنا ونمنع . من باب سد الذرائع . كل اجتهاد فى هذا السبيل ؟ لا أظن أن المنع على اطلاقه هو العلاج الأمثل . ولا هو الواجب الذى ينبغى أن يعمل ـ حتى اذا كان منع هذا التيار الجارف مستطاعا . وان أخطاء المفسرين التقليديين للقرآن الكريم (ومن المنزه عن الخطأ ؟) وما حشى بعضهم كتبه به من أساطير واسرائيليات أو تعصبات للمذاهب والنحل والفرق . لم يبرر هذا كله الحكم بالقضاء على كتب التفسير جميعها وتحريم الكتابة فيه .

فالدكتورة بنت الشاطىء . وهى من أشد الغيورين ـ بحق ـ على كتاب الله والمعارضين للمحاولات العصرية فى تفسيره . قد لاحظت أن المفسرين الأوائل لم يكونوا كلهم سواء . فمنهم من اعتسف التأويل عن حسن نية أو سوء قصد . ثم تساءلت : « كيف احتمل الاسلام كل هاتيك الشوائب التى شابت فهم أمته لكتاب دينها . دون أن يخبو فيها نوره ؟ » . وقد أجابت على ذلك التساؤل بقولها : « الواقع أن الوجدان الدينى للأمة . قد ظل يقاوم هذه المدسوسات والمقحمات . بصفاء الايمان والهام البصيرة ...... ومهما تكن العصور المتطاولة قد باعدت بين القرآن وتفسيره . لم يخل أى عصر من صوت يحذر الأمة من مدسوسات الاسرائيليات ومقحمات البدع والأهواء . ولا أعوز الأمة فى ليل محنتها . شعاع من النور يهدى مسراها فى الظلام » (بنت الشاطىء . ١٩٧٠ : ٣٦) .

فالحل اذن هو أن نضع لذلك الاجتهاد منهاجا . وأن نضع للمجتهد شروطا . وأن ننبه الى مزالق الخطأ وموارد الزلل وكبوات الاجتهاد . وينبغى علينا أن نذكّر بعظم إثم التكلم فى كتاب الله بغير علم . وأن نحرص على أن نفصل كل اجتهاد علمى عن متون التفسير نفسها التى يجب أن تبقى أمانة بين أيدى أهل الاختصاص فيها .

أما الغيبيات فلا كلام فيها إلا بقرآن أو حديث نبوى . وما عدا ذلك فهو تهجم وتجوز وتخليط لا مبرر له ولا طائل من ورائه . وكذلك المعجزات الالهية لا ينبغى الكلام فيها إلا اذا كان المقصود أن يظهر العلم عظمة ما فيها من إعجاز أو لتقريبها الى الأفهام .

والذى يدفعنا الى التمسك بأهداب المحاولات الصحيحة الملتزمة بأمانة منهاج قويم هو رجاء تحقيق غايات نافعة ومقاصد شريفة يمكننا أن نوجزها فيما يلى :

١ ـ اسهام العلوم الطبيعية فى خدمة فهم تفسير القرآن الكريم . كما سبقتها الى هذا الشرف علوم اللغة وآدابها التى سميت بالعلوم الخادمة . وفى هذا العصر أصبح اسهام العلوم واجبا وضرورة وفريضة على الأكفاء القادرين على حمل أمانته .

٢ ـ العلم أصبح السمة البارزة لهذا العصر الذى أصبحت الثقافة العلمية فيه تطرق مسامع الناس وعقولهم ليل نهار ومن كل طريق . بل انهم يعايشون مستحدثات العلم وينعمون بها أو يكتوون بنارها . ومن هنا كان

الربط غير المفتعل بين الدين والعلم أدعى الى اجتذاب الشباب الى الاستزادة من قراءة تفسير القرآن الكريم مع تعليقات علمية تخاطبهم بلغة عصرهم . (ولا أريد أن أكررهنا أن هذا الاسلوب هو اسلوب القرآن الكريم نفسه التي جعل التفكر في آيات الله الكونية مدخلا رحبا الى الايمان) .

٣ ـ تزويد التفاسير بتعليقات علمية سديدة يهيء لعلماء الدين ورجال الوعظ وتعلم الدين المقدار المناسب من المعارف العلمية الصحيحة التى تعينهم على حسن أداء رسالتهم فى مخاطبة أهل العصر بلغتهم ـ كما بينا ـ وتعصمهم من التورط فى أخطاء علمية يأخذها عليهم الشباب المثقف وتزلزل من ثقة هؤلاء فى أقوالهم .

٤ ـ من النقطتين السابقتين يتضح أن الفائدة مزدوجة لأصحاب الثقافة الدينية [والانسانيات بصفه عامة] وأصحاب الثقافة العلمية على السواء . وهذا يسهم أيضا فى عبور الفجوة المتوهمة بين الدين والعلم والجفوة المفتعلة بين « أهل الثقافتين » . وهذا يحقق عنصراً هاما من عناصر الوحدة القوية بين أبناء الأمة . (عبد الحافظ حلمى محمد ، ١٩٨٠) .

٥ ـ ازالة الشبهات من نفوس الشباب حين يتوهمون وجود تعارض بين نص قرآني شريف وشيء من معارفهم العلمية .

٦ ـ كما أن توضيح تفسير القرآن الكريم بما يناسبه من حقائق العلوم مفيد على هذا النحو للمؤمنين ، يثبت إيمانهم ويزيل أوهامهم وشكوكهم ويزيدهم هدى ، فإنه قد يكون أيضا مفتاحا لغيرهم ممن يشرح الله قلبه للايمان . ولكن نبل الهدف لا ينبغى أن يدفعنا الى التكلف ، وينبغى أن نعرف أن العلم وحده لا يكفى للايمان ، انما يجب أن تسبقه الفطرة السليمه والرغبة الأكيدة لمعرفه الحق . ولا بد له من هذا النور الذى يلقيه الله فى قلوب عباده الذين ينشدون معرفته ويشاء لهم سبحانه الهدى . « إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » ـ (القصص : ٥٦) . والأمثله على هذا كثيرة ولكن لعل من أبلغها دلالة المثال التالى : لما سئل العلامة عبد الأحد داود ، مؤلف كتاب « محمد فى التوراة والانجيل » (بالانجليزية) كيف اعتنق الاسلام ، أجاب بأن « تحوله للاسلام لا يمكن رده الى أى سبب سوى رحمة الله به وهدايته اياه ، فبدون هذه الهداية الالهية يصبح العلم كله والبحث وجميع الجهود التى تبذل فى سبيل الوصول الى الحقيقة لا جدوى لها ، بل انها قد تقود الى الضلال »[٢]

وبعد فان خير وسيلة لاختيار هذا المنهاج الذى مدحناه هى وضعه موضع التطبيق ، وهذا ما سوف نفعله ـ بعون الله ـ فى النماذج التالية ، وهى نماذج قليلة تناولت بعضها بشيء من التفصيل الذى يسمح بتحليلها ومناقشتها . ويمكن أن يقاس على تلك النماذج كثير غيرها ، يضيق عنها المقام .

---

(٢) ترجمة تكاد تكون حرفية للكلمة سُطِّرَتْها الكتاب المشار اليه . انظر Dawud, 1978 فى قائمة المراجع الأجنبية .

١ ـ « ... وجعلنا من الماء كل شيء حي ... »

« **أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حي ، أفلا يؤمنون** » ـ الأنبياء : ٣٠ .

هذه الآية الكريمة مثل بليغ لمنهاج القرآن في لفت نظر الناس بأسلوب التقرير الاستفهامي القاطع ، الذي لا يخلو من لوم لاذع ، الى التأمل والتدبر في آيات خلق الله ، ثم حضهم على اتخاذ ذلك مدخلا عقليا ووجدانيا الى الايمان بالخالق القادر المبدع . وأنا لن أتكلم هنا عن الرتق والفتق ، وما قد يقال في تفسيرها من آراء مختلفة مقبولة أو غير مقبولة ، وانما سوف أحصر اجتهادي في فهم قوله تعالى : « **وجعلنا من الماء كل شيء حي** » :

« الماء » في القرآن الكريم :

وردت لفظة « ماء » في القرآن الكريم منفصلة تسعا وخمسين مرة ومتصلة بالضمائر أربعا أخرى . وفي أربعة مواضع (أو خمسة) الظاهر أن معناها النطفة أو ماء التناسل :

١ ـ في سورة الفرقان : « وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا ، وكان ربك قديرا » . (٥٤) .

٢ ـ في سورة السجدة : « **الذي أحسن كل شيء وبدأ خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين** » .. (٧ ، ٨) .

٣ ـ في سورة المرسلات : « **ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه في قرار مكين** » . (٢٠ ، ٢١) .

٤ ـ وفي سورة الطارق : « **فلينظر الانسان مم خلق . خلق من ماء دافق** » . (٥ ، ٦) .

والأرجح أن هذا هو المعنى أيضا في موضع خامس ، من سورة النور : « **والله خلق كل دابة من ماء** ...... » (٤٥) .

أما في المواضع الثمانية والخمسين الأخرى كلها فيدل لفظ « الماء » على ذلك السائل الذي ينهمر من شآبيب رحمة الله وتعبض به المحيطات والبحار والبحيرات والأنهار والعيون . والذي لانعرفه بعد الجهد إلا بانه الماء الذي يتألف كل جزىء من جزيئاته من ذرة واحدة من الأكسجين وذرتين من الهيدروجين . أما في هذا الوضع من الآية الثلاثين من سورة الأنبياء فلاشك أنه هو المقصود بعينه .

آراء المفسرين :

للمفسرين في هذا المقام اجتهادات ذكية . ولقد استوعب الألوسي في « روح المعاني » من أقوال سابقيه

الكبير . وإذا استبعدنا بعض المسائل اللغوية والنحوية غير شديدة المساس بموضوعنا وبعض أوجه الخلاف في فهم المفسرين ألفاظا دقيقة في المعنى ، استطعنا أن نخلص الى مايلي :

١ ـ « جعل » فعل متعد لمفعول واحد بمعنى « خلق » ، ومن ابتدائية . ووجه كون الماء مبدأ ومادة للحيوان وتخصيصه بذلك أنه أعظم مواده وفرط احتياجه اليه وانتفاعه به بعينه .... » . ولكنه يشير أيضا الى معنى ينقله عن « قطرب وجماعة » : « ..... ويجوز أن يكون الجعل بمعنى التصيير المتعدي لمفعولين (وهما هنا : كل ، من الماء) ..... » ، ويكون المعنى على ذلك : « صيرنا كل شيء حي متصلا بالماء ومخالطا له غير منفك عنه ، والمراد أنه لايحيا دونه ... » .

وسوف نرى أننا اذا استعنا بالعلوم الحديثة أكدنا هذا الفهم وأيدناه وزدناه وضوحا وتفصيلا وبلغنا أبعد أعماقه ، بل اننا نستطيع أن نجنب المفسر عناء التأويل في تخريج معنى خلق الأحياء « من » الماء ، ونثبت أن هذا صحيح بالمعنى الحرفي للألفاظ . والواقع أن المفسر قد جهد في محاولة ذلك حتى نقل عن بعض من يقولون بفلسفة الاغريق من أن أصل الموجودات الماء . « لأن الماء قابل كل صورة ومنه أبدعت الجواهر كلها من السماء والأرض ..... »

٢ ـ ناقش الألوسي المعنى المقصود من قوله تعالى « كل شيء حي » (بمعنى أنه اهتم باستبعاد الملائكة والجن على أساس منطقي ، فمع أنهم أحياء الا أنهم « ليسوا مخلوقين من الماء ولا محتاجين اليه ، على الصحيح » !) . ونظرا لالتباس معنى « الحياة » عند الأوائل ، مال الى قصرها على الحيوان لأنه « متصف بالحياة الحقيقية (ونقل عنه البيضاوي هذا الرأي ، فيما بعد) . ولكنه ذكر رأي قتادة بأن المعنى هو « خلقنا كل نام من الماء فيدخل النبات ، ويراد بالحياة النمو أو نحوه ...... » .

وهنا أيضا نستطيع الاستعانة بالعلم لحل ذلك الخلاف بين المفسرين فنريح بالهم بأن العلم يؤيد الرأي الأخير بأن المقصود عوالم الأحياء كلها ، عالم النبات وعالم الحيوان بل حتى ما بينهما من كائنات أولية دقيقة ، فهي كلها تتصف بالحياة التي يعكف العلماء على دراسة مناشطها ومظاهرها ومحاولة تفهم بعض أسرارها ، دون أن يتفقوا على وضع تعريف محكم لها .

الماء والحياة :

الماء صنو الحياة التي نعرفها ، فلا حياة بلا ماء حتى أن بعض العلماء يعرف الحياة بأنها ظاهرة مائية . ويوجد بين الأحياء كائنات تحيا دون هواء ، ولكن ليس بينها كائن واحد ، دق أو كبر ، يستطيع الحياة دون ماء . ان بعض الكائنات الدنيا تستطيع تحمل الجفاف زمنا قد يطول بالأعوام ، ولكنها لاتفعل ذلك إلا وهي كامنة لانشاط

لما يبدره بأعطيه نفسها من أن تجف حتى الموت . وأقرب الأمثلة لدينا أبواغ (جراثيم) الكائنات الدقيقة وحوصلات بعض الطفيليات وصغار الحيوانات وبذور النبات ... ولكن ليس ثمة من كائن واحد يستطيع النمو والتكاثر والازدهار دون ماء ، ولو أن بعضها يكفيه القليل . فانك سوف تعجب أشد العجب اذا فحصت غلالة رقيقة من الماء تغلف حبة رمل فوجدتها تعج بما لا يحصى من الكائنات الدقيقة . ولهذه المعاني كان هم العلماء عندما كانوا يفحصون الكواكب بمناظيرهم ويحللون أطيافها بأجهزتهم ، ثم لما أرسلوا اليها أقمارهم الصناعية فيما بعد ، أن يعرفوا إنْ كان بأي منها ماء حتى يرجحوا احتمال وجود الحياة به .

ولا عجب في ذلك . فالكائنات الحية معظم أجسامها ماء . ولكنها تتفاوت في ذلك وفقا لطبيعة أنسجتها وخصائص بيئتها وأطوار حياتها . فالماء ، على سبيل المثال ، قليل في البذور والحوصلات والأبواغ والأظلاف والقرون ، وقليل نسبيا في بعض حيوانات الصحراء ، ولكنه يتجاوز السمن في المائة من أوزان بعض الثمار العصيرية الغضة وكثير من الكائنات البحرية . ولو أخذنا الانسان مثلا ، لوجدنا أن نحواً من ثلثي جسمه ماء ، يكمن بوفرة داخل خلاياه ، ويغلفها بغلالات رقاق ويتخلل فيما بينها وفي أعماق كل نسيج من أنسجة جسمه حتى أصلب عظامه . والماء أيضا هو نهر الحياة الدافق في عروقه حاملا الى كل خلية في جسمه أسباب بقائها من أكسجين وغذاء وهرمونات ومواد المناعة ودواء وفيتامينات ، مخلصا اياها من كل نفاية ووضر وسم . وكل العمليات الحيوية في جسم الانسان ـ بلا استثناء واحد ـ لا تجرى إلا في وجود الماء . فبدون الماء ليس ثمة من تنفس أو اغتذاء أو هضم أو حركة أو إخراج أو تكاثر . ولولاه ما تذوق الانسان طعاما وما شم عطرا ولتيبست أنسجته وتلاصقت مفاصله ، وارتفعت حرارة جسمه حتى يقضى عليه .

وقصة الماء مع الانسان طويلة ، تبدأ معه نطفة سابحة في ماء ، ثم جنينا محفوظا في قراره المكين من كل أذى في قربة من الماء وتصله أسباب الحياة كلها من أمه في الحبل السُّرِّي محمولة مع الماء ، ثم وليدا يرشف أول غذاء له من ثدي أمه لبنا سائغا قوامه الماء . بل إن الماء مع الانسان حتى في آلامه وأحزانه التي يسكبها دموعا تغسل أشجانه . فلا عجب أن يستطيع الانسان الصبر على الجوع أياما كثيرة ، ولكنه لا يحتمل الظمأ الا يوما واحدا أو أياما قلائل لا تتجاوز الأربعة (ميلن وميلن ، ١٩٦٦) .

ويحصل الانسان على ماء حياته من ثلاثة مصادر رئيسية : فنحو ٤٧٪ منه يشربه ماء قراحا أو سوائل مختلفة قوامها الماء ، و ٣٩٪ منه متضمنا فيما نسميه الأغذية الصلبة ـ فاللحوم والخضر والفواكه والخبز كلها تحوى نسبا متفاوتة من الماء ـ . أما الجزء الباقي (١٤٪) فيولد في الجسم نتيجة عمليات التأكسد (الاحتراق) الدائرة فيه ، وهذا ما نسميه « ماء الأيض » . أما الماء الخارج من الجسم فنحو من ثلثه تخرج مع البول (٩٥٪ من البول المعتاد ماء) . أما الثلث الباقي فيخرج مع العرق وهواء الزفير وما تطرده الأمعاء .

والماء أعظم منظم للضغط ودرجة الحموضة وتوزيع الحرارة والمواد المختلفة بين أجزاء الجسم، ولكنه هو نفسه

يتحكم في كميته في الجسم جهاز منظم بديع ، فينبغي أن يكون بين صادرات الجسم وواردته من الماء توازن دقيق ، يكفي أن نشير هنا الى أهم ملاحظة . فالانسان اذا فقد من مائه نحوا من ١٪ من وزن جسمه أحس بالظمأ ، أما اذا ارتفع الفقد الى نحو ٥٪ جف حلقه ولسانه وتغضن جلده واختلس عقله وأصيب بانهيار تام ، أما اذا تجاوز الفقد ١٠٪ فانه سوف يشرف على الموت والهلاك ولن ينقذه منها الا شربة ماء . والعجيب أن ازدياد كمية الماء في الجسم هي أيضا خطيرة فانها تسبب الغثيان والضعف ثم تؤدي بالتدريج الى اختلاط العقل وفقد حاسة الاتجاه الصحيح والاختلاجات والتشنجات والغيبوبة ثم الموت ، ويقال إن بعض القبائل المتوحشة تعاقب مذنبيها بالشرب القسري للماء (ليوبولد وآخرون ، ١٩٧٠ ـ المراجع الأجنبية) .

ونشاط الغدد العرقية يتأثر بتغيرات الجو والعواطف ، وكذلك بخار الماء الخارج مع هواء الزفير لا يستطاع التحكم فيه الا باللهاث أو خنق الانفاس . أما الكليتان فهما الجهاز الذي يتحكم في إخراج الماء ، والبول ـ كما ذكرنا ـ هو أهم صادرات الماء من الجسم . وهناك دولاب رائع يتحكم بدوره في عمل الكليتين . ففي كل كلية نحو مليون جهاز دقيق لاستخلاص المواد المسرفة من الدم ، أي الضارة بالجسم أو الزائدة عن حاجته . وهذه المواد كلها تستخلص ذائبة في الماء ، ولكنها تكون ذائبة في كمية كبيرة منه ، ولذلك زود كل جهاز من تلك الاجهزة الدقاق (التي تسمى النفرونات) بأنيبيبات غاية في الدقة يمر من خلالها ذلك السائل المستخلص فتسترد منه المواد النفيسة كالسكر والأحماض الأمينية (المكونة للبروتينات) ومعظم الماء بعد أن أدى وظيفته العظمى في الاذابة والغسل والنقل . وهكذا يصبح البول سائلا مركزا خاليا من المواد التي يحتاج اليها الجسم .. وهذا يكون في الكلية السوية ، أما ظهور هذه المواد في البول فهو أعراض لحالات مرضية .

وأجسامنا مزودة بجهاز فائق الحساسية يتحكم في وظيفة النفرونات ليحدد كمية الماء المسموح باخراجها مع البول . ويدير جهاز الضبط هذا جزء صغير في الدماغ (المخ) يسمى المهاد (السرير) التحتاني ، يقع عند قاعدة الدماغ فوق الحبل الشوكي (وله وظائف أخرى هامة) ، وهو يتحكم بدوره في الغدة النخامية التي تقع أسفل الدماغ فوق سقف الحلق . فاذا قل منسوب الماء في الجسم تنبه لذلك مستقبلات في المهاد فتبعث برسالات الى الفص الخلفي من الغدة النخامية لتفرز هرمونا يسمى الهرمون المضاد لادرار البول (أو القابض للأوعية) A D H فيجري مع الدم حتى يصل الى النفرونات فيحثها على التمسك بالماء . أما اذا انعدم إفراز ذلك الهرمون أصبح البول كثيرا ومائيا بصفة دائمة ، وهذا هو ما يعرف بمرض الديابيطس الكاذب . ولا شك أن مقدار ما نشربه من الماء أو السوائل المائية وتأثير مجموعة من المواد والعقاقير المدرة للبول (ومنها الكافيين في الشاي والقهوة والكحول) وتقلب العواطف واختلال جهاز الضبط الدقيق .. عوامل تؤثر كلها في كفاءة ذلك التوازن البديع .

وشعورنا بالعطش يأتي من فعل انعكاسي متولد عن جفاف الفم والحلق على الأخص ، نتيجة قلة إفراز

اللعاب . وهذا الجفاف ونقص مستوى الماء وزيادة مستوى الأملاح في الجسم تدفع بعض الخلايا في المهاد (وهي تسمى « مركز الشرب ») إلى أن تصدر الاشارات المنبهة لشعورنا بالعطش وطلب الماء (وفي الوقت نفسه يتخذ المهاد اجراءات تمسك الكليتين بالماء ، كما ذكرنا) . وجدير بالذكر أن بلّ الفم بالماء لا يخدع جهاز الشرب فانه لا يذهب الشعور بالعطش ، ولكن بلّ الحلقوم أبلغ في هذا الفرض . والحيوانات البرية كلها لها أيضا وسائل متنوعة في الحفاظ على ما في أجسامها من ماء ، ولكن لعل أعجبها في ذلك شأنا الجمل ، سفينة الصحراء ، كما سوف نذكر في موضع لاحق من هذا المقال .

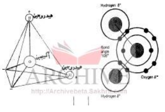
وهكذا تكون قد ألممنا بلمحات من أهمية الماء للانسان من الناحية الوظيفية البيولوجية ولكن للماء بالانسان وشائج وثيقة لا تعد ... في نظافته ، في إعداد غذائه وتناول طعامه ، في صناعاته التي لا تكاد تستغني احداها عن الماء ، وفي انتقاله بالزوارق والسفن ... الخ . بل ان التاريخ ليحفل بأنباء المعارك التي دارت بسببه ، والأقوام الذين قدسوه ، والحضارات التي ازدهرت بارتوائها منه وتلك التي بادت بسبب فقده أو سوء تدبيره . وليس هذا هو شأن الماء مع الانسان وحده ، وانما هو شأنه مع كافة الأحياء بلا استثناء . ولعل أبلغ مثل ما نراه من الصحراء الجرداء بعد هطول المطر عليها ، فانها بين عشية وضحاها ـ بلا مبالغة ـ سوف تدب فيها الحياة وسرعان ما تكتسي بالخضرة والزهر من كل لون وتنشط فيها عديد من أنواع الحيوان . « وترى الأرض هامدة **فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج** » (الحج : ٥) .

الماء ، ذلك السائل الفريد :

وصف بعض العلماء الماء بقوله : « ان الماء ينفرد ، من بين المواد اللازمة لقيام الحياة على الأرض ، بأنه أعظمها أهمية ، وأوسعها انتشارا ، وأعجبها شأنا . ومع ذلك فما أقل ما يعرفه سواد الناس عنه » . (ليوبولد وآخرون ، ١٩٧٠) . وان الله ، بديع السموات والأرض ، قد هيأ الماء للقيام بدوره الرائع ، فأودع فيه خصائص فيزيائية وكيميائية فريدة ، تبلغ في تفردها وغرابتها مبلغ الشذوذ . واذا تعمقنا الأمر وجدنا أن هذا السر كامن في صميم بنيان جزيء الماء .

فجزيء الماء يتألف ، كما هو معروف مشهور ، من ذرة واحدة من الأكسجين وذرتين من الهيدروجين . ومع أن الجزيء كله متعادل كهربائيا الا أن ذرة الأكسجين الأكبر حجما تجتذب نواتها عددا من الالكترونات السالبة أكبر مما تجتذبه كل من ذرتي الهيدروجين ، ومن ثم تصبح ذرة الاكسجين أكثر سلبية نسبيا ، وتصبح كل من ذرتي الهيدروجين أكثر ايجابية ، نسبيا أيضا . ولما كانت ذرتا الهيدروجين غير موزعتين توزيعا متماثلا بل ترتبطان كلاهما بذرة الأكسجين من جهة واحدة ، فان هذا الوضع يشكل بنيانا هندسيا عليه شحنة سالبة في جانب وعليه شحنة موجبة في الجانب المقابل ، أي يكون للجزيء قطبان كهربائيان مختلفان ، ومن ثم يوصف جزيء الماء بأنه ذو

قطبين أو « قطبي » . ويمكننا تصور جزيء الماء واقعا في داخل شكل رباعي الأسطح ، تحتل كل من ذرتي الهيدروجين بشحنتيها الموجبتين ركنا من أركانه في احدى جهتيه ، أما ذرة الأكسجين فتحتل وسطه وتتركز شحنتها السالبة في الركنين المقابلين (شكل ١) . وسوف نرى أن هذا البنيان وظاهرة « القطبية » التي أشرنا اليها هما السر في معظم خصائص الماء العجيبة التي تؤهله في القيام بدوره في الحياة . وصدق الله ، عز من قائل : « إن الله بالغ أمره ، قد جعل لكل شيء قدرا . » ـ (الطلاق : ٣) .



شكل (١)

جزيء الماء ذو القطبين

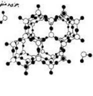
أ ـ ارتباط ذرتي الهيدروجين بذرة الأكسجين . الالكترونات ممثلة بالكرات الصغيرة والالكترونات الثنائية المرسومة في المدار الخارجي حول نواة ذرة الأكسجين ، ستة منها للأكسجين وواحد منها لكل من ذرتي الهيدروجين

ب ـ شكل هندسي ثلاثي لجزيء الماء تخيله داخل شكل رباعي الأسطح . (من جولد سبي ، ١٩٧٩) .

١ ـ **تماسك جزيئات الماء** : الشحنات الكهربائية على جزيء الماء تستطيع جذب الشحنات المخالفة في الجزيئات الأخرى ، فكأنها أذرع ممتدة ترحب باللقاء والتماسك مع جزيئات أخرى فترتبط معها بروابط تسمى « الأواصر الهيدروجينية » . وأول ما يرتبط به جزيء الماء جيرانه من جزيئات الماء الأخرى ، فتتجاذب الأطراف

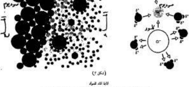
الهيدروجينية الموجبة مع الأطراف الأكسجينية السالبة . وهذه الأواصر ليست شديدة القوة فهي لا تفتأ تنفك وترتبط في لحظات بالغة الضآلة من الثانية ، ومن ثم تصبح جزيئات الماء متماسكة سائلة في درجات الحرارة المعتادة . وعلى أية حال فإن قوة تماسك جزيئات الماء تفوق تماسك جزيئات أي سائل آخر على الأرض ، باستثناء الزئبق ، ولكنها تَفْضُل الزئبق الذي يمنعه تماسك جزيئاته الشديد من الالتصاق بأي سطح . أما الماء ففيه بجوار التماسك مودة وألفة يجعلانه ينتشر على الأسطح ويجري عليها . وهذا بالطبع له أهميته العظمى في قيام الماء بوظائفه نحو الأحياء . **فهو إذن يجمع بين التماسك وقابلية الالتصاق** .

وللتماسك جزيئات الماء مظهر آخر ، وهو أنها تجعل سطح الماء كأنه غشاء قوى مرن ، وهذه ظاهرة تعرف **بالتوتر السطحي** ، فانك لو وضعت في رفق ابرة من حديد فوق سطح الماء ظلت فوقه وكأنها محمولة بغشاء يحول بينها وبين أن تغوص فيه نظرا لزيادة كثافتها كثيرا عن الماء . وكثير من صغار الكائنات تستطيع أن تمشي مشيا فوق سطح الماء وكأنها تمارس سحرا ، كما أن بعضها الآخر يتدلى في الماء متعلقا بذلك السطح العجيب . وانك لو شاهدت قطرة الماء تنحدر من الصنبور هابطة في تؤدة وكأنها لؤلؤة صلبة مشدودة بسلك من فضة ، أدركت ماذا نعني بقولنا : التماسك والتوتر السطحي . وتماسك الماء وقابليته للالتصاق يجعلانه يصعد في الأنابيب الشعرية الدقيقة ضد جاذبية الأرض ، أي أنه يكتسب خاصية ثالثة هي « الشعرية » . وما يمتاز به الماء من تفوق في هذه الخصائص الأربع (التماسك وقابلية الالتصاق والتوتر السطحي والشعرية) هو التفسير الوحيد الذي يعلل به علماء فيزيولوجيا النبات الأعمال الخارقة التي يقوم بها الماء ، فهي بعض السر الكامن في قدرة الماء على الارتفاع من أطراف جذور النبات المتعمقة في الأرض الى قممه السامقة في الفضاء ، والتي قد تبلغ أربعمائة متر في مداها في بعض أنواع الأشجار . وهذه الخصائص بالاضافة الى صغر كثافته وقلة لزوجته ، هي التي تمكنه من يسر الحركة بين الخلايا في النبات والحيوان والمرور من أغشيتها ، كما أنها تمكن الدم من أن يتم دورته في الأجسام لضخ القلب له .



شكل ٢
تماسك جزيئات الماء
(عن كيس ، ١٩٧٩)

٢ ـ الماء أعظم مذيب : تستطيع جزيئات الماء أن تدفع بنفسها مندسة بين جزيئات المواد الصلبة التي تلامسها (أو الذرات الداخلة في تركيبها) حتى تفككها ثم تحيط بكل جزيء منفصل منها حتى لا يعود قادرا على الاتصال باخوته . وقطبية جزيئات الماء تجعلها لا يستعصي عليها أي جسيم مشحون بالكهرباء ، فان كانت شحنته موجبة جابهته بوجهها الأكسجيني السالب ، وان كانت شحنته سالبة جابهته بوجهها الهيدروجيني الموجب . وهكذا تتكون روابط بين جزيئات الماء وتلك الذرات المشحونة (أو الأيونات ، كما يسميها الكيماويون) أقوى مما كان بين تلك الذرات وأخواتها وبذلك تفرق بينها ـ وهذا هو الاذابة . وما لا يستطيع الماء إذابته إذابة حقيقية على هذا النحو لكبر حجم جزيئاته أو لغير ذلك من الأسباب ، استطاع في كثير من الأحوال تفكيك دقائقه وحمّله معلقا أو مستحلبا فيه . ويذيب الماء من المواد أكثر مما يستطيعه أي مذيب آخر سواه ، حتى أنك لا تكاد تجد ماء نقيا في الطبيعة ، بل إن كوب الماء الصافي الذي تشربه قد يحوي ، من بين ما يحويه ذائبا فيه ، عددا ضئيلا من جزيئات زجاج الكوب نفسه ! (ليوبولد وآخرون ، ١٩٧٠) . وكل ماء في الطبيعة هو محلول مائي ، أما ماء البحر فانه محلول مركز من مئات المواد العضوية وغير العضوية . ومقدرة الماء الهائلة على الاذابة تؤهله ـ وحدها ـ لأن يقوم بوظيفته الكبرى في الحمل والنقل في جسم كل كائن حي ، ولأدائه دورا رئيسيا في كل تفاعل فيه ، ولغسل باطنه من السموم والنفايات (كما رأينا في اخراج البول) ونظافة ظاهره ، كما هو معروف . وهذا كله فضلا عما يقوم به الماء في التربة من اذابة المواد ونقلها للنبات ، وعمله الدائب في تشكيل سطح الأرض وتحويل مكوناتها من حال الى حال .



(شكل ٢)

اذابة الماء للمواد

أ ـ جزيئات الماء تفكك جزيئات من ملح الطعام (كلوريد الصوديوم) بعضها يجابه ذرة الصوديوم الموجبة بوجهها الأكسجيني السالب ، وبعضها الآخر يجابه ذرة الكلور السالبة بوجهها الهيدروجيني الموجب (عن أريس وكاميت ، ١٩٧٩) .

ب ـ ملح الطعام يذوب في الماء (عن كيرتس ، ١٩٧٩) .

٣ ـ الماء في تفاعلات الحياة جمعاء : ما من تفاعل كيميائي واحد يحدث في جسم كائن حي الا وللماء دور فيه ، وخصائص الماء ذكرناها ، وعلى الأخص قطبية جزيئاته ومقدرتها الفائقة على الاذابة ، تفسر لنا ذلك . فالماء على أقل تقدير هو الوسط الذي لا بد أن تحدث فيه التفاعلات الحيوية حين تتقابل المواد ذائبة فيه . ثم أنه قد يقوم بدور الوسيط في التفاعلات ، ولكنه كثيرا ما يكون طرفا في التفاعلات نفسها . وعمليات البناء ، أي ربط الجزيئات بعضها ببعض وكثافتها ، تتم بخروج مكونات الماء من بينها أما عمليات الهدم (أي التحليل) فتتم بدخول جزيئات الماء فيها ، ولذلك يسمى هذا تحليلا مائيا ، وهو عملية بارزة في خطوات الهضم . وسوف نذكر بعد قليل أن عملية التمثيل الضوئي ، التي هي أصل المواد العضوية ـ أي مواد الحياة نفسها ـ الماء طرف رئيسي فيها .

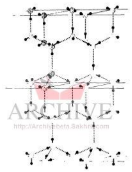
٤ ـ موزع الحرارة ومنظمها في الأحياء وبيئات الأحياء : يقول الفيزيائيون أن للماء حرارة نوعية عالية أو سعة حرارية كبيرة ، فهي ضعف مثيلتها في الكحول مثلا . ومعنى هذا أننا اذا اخذنا مقدارين متساويين منها وسخّناها تسخينا متساويا كان ارتفاع درجة حرارة الماء نصف ما ترتفعه حرارة الكحول . ويصدق الأمر تماما عند التبريد أيضا . وهذه الظاهرة تجعل البحار والمحيطات تتمتع بثبات عظيم في درجة حرارتها ، فكأنها تقي ما فيها من أحياء كثيرة من تقلبات الجو . وهذا هو ما يحدث أيضا في جسم الكائن الحي نفسه ، واذا عرفنا أن التفاعلات الكيميائية الحيوية تكون في أحسن حالاتها في حدود ضيقة من تغير الحرارة عرفنا قيمة هذا الثبات الحراري للأحياء . هذا فضلا عن أن الماء قادر بهذه الخاصية من أن يمتص مقدارا كبيرا مما تنتجه الأحياء من حرارة نتيجة نشاطها ، ثم انه بسرعة جريانه وجودة توصيله يحمل الحرارة بعيدا عن مصادر تولدها موزعا إياها في الجسم ، وهذا كله يقي الكائن الحي من كوارث مهلكة تهدد أعضاءه الحساسة ، كالدماغ . ولا ننسى أن الماء يقوم بهذه الوظائف كلها بالنسبة لكوكب الأرض في جملته ملطفا من قسوة التقلبات العنيفة في حرارة الهواء واليابسة . والسعة الحرارية الكبيرة للماء ناجمة أصلا من تماسك جزيئاته المترتب على قطبيتها .

٥ ـ الماء مبرد عظيم : يتعلق بخصائص الماء الحرارية التي ذكرناها أنه يتطلب مقدارا عظيما من الحرارة كي يتبخر ، أي أن تتباعد جزيئاته المتماسكة بقوة حتى تتفكك في صورة غازية . وهذه أيضا نعمة كبرى لكثير من الأحياء إذْ أن تبخر الماء من فوق جلودها يستنفد من حرارة أجسامها مقدارا كبيرا فيبردها ويساعد على ثبات حرارتها ، كما أنه يعينها على العيش اذا ارتفعت حرارة الجو من حولها دون أن تتعرض للهلاك . والانسان وكثير من الثدييات يعتمد على الغدد العرقية في إخراج الماء اللازم لتبريد أجسامها بالتبخر ، بينما بعضها يلهث كي يتم التبخر من جهازه التنفسي الأعلى ومن فيه ولسانه المتدلي . فالكلب لا يلهث اذا عدا زمنا طويلا لمطاردته إياه وحسب ، وانما هو يلهث أيضا اذا ربض هادئا في يوم قائظ ، وذلك لقلة الغدد العرقية في جسمه . وهذه هي الصورة التي يرسمها القرآن الكريم في قوله تعالى : « **واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إنْ تحمل**

عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون » ـ (الأعراف : ١٧٥ ـ ١٧٧) . والسعة الحرارية الكبيرة للماء وكبر مقدار الحرارة اللازمة لتبخره يؤديان الى ارتفاع درجة غليانه وتحوله الى بخار ، ومن ثم فهو يبقى سائلا في مدى واسع من درجات الحرارة المعتادة في جميع أنحاء الأرض ، وبذلك يظل صالحا للقيام بوظائفه العظيمة في حياة الأحياء .

والماء ينظم حرارة الجو بتجمده وانصهاره أيضا ، إذ أن نقطة تحول الماء بين السيولة والصلابة هي درجة الصفر المئوي ، وهو محتاج الى كمية كبيرة من الحرارة لحدوث ذلك (كما هي الحال عند تحوله الى غاز بالتبخر عند الغليان) ، فهو اذا انصهر سحب الحرارة المطلوبة من الجو المحيط به فيبرده (وهذا ما يحدث في صندوق الثلج الذي تحفظ فيه الأغذية في الرحلات) كما أنه اذا تجمد أطلق هذه الحرارة معيدا إياها الى الجو. فالماء في جميع أحواله منظم لحرارة بيئة الأحياء وواق للأحياء من سرعة تغير درجات حرارتها تغيرا مفاجئا ، حتى في الحيوانات غير ثابتة الحرارة (التي تسمى ذوات الدم البارد) .

٦ ـ الماء يخرق القاعدة ، ولكن لصالح الأحياء : القاعدة العامة المطردة أن السوائل تزداد كثافتها كلما بردت حتى تتحول الى صورتها الصلبة ، ولذلك تغوص القطع الصلبة من مادة ما اذا وضعت في صهارتها . وينصاع الماء لهذه القاعدة فتزداد كثافته كلما برد حتى يبلغ أكبر كثافة نوعية له عند درجة ٤ مئوية حيث تتقارب جزيئاته تقاربا وثيقا ، ولكنها لا تلبث أن تغير أوضاعها لتكون بنيانا بلوريا فراغاته أكبر من الفراغات الواقعة بين جزيئات الماء السائل ، وبذلك يزداد الماء حجما ، أي تقل كثافته ، عندما يتجمد عند درجة الصفر المئوي . ويعد هذا الشذوذ إعجازا في إحكام تدبير الخالق ، جل وعلا ، إذ تترتب عليه نتائج بالغة الأهمية للأحياء . وذلك أن الماء اذا تجمد فخف قطفا غطى أسطح البحيرات ونحوها بطبقة عازلة تحفظ الماء من تحتها من ازدياد برودته وتجمده وتجمد ما فيه من أحياء التي تظل حية سابحة فيه مُسَبِّحة بقدرة خالقها وبديع صنعه وواسع رحمته . أما أثقل الماء الذي يغوص الى الأعماق فحرارته ٤° م ولا يتجمد . ولو أن الماء كان مطيعا للقاعدة العامة لكان الثلج أثقل فغاص في الأعماق ولاستعصى على الانصهار عند دفء الجو ، بل إن البحيرات والبحار والأنهار في المناطق الباردة كانت تزداد تجمدا عاما بعد عام حتى تصبح أجساما وقارات جليدية دائمة لا تصلح للحياة ، فضلا عن تجميدها لجزء كبير من رصيد الأحياء عامة من ماء الحياة . بل إن العلماء يقدرون بحساباتهم أن الأمر لو كان كذلك لزحف التجمد على الأعماق السحيقة حتى يلغ المحيطات عند خط الاستواء فلم يبق من الماء سائلا في الأرض كلها إلا جزء سطحي يسير ، فأين تكون الحياة عندئذ ؟ وكيف تكون ؟



(شكل ٤)

جزيئات الماء في بنيان بلورات الثلج

عند تجمد الماء تكون جزيئات الماء هيكلاً مبنياً من ارتباط كل جزيء بأربعة جزيئات أخرى مع وجود فراغات هي التي تجعل حجم الماء يزداد عند تجمده . (لاتظهر الجزيئات الأربعة كلها في جميع الأحوال لأنها في مستويات مختلفة بعضها غير ممثل في الرسم) .

(عن جونسون وآخرين ، ١٩٦٢)

بل الأحياء كلها خلقت خلقا من الماء :

وهذا كله رائع وجميل ، ولكن كل ما عرضناه عن دور الماء في حياة الأحياء وخصائصه الفريدة التي تؤهله للقيام بذلك الدور لايعدو أن يكون تأييدا قويا وتفصيلا تقدمه المعارف العلمية الحديثة للفهم الذكي الذي اجتهد به المفسرون وخلاصته أنهم تأولوا معنى « جعل » أو « خلق » كل شيء حي من الماء من باب تغليب مادة لها النسبة العظمى في بنيانه أو فيها السبب الأول من أسباب بقائه . وهذا تأويل مقبول ومعقول ، ولكننا اذا تأملناه مليا وجدنا أن الماء الذي في أجسام الأحياء لايختلف في شيء عن الماء الذي تجود به الأمطار أو تجرى به الأنهار أو تتلىء به البحار . فهو إذن مادة غير حية تحويه أجسام الأحياء ولاتحيا دونه ولكنه ليس من مادتها الأصيلة . فالمعروف أن المكونات الأساسية لأجسام الأحياء ، والتي تتميز بها عن الجمادات ، هي المواد العضوية : الكربوهيدرات والدهون ، والبروتينات (وهي مادة الأحياء) والأحماض النووية (وهي وثائق أسرار الحياة) ، ولو أن بعض أنسجة الحيوان تحوى نسبا كبيرة من المواد غير العضوية كالجير الذي في العظام .

فمن أين تأتي المواد العضوية ؟ الأصل فيها جميعا ولاسبيل الى وجودها الطبيعي على هذا الكوكب الا عن طريق النبات الأخضر الذي يبني هذه المواد بناء ، مبتدئا بأبسطها وهو الجلوكوز ، أو سكر العنب ، يكونه بعملية معقدة معجزة رائعة تسمى البناء (أو التمثيل) الضوئي أو الكلوروفيلي (نسبة الى صبغ الكلوروفيل الأخضر في النبات) . وغالبا مانبسط هذه تبسيطا مفرطا فيقال إنها اتحاد الماء بغاز ثاني أكسيد الكربون ، بفعل الضوء وبوساطة صبغ الكلوروفيل ، لتكوين جزيئات من الجلوكوز مع انطلاق غاز الأوكسجين . ولكن العلماء بفضولهم وإلحاحهم وصبرهم استطاعوا أن يعرفوا أن هذه عملية طويلة معقدة للغاية تتخللها مراحل كثيرة ومنتجات مرحلية عديدة ، لايسمح المجال بذكر تفاصيلها ولكننا نستطيع أن نوجزها إيجازا غير شديد الاخلال بالمعنى : في عملية البناء الضوئي مرحلتان ، المرحلة الأولى لابد من وجود الضوء فيها ، ومن ثم سميت مرحلة تفاعلات الضوء ، وفيها يتصيد الكلوروفيل طاقة الشمس ثم يحولها الى طاقة كهربائية ، أي سريان أو انتقال للالكترونات ، ثم تتحول تلك الطاقة الكهربائية الى طاقة كيميائية تختزن في جزيئات مواد تعرف باسم جزيئات الطاقة ، وفي هذه المرحلة أيضا ينطلق الأكسجين . أما المرحلة التي لاتحتاج الى ضوء ، ومن ثم تسمى تجوزا مرحلة تفاعلات الظلام ، فانها تتضمن دورات تستخدم فيها الطاقة الكيميائية السابق اختزانها في البناء المتدرج لجزيء الجلوكوز وبه ست ذرات من الكربون وست من الأكسجين واثنتا عشرة من الهيدروجين ($C_6H_{12}O_6$) . وهذا هو بيت القصيد فان جزيء الجلوكوز (أو مكوناته) هو اللبنة الأولى لكافة المواد العضوية على ظهر الأرض ، فهو يتكثف درجات ودرجات ليكون كافة المواد الكربوهيدراتية كالأنواع الأخرى العديدة من السكر والنشا والسليولوز ـ مادة الخشب الأساسية وأعظم مكون لبنيان النباتات ـ ، ثم منه تبنى الدهون وتبنى البروتينات ، أي أجسام كافة أنواع الحيوان التي تحصل على مادتها العضوية غذاء تستمده من نبات أو من حيوان اغتذى على نبات . وهكذا

تنجح النباتات في أن تصيد طاقة الشمس المبددة في الفضاء ، وتصيد ذرات الكربون المنبوذة في غاز ثاني أكسيد الكربون المشتت في الهواء فتضمها الى هيدروجين الماء كي تبني مادة الحياة والأحياء .

إذن فكل مادة عضوية ، أي كل مادة حية ، لاتبنى ولا تتكون الا من الماء . فسرح بصرك حيث شئت في المروج الخضر أو الغابات الكثيفة ، أو قطعان الفيلة أو الخيل ، أو أسراب الطير أو أرجال الجراد .... أو شعوب بني الانسان ، أو أي كائن حي دق أو عظم ، **فهذه كلها مخلوقة ومصنوعة صنعا من الماء ـ على سبيل الحقيقة لا على سبيل المجاز أو التأويل .**

وجذوة الحياة هي أيضا من الماء :

وليس هذا وحسب ، فاننا نعلم جيدا ضرورة التنفس لاستمرار حياة الأحياء ، لأنه هو الذي يطلق الطاقة الكامنة في مواد غذائها (أوجزء من مادة أجسامها) فيمكنها من أن تسعى في مناشط الحياة ، من أبسطها إلى أعقدها . ومن المعلوم لنا أيضا أن الكثرة الغالبة من الأحياء لا تتنفس إلا غاز الأكسجين ، إذا انقطع عنها انقطعت أنفاسها وذهبت حياتها ، والكائنات الحية تحصل على الأكسجين من الهواء ، إنْ كانت تعيش على الأرض أو في الهواء ، أو ذائبا في الماء من حولها إن كانت تعيش في الأنهار أو البحار . ولكن من أين هذا الأكسجين ؟

الراجح عند العلماء أن الأكسجين كله ، أو معظمه على الأقل في بعض الآراء ، هو ما تطلقه النباتات الخضر في أثناء عملية البناء الضوئي ، كما تقدم [٤] . فقبل خلق النباتات على الأرض لم يكن فيها أكسجين ، وكان للكائنات البدائية حينذاك وسائل أخرى للتنفس والحياة . ولكننا نعلم أن النبات يتناول جزيئات الماء وجزيئات ثاني أكسيد الكربون ، فيصنع منها السكر ويطلق الأكسجين . وفي الماء وغاز ثاني أكسيد الكربون كليهما أكسيجين ، فأكسيجين أيهما هو الذي يبقى في السكر وأكسيجين أيهما هو الذي ينطلق لتتنفسه الأحياء ؟ كان الظن السائد الى عهد ليس ببعيد أن الأكسيجين المنطلق هو أكسيجين ثاني أكسيد الكربون ، ولكن لما عرف العلماء أسرار عملية البناء الضوئي ، عرفوا من بين ما عرفوا **أن الأكسيجين المنطلق هو أكسيجين الماء** ، وأثبتوا هذا بتجارب بارعة . وهكذا ـ تخلصنا النباتات الخضر من غاز ثاني أكسيد الكربون الذي تزفره الكائنات الحية في أثناء تنفسها زاهدة فيه ، وتبدلنا إياه بالمواد العضوية التي تبني بها أجسام الأحياء وتقوم بها حياتها ، كما أنها تطلق من الماء غاز الأكسيجين ليعوض الأحياء ماتستهلكه من هذا الغاز النفيس في التنفس . ويقدر بعض العلماء ، الذين يحلو لهم التقدير والحساب ، أن النباتات تجدد أكسيجين الجو كله خلال ألفي عام . **فهذه إذن يد أخرى من أيادي الماء العظيمة على الأحياء** ، بل قل إنها منة كبرى بين منن خالق الماء وخالق الأحياء .

---

(٤) يعتقد بعض العلماء أن جزءا من أكسجين الأرض ناتج من تأثير الشمس في بخار الماء في طبقات الجو العليا ، وحتى في هذا الرأي الأكسيجين مستمد من الماء أيضا .

الماء مهد الأحياء وحاضنتها :

ويعتقد العلماء أن أول ماخلق الله من الأحياء كان يعيش في الماء . ولابأس علينا من ذكر هذا الفرض ، فانه سبحانه وتعالى يخلق مايشاء حيث يشاء وأنى يشاء وكيف يشاء . وانا اذا رفضنا هذا الرأي اذا كان عندنا أسباب لرفضه ، فلا بأس علينا في ذلك أيضا . ولكن الحقيقة المؤكدة ، على أية حال ، أن معظم الأحياء في وقتنا الحاضر هي كائنات مائية ، وبحرية على وجه الخصوص . والبحار عوالم هائلة غامضة بعيدة الأغوار فيها الكثير من الاسرار التي يلح العلماء على الكشف عنها بالوسائل المستحدثة للغوص والعيش والتصوير تحت الماء .... ولكن الناس أكثر معرفة وألفة بالكائنات التي تعيش معهم على اليابسة .

وبيئة البحار بيئة حانية على الأحياء ، لأنها أكثر ثباتا من بيئات اليابسة وتجمعات المياه العذبة الصغيرة نسبيا التي تقع تحت رحمة التقلبات الجوية واحتمالات الجفاف . ومن أوجه رعاية الماء للأحياء كافة أن غاز الأكسجين المستمد منه يكون في طبقات الجو العليا جزيئات فيها ثلاث ذرات من الأكسجين (بدلا من ذرتين ، كما هو معتاد) . وهذه الجزيئات الثلاثية تسمى غاز الأوزون ، وهي تقوم بدور فعال في حماية الأحياء كلها على الأرض ، في برها وبحرها ، من كثير من الاشعاعات المؤذية التي تنصب على الأرض من الفضاء . ويستطرد العلماء في ظنونهم عن الكائنات البدائية الأولى ، فيقولون أن تلك الكائنات عندما كانت تعيش في الأمواج الأرض خلو من الأكسجين والأوزون لم يكن هناك مايحمي الأحياء من أذى الاشعاع الخارجي ، ومن ثم فانها كانت تعيش في طبقات دنيا بعيدة عن السطح كي يقيها الماء الذي فوقها من عدوان العوامل البيئية القاتلة .

واشارتنا هنا ـ بقدر محدود ـ الى بعض ظنون العلماء عن الماضي السحيق ، لايخرج بنا عن المنهاج الذي ألزمنا به أنفسنا ، إذ أننا لانجزم بالقول بصحة تلك الآراء ولا « نفسر » بها القرآن الكريم . **والواقع أننا بيَّنَّا بما نستطيع أن نقول انه من حقائق العلم على صدق التفاسير التقليدية ، فزدناها تفصيلا ووضوحا بتعمقنا في فهم خصائص الماء التي تؤهله للقيام بهذا الدور الذي لاغناء للأحياء عنه ، ثم أضفنا الى ذلك أن الأحياء جعلت من الماء وخلقت خلقا منه ـ بالمعنى الحرفي للألفاظ وبمعنى الابتداء لحرف « من » دون تجوز أو تأويل ، كما بيّنا أيضا أن الأكسجين الذي يحفظ جذوة الحياة متقدة في الأحياء هو هبة من الماء . فسبحان من كان هذا خلقه المعجز وسبحان من كان هذا كلامه المحكم .**

٢ ـ الابل نموذج فريد في اعجاز الخلق

« أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت . والى السماء كيف رفعت . والى الجبال كيف نصبت . والى الأرض كيف سطحت . فذكّر إنما أنت مذكر .... » ـ (الغاشية ١٧ ـ ٢١) .

فهكذا تكون الابل أول مالفتت هذه الآيات الكريمة إليه أنظارنا بهذا الأسلوب الذي يحض الانسان حضا جميلا على التفكر والنظر في آيات الله في خلقه مدخلا الى الايمان بقدرة الخالق وبديع صنعه . ويظن بعض الناس أن الابل قد ذكرت مجرد مثال لشيء مما خلق الله من حيوان ، ولعلهم يزيدون على هذا قولهم إن هذا المثال مناسب لخطاب العرب بشيء من مألوف بيئتهم . ولاشك في هذه المناسبة للمخاطبين الأوائل ، فهذا أساس البلاغة ولكن الصحيح أيضا أن الابل نموذج فريد وفي خلقها آيات من إحكام التقدير ولطف التدبير ما شغل العلماء على مر العصور . وسنرى أن ماكشفه العلم منذ بضع سنين عن بعض الحقائق المذهلة في حياة هذا المخلوق العجيب يفسر لنا السر في أن الخالق العظيم قد خصها ، من بين مالا يحصى من مخلوقاته ، بالذكر .. نموذجا يتدبر في دراسته المتدبرون .... البدوي بفطرته السليمة وعالم البيولوجيا في أواخر القرن العشرين بأجهزته ووسائله المستحدثة . وأذكر أنني كنت منذ سنين كثيرة بين صفوة من المثقفين المسلمين ، فلمست منهم عدم التنبه الى هذا الشيء الفريد في الابل بذاتها والانسياق وراءالرأي السطحي الشائع من أن الابل لم تكن سوى « مثال مناسب للمقام » ، فكتبت منبها ومذكرا بما يحفل به علماء غير مسلمين ويجهله أو يتجاهله أبناء أمة القرآن الكريم(عبد الحافظ حلمي محمد ، ١٩٦٥) . وأود أن أشير منذ البداية أن آية الابل دليل على « الصدق العلمي » للقرآن الكريم (دون حاجة الى دليل) وليست مثالا لما يوصف بأنه « سبق علمي » ، كما يحلو للبعض أن يقول . ثم إن الآية الكريمة نموذج أيضا لما يمكن ان يؤدي اليه « النظر » بكافة مستوياته ، وليس في نصها شيء من حقائق العلوم أو نظرياتها ، وانما فيها ما هو أعظم من هذا : مفتاح الوصول الى تلك الحقائق ، بذلك التوجيه الجميل من العليم الخبير بأسرار خلقه .

آراء المفسرين :

لم يقم أمام المفسرين في هذا الموضع مشاكل في الفهم تثير الخلاف ، وسوف أكتفي بما ذكره الامام البيضاوي في تفسيره : « أفلا ينظرون » نظر اعتبار (الى الابل كيف خلقت) خلقا دالا على كمال قدرته وحسن تدبيره حيث خلقها لجر الأثقال الى البلاد النائية فجعلها عظيمة باركة للحمل ناهضة بالحمل منقادة لمن اقتادها ، طوال الأعناق لتنوء بالأوقار ، ترعى كل نابت تحتمل العطش الى عشر فصاعدا ليتأتي لها قطع البوادي والفاوز مع مالها من منافع أخرى ولذلك خصت بالذكر لبيان الآيات المنبثة في الحيوانات التي هي أشرف المركبات وأكثرها صنعا ، ولأنها أعجب ماعند العرب من هذا النوع . وقيل المراد بها السحاب على الاستعارة . وهذا كله قول جميل ، ولاتعليق لي على الرأي الغريب في الجملة الأخيرة من الاقتباس .

النظر الفطري الصحيح في الابل :

مازالت الابل في كثير من المناطق القاحلةالوسيلةالمثلى لارتياد الصحارى فهي مهيأةلهذا على خير الوجوه.

وقد تقطع قافلة الابل بما عليها من زاد ومتاع نحوا من خمسين أو ستين كيلومترا في اليوم الواحد ولم تستطع السيارات بعد منافسة الجمل في ارتياد المناطق الصحراوية الوعرة غير المعبدة التي لم تزل ميدانه دون منازع . ومن الابل ماهو متين البنيان قادر على حمل الأثقال الفادحة ، ولكن منها أيضا الرواحل المضمرة الاجسام ، وهي أصلح للركوب وسرعة الانتقال ، فقد تقطع في اليوم الواحد مسيرة مائة وخمسين كيلومترا . ويستطيع البعير أن يحمل الأثقال عندما يبلغ من العمر أربع سنوات ثم يمضي في القيام بواجباته « الثقيلة » حتى يتم الخامسة والعشرين بل ربما الثلاثين . ولعل الجمل العربي كان أول دابة استخدمها الانسان لحمل الأثقال ، فقد وجدت مع عظام الانسان في مقابر يرجع تاريخها الى خمسة الاف سنة قبل الميلاد . (ميلن وميلن ، ١٩٦٦) . ولعل الابل هي أخص الأنعام بحمل الأثقال والارتحال في قوله تعالى : « **والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم** » ـ (النحل : ٥ ـ ٧) .

والعربي في إبله « منافع » غير الانتقال والحمل ، فهو ينال من ألبانها ولحومها وينسج كساءه من أوبارها ويبني خباءه من جلودها ، وهي خير معين له على الحياة في بيئة ليس من اليسير فيها تربية سواها من الأنعام . فلا عجب أن كان يقاس ثراء العربي بما عنده من الابل . وفي الحديث الشريف : « **الابل عز لأهلها** .... » ، وقوله صلوات الله وسلامه عليه : « لاتسبوا الابل فان فيها رقوء الدم ومهر الكريمة » . وحسب الابل فضلا أن الله جعلها خير ما يهدي إلى بيته المحرم وجعلها من شعائره : « **والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها** صواف فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر . **كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون** » ـ (الحج : ٣٦) . ولا يخلو ديوان شعر عربي من ذكر الابل والتغني بمحاسنها وأفضالها ، وفقه اللغة العربية غني بأوصافها في كافة أحوالها وأعمارها وألوانها ، في تفصيل رائع ودقة بالغة .

والابل نوعان ، ذوات السنام الواحد وذوات السنامين . والأول منها هو الجمل العربي وهو الذي ينصرف اليه الكلام اذا ذكرت الابل دون تخصيص ، وهو منتشر في شبه الجزيرة العربية ويمتد منها شرقا الى الهند وغربا الى البلاد المتاخمة للصحراء الكبرى في أفريقيا . أما النوع الثاني ، ذو السنامين ، فهو الابل « العوامل » التي تستوطن أواسط آسيا .

والابل من الحيوانات العجيبة ، ولكن لعل طول ألفة الناس لها أذهب عجبهم منها ـ كما يقول الدميري . وأول مايروعك منها ضخامة أجسامها ووثاقة بنيانها وارتفاع قوائمها وطول أعناقها ، ولكنك اذا أمعنت النظر فيها مدققا وجدت في تفصيل تكوينها لطائف تأخذ بالالباب . فالعينان تعلوان الرأس وترتدان الى الخلف ، وهذا يضفي على الجمل ، حين ينظر مميلا رأسه الى الخلف أو الى أحد الجانبين ، مظهر المعن المفكر أو الفخور المختال . وهما محاطتان بطبقتين من الأهداب الطوال تقيانها القذى والرمال . أما الأذنان فصغيرتان قليلتا البروز ، وفضلا



شكل ٥

الجمل يحتل صفحة كاملة من كتاب أمريكي حديث في البيولوجيا فالطلبع على أن الابل لم تذكر في سورة الغاشية بجرد مثال لواحد من مخلوقات الله . قد تكون ميزته الأولى أنه مألوف للبدو في الصحراء ، كما يقولون ... فهذا الكتاب يحرص على الشباب من طلاب العلم في بلاد لا ترى فيها الابل إلا في حدائق الحيوان

إن النظرة الفطرية المتأملة في الابل أنعمت الناس منذ عهد تنزل الوحي بصور ظاهرة فيها من اعجاز الخلق ملمحة بقدرة الخالق . أما العلماء المتعمقون فما يزالون حتى اليوم يجدون في ذلك المخلوق آيات خفية جديدة على بديع صنع بارئه ولطف تدبيره .

(from : Wilsce, 1978 — p. 227)

عن أن الشعر يكتنفها من كل جانب ليقيها الرمال التي تذروها الرياح ، ولها القدرة على الانثناء خلفاوالالتصاق بالرأس اذا ماهبت العواصف الرملية . وكذلك المنخران يتخذان شكل شقين ضيقين محاطين بالشعر وحافاتها لحمية فيستطيع الجمل أن يغلقها دون ما قد تحمله الذاريات الى رئتيه من دقائق الرمال . ليس هذا وحسب ، بل إن الجمل محصن اذا أدبر أيضا ، فذيله يحمل على جانبيه شعرا يحمي الأجزاء الخلفية الرقيقة من حبات الرمل التي تقذفها الرياح السافيات كأنها وابل من طلقات الرصاص .

أما قوائم الجمل فطوال ترفع جسمه عن كثير مما يثور تحته من غبار ، كما أنها تساعده على اتساع الخطو وخفة الحركة . ولاتنتهي أقدام الجمل بأظلاف كبيرة صلبة ، كما هي الحال في معظم ذوات الأظلاف ، إنما تنتهي كل واحدة من إصبعي القدم بظلف صغير كأنه الظفر ، بينما تلتصق الاصبعان حتى تصبح القدم خفا واحدا يغلفه جلد قوي غليظ يضم وسادة عريضة لينة تتسع عندما يدوس الجمل بها فوق الأرض ، ومن ثم يستطيع السير فوق أكثر الرمال نعومة حيث تسيخ قوائم أية دابة سواه . وجدير بالذكر أن الجمل يسير ، كما بينا ، على أخامص أقدامه كاملة بينما غيره من ذوات الأظلاف تسير على أطراف أصابعها وحسب . وترجع خطا البعير الطويلة المتأرجحة بين الصعود والهبوط إلى انه يتقدم بالرجلين على كل جانب معا ، فكأنه السفينة تركب الأمواج الهينة ، ولعله بهذا ـ مع سائر مزاياه الأخرى ـ استحق لقب « سفينة الصحراء » .

وحين يبرك الجمل للراحة أو ينتاخ ليعد للرحيل يعتمد جسمه الثقيل على وسائد من جلد قوي سميك ، على مفاصل أرجله . ويرتكز الجمل بمعظم ثقله على كلكله ، حتى أنه لو جثم به فوق حيوان أو انسان طحنه طحنا ، ومن ثم قولهم « ناخ الزمان أو ناء على فلان بكلكله » . وهذه الوسائد نعمة من نعم الخالق على هذا الحيوان العجيب ، إذ أنها تهيئه لأن يبرك فوق الرمال الخشنة الشديدة الحرارة ، وكثيرا مالا يجد الجمل سواها مفترشا له فلا يبالي بها ولا يصيبه منها أذى . والجمل الوليد يخرج من بطن أمه مزود بهذه الوسائد المتغلظة ، فهي شيء ثابت موروث وليست من قبيل مايظهر بأقدام الناس من الحفاء أو ليس الأحذية الضيقة .

ومما يتناسب ارتفاع قوائم الجمل طول عنقه ، حتى يستطيع أن يتناول طعامه من نبات الأرض ، كما أنه يستطيع قضم أوراق الأشجار المرتفعة حين يصادفها . هذا فضلا عن أن هذا العنق الطويل يزيد الرأس ارتفاعا عن الأقذاء ويساعد الجمل على النهوض بالأثقال . ويروي الدميري ـ في « حياة الحيوان الكبرى » ـ أن أحد الحكماء ، من غير العرب ، وصف له شيء عن بناء جسم الابل وعن بديع خلقها ، ففكر فيما سمع ثم قال : « يوشك أن تكون طويلة الأعناق ! » .

●●●

كل هذا جميل ورائع وممتع ، ولكنه لا يعدو النظر الفطري المتأمل فيما تسميه خصائص البنيان (الخارجي) والشكل ، أي الخصائص المورفولوجية ـ في لغة البيولوجيين ـ ، بيد أن خصائص الابل الوظيفية أجمل وأروع

وأكثر إقناعا ، وإنْ كانت في حاجة إلى تحليل العلماء للظواهر وبحوثهم في أسرارها بمناهجهم العلمي كي يظهروا بعض غوامضها ، وهذا ما سوف نشير إلى بعض منه فيما يلي.ومعظم البحوث الهامة والممتعة في هذا المجال قام بها الزوجان كُنتْ ويوول شميت ـ نيلسنْ على الابل في الصحراء الكبرى الافريقية ، ونشرا نتائجها في عدة مقالات ، وعرضها كُنت شميت ـ نيلسنْ في كتابه عن فيزيولوجيا الحيوان (١٩٧٥) . ويوجد عرض طيب للموضوع في فصل من فصول كتاب المؤلفين لورس ميلن ومارجري ميلن عن الماء والحياة (١٩٦٦ ـ ترجمة عربية) . ويعتبر هذان المرجعان أهم مصدرين لنا في هذا الموضوع في هذا المقال . وخَلْقُ الله كله معجز، فالجرثومة المتناهية في الضآلة ، وكل خلية من كائن حي كبر أوصغر . فيها من آيات الابداع في الخلق الكثير ، وما كشفه العلم منها ـ وهو قليل نسبيا ـ فيه الكفاية وزيادة لمن نظر إليها بفكر متفتح مستنير وقلب واع سليم . ولهذا سوف نقصر كلامنا ـ على قدر الامكان ـ فيما تختص به الابل ، وإن كانت مشتركة في كثير غيره مع سواها من الكائنات .

صبر الابل على الجوع والظمأ :

شهرةالابل بصبرها الشديد على الجوع والعطش ذائعة ، ورويت فيها حكايات واساطير ، ولكن الحقائق التي من خلفها ، كما كشف عنها العلم الحديث ، أعجب من الخيال ، وفي بيئة الابل التي يقل فيها الزرع ، لن يكتب العيش إلا لحيوان فطر الله جسمه على حسن تدبير أمور الغذاء والشراب . وقد لا يجد الجمل ما يقتاته سوى نبات الصحراء الشائك الخشن تظللة شفتاه الغليظتان ، لا سيما شفته العليا المشقوقة فهي مهيأة لهذا العمل ، ثم تتولاه أسنانه القوية ببعض الطحن قبل أن يزدرده ليحتفظ به فترة في كرشه ثم يجتره ليعيد مضغه في أناة عندما تكون الظروف مواتية لذلك . « ومعدة » الجمل ، ككثيره من المجترات ، مقسمة غرفا متتابعة ، ولكنها هنا ثلاث لا أربع . ويستضيف الجمل في كرشه حشودا هائلة من البكتيريا والبروتوزوا (الحيوانات الأولية) تهضم له السليولوز ـ وهو المكون الرئيسي في الغذاء النباتي الجاف ـ حتى يستطيع أن يفيد من ذلك الجزء من طعامه الذي كان مستحيلا عليه هضمه والافادة منه لولا تلك الكائنات الدقيقة . وتقوم بين المضيف وضيوفه علاقة فيها مثل فذ من التعاون البيولوجي ، ولكن الابل ليست فريدة في هذا الباب ولهذا لن نستطرد في الحديث عن هذه النقطة إلى أبعد من هذا ، وإن كنا سوف نعود إليها لسبب آخر .

يستطيع الجمل أن يتحمل العطش أياما طوالا يتوقف عددها ـ طبعا ـ على كثير من الظروف والأحوال ، مثل بنيانه الموروث ومدى إجهاده في الحمل أو السير ودرجةحرارةالجو ونسبةالرطوبةفيه،ونوع الغذاءالذي تقتاته الابل له أهمية خاصة في ذلك ، فهي إنْ كانت تطعم نباتا طريا غضا بعد أمطار الشتاء استطاعت أن تصبر على العطش شهرين متتالين بل ربما أعرضت عن الماء إعراضا حين يعرض عليها ، وذلك لأن الماء الذي كان في طعامها الرطب فيه الغناء . وقد حاول الزوجان شميت نيلسن أن يدفعا الابل في بعض واحات شمال أفريقيا دفعا

إلى شرب الماء في الشتاء بخدعة لطيفة . فقد علفا أن الابل كانت تزدرد التمر كاملا بنواه قبل أن تعود لتجتره فيما بعد ، فقدما إليها ثمرا نزعا منه النوى ووضعا بدلا منه حبات من الفول السوداني ، وكان هدفهما من ذلك زيادة نسبة البروتين في طعام الابل مما يدفعها دفعا إلى شرب الماء اللازم لاخراج نواتج استخدام الجسم للبروتينات . والطريف أن معظم الابل لم تجُز عليها الخدعة فلفظت التمر المحشو . أما الابل التي قبلت هذا الطعام الغريب فانها قد استنفدت كل مافي الواحة من فول سوداني قبل أن تظهر عليها بوادر العطش . (لهذا علاقة بطريقة إخراج الكليتين للبول ، كما سوف نذكر فيما بعد) .

أما إذا كان غذاء الابل جافا يابسا فانها قد تتحمل قسوة الظمأ في هجير الصيف أسبوعين كاملين أو أكثر ، ولكن آثار هذا العطش الشديد سوف تصيبها بالهزال حتى أنها قد تفقد نحواً من ربع وزن أجسامها في ذلك الزمن القصير . ولكي تدرك مدى هذه المقدرة الخارقة علينا أن نتذكر أن الانسان لن يحيا في تلك الظروف أكثر من يوم واحد أو يومين . فان الانسان إذا فقد نحو ٥٪ من وزنه ماء فقد صواب حكمه على الأمور ، أما إذا فقد نحو ١٠٪ من وزنه ماء صُمّت أذناه وخلّط وهذى وفقد إحساسه بالألم (وهذا من لطف الله في قضائه) ، أما إذا تجاوز فقده ١٢٪ من وزنه ماء فقد قدرته على البلع ، فتستحيل عليه النجاة حتى إذا وجد الماء إلا بمساعدة منقذيه ، وهو في هذه الحالة لن يكون بينه وبين الهلاك المحتم سوى نحو ثلاثة أكواب من الماء !

ولكن انظر الى البعير ... إنه قد يفقد ربع وزن جسمه ماء ، بل ربما ثلثه ، ويمضي في حياته صلدا لاتخور قواه ، فاذا ماوجد الماء عبّ منه عبا ، دون مساعدة أحد . وقد لاحظ شميت - نيلسن أن جملا حرم الماء في قيظ الصحراء ثمانية أيام ففقد من وزنه مائة كيلو جرام . فلما قدم إليه الماء تجرع منه نحو مائة لتر في عشر دقائق ! وبهذا استعاد الجمل في تلك الدقائق المعدودات مافقد من وزنه في تلك الأيام العصيبة الطوال . أما اذا أنقذ انسان أشرف على الهلاك من الظمأ ، فينبغي على منقذيه أن يسقوه الماء ببطء شديد تجنبا لآثار التغير الفاجئ في نسبة الماء في الدم . وسوف نعود الى الفرق بين حال الدم في الانسان وفي الابل عند الظمأ ، في موضع لاحق ، ولكننا قبل أن نترك هذه النقطة يحسن بنا أن نقف هنيهة لنلتفت الى بلاغة التشبيه الالهي في وصفه تعالى للضالين المكذبين يأكلون من شجر من زقوم ، ثم لايملكون رد أنفسهم عن تجرع الحميم ، وذلك في قوله تعالى : « فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم » - (الواقعة : ٥٤ ، ٥٥) . والهيم هي الابل العطاش ، يصيبها المرض بظمأ لاتطفأ ناره .

وثمة ميزة أخرى للابل على الانسان ، فان الجمل الظمآن يستطيع أن يطفيء ظمأه من أي نوع من الماء وجد ، فهو لن يرفض فضلة من ماء في مستنقع شديد الملوحة أو المرارة ، بل المعتقد أنه يستطيع أن يرتوي من ماء البحر وأن يطعم بأعشاب البحر وفيها تركيز شديد من الأملاح . أما الانسان الظمآن فان أية محاولة من هذا القبيل - حتى إنْ استطاع تجرعها - فانها تكون أقرب الى تعجيل نهايته ، كما سبق أن ذكرنا في الفصل السابق

من هذا المقال . وترجع قدرة الجمل الخارقة على تجرع محاليل الأملاح المركزة الى استعداد خاص في كليته لاخراج تلك الاملاح ... وهذه ميزة أخرى للابل سوف نعود اليها بعد قليل .

أين مخزن الغذاء ؟

كل أنواع الحيوان تختزن مايفيض عن حاجتها العاجلة مما تطعم وتهضم في صور مدخرة من الغذاء غير قابلة للذوبان ـ الا عند الحاجة اليها . وقد يختزن الغذاء في صورة جليكوجين (نشا حيواني) أو دهن . والدهن هو أفضل الأغذية المدخرة لأنه أكثر صور المواد العضوية المولدة للطاقة تركيزا . ومعظم الدهن يختزنه الجمل في سنامه (أو سناميه) . فاذا ما طال السفر وزاد العناء وشح الغذاء ، أو حتى انعدم تماما ، لجأ الجمل الى دهنه المختزن فأخذ يحرقه شيئا فشيئا وسنامه يذوي يوما فيوما حتى يميل على جنبه ثم يصبح كيسا خاويا متهدلا من الجلد ، اذا طال بالجمل المسافرالمنهك الجوع .

وأين مخزن الماء ؟

لم تكن الاجابة على هذا السؤال يسيرة كما كانت عند بحثنا عن مخزن الغذاء .فقد كان كثير من المؤلفات « العلمية » يقول إن الجمل يختزن الماء في معدته ، وتسوق لذلك دليلا أن القسمين الأول والثاني منها ، وعلى الأخص الأول منها وهو « الكرش » ، باطنها مقسم بألياف متقاطعة الى جيوب صغيرة وأن فتحات تلك الجيوب تقوم عليها عضلات تستطيع فتحها أو إغلاقها . فاذا ما شرب الجمل وارتوى وامتلأت معدته ارتخت العضلات فامتلأت الجيوب ثم انقبضت عضلاتها ولم تنبسط لتجود بما فيها الا عند العطش . بيد أن تمحيص هذا الزعم أثبت خطأه . فقد اتضح أن ماقد تمسكه تلك الجيوب في جدار المعدة من الماء لايزيد على خمسة ألتار الى سبعة ، وهو مقدار يسير ضئيل بالنسبة لذلك الحيوان الجسيم . هذا فضلا عن أن فحص محتويات تلك الجيوب أظهر أنها تضم كثيرا من الطعام الممضوغ ، وأن السائل القليل الذي بها هو أخضر اللون مر المذاق يحوي عصائر هاضمة ويعج بتلك الكائنات الدقاق التي ذكرنا أنها تعين المجترات على هضم طعامها الخشن الغليظ .

وثمة رأي « علمي » آخر يقول إن السنام مخزن للغذاء وللشراب . فأما إنْ كان المقصود أن بالسنام ماء مختزنا فهذا خطأ صراح ، فالسنامُ معظمه دهن ، كما ذكرنا . ولكن الذي يعنيه العارفون شيء آخر ، وهو أن احتراق الدهن المختزن في السنام لاطلاق الطاقة منه حين يشح الغذاء يطلق ماءً (وهذا الماء يسمى ماء الأيض ، أي الماء الذي يتكون نتيجة التفاعلات الكيمياوية الحيوية داخل الجسم) . وهذا هو من قبيل الماء الذي يتكون بخارا حين تحرق شمعة ، على سبيل المثال ، وتستطيع أن تتأكد من وجوده بأنك اذا قربت لوحا زجاجيا باردا فوق لهب الشمعة تكاثف عليه الماء الناتج من الاحتراق . وهذا أيضا هو مصدر البخار الخارج مع هواء الزفير . وبعض

صغار القوارض ، كجرذ الفئر ، يعتمد على هذه الطريقة الكيميائية الداخلية في حصول أجسامها على ما تحتاجه من ماء (تت ويول شميت ـ نيلسن ، ١٩٥٩) . ولكن تمحيص هذا الرأي بالنسبة للابل أظهر أنه ليس على جانب كبير من الصواب ، وذلك لأن مايفقده الجمل من بخار ماء الأيض مع هواء الزفير يكاد يعدل مايتكون في جسمه نتيجة حرقه الدهن المختزن في سنامه ، فضلا عن أن الهواء الداخل في التشهيق من البيئة الجافة يحتاج الى ترطيب في أثناء دخوله الى الجهاز التنفسي .. وهذا يستهلك أيضا جزءاً من رصيد الجسم من الماء .

وبعد استبعاد هذين الاحتمالين لايبقى الا احتمال ثالث ، وهو أن الجمل لايحتفظ بالماء المدخر في معدته ولا في سنامه (في صورة دهن قابل للاحتراق) ، وانما هو يحتفظ به موزعا في كافة أنسجة جسمه وفي كل عضو فيه . ولكن الأهم من ذلك أن الجمل يقتصد في استخدام ماعنده من ماء غاية الاقتصاد . وله في ذلك حيل وأساليب خارقة تدعو للعجب وتسبح الخالق « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ـ (طه ـ ٥٠) .

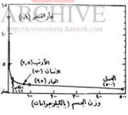
فنون في اقتصاد الماء :

يمتاز الجمل بأنه لايتنفس من فمه ولايلهث أبدا مهما اشتد الحر أو اشتد به العطش ، وهو بذلك يتجنب بخر الماء من هذا السبيل . هذا فضلا عن أن جلد الجمل لايجود الا بأدنى مقدار من العرق وعند الضرورة ، وهذا له علاقة بامتياز جهاز التكييف والتبريد في جسمه ، كما سوف نشرح بعد قليل .

بيد أن اقتصاد الماء يرتبط أيضا بامتياز جهاز الاخراج في الابل . فالمعروف أن أهم المواد المخرجة هي اليوريا (أو البولينا) الناتجة من هدم المواد البروتينية في الجسم . وهذه المادة تخرج في البول ذائبة في الماء ، فكلما دعت الحاجة الى اخراج كمية أكبر من اليوريا استهلك الانسان أو الحيوان كمية من الماء . ولكن معظم اليوريا المتولدة في جسم الجمل تفرزها بطانة المعدة . وهنا تتحقق فائدتان : أولاهما هي إمداد الكائنات الدقيقة التي قلنا إنها تعيش في كرش الجمل وتهضم له السليولوز بمادة عضوية نيتروجينية لازمة لها ، وهذا حسن رعاية من المضيف لضيوفه الصغار . وثانيتهما أن مايفيض منها يخرج مع البراز دون حاجة الى إذابته في ماء كي يخرج مع البول . وفضلا عن توفير مقدار عظيم من الماء بهذا الأسلوب تتحرر الكليتان من عبء كبير كان عليهما أن تقوما به ، وبذلك تستطيعان إخراج الأملاح الزائدة التي قد يضطر الجمل الى تناولها حين تدعوه الضرورة الى تجرع ماء شديد المرارة أو الملوحة ، كما ذكرنا . وكليتا الجمل على وجه العموم قادرتان على إخراج بول شديد التركيز بعد أن تستعيدا معظم مافيه من ماء لترده الى الدم . (وإخراج جزء من البولينا عن طريق المعدة ظاهرة في الثدييات عامة ، والمجترات على وجه الخصوص ، ولكنها في الابل تتخذ صورة تحقق له فائدة خاصة) .

وأعجب من هذا كله ... جهاز تبريد وتكييف معجز:

وهذا الذي ذكرناه عن عظم تحمل الجمل للظمأ وحسن اقتصاده في استخدام الماء له اتصال وثيق بأسرار متعلقة في دولاب التحكم في درجة حرارة جسمه لم ينفذ العلم الحديث اليها الا منذ قريب . وأول مزية للجمل هي حجمه الضخم ، فالقاعدة المعروفة أنه كلما زاد حجم الجسم قلت نسبة سطحه الخارجي اليه . ومعنى هذا أن مايمتصه جسم الجمل من حرارة الجو القائظ من حوله أقل نسبيا مما يمتصه انسان أو جسم فأر . والحرارة التي يمتصها الجسم تستتبع العرق لتبريدها ، وعلى هذا تتناسب كمية العرق اللازم إخراجها للتبريد تناسبا عكسيا مع حجم الحيوان . ويتضح هذا من شكل ٦ الذي يوازن بين مقدار العرق النسبي اللازم لتبريد الانسان والجمل وعدة حيوانات أخرى اذا ما سخنت أجسامها . ويكفي أن نشير هنا الى أن كمية الماء الواجب على الجمل إخراجها فهي نصف مايلزم الانسان إخراجه (هذا بفرض أن الجمل مثل الانسان ، ولكن الواقع أن الجمل يفوق الانسان في نواح وظيفية أخرى كثيرة) . وهذه الحقيقة تضطر صغار القوارض الى اللجوء الى أعماق جحورها الرطبة طيلة نهار الصحراء القائظ والا هلكت سريعا .



شكل ٦

موازنة بين كمية الماء التي يتحتم على الانسان والجمل وبضعة حيوانات أخرى أن تفرزها عرقا حتى تبرد أجسامها في حر الصحراء . ومنه يتضح تفوق الجمل على هذه الكائنات جميعا .
(معدل عن شميت نيلسن ، ١٩٧٥) .

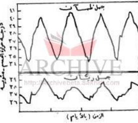
وجسم الجمل مغطى بوبر كثيف يسقط معظمه بعد انتهاء الشتاء ، ولكن ما يتبقى منه في الصيف يعزل الجمل عزلا طيبا عن الجو المتقد من حوله ، فيقلل من مقدار الحرارة التي يمتصها جسمه ، ومع ذلك فان سُمك هذه الفروة لا يحول دون تبخر القدر الضروري من العرق نظرا لجفاف جو الصحراء . ويبدو أن هذا السر قد تعلمه البدو والأعراب من الابل ، فهم يلتحفون بعباءات من الصوف وهم في هجير الظهيرة ويبدون متمتعين بمقدار عظيم من الراحة ، بينما رفقاؤهم الأوربيون يعجبون لذلك وهم يكادون يخرون صرعى الحر بأقمصتهم الرقيقة المفتوحة وسراويلهم القصيرة !

ولكن ثمة ظاهرة أخرى في جلد الجمل وهي الرقة الشديدة للطبقة الدهنية في جلده ، وذلك لأن معظم الدهن مختزن في سنامه . ويبدو فائدة هذا الترتيب عندما تكون درجة حرارة جسم الجمل أعلى من درجة حرارة الجو ، إذ أن قرب الأوعية الدموية من السطح ، دون عازل من دهن ، يسمح باشعاع حرارة الدم أو نقلها إلى الجو المحيط بالحيوان ، دون حاجة إلى إفراز عرق ... ولعل صورة إخواننا البُدُن السمان وهم يتصببون عرقا تزيدنا إدراكا لحقيقة الأمر . والعجيب أن الجمل مفطور على تصرف حكيم حين يبرك على الأرض الملتهبة في راحة الظهيرة ، فهو يواجه الشمس وبذلك يكون معظم ما يتعرض جسمه لها ظهره الذي يعزله ويحفظه السنام الدهني السميك ، أما أجزاؤه السفلى التي يغطيها الجلد الخالي من بطانة الدهن فانها تواجه أرضا أبرد نسبيا بظل البعير نفسه !

ولكن أعجب ما في الأمر هو جهاز ضبط الحرارة في جسم الابل . فالابل كغيرها من الثدييات والطيور أيضا حيوانات ثابتة الحرارة (ذوات دم حار ، كما يقال) ، ومعنى هذا أن حرارتها لا تتغير بتغير درجة حرارة الجو من حولها إلا في أضيق الحدود . وهذه ولا شك ميزة كبرى ولكنها تكلف الجسم كثيرا في عمليات التبريد صيفا وعمليات التدفئة شتاء . وجهاز ضبط الحرارة في الانسان جهاز فائق الحساسية . وارتفاع درجة حرارة أجسامنا درجة واحدة تجعلنا نُهرع لتناول خافضات الحرارة أو إلى زيارة الطبيب ، كما أن انخفاضها عن معدلها المعتاد (نحو ٣٧°م في المتوسط) نقول إنه منذر بعلامة هبوط عام ينبغي أن يتدارك بالعلاج السريع . أما جهاز ضبط الحرارة في الابل فانه جهاز مرن ذكي أريب (وسبحانه المدبر اللطيف) فاذا كان الجمل ريانا أخذ الجهاز يباشر عمله المعتاد فلا تتفاوت حرارة جسم الجمل بين نهار الصحراء الحارق وليلها القارس إلا في حدود درجتين أو نحو ذلك . أما إذا عطش الجمل واشتد الحر عدل حركة تنظيم الحرارة في المخ من مسلكه ، وأبدى كثيرا من التساهل حتى يصبح مدى تفاوت درجات الحرارة في جسم الجمل نحو سبع درجات كاملة ، بين ٣٤°م في الصباح الباكر ونحو ٤١°م ظهرا ، وتصبح هذه كلها حدودا طبيعية معتادة يتحملها الجمل دون عرض أو مرض !! (شكل ٧) .

فانظر ماذا يترتب على هذا : تعظم سعة الجسم في اختزان الحرارة فلا يضطر الجمل إلى العرق إلا إذا تجاوزت حرارة جسمه ٤١°م (وهي حمى عنيفة بالنسبة إلينا) ويكون هذا في فترة قصيرة من النهار . أما في المساء فان الجمل يتخلص من الحرارة التي اختزنها باشعاعها وتوصيلها إلى هواء الليل البارد دون أن يفقد قطرة ماء . وهذا الاجراء

وحده يوفر للبعير خمسة ألتار كاملة من الماء . ثم هنالك أمر آخر ، وهو أن الجسم يكتسب الحرارة من الوسط المحيط به بقدر الفرق بين درجة حرارته ودرجة حرارة ذلك الوسط . فلو أن جهاز ضبط الحرارة كان دقيقا روتينيا لكان الفرق بين درجة حرارة الجمل ودرجة حرارة هجير الظهيرة فرقا كبيرا ، مما يجعل جسمه يمتص من الجو المحيط مقدارا عظيما من الحرارة(يكتسبه الانسان مثلا)ولكن عندما ترتفع درجة حرارته إلى ٤١°م يصبح هذا الفرق قليلا وبذلك يصبح ما يمتصه قليلا أيضا : **فانظر معي كيف أن الجمل الظمآن يصبح أقدر على تحمل القيظ من الجمل الريان !**



شكل ٢

تذبذب درجات حرارة الجسم في الجمل الريان لا يتجاوز درجتين مئويتين ، بينما تتأرجح درجات حرارة جسم الجمل الظمآن في حدود سبع درجات كاملة . تعد كلها حقيقة طبيعية لذلك الحيوان العجيب .

(معدل عن شميت نيلسن ، ١٩٦٥)

بل إنه مازال في جعبة الغرائب المعجزة في هذا الحيوان الفريد ماهو أعجب . فإننا إذا تعمدنا وضع جمل في ظروف بالغة القسوة بأن منعناه عن شرب الماء ثم جززنا فروته وتركناه طيلة النهار في هجير الصحراء اللافح ثم حرمناه من ليلها البارد بأن حبسناه في مكان مغلق دافىء ، فانه سوف يصمد لهذا التحدي صمودا مذهلا ، إذ تثبت كفاءة أجهزته الوظيفية الخارقة ، فهو طبعا سوف يستهلك ماء كثيرا في صورة عرق وبول وبخار ماء مع هواء الزفير

حتى يفقد نحو ربع وزن جسمه دون تبرم أو شكوى . ولكننا سوف نكتشف أن معظم هذا الماء الذي فقده استمده من أنسجة جسمه ولم يستنفد من ماء دمه إلا الجزء الأقل ، وبذلك يستمر الدم سائلا جاريا موزعا للحرارة ومبددا لها من سطح الجسم ، وهذا أمر لا يدانيه فيه كائن آخر ، فان أخطر ما يتعرض له الانسان الظمآن هو أن نسبة الماء في دمه تقل حتى يغلظ ويبطؤ دورانه ، فلا تتوزع الحرارة المتولدة في أنسجة جسمه ، ومن ثم ترتفع درجة حرارته ارتفاعا فجائيا لا تتحملها أجهزته ـ وخاصة دماغه ـ وفي هذا يكون حتفه !

ألا ترى معي أن الله سبحانه وتعالى قد اختص هذا النموذج الفريد من مخلوقاته كي ينظر الناس فيه لأسرار عجيبة أودعها فيه بارئه ولا يعلمها الا هو ، ثم تأمل معي ذلك الاعجاز البلاغي الذي ظل مقنعا للانسان منذ عهد نزول الوحي الى القرن العشرين وما بعده ، وبيينا مؤثرا عند البدوي صاحب الفطرة السليمة وعند البيولوجي الباحث المتعمق ، سواء بسواء !

٣ ـ الطير الصافات

استطاع الانسان أن يستغل مواهبه الجسدية التي فُطر عليها في ارتياد بيئات شتى في هذا الكوكب . فالأرض قد بسطها الله أمامه وذللها له فمشى في مناكبها ، واستطاع أن يتغلغل في أواسط الغابات والأحراش . ويتسلق أعلى قمم الأشجار الشاهقة ، ويتسنم ذرا من الجبال السامقة ، كما أنه استطاع أن يجتاز الصحاري الموحشة والمفاوز المهلكة . بل حتى البحار سبح فيها مسافات قبل أن يصنع لنفسه طوفا أو فلكا ، وغاص إلى أعماقها باحثا عن درها وكنوزها . أما بيئة الهواء فقد جابهته بتحد عجز عن التغلب عليه حينا من الدهر . ففي الهواء إما أن تكون كائنا فطره الله على الطيران أو لا تكون ! وتوالت محاولات الانسان في تحقيق حلمه أن يلحق بالطير ، فصنع لنفسه أجنحة أوردته موارد الهلاك ، ثم اصطنع لنفسه أدوات للطيران عجزت عن إبلاغه أمانيه . بيد أن الله وهب الانسان عقلا لم يهبه لشيء من مخلوقات الأرض ، فاستطاع أخيرا أن يصطنع لنفسه آلات طائرة مكنته من أن يجوب الآفاق ويدور حول الأرض ثم هيأت له أن يفلت قليلا من قبضة جاذبيتها التي تضطره إلى أن يخلد إليها . وعلى أية حال ظلت الطيور مستحوذة على ألباب الناس ، جهالهم وعلمائهم وفي كل عصر .

الطير في القرآن الكريم :

ذُكرت الطير ، بمعناها الحقيقي ومعانيها المجازية ، وطيرانها ثمانيا وعشرين مرة في القرآن الكريم(*) . فقد ذكر « التطير » بمعنى التشاؤم و« الطائر » ـ على المجاز ـ بمعنى سبب الخير والشر أو التشاؤم أو عمل الانسان وما قدر

(*) هذه الحسابات ، وأمثالها في مواضع أخرى ، مؤسسة على المعجم المفهرس الهائل الذي تركه لنا العلامة خادم القرآن الكريم « محمد فؤاد عبد الباقي » ، والذي يرجع الجميع اليه كلما ذكره الذاكرون .

له . وهناك إشارات إلى عموم « الطير » ، أو بعض جوارح الطير كتلك التي أكلت من رأس أحد صاحبي سيدنا يوسف ، عليه السلام ، في السجن بعد أن صلب (يوسف : ٣٦ ، ٤١) . وهناك أيضا منطق الطير الذي علمه الله سيدنا سليمان ، عليه السلام (النمل : ١٦) ولحم الطير في الجنة (الواقعة : ٢١) ، والطير الأبابيل التي سلطها الله على أصحاب الفيل (الفيل : ٣) . بيد أننا سوف نكتفي بذكر المواضع المتعلقة بطيران الطيور :

١ ـ « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ... » ـ (الأنعام : ٣٦) .

٢ ـ « ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء مايمسكهن إلا الله ، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون . » ـ (النحل : ٧٩) .

٣ ـ « ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات ، كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون . » ـ (النور : ٤١) .

٤ ـ « أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن مايمسكهن إلا الرحمن ، إنه بكل شيء بصير . » ـ (الملك : ١٩) .

ما يمسكهن إلا الرحمن :

ركوب الطائر متن الهواء أمر يثير العجب والاعجاب ، إذ أن الطائر مهما خف وزنه فانه يكون أثقل كثيرا من الهواء ، ومن ثم ينبغي أن يهوى من حالق إلى الأرض وفقا لناموس الجاذبية الأرضية . أرأيت إلى الطائر المحلق في جو السماء كيف يفقد في لحظة واحدة قدرته على البقاء في الهواء إذا أصابته رصاصة صياد في مقتل ! إن الله ، جلت قدرته ، خلق الكائنات كلها ـ من حي وجماد ـ وأودع فيها خصائصها ، فهو خالق ناموس الجاذبية عندما خلق الأجرام التي يجذب بعضها بعضا ، ولكنه ـ وهو اللطيف الخبير بحاجات خلقه ، يسر الطيور لما خلقت له فأودع في أجسامها من آيات الخلق والبناء وما فطره عليها من حسن الأداء ، ما يجعلها تستطيع أن تتحرر من قانون الجاذبية الصارم في حدود . فإذن هو وحده الذي يمسكها في جو السماء .

وهذا هو جملة ما تجده في كتب التفسير قد عرضناه بأسلوبنا وإن لم نخرج عن روحه ومغزاه[٦] . وهذا هو ما سوف نتناوله ، في إيجاز شديد ، بشيء من التوضيح والبيان في هذه الصفحات ، مع الالتفات بصورة خاصة الى معنى « الصف » في الطيران . وسوف نقاوم كل إغراء الى الانسياق وراء التفاصيل المذهلة الممتعة لضيق المقام . ويمكن لمن يريد الاستزادة أن يقرأ في بعض المراجع التى نشير اليها هنا : ستورر ، ١٩٥٩ (مترجم) ، وإتي ، ١٩٥٩ (مترجم) ، أو رويل ، ١٩٧٧ (بالانجليزية ـ وهو مؤلف عن طيران الطيور) ، وغيرها كثير .

(٦) سوف نشير الى أقوال المفسرين فيما يتعلق بظاهرة الصف في موضع لاحق

الطيور كائنات عجيبة :

تتحلى الطيور عامة بخصائص منها خفة وزنها ومتانة بنائها ومرونة أجزائها ودقة اتزانها وانسياب أجسامها ، وهى شروط يجب توفرها فى أية آلة طائرة . فهياكل الطيور العظمية خفيفة للغاية ، إذْ قد اختصر منها بعض الأجزاء والتحم بعض عظامها ببعض ، وتحول معظمها الى أنابيب رقيقة جوفاء ، وهى مع ذلك متينة ومرنة للغاية قادرة على تحمل القوى العظيمة المفاجئة فى أثناء مناورات الطائر البهلوانية فى الجو . أما رؤوسها فقد صغرت وخلت من الأسنان ومن ثم لم تعد بها حاجة الى فكين ثقيلين وعضلات كبيرة لتحريكهما ، فجمجمة الحمامة مثلا تزن سدس ما تزنه جمجمة الجرذ ، أى الفأر الكبير ـ مع حفظ النسبة . أما الطائر الفرقاط (أى الطائر البارجة) ، الذى يبلغ طول ما بين طرفى جناحيه المبسوطين أكثر من مترين ، فلا يزن هيكله العظمى كله سوى أربع أوقيات (نحو ١١٣ جراما) ، أى أقل من وزن ريشه . وفى القرن الماضى عبر عالم أمريكى عن الابداع فى تكيف جمجمة الطيورونيانها الرائع بقوله انها « شعر منظوم فى عظام » ! (عن والتى ، ١٩٥٩) .

أما الريش ، وهو أشهر ما يميز الطيور ، فانه مكيف تكيفا رائعا لترويح الهواء وتخفيف كثافة الجسم وعزله عزلا جيدا عن الجو ، فضلا عن مرونته الفائقة التى تمكنه من الالتواء والانثناء ، لتلبية حاجات الطيران سريعة التغير ، حتى لقد قيل ان ريش الطيور أقوى من أى جناح لطائرة صنعها الانسان . ولا ننسى أن توزيع الريش يهذب زوايا الجسم البارزة ، وهذه الميزة ، مع عدم وجود صيوانين بارزين للأذنين وكمش الطائر لعدة هبوطه ـ أى رجليه فى أثناء الطيران ، تضفى على الطائر شكلا انسيابيا لا يعرض كثيرا لمقاومة الهواء .

ثم إن الطيور تتميز أيضا بخصائص وظيفية (أى فيزيولوجية) رائعة ، أهمها ارتفاع معدل العمليات الحيوية فى داخل أجسامها ، فهى اذا ما ووزنت بالحيوانات الثديية اتضح أنها أقدر على هضم الطعام ، وقلبها أقوى وأكبر وأسرع نبضا ، ودمها ضغطه أعلى ونسبة السكر فيه أكثر ، ودرجة حرارتها أعلى ، وجهازها التنفسى أكفأ ، فالرئتان تتصلان بمجموعة من الأكياس الهوائية المنتشرة فى أنحاء الجسم ، مما ييسر تبريد أجسامها أثناء الطيران ، فضلا عن الاسهام فى تخفيف وزنها . وهذا كله يجعل أجهزتها آلات رائعة لانتاج الطاقة اللازمة للطيران ، فهى تستخدم غذاءها بكفاءة تفوق أضعاف كفاءة أحدث الطائرات فى استخدام وقودها .

طيران الطيور ، بصفة عامة :

أما الطيران نفسه ففيه آيات معجزات ، ولم يفهم العلماء بعضها الا بعد تقدم علوم هندسة الطيران والديناميكا الهوائية . فالصحيح أننا بدأنا نفهم طيران الطير بعد أن تقدمنا فى بناء الطائرات ، على نقيض ما يتبادر الى الذهن ويروج بين بعض الناس . فجناحا الطائر هما جهاز طيرانه الأساسى ، كما تشير الآية ٣٦ من

سورة الأنعام في بساطة ووضوح يتفقان مع ملاحظة الفطرة السليمة والدراسة العلمية المدققة على السواء . ولكن العجيب هو أن جناحي الطائرة الحديثة يقابلان جناحي الطائر مقابلة ظاهرية فقط ، ولكنها لا يكافئانها تماما . فجناحا الطائرة وظيفتها الرفع الى أعلى دون إحداث قوة الدفع الى الأمام ، فهذا هو عمل المحركات الدوارة أو أجهزة الدفع النفاث . أما جناحا الطائر فانها يقومان بالوظيفتين معا ، فالنصف الداخلي للجناح ، الذى يتحرك من مفصل الكتف ، هو الذى يقوم أساسا بانتاج قوة الرفع الى أعلى ، أى أنه يكاد هو وحده الذى يقابل جناح الطائرة . أما نصف الجناح الخارجي فهو الذى يقوم بوظيفة المحرك فيدفع الطائرة الى الأمام . ومقطع جناح الطائرة بصفة عامة انسيابي ، محدب من أعلى مقعر قليلا من أسفل ، وهذا الشكل ملائم تماما لعملية الرفع . فاننا اذا بسطنا الأمر ، وتجنبنا تفاصيل الديناميكا الهوائية المتعلقة بالموضوع ، نقول إن الهواء اذا انساب على هذا الجناح ، كان ضغطه على أسفله أكثر من ضغطه على سطحه العلوى ومن ثم يرفعه ، وعلى الأخص اذا مالت حافة الجناح الأمامية قليلا الى أعلى بحيث يضرب الهواء السطح الأسفل ضربا مباشرا . ومن المناسب لهذا الجناح ، بصفة عامة ، أن تكون مساحته واسعة لتتعرض لفعل كمية أكبر من الهواء ، بينما تكون حافته الأمامية (أى جبهته) ضيقة حتى لا تصد الهواء فتعطل الطيران والاندفاع الى الأمام . (انظر الشكل ٨) .

وقد يتبادر الى الذهن أن الطائر يسبح في الهواء بأسلوب سبحنا في الماء ، أى بأن يضرب الهواء الى الخلف بجناحيه كى يتقدم الى الأمام ، ولكن هذا غير صحيح ، إذ أن النصف الخارجي للجناح (وهو المختص بالدفع) يضرب بقوة الى أسفل والى الأمام ثم يرتفع الى أعلى والى الخلف ـ ويتكرر هذا مع كل خفقة من خفقات الجناح ـ (انظر الشكل ٩) . وفي أثناء خفق الجناح تغير أجزاؤه ـ وبخاصة ريشات القوادم ـ أشكالها وأوضاعها وزواياها وسرعة حركتها في كل لحظة مع اختلاف الارتفاع وشدة الهواء والجهة ومتطلبات الطيران المتغيرة . وهذا كله يتم بصورة آلية سريعة مذهلة لم نستطع أن ندرك بعضها الا بأدق آلات التصوير السريع والعرض البطيء .

أما ذيل الطائر فتكاد تنحصر مهمته في التوجيه ، ولكنه اذا نشر مبسوطا زاد في مساحة السطح ، وقد يستغل هذا أحيانا في الرفع وأحيانا في تقليل سرعة هبوط الطائر . ويوازن الطائر حركته بواسطة جناحيه ، فهو إنْ مال على أحد الجانبين استعاد اتزانه الى وضع مستو بزيادة القوة الرافعة من الجناح الذى مال نحوه ، وذلك إما بزيادة شدة ضربه أو بتغيير زاويته .

وليس الطيران مجرد وسيلة للانتقال المعتاد ، فللطائر فيه مآرب أخرى كثيرة . فكثير من الطيور يلقف طعامه من الحشرات في أثناء طيرانه ، كما أن بعضها يصيد فريسته من ذوات الجناح وهما محلقان في الجو ، وقد يقذف بعضها الى بعض الطعام وهى راكبة متن الهواء (وهذا ما لم تحققه الطائرات الا حديثا . وتُعَدُّ تزويد الطائرات بالوقود وهى في الجو فتحا عظيما في عالم الطيران) . وللطيور أفانين كثيرة من العراك واللهو والتزلج الطائر ، وبعضها يبدى في ذلك مهارات فائقة . وقد تبلغ سرعة بعض الطيور أرقاما خارقة ، فالشاهين (نوع من



شكل ٨

تبين هاتان الصورتان ميزتين من مزايا أجنحة الطيور بصفة عامة . فالصورة الأعلى للنورس الفضي (نورس الرنجة) تبين اتساع سطح الجناح مما يساعد على الارتفاع . بينما صورته السفلى (الملتقطة من أعلى) تبين عمق الحافة الأمامية مما يقلل مقاومة الجناح للهواء في أثناء اندفاع الطائر للأمام .
(عن رديل ، ١٩٧٩)



شكل ٩

حمامة تطير طيرا بطيئا وتهبط هبوطا رفيقا . لا حظ الجناح في ضربة الارتداد الى أعلى والى الخلف ، والرطوبة المفرجين والذيل المنشور .
(عن رويل ، ١٩٧٧)

الصقور) ينقض على فريسته بسرعة ٣٠٠ كيلومتر في الساعة ، كما أنها قد تطير مسافات هائلة ، فبعض الفوازج يطير ستين يوما بين مشاتيها ومواطن تكاثرها الصيفية . أما خطاف البحر القطبي ، فلعله أعظم جوَّاب للكرة الأرضية إذ أنه يعشش في الدائرة القطبية الشمالية ثم يهاجر في رحلة طولها ١٧٥٠٠ كيلومتر الى المنطقة القطبية الجنوبية ، قاطعا طريقا دوارا من أمريكا الشمالية الى الخطوط الساحلية لأوروبا وأفريقيا !

الطيران فنون ، أعجبها الصف :

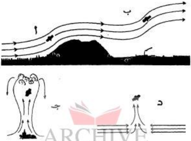
أهم فنون الطيران صورتان هما الدفيف والصف . أما الدفيف فهو الطيران باستمرار خفق الجناحين ، وهو الطريقة المعتادة . أما الصف فهو أن يبسط الطائر جناحيه دون حراك ، ولذلك كان أكثر صور الطيران إثارة للعجب

والاعجاب . كيف لا ، والطائر يمضى فى الهواء بجناحين ساكنين الى أبعد المسافات حتى يغيب عن الأبصار ، وكأن قوى خفية تشده وتحركه كيف تشاء . فالصف يبدو وكأنه ضرب من السحر . ولكن الحقيقة أن الطيور الصافة تنفرد بمزايا خاصة ، كما أن العلم قد اهتدى مؤخرا الى سر تلك القوى الخفية التى تحركها .

وقبل أن نتعرض لوصف الصف قد يجمل بنا أن نقف قليلا لنرى ما قاله المفسرون فى هذا الباب ، فان لهم لفتات لطيفة ، وسأكتفى بالرجوع الى تفسير الامام البيضاوى (لالمامه بأقوال السابقين فى دقة وايجاز) . فعند تفسير الآية ٤١ من سورة النور يقول البيضاوى إن تسبيح هذه الكائنات يكون « بما يدل عليه من مقال أودلالة حال » ولكنه يقول فى موضع لاحق « أنه لايبعد أن يلهم الله تعالى الطير دعاء وتسبيحا كما ألهمها علوما دقيقةفى أسباب تعيشها لا تكاد تهتدى إليه العقلاء » . (والذى نذكره فى هذه الالمامة العلمية الموجزة فيه مصداق لهذا القول) . ثم إن البيضاوى يقول إن الله خص الطير بعد التعميم بذكره من فى السموات والأرض « .. لما فيها من الصنع الظاهر والدليل الباهر . ولذلك قيدها بقوله (صافات) فان إعطاء الأجرام الثقيلة ما به تقوى على الوقوف فى الجوباسطة أجنحتها بما فيها من القبض والبسط حجة قاطعة على كمال قدرة الصانع تعالى ولطف تدبيره » . فالبيضاوى قد التفت الى إعجاز الخلق فى طيران الطيور عامة والى الصف على وجه الخصوص . وفى تفسير الآية ١٩ من سورة الملك ، ذكر البيضاوى كلاما مماثلا ، فى حدود نص الآية الكريمة ، ولكنه لفت النظر الى نكتة بلاغية لطيفة ، فعند تفسيره لمعنى « صافات » قال : « باسطات أجنحتهن فى الجو عند طيرانها فانهن اذا بسطنها صففن قوادمها » ولكنه عند تفسيره لمعنى « ويقبضن » قال : « ويضممنهااذا ضربن بها جنوبهن وقتا بعد وقت للاستظهار به على التحريك . ولذلك عدل به الى صيغة الفعل للتفرقة بين الأصل فى الطيران والطارىء عليه » . (ويقصد أن الأصل فى هذا اللون من طيران الطيور هو الصف أو بسط الأجنحة ، أما القبض فهو عملية وقتية طارئة) ؛ وسوف نستحضر هذه المعانى ونحن نتابع كلامنا عن « الصف » .

« والانزلاق » هو أبسط صور الطيران التى يمكننا أن ننسبها الى الصف . وفى هذا الأسلوب يستغل الطائر الجاذبية الأرضية ، وذلك بأن يترك نفسه يهوى من مكان مرتفع ، فاذا أراد أن يكون هبوطه سريعا وقريبا من الاتجاه العمودى قبض جناحيه ولم يبسطها الا عندما يقترب من المهبط الذى يسعى اليه . أما اذا أراد أن يهبط مندفعا الى الأمام بسط جناحيه فانه سوف يبحر فى الهواء بضع مئات من الأمتار فى أثناء هبوطه البطىء دون أن يحرك جناحا أو يبذل جهدا .

أما فى الصف الأصيل فيحتفظ الطائر بمستوى ارتفاعه بل قد يزداد ارتفاعاوهو فى هذا انما يستغل ظواهر جوية عجيبة بفن واقتدار . وأبرز هذه الظواهر هو تكوّن التيارات الكهربائية الصاعدة بوسائل عدة (شكل ١٠) .



شكل ١٠

بعض طرق نشأة تيارات الهواء الصاعدة

أ : تيار صاعد ثانوي نتيجة انحراف الريح عندما تقابل تلا منحدرا .

ب : تيارات هوائية متموجة بعد تخطى التل الى الجانب الآخر .

جـ : تيار حرارى صاعد ، نتيجة سخونة الهواء الملاصق للأرض وارتفاعه لتمدده وانخفاض كثافته . (لاحظ تكون السحب فوقه) .

د : تيار صاعد ثانوى من تقابل كتلتين هوائيتين) .

(عن رويل ، ١٩٧٧) .

ومن أشهر التيارات الصاعدة تلك التى تنشأ نتيجة سخونة بقاع معينة من الأرض ، تكون أميل الى امتصاص الحرارة من أشعة الشمس ، ثم تنتقل الحرارة الى الهواء المجاور لتلك البقاع الساخنة فيصعد الى أعلى نظرا لتمدده وخفته وانخفاض كثافته. وهذه التيارات تتكون بعد الضحى وعندئذ تهتدى اليها الطيور ، ربما لمشاهدتها واحدا منها مصعدا الى أعلى صافا جناحيه فتندفع اليه وسرعان ما يتكاثر عددها فى تلك البقعة من الفضاء . وفى بعض الأحيان يكون الهواء الصاعد محملا ببخار الماء الذى يتكاثف عندما يصل الهواء الى طبقات باردة ، ومن ثم تتكون السحب فوق تيار الهواء الصاعد . ويظن أن هذه السحب تكشف عن موضع التيار الصاعد للطيور (شكل ١٠ ـ جـ) . واذا كان عمود الهواء الصاعد ضيقا فلن ينجح فى استغلاله الا الطيور

المهيأة للتمكن من الدوران السريع ، وهى تستطيع فى وقت قصير أن تتخذ لانفسها مسارا حلزونيا يحملها مسافة قد تبلغ خمسة كيلومترات !

وقد تنشأ التيارات الهوائية الصاعدة نتيجة وجود عائق أمام الريح ، كالتلال أو الشواطىء شديدة الانحدار، فان الرياح السائدة اذا اصطدمت بالعائق انحرفت بالضرورة الى أعلى (١٠ ـ أ ، ١١) . ومن هذا القبيل أيضاالنوارس الصافة فى التيارات الصاعدة أمام الكثبان الرملية المتتابعة . ولا تنشأ التيارات الصاعدة أمام العوائق وحسب وانما هى تتكون خلفها أيضا ، كما هى الحال عندما تجتاز الريح التل المنحدر الذى يواجهها (شكل ١٠ ـ ب) . ومن المشاهد المألوفة عند المسافر بالبحر نورس يصف دون حراك سابحا فى الهواء خلف سفينة تمخر عباب المحيط ، كما لو أنه كان مشدودا اليها بخيط خفى . وبعض الطيور الصافة قد تعلم كيف يستغل تيارات الهواء المتعارضة (شكل ١٠ ـ د) .



شكل ١١

إسراب من طيور البجع الروى اللون تصف فى تيار هوائى صاعد أمام منحدر .

وفي البحار ظواهر جوية أخرى تستغلها الطيور للصف . فالأمواج العالية تعترض هبوب الريح فتنشأ أمامها تيارات صاعدة تركبها الطيور البحرية الصافة ، ومنها على الأخص مشالان نموذجيان ، وهما طائر الأنواء (stormy petrel) وجلَم الماء (shearwater) ، فكثيرا ما تشاهد تلك الطيور وهي تصف في الهواء فوق الأمواج في الناحية المقابلة لمهب الريح . ولكن الطيور الفطنة لو بقيت هكذا لحملتها التيارات الهوائية الصاعدة مسافات في اتجاه الأمواج المتقدمة . فاذا لم يكن هذا يروقها أخذت تقفز بين آن وآخر من فوق « ظهر » موجة الى ظهر موجة أخرى . ومن أعجب ظواهر الصف البحرية مادرسه العلماء في معهد علوم البحار في وودزهول ، ففي الخريف عندما يكون الماء أدفأ من الهواء تتكون فوق الماء تيارات حرارية صاعدة ، ولكن الباحثين لاحظوا أنه عندما تكون الريح هينة تصف النوارس في أشكال حلزونية مدللة بذلك على أن الأعمدة الهوائية واقفة منتصبة ، أما اذا اشتدت الريح طيرت تلك الأعمدة الهوائية وألقتها ممددة فوق الماء فتصف النوارس كلها في خطوط مستقيمة . « ويشهد الطيور حينذاك لا يكاد يصدق ، فهي تبحر في الريح لا تحرك جناحا وترتفع رغم ذلك كلما تقدمت حتى تغيب عن النظر في الفضاء السحيق . ولقد رأيت هذا مرة ؛ وأشهد أنه لا ينسى الى الأبد » (ستورر ، ١٩٥٩) .

أما طائر الأطيش (ويعرف أيضا باسم الصحاب أو التطرس) فله أساليب عجيبة في الصف . فاذا كانت الريح تأتي في هبات أفقية قوية منتظمة ، فان الأطيش اذا واجه الريح أحدثت سرعة الريح المتزايدة القوة اللازمة لرفعه الى أعلى ، وهكذا تساعد الهبات المتتالية الطائر على البقاء في الجو والصف الى مسافات بعيدة دون أن يحرك جناحا . ولكن الأطيش يحسن استغلال ظاهرة أخرى بأسلوب آخر وذلك أن الريح اذا هبت مسرعة وجدت من البحر وأمواجه مقاومة لها نتيجة الاحتكاك ، مما يترتب عليه أن الهواء القريب من سطح الماء يكون تحركه أبطأ مما فوقه ... وهكذا يصبح الهواء طبقات متراكمة تتدرج سرعاتها من الأقل الى الأكثر كلما اتجهنا الى أعلى . فالطائر يندفع صاعدا الى أعلى مواجها مهب الريح ، ومروره من طبقة من الهواء الى ما فوقها يزيد من قوة رفعه نتيجة تزايد سرعة تلك الطبقات ... ويظل هكذا حتى يفقد قوة اندفاعه ، وحينئذ يُسْلِم نفسه الى الانزلاق هابطا صانعا زاوية محددة مع اتجاه الريح وهذا بدوره يكسبه سرعة اندفاع من جديد يستغلها مرة أخرى في الاندفاع الى أعلى ، وهكذا يدور المرة تلو المرة قاطعا مسافات طوالا فوق المحيط (شكل ١٢) . ولا ينسى الطائر عندما يقترب في نزوله من سطح المحيط أن يستغل تيارات الهواء الصاعدة فوق منحدرات الأمواج ، التي سبق أن وصفناها . وهذا الأسلوب الذكي في استغلال هذه الظواهر الطبيعية المتعددة بمناورات بارعة يسمى « الصف الدينامي » (الديناميكي أو النشيط) .

وبعض الطيور وسيلتها الغالبة في الطيران والانتقال هي الصف ، بل قل إن الصف هوايتها المفضلة أيضا . وهذه الطيور المتخصصة في الصف لا تترك أنفسها كالريشة في مهب الرياح ، كما يقولون ، بل هي تتحكم في



شكل ١٢

أسلوب الأطيش في الصف الدينامي . (الأسهم الأفقية في الازدياد طولا من أسفل الى أعلى ، ترمز الى الازدياد المتدرج في سرعة الريح من طبقة الى طبقة) .
(عن رويل ، ١٩٧٧)

توجيه حركتها بشتى الوسائل . فهي تستطيع أن ترفع جناحيها أو تخفضها ، أو أن تدفعها ، الى أمام أو خلف ، أو أن تقلل من مساحتها بقبضها قبضا يسيرا ، أو أن تديرها من مفصل الكتف ليقابلا الهواء بزوايا مختلفة تؤثر في سرعة الصفق ، أو تلوى أجزاء منها ، وما الى ذلك . وهي في أثناء هذا كله تحرك ذيلها بالصورة المناسبة . وبهذه الأساليب تتحكم الطيور الصافات في سرعتها واتجاه سبحها في الهواء . وعندما تصف الطيور في اتجاه منحن تميل بجسمها كله في اتجاه دورانها والا جذبتها قوة الطرد المركزي إلى خارج قوس دورانها ، وهذا من قبيل ما يفعله المتسابقون بالدراجات حين يجتازون المنحنيات في حلبات السباق . (أنظر شكل ١٣) .



شكل ١٣

الحدأة وهي تصف في مسار منحن . لاحظ أنها تميل بجسمها نحو الجهة دورانها ، حتى لا تخرجها قوى الطرد المركزي عن قوس مسارها

وتتميز الطيور عامة بعظم عضلات صدرها التي تحرك جناحيها ، أما الطيور التي تصف في معظم أوقاتها فانها تتميز على سائر الطيور باختصار حجم تلك العضلات ، وذلك لقلة الحاجة إلى استخدامها ، مع قوة الأوتار والأربطة المتصلة بالجناحين حتى تستطيع بسطها فترات طويلة دون جهد عضلي كبير . هذا فضلا عن أن الطيور

الصافة تتميز أيضا إما بطول جناحيها المفرط أو اتساع سطحيها ، فهذا بالطبع يجعلها أشبه بالشراع المبسوط أمام الهواء . ويستطيع الطائر أن يتحكم في الزاوية التي تقابل بها حافة الجناح الأمامية الهواء حتى يحصل على أعلى قوة للرفع مع أدنى مقاومة ممكنة للهواء ، أو الصد . أما الطيور الصافة كبار الأحجام فان بعض عظامها يزود بدعائم داخلية شبيهة بالدعائم المقامة بين سطحي جناح الطائرة ، حتى توفر لها مزيدا من القوة دون زيادة كبيرة في الوزن .

وعند الطيران المنخفض (وهو ما يعرف بالسقيف) قريبا من الأسطح والأشجار ، يستطيع الطائر أن يحرك جناحيه حركة محدودة حتى لا ترتطم بما تحتها ، وذلك بتثبيت نصف الجناح الداخلي ، وتحريك نصفه الخارجي ، الذي قلنا إنه الذي يقوم بعمل المحرك . أما الطيور التي تألف المحاورة والمداورة تحت الشجيرات ، كالدراج والحجل ، فهي مزودة بجناحين قصيرين تستطيع تحريكهما تحريكا سريعا متلاحقا . ويبلغ من براعة القرقف الضئيل في المناورة أنه يستطيع أن يغير اتجاه طيرانه في ثلاثة أجزاء من مائة جزء (٠٫٠٣) من الثانية ! وبعض الطيور الجوارح يستطيع أن يغير اتجاهه من التصعيد إلى الانخفاض أو العكس في لمحة خاطفة .... وهذا مما يحلم به قائد أية طائرة حربية مقاتلة . وعلى عكس ذلك أنواع البلشون ، وبعض الطيور الخائضة الأخرى ، مزودة بأجنحة كبيرة ثقيلة ، وذلك حتى تمكنها من الهبوط الطرية الرقيق حماية لأرجلها الطوال الدقاق من الكسر ، وهي عدتها لخوض الماء بحثا عن الغذاء .

ومهما يكن من أمر ، فان الطيور في كافة أحوالها ، اذا دفت أو رفت أو حومت أو صفت أو سفت ، واذا مابسطت جناحيها أو قبضتها ، فلا يمسكها في الهواء الا الرحمن ، بما أودعه فيها من خصائص وما ألهمها من فطر ، حتى تكون آيات معجزات ناطقات ببديع صنعه وشاهدات على أنه البارىء البصير بدقائق شئون خلقه .

٤ ـ اللحم الحرام

سوف نتناول في هذا المثال تلمس بعض العلل الكامنة وراء تحريم لحم الخنزير . وهذا مثال لأسلوب من الخدمة تؤديه العلوم الحديثة (البيولوجية والطبية) لفهم تفسير القرآن الكريم وآيات الأحكام فيه ، فهو مثال مختلف عن الأمثلة الثلاثة السابقة التي كانت تتناول فهما متعمقا لبعض آيات الله في خلقه مما أشار اليه القرآن الكريم .

ومحاولة تحليل تحريم لحم الخنزير موضوع دقيق ينبغي أن نتناوله بالكثير من الدقة والحذر ، أكثر مما هو واجب علينا أصلا في كل مايتعلق بدراستنا لكتاب الله العزيز ، ذلك لأن علة التحريم هنا كانت ، ومازال ، موضع

نقاش متجدد . وتحليلنا للموقف في جملته سوف يظهر بما لايدع مجالا للشك مقدار الخطأ في التهوين أو التشكيك في الضرر الناجم من أكل لحم الخنزير وأنه ضرر يمكن تجنبه تماما باتباع الوسائل العصرية المستحدثة في تربية الخنازير ومعالجة لحومها . وقد تأكد لي في مناسبات متعددة أن معظم الحقائق المتصلة بالموضوع خافية على معظم المسلمين ، عامتهم ومثقفيهم بل وبعض أطبائهم . وأذكر أن اشتراكي في نقاش الموضوع ـ منذ أكثر من عشر سنوات ـ في احدى جلسات لجنة الخبراء بالمجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، جعل فضيلة الشيخ أحمد هريدي ، مفتي الديار المصرية في ذلك الوقت ، يشير عليّ ـ بما يكاد يكون تكليفا ـ بضرورة الكتابة بشيء من التفصيل في الموضوع ـ (عبد الحافظ حلمي محمد ، ١٩٦٩) .

مواضع التحريم في القرآن الكريم

حرم لحم الخنزير في أربعة مواضع من القرآن الكريم :

١ ـ « **إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولاعاد فلا إثم عليه ، إن الله غفور رحيم** » . ـ (البقرة ، ١٧٣) .

٢ ـ « **حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الا ماذكيتم وماذبح على النصب** » . ـ (المائدة : ٣) .

٣ ـ « **قل لا أجد في ما أوحي إلىّ محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أودما مسفوحا أو لحم خنزير ، فانه رجس ، أو فسقا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولاعاد فان ربك غفور رحيم** » . ـ (الأنعام : ١٤٥) .

٤ ـ « **إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولاعاد فان الله غفور رحيم** » . ـ (النحل : ١١٥) .

تشمل هذه الآيات الكريمة الأربع جملة ما حرمه النص القرآني الحكيم في هذا الباب ، فضلا عما جاء في السنة الشريفة من « تحريم كل ذي ناب من السباع ، وكل ذي مخلب من الطير وتحريم الحمر الأهلية والكلاب ونحو ذلك » . أما المحرمات المذكورة في القرآن الكريم فانها تندرج في أقسام خمسة : (١) الميتة ، (٢) المنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة وما أكل السبع ، (٣) الدم المسفوح ، (٤) لحم الخنزير ، (٥) ما أهل لغير الله به أو ذبح للطواغيت والأصنام .

لحم الخنزير محرم لذاته ، وهو تحريم معلل :

وكما قدمت ، لن أتعرض هنا إلا لتحريم لحم الخنزير لانه ينفرد من بين جميع اللحوم المذكورة في آيات التحريم

بأنه حرام لذاته ، أي لعلة مستقرة فيه أو وصف لاصق به ، أما أنواع اللحوم الأخرى فهي محرمة لعلة عارضة عليها . فالشاة ـ مثلا ـ لحمها حلال طيب إذا ذكيت بالطريقة المشروعة ، ولا يحرم لحمها إلا إذا كانت ميتة أو منخنقة أو موقوذة (أي مضروبة حتى الموت) أو مترديه من مكان مرتفع أو نطيحة أو أكل منها حيوان مفترس ـ إلا ماذكى قبل أن تفارقه الحياة ـ ، أو إذا نحرت على مذبح الوثنية وقصد بها غير وجه الله ذي الجلال والاكرام . فعنوان بحثنا « اللحم الحرام » معرفا لا ينطبق إذن إلا على لحم الخنزير دون سواه .

وما أظنني في حاجة إلى تأكيد أن التحريم ليس موضع نقاش ، فالمؤمن حين يأتيه الأمر أو النهي من الله تعالى إنما يقول سمعنا وأطعنا ، وما يريد الله بنا إلا خيرا . فالطاعة امتثال والتزام وعبادة ، ولكن شُرع لنا أن نجتهد في تفهم علة الأمر أو النهي إذا توفرت لنا الأسباب المعينة على ذلك . بيد أن الأمر هنا يزيد على هذا إذ أن **تحريم لحم الخنزير بالذات تحريم معلل** ، كما يتضح من قوله تعالى ، في جملة معترضة وبصورة منبهة للأذهان ، « فإنه رجس » ، وآية سورة النحل يسبقها مباشرة قوله تعالى : « **فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون** » ـ (١١٤) . هذا فضلا عن القاعدة الأصلية الجامعة : « .... **ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث** .. » ـ (الأعراف : ١٥٧) . فاجتهادنا إذن محصور في محاولة فهمنا لخبث ذلك المحرم ورجاسته ، حتى نزداد شكرا لله على نعمته .

معنى « الرجس » :

تفيد معاجم اللغة بأن من معاني « الرجس » : القذر ، والشيء القذر ، والفعل القبيح ، والحرام ، واللعنة ، والكفر ، والمأثم ، وكل ما استقذر من العمل ، والعمل المؤدي إلى العذاب .... الخ (القاموس المحيط ، المعجم الوسيط) . فالرجس إذن كلمة جامعة لمعاني القبح والقذر والضرر ، ولا شك أنه قد استقر في أذهاننا التصاق هذه المعاني جميعا بالخنزير . وقد يكون من أسباب ذلك ما نعرفه من أن الخنزير حيوان قارت أو رمام ، أي أنه يأكل كل ما يجده من القمامة والنفايات وفضول الانسان والحيوان ، وأنه لايكاد يُرى إلا وأنفه في الرغام . بل يذكر البعض أيضا سببا آخر وهو ما يشتهر به ذلك الحيوان من طبائع يراها الناس بمقاييسهم عارية من الغيرة والحياء . ولكن يبدو أن نفورنا وتقززنا من هذا الحيوان ليس مبعثها الوحيد كراهتنا الدينية له . كما أنها ليسا قاصرين علينا ، ففي أمريكا وأوروبا تربية الخنازير تجارة رائجة ، وصور ذلك الحيوان منتشرة في رسوم أهل تلك البلاد ويتخذون من هيئته دمى لأطفالهم ، ومع ذلك فأسماؤه على اختلاف لغاتهم تعد سُبة لا يقذفون بها إلا كل زرى ذميم .

وبعض هذا موجود في التفاسير ، فيقول البيضاوي ، مثلا ، في معنى « الرجس » : « قذر لتعوده أكل النجاسة أو خبيث مخبث » . وهذا كله داخل في المعنويات والأذواق التي قد تختلف فيها الأفراد والأقوام ولا تثبت

التمحيص العلمي . وقد يتطوع بعض المفسرين بذكر تعليلات « علمية » من السهل تفنيدها ، من قبيل ما يقال من أن لحم الخنزير محرم لأنه ينقل إلى الانسان نوعا من الديدان الشريطية الطفيلية ، فهذا قول ناقص وغير دقيق . وسنحاول في شيء من التفصيل غير الممل والايجاز غير المخل ، أن نمحص الحقائق المتعلقة بالموضوع لنخلص منها إلى ما في أكل لحم الخنزير من ضرر وعلاقة ذلك الضرر بما هو مشهور عنه من قذارة مأكله ، فهذا كله داخل في معنى « الرجس » ، كما رأينا . وسوف أهتم على الأخص ببعض الأمراض الطفيلية التي تصيب الانسان من الخنزير ، وليس فقط لأنها مجال تخصصي وانما لأنها ـ في نظري ـ هي الأهم ، وسأكتفي بالنسبة لغيرها بمجرد الذكر والاشارة .

طفيليات الخنزير ، بصفة عامة :

يؤوي الخنزير في جسمه عددا كبيرا من أنواع الطفيليات ، شأنه في ذلك شأن غيره من أنواع الحيوان . وكثير من هذه الطفيليات نوعي خاص به أو يكاد ، وبعضها لا يصيب الانسان على أية حال ، ولكن الذي يسترعي الالتفات حقا هو أن أكثر من عشرين نوعا من هذه الطفيليات يصيب الانسان أيضا ، فهي داخلة فيما يسمى بالمصطلح الحديث زونوسس zoonosis ، أو الأمراض الحيوانية البشرية ، ويسلط عليها في الوقت الحاضر الأضواء . وفي هذا الصدد يقول كرول (Croll,1961) إن الحظر المفروض على المسلمين بعدم « ملامسة » الخنازير ليس من الأمور المفتقرة إلى التبرير . ولكن الذي يحدد أهمية هذا الوضع بالنسبة للاصابة بكل طفيلي من هذه الطفيليات عدة اعتبارات أهمها حدوث تأثر الانسان بهذه الاصابة ، أي درجة خطورة المرض الذي يسببه الطفيلي فيه ، وحقيقة الدور الذي يقوم به الخنزير في دورة حياة الطفيلي ، ونسبة تعرض الانسان للاصابة به .

والطفيليات المشتركة بين الخنزير والانسان مجموعة متباينة تنتمي إلى معظم المجموعات الرئيسية من الطفيليات ، سوف نستعرض أشهرها أولا ، ثم نتناول أهمها فيما بعد بشيء من التفصيل :

١ ـ من الفيروسات والبكتيريا : فيروسات مرض الكلب والحمى الصفراء وسلالات من الانفلونزا ، وصور من أنواع العدوى البكتيرية المختلفة .

٢ ـ من البرتوزوا (الحيوانات الأولية) : نوعان من التريبانوسوما ، يسبب أحدهما مرض النوم الافريقي ، ويحدث ثانيهما مرض شاجاس في أمريكا الجنوبية . ويعد الخنزير من العوائل الخازنة الاضافية لطفيليات المرضين . وهناك نوع من الإنتاميبا (أي من جنس طفيليات الزحار الأميبي في الانسان) خاص بالخنزير وقد ينتقل أحيانا للانسان . ولكن أهم هذه الأوليات الطفيلي الهدبي المسبب للزحار البلنتيدي ، وسوف نتحدث عنه حديثا خاصا فيما بعد .

٣ - من الديدان المفلطحة : ويعنينا منها مجموعتان رئيسيتان :

أ - التريماتودا أو الوشائع : فمن وشائع الدم يصاب الخنزير بديدان البلهارسيا اليابانية ، كما أن بويضات تلك الديدان تترعرع برازذلك الحيوان الرمام ، وهذا يساعد على إكمالها دورة حياتها وانتشارها . وكذلك من وشائع الرئة يصاب الخنزير بوشيعة الرئة المسماة **Paragonimus westermani** والتي تصيب الانسان في كثير من أرجاء العالم ، وعلى الأخص في الشرق الأقصى . أما عن وشائع الكبد والأمعاء فللخنزير منها نصيب غير قليل ، ولذلك سوف نتكلم عنها في نبذة خاصة .

ب - السستودا أو الديدان الشريطية : يصيب الخنزير منها نوعان : دودة السمك الشريطية (**Diphyllobothrium latum**) ويصاب الخنزير ، كالانسان ، بالطور البالغ منها ، أي الدودة الشريطية ذاتها ، ولكن هذا ليس له أهمية خاصة . أما النوع الثاني ، وهو دودة لحم الخنزير الشريطية (**Taenia solium**) فله أهمية كبرى كما سوف يتضح فيما بعد .

٤ - الديدان شوكية الرأس : منها نوع يسمى **Macracanthorhynchus hirudinaceus** شائع في الخنزير ، ولكنه يوجد أحيانا في الانسان ، فقد اكتشف ، مثلا ، بين فلاحي وادي الفولكا في جنوبي روسيا .

٥ - الديدان الخيطية أو الاسطوانية (النيماتودا) : يصيب الانسان والخنزير منها بضعة أنواع ، فثمة سلالة من دودة الأسكارس أو ثعبان البطن (**Ascaris lumbricoides**) تعيش في الخنازير ، وقد ثبت أخيرا بالدليل القاطع أنها تعدي الانسان أيضا ، كما ثبت أن السلالة التي تصيب الانسان من النوع نفسه تعدي الخنازير ، أي أن هذه الحيوانات تساعد على انتشار عدواها (**Smyth, 1976**) . أما الديدان السوطية فيعتقد أن الذي يصيب الانسان والخنزير منها نوع واحد (**Trichuris trichiura**) . فالخنازير تساعد على انتشار هذه الدودة أيضا بين الناس . بيد أن الدودة الخيطية الخطيرة حقا هي الدودة الشعيرية الحلزونية ، المعروفة بالتريكينا أو التريكينلا (**Trichinella spiralis**) ، وسوف نتناولها بما تستحقه من عناية خاصة .

٦ - الحشرات والحلم : يصلح الخنزير عائلا لعدد من الطفيليات الخارجية الخاصة بالانسان ، كأنواع البعوض والبرغوث الشائع في الانسان ، وأنواع من القمل ، وذبابة تسي تسي الناقلة لطفيليات مرض النوم ، وأنواع من ذباب الجلد التي تصيب يرقاناتها الفم والعينين والأذنين والجروح المكشوفة ثم الأنف على الخصوص . كذلك هناك أنواع من الحلم (القريبة من طفيليات الجرب) تصيب الخنزير وقد تصيب الانسان في وجهه وفي داخل أذنيه .

وبعد هذا العرض العام لبعض الطفيليات المشتركة بين الانسان والخنزير سوف نقدم ، بشيء من التفصيل المناسب ، نبذة عن أهم أنواعها :

الزحار البلنتيدي :

الطفيلي المسبب لهذا المرض يسمى بالانتديوم كولاى (Balantidium coli) ، وهو النوع الوحيد من الحيوانات الأولية المهدّبة التي تصيب الانسان . وهو من طفيليات الأمعاء الغلاظ في الخنازير والقردة وبخاصة الشمبانزي ، ولما كانت فرص الاتصال بين الانسان والقردة محدودة للغاية ، **ولما كان الطفيلي واسع الانتشار في الخنازير فانها تعتبر المصدر المعتاد ، بل الوحيد من الناحية العملية لعدوى الانسان** . والحالات في الانسان معروفة في بقاع كثيرة من العالم ، وفي ألمانيا وفرنسا والفلبين وفنزويلا على الخصوص ، **وهي عادة لا تنتشر إلا بين من يقومون على تربية الخنازير أو يعملون على ذبحها وتجارتها** ، فتتلوث أيديهم بحوصلات الطفيلي من برازه أو معائه بعد ذبحه ، ويبدو أنه يلزم لاحداث العدوى بالانسان جرع كبيرة من هذه الحوصلات . ولذلك كان انتشار المرض محصورا في أولئك الناس ، ومن ثم يمثل هذا المرض لونا معينا من الأمراض الحيوانية البشرية (الزونوسس) يصيب قطاعا معينا من الناس ، وهو هنا لون مهني .

وفي الانسان تعيش الطفيليات في القولون والأعور المعوي ولكنها قد تنتقل الى الجزء الأسفل من اللفائفي من الأمعاء الدقاق في بعض الأحيان . كما أنها قد توجد في الأوعية الدموية واللمفية والغدد المساريقية المتصلة بالأمعاء . وفي الخنزير لا يحدث الطفيلي أعراضا ذات بال ، بيدأن الأمر مختلف تماما عن ذلك في الأنسان ، ففي نسبة من الحالات تتحول الاصابة إلى حالة مرضية تتفاوت فيها الأعراض بين الاسهال اليسير إلى نوبات من الاسهال الشديد المتكرر إلى زحار (ديزنتاريا) مزمن . أما الأعراض العامة فهي المغص وفقد الشهية والدوار والضعف العام ، والهزال في بعض الأحيان . والزحار البلنتيدي يشبه الزحار الأميبي من نواح كثيرة ، فتحدث الطفيليات في نسبة من المصابين آثارا مرضية شديدة بسبب القروح العميقة التي تنخرها في أنسجة الأمعاء ، حتى لقد يصبح القولون من بدايته إلى نهايته كتلة من القرح ، وقد ينتهي المرض بالوفاة في بعض الحالات .

الوشائع المعوية والكبدية :

١ ـ <u>وشيعة الأمعاء الكبيرة</u> (Fasciolopsis buski) : وهذه من الطفيليات التي يتقاسمها الانسان والخنزير اللذان تعيش فيهما الديدان البالغة ، ونادرا ماتصاب بها الكلاب . فالخنزير إذن هو العائل « الخازن » الرئيسي لنشر العدوى بعد تمام دورة الحياة في أنواع معينة من القواقع والأسماك . والعدوى في الخنازير شائعة جدا في آسيا من الصين الى البنغال وفي كثير من جزائر الهند الشرقية . ويتمشى مع هذا تفشي العدوى في الانسان ففي الصين قد تبلغ نسبة العدوى ١٠٠٪ في بعض المناطق ، وتعد من المشاكل الصحية الهامة (Smyth, 1976) . وتكون الأعراض شديدة اذا كان عدد الديدان كبيرا ، وتحدث الديدان التهابا موضعيا ونزفا وتقرحا في جدر

الأمعاء الدقاق . وتنشأ من ذلك أعراض متفاوتة بين الاضطرابات المعوية والاسهال المزمن والأنيميا والارتشاح تحت جلد الوجه والرجلين والاستسقاء وانتفاخ البطن وقد تحدث الوفاة نتيجة للاجهاد العام وانحطاط في القوى شديد .

٢ ـ **وشيعة الأمعاء الصغيرة** (Gastrodiscoides hominis) : يصاب الانسان بهذه الديدان في الهند وفيتنام والفلبين وبعض ولايات الاتحاد السوفيتي ، وقد تتجاوز الاصابة نسبة ٤٠٪ في بعض المناطق . والطفيلي نفسه شائع في الخنازير في معظم تلك المناطق ، ومن ثم يعد العائل الاحتياطي أو الخازن الرئيسي له والذي يعمل على انتشاره بين الناس . وتعيش الديدان البالغة في الأمعاء الغلاظ والأعور المعوي ، وقد تسبب بعض الالتهاب والاسهال .

٣ ـ **وشيعة الكبد الصينية** (Chlonorchis sinensis) : تعد هذه الدودة من الطفيليات الهامة للانسان في الشرق الأقصى ، وعلى الأخص في اليابان وكوريا والصين وتايوان وفيتنام ، والخنزير من بين العوامل الخازنة الرئيسية لها . وتعيش الديدان في القنوات الصفراوية للكبد ، فاذا كان عددها كبيرا أحدثت تضخما فيه واسهالا مزمنا ويرقانا وأعراضا أخرى قد تنتهي بالوفاة .

مرض دودة لحم الخنزير الشريطية :

وهي الدودة التي تعرف علميا باسم تينيا سوليوم (Taenia solium) . وهي تعيش في طورها الشريطي البالغ في أمعاء الانسان حيث يبلغ طولها من مترين الى سبعة أمتار (أربعة في المتوسط) . وللدودة رأس صغير ، أصغر من رأس الدبوس ولكنه مزود بأربعة ممصات وقمته تعلوها طوق من الأشواك . ويلي الرأس عنق قصير تنمو منه باستمرار قطع أو أسلات صغار تتباعد عنه تباعا وتأخذ في النمو مكونة ذلك الشريط الذي قد يحوي منها نحو ألف . وكل أسلة كأنها حيوان قائم بذاته إذ فيها جهازا التناسل المذكر والمؤنث . فلا تلبث الأسلة الناضجة أن تمتليء بآلاف كثيرة من البويضات ، حتى تصبح الأسلة في النهاية مجرد كيس متخم بذلك البيض الوبيل الذي ينمو في كل واحدة منه جنين كروي ذوستة أشواك تشبه الخطاطيف .

وتنفصل الأسلات المثقلات من طرف الشريط وتخرج مع براز الانسان المصاب . وفي التربة الملوثة الرطبة تستطيع الأسلة أوما فيها من بيض أن تبقى زمنا ليس بالقصير ، حتى يأتي خنزير نهام يقم مافي الأرض من قذر ونفايات فيبتلع معها الأسلات أو البيض،فتعمل العصارات الهاضمة على إطلاق الأجنة من محابسها،ومن ثم تشق طريقها بأشواكها مخترقة جدار الامعاء حتى تصل الى أوعية الدم أو اللمف فتدور مع هذا وذاك حتى تستقر في جسم الخنزير، حيث تنمو في عضلاته ، وبخاصة في اللسان والرقبة والكتف والبطن ، مكونة حويصلات أو مثانات كروية أو بيضية منتفخة طولها ٦ ـ ١٨ مليمترا ، وهي تعرف باليرقانات أو الديدان المثانية ، في كل منها

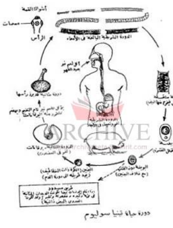
رأس صالح لأن تنمو منه دودة شريطية كاملة . ويحدث هذا عندما يأكل انسان هذا اللحم المصاب دون أن يجيد إنضاجه لقتل مافيه من تلك الديدان المثانية . (شكل ١٤) .

وفي هذه الدورة يقوم الخنزير بدور مايسمى بالعائل الوسيط ، بينما يسمى الانسان العائل النهائي . والخنزير ليس العائل الوسط الوحيد ولكنه من الناحية العملية يعتبر في واقع الأمر المصدر الوحيد لعدوى الانسان . بيد **أن الذي يحدث أحيانا هو أن هذه الدورة قد تنعكس انعكاسا جزئيا ، فيحل الانسان محل الخنزير إذ يصبح عائلا وسيطا في دورة تنتهي بطريق مسدود** ، وذلك أن المثانات التي سوف تتكون في جسمه لن تتحول الى ديدان بالغة إلا اذا أكل لحم ذلك الانسان المصاب انسان آخر ، ولن يحدث هذا طبعا اللهم إلا أن يكون ذلك بين أكلة لحوم البشر ! (المستطيل الأسفل من شكل ١٤) .

وينشأ هذا الانعكاس الجزئي من ابتلاع الانسان لبيض الدودة اذا تلوثت يداه أو تلوث طعامه بشيء منها ، من فضلاته هو أو من مصدر خارجي . كذلك يُشك أن البيض الناضج أو الأسلات المثقلة بالبيض الناضج قد ترتد من أمعاء الشخص المصاب بالدودة الشريطية الى معدته ، وذلك نتيجة انعكاس الحركة الدودية لأمعائه . وفي هذه الأحوال يفقس البيض في المعدة والأمعاء وتنطلق منه الأجنة ذوات الأشواك الست فتدور مع دمه لتنتشر في أجزاء جسمه ثم تستقر مكونة ديدانا مثانية ، مثلما يحدث للخنزير المبتلع للبيض في الدورة المعتادة .

ودودة لحم البقر الشريطية (Taeniarhynchus saginatus - Taenia saginata) تشبه دودة لحم الخنزير بصفة عامة ، الا أنها أطول ، ورأسها أكبر قليلا الا أنه عار من القمة والأشواك ، وعدد الأسلات في الشريط أكثر إذ قد يبلغ الألفين . ودورة حياة هذه الدودة تتم بين الانسان عائلا نهائيا والأبقار (في معظم الأحيان) عوامل وسيطة . والديدان المثانية قد يبلغ طولها سنتيمترا واحدا وتنتشر على الأخص في القلب واللسان والحجاب والكتفين والفخذين ، من جسم البقرة . (شكل ١٥ ـ والجزء الايسر من الرسم يبحث مشكلة وصول بيض الديدان الشريطية من الانسان الى الأبقار في المدن ، فهناك عدة احتمالات بحثت ، منها أن الفضلات الآدمية قد تصب في البحر مباشرة ومنه قد تنقلها الطيور البحرية في جوفها أو أرجلها الى المزارع ، ومنها أن البيض قد يفلت من خطوات التصفية في محطات المجاري فيخرج مع الماء المعالج ليلقي في الانهار والحقول ... وكذلك قد تستخدم فضلات المحطات الحاوية للبيض ، سمادا . وهذا كله يمكن أن يقال عن دودة لحم الخنزير) . **والشيء الجوهري هنا أن الانسان لايصاب البتة بالديدان المثانية لدودة لحم البقر الشريطية ، حتى وإن ابتلع بيضها ... وهذا فرق هام للغاية .**

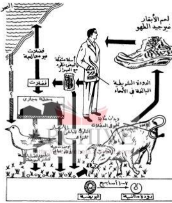
ومن هذا يتضح أن الانسان قد يصاب بأحد مرضين : أولهما ، الاصابة بدودة شريطية بالغة (تينيا سوليوم من لحم الخنزير ، وتينيا ساجيناتا من لحم البقر) . وفي كلتا الحالتين تكون الأعراض يسيرة في معظم الاحيان ، ولكنها قد تسبب بعض الاضطرابات الهضمية أو أعراض نقص الفيتامينات وفقد الشهية ونقص الوزن . وعلى أية



شكل ١٥

دورة حياة دودة لحم الخنزير الشريطية (لاحظ أين القصة في الدورة ، السفلي والمستطيل الأسفل ، حين يأكل الانسان لحم الخنزير نيئا ، وهذا هو الوجه الخطير الذي تعرف به دودة لحم الخنزير الشريطية عن دودة لحم البقر الشريطية) .

(منقول عن ... ، ١٩٧٦) .



دورة حياة تينيا ساجيناتا
(دودة لحم البقر)

شكل ١٥

دورة حياة دودة لحم البقر الشريطية

لاحظ عدم وجود أجيال لانعكاس جزئي للدورة ، كما هى الحال في دودة لحم الخنزير الشريطية . ومن ثم لايصاب الانسان البتة بالديدان المثانية لدودة لحم البقر ـ وهذا فرق جوهري وخطير . (الجزء الأيسر من الرسم يبحث مشكلة وصول بيض الديدان الشريطية من الانسان الى الأبقار في المدن) .

(معدل عن سبيك ، ١٩٧٦) .

حال فعلاج هذه الأعراض ، والتخلص من الدودة بالعقاقير الطاردة للديدان أمر يسير . أما ثانيهما ، فهو الاصابة بمرض اليرقانات أو الديدان المثانية لدودة لحم الخنزير (تينيا سوليوم) وحدها .... **وهذا مرض جد خطير ، ولامقابل له في دودة لحم البقر .**

مرض الديدان المثانية لدودة لحم الخنزير Gysticercosis :

تبدأ إصابة الانسان بهذا المرض الخطير بعدواه ـ الذاتية أو من الخارج ـ بالبيض لا **باللحم** المصاب بالديدان المثانية ، كما هي الحال في العدوى بمرض الدودة الشريطية البالغة . والأجنة المنطلقة من البيض قد تذهب الى أي عضو تقريبا في جسم الانسان ، وبخاصة في عضلات الأطراف واللسان والعنق والأضلاع ، وأحيانا في الرئتين والكبد والقلب والعين ، أو في النخاع الشوكي والدماغ (المخ) . وتستقر الأجنة في هذه المواضع لتكون الديدان المثانية . ومن الواضح أن الضرر الناشىء من وجودها يتوقف ، مقدارا وكيفا ، على عددها وعلى طبيعة المكان أو العضو الذي تستقر فيه . فانه اذا استقر بها المطاف في الأنسجة الرخوة تحت الجلد أو في عضلة غير رئيسية وكان عددها قليلا كان أذاها محدودا ، إلا إنْ كانت معوقة لحركة أو ضاغطة على عصب أو مجرى معين .

أما وجودها في العين أو القلب أو الرئتين أو الكبد فله بالطبع شأن آخر . وقد ثبت **أن لهذه المثانات ميلا خاصا للمخ ، ومن ثم يرجح أنها السبب في نسبة كبيرة من حالات الصرع** . وقد وجد بعض الباحثين ، باستخدام وسائل خاصة للتصوير بالأشعة ، أن نسبة من الحالات التي سبق تشخيصها بأنها أورام في المخ هي في حقيقة أمرها مثانات دودة لحم الخنزير . واصابة المخ قد يتسبب عنها أعراض متباينة ، **متفاوتة في الشدة ، فمن صداع قاس الى شلل عضوي جزئي الى دوار واضطرابات عصبية ونفسية قد تتخذ مظهرا هستيريا .** وقد تظل المثانات حية مدة طويلة في الجسم ، ولكنها قد تموت بعد فترات متفاوتة فتنطلق منها توكسينات سامة ، وكثيرا ماتتكلس في النهاية ـ أي تحاط بالرازجيرى وآثارها الخطيرة قد تنتهي بالوفاة . ولكن ما العلاج ؟ لايعرف علاج ناجح لمرض الديدان المثانية* ، والجراحة هي الوسيلة الوحيدة لاستخراجها ، ولكنها قلما تكون مجدية وكثيرا ما تكون محفوفة بصعوبة شديدة أو خطر بالغ ، اذا كان عدد المثانات كبيرا ومواضعها دقيقة .

الديدان الشعرية الحلزونية ـ تريكينا :

تعيش الديدان البالغة من هذا النوع (**Trichinella spiralis**) في الأمعاء الدقاق للانسان ، وأنواع أخرى معينة من الحيوان ، كما سيأتي فيما بعد . والديدان دقاق قصار الأجسام ، تبلغ إناثها نحو أربعة مليمترات وذكورها لاتتجاوز نصف هذا الطول . والأنثى المخصبة المثقلة بالبيض تنغمس في جدار الأمعاء لتضع صغارها

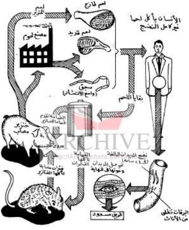
* تجرب الآن بعض العقاقير لقتل الديدان المثانية ، مع الاحتراس من الأضرار الناجمة عن المثانات الميتة نفسها (في الدماغ ، على الأخص) .

التي تعرف باليرقانات ، فهي لاتضع بيضا ، كمعظم الديدان ، وانما يفقس بيضها وهو لم يزل في باطنها ، ومن ثم توصف تلك الاناث بأنها بيوض ولود . وتجري اليرقانات مع دورة الدم مارة بالقلب والرئتين ثم تستقر بين ألياف العضلات في أعضاء مختلفة من الجسم ، حيث تنمو حتى يبلغ طولها مليمترا واحدا ، وقد خرجت من بطون أمهاتها لاتتجاوز جزءا من عشرة أجزاء من المليمتر ، ثم تلتف على نفسها ، ومن ثم كان وصفها بالحلزونية . ولاتلبث هذه اليرقانات أن تتحوصل ، والأغلب أن تضم كل حوصلة يرقانة واحدة أو اثنتين . وهذه الحويصلات هي الطور المعدي . فان كانت في لحم حيوان انتقلت الى الانسان أو الحيوان الذي يأكل هذا اللحم . أما إنْ كانت في انسان فقد انتهت الى طريق مسدود ، كما ذكرنا من قبل في حالة اليرقانات المثانية لدودة لحم الخنزير الشريطية . وغاية المطاف ، في الانسان الذي يقدر له أن يعيش طويلاً باصابة خفيفة ، أن تتكلس هذه الحويصلات بعد شهور عديدة ثم تموت اليرقانات الحبيسة فيها وتتكلس بعد عدد من السنين (يقدر البعض أنها قد تبلغ أحيانا الثلاثين) . ويلاحظ هنا أن الأمهات من الديدان وبناتها من اليرقانات توجد في الفرد نفسه ، ولكن اليرقانات لاتتم دورتها فتصل الى المرحلة البالغة الا اذا وصلت الى فرد عائل جديد . (شكل ٦٦) .

مرض التريكينا Trichinosis :

كما هي الحال بالنسبة لدودة لحم الخنزير الشريطية ، ليست الديدان الشعرية البالغة هي الخطيرة ، وانما يرقاناتها هي أس البلاء . فعندما يأكل الانسان اللحم المصاب غير جيد الطهو تخرج الديدان من حويصلاتها وتبلغ نضجها الجنسي في يومين فتتزاوج ، ثم سرعان ماتموت الذكور أما الاناث فانها ترقد في جدار الأمعاء وتصبح قادرة على وضع يرقاناتها بعد أسبوع واحد . وقد تستقر اليرقانات ، بعد دورانها في الجسم ، في أي جزء عضلي منه ، إلا عضلة القلب ، ولكنها تكثر في عضلات الحجاب الحاجز والأضلاع والحنجرة واللسان والعين وبعض عضلات الذراعين والرجلين . وقد تموت الاناث البالغة جميعها بعد شهرين أو ثلاثة ، ولكن بعد أن تكون قد نفثت في أنحاء الجسم ذريتها الخبيثة . ويقدر أن كل أنثى تستطيع أن تضع في حياتها القصيرة عددا من اليرقانات قد يبلغ عشرة آلاف (Noble and Noble, 1976) .

وتتفاوت الأعراض نوعا وشدة حسب مراحل المرض وكثافة العدوى وحالة المريض الصحية العامة ، وعادة ماتظهر الأعراض في الأسبوع الثاني بعد تناول اللحم المعدي . وتتميز المرحلة الأولى من المرض بالاضطرابات المعدية والمعوية والاسهال الشديد الذي قد تصحبه حمى وضعف عام . أما المرحلة الثانية وهي فترة انتشار اليرقانات في الجسم واختراقها للعضلات ، فكثيرا ماتكون قاتلة ، ومن أعراضها انتفاخ الجفون وماتحت العينين وآلام عضلية روماتيزمية مبرحة ، واضطرابات في وظائف العضلات التي تتعرض لعدد كبير من الغزاة ، كحركة العينين والبلع والتنفس . ولاغرابة في ذلك فقد قدر عدد اليرقانات في عضلة الحجاب الحاجز لانسان مصاب بألف يرقانة في الجرام الواحد ! ويصاب المريض بحمى تكاد تكون مستمرة وعرق غزير وهذيان ونزف تحت الاظافر ،



دورة حياة تريكينلا سبيرالس

شكل ١٦

دورة حياة الدودة الشعرية الحلزونية

(لاحظ الدور الرئيسي الذي يقوم به الخنزير في الدورة ، والدور الاضافي للجرذان ، ولاحظ أن الانسان يأخذ العدوى من الخنازير ، ولكنه هو لا يعدي أحدا) .

(معدل عن سميث ، ١٩٧٦)

وما الى ذلك . وفي هذه المرحلة توجد اليرقانات في السائل الدماغي الشوكي ومن ثم قد تظهر بعض أعراض التهاب الدماغ والسحايا (أي الأغلفة المحيطة بالدماغ ـ أي المخ ـ والحبل الشوكي) . أما المرحلة الثالثة ، المصاحبة لتكلس الموصلات ، فتبدأ بعد نحو ستة أسابيع من بدء العدوى ، وفيها تشتد الأعراض السابقة ، وينتشر الارتشاح في الوجه والبطن والذراعين والرجلين ، ويصاب المريض بضعف عام شديد وطفح جلدي وفقر في الدم ونزف في الأحشاء وتضخم في الطحال واضطرابات عصبية وعقلية ، وتحدث معظم الوفيات بين الأسبوعين الرابع والسادس . أما اذا شفي المريض فلن يكون ذلك قبل بضعة أشهر ، ولكن الآلام العضلية قد تعاوده طيلة سنة كاملة .

والمشهور أنه لايوجد عقار نوعي لمرض التريكينا (Noble and Noble, 1976) ، وكان هذا هو الرأي السائد ولكن بعض المراجع تشير الى أن مادة الثيابندازول (Thiabendazole) تفيد في علاج الأعراض اذا استخدمت قبل تحوصل اليرقانات (Wilcocks & Manson-Bahr, 1974) . ولكن المشكلة الحقيقية تكمن أيضا في تنوع الأعراض الشديد واختلاطها الظاهري بالإسهال أو الكوليرا أو التسمم الغذائي أو الحمى الروماتيزمية أو غيرها من الحميات ، وما الى ذلك كما رأينا . وقد يجدي فحص قطعة من اللحم (من سمانة الساق) من المريض المشتبه في إصابته أو بعض الاختبارات المعملية الخاصة . ولكن التشخيص غالبا ما يتأكد بفحص قطعة من الحجاب الحاجز بعد الوفاة .

تحليل ومناقشة

عرضنا فيما تقدم أهم الأضرار الوبيلة ، من ناحية الأمراض الطفيلية ، التي تتهدد آكل لحم الخنزير ، وسوف نعرض الآن مدى انتشار تلك الأمراض ونبحث في امكان آكل لحم الخنزير أن يتقي تلك الأضرار وننظر في تحقق معنى « الرجس » فيها ، مع مناقشة اعتراضات المجادلين .

١ ـ **انتشار دودة الخنزير الشريطية ومرض الديدان المثانية** : الارتباط واضح بين انتشار دودة لحم الخنزير الشريطية ومرض الديدان التابع لها وبين العادات الغذائية المتبعة والأديان السائدة في الأقاليم المختلفة . فالدودة واسعة الانتشار في أوروبا وجنوبي آسيا وأفريقيا أمريكا الجنوبية . ففي المكسيك ، مثلا ، تُحدث الدودة ـ أو على الأصح يرقاناتها المثانية ـ عددا كبيرا من إصابات الدماغ (المخ) ـ (Noble and Noble, 1976) . ومع أن الديدان المثانية قد توجد نادرا في الجمال والكلاب ، الا أن الخنزير هو المصدر الأساسي لانتشارها ، كما ذكرنا . ويذكر نلسون أن تفشي مرض الديدان المثانية في جنوب أفريقيا يعد مثالا لتأثير سلوك الأقوام وعاداتهم في انتشار أمراض معينة بينهم ، فهو يروي عن آخرين هذه الطرفة ؛ وهي أن المشعوذين هناك يعالجون مرضاهم بطبخه فيها الديدان الشريطية ـ وقطع منها تحوي بيضا ناضجا في الغالب ـ (Nelson, 1972) .

ويقرر لاباج (١٩٦١) أن دودة لحم الخنزير الشريطية « نادرة الوجود » في البلاد التي لايؤكل فيها لحم الخنزير، كما في البلاد الاسلامية (ص ٩٥) . كذلك يقرر ولكوكس ومانسون بار في الطبعة السابعة عشرة من كتابها المشهور عن طب المناطق الحارة أن هذه الدودة غير معروفة بين المسلمين واليهود (Wilcocks & Manson-Bahr, 1974) . أما تشاندلر وريد فيذكران في كتابها الأشهر في علم الطفيليات ماترجمه حرفيا بما يلي : « أما في البلاد اليهودية (كذا) والاسلامية ، حيث يعد أكل لحم الخنزير خطيئة دينية خطيرة ، فليس لهذا الطفيلي الا أدنى الفرص للبقاء ، وهو دليل فاضح على فساد الأخلاق عند حدوثه ..... » (Chandler & Read, 1965;P. 355) . ويشير المؤلفان الى حقيقة هامة بقولان إنها مازالت من ألغاز علم الطفيليات المشكلة ، وهي أن الديدان المثانية أوسع انتشارا في الانسان من الديدان الشريطية البالغة .. وهذا شيء بالغ الأهمية لأن مرض الديدان المثانية هو الشديد الخطورة ، كما بينا من قبل .

٢ ـ انتشار دودة الخنزير الشعيرية الحلزونية (التريكينا) : « المشهور» أن مرض التريكينا منتشر في جميع البلاد الأوروبية (وعلى الأخص : بولندا ، المناطق الغربية والجنوبية الشرقية من روسيا ، رومانيا ، المجر ، تشيكوسلوفاكيا ، ايطاليا ، ألمانيا ، النمسا) ، وفي الولايات المتحدة الأمريكية ، والمناطق القطبية الشمالية . والمرض أقل انتشارا في بلدان أوروبا الأخرى ، وفي المكسيك والأنحاء الجنوبية من أمريكا الجنوبية وعلى الأخص في شيلي . (عدة مراجع) . وأقول « المشهور» لأن هذه الصورة آخذة في التغير ، كما سيأتي فيما بعد .

ويقرر تشاندلر وريد (في مرجعهما المشار إليه) أن هذه الدودة تنفرد دون معظم الديدان المتطفلة في الانسان بأنها تكاد تكون غير موجودة في المناطق الحارة ، فيمكن اعتبارها غير موجودة ـ من الناحية العملية ـ « من سان فرانسسكو الى السويس ومن أفريقيا الى أستراليا » . ولكن المؤلفين يذكران في موضع سابق ما ترجمته : « وقد قيل إن هذه الدودة هي علة تحريم أكل لحم الخنزير في الشريعة اليهودية القديمة . ولكن يبدو أن هذا بعيد للغاية ، إذ ليس ثمة من سبب خاص لافتراضنا أن مرض ديدان التريكينا كان متفشيا في الخنازير على عهد موسى ، ثم قل بعد ذلك حتى كاد يختفي من الشرق والأوسط » ـ (المرجع السابق ، ص ٤٠٤) . ولكننا نرى ـ على نقيض ما ذكر المؤلفان ـ أنه ليس ثمة ما يمنع صحة ذلك الفرض ـ من انتشار المرض سابقا ثم اختفائه في الأزمان التالية . هذا فضلا عن أن المؤلفين تناسيا أن شريعة الاسلام الغراء قد بسطت ظلها الوارف في تلك المناطق ، فتراجع المرض مدحورا وراء حدودها . ولعل الذي جعل المؤلفين يميلان الى استبعاد ذلك الفرض هو ملاحظتهما للصورة الحالية التي قرّراها من عدم وجود الطفيلي في المناطق الحارة . بيد أن ماسوف نذكره الآن من اكتشاف المرض في ذلك الحزام الذي كان بعيدا عنه ، يؤيد صحته ، إذ يبدو أن التراخي في التمسك الجاد بتحريم الاسلام لحم الخنزير ـ مؤيدا للشرائع السابقة عليه ـ هو الذي سمح للدودة اللعينة بأن تتسلل عائدة لتسترد مناطق نفوذها القديمة ، من خلال ثغرات الجشع الاقتصادي والنهم الآدمي !

ويعجب نلسون قائلا ما ترجمته : « أما العلة في إدماننا ـ نحن أهل العالم الغربي ـ أكل لحم الخنزير فانها لغز محير ، وخاصة أننا نُذَكَّر على الدوام بمخاطر هذا ونحن نقرأ الكتاب المقدس » ، مشيرا إلى الاصحاح الرابع عشر من سفر التثنية من التوراة . ثم يستطرد المؤلف قائلا : « اما اليهود الملتزمون وأتباع محمد (صلوات الله وسلامه عليه) فانهم مضوا في نفورهم من الخنازير وعدم استساغتهم لحومها ، ومن ثم خلت جماعاتهم من مرض التريكينا خلوا تاما » . (Nelson, 1972: P. 117) . وهذه العلة البديهية لخلو الأمم التي لا تأكل لحم الخنزير من الاصابة بمرض التريكينا تلقى التأييد من جميع المصادر (مثلا ، غير ماذكر : Noble and Noble, 1976; Croll and Matthews, 1977)

٣ ـ مرض التريكينا يفتح جبهات جديدة : ويبدو أن البلاد الاسلامية كانت تفقد ذلك الوضع الفريد الذي كانت تتمتع به ويحسدها عليه الأوروبيون والأمريكيون ، لولا أن تتداركها رحمة الله ، فينتبه أبناؤها إلى وجوب التمسك بطاعة الله أولا ، ثم إلى إدراك حكمة شريعته الغراء التي لن يجدوا في غيرها صلاح أحوالهم . وهاكم ما يقرره سميث في كتابه : « .... والذي كان موضع القبول العام ، إلى عهد قريب ، هو أن المرض قاصر على المناطق المعتدلة والقطبية ، ولكننا نعلم الآن أنه موجود أيضا في المناطق الحارة ، كما أنه قد أبلغ عنه من الجزائر والشرق الأوسط والصين وهاواي وأفريقيا ونادرا من أمريكا الجنوبية . كذلك قد وجد في نيوزيلندة ، غير أنه يبدو أنه مختف تماما ـ حتى اليوم ـ من أستراليا ، ولو أن كثرة المهاجرين إليها قد يجعل المرض يبلغها في النهاية » ـ (Smyth, 1976; P. 316) . ولو أن سميث لم يفسر كيف أن كثرة المهاجرين يمكن أن تنقل المرض ، بينما المعروف أن انتشار المرض لا يحدث إلا من خلال لحم مصاب ، فذهاب أفراد مصابين إلى أستراليا لن يترتب عليه انتشار المرض إلا إذا أكلت لحومهم !

ويروي لنا نلسون (١٩٧٢) قصة غزو ديدان التريكينلا للانسان في كينيا لأول مرة من خلال سلسلة من البحوث أجراها ومعاونوه بين عامي ١٩٦١ و ١٩٧٠ . وأول من أصيب جماعة من الشبان طعموا لحم خنزير بري دون أن ينضجوه ، وكانت إصابتهم « أثقل اصابة إنسانية بالتريكينلا » سجلتها المراجع الطبية . ويعلل نلسون الأمر بأن أولئك الشبان خرجوا على تقاليد آبائهم من جماعة الكيكويو الذين ينفرون من أكل لحوم الحيوانات البرية ، وكانوا في مروقهم ذاك متأثرين بثورة الماوماو . ولهذا السبب نفسه يظن أن المرض يقتك بكثير من هواة الصيد الذين يحبون أن « يتذوقوا » لذة انتصارهم على فرائسهم !

وظهور المرض ، أو اكتشافه على الأقل ، في مناطق لم يكن من المعروف وجوده فيها من قبل لا يلقى ما يستحق من اهتمام . وأذكر أنني عاتبت أستاذاً لعلم الطفيليات في إحدى كليات الطب العربية على عدم الاهتمام بابراز الحقائق عن مرض التريكينا لطلابهم ، فأجابني : ولماذا الاهتمام ، والمرض غير موجود في بلادنا ، ولا شأن لنا به . (مع أن إبراز تلك الحقائق فيه على الأقل « ثقافة » طبية ينبغي أن يعرفها الطبيب المسلم) . وهاكم النبأ

الحديث الذي يؤكد لنا أن المرض موجود في ديارنا . في ٢٥ مارس ١٩٨٠ ، أذاعت وكالة الأنباء الكويتية (كونا) نبأ مفاده أنه قد نقل في ذلك اليوم خمسون مصابا ، بعضهم في حالة خطر شديد إلى مستشفيات مدينة زحلة ، شرقي بيروت ، إثر تناولهم لحم خنزير . وذكر النبأ أن راديو بيروت أذاع أن « بعض القصابين في مدينة زحلة باعوا زبائنهم لحم خنزير على أنه لحم غنم وأصيبوا إثر تناوله بداء أطلق عليه الراديو اسم التريشينوز (الاسم الفرنسي للمرض) أو الشعريات ، إلا أنه لم يذكر أي إيضاحات أخرى عن هذا الداء أو عن حالة المرضى » . (جريدة « الأنباء » الكويتية في ١٩٨٠/٣/٢٦) .

٤ ـ **عوائل دودة التريكينا من أنواع الحيوان** : تذكر مراجع علم الطفيليات أن دودة التريكينلا يمكن أن تصيب أكثر من مائة نوع من الحيوان معظمها من اللواحم والقوارض الرمامة . أهمها الخنازير والدببة والثعالب والقطط والكلاب والجرذان . (وفي المناطق القطبية الشمالية تصيب الدودة الدببة القطبية والفقم والحيتان ، ومنها تنتقل إلى السكان من الاسكيمو ورواد تلك المناطق النائية من الرحالة والمستكشفين ، وتروى في هذا أقاصيص) . وهكذا يتضح أن لحم الخنزير هو ـ من الناحية الطبية ـ المصدر الوحيد لعدوى الانسان في المناطق الموبوءة . ولكن من أين تُعدى الخنازير ؟

لعل أهم مصدر لعدوى الخنازير هو العادة المتبعة في أنحاء العالم من تربية الخنازير على القمامة ، وتغذية الخنازير الدميمة من ترم الفضلات والنفايات . إذ أن القمامة تضم بقايا لحوم خنازير مصابة ، وهي شيء شائع في تلك البلاد ، حتى ان أحد الباحثين يسمي دودة التريكينلا « دودة القمامة » . وهكذا تجتمع الدودة مع الخنزير في القذارة والرجس . ولاحظ بعض الباحثين أن الخنازير تصاب أيضا نتيجة أن بعضها يأكل أذيال بعض ، وعلى الأخص في المرابي المكتظة بها ؛ بيد أنه من المعتقد أيضا أن الجرذان تقوم بدور قد يكون رئيسيا في نشر العدوى ، فالجرذان تصاب بالمرض اذا أكلت ماينبذ من لحوم الخنازير المصابة . وتُعدى الجرذانُ بعضها بعضاً لأنها تأكل لحوم بعضها البعض ، حية وميتة . ثم تنتقل العدوى من هذه الجرذان إلى الخنازير إذا أكلت جيفها في أكوام القمامات . وهكذا تحدث دورات مختلفة : من فأر إلى فأر ، ومن خنزير إلى فأر ، ومن فأر إلى خنزير ، ومن خنزير إلى خنزير ، ثم من خنزير إلى انسان ... وتكون هذه نتيجة بائسة للانسان التعيس والدودة أيضا ، لأنه بالنسبة للدودة طريق مسدود . (انظر شكل ١٦) .

٥ ـ **هل يمكن توقي المرض في البلاد الموبوءة ؟** : وينبغي أن يحاجنا معترض قائلا : ولم لا تربى الخنازير تربية صحية نظيفة ؟ ولم لا تتخذ الوسائل الكفيلة باكتشاف اللحوم المصابة واعدامها ؟ ولم لا تتخذ الاحتياطات التي تضمن توقي العدوى ؟ ..... وأبسط ما يرد به على ذلك : هب أن هذا كله كان ممكنا في مكان معين وفي ظروف معينة ، هل يمكن تحقيقه لكافة البشر في سائر الأماكن وفي كل الظروف ؟ أليس الأولى عدم المخاطرة وتجنب المهالك ؟ بل الحقيقة أن هذه الوسائل كلها لم تكن مجدية ـ في واقع الحال ـ في أي زمان أو مكان ، كما يلي .

ويأتينا الدليل من الولايات المتحدة، ومستوى المعيشة فيها ما نعلم ... فبينما نرى أن أفقر قطر إسلامي مالاً قد نجا من هذا البلاء، نجد أن الولايات المتحدة بها ثلاثة أمثال ما في العالم أجمع من الاصابات. ونظرا لأن معظم الاصابات لا يكتشف - إذا لم يكن شديدا - أو يساء تشخيصه لتعدد أعراض المرض وشدة تنوعها، فانه ليس من اليسير التوصل إلى النسب الصادقة للاصابة في أي مكان، حتى مع وسائل التشخيص المعملية المستحدثة. وقد وجد بعض الباحثين أنهم قد كشفوا عن ٢٢٢ حالة بالفحص بعد الوفاة، كان في بعضها نحو من ألف دودة في كل جرام واحد من عضلاتهم الضابة، ومع ذلك لم يسبق تشخيص أي منها على أنها إصابة التريكينا! ويذكر تشاندلر وريد أن نسبة الاصابة تتراوح بين ٥ في المائة و٢٧ في المائة في الولايات الأمريكية المختلفة. ولو أن سميث (١٩٧٦) يذكر أن النسبة قد انخفضت فيما بعد إلى نحو ٤ في المائة (وهو رقم غير قليل). ويذكر نلسون (١٩٧٢) ان الحكومات كثيرا ماتكتم أخبار أوبئة التريكينا التي تنتشر في بلادها فجأة، ربما خوفا من أن يؤثر ذلك على صادراتها من اللحوم. ومن ذلك القبيل وباء شب في أيرلندة عام ١٩٦٩، وكذلك في بولندة حيث يبلغ المرض درجة كبيرة من الخطورة.

ولعل أشد أطعمة لحم الخنزير أثرا في نشر العدوى هو السجق، وذلك لأن الفرم يوزع اللحم المصاب فيه، ولأنه قد يؤكل نيئا أو غير نضيج. وهذا هو المصدر الرئيسي لانتشار المرض في إيطاليا وألمانيا والنمسا، ومن الطريف - والمؤسف أيضا - أن نسبة الوفيات تبلغ ذروتها هناك بين معلمي المدارس ورجال الدين في الريف، الذين يختصهم الريفيون بهداياهم السخية من سجق لحم الخنزير. وفي انجلترا لوحظ أن معظم المصابين من النساء، وعلل ذلك بأنهن يتسرعن بأكل السجق غير تام النضج أو لاستراقهن قضمة أو قضمتين من السجق النيء أثناء إعداد الطعام! والسجق الشديد الاصابة قد تحوي الأوقية الواحدة منه أكثر من مائة ألف يرقانة متحوصلة، والذي يأكل هذه الأوقية سوف تنمو في أمعائه إناث بالغة تنفث في جسمه أكثر من مائة مليون يرقانة (على أقل تقدير)!

ولكن ماهي التدابير التي يتخذها القوم هناك لوقاية الخنازير وآكليها من دودة التريكينا؟ إن الصورة تزداد جلاء حين نعلم بعضا من الاجراءات الشاقة والمحاولات الباهظة التي تتخذ في هذا السبيل. ففي الولايات المتحدة نحو من مليون ونصف مليون خنزير تربى كليا أو جزئيا على القمامة التجارية (إحصاء غير حديث). وتسن القوانين في الولايات المختلفة لضبط هذه التجارة، منها قانون يقضي بتعريض القمامة للبخار الساخن نصف ساعة على الأقل قبل تقديمها للخنازير. وفي سخرية بالغة يذكر تشاندلر وريد (١٩٦٥) ونلسون (١٩٧٢) أن تعرض الخنازير لمرض فيروسي فتاك، ينتقل أيضا من القمامة، هز المسئولين وأرباب تجارة الخنازير أكثر من اهتمامهم بصحة خمسة وعشرين مليونا من البشر، بل بحياتهم في كثير من الأحيان! ثم ماهي نتيجة هذه الجهود الكبيرة؟ يقدر أن نحوا من ٥ في المائة من خنازير بوسطن ونحوا من ١٨٫٥ في المائة من ذبائح ميتشجان مصاب بهذه الآفة (ولككس وماتسون بار). ويقدر أن كل أمريكي من آكلي لحم الخنزير يتناول في حياته نحوا

من مائتي وجبة من اللحم المصاب (تشاندلر وريد) . وقد قدر بعض الباحثين أن ابتلاع الأنسان خمس يرقانات لكل جرام من وزن جسمه يعرضه لاصابة قاتلة .

أما اللحم نفسه فان معالجته بالكوبالت والسيزيوم المشعين تصيب بالعقم الديدان الناشئة مما فيه من حويصلات ، ولكن هذا الاجراء فني دقيق وليس من الميسور تطبيقه . والتجميد السريع بالتبريد ثم التخزين الطويل في درجات للحرارة شديدة الانخفاض يقضي على الطفيليات الدفينة في اللحم . وتقضي التعليمات الصحية في الولايات المتحدة بخزن لحوم الخنازير التي تؤكل غير مطهية عشرين يوما كاملة في درجة حرارة ١٥°م تحت الصفر ؛ كذلك الحرارة الشديدة تقتل الطفيليات ، ولذلك يوصي بغلي لحوم الخنازير فترة تتناسب مع أحجامها ... وفي هذا تتفاوت التقديرات ، فيقدر بعض الباحثين أن نحوا من أربعين دقيقة كاف لذلك ، بينما يقدر بعضهم أن غلي قطعة من لحم الخنزير مدة ساعتين لايكاد يجعل حرارة قلبها الداخلي تتجاوز ٤٥ درجة مئوية ؛ أما الشي والقلي فيتمان سريعا في المعتاد ومن ثم فهما ضعيفا الأثر في قتل اليرقانات الدفينة ، ومن هذا يتبين خطورة اللحوم المقدمة في حفلات « الباربكيو » .... ونتيجة هذه الجهود الخارقة والنفقات الباهظة هي تلك النسب المرتفعة من الاصابات التي ذكرنا أمثلة منها . أليس الأيسر بداهة هو تجنب أكل تلك اللحوم أصلا .... وكفى الله المؤمنين القتال !

٦ ـ **اللحم** .... والشحم ، بل والجلد أيضا ، وقد يقال : هذا عن اللحم ، فماذا عن الشحم ؟ يقول القرطبي ، في « الجامع لأحكام القرآن » ، انه لاخلاف أن جملة الخنزير محرمة (إلا الشعر فانه يجوز الخرازة ـ أي خياطة جلد الأحذية ـ به) . وهذا ماينقله عنه أيضا صاحب « نيل المرام في تفسير آيات الأحكام » . ويوجز البيضاوي القضية بقوله : « إنما خص اللحم بالذكر لأنه معظم ما يؤكل من الحيوان ، وسائر أجزائه كالتابع له » .

ومع أنني حددت لنفسي منذ البداية أن أحصر كلامي عن طفيليات الخنزير ، إلا أنه لا بأس من أن أشير إلى ما ذكره لي بعض الزملاء المتمكنين من الكيمياء الحيوية من أن دهن الخنزير أقرب إلى الاتهام بإحداث تصلب الشرايين وأمراض القلب المتعلقة بذلك من دهون الحيوانات الأخرى ، كما أن بعض الباحثين قد وجد أن دهن الخنزير يصيب حيوانات التجارب بتكون الحصى في المرارة وانسدادها .

وقد يقال أيضا ، وماذا علينا لو استعملنا بعض ما يعد من جلد الخنزير بعد تعقيمه ودباغته ؟ والذي يتبادر إلى الذهن أن تجنب الضرر الكثير أولى ولا شك من التمسك بتلك المنفعة اليسيرة . ولا ينبغي أن ننسى أمرين ، أولهما أن إبطال الانتفاع بالخنزير بأي وجه من الأوجه هو مكافحة لتربيته ، كما أن تحريم اللحم فيه القضاء على مصدر الاهتمام الأول بتربيته وإهدار لقيمته الاقتصادية . وثانيهما ، أن المنتفع بهذه الأشياء ينبغي عليه أن يعلم أنه قد شجع محرما (حتى إن لم يكن قد ارتكب محرما) وأيد ضرر كثير من العمال الذين يشتغلون بصناعة تربية الخنازير وذبحها وبيع لحومها ، فانهم معرضون للطفيليات التي تنتقل إليهم دون سواهم وليس عن طريق أكل لحم الخنزير ، كما بينا .

وبعد ، لعلي أطلت وأثقلت ، ولكن عذري هو أهمية الموضوع ودقته ، وكثرة ما قيل فيه مما هو مفتقر إلى الموضوعية والاحاطة . وغني عن البيان أن معرفتنا ببعض جوانب علة التحريم لا ينفي وجود جوانب أخرى لم نعرفها بعد . فنقول ما قالته الملائكة : « قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم » . (البقرة : ٣٢) . ونحمد الله ـ أولا وأخرا ـ على نعمة الاسلام والايمان ، وماكنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

٥ ـ السُّبُلَ الذُّلُلْ

« وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلي من الثمرات فاسلكي سُبُلَ ربك ذُلُلاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » . (النحل : ٦٨ ، ٦٩)

استحوذ النحل على إعجاب الناس وتعجبهم في كل عصر وزمن ، وأثار فضول عوامهم وعلمائهم ، واستهوى أدباءهم ومفكريهم وشعراءهم . فلا عجب أن حفلت التفاسير بهذه الاشارات البليغة في هاتين الآيتين الكريمتين من سورة تحمل اسم ذلك المخلوق العجيب . وكان للمفسرين الأوائل اجتهادات ذكية متسقة في كل لفظ تقريبا من ألفاظ الآيتين ، وأثاروا نكتا بلاغية دقيقة وطريفة . فمن ذلك أن لهم كلاما كثيرا في معنى « أوحى » ، ودلالة التأنيث في فعل الأمر « اتخذي » ، وهل يكون الأمر لمن لا عقل له أم أن للنحل عقلا أو أن المقصود هو الالهام والاشارة إلى الفطرة والغريزة . (وبعض هذا مايزال محل جدل بين علماء سلوك الحيوان) . ثم أسهبوا في الكلام عن « بيوت النحل » وغرائب عاداته وعجائب جماعاته ، وعن معنى كلمة « ثمرات » ، وعن مادة « العسل » ، ولماذا سمي « شرابا » ، ومم تجمعه النحلة ، أهو من الطل أم من الزهر ، وكيف تصنعه ، ومعنى كلمة بطونها » ، وماهي « الألوان المختلفة » للعسل وكيف تكون ، ثم عن « الشفاء » الذي في العسل للناس .

وللمفسرين الأوائل في هذا كله كلام يستحق التأمل وفي حاجة ماسة إلى تمحيص . والقوم لم يقصروا وانما هم اجتهدوا على قدر المعارف المتاحة لهم في عصورهم . بل العجيب أن معظم هذه الموضوعات مازالت تستهوي الناس من كل مشرب ، فنسمع أو نقرأ الكثير مما فيه درجات متفاوتة من الحقيقة والتهويل والخيال وعدم الدقة أو الخلط . فانك إذا قرأت في « روح المعاني » للألوسي ، مثلا : « ..... فتراها (أي النحل) يكون فيها واحد كالرئيس هو أعظمها جثة يكون نافذ الحكم على سائرها ، والكل يخدمونه ويحملون عنه ويسمى اليعسوب والأمير » ، فان هذا لا يختلف كثيرا عمن يصحح الوضع في هذه الأيام فيقول إن اليعسوب هو الملكة وأنها أنثى ، ولكنه يكرر نسبة الحكم والرئاسة لها ، وهي في حقيقة الحال مجرد « أم » لا تملك ولا تحكم ، وانما هي مسخرة لوضع البيض ، وقد يحكم عليها بناتها العقيمات بالطرد أو القتل ! وهذه الأخطاء ، وأمثالها عن « النظام الاجتماعي »

« والأخلاقي » للنحل ، يتورط فيه المتحدثون من غير المختصين وراء ـ في الغالب ـ إلى « إسقاط » بشرى ، أي بتصور النحل بشرا ، وتفسير تصرفاته وأحواله على هذا الأساس الفاسد .

وأغلب ماكثر الكلام فيه هذه الأيام هو بنيان خلية النحل « والنظام الاجتماعي » فيها ، والتركيب الكيماوي لعسل النحل وأثره في شفاء الناس . ولكن مراجعتي لكتب التفسير أقنعتني بأن أحصر كلامي هنا في الاجتهاد في فهم قوله تعالى : « فاسلكي سبل ربك ذللا » ، لأن المفسرين قد وقفوا عندها طويلا وتحيروا في فهمها كثيرا ، وسوف أوجز فيما يلي أرجح ما يقوله العلم الآن في ذلك ، ثم أستعرض في النهاية خلاصة أقوال المفسرين في هذه النقطة بالذات في ضوء المعارف العلمية الحديثة .

رحلة الكشف وحواس النحل :

من المعروف أن جماعة النحل المستقرة ، أو المستعمرة ، تتألف من الملكة أو الأم وعدد عظيم من بناتها العوامل (الشغالات) وصغار في دور التكوين . (أما الذكور فإنها تكون قد أدت ، أو أدى واحد منها بلقة أصح دوره في بداية إقامة الجماعة ، ثم طردت وقضيت عن آخرها) . وتقوم العوامل بجميع الأعمال في المستعمرة ، ولكن لعل أهم هذه الأعمال هو جمع الغذاء ، ولكن النحلة العاملة تقضي صباها في بعض الأعمال « المنزلية » الخفيفة ولا ترتاد الحقل الا في ريعان شبابها ، أي عندما تبلغ من العمر نحو عشرة أيام ، يعني عندما تجوب الحقول والحدائق حول بيتها بحثا عن الغذاء الطيب مستعينة بحواسها التي منحها الله إياها . فالنحلة مزودة بحاسة شم قوية ، عن طريق قرني الاستشعار في مقدم رأسها ، تضارع الانسان في مقدرته على تمييز الروائح ، فكأنها تتشمم الشذى الفواح من الأزهار العبقة لتيمم شطر أحبها إليها .

ولكن ينبغي علينا أن نشير في إيجاز ، دون أن نخرج عن موضوعنا ، إلى الدور الهام الذي تلعبه الروائح في حياة النحل . والروائح هنا ليست أريج الأزاهير ، وانما هي مواد كيماوية متعددة تفرزها غدد كثيرة في أجسام النحل ، لكل منها ـ أو لرائحته ـ مدلول خاص ، ويطلق عليها العلماء اسم الفيرومونات . فمن تلك المواد مادة تفرزها الملكة من غددها الفكية ، فتجتذب بها الذكور في يوم طيران زفافها الملكي ثم تستخدمها في منع العوامل من تنشئة ملكات جديدة بل واصابة العوامل نفسها بالعقم ... وهذه المادة توزعها الملكة على العوامل اللواتي يتعهدنها بالتغذية والتنظيف ، ثم تنتشر بين العوامل بوسائل مختلفة وعلى الأخص بسبب عادة النحل من رشف العسل وغيره من أفواهها في عيون الخلية . (WiLson, 1975) . ولكل مستعمرة رائحتها الخاصة بها ، وهذا ييسر لأفرادها أن يتعرف بعضها على بعض فلا تسمح لدخيل بولوج باب بيتها ، واذا ماشمت نحلةٌ لها رائحة غريبة أوسعتها لدغا حتى تلقيها جثة هامدة ، فان بطاقة الهوية وجواز المرور في عالم النحل يكتبان بلغة تُشم ولا تُقرأ ! وعندما تعثر نحلة كشافة على موطن مناسب يصلح لاقامة مستعمرة جديدة ، أبرزت غدة بالقرب من مؤخر

جسمها وأطلقت منها رائحة عشيرتها المميزة ثم أخذت تخفق أجنحتها خفقا سريعا حتى تنتشر الرائحة، وسرعان ما تخف إليها جماعات من بنات قومها لتتفحص المكان الجديد.

ولكن فلنعد إلى النحلة المستكشفة وحواسها. فانها فضلا عن الشم تتمتع بحاسة إبصار جيدة تميز البياض والسواد وبعض الألوان، وعلى الأخص اللونين الأزرق والأصفر. وهي ليست في حدة العين البشرية ولكنها تمتاز عليها في إحساسها بالأشعة فوق البنفسجية، فهي لذلك ترى مالا تراه عيوننا، كبعض المسالك والنقوش على الزهرة ترشد وتقود إلى مختزن الرحيق، ولا يمكننا الكشف عنها إلا بتصويرها بالأشعة فوق البنفسجية. ثم إذا حطت النحلة على زهرة يانعة وبلغت رحيقها استطاعت أن تتذوقه، فهي بحكم فطرتها ولوعة بالمواد السكرية وتستطيع تحديد درجات تركيزها،أي مقدار حلاوتها.

فالنحلة إذن مهيأة بحواسها الثلاث هذه (إبصارها وشمها وتذوقها) لأن تحيا حياة موفقة في عالم الأزهار ببهجة ألوانه وطيب عَرْفه وحلاوة رحيقه، وسوف نزيد لها بعد مقدرتها على الاحساس بالأصوات (وليس « سماعها ») وعلى الاحساس بالضوء المستقطب. ومهما يكن من أمر، فان النحلة الكاشفة إذا ماعثرت على بغيتها أخذت تلعق الرحيق وتمتص منه وتجمع من حبوب اللقاح ما شاء الله لها أن تتزود به من هذا الرزق الحلال ... ثم تنتقل من زهرة إلى زهرة حتى تصبح مثقلة بزاده، فتسير قافلة نحو بيتها. فهي لا ترتاد الأزهار كي تطعم هي وتشبع وانما لكي تغذي قومها، ويرهم الملكة التي لا تبرح جحرها والصغار العاجزة، ثم لا دخار ما يفيض عن حاجات اليوم العاجلة للشتاء برده القارس وغذائه الشحيح.

رحلة العودة ... وليس للنحل فيها أمر فريد :

وقد يكون البحث عن الغذاء قد استدرج النحلة بعيدا عن بيتها، فكيف تهتدي إلى مسكنها إذا أوبت راجعة إليه ؟ يبدو أنها تستعين على ذلك بحاستي النظر والشم كلتيهما. وقد ذكرنا أن للمستعمرة رائحة خاصة بها وأن للروائح مغزى خاصا عند النحل، ولكن يبدو أن للابصار دورا بارزا أيضا، إذْ يلاحظ أن النحلة الشابة لا تترك بيتها وحيدة في رحلاتها الأولى، ثم إنها عندما تغادر البيت تستدير إليه وتقف أو تحلق أمامه فترة وكأنها تتمعنه حتى ينطبع في ذاكرتها، ثم هي من بعد ذلك تطير من حوله في دوائر تأخذ في الاتساع شيئا فشيئا. هذا فضلا عن أنها تكون حذرة في رحلاتها الأولى فلا تبتعد عنه كثيرا إلى أن تزداد خبرة بمعالم المنطقة المحيطة وموضع بيتها فيه. وعلى أية حال لاتتفرد نحلة العسل بالمقدرة على الاياب إلى مسكنها، إذْ أن في عالم الحيوان أمثلة كثيرة رائعة، ويكفي أن نتذكر الخوارق التي تأتيها الأسماك والطيور المهاجرة ... وللعلم في هذا كله دراسات شائقة، ولكن لا مجال للتعرض لها الآن.

رحلة الجني وأسرارها المذهلة :

هاتان هما رحلة الذهاب أو الكشف ورحلة الاياب .... ولكن النحلة العائدة لاتحمل إلى عشيرتها زادا حلوا وحسب ، وانما تحمل إليها أنباء طيبة عنه وتقريرا مفصلا عن رحلتها ... وهي لا تحتفظ بهذه المعلومات القيمة لنفسها ، وانما تذيعها على الملأ من شقيقاتها العوامل ... فكيف يحدث ذلك وبأي لغة يكون ؟ صاحب الفضل الأول في معرفتنا الجواب على هذا التساؤل هو العالم النمسوي كارل ڤون فريش الذي عكف هو ومعاونوه على دراسة ما سمي « لغة النحل » نحوا من ستين عاما . ونشر بحوثا عديدة وبضعة كتب أهمها كتاب نشره عام ١٩٥٠ ثم أعاد نشره بعد واحد وعشرين عاما (Von Frisch, 1971) . وانك لتجد أعماله مذكورة بدرجات متفاوتة من الدقة والتفصيل في كثير من المراجع البيولوجية (نختار منها : سكوت ، ١٩٧٠ ؛ Dewsbury, 1978) . هذا وقد نال ڤون فريش أعظم تقدير علمي عندما اقتسم جائزة نوبل العالمية عام ١٩٧٣ مع عالمين آخرين ذائعي الصيت من علماء سلوك الحيوان ، هما لورنتز وتينبرجن . وسوف أحاول أن أعرض أهم نتائج بحوث ڤون فريش وبعض العلماء الآخرين في إيجاز لا يؤدي إلى الغموض ، لأنه سوف يتضح أن هذه البحوث هي التي تفتح أمامنا باب تفهمنا للسبل التي ذللها الله للنحل .

في أول الأمر لاحظ ڤون فريش ، ما لاحظه غيره من قبل ، أنه إذا وضع إناء بمحلول من السكر المعطر في المنطقة المحيطة ببيت النحل نقضت ساعات أو أيام قبل أن تهتدي إليه إحدى النحلات المستكشفات التي تجوب المنطقة . ولكن ما إن تقفل هذه راجعة إلى بيتها حتى تخف أسراب من زميلاتها مسرعات نحو الغذاء الشهي . فاستنتج ڤون فريش أن النحلة الأولى لا بد قد نقلت نبأ اكتشافها إلى زميلاتها بصورة ما . ومن ثم عكف ڤون فريش على دراسة الأمر ، واحتال إلى بلوغ ذلك حيلا كثيرة منها أنه ابتدع بيتا للنحل فيه قرص واحد وواجهته من زجاج ، حتى يتسنى له مراقبة النحل في داخل بيته . ثم عمد أيضا إلى تمييز أفراد النحل بعلامات مختلفة الألوان والأشكال حتى يسهل عليه تتبعها . كما أنه استطاع أن يدرب بعضا من نحل تجاربه على الاغتذاء من محاليل سكرية في صحائف زجاجية .

وفي تجاربه الأولى ، وضع ڤون فريش إناء السكر على مسافة غير بعيدة عن بيت النحل ، فلما اكتشفته نحلة ميزها بعلامة خاصة ، فلما عادت هذه إلى بيتها وجدها قد توسطت قرص العسل ثم أخذت تدور في حمية ونشاط مرة نحو اليمين ومرة نحو اليسار ، وكررت هذا الدوران مرات ومرات ، وهذا ما أسماه ڤون فريش رقصة الدوران (شكل ١٧ ـ ١) . وسرعان ما تجمعت العوامل حول أختهن الراقصة وأخذن يراقبنها في حماس وانفعال ثم أخذن يحاكين ما كانت تأتيه من حركات ، ثم أخذن يفترقن ويغادرن البيت ويحُمْن حوله حتى حططن على إناء الغذاء . ولكن ڤون فريش عمد في تجارب تالية إلى وضع إناء من محلول السكر على بعد نحو عشرة أمتار

في كل الجهات الأربع حول الخلية ، غير أنه غذىً بضع نحلات من الاناء الغربي وحده ثم وسمها بعلامات مميزة وأطلقها . فلما عادت هذه النحلات إلى بيتها أدت رقص الدوران فانطلق من بعدها عوامل النحل ولكنها أخذت من الأواني الأربع في الشرق والغرب والشمال والجنوب ، ومن ثم تأكد فون فريش أن دوران المستكشفات الراقص لم ينبىء أخواتها إلا عن وجود غذاء على مقربة من الخلية دون تحديد لوضعه بالنسبة إليها . وقد لاحظ الباحثون أن النحل لا يمارس رقصة الدوران إلا للاعلان عن وجود شيء عزيز غير متوفر ، فاذا كان الغذاء وفيرا وقريبا ندر رقص المستكشفات العائدات إلى الخلية ، كما أنه قد اتضح أيضا أن الرقص قد يعلن عن وجود الماء أو حبوب اللقاح أو حتى عن اكتشاف مكان مناسب لانشاء بيت جديد .

وتطور تفكير فون فريش إلى مرحلة أخرى ، فعمد في إحدى تجاربه التالية إلى وضع إناءين للاغذاء أحدهما على بعد بضعة أمتار قلائل من بيت النحل والآخر على بعد نحو ثلاثمائة متر . ثم وسم النحل الذي ارتاد الاناء القريب ببقع زرق بينا وسم تلك التي ارتادت الاناء البعيد ببقع حمر . فلما عادت المستكشفات رأى فون فريش من أمرها عجبا ، إذ أن النحل الموسوم باللون الأزرق أخذ يؤدي رقصة الدوران ـ التي تنبىء عن وجود غذاء قريب ـ أما تلك الموسومة باللون الأحمر فانها أخذت تؤدي رقصة أشد تعقيدا ، إذْ انها أخذت تجري في خط مستقيم على قرص الشمع العمودي القائم ، وهي تهز بطنها يمنة ويسرة ، مسافة قصيرة ثم تدور مهرولة نحو اليمين نصف دورة تتحرك من بعدها في ذلك الخط القائم وهي تهز بطنها حتى إذا بلغت قمته دارت نحو اليسار نصف دورة حتى تبلغ الخط المستقيم فتتقدم إليه وهي تهتز ، ثم تدور ... وهكذا . وقد سمى فون فريش هذه الحركات **رقصة الاهتزاز** (شكل ١٧ ـ ٢) . وبتكرار مثل هذه التجربة ثبت عند فون فريش أن رقصة الاهتزاز تنبىء عن غذاء في مكان بعيد ، بينا رقصة الدوران تنبىء عن غذاء قريب (أقل من مائة متر تقريبا) .

بيد أن فون فريش لم يقتنع بهذا ، إذ أن معرفة النحل بوجود غذاء في مكان بعيد لن يفيده كثيرا في الوصول إليه . فبقيت هناك مسألتان : أولاهما تقدير المسافة بين البيت والغذاء ، وثانيتهما الاتجاه الذي يتحدد به موضع الغذاء بالنسبة إلى الخلية . فأما عن المسافة فقد وجد فون فريش ومعاونوه ، بعد مراقبة نحو أربعة آلاف حالة مستعينين بساعات التوقيف وأجهزة العد ونحوها ، أن هناك علاقة بين سرعة الرقصات والمسافة ، فكلما ازداد موضع الغذاء بعدا ازداد أداء الرقصة بطئا . أي أنه يوجد تناسب عكسي بين سرعة الرقص والمسافة ، أو لعله يكون أوضح لوقلنا إن الزمن الذي تستغرقه الرقصة الواحدة ـ أي الدورة الكاملة وعلى الأخص الجزء المستقيم منها ـ متناسب طرديا مع طول المسافة . وتقدر النحلة هذه المسافة على أساس رحلة الذهاب إلى الغذاء ـ لا رحلة الاياب منه . وهذا أدق وأوفق ولاشك ، إذ أن هدف الرسالة هو الاهتداء إلى موضع الغذاء توجها من الخلية ، فاذا كانت الرياح معاكسة أو كان في طريق الذهاب عقبات ضخام طال زمن الرقصة ، أي يطؤ معدل أدائها ، فهذا أدل على طول الرحلة ، أي الزمن الذي تستغرقه . وقد كان متوسط عدد الرقصات في الدقيقة الواحدة اثنين

وثلاثين مقابل مسافة مائتي متر، وأربعا وعشرين مقابل خمسمائة متر، وثمانية لخمسة آلاف متر، وأربعا فقط لنحو عشرة كيلو مترات .

وأما عن الاتجاه فقد كان أمره أعجب، إذ أن التجارب الأولى قد بينت أن النحل يغير من اتجاه الجزء المستقيم من الرقصة مع تقدم النهار. فدل هذا على أن موضع الشمس في السماء له أثر ما . وبمتابعة هذا الافتراض توصل الباحثون إلى النتائج التالية :

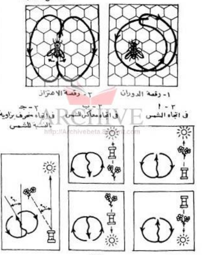
١ ـ إذا كان موضع الغذاء (سكرا أو زهرا حلوا مناسبا) في اتجاه الشمس بالنسبة لبيت النحل ، كان اتجاه مسار الجزء المستقيم من الرقصة إلى أعلى (شكل ١٧ ـ ٣ ـ أ) .

٢ ـ إذا كان موضع الغذاء في الاتجاه المضاد للشمس بالنسبة لبيت النحل ، كان اتجاه مسار الجزء المستقيم من الرقصة إلى أسفل (شكل ١٧ ـ ٣ ـ ب) . (وفي هاتين الحالتين ، لا فرق بين أن تكون الشمس نحو الشرق أو نحو الغرب ، وانما المهم هو الوضع النسبي للغذاء والشمس بالنسبة للخلية ، كما هو واضح في الشكل (٣٠) أما إذا كان موضع الغذاء منحرفا عن اتجاه الشمس بالنسبة لبيت النحل ، فان النحلة كانت تنحرف من الجزء المستقيم من رقصتها عن الخط العمودي بزاوية مساوية للزاوية الواقعة بين خط مرسوم بين الخلية والشمس وخط آخر بين الخلية والغذاء شكل ١٧ ـ ٣ ـ ج) . ولما كانت النحلة ترقص داخل الخلية بعيدا عن الشمس وفي وضع عمودي فان خط الجاذبية الأرضي هو الذي كان يرمز إلى خط الشمس أي الخط بين الشرق والغرب .

ولكن ماذا يكون من أمر نشاط النحل في اليوم الغائم الذي تحتجب شمسه ؟ لقد تبين لفون فريش أن نشاط النحل في الأيام غير المشمسة محدود ، ثم إنه لاحظ أن النحل إذا بدأ رحلات الجمع في أواخر النهار كثر خطؤه ، بيد أنه اهتدى إلى أمر آخر ، وهو أن النحلة تستطيع أداء حساباتها بدقة إذا كان جزء من السماء صافيا لا تلبده الغيوم ، ثم إن عين النحلة ، وهي عين مركبة أي مكونة من وحدات مبصرة كثيرة تستطيع تحديد مواضع الشمس بدقة شديدة مستغلة مايسمى بظاهرة استقطاب الضوء (أي تذبذب موجات الضوء في مستوى واحد لا في جميع المستويات المتعامدة مع مسار الأشعة ، كما هو المعتاد) . فامكانات الابصار عند النحلة ولو أنها أقل عما هو عند الانسان ، كما ذكرنا من قبل ، إلا أن النحلة مزودة بجهاز ممتاز لتحديد مواضع الأجسام المضيئة .

ومهما يكن من أمر فان النحلة بعد أن تتم جنيها للرحيق وحبوب اللقاح (من الموضع الذي اهتدت إليه بفضل رقصات النحلات المستكشفات) تقفل راجعة إلى بيوتها .. ولكن رحلة العودة هذه ليس فيها جديد ، فهي كرحلة عودة المستكشفات التي سبق أن تكلمنا عليها ، سواء بسواء .

"... فاسلكى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ..."
(النحل - ٦٩).



شكل ٧٧

لغة النحل العجيبة

خلاف العلماء :

قد ذكرنا فيما تقدم وصفا وجيزا لطرف من النتائج العجيبة التي توصل اليها فون فريش ومساعدوه من بحوث اتصلت أكثر من نصف قرن من الزمان . وقد كان فون فريش نفسه أكثر المتشككين في أن يكون هذا كله حقيقة ، ولكنه اقتنع فيما بعد بأنها الحقيقة وإن كانت أغرب من الخيال . وقد أيده في ذلك باحثون آخرون ، حتى أن أحدهم أتقن فهم أسرار تلك اللغة الغريبة فكان يفك ألغاز رقص النحلة المستكشفة ويترجمها الى اتجاه محدد ومسافة محسوبة ومن ثم يستطيع أن يبلغ الغذاء الذي كانت تنبيء بوضعه ! ليس هذا وحسب ، بل إن فون فريش قد اهتدى إلى أن لأنواع النحل وسلالاته « لهجات » من تلك اللغة الفريدة . فنحلة العسل القزمة ، مثلا (وهي نوع غير النحل المستأنس) ترقص على سطح أفقي ، ومن ثم يكون خط اتجاه الشمس موازيا لخط الشرق والغرب ، لا مطابقا لخط الجاذبية العمودي كما ذكرنا . كذلك السلالة النمسوية من النحل المستأنس لا تؤدي رقص الاهتزاز إلا بعد أن يتجاوز موضع الغذاء نحو ثلاثمائة متر بعيدا عن الخلية . أما السلالة الايطالية فانها تؤدي رقصة خاصة ، تسمى الرقصة المنجلية ، للدلالة على الأبعاد المتوسطة بين رقصتي الدوران والاهتزاز (Von Frisch, 1962).

بيد أن العلماء ـ على غير ما يظنه كثير من الناس ، كثيرا ما يختلفون ، وليس هناك حد لطموحهم وطمعهم ـ المشروع ـ في إزاحة المزيد من الأستار التي تحجب الحقيقة . وطالب العلم ـ كما حدث الرسول صلوات الله وسلامه عليه ـ أحد المنهومين اللذين لايشبعان ! فهاهو العالم الأمريكي ڤِنَر (A.M. Wenner) يلفت الأنظار عام ١٩٦٢ إلى أن النحلة وهي تسير في الخط المستقيم من رقصة الاهتزاز تخفق جناحيها سريعا محدثة بذلك أصواتا متباينة الدرجات . وكان الباحثون لا يلتفتون كثيرا إلى الأصوات التي يحدثها النحل عامة أو ملكاته في مناسبات معينة ، استنادا إلى ما يعرفون من أنه ليس للنحل حاسة للسمع . ولكن ڤنر قد استخدم في دراسة النحل أجهزة تسجيل للأصوات شديدة الحساسية وانتهى إلى تأييد الرأي القائل بوجود علاقة بين شدة نبضات الصوت التي تصدره النحلة الراقصة وبعد الغذاء عن البيت ، وأشار إلى أن النحلة لا تستطيع الاحساس بتلك النبضات إلا بأقدامها من خلال المرتكز الذي تقف عليه ، ونوه بأنه ربما كان للأصوات أهمية خاصة في باطن الخلية المظلم . (ولكن يجدر بنا أن نشير الى أن النحل المحيط بالزميلة الراقصة لا « يشاهدها » وانما يتحسسها بلماسه ـ أو قرني استشعاره ـ ويتابعها في حركاتها) .

ولكن الخلاف الرئيسي نشب بين فون فريش ومدرسته من ناحية وڤنر ومعاونيه من ناحية ، حول نقطة أخرى . وذلك أن فون فريش كان منذ أول عهده بالموضوع في أوائل العشرينات يعتقد بأهمية الروائح في اهتداء النحل إلى غذائه في رحلة الجني بالمعلومات التي يكتسبها من شقيقاته المستكشفات ، ولكنه عدل عنها في

الأربعينات إلى نظرية لغة الرقص . ولكن ثنر وبعض معاونيه ـ وعلى الأخص جونسون D.L. Johnson ـ أحيوا نظرية الشم الأولى عام ١٩٦٧ ، باعتبار أن النحلة تعتمد أساسا على الروائح في مسالكها ، أما الرقص فقل قيمته الوحيدة هو جذب الفئات الشغالات بدعوتهم إلى الاجتماع . وقاموا بإجراء سلسلة من التجارب استنتجوا منها أن النحل عندما يتجمع حول النحلة الراقصة يلتقط منها مجموعتين من الروائح : رائحة الغذاء وروائح الموضع المحيط بالغذاء . وهذه الروائح تعلق بجسم النحلة عند ارتيادها للمكان الذي اهتدت اليه ، وعلى الأخص على الشعيرات المنتشرة على جسمها ، ويلتقط النحل المتجمع حولها هذه الروائح عندما يتحسسها بلوامسه (وهما عضوا الشم ، كما ذكرنا) . هذا فضلا عن أن النحلة الراقصة تتوقف بين الفينة والفينة لتمنح من فيها عينات من الرحيق تتذوقها العوامل المحيطات بها ومن ثم يعرفن رائحة الغذاء وطعمه أيضا . ويضاف إلى هذا وذاك أن النحلة المستكشفة تترك رائحة جماعتها في المكان الذي ترتاده وتجد فيه منتجعا طيبا لها ولأهلها . كما أنها تبرز غدة خاصة للرائحة في جسمها كي تنتشر الرائحة في المكان ، وعلى الأخص إذا لم يكن للغذاء رائحة مميزة بارزة (وسبحان الذي خلق فسوى وقدر فهدى !) . وعلى هذا كان ثنر وجونسون يعتقدان أن النحل بعد أن يعرف ما يعرف من النحلة المستكشفة ينطلق مع الريح « متشمما » طريقه إلى موضع الغذاء ... وتجمع النحل هناك يعتبر إشارة إضافية إلى أفراد أخرى تنضم إلى جماعة العاملات المجتنيات .

واحتدم الجدل العلمي بين طرفي الخلاف بضع سنوات واشترك فيه كثيرون مما لا يتسع المجال لذكره . ولكن ثنر رجّح عام ١٩٧١ أن يكون لروائح المكان (لا لروائح الغذاء) الأهمية الأولى . وهذا ما يشار اليه باسم « نظرية رائحة الموقع » ، ثم مال عام ١٩٧٤ الى اقتراح نظرية أخرى أسماها « نظرية العشيرة » أو الجماعة يرجع فيها أهمية خاصة الى طيران النحل في أسراب فهذا يساعد على اشتراك النحل الطائر مع بعض الأفراد المستكشفة في الاهتداء الى المنتجع مسترشدا بروائح مختلطة من الغذاء والموقع ! ولكننا لن تسمح لهذا الموضع الشيق بأن يستدرجنا الى مزيد من التفاصيل ، غير أنني أود أن أشير الى أمرين . أحدهما هو الحديث عن مسالك النحل أو مساراته في الهواء وهذا ما سوف أعود اليه بعد قليل . وثانيهما هو ظهور مدرسة علمية تتوسط بين مدرستي ثون فريش وثنر ، وهي المدرسة التي يتزعمها عالم أمريكي شاب هو جيمس جولد (James L. Gould) ، الذي شرع منذ عام ١٩٧٠ في تمحيص نقاط الخلاف محاولا حسمه ، وقد أجرى هو وزملاؤه تجارب متنوعة خططت لتلافي بعض أسباب الالتباس في تجارب العلماء السابقين (ولعله من المسلي أن نعلم أن بعض الباحثين كانوا يخادعون النحل وبعضهم كان يعوده على الكذب !) . وقد انتهى جولد الى أن معظم الخلاف بين المدرستين راجع الى خلافات جوهرية في تفاصيل التخطيط للتجارب وإجرائها ، فضلا عن أسلوب تحليل النتائج واستقرائها . وانتهى الى ان نظرية ثون فريش عن لغة الرقص عند النحل صحيحة في جملتها وجوهرها ، وله عرض جيد للموضوع يعتمد على نحو ١٣٠ مرجعا (Gould, 1976) . ويرى ديوسبري أنه ربما كانت أهمية المعلومات المستمدة من الرقص أو الرائحة تختلف من حال الى حال باختلاف الظروف (Dewsbury, 1978) .

ويقول جولد لن فون فريش يعلق أهمية خاصة على المغزى العميق للتجارب الحديثة التي أجراها بعض العلماء مستخدمين مادة الباراثيون السامة التي تفسد مقدرة النحل على نقل المعلومات الى أفراد مستعمرته ، فان استخدام جرع محسوبة من تلك المادة جعلت النحلة الراقصة تقصر من فترة الجزء المستقيم من رقصتها ، ومن ثم ذهب النحل الذي نقلت اليه هذه الرسالة المشوشة الزائفة الى أمكنة أقرب من الموقع الحقيقي للغذاء . وفي هذا دلالة قاطعة على أن الرقص الصحيح هو الذي كان ينبئها بموقع الغذاء .

لغة النحل ولغة البشر :

استهوت لغة النحل الراقصة الشعراء والأدباء والفلاسفة وعلماء اللغة والاجتماع ، فضلا عن علماء سلوك الحيوان ، فخاض فيها الخائضون . ولكن لعل أهم ما يقال إن هذا المثال الفريد في عالم الحيوان ، فيه شيء من لغة الانسان . وذلك أن لغة الحيوان تعبر عن انفعال عاطفي أو تتعلق بشيء موجود ، كطعام ماثل أمام الكلب النابح أو القطة التي تموء . أما النحلة فانها « تخبر » شقيقاتها عن شيء غير موجود معها في الخلية وليس على مرمى بصرها أو في مجال شمها ، فهي تتحدث حديثا « مجردا » . ثم إن النحلة تستخدم في هذا « الإخبار » مجموعة من الرموز ، فهي اذن لغة رمزية سرية خاصة (سكوت ، ١٩٧٠) . بيد أنه ينبغي ألا ننساق نحو المبالغة ، فاللغة هنا « منغلقة » خاصة بجماعة النحل ، ورموزها محدودة للغاية ولا تصلح الا للتعبير عن مفاهيم معينة (المسافة والاتجاه ، وفي حدود) ولا يستطيع النحل أن يولد منها مفاهيم أو معلومات جديدة .

بيد أنه ينبغي علينا أن نشير الى أن النحلة تُلَوِّن أسلوب حديثها بأشياء أخرى تضيفها الى الرموز ، وأهمها الروائح التي تفوح من جسمها من الغذاء الذي تجمعه من فيها . وقد لاحظ فون فريش أن « الرقصة » ، واتساع هزات البطن وحدتها ، ودرجة « انفعال » النحلة الراقصة .... يدل هذا كله على القيمة النسبية للغذاء . ففي الأيام الحارة قد يلقى الماء حفاوة أكثر من الرحيق المصفى ؛ هذا وقد أشار ولسون الى أن الجزء الهام من رقصة الاهتزاز ، أي الجزء المستقيم ، إنما هو يحكي ، بصورة مصغرة ، المشوار الذي قطعته النحلة المستكشفة في طريقها الى الغذاء الذي عثرت عليه . فهو يحكي السرعة والمسافة والاتجاه ، بل حتى تحريك الجناحين ، وكأن النحلة تطير مشوارها في مكان ضيق - (Wilson, 1975) . ونحن قد تعلمنا لغة النحل ، فنستطيع بأجهزتنا الدقيقة أن نفهم ماذا تخبر عنه ، ولكننا ما زلنا عاجزين عن أن نستخدم رموز هذه اللغة كي نخاطب بها النحل !

سبل النحل بين العلم وأقوال المفسرين :

وعَوْداً على بدء ، المهم في هذا كله الذي ذكرناه هو مدى عونه لنا في فهم قوله تعالى « فاسلكي سبل ربك ذللا » ، كما تقدم . وكان للمفسرين الأوائل آراء واجتهادات في فهم هذه الجملة من الآية الكريمة ، وأفاض في

ذلك بعضهم مثل ابن كثير (المتوفي عام ٧٧٤هـ) والألوسي (المتوفي عام ١٢٧٠هـ) وأوجز بعضهم كالنيسابوري (المتوفي عام ٧٢٨هـ) والبيضاوي (المتوفي عام ٧٩١هـ) . وسوف نعرض خلاصة آرائهم وأوجه اختلافهم :

١ ـ ترددوا في تفسيرهم لمعنى « فاسلكي سبل » . فقالوا :

أ ـ اسلكي ما أكلت في مسالكه ـ سبحانه ـ التي يحيل فيها بقدرته النَّوْرَ المر عسلا من أجوافك (وهم يلتمسون المعنى هنا فيما تصوروه من تشريح النحلة وفيزيولوجيتها) .

ب ـ أو فاسلكي الطرق التي علمك أو ألهمك الله إياها في عمل العسل . (وهومعنى مجازي قريب من سابقه) .

ج ـ أو فاسلكي راجعة الى بيوتك سبل ربك لاتتوعر عليك ولاتلتبس . (رحلة العودة أو الاياب) .

د ـ أو طرق الذهاب الى نطاق ماتأكل منه . (رحلة الذهاب) .

وقد رجّح الألوسي الرأيين الأخيرين ، وهما المتفقان مع ماكشف العلم من أسرار التكيف الوظيفي والسلوكي التي فطر الله النحل عليها والتي تعينها في رحلتي استكشاف الغذاء والتنجع ورحلة العودة والاياب الى البيت . وزاد العلم على هذا أعاجيب رحلة الجني وما يتعلق بها من الأسرار المذهلة عن طريق إخبار النحلة المستكشفة بمعلوماتها الى زميلاتها وطريقة إفادة الزميلات من تلك المعلومات .

٢ ـ تردد المفسرون أيضا في معنى كلمة « ذللا » وتوجيهها النحوى بين أن تكون حالا من السبل ، أي السبل التي ذللها الله تعالى وسهّلها للنحل ، ورجّح هذا ابن كثير والألوسي ، أو حالا من الضمير في « اسلكي » ، أي وأنت ذلل منقادة لما أُمرتِ به ، واستشهدوا بأقوال قتادة وعبد الرحمن بن زيد ومجاهد ، وقبل ابن جرير الطبري الرأيين .

وواضح أن العلم الحديث يؤيد الرأي الاول ، الذي رجحه المفسرون بفهمهم الذكي وحسهم الصادق ، ويقدم آيات بينات في بيان الكيفية التي ذلل الله بها الطرق أمام النحل .

٣ ـ تحير المفسرون أيضا كيف يكون في الهواء طرق ، وسبّب لهم هذا حرجا شديدا دفعهم الى تبني الرأي المرجوح (القائل بمسالك الغذاء في جوف النحلة) ، كما فعل عبد السلام ونقله عنه الألوسي دون تأييد . والواقع أن الصورة التي قدمناها لمباحث العلماء تؤكد لنا تهيؤ النحلة الفطري للسير في طرق محددة فيها علامات من اللون (بعضها لايظهر الا بالاشعة فوق البنفسجية) واسترشاد بالشمس (حتى في اليوم الغائم بالمقدرة على الاحساس بالضوء المستقطب من خلال الغيم) وإدراك فائق للروائح (الخاصة بالغذاء أو الموقع أو المستعمرة أو أفراد النحل) . وهذا كله يجعل النحلة أشبه بالطيار المدرب الحذق الذي يقود طائرته في مسار محدد

مرسوم ، لاوجود ظاهرا له في الهواء ولكن تدله عليه خرائطه وبوصلته وأجهزة قياس الارتفاع وشدة الهواء وسرعته وضغطه ..... الخ فالهواء أمامه فيه طرق يعرف أن بعضها مذلل يُبلغه هدفه في أمان بينما بعضها الآخر محظور عليه وقد يكون فيه الشدائد والمخاطر والضياع .

بل العجيب أن الباحثين الأوروبيين والأمريكيين في مشكلة لغة النحل وكيفية اهتدائه الى الطرق قد استخدموا لفظ المسالك أو المسارات ، وهم بعيدون تماما عن ألفاظ الآية الكريمة . وهكذا نجد ڤون فريش وڤنر وجونسون قد زعموا أنهم يعرفون « مسارات طيران النحل المنار في رحلة الجني : (Gould, 1976 : P. 224 — ..... "flight paths of recruits ....") بل الواقع أن جميع النظريات التي قدمت على اختلاف وجهات النظر بينها كانت تسعى الى كيفية اهتداء النحل الى تلك المسارات ، بل إن واحدة منها بالذات ، قدمها فريزن عام ١٩٧٣ (Friesen, 1973) عرفت باسم « **فرضية مسار الرائحة** — The Odour — Trail Hypothesis) . بل إن العلماء ما زالوا يجدون أنه من المتعذر **عليهم في الوقت الحاضر** تتبع نحلة معينة في أثناء طيرانها من البيت الى المنتجع ، فان صغر حجم النحل وسرعته وكثرة مناوراته في أثناء طيرانه تجعل هذا أمرا مستحيلا (Guold, 1973 : p. 241) . **وهكذا يتضح لنا أن هناك بالتأكيد طرقا** وسبلا مذللة للنحل « لاتتوعر عليها ولاتلتبس » ، ولكنها مازالت **تتحدى العلماء وتتوعر عليهم .**

الألوسي وأرسطو والنحل

وقبل أن أختم كلامي عن هذا المثال الخامس والأخير ، لا أرى بأسا من أن أسوق الى القارئ **الطُّرفة الآتية** ، لا للتسلية وحدها وإنما لمغزى هام فيها . وذلك أنه من المعروف أن أرسطو كان على بينة منذ أكثر من ألف عام من أنه اذا اكتشفت نحلة موضع صفحة من العسل ، لم يكن النحل يطرقها ساعات أو أياما سرعان مايتجمع النحل حولها . وهذه هي الملاحظة التي أثارت فضول ڤون فريش وغيره من العلماء (Gould, 1973 : p. 221) . ولكن المفاجأة أنني وجدت الخلايا الزجاجية التي اصطنعها ڤون فريش لدراسة سلوك النحل .... وجدتها في تفسير الألوسي (القرن الثالث عشر الهجري) الذي يقول : « وحكى أن سليمان عليه السلام ، والاسكندر ، وأرسطو صنعوا لها ✱ (أي النحل) بيوتا من زجاج لينظروا الى كيفية صنيعها وهل يخرج العسل من فيها أم من غيره ، فلم تصنع من العسل شيئا حتى لطخت باطن الزجاج بالطين بحيث يمنع المشاهدة » (الألوسي ، جزء ١٤ ، ص : ١٨٤) . وحمدا لله أن نحل ڤون فريش ومن تبعه لم يكن ضنينا بأسراره ، فانه باح بها راقصا أمام أعين الباحثين !

✱ اسم جنس « النحل » يؤنث في لغة الحجاز.

وظاهر أن هذا الذي يرويه الألوسي مجرد حكاية ، ولايذكر المصدر الذي استقاه منها . ولكن الشيء الوحيد المدهش حقا هو أنني لم أجد مثل هذا الكلام عند الدميري في « حياة الحيوان الكبرى » ـ على كثرة ماروى واستطرد اليه ، ولاعند القزويني في « عجائب المخلوقات » . **فانظر كيف كان أولئك المفسرون الأعلام ، رضوان الله عليهم يبذلون غاية الجهد في تقصي معارف زمانهم ليسخروها في فهمهم لآي القرآن الحكيم ، وكيف أخلصوا لواجبهم وتفانوا في أدائه . وتأمل أيضا أنهم لم يكن عندهم حرج البتة من ذلك ، رغم ماعرفوا به من ورع وتقوى .**

خاتمة

ولقد بيَّنا في مستهل هذا المقال أن العلوم الحديثة لاتقدم « تفسيرا » جديدا عصريا للقرآن الكريم ، وانما هي تتقدم لتنال شرف خدمة فهم كتاب الله العزيز ، كما تقدمت من قبلها علوم اللغة وفقهها وآدابها ، فسخرها المفسرون الأوائل لاظهار الاعجاز البلاغي للقرآن ، ومن ثم أسموها « العلوم الخادمة » لعلم التفسير . وقد بينا أنه يرجى تحقيق مزايا جليلة من هذه الخدمة العلمية لتفسير القرآن لو حُسِّن أداؤها ، فانتهينا الى ضرورة توفر شروط فيمن يتصدون للقيام بها ، ووضع منهاج يحتم التزامهم به حتى لايتورط الخائضون في مزالق يجب أن يتورعوا عنها ولايشفع لهم فيها حسن نواياهم . وقد قصدنا أن نقدم في شيء من التفصيل الضروري نماذج محددة لتطبيق ذلك المنهج ، فكانت خمسة اخترناها لبيان أهم الأغراض التي يرجى للتطل العلمي تحقيقها .

١ ـ فقد تعرضنا لاجتهادات المفسرين في شرح قوله تعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ، استعنا بالعلم في حسم الخلاف الذي قام بين أوائلهم في حدود معنى الحياة ، متناولين إياها على أساس عقلي وفلسفي ، وعن جواز إدخال النبات في عالمها . ثم استعنّا بأدق المعارف المعاصرة في تأييد فهمهم الذي أسسوه على أن أهمية الماء للكائن الحي تكمن في « أنه أعظم مواده ولفرط احتياجه اليه وانتفاعه به بعينه » . فزدنا هذا المعنى تفصيلا ووضوحا بتعمقنا في فهم الدور الذي يقوم به الماء في حياة الأحياء وخصائصه الفريدة التي تؤهله للقيام بهذا الدور الذي لاوجود للأحياء ، ولا استمرار لوجودها ، دونه . ثم أضفنا الى ذلك أن الأحياء جُعلت من الماء وصُنعت منه صنعا ـ بالمعنى الحرفي للالفاظ وبمعنى الابتداء لحرف « من » دون تجوز أو تأويل كان المفسر مضطرا الى اللجوء اليها ، كما بيَّنا أيضا أن الأكسيجين الذي يحفظ جذوة الحياة متقدة في الأحياء هو ـ وفقا لأحدث الكشوف العلمية ـ هبة من الماء .

٢ ـ وعندما تعرضنا للنظر في خلق الابل ، امتثالا لتوجيه الخالق البارىء ، سبحانه وتعالى ، لنا في سورة الغاشية ، تحقق لنا أن هذا المخلوق العجيب نموذج فريد في الخلق ، وأن مافطره الله عليه من غرائب في البنيان والوظيفة كان واضحا للبدوي صاحب الفطرة السليمة والمتحضر المتأمل ، كما أن فيه من الأسرار ما يجهل

البيولوجيين المتعمقين فى القرن العشرين . وهكذا يتضح لنا أن الله سبحانه وتعالى قد اختصه بالذكر بهذا كله ، وانه لم يكن مجرد « مثال » مناسب لخطاب البدو . والاستعانة بهذه المعارف العلمية لايناقض أى تفسير للآية الكريمة ، التى تتفرج أسرارها شيئا فشيئا مع تقدم المعارف الانسانية ، ومع ذلك تظل واضحة مقنعة ومؤثرة فى كل العصور وفى كل السامعين .

٣ ـ وفى المثال الثالث أمدنا من المعارف العلمية الحديثة ما يجعلنا أكثر إدراكا واحساسا باشارات القرآن الكريم الى طيران الطيور ، وعلى الأخص فى سورة النحل وسورة النور ، ومايفتح أعيننا على الاعجاز الرائع فى إمساك الله سبحانه وتعالى بالطيور فى جو السماء بما أودعه فيها من فطر رائعة فى البنيان والوظيفة ، ثم يبصرنا بحكمة الاشارة الى « صف » الطيور بالذات ، ففيه أعاجيب من استغلال الطيور للظواهر الجوية بما يشبه السحر . ومن هذا كله تظهر بلاغة الاشارات القرآنية ودقتها .

٤ ـ أما فى النموذج الرابع فقد تعرضنا لمحاولة فهم علة تحريم أكل لحم الخنزير ، وهو موضوع هام ودقيق . وقد أكدنا أن النص القرآنى الحكيم يدل على أن لحم الخنزير ينفرد من بين جميع اللحوم المذكورة فى آيات التحريم بأنه حرام لذاته ، أى لعلة مستقرة فيه أو وصف لاصق به ، وعلى أن تحريم لحم الخنزير بالذات تحريم معلل ، فينبغى علينا الاجتهاد فى البحث عن علة تحريمه . وقد اتضح لنا أن مايذكر فى كتب التفسير عادة حول هذا الموضوع قد يجانب الصواب أو يفتقر الى الدقة ... وهذا أمر خطير لاينبغى السكوت عليه . وقد اضطررنا إلى ذكر بعض التفاصيل من بحوث علم الطفيليات الحديثة للتدليل على ماذهبنا اليه ، مؤكدين ـ من قبل ومن بعد ـ أن الأمر والنهى اذا ما صدر من المولى عز وجل لا يقابلان من العباد الا بالسمع والطاعة ، حتى وإنْ خفيت العلل ... فما بالك والعلل ـ أو بعضها على الأقل ـ ظاهرة واضحة ، فالمخاطر التى تهدد آكل لحم الخنزير عظيمة جسيمة ، ولا يجوز التهوين منها على أى أساس .

٥ ـ أما فى النموذج الخامس فقد حددنا لاجتهادنا موضعا واحدا متعلقا بأعاجيب حياة النحل ، وهو قوله ، عز من قائل : « ... فاسلكى سبل ربك ذللا ... » . وقد وجدنا هذا النموذج مثلا فريدا جهد فيه المفسرون غاية الجهد واختلفت أمامهم السبل فى فهمه ، ولكن كانت لهم مع ذلك اجتهادات ذكية . وتؤيد البحوث البيولوجية الشائقة التى يقوم بها علماء معاصرون التفسير اللفظى المباشر لمعنى « فاسلكى » ، وأن النحلة تسلك فعلا سبلا حقيقية ذللها الله لها فى رحلات كشفها وبحثها عن الغذاء ، ورحلات جماعاتها الى التنجع لجنى الرحيق وحبوب اللقاح ، ثم فى رحلات عودتها الى بيوتها . وتكشف البحوث الحديثة عن الوسائل التى هيأها الله للنحلة كى تهتدى بها فى كل سبيل ذلول ، من مقدرة على إبصار بعض الألوان والأشعة فوق البنفسجية والضوء المستقطب ، ومقدرة فائقة على التذوق وتمييز الروائح وإطلاقها أيضا ، ولغة رمزية سرية خاصة تستطيع بها النحلة

المستكشفة أن تتنبأ بها أخواتها عن وجود الرحيق الحلو وتحدد لهن موضعه تحديدا دقيقا من حيث زاوية الاتجاه اليه وبعده عن بيتها .. وهى كلها حقائق أغرب من الخيال .

وفى النموذج الأخير ، على الأخص ، أظهرنا جانبا من خلاف العلماء عندما يصرون بمحاولاتهم الدؤوب على الوصول الى « الحقائق » العلمية . كذلك أظهرنا عند كلامنا فى خلق الابل وخلق الأحياء من الماء تدرج العلم فى الوصول الى تلك « الحقائق » . وهذا ما أشرنا اليه فى مقدمة مقالنا بطبيعة العلم المرنة النامية ، التى تعد ميزة للعلم لا منقصة فيه يحتج بها المعترضون على الافادة من المعارف العلمية فى فهمنا لتفسير القرآن الكريم .

ولعل أمرا آخر نرجو أن يكون قد وفقنا الله اليه ، وهو تجنب التمحل والافتعال وتحميل ألفاظ القرآن الكريم فوق ما تحتمل أو الخروج بها عن المعنى المتفق مع السياق العام الذى وردت فيه ومع ورودها فى مواضع أخرى من القرآن متصلة بالمعنى محل الدراسة ، ثم لعلنا وفقنا أيضا فى إظهار ما يشير اليه البعض أحيانا « بالاعجاز العلمى للقرآن الكريم » ، دون أن نتورط فيما يسمى أحيانا « بالسبق العلمى للقرآن » بلا دليل بل دون مبرر فى معظم الأحيان . ولكن تأكد لنا على الدوام أمر عظيم وجليل وهو أن النظر المتأنى فى تفسير القرآن والافادة السديدة من المعارف العلمية فى خدمة فهمه يظهران أنه لا وجود لأدنى تناقض بين إشارة علمية فى القرآن الكريم والمعارف الحديثة للعلوم ، فهى إشارات محكمة الدقة ، دائمة الوضوح والصدق ، متعددة البلاغة فى اقناع السامعين فى كل عصر وعلى اختلاف مداركهم . وليس فى هذا غرابة أو شىء جديد ، فتلك الاشارات العلمية هى من كلام خالق الكون العليم بنواميسه وأسراره ، بل مبدع تلك النواميس والأسرار ، ثم إنها أنزلت لتبقى مع الانسان الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. فهذا هو شأن الكتاب الذى أنزل على خاتم النبيين لخاتم الرسالات . وهذا كله هو مصداق قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » . (النساء : ٨٢) . وقوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » . (فصلت : ٥٣) ..

صدق الله العظيم .

***

المراجع

أولا ـ تفاسير القرآن وكتب التراث العربي :

ابن كثير (أبو الفدا ، عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي) ، « تفسير القرآن العظيم » ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ـ ١٩٦٩ .

الألوسي (أبو الفضل شهاب الدين السيد محمد الألوسي البغدادي) ، « روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني » ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

البيضاوي (ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي) ، « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » ، الطبعة الثانية ، المطبعة البهية المصرية ، القاهرة ـ ١٩٢٥ .

الدميري (كمال الدين محمد بن موسى) ، « حياة الحيوان الكبرى » ، دار التحرير للطبع والنشر ، القاهرة ـ ١٩٦٥ .

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) ، « جامع البيان في تفسير القرآن » ، دار المعرفة ، بيروت ـ ١٩٧٢ .

عبد الباقي (محمد فؤاد) ، « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » ، مطابع الشعب ، القاهرة ـ ١٩٥٨ .

الغزالي (أبو حامد ، محمد بن محمد بن أحمد) ، « جواهر القرآن » ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ـ ١٩٧٨ .

القرطبي ، « الجامع لأحكام القرآن » ، دار الشعب ، القاهرة .

القزويني (زكريا بن محمد بن محمود) ، « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » ، دار التحرير للطبع والنشر ، القاهرة ـ ١٩٦٥ .

المجلس الأعلى للشئون الاسلامية (لجنة القرآن والسنة وهيئة خبراء العلوم) ، « المنتخب في تفسير القرآن الكريم » ، الطبعة السادسة ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، القاهرة ـ ١٩٧٨ .

النيسابوري (نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي) ، « تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان » ، (هامش على « جامع البيان » ، الطبري) .

ثانيا ـ مراجع حديثة باللغة العربية :

آدم متز ، ١٩٦٧ ، « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري » ، المجلد الأول ، (ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة) ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

أحمد الشرباصي ، ١٩٦٢ ، « قصة التفسير » ، دار القلم ، القاهرة .

بفريج ، و . أ . ، ١٩٦٢ ، « فن البحث العلمي » ، (ترجمة زكريا فهمي) ، دار النهضة العربية ، القاهرة .

بنت الشاطئ ، ١٩٧٠ ، « القرآن والتفسير العصري » ، دار المعارف ، القاهرة .

بوكاي ، موريس ، ١٩٧٨ ، « دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة » ، (ترجمة) ، دار المعارف ، القاهرة .

سكوت ، جون بول ، ١٩٧٠ ، « سلوك الحيوان » ، (ترجمة عبدالحميد خليل ، وعبد الحافظ حلمي محمد) ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة .

ستوررو ، جون ، ١٩٥٦ ، « الديناميكا الهوائية للطيور » ، في : « طرائف من عالم الحيوان » ، ص ، ١٣٩ ـ ١٤٦ ، (ترجمة عبد الحافظ حلمي محمد) ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

شت تيلسن ، ت ، وول ، ١٩٥٩ ، « جيا الصحراء » ، في : « طرائف من عالم الحيوان » ، ص ، ١٢٥ ـ ١٤٥ ، (ترجمة عبد الحافظ حلمي محمد) ، دار الفكر العربي ، القاهرة .

صلاح الدين خطاب . ١٩٧٠ . « الجانب العلمي في القرآن » . مطابع الناشر العربي ، القاهرة .

عبد الحافظ حلمي محمد . ١٩٦٥ . « خلق الابل » . منبر الاسلام (القاهرة) ، ٢٣ (٧) : ١٤٠ ـ ١٤٢ .

________ ١٩٦٩ . « الخمر الحرام ـ ١ » . منبر الاسلام (القاهرة) ، ٢٧ (٥) : ١٥٠ ـ ١٥٤ .

________ ١٩٦٩ . « الخمر الحرام ـ ٢ » . منبر الاسلام (القاهرة) ، ٢٧ (٦) : ١٧٦ ـ ١٧٩ .

________ ١٩٧٩ . « العلم الحديث في خدمة فهم القرآن الكريم ـ ١ ، ٢ » . من تيار الفكر (الموسم الثقافي الخامس لجامعة قطر) ـ الدوحة . ص : ٥٨ ـ ٨٢ .

________ ١٩٨٠ . « التجربة المترجمة بين الدين والعلم » . كتاب المؤتمر السنوي التاسع والأربعين للمجمع المصري للثقافة العلمية » ـ القاهرة . ص : ١٧ ـ ٣٧ .

لاباج ، جيوفري . ١٩٦١ . « الحيوانات المتطفلة في الانسان » . (مترجم) . الأنجلو المصرية القاهرة .

محمد حسين الذهبي . ١٩٧٨ . « الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم » . دار الاعتصام ـ القاهرة .

محمد رضا محرم . ١٩٨٠ . « بدعة تفسير القرآن بالعلم » . « العربي » (الكويت) ، ٢٦١ : ١٠٣ ـ ١٠٧ .

محمد سعيد البوطي . ١٩٧٩ . « تلك النصف الباطل في تفسير القرآن بين العلم اليه أو حجبه عنه » . العربي » (الكويت) ، ٢٤٦ : ٥٥ ـ ٥٩ .

مصطفى الطير . ١٩٧٥ . « اتجاه التفسير في العصر الحديث » . مجمع البحوث الاسلامية ـ القاهرة .

منيع عبد الحليم محمود . ١٩٧٨ . « مناهج المفسرين » . دار الكتاب المصري ـ دار الكتاب اللبناني ـ القاهرة ، بيروت .

ميلن لوراس وميلن ، مارجري . ١٩٦٦ . « الماء والحياة » . (ترجمة ثابت الصيحي ورضا ياري) . مؤسسة سجل العرب ـ القاهرة .

وحيد الدين خان . ١٩٧٣ . « الاسلام يتحدى » . (ترجمة ظفر الاسلام خان) . الطبعة الخامسة . المختار الاسلامي ، القاهرة .

ولتي ، كارل . ١٩٥٩ . « الطيور آلات طائرة » . في : « طرائف من عالم الحيوان » ، ص : ١٤٧ ـ ١٦١ . (ترجمة عبد الحافظ حلمي محمد) . دار الفكر العربي ـ القاهرة .

وهبة الزحيلي . ١٩٧٨ . « من هم العلماء ورثة الأنبياء » الوعي الاسلامي » (الكويت) ، ١٦٩ : ٢٢ ـ ٢٩ .

ثالثا : مراجع باللغة الانكليزية :

Arms, K. and Cap, P.S. 1979. "Biology". Holt, Rinehart and Winston; New York.

Bucaille, Maurice. 1978. "The Bible, the Qur'an and Science".(English Translation by : Pannell and Bucaille .)North American Trust Publication ; Indianapolis .

Case, F.J. 1979. "Biology", 2nd ed. Macmillan Pub., Co., N. York .

Chandler, A.C. and Read, C.P. 1965. "Introdution to Parasitology", 10th ed. John Wiley; N. York.

Croll, N.A. 1966. "Ecology of Parasitism". Heinmann; London .

__________ and Matthews, B.E. 1977. "Biology of Nematodes". Blackie; Glasgow and London.

Curtis, H. 1979. "Biology", 3rd ed. Worth Pub.; N. York .

Dawud, 'Abdu' l-Ahad. 1978. "Muhammad in the Bible". Angkatan Nahadatul—Islam Bersatu; Sarawak .

Dewsbury, D.A. 1978. "Comparative Animal Behavior". MacGraw—Hill Co., N. York.

Friesen, L.J. 1963. The search dynamics of recuited honey bees. Biol. Bull., 144: 107—131.

Frisch, K. von—1962. Dialects in the language of the bees. In: "Animal Behavior" — Readings from Scientific American (1975), pp. :303—305. Freeman; San Francisco .

________ 1971. "Bees: Their vision, chemical senses, and language", 2nd. ed. Cornell Univ. Press; N. York.

________ 1974. Decoding the language of the bee. Science, 185: 663—668 .

Goldsby, R.A. 1979. "Biology", 2nd. ed. Harper & Raw; N. York.

Gould, J.L. 1976. The dance—language controversy. Quart. Rev. Biol., 51: 211—244.

Johnson, W.H., Delanney, L.S., Cole, T.A. and Brooks, A.C. 1972. "Bilogy", 4th ed. Holt, Rinehart and Winston, N. York.

Leopold, L.B., Davis, K. and the Editors of Time—Life Books. 1970. "Water". Time—Life Internaional; N. York .

Nelson, G.S. 1962. Human behaviour in the transmission of parasitic diseases. In: "Behavioural Aspects of Parasite Transmission", Canning, E.U. and Wright, C.A. (eds). Academic Press; London .

Noble, E.R. and Noble, G.A. 1976. "Parasitology; The Biology of Animal Parasites". 4th ed. Lea and Febiger; Philadelphia .

Ruppell, G. 1977. "Bird Flight". Van Nostrand Reinhold Com.; N. York .

Schmidt—Nielsen, K. 1975. "Animal Physiology" — Adaptation and Environment. Cambridge Univ. Press; London .

Smyth, J.D. 1976. "Introduction to Animal Parasitology", 2nd ed. Hodder and Stoughton; London .

Wallace, R.A. 1978. "Biology" — The World of Life, 2nd ed. Goodyear pub. Co., California .

Wenner, A.M. 1962. Sound production durnig the waggle dance of the honey bee. Anim. Behav. 10: 79—95 .

________ and Johnson, D.L. 1967. Honey bees: do they use the direcion and distance information provided by their dancers? Science, 158: 1076—1066 .

Wilcocks, C. and Manson - Bahr, P.E.C. 1974. "Manson's Tropical Diseases", 17th ed. Balliere and Tindall; London .

Wilson, E.O. 1975 Animal communiction. In: "Animal Behavior — Readings from Scientifc American", pp: 267—272. Freeman; San Francisco .

استخدام الآلات الحاسبة الالكترونية في دراسة ألفاظ القرآن الكريم

علي حلمي موسى

مقدمـــــة :

اللغة العربية لغة شديدة الحيوية ، وقد منحها أسلافنا القدماء جهدا كبيرا لمعرفة اسرارها والكشف عن مكنوناتها وفحص قوانينها .

وقد شهد عصرنا هذا قفزات فكرية وعلمية استخدم فيها الحاسب الالكتروني بدقة منقطعة النظير في عديد من المجالات ، لذلك اصبح من آمال علماء اللغة استخدام الوسائل التكنولوجية الحديثة في البحث عن كنوز اللغة واتباع المنهج العلمي ، في تصنيف حروفها وتحليل جذورها واحصائها في جداول ميسرة للدارسين .

ولقد بدأ التفكير في استخدام الآلات الحاسبة الالكترونية في دراسة الالفاظ العربية عام ١٩٧٠م وفي رحاب جامعة الكويت ، عندما كنت استاذا للفيزياء في هذه الجامعة .

وكان السؤال الذي يحتاج الى اجابة في ذلك الوقت هو : كيف يمكن الاستفادة من الحاسب الالكتروني بامكانياته الهائلة في بحوث اللغة العربية وتطويرها ؟

ونظرا لأن البحوث في اي فرع من الفروع - العلمية وغير العلمية - تعتمد اولا على تحديد الفرضيات والمعطيات التي ينطلق منها البحث ، ثم تحديد هدف او اهداف البحث ، لذلك وجدت انه من الواجب ان نبدأ بتحديد مواد اللغة العربية تحديدا كاملا ، اي احصاء جميع كلمات اللغة العربية المدونة في المعاجم المختلفة . ثم رأيت ان يكون الهدف هو محاولة اكتشاف العلاقة او العلاقات التي تربط الحروف العربية بعضها ببعض .

وعملية احصاء كلمات اللغة العربية لا يمكن ان تتم بالسرعة والدقة الكافية الا بواسطة استخدام الحاسب الالكتروني . وقد بدأت بإجراء البحث على الجذور (أصول الكلمات) . وقد ادى ذلك الى تكوين جداول احصائية كاملة لحروف هذه الجذور ، نستطيع عن طريقها تحديد اي الحروف العربية يشترك في نسيج الكلمة اكثر من غيره ، وهل يكثر ورود الحرف في اول الجذر او آخره ؟ ام ان الحرف يفضل ان يشترك في بناء الجذر من الداخل ؟.

وبغية الوصول الى هدف البحث وهو محاولة التوصل الى علاقات الحروف العربية بعضها ببعض ، ومن نفس المعطيات الاولى امكنني عن طريق الحاسب الالكتروني الحصول على جداول احصائية لتتابع الحروف في الجذور العربية . ومن هذه الجداول امكن استنتاج القوانين التي تحكم التتابعات من حيث المنع او الاباحة .

ونستطيع القول ان مثل هذه الاحصاءات قد تؤدي الى الوصول الى نتائج هامة تحدد العلاقة بين الحروف المختلفة ، وامكانية تقسيم الحروف العربية الى مجموعات ، تشترك كل مجموعة منها في بعض الخصائص اللغوية ، مثلما تم فيما يتعلق بالخصائص الصوتية .

وان المشتغلين بالبحوث اللغوية وتأصيل الكلمات العربية ، وكذلك علماء الاصوات واساتذة البلاغة والنقد ، سيجدون في هذه النتائج ما يعينهم على تقويم آرائهم ونظراتهم الخاصة ، كما يسعفهم في تقويم آراء القدماء ونظراتهم .

وقد تم اجراء هذه البحوث على الجذور اللغوية بمعاجم الصحاح ولسان العرب وتاج العروس . وقامت جامعة الكويت بنشر هذه الكتب ضمن مطبوعاتها في الاعوام ١٩٧١، ١٩٧٢، ١٩٧٣ على التوالي .

وفي عام ١٩٧٤م بدأت البحث في الفاظ القرآن الكريم . واستعنت في ذلك بعد الله بكتاب « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » الذي وضعه المغفور له محمد فؤاد عبد الباقي . وكان هدف هذا البحث هو حصر وتحليل الفاظ القرآن ، ثم مقارنة هذه الالفاظ بالفاظ معجم الصحاح .

كما بدأ بحث آخر في اتجاه مختلف وهو دراسة العلاقة بين الحروف والحركات في القرآن الكريم ، ومقارنة السور المكية بالسور المدنية ، وتعتبر هذه اول دراسة احصائية علمية للحركات في اللغة العربية .

وقد قدمت اجزاء من هذه البحوث في مؤتمرات علمية عالمية ، فقوبلت باهتمام شديد من اساتذة اللغويات في الجامعات الاوروبية .

الحاسب الالكتروني :

الحاسب الالكتروني (الكومبيوتر) كما يظهر من اسمه هو عبارة عن جهاز يعتمد في تصميمه وتركيبه على الدوائر الالكترونية ، ويتكون من مجموعة كبيرة من الخلايا . والفكرة الاساسية للحاسب الالكتروني في غاية البساطة ، فكل خلية من خلايا الحاسب يمكن تمثيلها بمصباح كهربائي ، والمصباح الكهربائي ، كما نعلم ، اما ان

يكون مضيئا (في حالة مرور تيار كهربائي) او غير مضيء (اذا لم يمر به تيار كهربائي) . وهذا يؤدي الى وجود حالتين للمصباح . وبالتالي حالتين لكل خلية من خلايا الحاسب : حالة تعبر عن معنى الاضاءة واخرى تعبر عن معنى عدم الاضاءة . وباضافة مصباح ثان يصبح عدد حالات المصباحين اربع حالات وهي :

(١) المصباحان مضيئان .
(٢) المصباحان غير مضيئين .
(٣) المصباح الاول مضيء .
(٤) المصباح الثاني مضيء .

ومع تعدد المصابيح (او الخلايا) تتعدد الحالات التي تكون عليها المصابيح (او الخلايا) .

ويمكن استخدام اضاءة او عدم اضاءة المصابيح لوضع نظام عددي ، وهو ما يعرف بنظام الاعداد الثنائية ، والذي يعتمد في التعبير عن الاعداد بالرقمين (١، صفر) او (مضيء ، غير مضيء) . ونظام الاعداد الثنائية معروف منذ زمن طويل ولكنه لم يستخدم على نطاق واسع الا في القرن الحالي ، عندما بدأ استخدام الدوائر الالكترونية في العد الآلي .

وفي نفس الوقت الذي تستخدم فيه المصابيح (او الخلايا) لوضع نظام عددي يمكن استخدامها ايضا لوضع نظام لغوي . فمثلا يمكن التعبير باضاءة كل من المصباح الأول والمصباح الخامس عن معنى الجمع ، وباضاءة كل من المصباح الثاني والمصباح الرابع عن معنى القسمة ... وهكذا نستطيع ان نكون لغة تسمى « لغة الآلة » .

ونظرا لأن خلايا الحاسب الالكتروني تعد بمئات الألوف فانه يتضح لنا الامكانات الهائلة لهذه اللغة التي يضعها مصمم الحاسب الالكتروني .

وتستخدم هذه اللغة في تخطيط البرامج اللازمة لحل اي مشكلة وتنفيذ اي عمل على الحاسب الالكتروني . ومع تقدم الابحاث في مجال الحاسبات الالكترونية تم وضع عدة لغات تخفف من العبء الواقع على مخطط البرامج . وتمتاز هذه اللغات بأنها تتكون من كلمات ورموز اقرب ما تكون الى كلمات ورموز الكتب العلمية .

ويتكون الحاسب الالكتروني من ثلاثة اجزاء رئيسية : الوحدة المركزية ـ وحدة (او وحدات) ادخال البيانات ـ وحدة (او وحدات) استخراج النتائج .

اذا استقبل الحاسب (عن طريق وحدات الادخال) برنامجا باحدى اللغات التي اشرنا اليها فانه يلزم ترجمة هذه اللغة الى لغة الآلة التي تتعامل مباشرة مع الجهاز عن طريق الدوائر الالكترونية الداخلة في تركيبه . ويقوم بهذه الترجمة قواميس تحتل جزءا من ذاكرة الحاسب . ويستخدم مخطط البرامج الجزء الباقي من الذاكرة في تخزين البيانات والمعلومات وكذلك في اجراء العمليات .

وتطبيقات الحاسب الالكتروني متعددة ومتنوعة ابتداء من الابحاث العلمية الى العمليات التجارية والادارية والبنوك، الى المصانع واجهزة الحرب واجهزة التعليم واجهزة المستشفيات، وغير ذلك من التطبيقات. الا ان ما يعنينا في هذا المقال هو استخدام الحاسب الالكتروني في بحوث اللغة العربية وفي الفاظ القرآن الكريم.

تطبيقات الحاسب الالكتروني في اللغة العربية :

تم استخدام الحاسب الالكتروني في دراسة جذور اللغة العربية المدونة بالمعاجم العربية الكبرى دراسة احصائية، ونتج عن ذلك عدد من الجداول التي تحتوي المعلومات الاحصائية المختلفة، منها عدد الجذور المدونة في كل معجم وتقسيمها الى انواع، من حيث عدد حروف الجذر، ثم يلي ذلك جداول تحدد تردد كل حرف من الحروف العربية في جذور كل معجم، وذلك في كل موقع من مواقع الجذور المختلفة، وكذلك التردد الكلي لكل حرف في كل نوع من الجذور.

كما انتجت الدراسة جداول تحدد تتابع الحروف في تركيب الجذور سواء كان التتابع في اول الجذر او في آخره او في وسطه (للجذور فوق الثلاثية).

ونظرا لأن الجذور الثلاثية (وهي الجذور التي تتكون من ثلاثة احرف) هي الغالبة في اللغة العربية وهي ميزة تكاد تنفرد بها اللغة العربية عن غيرها من اللغات، فقد قمت بوضع جداول يحتوي كل منها على جميع الجذور الثلاثية التي تبدأ بحرف معين، كما يظهر في هذه الجداول من الفراغات تراكيب الحروف التي لا تعطي جذورا. وبذلك اصبحت جميع الجذور الثلاثية في اي معجم موضحة في ٢٨ جدولا (انظر جدول رقم ٣«ه»).

وقد تمت هذه الدراسة على معاجم الصحاح ولسان العرب وتاج العروس، وسوف نلقي نظرة في هذا المقال على بعض نتائج الحاسب الالكتروني التي ظهرت من دراسة معجم لسان العرب.

فيوضح جدول رقم (١) تردد حروف الجذور الثلاثية بمعجم لسان العرب في كل موقع من المواقع الثلاثة للجذور، كما يحتوي على مجموع تردد كل حرف في الجذور الثلاثية. ويشتمل هذا الجدول ايضا على النسبة المئوية لتردد كل حرف بالنسبة الى مجموع حروف الجذور الثلاثية.

ومثال على ذلك تردد حرف الراء الذي يظهر في الجدول كما يلي :

٣٤٢، ٤٢٣، ٤٤٠ في المواقع الثلاثة على الترتيب ومجموعها ١٢٠٥، وهذا معناه وجود ٣٤٢ جذرا ثلاثيا يبدأ بحرف الراء، كما يوجد ٤٢٣ جذرا ثلاثيا يثني بحرف الراء. وايضا يوجد ٤٤٠ جذرا ثلاثيا ينتهي بحرف الراء. ونسبة ورود هذا الحرف الى جميع حروف الجذور الثلاثية هو ٦,١٥٪.

واذا علمنا ان المتوسط الحسابي لتردد الحرف في اللغة العربية هو ٣,٥٧٪ (ينتج من قسمة ١٠٠ على ٢٨) لظهر لنا ان حرف الراء من الحروف قوية التردد في الجذور الثلاثية، بل انه اقوى حروف العربية ترددا في تلك الجذور.

وعلى الرغم من ذلك فان تردد الحروف على مستوى الموقع فقط يخالف هذه النتيجة ، فمثلا نلاحظ ان حرف النون له اكثر تردد في الموقع الاول (٣٩٧ مرة) يليه حرف الواو (٣٥٦مرة) ثم حرف الراء (٣٤٢) مرة بينما نجد ان حرف الواو له اكثر تردد في الموقع الثاني (٤٧٣ مرة) يليه حرف الراء (٤٢٣ مرة) ، وعلى حين نجد ان الف المد (والتي تمثل حرفين في واقع الامر) لها اكثر تردد في الموقع الثالث (٥٣٦ مرة) .

ويوضح جدول رقم (٢) تتابع الحروف في الجذور الثلاثية ، والعدد الموجود في كل مربع صغير يمثل عدد مرات ورود التتابع في الجذور الثلاثية البالغ عددها ٦٥٣٨ جذرا . وبهذا الجدول ٨١٢ مربعا تمثل تتابع الحروف ، منها ٨٤ مربعا خاليا ، اي ان تتابع الحروف فيها لا يرد بالمرة في الجذور الثلاثية مثل « تص ـ ذث ـ سز ـ ضس ـ ظق ـ كظ » .

كما يظهر من هذا الجدول ايضا ان اقوى تتابع في الجذور الثلاثية هو التتابع « رب » الذي يرد ٤٨ مرة .

ويمكننا استخراج عدد من جداول التتابع لمجموعات معينة من الحروف وذلك باستخدام جدول رقم (٢) . ومن هذه المجموعات مجموعة احرف الشفة وهي « ب ـ ف ـ م » ، ومجموعة احرف الحلق وهي « أ ـ ح ـ خ ـ ع ـ غ ـ هـ » ، وكذلك المجموعة « ج ـ غ ـ ق ـ ك » والمجموعة « ذ ـ ز ـ س ـ ص » وهذه المجموعات الاربع تمتاز بأن كلا منها نادرا ما تتابع مع بعضها وان كان الحرف يتتابع مع نفسه (باستثناء حرف الهمزة وهو الحرف الوحيد الذي لا يتتابع مع نفسه) .

وتوضح الجداول التالية عدد مرات تتابع الحروف في كل مجموعة وبالتالي يمكن استنتاج هذه الظاهرة بسهولة من النظر في هذه الجداول .

تتابع أحرف الشفة في الجذور الثلاثية

الحرف التالي / الحرف	ب	ف	م
ب	٣٢	٠	٦
ف		٢٢	٤
م	١	١	٣٦

تابـع أحـرف الحلـق

الحرف التالي / الحرف	أ	ح	خ	ع	غ	هـ
أ	٠	٦	٦	٠	١	٨
ح	١	١٩	٠	١	٠	١
خ	٠	٠	٢١	٨	٠	٠
ع	٠	٠	٠	٢٢	٠	١٣
غ	٠	٠	٠	٠	١٠	٣
هـ	٥	٠	١	٧	٢	٧

تابع المجموعة (ج ـ غ ـ ق ـ ك)

الحرف التالي / الحرف	ج	غ	ق	ك
ج	٢٣	١	١	١
غ	٢	١٠	٣	٠
ق	٠	٢	٢٩	٠
ك	١٠	٢٠	٠	١٩

تابع المجموعة (ذ ـ ز ـ س ـ ص)

الحرف التالي / الحرف	ذ	ز	س	ص
ذ	١٦	٠	٠	٠
ز	٠	١٩	٠	٠
س	٤	٠	٢٠	٠
ص	١	٠	٠	١٩

ويبدو وضوح هذه الظاهرة اذا درسنا مخارج الحروف فسوف نجد ان كل مجموعة من هذه المجموعات تشترك في المخرج او تقترب منه .

وقد اشار ابن منظور في مقدمة معجم لسان العرب الى اختلاف الحروف عن بعضها من حيث قوة ترددها ، وقام بتقسيم الحروف العربية الى ثلاثة اقسام على حسب قوة التردد فوضع في القسم الأول سبعة احرف ، اشار الى انها من اقوى الحروف ترددا ، وفي القسم الثاني وضع ١١ حرفا تمثل الحروف متوسطة التردد وفي القسم الثالث وضع عشرة حروف تمثل الحروف ضعيفة التردد ، واهمل الف المد من الترتيب .

وقد تم ترتيب الحروف الواردة بجميع جذور لسان العرب الى اقسام مماثلة لأقسام ابن منظور فنتج الجدول التالي :

	الفئة الأولى	الفئة الثانية	الفئة الثالثة
نتائج الكومبيوتر	ر - ل - ن - ب - م - ع - ق .	د - ف - س - ج - ح - هـ - ك - ش - ظ - و - غ .	ز - أ - ت - ص - ث - خ - آ - ي - ض - ذ - ط .
تقسيم ابن منظور	أ - ل - م - هـ - و - ي - ن .	ر - ع - ف - ت - ب - ك - د - س - ق - ح - ج .	ط - غ - ظ - ز - ث - خ - ض - ش - ص - ذ .

ومنه يتضح ان تقسيم ابن منظور مخالف تماما لنتائج احصائيات الكومبيوتر ومن المفارقات القائمة نوضح ما يلي :

أ - حرف الراء اقوى الحروف العربية (في الجذور) وضعه ابن منظور في الفئة الثانية .

ب - حرفا الهمزة والياء يظهران في الفئة الثالثة في نتائج الكومبيوتر بينما يظهران في الفئة الأولى في تقسيم ابن منظور .

جدول رقم ١

تردد حروف الجذور الثلاثية

	موقع أول	موقع ثان	موقع ثالث	المجموع	النسبة المئوية
ا	٢٥٢	١٧٠	٢١١	٦٣٣	٣,٢٢٧
ب	٣٠١	٣٦٤	٣٤٠	١٠٠٥	٥,١٢٤
ت	١٥٥	٢١٠	١٧٩	٥٤٤	٢,٧٧٤
ث	١٢٢	١٤٩	١٤٥	٤١٦	٢,١٢١
ج	٢٥٧	١٩٣	٢٥٤	٧٠٤	٣,٥٨٩
ح	٢٨١	٢١٢	٢٢٦	٧١٩	٣,٦٦٦
خ	٢٤١	١٦١	١٦٢	٥٦٤	٢,٨٧٥
د	٢٦٦	٢٦٢	٢٩٢	٨٢٠	٤,١٨١
ذ	١٠٨	١٣١	٧٧	٣١٦	١,٦١١
ر	٣٤٢	٤٣٣	٤٤٠	١٢٠٥	٦,١٤
ز	١٩٢	١٧٤	١٨٩	٥٥٥	٢,٨٣٠
س	٢٦٤	٢٠٩	٢٥٦	٧٢٩	٣,٧١٧
ش	٢٨٩	١٧٦	١٧٢	٦٣٧	٣,٢٤٨
ص	١٨٤	١٣٢	١٦١	٤٧٧	٢,٤٣٢
ض	١٥٢	١١١	٩٨	٣٦١	١,٨٤١
ط	١٧٦	١٨٢	٢١٤	٥٦٧	٢,٨٩١
ظ	٣٥	٥٠	٦٤	١٤٩	٠,٧٦٠
ع	٣١٩	٢٥٩	٢٩٠	٨٦٨	٤,٤٢٥
غ	١٦٣	١٤٠	١٠٧	٤١٠	٢,٠٩٠
ف	٢٦٠	٢٨٠	٣٠٠	٨٤٠	٤,٢٨٣
ق	٢٧٥	٢٣٩	٢٧٢	٧٨٦	٤,٠٠٧
ك	٢٦٤	١٩٣	١٦٩	٦٢٦	٣,١٩٢
ل	٢٧٦	٣٥٣	٤٠١	١٠٣٠	٥,٢٥١
م	٣٠٩	٣٤٤	٤٢٩	١٠٨٢	٥,٥١٦
ن	٣٩٧	٣٦٦	٤٢٢	١١٣٥	٥,٧٨٧
هـ	٢٤٦	٢٤٧	١٤٢	٦٣٥	٣,٢٣٧
و	٣٥٦	٤٧٣		٨٢٩	٤,٢٢٧
ي	٦١	٣٨٥		٤٤٦	٢,٢٧٤
أ			٥٢٦	٥٢٦	٢,٦٨٢

جدول رقم (٢)

تتابع الحروف في الجذور الثلاثية

الحرف التالي

	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	ى	ا
أ		٢٧	١٤	١٢	١٦	٦	٦	٤٠	٦	٢٣	١٩	٢١	١٥	١٠	٥	١٤	٣		١	٢٤	١٠	١٢	٣٠	٣٠	٢٦	٨	١٣	١٤	١٩
ب	٢٠	٣٢	٤٣	٢٤	١٦	٤٠	٢٧	٢٥	١٩	٣٥	٢١	٢٧	٢١	٤١	١٦	٢٩	٤	٢٧	٢٠		٢٦	٣٠	٤٠	٦	٣٧	٢٥	٢٥	١٦	٢١
ت	٢١	١٧	٢٣	٤	٩	١٠	١٠	٧	١	٣٢	٣	٦	١١		١	٢		٢٠	٩	١٥	١٠	١١	٣١	٢٤	٢٧	٨	١٩	١٤	١٩
ث	١٨	١١	٦	١٩	١١	٩	٤	١١		٢٤						١٤		١٧	٨	١٠	١٠	٥	٢٤	٢٣	١٧	٥	١٠	٤	١٧
ج	٤٠	٢٦	١	٦	٢٣	٢١	٩	٢١	١٣	١٠	٢١	١٦	١٠	٢	٢	١	٢	٢٣	١	٢٢	١	١	٣٧	٣١	٣٠	١٧	٢٣	١٦	١٥
ح	١	٢٧	١٩	١٥	١٩	١٦		١٩	٩	٣١	١٩	١٨	١٧	١٨	١٥	١٨	١٧	١		٢٩	١٨	١٦	٣١	٢٤	٣٦	١	٣٠	١٦	١٧
خ		٢٣	١٧	٦	١٩		٢١	١٧	١١	٣٤	١٩	١٦	١٤	١٥	١٣	١٢	٤	٨		٢٤	٦		٢٣	٣٠	٣٠		٢٠	١١	١٦
د	٢٠	٢٧	١	١٠	١٩	٢٨	١٧	٤٥	١	٣٦	٢	٢٣	١١	٣		٢	١	٢٦	١٨	٢٨	٢٦	١٧	٣٠	٣٢	٣٦	٤٢	٢١	١٢	٢٥
ذ	١٥	١٦			٩	١١	٤	٢	١٦	٢١						١		١٧		١٣	١١	٢	١٩	٢٢	١٣	٦	١١	١٤	١٥
ر	٢٣	٢٨	٢٤	٢٣	٣٠	٢١	١٨	٣٦	٨	٤٦	١٩	٣٤	٤٥	٢٥	٤٦	٢٧	١	٣٩	١٧	١٠	٢٧	٢٧	٧	٤٢	٣٢	٢٩	٤٤	١٥	٢٥
ز	١٧	٤٣	٢		١٦	١٥	١٠	١١		٢٥	١٩					٢		٤٣	١٣	١١	٣٣	١٤	٤٤	٤٥	٢٨	١٣	١٨	١٧	١٣
س	١٨	٢٩	١٣		١٩	٢٠	١١	٢١	٤	٢١		٢٠				١٩		٢٢	٩	٤١	٢٧	١١	٣١	٢٣	٢٩	١٤	١٨	١٥	٢٠
ش	١٦	٢٨	٨	٥	١١	٤٣	١٦	١٤	٨	٣٥	٧	٧	١٨	٧		١٥	٨	١٨	١٤	١٩	٢٦	١٩	٣٠	٢٨	٢١	٩	١٩	١٧	١٩
ص	٩	١٩	٩		٢	١٢	١١	٢٠	١	٢١				١٩		٧		١٨	٧	٢٠	١١	٣	٢٤	٢٥	٢٦	٨	١٦	١٥	١٥
ض	١٣	٢٣	١	١	٩	١٠	٩	٩		٢٠	٤				١٥	٤	٤	١٤	١٥	١٦	١	٦	١٠	٤٤	١٤	١١	١٤	١٦	١٣
ط	١١	٤٢	١	٦	٢	١٨	١٠	٤		٣٣	٦	٢٢	٩			١٩		١٩	٨	٤٢	٤	١	٢٥	٤٧	٤٤	١٤	١٦	١٢	١٧
ظ	٥	٦			١	١				١١						١	١٤	٣		٥		١	٧	٩	٦	٢	٥	٢	٨
ع		٣٢	١٩	١٨	٢٢			٢٥	١١	٣٩	٢٢	٢٥	١٧	٤٠	١٧	٢٢	١٦	٢٢		٣١	٢٥	٤١	٤٠	٢٩	٣٢	١٣	١٩	١٩	١٩
غ		٢٥	٦	١٠	٢			١٦	٧	٢٨	١٠	١٥	٩	٦	٩	١٣	١		١٠	١٥	٣		٢٦	٢٨	١٩	٣	١٢	١٤	١٦
ف	١٩		٢٥	١٢	٢٠	٤١	١٥	٢٦	٣	٤٤	١٥	٢٢	٢٠	١٧	١٥	١٦	٦	١٩	٨	٢٣	٢٧	١٢	٣٧	٤	٣٥	٤٠	٢٠	١٨	٢٢
ق	٧	٢٨	١٤	١١		٢٢	٥	٢١	١٢	٢٨	١٤	١٨	١٦	١٨	٨	٢٥	٤	٣٠	٢	٢٨	٢٩		٣٠	٣٢	٢١	١٦	٢٠	١٢	١٨
ك	١٩	٢٣	٤١	١٧	١	١٢	٤	٢٦	٦	٣٦	١٢	٢٤	١٩	٨	٢		٨	٢٤	٢	١٩		١٩	٢٩	٣٢	٢٨	١٢	٤٠	١٧	١٦
ل	١٣	٣٠	٤٤	٢١	٤٨	٢٩	٢٦	٤٠	١٤	٤	٣٠	٢٥	٥	١١	٥	٢٧	٦	٣١	٢٣	٣٠	٢٤	٢١	٢٥	٤٢	١٥	٢٥	٢٢	١١	٢٣
م	٤٢	١	٣١	١٠	٢٤	٢٩	٤١	٢٩	١٥	٤٣	٢٢	٣٠	٢٦	٢٢	١٤	٢٨	٥	٣١	٢٠	١	٢٥	٢١	١٣	٢٦	٢٧	٢٥	١٩	١٧	٤١
ن	٢٤	٤٤	١٨	١٩	٣٥	٣١	٢٥	٢١	٩	١٧	٢٤	٣٠	٢٧	١٩	١٣	٢٢	١١	٣٠	١١	٣٩	١٥	٣١	٤	٣١	٢٧	٢٥	٢٤	١٤	٢٥
ه	٥	٣٧	١٧	٩	٢٤		١	٣٣	٨	٣٩	١٩	١٥	١٤	٧	١٠	١٥	١	٧	٣	١٥	٢٥	١٩	٢٧	٣٩	٢٧	٧	٢١	٢٢	٢١
و	٢٣	٣٧	٢٥	٢٧	٣٠	٢٦	٢٦	٣٩	٣٣	٤٤	٢٩	٣٢	٢٩	٤٤	١٦	٣٠	٧	٣٦	٤١	٢٥	٤٣	٣١	٤٠	١٤	٣٣	٣٤	١	١٠	٣٧
ى	٣٣	٢٥	١٤	١١	١٤	٢٠	١٣	٢٢	٣	٢٧	٩	٢٢	١٣	٤٦	١١	١٤	٥	١٨	٧	٢١	٢٠	١٤	٢٥	٢٧	٢٨	١٥	٥	١	٢٩

جدول رقم (٢)

الجذور الثلاثية المبتدأة بحرف " ر "

الحرف الثالث

	أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	ي	ا
أ		⊠						⊠			×	⊠	×							⊠			⊠	⊠	×				⊠
ب	⊠	[illegible]	⊠	⊠	⊠	⊠	⊠	⊠	⊠		⊠	⊠	×	⊠	⊠	⊠		⊠	⊠		⊠	⊠	⊠	×	×	×			⊠
ت	⊠	⊠	⊠		⊠		⊠											⊠			⊠	⊠	⊠	⊠	⊠				⊠
ث	⊠			⊠				⊠								×		⊠	×					⊠	⊠				⊠
ج	⊠	⊠			⊠	⊠	×	⊠			⊠	⊠						⊠		⊠			⊠	⊠	⊠	×			⊠
ح		⊠				⊠									⊠					×	⊠		⊠	⊠					⊠
خ					×		⊠	⊠						⊠						⊠			⊠	⊠					⊠
د	⊠	⊠			⊠	⊠	×	⊠				⊠						⊠	⊠	⊠	×	×		⊠	⊠	⊠			⊠
ذ									⊠														⊠	⊠	×				⊠
ر																					×								
ز	⊠	⊠				⊠	×				⊠								⊠	×	⊠			⊠	⊠				⊠
س		⊠				⊠	⊠					⊠				×		⊠	⊠	⊠			⊠	⊠	⊠				⊠
ش	⊠	×				⊠		⊠					⊠							⊠	⊠	×		⊠	⊠				⊠
ص						×	×	⊠						⊠				⊠	×	⊠	×			×	⊠				×
ض		⊠				⊠	⊠	×							⊠			⊠		⊠		×		⊠	×				⊠
ط	⊠	⊠									×	×				⊠		×					⊠	⊠	⊠				⊠
ظ																													
ع		⊠		⊠	⊠			⊠			⊠	⊠	⊠	⊠	×		⊠	⊠		⊠	×		⊠	⊠	⊠				⊠
غ		⊠		⊠				⊠				⊠				×			⊠	⊠			⊠	⊠	⊠				⊠
ف	⊠		⊠	⊠	×	×		⊠			×	⊠	×	⊠	⊠			⊠	⊠	⊠	⊠		⊠	×	⊠	⊠			⊠
ق	⊠	⊠				⊠		⊠			×		⊠	⊠		⊠		⊠		×	⊠		⊠	⊠	⊠				⊠
ك		⊠				⊠		⊠			⊠	⊠			⊠			⊠		×		⊠	⊠	⊠	⊠	×			⊠
ل																													
م	⊠			⊠	×	⊠	×	⊠			⊠	⊠	⊠	⊠	⊠	×		⊠	×		⊠	⊠	⊠	⊠	⊠	×			⊠
ن	×	⊠			⊠	⊠	×	⊠			⊠							×		⊠	⊠	×		⊠	⊠				⊠
ه	×	⊠			⊠			×			⊠	×	⊠	⊠		⊠				⊠	⊠	⊠	⊠	⊠	⊠				⊠
و	⊠	⊠		⊠	⊠	⊠		⊠	×		⊠	×	×	×	⊠	×		⊠	⊠	×	⊠		⊠	⊠	⊠	×			⊠
ي		⊠		⊠		×	×	⊠		⊠		⊠	⊠			⊠		⊠	×	⊠	⊠	×		⊠	⊠	⊠			×

× جذور لسان العرب
٥ جذور الصحاح

استخدام الحاسب الالكتروني في دراسة الفاظ القرآن الكريم :

كان الهدف في اول الامر من استخدام الحاسب الالكتروني في دراسة الفاظ القرآن الكريم هو احصاء الفاظ القرآن الكريم ثم تطور هذا الهدف الى عدة اهداف مع تقدم البحث ، فيما يلي بعض منها :

(١) التوصل الى بيان بجميع الالفاظ الواردة بالقرآن وعدد مرات ورود كل منها .

(٢) إيجاد عدد الالفاظ التي تبدأ بكل حرف من الحروف العربية .

(٣) إيجاد عدد الفاظ كل سورة ومتوسط طول الآية في كل سورة .

(٤) تحديد جذور الالفاظ الثلاثية (المكونة من ثلاثة احرف) وترتيبها تنازليا على حسب عدد مرات ورودها .

(٥) انواع الجذور الثلاثية الواردة بالقرآن ومقارنتها بجذور معجم الصحاح .

(٦) إيجاد الجذور الثلاثية التي وردت مرة واحدة فقط بالقرآن .

(٧) عدد مرات ورود الجذر « اله » وهو جذر لفظ الجلالة « الله » وذلك في كل سورة من سور القرآن .

ولكي يتيسر لنا التوصل الى هذه الاهداف كان لابد من شحن ذاكرة الكومبيوتر بألفاظ القرآن جميعها ، وهذا العمل يمكن ان يتم من القرآن الكريم رأسا ، على ان يتكون البيان الواحد مما يلي : « اللفظ ـ جذر اللفظ ـ رقم السورة ـ رقم الآية » ، ثم يضاف بيان في حالة ما اذا كان اللفظ علم .

ومن حسن الحظ ان الفاظ القرآن الكريم تم تدوينها وترتيبها في كتاب « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وهو من وضع المرحوم الاستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ، والذي بناه على كتاب « نجوم الفرقان في اطراف القرآن » وهو من تأليف المستشرق الالماني « فلوجل » . وقد طبع الكتاب الاخير لأول مرة عام ١٨٤٢ ، وبعد ذلك بقرن كامل قام عبد الباقي بمراجعته طبقا للمصحف المعتمد وانتهى من المراجعة عام ١٩٤٥ .

والمعجم المفهرس يجرد اللفظ ، اي يحصل على الجذر ثم يرتب الجذور على حسب الحرف الأول منها ثم الحرف الثاني وهكذا ، ويكتب امام اللفظ جزء من الآية التي ورد بها ثم رقم الآية ورقم السورة . والالفاظ المدونة في المعجم هي الاسماء والافعال ، اما الضمائر والحروف فلم تدون .

وقد تم شحن ذاكرة الكومبيوتر ببيانات المعجم بالاضافة الى البرامج المختلفة التي تم اعدادها لتحقق التوصل الى الاهداف السبعة التي ذكرت سابقا وغيرها من الاهداف ، وقد استغرق اعداد هذه البيانات وشحنها في ذاكرة الكومبيوتر سنة كاملة ، وفي اثنائها تم اعداد البرامج اللازمة .

وظهرت النتائج ممثلة في بعض الجداول التي نوضحها فيما يلي :

يوضح جدول رقم (٤) اعداد الفاظ القرآن الكريم منسوبة الى الحرف الأول من اللفظ ، والمقصود بالحرف الأول هنا ما يأتي :

(أ) الحرف الأول في اسماء الاعلام (الانبياء والرسل والصالحين والاقوام) ، مثل « محمد » يصنف تحت حرف الميم و« شعيب » تحت حرف الشين .

(ب) الحرف الأول في الالفاظ التي يرجع اصلها الى كلمة عدد حروفها اكثر من ثلاثة ، مثل « زمهرير » تصنف تحت حرف الزاي .

(جـ) الالفاظ التي يرجع اصلها الى كلمة مكونة من ثلاثة حروف ، تصنف على حسب الحرف الأول في الاصل الثلاثي .

مثال : « وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم » آل عمران ٤٩ تكون أصول (جذور) كلمات هذه الآية كالآتي :

الكلمة	انبئكم	تأكلون	تدخرون	بيوتكم
الجذر	نبأ	أكل	ذخر	بيت
الحرف الأول	النون	الهمزة	الذال	الباء

عدد ألفاظ القرآن الكريم :

يبلغ عدد الفاظ القرآن الكريم (طبقا لتعريف اللفظ الذي اوردناه سابقا) ٥١٩٠٠ (واحد وخمسون الفا وتسعمائة) لفظا .

واذا ارجعنا كل لفظ الى حرفه الأول (طبقا لتعريف الحرف الأول المذكور) فاننا نجد ان اكثر الالفاظ هو ما يبدأ بحرف الهمزة وعددها ٨٣١٠ لفظا بنسبة ١٦٪ . اي ان ما يقرب من سُدس الفاظ القرآن تبدأ بحرف الهمزة ، ويليها ما يبدأ بحرف القاف وعددها ٤٠٨٦ لفظا بنسبة ٨٪ ، ثم ما يبدأ بحرف الكاف (٣٨٧٨ لفظا بنسبة ٧,٥٪) ، ثم ما يبدأ بحرف العين وعددها ٣٧٨٨ لفظا بنسبة ٧,٣٪ ، ويليه ما يبدأ بحرف الراء وعدد هذه الالفاظ هو ٣٢٩٢ لفظا بنسبة ٦,٣٪ ، ثم ما يبدأ بحرف النون (٢٩٣٦ لفظا بنسبة ٥,٧٪) .

ثم تتوالى اعداد الالفاظ التي تبدأ بالحروف التالية (مرتبة تنازليا) : ب - س - ح - و - ج - م - ش - خ - ص - ف - د - غ - ل - ي - هـ - ث - ت - ذ - ط - ظ - ض - ز - ث .

واذا جمعنا اعداد الالفاظ التي تبدأ بالحروف الستة الاول :

الهمزة - القاف - الكاف - العين - الراء - النون ، لوجدنا ان مجموع اعدادها هو ٢٦٠٢١ (ستة وعشرون الفا وواحد وعشرون لفظا) ، وهذا معناه ان اكثر من نصف الفاظ القرآن الكريم تبدأ بأحد تلك الحروف .

ويوضح جدول رقم (٤) أيضا تقسيم الفاظ القرآن الى ثلاثة انواع :

النوع الأول :

هو اسماء الاعلام (الملائكة والانبياء والصالحين وبعض اسماء الاقوام) ، فقد ورد ذكر ثمانية وثلاثين منهم في القرآن الكريم . واختلف عدد ورود كل منهم . فبينما ورد ذكره موسى ه عليه السلام ١٣٦ (مائة وستا وثلاثين مرة) نجد ان ه احمد ه عليه الصلاة والسلام قد ورد ذكره مرة واحدة وورد ذكره محمد ه عليه الصلاة والسلام اربع مرات (لم تدخل بعض الاسماء التي كانت تطلق على النبي صلى الله عليه وسلم مثل طه ويس في هذا الموقع من الاحصاء) .

وقد بلغ مجموع ورود اسماء الاعلام ٦٢٥ (ستمائة وخمسة وعشرون مرة) ، وسنورد فيما بعد قائمة باسمائهم وعدد مرات ورود كل علم .

النوع الثاني :

هو الالفاظ التي يعود اصلها الى اكثر من ثلاثة حروف ، والتي يبلغ عددها خمسة واربعون لفظا وردت في مجموعها ١٧١ (مائة وواحد وسبعون مرة) .

النوع الثالث :

هو الالفاظ التي لها اصل ثلاثي (اي الالفاظ المشتقة من جذور ثلاثية ويبلغ عددها ١٦٣٣ (الف وستمائة وثلاثة وثلاثون لفظا) . وقد ورد كل لفظ من هذه الالفاظ عددا من المرات يتراوح بين مرة واحدة و ٢٨٥٦ مرة . ويلغ مجموع ورود هذه الالفاظ ٥١١٠٤ (واحد وخمسون الفا ومائة واربعة) ونسبتها هي ٩٨,٥٪ بالنسبة الى جميع الفاظ القرآن الكريم .

الكلمات الثنائية والاحادية :

لم تتضمن الاحصائيات الموضحة بالجدول رقم (٤) الكلمات الثنائية والاحادية ، والمقصود بالكلمة الثنائية الكلمة التي تتكون من حرفين والكلمة الاحادية هي التي تتكون من حرف واحد . ونظرا لورودها بالمعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ، فسوف نوردها جميعا فيما يلي :

أولا : الكلمات الاحادية وعددها ثلاث ووردت كل منها مرة واحدة .

ص وردت مرة واحدة في سورة ص .

ق وردت مرة واحدة في سورة ق .

ن وردت مرة واحدة في سورة القلم .

ثانيا : الكلمات الثنائية وعددها ثمانية وردت جميعها ١٤٥ مرة ، وهي :

(١) « أي » وردت مرة واحدة ـ « ويستنبئونك أحق هو قل اي وربي انه لحق » . (يونس ٥٣) .

(٢) « حم » وردت سبع مرات في سور « غافر ـ فصلت ـ الشورى ـ الزخرف ـ الدخان ـ الجاثية ـ الاحقاف » ـ « حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم » . (غافر ١) .

(٣) « ذو » وردت ١١١ مرة .

« وربك الغني ذو الرحمة » (الانعام ١٣٣) .

(٤) « طس » وردت مرة واحدة .

« طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين » (النمل ١) .

(٥) « طه » وردت مرة واحدة .

« طه . ما انزلنا عليك القرآن لتشقى » (طه ١) .

(٦) « كي » وردت عشر مرات .

« وأشركه في أمري كي نسبحك كثيرا » (طه ٣٣) .

(٧) « ها » وردت ١٣ مرة .

« ها انتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم » (آل عمران ٦٦) .

(٨) « يس » وردت مرة واحدة .

« يس . والقرآن الحكيم » (يس ١) .

مقارنة بين الالفاظ الثلاثية وغيرها :

وقبل ان نورد بيانا بأسماء الاعلام نعود للمقارنة بين الالفاظ ذات الاصل الثلاثي وغيرها ذات الاصل غير الثلاثي ، فنجد ان الاولى يبلغ عددها ١٦٣٣ بينما يبلغ عدد الثانية ٤٥ لفظا فقط . وعلى ذلك تصبح النسبة بين النوعين كنسبة ٣٦ : ١ ، وهي نسبة توضح ضآلة عدد الالفاظ غير الثلاثية .

وبمقارنة هذه النسبة بالنسبة المناظرة لها في الجذور العربية كلها طبقا لما ورد منها بمعجم الصحاح وهي ٤٨١٤ : ٧٦٦ أي كنسبة ٦ : ١ ، اولما ورد منها بمعجم لسان العرب وهي ٦٥٣٨ : ٢٥٤٨ أي كنسبة ٢,٦ : ١ . نلاحظ ان نسبة الالفاظ غير الثلاثية الواردة بالقرآن الكريم تقل بكثير جدا عن نسبتها في المعاجم العربية . وهذه النتيجة على جانب كبير من الاهمية وهي تحتاج الى دراسة اعمق ليس مكانها هذا المقال .

هذا من جهة الالفاظ المستخدمة من النوعين في القرآن الكريم . اما بالنسبة لمرات ورود كل من هذين النوعين ، فسوف نجد ان النسبة تكاد لا تذكر ، فعلى حين وردت الالفاظ المشتقة من جذور ثلاثية ٥١١٠٤ مرة نجد ان الالفاظ المشتقة من جذور غير ثلاثية وردت ١٧١ مرة ، أي بنسبة تقرب من ١:٣٠٠ .

أسماء الاعلام في القرآن الكريم :

بلغ عدد هذه الاسماء التي وردت بالقرآن الكريم ٣٨ اسما ، وفيما يلي بيان بتلك الاسماء مرتبة ابجديا وعدد مرات ورودها بالقرآن الكريم .

ابراهيم (٦٩)	احمد (١)	ادريس (٢)
آدم (٢٥)	اسحق (١٧)	اسماعيل (١٢)
الاسباط (٤)	الياس (٢)	آل ياسين (١)
اليسع (٢)	ايوب (٤)	ثمود (٢٦)
جبريل (٣)	داود (١٦)	ذا الكفل (٢)
ذا النون (١)	زكريا (٧)	سليمان (١٧)
شعيب (١١)	صالح (١١)	عاد (٢٤)
عزير (١)	عمران (٣)	عيسى (٢٥)
لقمان (٢)	لوط (٢٧)	محمد (٤)
مدين (١٠)	مريم (٣٤)	موسى (١٣٦)
ميكال (١)	نوح (٤٣)	هارون (٢٠)
هود (١٠)	يحيى (٥)	يعقوب (١٦)
يوسف (٢٧)	يونس (٤)	

يظهر لنا من هذه القائمة ان اكثر الانبياء ذكرا في القرآن الكريم هو « موسى » عليه السلام الذي ورد ذكره بالقرآن ١٣٦ مرة في ٣٤ سورة من سور القرآن ، فقد ورد اسمه ٢١ مرة في سورة الاعراف ، ١٨ مرة في سورة القصص ، ١٧ مرة في سورة طه ، كما ورد في غير ذلك من السور .

وقد ورد ذكر موسى عليه السلام مع هارون عليه السلام في ١٢ آية من القرآن الكريم . كما ورد ذكر موسى عليه السلام مع فرعون في ١٤ آية من القرآن الكريم .

ويلي موسى في مرات الورود بالقرآن الكريم ، ابراهيم عليه السلام الذي ورد ذكره ٦٩ مرة في ٢٥ سورة من سور القرآن . اكثرها ما ورد بسورة البقرة (١٥ مرة) ، وقد ورد مرة واحدة في سورة « ابراهيم » .

ثم يأتي نوح عليه السلام بعد ذلك ، فقد ورد ذكره بالقرآن الكريم ٤٣ مرة في ٢٨ سورة ، اكثرها سورة هود (٨ مرات) ، وقد ورد ثلاث مرات في سورة « نوح » .

ويلي الانبياء « موسى - ابراهيم - نوح » في الورود بالقرآن الكريم السيدة مريم التي ورد ذكرها ٣٤ مرة في ١٢ سورة ، وكان اكثرها ما ورد بسورة المائدة (١٠ مرات) ثم آل عمران (٧ مرات) ، وقد وردت بسورة مريم ثلاث مرات .

وفيما يلي الترتيب التنازلي لعدد مرات ورود باقي اسماء الانبياء :

يوسف (٢٧ مرة) - لوط (٢٧) - آدم (٢٥) - عيسى (٢٥) - هارون (٢٠) - اسحق (١٧) - سليمان (١٧) - داود (١٦) - يعقوب (١٦) - اسماعيل (١٢) - شعيب (١١) - صالح (١١) - هود (١٠) - زكريا (٧) - يحيى (٥) - ايوب (٤) - محمد (٤) - يونس (٤) - ادريس (٢) - الياس (٢) - اليسع (٢) - ذا الكفل (٢) - احمد (١) - آل ياسين (١) - عزير (١) .

وبالنسبة للملائكة فقد ورد اسم « جبريل » ثلاث مرات ، و « ميكال » مرة واحدة .

أما اسماء الصالحين فقد ورد « الاسباط » اربع مرات « وذا النون » مرة واحدة و « عمران » ثلاث مرات ، و « لقمان » مرتين . اما « مريم » فكما ذكرنا سابقا فقد وردت ٣٤ مرة .

وبالنسبة لاسماء الاقوام غير المنتسبين للانبياء (بالاسم) فقد ورد ذكر قوم « ثمود » ستة وعشرين مرة ، كما ورد ذكر قوم « عاد » اربعة وعشرين مرة ، وقوم « مدين » عشر مرات .

احصائيات وتوزيع الالفاظ على سور القرآن :

يوضح جدول رقم (٥) عدد الفاظ وآيات كل سورة من سور القرآن . ولتوضيح كيفية ايجاد عدد الفاظ كل سورة نأخذ كمثال سورة الفاتحة التي نكتبها وبعد كل لفظ اصل اللفظ بين قوسين .

الفاتحة :

بسم (سمو) الله (اله) الرحمن (رحم) الرحيم (رحم) .
الحمد (حمد) لله (اله) رب (ربب) العالمين (علم) .
الرحمن (رحم) الرحيم (رحم) . مالك (ملك) يوم (يوم) الدين (دين) . اياك (أيى) نعبد (عبد) واياك (أيى) نستعين (عون) . اهدنا (هدى) الصراط (صرط) المستقيم (قوم) . صراط (صرط) الذين (-) انعمت (نعم) عليهم (-) غير (غير) المغضوب (غضب) عليهم (-) ولا (-) الضالين (ضلل) .

جدول رقم (٤)

توزيع ألفاظ القرآن الكريم بالنسبة الى الحرف الأول منها

الحرف	ألفاظ من أصل ثلاثي	ألفاظ من أصل غير ثلاثي	أسماء الملائكة والانبياء والصالحين	المجموع	النسبة المئوية٪
أ	٨١٧١		١٣٩	٨٣١٠	١٦,٠
ب	٢٤٦٨	١٤		٢٤٨٢	٤,٨
ت	٥٦٩			٥٦٩	١,١
ث	٢٢٧		٢٦	٢٥٣	٠,٥
ج	١٧٧٢	٣	٣	١٧٧٨	٣,٤
ح	٢١٥٤	١		٢١٥٥	٤,٢
خ	١٥٨٣	٨		١٥٩١	٣,١
د	١٠١٥	١	١٦	١٠٣٢	٢,٠
ذ	٥٥٦		٣	٥٥٩	١,١
ر	٣٢٩٣			٣٢٩٣	٦,٣
ز	٤٠٠	٦	٧	٤١٣	٠,٨
س	٢٤٥٧	٧	١٧	٢٤٨٩	٤,٨
ش	١٥٨٩	١	١١	١٦٠١	٣,١
ص	١٢٣٥		١١	١٢٤٦	٢,٤
ض	٤٥٤	١		٤٥٥	٠,٩
ط	٥٥٢	٢		٥٥٤	١,١
ظ	٤٨٢			٤٨٢	٠,٩
ع	٣٧٣٣	٢	٥٣	٣٧٨٨	٧,٣
غ	٩٠٣			٩٠٣	١,٧
ف	١١٢٧	٧٦		١٢٠٣	٢,٣
ق	٤٠٧٩	٧		٤٠٨٦	٧,٩
ك	٣٨٧٠	٨		٣٨٧٨	٧,٥
ل	٨٣٥	٦	٢٩	٨٧٠	١,٧
م	١٤١٦	٣	١٨٥	١٦٠٤	٣,١
ن	٢٨٩٢	١	٤٣	٢٩٣٦	٥,٧
هـ	٦٢٢	١	٣٠	٦٥٣	١,٣
و	١٨٥٩	٧		١٨٦٦	٣,٦
ي	٧٩١	١٦	٥٢	٨٥٩	١,٧
المجموع	٥١١٠٤	١٧١	٦٢٥	٥١٩٠٠	

وعلى ذلك يقوم الكومبيوتر بالتصنيف الآتي :

حرف الهمزة	(٤) :	اله ـ اله ـ أبي ـ أبي .
حرف الحاء	(١) :	حمد .
حرف الدال	(١) :	دين .
حرف الراء	(٥) :	رحم ـ رحم ـ ربب ـ رحم ـ رحم .
حرف السين	(١) :	سمو .
حرف الصاد	(٢) :	صرط ـ صرط .
حرف الضاد	(١) :	ضلل .
حرف العين	(٣) :	علم ـ عبد ـ عون .
حرف الغين	(٢) :	غير ـ غضب .
حرف القاف	(١) :	قوم .
حرف الميم	(١) :	ملك .
حرف النون	(١) :	نعم .
حرف الهاء	(١) :	هدى .
حرف الياء	(١) :	يوم .

وبذلك يكون مجموع الفاظ سورة الفاتحة ٢٥ لفظا ، جميعها جذور ثلاثية ، وهي عبارة عن ١٩ جذرا ، ورد ثلاثة منها مرتين كما ورد جذر واحد اربع مرات (رحم) والباقي وعددهم ١٥ جذرا كل منها مرة واحدة في هذه السورة .

واذا عدنا الى جدول رقم (٥) لنتأمل الفاظ وآيات سور القرآن لوجدنا ان عدد الالفاظ يتراوح بين ٤٠٥٠ لفظا (عدد الفاظ سورة البقرة وهي اطول السور) وبين سبعة الفاظ فقط (عدد الفاظ سورة الكوثر وهي اقصر السور) .

وكما ان سورة البقرة تتميز باكثر عدد الفاظ فهي ايضا تحتوي على اكثر عدد من الآيات (٢٨٦ آية) . وبالمثل تحتوي سورة الكوثر على اقل عدد من الآيات (ثلاث آيات) وتشترك معها في نفس عدد الآيات كل من سورة العصر وسورة النصر .

ونظرا لأن العدد الكلي لالفاظ القرآن هو ٥١٩٠٠ لفظا فان معدل عدد الفاظ السور هو ٤٥٥ لفظا (ينتج من قسمة العدد الكلي للالفاظ على عدد سور القرآن) وعلى ذلك نجد ان بالقرآن ٣٨ سورة يزيد عدد الفاظها عن المعدل ، بينما الباقي وعددهم ٧٦ سورة يقل عدد الفاظ كل منها عن المعدل .

وإذا رتبنا سور القرآن من حيث عدد الفاظها ترتيبا تنازليا لظهرت كالآتي (السورة ـ رقمها في المصحف) :
البقرة ٢ ـ النساء ٤ ـ آل عمران ٣ ـ الاعراف ٧ ـ الانعام ٦ ـ المائدة ٥ ـ التوبة ٩ ـ هود ١١ ـ النحل ١٦ ـ يوسف ١٢ ـ يونس ١٠ ـ ......
اما اذا رتبنا السور من حيث عدد الآيات ترتيبا تنازليا لظهرت كالاتي :
البقرة ٢ ـ الشعراء ٢٦ ـ الاعراف ٧ ـ آل عمران ٣ ـ الصافات ٣٧ ـ النساء ٤ ـ الانعام ٦ ـ طه ٢٠ ـ التوبة ٩ ـ النحل ١٦ ....

وإذا قارنا الترتيبين لوجدنا انه باستثناء سورة البقرة فان الترتيب التنازلي للالفاظ يختلف عن الترتيب التنازلي للآيات ، مما يدل على ان اطوال الآيات تتباين بين سور القرآن ، وطول الآية يمكن تعريفه بانه عَدَدُ الفاظ الآية ونحصل عليه بقسمة عدد الفاظ السورة على عدد الآيات في السورة .

وقبل ان نتابع الحديث عن اطوال الآيات نود ان نشير الى ان تقسيم القرآن الكريم الى اجزائه الثلاثين يتفق الى حد كبير مع عدد الالفاظ . فاعداد الالفاظ في هذه الاجزاء متقاربة جدا فيما عدا جزء عم وهو الاخير فيختلف عدد الفاظه وهو ١٦١٧ لفظا عن معدل عدد الفاظ الجزء وهو ١٧٣٠ بنسبة حوالي ٦٪ ، والسبب في ذلك ان هذا الجزء يحتوي على قصار السور ، بالاضافة الى عدم حساب الفاظ البسملة في بداية كل سورة وإنما تحسب فقط مع سورة الفاتحة لكونها تمثل الآية الاولى في هذه السورة .

اختلاف السور في اطوال آياتها :

لنعد الآن للحديث عن اطوال آيات السور ، وبالتأمل في جدول رقم (٥) نجد ان سور القرآن تختلف اختلافا بينا في اطوال الآيات ، فنجد أن متوسط عدد الالفاظ في الآية الواحدة من سورة الطلاق ٦٥ هو ١٧,٢٥ ، أي ان الآية الواحدة تحتوي على اكثر من سبعة عشر لفظا في المتوسط ، وفي نفس الوقت نجد ان عدد الالفاظ في الآية الواحدة من سورة الشرح ٩٤ هو ٢,٠٠ اذ تتكون هذه السورة من ثمانية آيات وتحتوي على ١٦ لفظا ، وبالفعل فان كل آية تحتوي على لفظين فقط (هذا بالطبع مع استبعاد الاداة والحرف) .

ويظهر من نفس الجدول ان السور طويلة الآيات اذا رتبت تنازليا مع ذكر عدد الفاظ الآية لنتج لنا الترتيب التالي :

الأولى سورة الطلاق ٦٥ ومتوسط عدد الالفاظ في الآية هو ١٧,٢٥
الثانية سورة الممتحنة ٦٠ ومتوسط عدد الالفاظ في الآية هو ١٧,١٥
الثالثة سورة المائدة ٥ ومتوسط عدد الالفاظ في الآية هو ١٥,٦٨

الرابعة سورة التحريم ٦٦ ومتوسط عدد الالفاظ في الآية هو ١٥,٣٣
الخامسة سورة النساء ٤ ومتوسط عدد الالفاظ في الآية هو ١٤,٤٩
السادسة سورة البقرة ٢ ومتوسط عدد الالفاظ في الآية هو ١٤,١٦
السابعة سورة الفتح ٤٨ ومتوسط عدد الالفاظ في الآية هو ١٤,٠٧
الثامنة سورة المجادلة ٥٨ ومتوسط عدد الالفاظ في الآية هو ١٤,٠٥
التاسعة سورة الحديد ٥٧ ومتوسط عدد الالفاظ في الآية هو ١٣,٨٦
العاشرة سورة النور ٢٤ ومتوسط عدد الالفاظ في الآية هو ١٣,٧٣

وإذا لاحظنا الترتيب التاريخي لنزول سور القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم لوجدنا ان السور طويلة الآيات كان نزولها في مرحلة متأخرة زمنيا ، وفي هذا ابلغ حكمة ، لأن طول الآية يستلزم ذاكرة قوية لحفظها ، بينما السور قصيرة الآيات يكن حفظها بيسر اكثر . فاقتضت حكمة المولى عز وجل ان تكون السور الاولى في النزول هي السور قصيرة الآيات حتى يتدرب المسلمون على حفظ القرآن تدريجيا .

ويتضح ذلك من النتيجتين الآتيتين :

أولا : العشر سور ذات اطول آيات في القرآن الكريم يكون ترتيبها الزمني في النزول على النحو التالي :

البقرة	٢	ترتيبها	الزمني	هو	٨٧	(السادسة في طول الآيات) .
الممتحنة	٦٠	«	«	«	٩١	(الثانية في طول الآيات) .
النساء	٤	«	«	«	٩٢	(الخامسة في طول الآيات) .
الحديد	٥٧	«	«	«	٩٤	(التاسعة في طول الآيات) .
الطلاق	٦٥	«	«	«	٩٩	(الأولى في طول الآيات) .
النور	٢٤	«	«	«	١٠٢	(العاشرة في طول الآيات) .
المجادلة	٥٨	«	«	«	١٠٥	(الثامنة في طول الآيات) .
التحريم	٦٦	«	«	«	١٠٧	(الرابعة في طول الآيات) .
الفتح	٤٨	«	«	«	١١١	(السابعة في طول الآيات) .
المائدة	٥	«	«	«	١١٢	(الثالثة في طول الآيات) .

ثانيا : العشرون سورة الأولى في النزول على الرسول صلى الله عليه وسلم هي من ذوي الآيات القصيرة ، منها ١٢ سورة يقل فيها طول الآية عن ثلاثة الفاظ وهي :

العلق ـ التكوير ـ الأعلى ـ الليل ـ الضحى ـ الشرح ـ العاديات ـ الكوثر ـ التكاثر ـ الماعون ـ الكافرون ـ الفلق .

جدول رقم (٥)
عدد ألفاظ وآيات سور القرآن

م	السورة	عدد الألفاظ	عدد الآيات	عدد ألفاظ الآية (متوسط)	م	السورة	عدد الألفاظ	عدد الآيات	عدد ألفاظ الآية (متوسط)
١	الفاتحة	٢٥	٧	٣,٥٧	٣١	لقمان	٣٦١	٣٤	١٠,٦٢
٢	البقرة	٤٠٥٠	٢٨٦	١٤,١٦	٣٢	السجدة	٢٤٤	٣٠	٨,١٣
٣	آل عمران	٢٣٦٩	٢٠٠	١١,٨٥	٣٣	الأحزاب	٩٠٩	٧٣	١٢,٤٥
٤	النساء	٢٥٥٠	١٧٦	١٤,٤٩	٣٤	سبأ	٥٥٩	٥٤	١٠,٣٥
٥	المائدة	١٨٨١	١٢٠	١٥,٦٨	٣٥	فاطر	٥١٤	٤٥	١١,٤٢
٦	الأنعام	١٩٩٦	١٦٥	١٢,١٠	٣٦	يس	٤٤٩	٨٣	٥,٤١
٧	الأعراف	٢١٤٥	٢٠٦	١٠,٤١	٣٧	الصافات	٥٦٤	١٨٢	٣,١٠
٨	الأنفال	٨٢٩	٧٥	١١,٠٥	٣٨	ص	٤١٥	٨٨	٤,٧٢
٩	التوبة	١٦١٠	١٢٩	١٢,٤٨	٣٩	الزمر	٧٨٨	٧٥	١٠,٥١
١٠	يونس	١١٦٥	١٠٩	١٠,٦٩	٤٠	غافر	٨٢٤	٨٥	٩,٦٩
١١	هود	١١٢٠	١٢٣	٩,١١	٤١	فصلت	٥٠٦	٥٤	٩,٣٧
١٢	يوسف	١١٧٧	١١١	١٠,٦٠	٤٢	الشورى	٥٢٦	٥٣	٩,٩٢
١٣	الرعد	٥٧٤	٤٣	١٣,٣٥	٤٣	الزخرف	٥٣٦	٨٩	٦,٠٢
١٤	إبراهيم	٥٣٢	٥٢	١٠,٢٣	٤٤	الدخان	٣٣٦	٥٩	٥,٦٩
١٥	الحجر	٤٥٨	٩٩	٤,٦٣	٤٥	الجاثية	٣٢٨	٣٧	٨,٨٦
١٦	النحل	١٢٠٨	١٢٨	٩,٤٤	٤٦	الأحقاف	٤١٦	٣٥	١١,٨٩
١٧	الإسراء	١٠٧٦	١١١	٩,٦٩	٤٧	محمد	٣٥٧	٣٨	٩,٣٩
١٨	الكهف	١٠٨٧	١١٠	٩,٨٨	٤٨	الفتح	٤٠٨	٢٩	١٤,٠٧
١٩	مريم	٦٩٥	٩٨	٧,٠٩	٤٩	الحجرات	٢٤٦	١٨	١٣,٦٧
٢٠	طه	٨٨٨	١٣٥	٦,٥٨	٥٠	ق	٢٦٨	٤٥	٥,٩٦
٢١	الأنبياء	٧٥٧	١١٢	٦,٧٦	٥١	الذاريات	٢٣٨	٦٠	٣,٩٧
٢٢	الحج	٨٤٦	٧٨	١٠,٨٥	٥٢	الطور	٢٠٥	٤٩	٤,١٨
٢٣	المؤمنون	٦٦٢	١١٨	٥,٦١	٥٣	النجم	٢٢٣	٦٢	٣,٦٠
٢٤	النور	٨٧٩	٦٤	١٣,٧٣	٥٤	القمر	٢٥٩	٥٥	٤,٧١
٢٥	الفرقان	٦٢٨	٧٧	٨,١٦	٥٥	الرحمن	٢٦٣	٧٨	٣,٣٧
٢٦	الشعراء	٨٦٦	٢٢٧	٣,٨١	٥٦	الواقعة	٢٥٨	٩٦	٢,٦٩
٢٧	النمل	٧٧٠	٩٣	٨,٢٨	٥٧	الحديد	٤٠٢	٢٩	١٣,٨٦
٢٨	القصص	٩٤٣	٨٨	١٠,٧٢	٥٨	المجادلة	٣٠٩	٢٢	١٤,٠٥
٢٩	العنكبوت	٦٥٥	٦٩	٩,٤٩	٥٩	الحشر	٢٩٢	٢٤	١٢,١٧
٣٠	الروم	٥٤١	٦٠	٩,٠٢	٦٠	الممتحنة	٢٤٩	١٣	١٩,١٥

تابع جدول رقم (٥)
عدد ألفاظ وآيات سور القرآن الكريم

م	السورة	عدد الألفاظ	عدد الآيات	عدد ألفاظ الآية (متوسط)	م	السورة	عدد الألفاظ	عدد الآيات	عدد ألفاظ الآية (متوسط)
٦١	الصف	١٥٨	١٤	١١,٢٩	٨٨	الغاشية	٦٤	٢٦	٢,٤٦
٦٢	الجمعة	١٢١	١١	١١,٠٠	٨٩	الفجر	١٠٣	٣٠	٣,٤٣
٦٣	المنافقون	١١٩	١١	١٠,٨٢	٩٠	البلد	٥٣	٢٠	٢,٦٥
٦٤	التغابن	١٧٥	١٨	٩,٧٢	٩١	الشمس	٥٠	١٥	٣,٣٣
٦٥	الطلاق	٢٠٢	١٢	١٦,٨٣	٩٢	الليل	٤٩	٢١	٢,٣٣
٦٦	التحريم	١٨٤	١٢	١٥,٣٣	٩٣	الضحى	٣٠	١١	٢,٧٣
٦٧	الملك	٢١٢	٣٠	٧,٠٧	٩٤	الشرح	١٦	٨	٢,٠٠
٦٨	القلم	١٩٤	٥٢	٣,٧٣	٩٥	التين	٢١	٨	٢,٦٣
٦٩	الحاقة	١٧٧	٥٢	٣,٤٠	٩٦	العلق	٥٢	١٩	٢,٧٤
٧٠	المعارج	١١٨	٤٤	٢,٦٨	٩٧	القدر	٢١	٥	٤,٢٠
٧١	نوح	١٤٤	٢٨	٥,١٤	٩٨	البينة	٧٩	٨	٩,٨٨
٧٢	الجن	١٤١	٢٨	٥,٠٤	٩٩	الزلزلة	٢٩	٨	٣,٦٣
٧٣	المزمل	١٤٦	٢٠	٧,٣٠	١٠٠	العاديات	٢٦	١١	٢,٣٧
٧٤	المدثر	١٧٩	٥٦	٣,٢٠	١٠١	القارعة	٢٦	١١	٢,٣٧
٧٥	القيامة	١٦٨	٤٠	٤,٢٠	١٠٢	التكاثر	٢٢	٨	٢,٧٥
٧٦	الإنسان	٢٤١	٣١	٧,٧٧	١٠٣	العصر	١٠	٣	٣,٣٣
٧٧	المرسلات	١٣٢	٥٠	٢,٦٤	١٠٤	الهمزة	٣٣	٩	٣,٦٧
٧٨	النبأ	١٣٥	٤٠	٣,٣٨	١٠٥	الفيل	١٨	٥	٣,٦٠
٧٩	النازعات	١٣٢	٤٦	٢,٨٧	١٠٦	قريش	١٣	٤	٣,٢٥
٨٠	عبس	٩٦	٤٢	٢,٢٩	١٠٧	الماعون	١٦	٧	٢,٢٩
٨١	التكوير	٦٩	٢٩	٢,٣٨	١٠٨	الكوثر	٧	٣	٢,٣٣
٨٢	الانفطار	٤٣	١٩	٢,٢٦	١٠٩	الكافرون	١٣	٦	٢,١٧
٨٣	المطففين	١١٢	٣٦	٣,١١	١١٠	النصر	١٩	٣	٦,٣٣
٨٤	الانشقاق	٧٣	٢٥	٢,٩٢	١١١	المسد	١٧	٥	٣,٤٠
٨٥	البروج	٦٩	٢٢	٣,١٤	١١٢	الإخلاص	١٠	٤	٢,٥٠
٨٦	الطارق	٤٤	١٧	٢,٥٩	١١٣	الفلق	١٥	٥	٣,٠٠
٨٧	الأعلى	٥١	١٩	٢,٦٨	١١٤	الناس	١٦	٦	٢,٦٧

مقارنة بين الجذور الثلاثية في القرآن والجذور الثلاثية في المعاجم العربية :

يوضح الجدول رقم (٦) اعداد جذور القرآن الكريم الثلاثية منسوبة الى حرفها الأول . كما يوضح ايضا عدد هذه الجذور المدونة بمعجم الصحاح والنسبة المئوية لجذور القرآن الى جذور معجم الصحاح ، فعلى سبيل المثال يوجد بمعجم الصحاح ١٨٧ جذرا يبدأ بحرف الهمزة ورد منهم بالقرآن الكريم ٧٥ جذرا وهي بنسبة ٤٠٪ من جذور الصحاح . كما يوجد بمعجم الصحاح ٢١٨ جذرا يبدأ بحرف السين ورد منهم بالقرآن الكريم ١٠٣ جذرا بنسبة ٤٧٪ من جذور الصحاح .

ويوضح الجدول ايضا ان مجموع الجذور الثلاثية الواردة بالقرآن الكريم هي ١٦٣٣ جذرا ، بينما مجموع الجذور الثلاثية المدونة بمعجم الصحاح هي ٤٨١٤ ، وهذا معناه ان نسبة جذور القرآن الى جذور معجم الصحاح هي ٣٤٪ .

واذا اضفنا الى الجذور الثلاثية ما ورد من جذور غير ثلاثية بالقرآن الكريم وعددها ٤٥ ، اصبح عدد جذور القرآن هي ١٦٧٨ ، ولمقارنتها بجذور معجم الصحاح الثلاثية وغيرها والتي يبلغ عددها ٥٦١٨ (٤٨١٤ ثلاثية +٧٦٦٠ رباعية +٣٨٠ خماسية) ، لأصبحت نسبة جذور القرآن الى جذور اللغة العربية المدونة بمعجم الصحاح هي ٣٠٪ .

ويوضح الجدول رقم (٦) بالاضافة الى ما سبق اعداد الجذور الثلاثية التي وردت مرة واحدة فقط بالقرآن الكريم منسوبة الى حرفها الأول ، وهي في مجموعها عبارة عن ٣٧٤ جذرا ، ومعنى ذلك ان ٢٣٪ ، من لغة القرآن استخدمت مرة واحدة فقط وهذا اعجاز بلاغي كبير .

ولكي نربط بين الجدول رقم (٤) والجدول رقم (٦) نأخذ احد الحروف العربية كمثال وليكن حرف السين .

فالجدول رقم (٦) يوضح ان عدد الجذور الثلاثية التي تبدأ بحرف السين والتي وردت بالقرآن هو ١٠٣ جذرا ثلاثيا منها ٢٣ جذرا ورد كل منها مرة واحدة فقط والباقي وعددهم ٨٠ جذرا ورد كل منها اكثر من مرة واحدة ، وفيما يلي بيان بتلك الجذور مرتبة ابجديا على حسب الحرف الثاني والثالث وعدد مرات ورود كل جذر .

سأل	١٢٩	سأم	٢	سبأ	٢	سبب	١١
سبت	٩	سبح	٩٢	سبط	١	سبع	٢٨
سبغ	٢	سبق	٣٧	سبل	١٨١	ستت	٨
ستر	٣	سجد	٩٢	سجر	٢	سجل	٤
سجن	١٢	سجى	١	سحب	١١	سحت	٤
سحر	٦٣	سحق	٢	سحل	١	سخر	٤٢
سخط	٤	سدد	٦	سدر	٤	سدس	٨

سدى	١	سرب	٤	سرج	٤	سرح	٧
سرد	١	سرر	٤٤	سرع	٢٢	سرف	٣٣
سرق	٩	سرى	٥١	سطح	١	سطر	١٦
سطو	١	سعد	٢	سعر	١٩	سعى	٣٠
سغب	١	سفح	٥	سفر	١٢	سفع	١
سفك	٢	سفل	١٠	سفن	٤	سفه	١١
سقر	٤	سقط	٨	سقف	٤	سقم	٢
سقى	٢٥	سكب	١	سكت	١	سكر	٧
سكن	٦٩	سلب	٦	سلح	٤	سلخ	٣
سلط	٣٩	سلف	٨	سلق	٦	سلك	١٢
سلل	٦	سلم	١٤٠	سلو	٣	سمد	١
سمر	٤	سمع	١٨٥	سمك	١	سمم	١
سمن	٤	سمو	٣٨١	سنه	١	سنم	١
سنن	٢٢	سنو	٣٠	سهر	١	سهل	١
سهم	١	سهو	٢	سوأ	١٦٧	سوح	١
سود	١٠	سور	١٧	سوط	١	سوع	٤٩
سوغ	٢	سوف	٤٢	سوق	١٧	سول	٤
سوم	١٥	سوى	٨٣	سيب	١	سيح	٣
سير	٢٧	سيل	٤	سين	٢		

والآن ، اذا قمنا بجمع أعداد مرات ورود كل جذر من تلك الجذور لنتج لنا العدد الكلي لورود الجذور الثلاثية التي تبدأ بحرف السين بالقرآن الكريم وهو ٢٤٥٧ وهو ما يظهر بوضوح في الجدول رقم (٤) .

أي ان الجدول رقم (٦) يعطينا عدد انواع الجذور التي تبدأ بحرف معين بينا يظهر في الجدول رقم (٤) العدد الاجمالي لتلك الجذور .

واذا تأملنا قائمة الجذور السابقة لوجدنا ٢٣ جذرا يرد بالقرآن الكريم مرة واحدة فقط ، وسنورد فيما يلي اجزاء من الآيات التي وردت بها تلك الجذور مرتبة ابجديا ويليها اسم السورة ورقم الآية :

سبط	: وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما	(الأعراف ١٦٠)
سجى	: والضحى . والليل إذا سجى .	(الضحى ٢)
سحل	: فليلقه اليم بالساحل	(طه ٣٩)
سدى	: أيحسب الانسان أن يترك سدى	(القيامة ٣٦)
سرد	: وقدر في السرد واعملوا صالحا	(سبأ ١١)
سطح	: وإلى الأرض كيف سطحت .	(الغاشية ٢٠)
سطو	: يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم	(الحج ٧٢)
سغب	: أو إطعام في يوم ذي مسغبة .	(البلد ١٤)
سفع	: كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية .	(العلق ١٥)
سكب	: وماء مسكوب .	(الواقعة ٣١)

سكت	ولما سكت عن موسى الغضب	١	الاعراف ١٥٤	١
سلب	وإن يسلبهم الذباب شيئا	١	الحج ٧٣	١
سلق	فإذا ذهب الخوف سلقوكم	١	الأحزاب ١٩	١
سمد	وانتم سامدون .	١	النجم ٦١	١
سمك	رفع سمكها فسواها	١	النازعات ٢٨	١
سند	كأنهم خشب مسندة	١	المنافقون ٤	١
سنم	ومزاجه من تسنيم .	١	المطففين ٢٧	١
سهر	فإذا هم بالساهرة	١	النازعات ١٤	١
سهل	تتخذون من سهولها قصورا	١	الاعراف ٧٤	١
سهم	فساهم فكان من المدحضين	١	الصافات ١٤١	١
سوح	فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين	١	الصافات ١٧٧	١
سوط	فصب عليهم ربك سوط عذاب .	١	الفجر ١٣	١
سيب	ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة	١	المائدة ١٠٣	١

الجذور الثلاثية المتعددة الورود بالقرآن الكريم :

يوضح الجدول رقم (٧) عدد مرات ورود الجذور الثلاثية متعددة الورود بالقرآن الكريم مرتبة تنازليا . اعتبارا من اكثر الجذور ورودا وهو « إله » وهو جذر لفظ الجلالة « الله » الذي ورد ٢٨٥١ مرة ، حتى الجذور التي وردت ٥٩ مرة فقط وعدد الجذور المدونة في هذا الجدول هو ١٨٩ جذرا فقط .

وكما يظهر من هذا الجدول نجد على القمة لفظ الجلالة ويلي ذلك في الترتيب الفعلين « قال وكان » ومشتقاتها بتردد ١٧٢٢ ، ١٣٨٧ على الترتيب . ويتميز هذان الفعلان من جهة المعنى بأنهما فعلان مساعدان .

ويلي ذلك في المرتبة الرابعة الجذر « رب » بتردد ٩٧٩ مرة . ونظرا لأن هذا الجذر مرادف للجذر « اله » فيمكن اضافة الترددين معا ليصبحا ٣٨٣٠ بنسبة ٧,٤٪ من مجموع الفاظ القرآن الكريم .

وفي المرتبة الخامسة يأتي الجذر « أمن » ومشتقاته بتردد ٨٧٩ مرة ، ومعنى هذا ان « الايمان » يأتي في المرتبة الاولى بالنسبة للافعال غير المساعدة في القرآن الكريم ، وهذا له معنى كبير ، فكأن الله سبحانه وتعالى قد اراد ان يوضح للانسان دور الايمان في تكوين الانسان الصالح .

ثم يأتي في المرتبة السادسة الجذر « علم » ومشتقاته بتردد ٨٥٤ مرة ، وفي هذا دلالة واضحة جلية على أن « الايمان » يسبق « العلم » ولكن نظرا لتقاربهما في التردد فهناك ارتباط وثيق بينهما ، فكما ان الله سبحانه وتعالى قد بين لبني البشر اهمية « الايمان » في حياة الانسان فانه ايضا قد اوضح اهمية « العلم » في بناء الانسان .

والارتباط بين المعنيين يأتي في ان الانسان في بحثه عن الحقيقة يجب ان يؤمن – اولا – ثم يستخدم العلم الاستخدام السليم لتقوية وتعميق هذا الايمان .

جدول رقم (٦)
مقارنة بين الجذور الثلاثية بالقرآن الكريم والجذور الثلاثية للغة العربية (معجم الصحاح)

الحرف الأول للجذر	عدد جذور معجم الصحاح	عدد جذور القرآن الكريم	عدد الجذور الواردة مرة واحدة بالقرآن	النسبة المئوية لعدد جذور القرآن الى الصحاح
ء	٦٨٧	٩٥	١١	٪١٤
ب	٤٢٧	٥٢	١٦	٣٦
ت	٨٠	٢٢	٦	٢٨
ث	٨٥	٣١	٦	٣٦
ج	١٩٥	٦٨	١٩	٣٥
ح	٢٣٦	٩٦	١٩	٤١
خ	١٦٤	٥٨	١٢	٣٥
د	١٦٥	٤١	١٣	٢٥
ذ	٩٢	٣١	٧	٣٣
ر	٢٧١	٨٩	٢٣	٣٣
ز	١١٦	٣٢	١٠	٢٩
س	٢١٨	١٠٢	٢٣	٤٧
ش	٢٠٤	٦٠	١١	٢٩
ص	١٣٦	٦٠	١٣	٤٤
ض	٨٦	٢١	٩	٢٥
ط	١١١	٣٧	٧	٣٣
ظ	٢٢	٧	١	٣٢
ع	٢٥٣	١٠٢	١٥	٤٠
غ	١٢٥	٥٠	١١	٤٠
ف	١٩٠	٧٢	٢١	٣٨
ق	٢٢٢	٧٥	٢١	٣٤
ك	١٥٠	٥١	١٣	٣٤
ل	١٩١	٥٥	١٠	٢٩
م	٢٢٣	٧٠	١٩	٣١
ن	٣٢٠	١٠٥	٣٦	٣٣
هـ	١٨١	٤٠	١١	٢٢
و	٢٦٥	٧٧	٢٠	٢٩
ي	٣٤	١١	٢	٣٢
المجموع	٤٨١٤	١٦٢٣	٣٧٤	٪٣٤

لما اننا نلجأ الى العلم للبحث عن الحقيقة قبل ان يؤمن فلن يصل الى الراحة النفسية مهما تعمق في العلم .

والفارق الصغير بين تردد كل من « الايمان » و « العلم » يوضح ارتباط المعنيين ارتباطا وثيقا (الايمان والعلم) .

وفي المرتبتين السابعة والثامنة من الترتيب التنازلي لجذور القرآن الكريم الثلاثية (جدول رقم ٧) يأتي الفعلان « قام وأتى » ومشتقاتها بتردد ٥٤٩,٦٦٠ على الترتيب وهما ايضا من الافعال المساعدة ، ويليهما في المرتبة التاسعة الجذر « كفر » ومشتقاته بتردد ٥٢٥ مرة .

وتتوالى الجذور في الترتيب كما يظهر من الجدول . ويمكن القاء الضوء على بعض المعاني المتقاربة او المتباينة وترددتها مثل المعاني التالية :

« كتب »	يرد	٣١٩	مرة	« قرأ »	يرد	٨٨	مرة
« كذب »	يرد	٢٨٢	مرة	« صدق »	يرد	١٥٥	مرة
« أول »	يرد	[illegible]	مرة	« آخر »	يرد	٢٥٠	مرة
« الحياة »	يرد	١٨٦	مرة	« الموت »	يرد	١٦٥	مرة
« خرج »	يرد	١٨٢	مرة	« دخل »	يرد	١٢٦	مرة
« [illegible] »	يرد	[illegible]	مرة	« [illegible] »	يرد	٩٢	مرة
« الرجال »	يرد	[illegible]	مرة	« النساء »	يرد	٥٩	مرة
« السمع »	يرد	١٨٥	مرة	« البصر »	يرد	١٤٨	مرة

لفظ الجلالـــة :

يوضح الجدول رقم (٨) عدد مرات ورود الجذر « إله » في سور القرآن الكريم ، ومنه يظهر ان اكثر الورود هو في سورة البقرة (٢٨٩) تليها سورة النساء (٢٣١) ثم سورة آل عمران (٢١٥) ويلي ذلك سورة التوبة (١٧٢) ثم المائدة (١٥١) .

ويلي ذلك ورود الجذر « إله » في سورة الانعام (٩٣) ثم سورة الاحزاب (٩٠) ثم سورة الانفال (٨٩) وسورة النحل (٨٩) ثم سورة النور (٨٠) .

واذا قمنا بحساب النسبة المئوية لورود الجذر « اله » بالنسبة الى جذور كل سورة لظهر لنا ان اكبر عشرة سور في نسبة ورود الجذر « اله » هي على الترتيب :

(السورة ـ عدد مرات الورود ـ النسبة المئوية) :

المجادلة ـ ٤٠ ـ ١٢,٩٪

الانفال ـ ٨٩ ـ ١٠,٧٪

جدول رقم (٧)

الجذور الثلاثية المتعددة الورود بالقرآن الكريم مرتبة تنازليا

الترتيب	أحد مشتقات الجذر	مرات الورود	الترتيب	واحد مشتقات الجذر	مرات الورود	الترتيب	أحد مشتقات الجذر	مرات الورود
١	الله	٢٨٥١	٣١	حق	٢٨٧	٦١	صلح	١٦٩
٢	قال	١٧٢٢	٣٢	كذب	٢٨٣	٦٢	حل	١٦٩
٣	كان	١٣٨٢	٣٣	جاء	٢٧٨	٦٣	بشر	١٦٨
٤	ربب	٩٧٩	٣٤	عبد	٢٧٥	٦٤	قلب	١٦٨
٥	آمن	٨٧٩	٣٥	أحد	٢٧٣	٦٥	سيئات	١٦٤
٦	علم	٨٥٤	٣٦	خلق	٢٦١	٦٦	كثر	١٦٤
٧	قوم	٦٦٠	٣٧	بقي	٢٥٨	٦٧	الموت	١٦٥
٨	أتى	٥٣٦	٣٨	آخر	٢٥٠	٦٨	كبر	١٦١
٩	كفر	٥٢٥	٣٩	أمر	٢٤٨	٦٩	شهد	١٦٠
١٠	يوم	٥٢٢	٤٠	الناس	٢٤١	٧٠	أبا	١٦٠
١١	يشاء	٥١٦	٤١	أيها	٢٣٩	٧١	بعض	١٥٨
١٢	رسل	٥٠٣	٤٢	بين	٢٣٥	٧٢	أمر	١٥٨
١٣	عمر	٤٩٥	٤٣	نظر	٢٣١	٧٣	صدق	١٥٥
١٤	أرض	٤٦١	٤٤	أزل	٢٢٣	٧٤	غير	١٥٤
١٥	أول	٤٣٨	٤٥	بصر	٢١٢	٧٥	بعد	١٥١
١٦	كل	٤١٠	٤٦	سكر	٢١٠	٧٦	بصر	١٤٨
١٧	آية	٣٨٤	٤٧	طاقة	٢٠٧	٧٧	برئ	١٤٨
١٨	اسم - سماء	٣٨١	٤٨	حذر	٢٠١	٧٨	بقي	١٤٦
١٩	عذاب	٣٧٢	٤٩	عهد	٢٠٠	٧٩	دون	١٤٤
٢٠	عمل	٣٥٩	٥٠	خير	١٩٦	٨٠	أمم	١٤٤
٢١	حمل	٣٣٦	٥١	حسب	١٩٤	٨١	سلم	١٤٠
٢٢	بحر	٣٣٩	٥٢	نور - نار	١٩٤	٨٢	الدنيا	١٣٣
٢٣	رأى	٣٢٨	٥٣	ضلال	١٩١	٨٣	قدر	١٣٢
٢٤	كتب	٣١٩	٥٤	سمع	١٨٥	٨٤	شر	١٣٠
٢٥	هدى	٣١٦	٥٥	ابن - بني	١٨٤	٨٥	جمع	١٢٩
٢٦	ظلم	٣١٥	٥٦	الحياة	١٨٤	٨٦	بلغ	١٢٩
٢٧	نفس	٣٠٨	٥٧	خرج	١٨٢	٨٧	نظر	١٢٩
٢٨	قول	٢٩٤	٥٨	سبل	١٨١	٨٨	أهل	١٢٩
٢٩	نزل	٢٩٣	٥٩	بيع	١٧٤	٨٩	سأل	١٢٩
٣٠	ذكر	٢٩١	٦٠	قتل	١٧٠	٩٠	عظم	١٢٨

تابع جدول رقـم (٧)

الترتيب	أحد مشتقات الجذر	مرات الورود	الترتيب	أحد مشتقات الجذر	مرات الورود	الترتيب	أحد مشتقات الجذر	مرات الورود
٩١	خلف	١٢٧	١٢٤	سبح	٩٢	١٥٧	عرف	٧١
٩٢	أهل	١٢٧	١٢٥	سجد	٩٢	١٥٨	يوم	٧١
٩٣	عمل	١٢٦	١٢٦	أول	٩٢	١٥٩	وكيل	٧٠
٩٤	حول	١٢٤	١٢٧	ليس	٨٩	١٦٠	عذاب	٧٠
٩٥	صلاة	١٢٤	١٢٨	شيطان	٨٨	١٦١	نفع	٧٠
٩٦	شيء	١٢٣	١٢٩	قرأ	٨٨	١٦٢	سكن	٦٩
٩٧	يرزق	١٢٣	١٣٠	تاب	٨٧	١٦٣	ظن	٦٩
٩٨	عزيز	١٢٠	١٣١	خالدين	٨٧	١٦٤	واحد	٦٨
٩٩	يأتي	١٢٠	١٣٢	مال	٨٦	١٦٥	ملك	٦٨
١٠٠	أمر	١١٩	١٣٣	اسم	٨٥	١٦٦	بيت	٦٧
١٠١	إلهي	١١٨	١٣٤	سر	٨٥	١٦٧	كسب	٦٧
١٠٢	أمر	١١٧	١٣٥	أثم	٨٣	١٦٨	خرج	٦٦
١٠٣	مر	١١٣	١٣٦	حكم	٨٣	١٦٩	بارك	٦٦
١٠٤	أهل	١١١	١٣٧	سوء	٨٣	١٧٠	نسي	٦٥
١٠٥	حسب	١٠٩	١٣٨	كتب	٨٣	١٧١	جزي	٦٥
١٠٦	ألقى	١٠٩	١٣٩	نزل	٨١	١٧٢	حرم	٦٤
١٠٧	أجر	١٠٨	١٤٠	حق	٨٠	١٧٣	حل	٦٤
١٠٨	فعل	١٠٨	١٤١	عرش	٧٩	١٧٤	يبل	٦٣
١٠٩	وعد	١٠٧	١٤٢	نفس	٧٨	١٧٥	عهد	٦٣
١١٠	عذر	١٠٦	١٤٣	وجه	٧٨	١٧٦	حق	٦٣
١١١	نعم	١٠٤	١٤٤	قلب	٧٧	١٧٧	سحر	٦٣
١١٢	فضل	١٠٤	١٤٥	جهنم	٧٧	١٧٨	قص	٦٣
١١٣	صبر	١٠٣	١٤٦	يحسب	٧٧	١٧٩	ساء	٦٣
١١٤	أتى	١٠٢	١٤٧	قليل	٧٦	١٨٠	زيد	٦٢
١١٥	شهد	١٠٢	١٤٨	شكر	٧٥	١٨١	حس	٦١
١١٦	ولد	١٠٢	١٤٩	كفر	٧٥	١٨٢	ملأ	٦٠
١١٧	عين	١٠١	١٥٠	مصر	٧٤	١٨٣	به	٦٠
١١٨	الإنسان	٩٧	١٥١	نفس	٧٣	١٨٤	غيب	٦٠
١١٩	صحب	٩٧	١٥٢	بيت	٧٣	١٨٥	أذن	٦٠
١٢٠	أسر	٩٦	١٥٣	رجل	٧٣	١٨٦	أخرى	٦٠
١٢١	حي	٩٦	١٥٤	نصر	٧٣	١٨٧	زكاة	٥٩
١٢٢	قرب	٩٦	١٥٥	حق	٧٣	١٨٨	ظهر	٥٩
١٢٣	حب	٩٥	١٥٦	فرق	٧٢	١٨٩	النساء	٥٩

جدول رقم (٨)

عدد مرات ورود لفظ « الله » في سور القرآن الكريم

السورة	العدد	السورة	العدد	السورة	العدد	السورة	العدد
١ الفاتحة	٢	٣٠ الروم	٢٤	٥٩ الحشر	٢٩	٨٨ الغاشية	١
٢ البقرة	٢٨٩	٣١ لقمان	٣٢	٦٠ الممتحنة	٢١	٨٩ الفجر	–
٣ آل عمران	٢١٥	٣٢ السجدة	١	٦١ الصف	١٧	٩٠ البلد	–
٤ النساء	٢٢٦	٣٣ الأحزاب	٩٠	٦٢ الجمعة	١٢	٩١ الشمس	٢
٥ المائدة	١٥٦	٣٤ سبأ	٨	٦٣ المنافقون	١٤	٩٢ الليل	–
٦ الأنعام	٩٢	٣٥ فاطر	٢٧	٦٤ التغابن	٢٠	٩٣ الضحى	–
٧ الأعراف	٦٠	٣٦ يس	٥	٦٥ الطلاق	٢٥	٩٤ الشرح	–
٨ الأنفال	٨٩	٣٧ الصافات	٢٠	٦٦ التحريم	١٢	٩٥ التين	١
٩ التوبة	١٦٤	٣٨ ص	٧	٦٧ الملك	٣	٩٦ العلق	١
١٠ يونس	٦٢	٣٩ الزمر	٦٦	٦٨ القلم	–	٩٧ القدر	–
١١ هود	١٥	٤٠ غافر	٥٢	٦٩ الحاقة	١	٩٨ البينة	٢
١٢ يوسف	٤٤	٤١ فصلت	١٣	٧٠ المعارج	١	٩٩ الزلزلة	–
١٣ الرعد	٢٥	٤٢ الشورى	٣١	٧١ نوح	٨	١٠٠ العاديات	–
١٤ ابراهيم	٣٨	٤٣ الزخرف	٣	٧٢ الجن	١٠	١٠١ القارعة	–
١٥ الحجر	٣	٤٤ الدخان	١	٧٣ المزمل	٥	١٠٢ التكاثر	–
١٦ النحل	٨٧	٤٥ الجاثية	١٩	٧٤ المدثر	٣	١٠٣ العصر	–
١٧ الاسراء	١٣	٤٦ الاحقاف	١٨	٧٥ القيامة	–	١٠٤ الهمزة	١
١٨ الكهف	٢٠	٤٧ محمد	٢٨	٧٦ الانسان	٥	١٠٥ الفيل	–
١٩ مريم	١٠	٤٨ الفتح	٢٦	٧٧ المرسلات	–	١٠٦ قريش	–
٢٠ طه	١٣	٤٩ الحجرات	٢٧	٧٨ النبأ	–	١٠٧ الماعون	–
٢١ الانبياء	٢٠	٥٠ ق	٢	٧٩ النازعات	١	١٠٨ الكوثر	–
٢٢ الحج	٧٧	٥١ الذاريات	٤	٨٠ عبس	–	١٠٩ الكافرون	–
٢٣ المؤمنون	١٩	٥٢ الطور	٤	٨١ التكوير	١	١١٠ النصر	٢
٢٤ النور	٨٠	٥٣ النجم	٦	٨٢ الانفطار	–	١١١ المسد	–
٢٥ الفرقان	١٧	٥٤ القمر	–	٨٣ المطففين	١	١١٢ الاخلاص	٢
٢٦ الشعراء	١٥	٥٥ الرحمن	–	٨٤ الانشقاق	١	١١٣ الفلق	–
٢٧ النمل	٣٣	٥٦ الواقعة	–	٨٥ البروج	٣	١١٤ الناس	١
٢٨ القصص	٣٤	٥٧ الحديد	٣٢	٨٦ الطارق	–		
٢٩ العنكبوت	٤٤	٥٨ المجادلة	٤٠	٨٧ الأعلى	١		

الحشر ـ ٣٦ ـ ١٠,٦٪

التوبة ـ ١٧٢ ـ ١٠,٢٪

الاحزاب ـ ٩٠ ـ ٩,٩٪

الفتح ـ ٣٩ ـ ٩,٦٪

الحج ـ ٧٧ ـ ٩,١٪

النور ـ ٨٠ ـ ٩,١٪

آل عمران ـ ٢١٥ ـ ٩,١٪

النساء ـ ٢٣١ ـ ٩,١٪

ولا يفوتنا ان ننوه بأنه من بين سور القرآن الكريم فان الجذر « اله » قد ورد في ٨٦ سورة ولم يرد في ٢٨ سورة منها ٢٢ سورة من الجزء الاخير في القرآن وهو الجزء الذي يحتوي على قصار السور.

كما انه بقسمة عدد الفاظ القرآن وهو ٥١٩٠٠ على عدد مرات ورود الجذر « اله » وهو ٢٨٥١ ننتج العدد ١٨ . وهذا معناه ان كل ١٨ لفظ من الفاظ القرآن يرد بينها الجذر « اله » مرة واحدة وهو جذر لفظ الجلالة « الله » سبحانه وتعالى .

العلاقة بين الحروف والحركات في القرآن الكريم :

العلاقة بين الحروف والحركات في اللغة العربية من الوجهة الاحصائية وما ينتج عنها لم تكن محل دراسة من قبل رغم اهميتها القصوى في دراسة بنية اللغة العربية . وكانت اول دراسة من هذا النوع هي التي اجريت على القرآن الكريم منذ عدة سنوات .

الحروف العربية معروفة ولكي نحدد ما نقصده علميا نقول « الاصوات العربية » وهي ثمانية وعشرون صوتا بدءا بالهمزة حتى الياء . وليكن معلوما « ان صوت الواو هو ما نسمعه في « ولد ـ دلو » وصوت الياء هو ما نسمعه في « ظَبْيٌ » .

أما الحركات العربية فهي ستة حركات ، ثلاثة منها قصيرة وهي الفتحة والضمة والكسرة وثلاثة طويلة وهي الألف والواو والياء . ثم هناك « حركة » الوقف وهي السكون . وفي التمثيل الصوتي للحرف المشكل بشدة يعتبر هذا الحرف حرفان أولها حرف ساكن وثانيها مشكل بالحركة المصاحبة للشدة . فعلى سبيل المثال لمثل كلمة « رَبَّنَا » بمجموعة الاصوات « رَ بْ بَ نَا » .

ونظرا لاعتمادنا على التمثيل الصوتي فان الدراسة يجب ان تتم على القرآن الكريم كما نسمعه وليس كما نكتبه

ويوضح شكل رقم (١) الطريقة الصوتية لتمثيل سورة الفاتحة . وفي هذا التمثيل تتبع طريقة قراءة حفص مع الوقوف على رؤوس الآيات (أي ان آخر حرف في كل آية يكون ساكنا) وذلك كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفعل عند قراءة القرآن .

ولقد تم تطبيق هذه الطريقة على سورة البقرة وسورة الاعراف وقد اختيرت كل من هاتين السورتين لأنهما من السور الطويلة ولأن كلا منهما تمثل نوعا من السور . فالأولى مدنية والثانية مكية . كما اضيفت الى سورة الاعراف بعض قصار السور المكية من جزء « عمّ ».

وطريقة اعداد البيانات في هذه الدراسة لا تعتمد على كتاب المعجم المفهرس لألفاظ القرآن . الكريم ولكن البيانات تؤخذ رأسا من كتاب الله الكريم وتكتب اولا بالطريقة الصوتية كما في شكل رقم (١) ثم يعاد ادخالها الى ذاكرة الكومبيوتر على هيئة سلسلتين من المعلومات . السلسلة الاولى عبارة عن الاصوات (الحروف) العربية والسلسلة الثانية عبارة عن الحركات المصاحبة لتلك الحروف بنفس الترتيب . ويمكن تمثيل طريقة ادخال « بسم الله الرحمن الرحيم » على النحو التالي (أنظر شكل ١) :

باء سين ميم لام لام هاء راء راء حاء
كسرة سكون كسرة سكون ألف كسرة سكون فتحة سكون
ميم نون راء راء حاء ميم
ألف كسرة سكون فتحة ياء سكون

وبعد اتمام ادخال البيانات الى ذاكرة الكومبيوتر تقوم البرامج المعدة مسبقا باجراء العمليات الحسابية وغيرها للتوصل الى النتائج المرجوة .

يوضح الجدول رقم (٩) تردد الحركات في كل من العينتين المدنية (سورة البقرة) والمكية (سورة الاعراف) مع حساب النسب المئوية لكي تسهل المقارنة نظرا لاختلاف عدد الاصوات والحركات في كل من السورتين .

كما يوضح الجدول رقم (١٠) عدد الحركات المصاحبة لكل صوت (حرف) وكذلك السكون . كما يوضح عدد مرات ورود كل حرف وورود كل حركة . وذلك في سورة الاعراف (العينة المكية) .

وبالمثل يوضح الجدول رقم (١١) المعلومات المناظرة لجدول رقم (١٠) وذلك في سورة البقرة (العينة المدنية) .

ومن الجداول الثلاثة يمكننا استنباط النتائج الآتية :

(١) يوجد تطابق واضح في النسب المئوية للحركات في كل من العينتين المكية والمدنية (جدول رقم ٩) .

(٢) تستخدم الفتحة اكثر من غيرها من الحركات في تشكيل لغة القرآن الكريم وهي تتواجد بنسبة ٤٤٪ من الحركات (مع عدم ادخال السكون في الحركات) .

(٣) تلي الفتحة في قوة التردد الكسرة وهي بنسبة تقرب من ١٨٪ وتلي الكسرة الف المد بنسبة تقرب من ١٥٪ ثم الضمة بنسبة تقرب من ١٤٪ وفي آخر القائمة تأتي كل من الواو (٥٪) ثم الياء (٤٪) .

(٤) يجب ملاحظة انه على الرغم من ان الكسرة ترد اكثر من الضمة فان الكسرة الطويلة (الياء) ترد اقل من الضمة الطويلة (الواو) .

(٥) اكثر من ربع الاصوات (الحروف) تؤثر عليها السكون . والسبب في ارتفاع نسبة السكون هو وضع السكون على الحرف الأخير من كل آية .

(٦) تؤثر ٥٩٪ من مرات ورود السكون على ثلاثة حروف فقط وهي اللام والميم والنون . وهذه الظاهرة اللغوية على جانب كبير من الاهمية ويجب على اللغويين دراستها .

(٧) تشكل الفتحة ٢٣ حرفا اكثر من غيرها من الحركات . وهذه النتيجة تتفق مع كون نسبة الفتحة تمثل ٤٤٪ من الحركات . ولكن على الرغم من ذلك فان خمسة حروف تشكل بحركات اخرى اكثر من الفتحة وهذه الحروف هي : ب ـ ذ ـ ظ ـ ك ـ هـ حيث تشكل الباء بالكسرة اكثر من اية حركة اخرى . ويشكل حرف الذال بالياء اكثر من اية حركة اخرى . بينما تشكل كل من (ظ ـ ك ـ هـ) بالضمة اكثر من اية حركة اخرى .

شكل رقم (١)

التمثيل الصوتي لسورة الفاتحة

بِ سْ مِ لْ لَا هِ رْ رَ حْ مَا نِ رْ رَ حِي مْ .

أَ لْ حَ مْ دُ لِ لْ لَا هِ رَ بْ بِ لْ عَا لَ مِي نْ .

أَ رْ رَ حْ مَا نِ رْ رَ حِي مْ .

مَا لِ كِ يَ وْ مِ دْ دِي نْ .

إِ يْ يَا كَ نَ عْ بُ دُ وَ إِ يْ يَا كَ نَ سْ تَ عِي نْ .

إِ هْ دِ نَ صْ صِ رَا طَ لْ مُ سْ تَ قِي مْ .

صِ رَا طَ لْ لَ ذِي نَ أَ نْ عَ مْ تَ عَ لَ يْ هِ مْ غَ يْ رِ

لْ مَ غْ ضُو بِ عَ لَ يْ هِ مْ وَ لَ ضْ ضَا لْ لِي نْ .

الحركات الطويلة تحتها خط

جدول رقم (٩)

تردد الحركات في لغة القرآن الكريم

الحركة	تردد العينة المكية	النسبة المئوية	تردد العينة المدنية	النسبة المئوية	مجموع تردد العينتين	النسبة المئوية
الفتحة	٤١٦٦	٪٤٤٫٠٦	٧٣٠٩	٪٤٣٫٨٤	١١٤٧٥	٪٤٣٫٩٢
الكسرة	١٦٨٠	٪١٧٫٧٧	٢٩٦٩	٪١٧٫٨١	٤٦٤٩	٪١٧٫٧٩
الضمة	١٢١٧	٪١٢٫٨٧	٢٤١٦	٪١٤٫٤٩	٣٦٣٣	٪١٣٫٩٠
الألف	١٤٥٦	٪١٥٫٤٠	٢٤٠١	٪١٤٫٤٠	٣٨٥٧	٪١٤٫٧٦
الياء	٤١١	٪٤٫٣٥	٦٩٦	٪٤٫١٧	١١٠٧	٪٤٫٢٤
الواو	٥٢٦	٪٥٫٥٦	٨٨٢	٪٥٫٢٩	١٤٠٨	٪٥٫٣٩
المجموع	٩٤٥٦		١٦٦٧٣		٢٦١٢٩	
السكون	٣٣٧٣		٥٨٧٩		٩٢٥٢	
المجموع الكلي	١٢٨٢٩		٢٢٥٥٢		٣٥٣٨١	

جدول رقم (١٠)

عدد الحركات المصاحبة لكل حرف في العينة المكية (سورة الاعراف)

الحرف	الفتحة	الكسرة	الضمة	الألف	الياء	الواو	السكون	المجموع
ء	٤٠٣	٢٤٥	٦٦	٨٦	٦	٦	٦٨	٨٨٠
ب	١٥٣	٣١٢	٤٨	٢٨	٢٨	٢٨	١٢٥	٧١٢
ت	٣٦٩	١٢٥	١٠٢	٣٦	١٢	١٦	٨١	٧٤٥
ث	٢٣	٤	١٧	٢	٢	٢	١٥	٦٥
ج	٦٤	٣٢	١٥	٣٦	٢	٥	٢٤	١٧٨
ح	٣٦	٤٠	٧	١٧	١٦	٨	٤٢	١٦٦
خ	٥٧	٧١	١٨	١٦	٤	—	٣٦	٢٠٢
د	٨٩	٣٩	٣١	١٩	٢٢	٣٩	٧٩	٣١٨
ذ	٤٢	٢٢	٨	٥١	٢٧	١١	٥٦	٢١٧
ر	٢٩٢	٦١	٥٠	٣١	٢٦	١١	١٦٠	٦٣١
ز	٣١	٤	٢	٢	٢	—	٩	٤٦
س	١٠٩	٥١	٢٥	٣٦	٢	١٨	١١١	٣٤٨
ش	٣٩	٤	٩	١٢	١	٢	٣٥	١٠٢
ص	٣١	١٠	٤	٣١	١	١	٤١	١١٩
ض	٣٥	٢٣	٢	١	١	١	١٥	٧٨
ط	٤٥	٢	٥	١٢	٦	٤	٢٤	٩٨
ظ	١٠	٥	١٣	٢	٢	٥	١٠	٤٨
ع	٢٣١	٢٢	١٠	٢٠	٥	٢٢	٨١	٣٩١
غ	٣٢	٢	٩	١٢	١	٢	٢١	٧٩
ف	١٨٢	٤٢	١٩	١٤	١٣	١٠	٣٧	٣٧٠
ق	١٦١	٥٨	٤٣	٩٦	١٢	١٩	٣٢	٣٧٩
ك	١٥٥	٣٦	١٩٥	٥٣	١	١٥	٤٠	٤٨٨
ل	٥٢٨	١٩٢	٥٣	٣١٠	١٧	٥٦	٥٧٦	١٧٣٢
م	٣٠٤	٢٥٦	١٠٨	١٩٨	٣٦	٦٢	٥١٩	١٤٨٣
ن	٦١٣	٥٠	٤١	٢٣٢	٣٦	٤٣	٦٣٩	١٦٥٠
هـ	٤٣	١٢٦	٢١٦	١٠٢	٤٧	١٠	٣٢	٥٧٦
و	٥٤٣	٢	٤	٣٩	٢	٦	١٥٨	٧٥٤
ي	٢١٧	١٩	٨٨	٧٠	٣	٤	١٥٩	٥٦٠
المجموع	٥١٦٦	١٩٥٠	١٢١٧	١٤٨٦	٤١١	٥٢٦	٣٣٣٣	١٤٥٨٩

جدول رقم (١١)
عدد الحركات المصاحبة لكل حرف في العينة المدنية (سورة البقرة)

الحرف	الفتحة	الكسرة	الضمة	الألف	الياء	الواو	السكون	المجموع
ء	٦٣٠	١٧٥	١٠٢	٧٣٩	١٢	١٩	٨٦	١٥٥٥
ب	٣٩١	٣٥٣	٩٢	٤١	٣١	٢٥	١٣٦	٩٨٨
ت	٤٣٦	٢١٦	٢٨٦	٧٢	١٤	١٣	١٣٨	١٣٢٠
ث	٤٠	٣	٢٨	٩	٥	٩	٢٥	١٣٤
ج	٥٩	٤٨	٢٦	٣٠	٣	١٤	٥٥	٣١٥
ح	١١٤	٣٨	٣٣	٣٦	٣١	١١	٦٩	٣٣٢
خ	٨٣	٣٢	١٤	٢٢	٤	—	٣٩	١٩٦
د	١٤٠	٨٧	٩١	٢٥	٢٢	٣٢	١١٦	٥١٤
ذ	٣٣	١٦	١١	٨٨	١٨٤	٨	٦٤	٣٣٤
ر	٢٩٦	١٥٢	٩٦	٨٠	٥٩	٨٨	٣٢٠	٩٧٠
ز	٤٧	١٧	١٣	٦	١٠	٦	٢٥	١٢٩
س	١٧٣	٩٢	٢٥	٣٩	٣	١٦	١٤٤	٤٨٨
ش	٧٣	١٥	٩	٢٦	٥	—	٦٨	١٨٩
ص	٥٥	١٨	١٠	١٥	١٩	٣	٤٩	١٨٦
ض	٤٠	٢٨	١٥	١٤	٦	٤	٣٦	١٤٠
ط	٤٦	٢	١٠	١٤	٣	٨	٣٢	١١٠
ظ	١٢	٢	١٦	١٤	٥	١	٣٠	٧٣
ع	٢٩٩	٦٧	٥٧	٣٣	١٦	٢٤	٢٠٤	٦٩٨
غ	٢٣	٢	٣	٨	١	٤	٢٤	٧٤
ف	٣٢٥	١٢٢	٦٤	٣١	٨٦	٣٦	٦٤	٧٦٢
ق	١٥٢	٥٦	٩٠	١١٠	٣٦	٦٦	٧٦	٥٧٩
ك	٤٥٢	٥٩	٢٧٧	٦٨	١٨	٣٣	٦٤	٨٤١
ل	٨٦٧	٣٠٥	٩٨	٦٥٥	٦٧	١٤٦	١٢٠٩	٣٣٣٧
م	٥٥٥	٣٩٣	٣٣٣	٣١٠	٢٤	٩٥	٨٩٩	٢٥٩٩
ن	٧٢٣	١٠١	٥٥	٢٢٣	٢٤	٨٥	١٤٠٨	٢٦٢٣
هـ	١٦٣	٢١٦	٤٤٠	١١٧	٩٧	١٠٩	٤٩	١٢٠١
و	٩٣٦	٥	١٦	٧٦	—	١	١٦٩	١١٩٦
ي	٢١٤	٢٥	١٦٥	٧٦	٨	١٠	٣٥٦	١٠٠٤
المجموع	٧٣٠٩	٢٩٦٨	٢٤١٦	٢٤٠١	٦٦٦	٨٨٢	٥٨٧٩	٢٢٥٥٣

المراجـــع

١ ـ دراسة احصائية لجذور معجم الصحاح باستخدام الكومبيوتر ـ دكتور علي حلمي موسى ـ جامعة الكويت ١٩٧٣ .
٢ ـ احصائيات جذور معجم لسان العرب باستخدام الكومبيوتر ـ دكتور علي حلمي موسى ـ جامعة الكويت ١٩٧٢ .
٣ ـ دراسة احصائية لجذور معجم تاج العروس باستخدام الكومبيوتر ـ دكتور علي حلمي موسى ودكتور عبد الصبور شاهين ـ جامعة الكويت ١٩٧٣ .
٤ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار الشعب بالقاهرة .

5— Moussa, A.H., „Computer application to Arabic words in the Holy Quran", Proceedings of the Third European Meeting on Cybernetics and Systems Research, R. Trappel(ed.), Hemisphere, pp. 482 - 490, 1976.

6— Moussa, A.H., „Computer application to the Holy Qoran (Consonant-vowel relations)" Proceedings of the Fifth European Meeting on Cybernetics and Systems Research, Vienna, 1980; Abstracts of papers No. 298.

Computer application to Arabic words in the Holy Quran

Dr. Ali Helmy Moussa
Professor of Physics, King Abdul-Aziz University,
Jeddah, Saudi Arabia

Arabic words have been subject to computer work recently. Most of this work has been concerned with the determination of the frequency of letters in different positions of the word and the succession of letters in the roots of words.

The Arabic Alphabet consists of 28 letters, all of these act as consonants. Theseve are 6 vowels in Arabic, three of these are short vowels and do not appear explicitly in the common Arabic writing, the other three are long vowels which appear expicitly in Arabic writing. Two of these long vowels are represented by letters (the last two in Arabic alphabet), and the third is represented by an extra letter : Alef.

The Arabic language is characterized by a ‚Pause' action which does not appear in the common Arabic writing.

This article is concerned with computer application to Arabic words in the Holy Qoran, and also to consonant-vowels relations in the Qoran.

Our targets in this study are as follows :

1— A list of all words in the Qoran arranged alphabetically, and their frequencies.

2— Selection of words starting with a certain letter.

3— Number of words in each ‚Sourah', and the average ‚Aayah' length.

4— The freeuency of 3-letter roots in the Qoran.

5— Types of 3-letter roots and comparison with those listed in Arabic 'Moijams'.

6— The distribution of vowels with consonants in Mecca and Madina samples of the Qoran.

In order to acheive the first five goals, it is essential that we have to feed into the memory of computer all words in the Qoran. Fortunately, the roots of the words (Verbs and nouns) in the Qoran are classified in a book named "Al-moijam Al mofahras le-alfaz Al-Qoran Al-Karim" (Dictionary of the words of the Holy Qoran), edited by Mohammad Fouad Abdel-Baki, based on the original book by a German man named „Flogel" printed in 1842 under the name „Nojoum Al-Forkan fi Atraf Al-Qoran ". One hundred years later, Abdel-Baki revised that book and published it in 1945.

Most of the data in that book had been fed into the computer, together with the appropriate programs.

For the sixth goal the input should be taken directly from the Qoran, after we write it down in the phonetical way. The method adopted depends on assigning the proper vowel for each consonant and writing both the consonant and vowel at the same position, but on different lines.

About one eighth of the Qoran has been used as a sample. A part of the sample (Sourah Al-Bakarah „The Cow") belongs to Madina, and the other part (Sourah Al-Airaf)) belongs to Mecca. Thus, a comparison of the structure of the Madina and Mecca parts is included.

A computer program has been written for this goal. Results of these programs include the following :

1— The total number of words in the Qoran is 51900 words. Words starting with the letter ‚Hamzah' occur more than words starting with other letters (frequency 8310 words), followed by the letter ‚Qaf' (frequency 4086), then words starting with the letter ‚Kaf" (frequency 3878), followed by the letter ‚Ain' (frequency 3788), and so on.

2— It was found that more than half of the words of the Qoran (26021 words) start with one of the following six letters : Hamzah, Qaf, Kaf, Ain, Rai, and Noon.

3— There exist 38 names of Prophets, Angels, and famous people in the Qoran with total frequency 625.

4— Forty five types of words whose roots are composed of more than 3 letters exist in the Qoran with total frequency of 171.

5— Words of 3-letter roots are found to be 1633 in number, each with a different number of occurance, summing up to total number of 51104, i.e. about 98.5% of the total number of words in the Qoran.

6— The ratio of the two types in items 4 and 5 is 45:1633 which is about 1:36, while the ratio of the total frequency of both is 171 : 51104 which is about 1 : 299.
This shows that the 3-letter roots of words are the dominant roots in the Qoran.

7— The names of Angels and Prophets given in the Qoran are found to be as follows (classified in Arabic alphabet, followed by the occurance number):

Ibrahim	(69)
Ahmad	(1)
Idris	(2)

Adam	(25)
Isheaq	(17)
Ismail	(12)
Ilias	(2)
Il-Yassin	(1)
Aliasai	(2)
Ayoub	(4)
Gebreal	(3)
Daoud	(16)
Tha-Ikofl	(2)
Zakaria	(7)
Solaiman	(17)
Shoeb	(11)
Saleh	(11)
Ozair	(1)
Eissa	(25)
Loutt	(27)
Mohammad	(4)
Moussa	(136)
Mikal	(1)
Nouh	(43)
Haroun	(20)
Houd	(10)
Yahia	(5)
Yaiqoub	(16)
Youssof	(27)
Younos	(4)

8— The Qoran is known to be composed of 114 Sourah of different length. Each Sourah is divided into some Aayus, where the Aayah is composed of at least one nsentence. The average length of the Aayah in each Sourah is calculated in the form of number of words per Aayah.

The ten Sourah that have the longest Aayahs, are found to be as foolows (the number of words per Aayah is also given) :-

Sourah	Al-Talaq	: 17.25
,,	Al-Momtahinah	: 17.15
,,	Al-Ma-idah	: 15.68
,,	Al-Tahreem	: 15.33
,,	Al-Nisai	: 14.49
,,	Al-Bakarah	: 14.16
,,	Al-Fateh	: 14.07
,,	Al-Mojadalah	: 14.05
,,	Al-Hadeed	: 13.86
,,	Al-Nour	: 13.73

9— It was found that the Mecca sample and Madina sample of the Holy Qoran have identical patterns of the distribution of vowels with consonants.

10— It was found that the vowel' Fatehah'' (1) is used in Arabic language more than any other vowel.

The other vowels appear in the Arabic language in the following descending order :

‚Kasrah'(2), ‚Alef (long Fatehah)', 'Dhammah'(3)"Waw (long Dhammah)' ‚and' Yai (long kasrah)'.

11— About 26 % of the data from the Qoran are operated on by the ‚pause', and about 59 % of the ‚pause' operated on three letters only : ‚‚L M,and N''. This is an important linguistic phenomena in Arabic that should be studied.

References :

(1) MOUSSA, A.H., ‚‚Statistical study of Arabic roots in Moijam Al-Sehah'', Kuwait University, 1973 (In Arabic).

(2) MOUSSA, A.H., ‚‚Statistical table of Arabic roots in Moijam Lisan Al-Arab'', Kuwait University, 1972 (in Arabic).

(3) MOUSSA, A.H., and SHAHEEN, A.S., ‚‚Statistical study of Arabic roots in Moijam Taj Al-arous'' Kuwait University, 1973 (in Arabic).

(4) MOUSSA, A.H., ‚‚Computer application to Arabic words in the Holy Qoran'' ‚Proceedings of the Third Eurpean Meeting on Cybernetics and Systems Research, R. Trappl (ed.), Hemisphere, pp. 492 - 490, 1976.

(5) MOUSSA, A.H., ‚‚Computer application to the Holy Qoran (Consonant - vowel relations) Proceedings of the Fifth European Meeting on Cybernetics and Systems Research, Vienna, 1980; Abstracts of papers No. 298.

***

(1) 'Fatehah, Is similar to the vowel acting on the letter b in "bot,,.
(2) 'Kasrah, is similar to the vowel acting on the letter b in "bed,,.
(3) 'Dhammah, is similar to the vowel acting on the letter t in "to,,.

نبذة

عن التاريخ العلمي للدكتور علي حلمي موسى

- ولد بالاسكندرية عام ١٩٣٢م .
- حصل على بكالوريوس العلوم في الرياضيات من جامعة عين شمس في عام ١٩٥٢م . بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الاولى .
- حصل على الدكتوراه في الفيزياء النظرية من جامعة لندن في عام ١٩٥٨م .
- تدرج في وظائف هيئة التدريس بجامعة عين شمس وجامعة الكويت وجامعة الملك عبد العزيز بجدة .
- يشغل حاليا وظيفة رئيس قسم الفيزياء بكلية العلوم بجامعة الملك عبد العزيز .
- حصل على جائزة الدولة التشجيعية عامي ١٩٦٤ ، ١٩٧٤م .
- حصل على زمالة معهد الفيزياء البريطاني عام ١٩٧٤م .
- نشرت له جامعة الكويت ثلاثة كتب عن استخدام الكومبيوتر في دراسة محتويات معاجم اللغة العربية .
- نشر عددا كبيرا من البحوث في الفيزياء النظرية في المجلات العالمية .
- نشر بحوثا في مؤتمرات اوروبية عن استخدام الكومبيوتر في دراسة الفاظ القرآن الكريم .

***

الأنبياء والمتنبئون قبل ظهور الإسلام

سعد زغلول عبد الحميد

في أهمية الموضوع :

سير الانبياء واخبار المتنبئين من الموضوعات الهامة في تاريخ البشرية منذ نشأتها الأولى وحتى ايامنا هذه ، وذلك انها تمثل ضمير العالم ووجدان الانسانية في مقابل تاريخ الامراء ورجال الدول ، مما يمثل الشكل الظاهر للانسانية في صراعها الدائر خلال حياتها المعتادة .

وهكذا تمثل تاريخ العالم عند قدامى المؤرخين الاسلاميين على انه تاريخ الرسل والملوك كما نراه عند الطبري ، مما يعبر عن ان قصص الانبياء واخبار الملوك تمثل وجهين لعملة واحدة هي : تاريخ البشرية بماله من باطن وظاهر - حسب اصطلاح ابن خلدون . وهذا يعني ان تاريخ الانسانية يكاد ينقسم بالسوية بين تاريخ للناموس او الحكم الديني ، وتاريخ السياسة المدنية والملك السياسي ، في وقائعها المادية وامثولاتها المعنوية .

وقد يتساءل البعض ولماذا لا نفصل بين الانبياء وبين المتنبئين ، فالبون شاسع بين الجد والهزل ، والمسافة واسعة بين الحق والباطل . وهذا صحيح ، فاذا كان الاصل اللغوي واحدا لكل من كلمتي « النبي » و « المتنبي » مما سمح لبعض قدامى العلماء باستخدام الكلمتين بنفس المعنى مع الحاق الصفة المناسبة لمقتضى الحال ، مثل الصدق او الكذب ، فمما لاشك فيه ان الفارق بعيد بين ما هو دارج من مفهوم النبوة ومفهوم التنبؤ .

والحقيقة ان هذه الثنائية في الموضوع ، اي ذلك التضاد او التقابل العكسي بين طرفيه ، لمما يساعد على القاء المزيد من الضوء على الجانب الايجابي منه ، مما تتمثل في النبوة دون التنبؤ . فمن المفهوم اننا لن نعرف معنى الخير اذا غاب عنا معنى الشر ، وبضدها تتميز الاشياء كما يقال ، والفلسفة الثنوية التي تفسر قيام العالم او اسباب الوجود على ذلك التقابل بين الخير والشر او بين النور والظلمة اي بين الفضيلة او الرذيلة ، قديمة قدم الانسانية منذ ايام آدم ابي الخليقة الأول الذي تنسب اليه اول خطيئة عصيان ادت الى خروجه من الجنة ، كذلك نسبت اول جريمة قتل في التاريخ الى ابنه قابيل في حق اخيه هابيل . ومن هنا ظهرت مقولة ان الانسان مخطيء بطبعه وانه في حاجة الى معونة الهية تأخذ بيده وتقيله من عثراته ، اما اسباب الانحراف عن طريق الحق والصواب مما يتمثل في اتباع الاهواء فمرده الى غواية ابليس وتحريض الشياطين .

وهكذا تبدأ قصص الانبياء مع الانسانية وهي في طفولتها الاولى وذلك بغرض **ارشاد بني ادم الى طريق الهداية ممثلا في** : النواميس الالهية التي هي بحكم الضرورة : القوانين الطبيعية .

ونحب ان نسرع بالاشارة الى ان الموضوع صعب من جهة ، وبالغ الحساسية **من جهة اخرى** . **فهو صعب** من حيث انه يتناول اشياء جد مثيرة مما يتعلق بالوحي والرؤى والملائكة والشياطين **والكرامات والمعجزات** ، وهو حساس من حيث انه يتناول اشياء دقيقة جدا مما يتعلق **بشخصيات عالمية كبرى هي موضوع** التبجيل والتعظيم من قبل الجميع .

وبناء على ذلك نشير ابتداء الى اننا سوف نلتزم في عرض الموضوع بالرجوع الى الاصول المتعارف عليها في تراثنا العربي الاسلامي مما يوجد عند اصحاب السيرة النبوية مثل : ابن هشام وبرهان الدين الحلبي (صاحب السيرة الحلبية) او الكتب التاريخية مثل : الطبري واليعقوبي وابن خلدون ، وقبل ذلك ابن الاثير في تاريخه المعروف « بالكامل » ـ وهو الذي يتصف بالكمال حقا . هذا الى جانب النظر في بعض كتب تاريخ الاديان مثل : الملل والنحل للشهرستاني ، وبعض كتب المتفلسفين مثل : رسائل اخوان الصفا .

والمادة الموجودة في تلك الكتب ذات اصول متنوعة من : دينية وقصصية (فلكلورية) وعلمية تاريخية ، والديني منها يتمثل في الآيات القرآنية والاسفار التوراتية والاناجيل المسيحية . والمادة التوراتية والانجيلية ، منها ما دخل في التراث الاسلامي منذ وقت مبكر مما يعرف بالاسرائيليات ، ومنها ما اخذ مباشرة من ينابيعه بعد نشاط حركة الترجمة ، اما القصص الشعبي فمنه ما يتعلق باخبار العرب القديمة وايامها قبل الاسلام ، الى جانب اساطير الفرس وخرافاتهم وحكايات عن الانبياء ظهرت اصلا كنوع من التفسير او التأويل للكتابات المقدسة ، مما عرفه المسلمون بتحريف اهل الكتاب للتوراة والانجيل ـ كما يرى ابن خلدون .

ويترتب على ذلك ان تصبح المادة التاريخية حقيقة قليلة نادرة ، وهي لن تتعدى على كل حال محاولة تحديد الاطار الزمني لبعض الاحداث . وهكذا غلبت القصة او الرواية غير الحقيقية ان لم تقل الاسطورة الشعبية على كثير من اجزاء الموضوع . ولا ضير في ذلك طالما ان الامر يتعلق بقصص الانبياء حيث يمكن ان تختلف الروايات وتتعارض الأخبار وهو ما يأخذ به صاحب السيرة الحلبية عندما يشير الى ما تجمع السير من الصحيح والسقم والضعف . ثم ينص بعد ذلك على ان الذي ذهب اليه كثير من اهل العلم : الترخص في الرقائق وما لا حكم فيه من اخبار المغازي وما يجري مجرى ذلك ، وانه يقبل منها لا يقبل في الحلال والحرام لعدم تعلق الاحكام بها[١] . وهكذا كان ما لا يجوز الاختلاف فيه ـ في نظر اصحاب علم الحديث ، وبالتالي يوجب التنقيب والتدقيق من اجل الوصول الى صحيح الخبر ، هو ما يخص حدود الشريعة ومعرفة الحلال والحرام .

وبناء على ذلك فلن يكون القصد من دراسة الانبياء والمتنبئين هو تحديد الاطار التاريخي للموضوع بقدر ما سيكون محاولة معرفة نظرة الاسلام الكلية الى تسلسل الانبياء والمتنبئين بطريقة تحمل في ثناياها فكرة وحدة العقائد والاديان ، فكأن الاسلام ليس دين التوحيد الالهي فحسب بل هو عقيدة وحدة الاديان على مر العصور ، وهي الفكرة التي تتمثل في اصول الاسلام الابراهيمية وفي ختام النبوة بالرسالة المحمدية .

النبي والرسول والمتنبيء في اللغة :

وكلمة النبي مشتقة من الفعل نبأ او نبأ او أنبأ بمعنى اخبر ، ومنها النبأ بمعنى الخبر فكأن النبي هو المخبر بأوامر الله ونواهيه وعن هذا الطريق اصبحت الانبياء عند المفسرين هي الحجج « لأن الحجج انباء عن الله عز وجل والنبي (النبيء) : المخبر عن الله ، عز وجل لأنه انبأ عنه »[٢] . هذا كما رأى بعض المفسرين ان كلمة النبي يمكن ان تكون مشتقة « من النبوة والنباوة » وهي الارتفاع عن الارض اي انه اشرف على سائر الخلق » ورغم ما هو معروف من ان النبوة هي الرسالة وان نبي الله هو رسول الله فانهم يفرقون بين الرسول وبين النبي ، فيقولون « والرسول اخص من النبي لأن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا »[٣] .

فالرسول لغة تعني الرسالة ، يؤنث ويذكر ، كما تعني المرسل[٤] والرسول هو : الذي يتابع اخبار الذي بعثه اخذا من قولهم جاء الابل رسلا اي متتابعة . وهكذا تكون « محمد رسول الله » في الاذان

(١) انظر مقدمة السيرة الحلبية ، ج ١ ص ٦
(٢) لسان العرب ، نبأ ، ج ١ ص ١٦٢
(٣) لسان العرب ، نبأ ج ١ ص ١٦٣
(٤) لسان العرب ، رسل ج ، ١١ ص ٢٨٣

بمعنى ان محمدا متابع للاخبار عن الله عز وجل . ويصبح المعنى في التنزيل العزيز حكاية عن موسى واخيه « فقولا انا رسول رب العالمين » بمعنى انا رسالة رب العالمين اي اننا ذوا رسالة رب العالمين . وبناء على ذلك تكون تسمية الرسول رسولا لأنه ذو رسول اي ذو رسالة[٥] .

وهكذا تعني الرسالة النهوض ببلاغ معين بينما تعني النبوة الشرف الى جانب الاخبار عن الله عز وجل ، مما يكون بطريق الوحي . وبذلك تكون النبوة اشرف واعم من الرسالة ولذلك قالوا ـ كما سبقت الاشارة ـ ان الرسول اخص من النبي ، لأن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا .

اما عن كلمة المتنبي فهي مأخوذة من الفعل تنبأ كما يقال : تنبأ الرجل اي ادعى النبوة ، ومثلما يقال تنبأ مسيلمة باثبات الهمز الذي يترك في النبي . كما ينص على ذلك سيبويه هذا وان كان سيبويه في موضوع آخر يتكلم عن نبوة مسيلمة التي يصفها بأنها نبوءة سوء ، محقرا شأنها في صيغة التصغير ، وبناء على ذلك امكن ان يقال ايضا تنبا الكذاب (بدون الهمز) اذا ادعى النبوة ، كما تنبا مسيلمة الكذاب وغيره من الدجالين المتنبئين[٦] .

ومع ذلك فرغم محاولة اللغويين جعل النبوة بمعنى الرفعة والشرف فقد ظل اصل اشتقاق النبوة والتنبي واحدا ولا غرابة اذن اذا ما وجدنا عند اصحاب السير نصوصا قديمة تستخدم الفعل تنبأ بالنسبة للنبي (صلعم) بمعنى « مبعثه » وفي ذلك ينسب الى عبد الله بن عمر انه قال « لما كان اليوم الذي تنبأ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منعت الشياطين من خبر السماء ورموا بالشهب »[٧] وهكذا فلا بأس ان تكون التفرقة الصارمة التي نلتزم بها فيما بين النبوة والتنبي وليدة العصور التالية لصدر الاسلام حيث وسم اشهر المتنبئين بالكذب ، كما وصفت تنبيه بأنه نبوة سوء صغيرة الشأن ، فلم يعد من الجائز استخدام النبوة وان وصفت بالسوء بالنسبة للمتنبئين ، كما تزهت شخصية الرسول عن التنبي وان كان مخبرا عن الله عز وجل .

ومما نحب ان نسرع بالاشارة اليه ابتداء ، هو ان شخصية الرسول تطورت نحو السمو والرفعة في اعين المسلمين مع مرور الايام ، حتى اصبحت عند صوفية القرن السابع الهجري شخصية فوق مستوى البشر ، فالنبي الذي كان يناديه بعض اجلاف العرب من المسلمين الاوائل بـ « يا محمد » دونما رعاية او تبجيل ، والذي سمح البعض لانفسهم بدعوته الى التزام العدل والانصاف في معاملته اياه عند قسمة الفيء ، اصبح هو الشخصية المركزية في كل الوجود فنبوته كانت منذ ما و خلق الله الارض

(٥) لسان العرب ، ١١ ص ٢٨٤

(٦) لسان العرب نبأ ، ج ١ ص ١٦٢ ـ ١٦٣

(٧) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢١٠ (عن طرد الشياطين من استراق السمع عند بعثه بكثرة تساقط النجوم) .

واستوى الى السماء فسواهن سبع سماوات وخلق العرش وكتب على سباق العرش : محمد رسول الله خاتم الانبياء »[٨] وعلى نفس النسق يسوق صاحب كتاب شفاء الصدور حديثا قدسيا يقول : انه لولا النبي (صلعم) لما خلق الله سماء ولا ارضا ولا طولا ولا عرضا . وذلك كما قال الشاعر في مدحه (صلعم) :

لـولاه ما كـان لا فُـلْكٌ ولا فَـلَكٌ
كـلا ولا بـان تحـريـم وتحـليـل[٩]

النبوة والعالم في تراثنا العربي الاسلامي :

وهكذا ارتبط تاريخ البشرية بتاريخ الانبياء والرسل ، وبالتالي بسيرة سيد الانبياء وخاتمهم محمد نبي الاسلام والمسلمين ، ونكتفي هنا بالاشارة الى ما ينص عليه اصحاب السيرة من ان آدم كما يكنى بأبي الخليقة ، يكنى ايضا بابي محمد[١٠] واسم محمد موجود في كل شيء في الجنة من القصور الى نحور الحور الى ورق آجام الجنة[١١] . وهكذا تبدأ سلسلة الانبياء بأبي محمد آدم وتنتهي بمحمد ابي القاسم .

اما عن عدد الانبياء فهو كبير قد لا يمكن حصره حسبما تشير الى ذلك اخبار التراث من : الآيات القرآنية والتفاسير والاحاديث النبوية وكتب التاريخ العام مما يبدأ ببدء الخليقة ويحدد عمر العالم وتاريخ الانسانية . ففي الآيات (اشارات عامة الى الانبياء الذين بعثوا الى الامم مثل الآية التي تقول « ينزل الملائكة بالروح من امره على من يشاء من عباده ان انذروا انه لا اله الا انا فاتقون »[١٢] وكذلك « ولقد بعثنا في كل امة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت »[١٣] « وما ارسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم فسئلوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون »[١٤] ثم الآية التي تقول « وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في امها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى الا واهلها ظالمون »[١٥] .

هذا الى جانب الآيات التي تحدد اسماء المعروفين من الانبياء كما في سورة القصص من اخبار موسى (وفرعون) وهرون ، وفي سورة العنكبوت من اخبار : نوح وابراهيم واسحق ويعقوب الى غير ذلك

---

(٨) السيرة الحلبية (عن الوفاء) ج ١ ص ٢٢٠
(٩) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٢١
(١٠) نفس المصدر ج ١ ص ٢٢٠
(١١) نفس المصدر ج ١ ص ٢٢١
(١٢) سورة النحل (١٦) الآية ٢
(١٣) سورة النحل (١٦) الآية ٣٦
(١٤) سورة النحل (١٦) الآية ٤٣
(١٥) سورة القصص (٢٨) الآية ٥٩

من الآيات . وفي اجتهادات العلماء في احصاء عدد الانبياء قيل ان بين موسى وعيسى الف نبي[١٦] بمعنى ان هؤلاء هم انبياء بني اسرائيل وحدهم من دون سائر الامم وذلك على اعتبار ان عيسى هو اخر انبياء بني اسرائيل .

اما عن عمر العالم فاختلف قدامى المؤرخين فيه اختلافا بينا اذ تراوح ما بين ٣٦٠ (ثلاثمائة وستين) الف سنة بعدد درجات الفلك و٧ (سبعة) آلاف سنة بعدد ايام الاسبوع[١٧] .
ورغم ان الرواية الاخيرة هي التي كانت دارجة بين كتاب المسلمين لانها توراتية اصلا ، اي من الاسرائيليات الاسلامية فانها لا تتفق مع تحديد اعمار الانبياء بمئات السنين[١٨] مما نرى اخذه بمفهوم رمزي حتى يمكن التوفيق بين العقل والشرع ، والرمز معروف في امور الدين ، وهو الذي يعبر عن باطنه ومكنون سره والسر والخفاء من مكالب الحياة في كثير من الاحيان ، اذ لو عرفت اسرار الحياة لبطل معناها وهانت على الناس .

ورغم العدد الكبير من الانبياء مما قد يصل الى مائة الف واكثر عند بعض الكتاب[١٩] فان الامر انتهى بتحديد عدد المهمين منهم بما لا يزيد كثيرا على اصابع اليد الواحدة . فالطبقة الاولى من كبار الانبياء تشتمل على ستة فقط هم : آدم ، (ابو الخليقة الاول) ونوح (ابو الخليقة الثانية) وابراهيم (ابو الانبياء) وموسى (اول انبياء بني اسرائيل) وعيسى (آخر انبياء بني اسرائيل) ثم محمد (خاتم النبيين) ويتلو تلك الطبقة الاولى من الانبياء طبقة ثانية يمكن ان تحدد في : داود ويعقوب ويوسف ثم ايوب[٢٠] هذا ، ويضاف الى هؤلاء طبقة ثالثة تحدد في نبيين اثنين فقط هما : هود (نبي عاد) ثم صالح (نبي ثمود)[٢١] .

وهنا لا بأس من الاشارة الى ان مجموعات الانبياء ترجع في معظمها من الناحية العرقية الى بني اسرائيل ، فلا يشاركهم في هذا الامر من الامم سوى السريانيين الذين هم اربعة انبياء فقط او خمسة (كما يروي عن النبي) وهم : آدم ، وشيث ، ونوح ، اخنوخ (او ادريس) وابراهيم[٢٢] ثم العرب ومنهم : هود ، وصالح ، واسماعيل (وشعيب) ثم محمد خاتم النبيين[٢٣] ولقد كانت نبوة هود في

(١٦) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٤
(١٧) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٣ ومن خلق العالم في ٧ (سبعة) ايام حسب اسفار التوراة . انظر المعارف لابن قتيبة ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ط ٢ ص ٦ ـ ٧
(١٨) وفي التحديد التوراتي لعمر العالم انظر ابن العبري تاريخ مختصر الدول ص ٦٧ ـ ٦٨ (حيث يشير الى اختلاف احبار اليهود في تحديد عمر العالم عند ظهور السيد المسيح لا معا يحكيهم قال ، أن تبدلوا أعمار الأمور التي منها يوصف على تاريخ العالم فنقصوا من عمر آدم الى ان ولد شيث مائة سنة وزادوها في عمره . . .
(١٩) انظر المعارف لابن قتيبة ص ٢٦ حيث يذكر عن وهب بن منبه عن ابن عباس ان عدد الانبياء كان ١٢٤ الفا (مائة الف واربعة وعشرين الفا) وانظر البغدادي ، الفرق بين الفرق ص ٣٤٢ (حيث : ان الانبياء كثير والرسل منهم ٣١٣ رسولا)
(٢٠) انظر هنري ماسيه ، الاسلام ، ترجمة بهيج شعبان ، مجموعة زدني علما ، منشورات عويدات بيروت باريس ص ١٤٣
(٢١) ابن الاثير ، الكامل ج ١ ص ٨٨ ، ٨٩
(٢٢) ابن الاثير الكامل ج ١ ص ٦٠ المعارف لابن قتيبة ص ٢٦
(٢٣) العقد الفريد ، ج ٣ ص ٤٠٤ المعارف لابن قتيبة ص ٢٩

عاد ، وصالح في ثمود موضوع جدل بين الرسول وبين اليهود الذين قالوا : انه لا ذكر لهما ولا لقوميهما في التوراة ، وكان رد النبي على ذلك ويعلق ابن الاثير امرهم عند العرب في الجاهلية والاسلام كشهرة ابراهيم الخليل عليه السلام ويعلق ابن الاثير على ذلك قائلا : وليس انكارهم ذلك باعجب من انكارهم نبوة ابراهيم الخليل ورسالته ، وكذلك انكارهم المسيح عليه السلام[٢٤] ومن بين العرب توجد شخصية اختلفت الاخبار في شأن نبوتها من حيث التحديد الزمني الذي تراوح ما بين عصر ملك الطوائف من الفرس فيما بين فتح الاسكندر لايران وقيام الدولة الساسانية وبين الفترة السابقة على العصر النبوي مباشرة ، ذلك هو خالد ابن سنان العبسي الذي قيل انه كان نبيا وكان من معجزاته ان نارا ظهرت بأرض العرب فافتتنوا بها فكادوا يتمجسون فأخذ خالد عصاه ودخلها حتى توسطها ففرقها وهو يقول في كلام مسجوع بدا بدا كل هدى مؤدى لأدخلنها وهي تلظى ، ولأخرجن منها وثيابي تندى »[٢٥] وبذلك يحقق خالد بن سنان معجزة اشبه بمعجزة ابراهيم الخليل اذ أطفئت النار وهو في وسطها . وفي خالد قيل ان النبي (صلعم) قال « ذلك نبي ضيعه قومه » كما تضيف الرواية الى ذلك ان ابنة خالد بن سنان اتت النبي (صلعم) فآمنت به »[٢٦] وواضح من تلك الرواية انها تعبر عن كراهية العرب للمجوسية ونيران الفرس مما يمكن اعتباره نوعا من الروح القومية ضد شعوبية الفرس هذا ، ولا بأس ان يكون خالد بن سنان هذا من كهان العرب ان لم يكن من متنبئيهم قبيل العصر النبوي ، وذلك ان الرواية القصصية تضيف الى ما سبق انه عندما حضرته الوفاة طلب من اهله ان ينبشوا قبره ، اذا ما ضرب القبر بعير أبتر بحافره ، حتى يخبرهم بما هو كائن . ولكن قومه لم يفعلوا ذلك خشية ان تسبهم العرب[٢٧] .

وهكذا تقتصر قوائم الانبياء في التراث العربي الاسلامي على انبياء بني اسرائيل ، الى جانب من ذكرناهم من السريانيين والعرب ، اما عن انبياء الفرس فهم موضع شك ، بينما انبياء الروم او اليونانيين فهم حكماء اولا وقبل كل شيء .

أنبياء الفرس وحكماء الروم :

وآدم ابو البشر ، الذي اشتق اسمه من اديم الارض لأن الله خلقه منه ، وهو اول الانبياء . ودينه

(٢٤) ابن الاثير الكامل ج ١٠ ص ٩٣ وقارن ابن خلدون ج ٢ ص ٢١ حيث يفسر عدم ذكر عاد وثمود في التوراة بأن سياق الاخبار في التوراة عن اولئك الامم انما هو لمن كان في عمود النسب ما بين موسى وآدم وانظر الشهرستاني الملل والنحل ، ج ١ ص ٢١١ حيث الاشارة الى ان اليهود اعتقدوا في الملك في بني ابراهيم (اسماعيل وليس النبوة) ص ٢٢٩ (حيث ان صحف ابراهيم كانت شبهها كتاب)

(٢٥) ابن الاثير الكامل ص ٣٧

(٢٦) ابن الاثير ، الكامل ج ١ ص ٣٧٦ وقارن المعارف قتيبة ص ٢٩ السيرة الحلبية ١٠ ص ٢١ حيث الاشارة الى نبي آخر بعد خالد هو : حنظلة بن صفوان (عم) الذي ارسله الله لاصحاب الرس (البئر) بعد خالد بمائة سنة وتلقى يعزو انه لم يبعث بشر بما مستقلة وفي حنظلة قال ابن كثير انه كان قبل موسى كما اشار الى العثور على قبره قرب مدينة تستر عند الفتح)

(٢٧) نفس المصدر السابق .

هو الاسلام ، ويقابله عند الفرس كيومرث[٢٨] . اما اول بني ادم فقد اعطى النبوة ـ اثر تحول تقريب القرابين لله الى عبادة النار على يدي قابيل ، ثم الانحراف الى عبادة الاصنام ـ فهو اخنوخ بن يارد الذي يظن انه ادريس النبي ، والذي قابله عند اليونانيين هرمس الحكيم (رسول الآلهة) . فالى جانب النبوة التي اعطى اخنوخ اياها ، كان اول من خط بالقلم ، وسجل ثلاثين صحيفة انزلت عليه ، كما كان اول من نظر في علوم النجوم والحساب[٢٩] .

وواضح من قصة ادريس ان سبب ما عم في الارض من فساد هو خطيئة قابيل بقتل اخيه هابيل ، وهي الخطيئة التي كان على ولد قابيل ان يتحملوها . فادريس اول من جاهد في سبيل الله ، واول من سبى من ولد قابيل . وهو عندما دعا قومه الى طاعة الله ومعصية الشيطان طلب اليهم ايضا الا يلابسوا ولد قابيل فلم يقبلوا منه[٣٠] .

اما هرمس (الذي يقابل النبي ادريس) عند اليونانيين ، فهو واحد من « حكماء » ثلاثة ، هم : اوراني ، وعاديمون ، وهرمس . واليونانيون المقصودون هنا هم الذين يقرون ويعترفون بخالق ، وهم الذين كانوا يسمون بالحنفاء ، رغم انهم على دين الصابئة ، كما يقول اليعقوبي في تاريخه . والمهم ان « الحكماء » الثلاثة اعتبروا من الانبياء ، وكان هرمس (وهو إله في الأدب اليوناني) مكانة خاصة ، اذ عرف بأنه « المثلث بالنعمة » ، كما عرف في التراث الاسلامي بأنه النبي ادريس .

ومقالة هرمس في الخالق ، عز وجل ، انه : « اما ان يعقل الله ، فعسر ، وان ينطق به فلا يمكن ، وان الله علة العلل ، المكون للعالم جملة واحدة »[٣١] .

ومعاصر ادريس النبي عند الفرس هو بيوراسب الذي ظهر على عهد الملك طهمورث ابن يونجهان بمعنى خير اهل الارض . وواضح من الرواية الاسطورة انه كان ثمة علاقة بين بيوراسب وطهمورث ، اشبه بعلاقة الانبياء والملوك عند بني اسرائيل ، بمعنى ان النبي هو المرشد او الناصح للملك . فبيوراسب هو الذي دعا الى ملة الصابئين ، فكأنه نبيهم[٣٢] .

---

(٢٨) ابن الأثير الكامل ج ١ ص ٣٧ (عن ادم) ص ١٨ (عن جيومرث والانحراف عن دين الاسلام) وقارن ابن خلدون ، العبر ، ج ٢ ص ٥ وانظر البغدادي الفرق بين الفرق ص ٣٤٩ (حيث كيومرث ابو البشر يلقب بكلشاه)

(٢٩) ابن الأثير الكامل ج ١ ص ٥٩ (حيث الاسم خنوخ) وقارن المعارف لابن قتيبة ص ١٠ وابن خلدون ج ٢ ص ٥

(٣٠) ابن الأثير الكامل ج ١ ص ٥٩

(٣١) تاريخ اليعقوبي ١ ص ١٤٧–١٤٨ وقارن رسائل اخوان الصفاء ج ٤ ص ١٩ (حيث الاشارة الى دخول هيكل عاد بن قد الاغلاق التي يمكنها الاطلاع الى جانب الخروج من ظلمة البرزخ والدخول الى اشراق الانوار المزنوة ، الى الخير والخير) وانظر مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٣٢٨ ، حيث كتب احكام النجوم التي يرجع فيها بطليموس الى قدماء الانبياء مثل دانيال وادريس) وانظر الشهرستاني الذي يعد هرمس من كبار الانبياء (الملل ص ٤٨ ، حيث هاذيمون هو شيث) وانظر بحث سيد حسين نصر عن « هرمس والاثار الهرمسية في العالم الاسلامي وذلك في دراسات اسلامية ، ط . بيروت الدار المتحدة للنشر ١٩٧٥ الفصل السادس ص ٦٣–٨٠

(٣٢) ابن الأثير الكامل ج ١ ص ٦١ .

واذا كان من المعروف ان الصابئة هم عباد الكواكب والنجوم ، فان وراء هذا الظاهر فلسفة باطنة عميقة ، تماما كما هو الحال بالنسبة لعبادة الاوثان . « فأصل مذهب الصابئين هو عبادة الروحانيين ، وهم الملائكة ، لتقربهم الى الله زلفى ، فانهم اعترفوا بصانع العالم ، وانه حكيم قادر مقدس ، الا انهم قالوا : الواجب علينا معرفة العجز عن الوصول الى معرفة جلاله ، وانما نتقرب اليه بالوسائط المقربة لديه ، وهم الروحانيون . وحيث لم يعاينوا الروحانيين تقربوا اليهم بالهياكل ، وهي الكواكب السبعة السيارة . ولما كانت (الكواكب) تغيب نهارا ذهبت طائفة (من الصابئين) الى وضع الاصنام لتكون نصب اعينهم ليتوسلوا بها الى الهياكل ، والهياكل الى الروحانيين ، والروحانيون الى صانع العالم . فهذا كان اصل وضع الاصنام اولا »[٣٣] .

وهذا ما يقول به اخوان الصفا بمناسبة عبادة الاصنام[٣٤] ، وحيث يضيفون : ان ذلك « شبيه بما تفعله النصارى من اتخاذ تماثيل اشباه للسيد المسيح والسيدة مريم العذراء . هذا ، كما يفعل كثير من الناس ممن يتقربون الى الله بأنبيائه ورسله ، وبأئمتهم وأوصيائهم ، وبأولياء الله وعباده الصالحين . . . » .

وتنسب الرواية الى « نبي الصابئة » بيوراسب انه كان يستخدم السحر بفضل ما كان قد وقع عليه من كلام آدم . والظاهر ان الملك طهمورث استفاد من ذلك السحر ، حتى انه كان يستطيع ان يركب ابليس ، فيطوف عليه ادانى الارض واقاصيها[٣٥] . هذا ، كما ينسب الى اخي طهمورث ، وهو الملك جمشيد بمعنى شعاع القمر الذي لقبوه به لجماله ، انه كان يستعبد الانس والجن ويذل الشياطين ويسخرهم في اعمال البناء والتشييد[٣٦] . فهو من هذا الوجه قرين سليمان . والمهم من كل ذلك انه عن طريق مذهب الصابئة ظهرت عبادة الاصنام في عهد الملك طهمورث ، وكذلك الصوم كان اول ما عرف في ملكه . وذلك لأسباب اقتصادية ، قبل ان يعتقدوه تقربا الى الله ، وتأتي به الشرائع[٣٧] .

وبسبب الكفر وعبادة الاوثان ظهرت الحاجة الى نبي جديد ، فكان ظهور نوح ، الذي يقابله عند الفرس افريدون الملك[٣٨] . ونوح أول نبي بعث بالانذار والدعاء الى التوحيد[٣٩] . وازاء فشل نوح

(٣٣) ابن الأثير الكامل ج١ ص٦٧

(٣٤) انظر اخوان الصفا ، ج ٣ ص ١٨٢ - ١٨٣ (حيث القول في عبادة الاصنام : انه بدأت قديما عبادة الكواكب ثم الملائكة من اجل التوسل بهم الى الله تعالى وذلك ان الحكماء الاولين لما عرفوا بذكائهم وصفاء نفوسهم ان للعالم صانعا حكيما تقربوا له بالروحانية ، ووصفوه بالربوبية ولما علموا ان له ملائكة هم صفوته من خلقه .. ظنوا عند ذلك ان الله القربة وتوسلوا اليه بهم وطلبوا الزلفى لديه بالتعظيم لهم كما يفعل ابناء الدنيا ويطلبون القربة الى ملوكهم بالتوسل اليهم بأقرب المختصين بهم وبعد الحكماء والربانيين ، جاء قوم اتخذوا اصناماً على مثل صورهم

(٣٥) ابن الاثير ج ١ ص ٦١

(٣٦) نفس المصدر ج ١ ص ٦٤ - ٦٥

(٣٧) نفس المصدر ج ١ ص ٦١

(٣٨) ابن خلدون ، العبر ، ج ٢ ص٦

(٣٩) (عن ابن عباس) انظر ابن الاثير ج ١ ص ٦٣

(عم) في تحذير قومه من عذاب الله ودعوتهم كي يرجعوا الى الحق ، والعمل بما امر الله تعالى ، كان على الانسانية الخاطئة ان تنتهي ، فلا يبقى منها الا اهل التوبة والتوحيد . هكذا كان الطوفان فاصلا بين بني آدم (أبي البشرية الأول) وبني نوح (ابي الخليقة الثاني) . والى ابناء نوح الثلاثةوهم : سام وحام ويافث ، الذين نجوا معه في السفينة[٤٠] ، ما زال علماء النسب يقسمون البشر ، الى : ساميين وحاميين ويافثيين (اي هند واوروبيين) ـ وكأنه لم ينج من الطوفان الا اسرة نوح الصغيرة . وبناء على ذلك تبدأ بعد الطوفان دورة جديدة للانسانية ، كأنها بداية للعصور التاريخية .

ولقد نظر الفرس والهند الى حادثة الفيضان الكبير على انها كارثة طبيعية محلية ، ربما حلت بأرض بابل فقط ، والا فلو كانت عامة شاملة لكافة الارض المعمورة لعرف بها اهل بلادهم ، ولسجلها مؤرخوهم[٤١] .

الدورة الثانية في تاريخ النبوة :

ومع دورة الانسانية الثانية يبدأ تاريخ دورة نبوية جديدة . ونوح هو حلقة الربط بين الدورتين ، يتلوه نبيا العرب الشهيران : هود في قبائل عاد ، ثم صالح في قبائل ثمود . وقصة كل منهما تعبر عن طبيعة الحياة العربية على مستوياتها الاجتماعية والاقتصادية والدينية ، كما انها تربط بين معتقدات العرب المحلية في صحراواتهم وبواديهم ، وبين تبجيلهم للحرم المكي الذي يمثل عامل الربط والتوحيد بين كل ديانات العرب قديما . وهي في النهاية تجعل من الكوارث الطبيعية عقابا حتميا من الله ينزله بالعصاة والفجار من الكافرين .

فسبب هلاك قبائل عاد (في اليمن وحضرموت) ، وزوال ملكهم و عتوهم في الارض ، كما تقول الآية : « واما عاد فاستكبروا في الارض بغير الحق ، وقالوا : من اشد منا قوة ؟ » الى جانب عدم انصياعهم لنبيهم هود ، واستمرارهم في عبادة اصنامهم ، ومنها : صداء ، ونعاء ، وصمود . وازاء اصرارهم على رفض دعوة هود ، بدأ العذاب ينزل عليهم بالقحط الذي توالى ثلاث سنين ، سموا السنة الاولى منها حجرة ، والثانية كحلا ، والثالثة كلحا[٤٢] .

وعندما ذهب وفد عاد الى البلد الحرام مكة يستسقون ويطلبون من الله الفرج ، نسيت الجماعة ما جاءت من اجله ، في غمرة كرم الضيافة ، فانصرفوا الى المآكل وشرب الخمر وسماع القيان . وهكذا

---

(٤٠) نفس المصدر ج ١ ص ١٩

(٤١) تاريخ الطبري ج ١ ص ١٩٢ ابن الاثير ج ١ ص ٧٣ وللمؤلف ، في تاريخ العرب قبل الاسلام ص ٣٨

(٤٢) عبيد بن شرية كتاب الملوك واخبار الماضين ص ٣٢٥ ـ ٣٣١ وانظر المعارف لابن قتيبة ص ١٤

حق على القوم العذاب ـ الا من آمن منهم ـ فأتتهم الريح الصرصر العاتية ، كأمثال الجبال لها لجم بأيدي رجال ، كان في وجوههم شهب النار ، كما وصفتها « مهد » نائحة عاد ، التي صارت اول نائحة على الارض بذلك الوصف العجيب ولقد عبر الشاعر عن ذلك فقال :

رأت مـا رأت « مهـد » فقيـل لهـا	مـاذا ترين فقالت : انـظر العجبا
أرى رياحـا كـأمثـال الجبـال لهـا	لجم بـأيـدي رجـال تشبـه الشهبا

وهكذا عصفت جبال الريح بجبابرة عاد فأهلكتهم طوال « سبع ليال ، وثمانية ايام حسوما » وتركتهم « كأنهم أعجاز نخل خاوية » ، كما تقول الآية الكريمة[٤٣] .

وتتميز نبوة صالح في ثمود (في شمال الحجاز) بمعجزة الناقة . ففي بعض الاعياد طلب الثموديون من صالح النبي ان يصنع لهم آية يعتبرون بها بأن يخرج لهم من بعض الصخور « ناقة حمراء شعراء وبراء مهرجة . لها ضجيج وعجيج ورغاء شديد ، تفور لبنا سائغا »[٤٤] وهو الامر الطبيعي بالنسبة لمجتمع بدوي يعيش على نتاج الابل . وتتضح اهمية قصة الناقة بالنسبة الى تنظيم ذلك المجتمع البدوي ، من حيث قسمة الماء بين الدواب على ايام الاسبوع وكيف كان للابل طريق لورود الماء وطريق آخر تصدر منه بعد ان تمتلىء ، ثم صعودها على ظهر الوادي للرعي صيفا ، وهبوطها الى بطن الوادي شتاء . ومن كل ذلك يظهر كيف كان يمكن ان تصطدم مصالح الجماعات المختلفة .

وبسبب تضارب المصالح هذا انتهى الامر بعقر ناقة صالح ورمي صغيرها واقتسام لحمها . وكان من الطبيعي ان يدعو صالح عليهم ولا يستجيب الله لدعائه ، ونزل العذاب بثمود خلال اربعة ايام وهو يختلف عن عذاب عاد من حيث امكانية ان يكون نوعا من الوباء . ففي اليوم الاول اصفرت وجوههم ، ثم انها احمرت في اليوم الثاني قبل ان تسود في اليوم الثالث ، واخيرا اتتهم الصعقة في اليوم الرابع فقضت عليهم[٤٥] .

اما عن صالح النبي فانه سار الى الشام فنزل فلسطين قبل ان ينتقل الى مكة حيث اقام يعبد الله حتى مات ، وهو ابن ٥٨ (ثمان وخمسين) سنة بعد دعوة استمرت في قومه مدة عشرين سنة[٤٦] وهي مدة قريبة من المدة التي قضاها محمد (صلعم) في الدعوة منذ مبعثه الى وفاته .

---

(٤٣) سورة الحاقة الآية ٧ وانظر عبيد بن شرية ص ٣٣٧ ـ ٣٤٥ وكتابنا الآنف الذكر ص ١١ .
(٤٤) عبيد بن شرية ص ٣٧٦
(٤٥) عبيد بن شرية ص ٣٥٧ وانظر المعارف لابن قتيبة ص ١٤ وكتابنا في تاريخ العرب قبل الاسلام ص ١١٤ ـ ١١٧
(٤٦) انظر ابن الأثير الكامل ج ١ ص ٩٣

وبذلك ارتبطت دعوة هود وصالح بالعروبية من جهة وبتقديس مكة من جهة اخرى ، وذلك قبل ان يأتي ابراهيم الخليل (ابو الانبياء) ـ حوالي سنة (٢٠٠٠ق . م) ليقيم قواعد البيت ويدعو الناس الى الحج ، فيتم الربط بين الابراهيمية الحنيفية وبين المحمدية الاسلامية ـ وهي بعد فكرة في ضمير القدرة .

ما بين الابراهيمية والمحمدية :

وتتوثق الصلة بين الاسلام وبين الابراهيمية عن طريق اسماعيل ابي العرب المستعربة او المتعربة ، كما سيصبح ابراهيم ابا للعرب الباقية من العاربة ايضا عن طريق زوجة اسماعيل الجرهمية ، وعن طريق هاجرأم اسماعيل يصبح المصريون اخوالا للعرب . والمهم ان اسماعيل يصبح ثالث انبياء العرب ، وتتأكد في التراث الاسلامي القرابة القرية بين الابراهيمية والمحمدية من حيث اعتبارهما دعوة واحدة ، وهو الامر الذي تنص عليه الآيات القرآنية ـ فابراهيم الخليل وهو يدعو الناس الى الايمان بالله ونبذ عبادة الاصنام كان يدعو النبي صاحب رسالة التوحيد ، تماما كما بشر المسيح عيسى بن مريم به(٤٧) مما يعني ايضا استمرار الديانة الابراهيمية المحمدية عبر العيسوية الوسيطة .

وهنا قد يتطلب الامر نظرة عابرة في طبيعة كل من الدعوة الابراهيمية والدعوة المحمدية ، فمن حيث اوجه الشبه قامت كل منها ضد عبادة الاصنام التي كان يصنعها آزر والد ابراهيم ، بينما كان يقوم بالاشراف عليها في الحرم المكي القرشيون من اقارب النبي . واذا كان ابراهيم قد كسر الاصنام يوم المهرجان خفية عن الناس وفي غيبة ابيه فان الرسول كان يكفيه ان يشير اليها يوم فتح مكة بعصا في يده لكي تسقط وتتحطم(٤٨) اما الرباط الذي لا ينفصم بين الديانتين فهو فريضة الحج التي اوصى بها ابراهيم عن طريق كبير الملائكة جبرائيل(٤٩) وتطلبت مناسك الحج ان يمتحن ابراهيم بعشر خصال ـ هي المعمول بها في الاسلام ـ لتطهير البدن ، خمسة منها في الرأس وخمسة في الجسد ، والخمسة التي في الرأس هي : قص الشارب والمضمضة والاستنشاق وفرق الشعر . والخمسة التي في الجسد هي : تقليم الاظافر وحلق العانة والختان ونتف الابط وغسل اثر الغائط(٥٠) .

(٤٧) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٨١

(٤٨) ابن الاثير ج ٢ ص ٢٥٢ وان هناك رواية اخرى تنص على ان الاصنام اخذت وكسرت !

(٤٩) ابن الاثير ج ١ ص ١٠٧

(٥٠) ابن الاثير الكامل ج ١ ص ١١٣ - ١١٤ (ويضيف ابن الاثير هنا الى ما يقال من ان هذه الكلمات التي ابتلى الله بها ابراهيم هي مناسك الحج ما يذكر ايضا من انها كانت ست خصال وهي الكواكب ، والقمر والشمس والنار والهجرة والختان وقارن المعارف لابن قتيبة ص ١٥

أما عما انزل على ابراهيم من الاوامر الالهية فتمثلت في عشر صحائف كانت امثالا كلها ومنها :
ايها الملك المسلط المبتلي المغرور . اني لم ابعثك لتجمع الدنيا بعضها الى بعض ، ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فاني لا اردها ولو كانت من الكافر .

ـ على العاقل ان لا يكون طاعنا الا في ثلاث : تزود لمعاده ، قرمة لمعاشه ، ولذة في غير محرم .
ـ من حسب كلامه من عمله قلّ (كلامه) الا فيما يعنيه .

هذا على المستوى الديني اما على المستوى الشخصي فعبد المطلب جد النبي يقف على قدم المساواة مع ابراهيم الخليل من حيث نذر ابنه عبد الله والد النبي للآلهة ، وعن هذا الطريق سمي الرسول بأبي الذبيحين : عبد الله واسماعيل(٥١) ـ ولا بأس من الاشارة الى اختلاف الكتاب في الذبيح الاول الذي ربما كان اسحق بن ابراهيم الاصغر وليس اسماعيل(٥٢) اما عن اوجه الاختلاف الاساسية فتوجد على المستوى الشخصي من حيث ان نبوة ابراهيم قامت الى جانب الوحي والرؤيا الصادقة على المعجزة الخارقة المتمثلة في توقف النار عن ايذاء ابراهيم ، فالملك النمرود عندما علم باستهزاء ابراهيم بآلهتهم وتكسيره اياها بفأسه ، امر بجمع الحطب لحرق ابراهيم ، وعندما اشعلت النار وقذفوه فيها صارت بردا وسلاما عليه . اما كيف حدث ذلك فقد ظنت كل نار في الارض انما هي التي سيمتحن بها ابراهيم فاطفئت . ومن الواضح ان اطفاء النار هذا كان من حيث طبيعتها الخارقة فقط وليس من حيث توقدها واحمرار جمرها وتوهج السنة فيها ، فذلك ما يفهم من بقية الرواية التي تقول ان الله بعث ملك الظل في صورة ابراهيم ـ اي في صورة قرينه او مثله ـ فقعد في النار الى جنبه يؤنسه(٥٣) .

ولا بأس من الاشارة هنا الى ان فعالية النار هنا اختلفت اساسيا عن فعاليتها في قربان هابيل وقابيل ، فبينما هي في القربان محرقة تلتهم ما يقدمه المرضى عنه كانت هنا باردة ناعمة بالنسبة لابراهيم وهذا ما يذكر بقصص نيران الفرس التي كان يلعب بها انبياؤهم مثل زرادشت دون ان تؤذيه او تؤذي من يتناولها منه كما تأتي الاشارة .

ويعتبر ابراهيم الخليل في نظر الكتاب وكأنه ابو تلك الدورة الثانية من الانبياء مثلما كان نوح ابا الخليقة الثاني بل ان ابن خلدون يجعله ابا ثالثا للانسانية بعد آدم ونوح (٥٤) ـ ولا بأس ان تكون تلك الفكرة قد ترتبت على اعتبار النسابة ان ابراهيم هو ابو العرب جميعا . ويظهر ذلك اصلا في قصة تبلبل

---

(٥١) ابن الاثير الكامل ج ١ ص ٥-١٠ السيرة الحلبية ١٠ ص ٤٢
(٥٢) انظر تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٢٧ وقارن ابن العبري تاريخ مختصر الدول ص ١٤ (حيث الذبيح اسحق وعمره ١٩ سنة) .
(٥٣) ابن الاثير الكامل ج ١ ص ٩٦ - ٩٩
(٥٤) العبر ، ج ٢ ص ٣٤ ، وانظر ايضا ص ٣٦ (حيث النص على ان الله جعل في ذريته النبوة والكتاب الى آخر الدهر)

الألسن واختلاطها بكل من قصة نوح وابراهيم . فبينما ينسب ذلك الى عهد نوح حيث وقع تبلبل الألسن ، في موضع بابل حتى نسب اليها ، تشير الرواية هنا الى ان البلبلة كانت نتيجة الفزع الذي اصاب الناس عندما اخذ الله قواعد الصرح والبنيان الذي كان اقامه النمرود ليصعد عليه في السماء فسقط وتكلم الناس بثلاث وسبعين لساناً[٥٥] .

والمهم ان ابراهيم اصبح ابا الانبياء ، اذ ان بعده سلسلة منهم من ذرية ابنه اسحق وبناء على ذلك فعندما تأتي قصة شعيب النبي الذي ارسل الى اهل مدين ، ينص الكتاب على ما قيل من انه لم يكن من ولد ابراهيم[٥٦] ومن هؤلاء الانبياء من كان يجمع بين الملك والنبوة او بين الحكم بمعنى القضاء والنبوة مثل : داود بن سليمان . ومنهم من تعرض لتجارب قاسية مثل : أيوب ويوسف .

وهنا لا بأس من الاشارة الى انه اذا كانت المعجزة المحمدية لا تتمثل الا في الوحي ـ اي في نزول القرآن ـ فان الروايات الشعبية الاسلامية لن ترضى لخاتم الانبياء الا بان تكون له معجزات غيره من الانبياء ـ وهو ما نشير اليه في مواضعه ـ انشاء الله .

يوسف والاسلام :

وفي تجارب الأنبياء يعتبر ايوب الذي امتحن بالفقر والمرض رمزاً للفضيلة والصبر . اما يوسف فالى جانب تجسيده لفضائل الحسن والجمال فانه يعتبر رمزاً للعلم والحكمة . وقصة افتتان النساء به ، وهي القصة التي رفضها (المتشددون من الخوارج على زعم انها لاترقى الى جدية المستوى المطلوب من القرآن[٥٧] ستخلقها الصوفية فيما بعد نموذجاً لذلك النوع من الحب الألهي الذي يوحد بين العبد المحب والرب المحبوب الى درجة لايفرق المحب فيها بين الالم واللذه ، حيث تصبح المحنة والسرور شيئا واحدا[٥٨] وذلك قبل ان تصبح من القصص المحببة الى قلوب العديد من شعراء الفرس والاتراك الذين اثروها بالكثير من التفاصيل[٥٩] وهنا لابأس من الاشارة الى ان قصة افتتان امرأة العزيز بيوسف يوجد لها نظير في الادب الفارسي القديم ، وهي قصة امرأة الملك كيكاوس التي هوت ابنه سياوخش وحاولت اغواءه فدعته الى نفسها لكن الشاب الورع امتنع عن ذلك[٦٠] وان كانت نهاية تلك القصة تختلف من حيث ذهاب سياوخش الى الحرب بدلا من ذهاب يوسف الى السجن .

---

(٥٥) انظر عبيد بن شرية ، ٣١٨
(٥٦) ابن الأثير ج ١ ص ١٥٧
(٥٧) انظر هـ . ماسيه الاسلام الترجمة العربية ص ١٨٩
(٥٨) انظر نكلسن في تاريخ التصوف الاسلامي الترجمة العربية لعفيفي نشر القاهرة ١٩٧٢ ص ٤٩
(٥٩) هـ . ماسيه الاسلام الترجمة ١٨٩
(٦٠) انظر سياست نامه لنظام الملك الفصل ١٣ (من نساء القصر اللاتي يمشين وراء الأستار) ابن الأثير الكامل ج ١ ص ٤٨

اما عن ابتلاء يعقوب (الذي هو اسرائيل) في ابنه يوسف ثم بنيامين فبسبب انه « كان له بقرة لها عجول فذبح عجولها بين يديها وهي تخور فلم يرحمها ، فابتلي بفقد اعز ولده عنده[٦١] .

والمهم بعد كل ذلك هو ان يوسف كان على دين الاسلام [٦٢] اي دين ابراهيم الحنيف . ولقد ظل بنو اسرائيل تحت يد الفراعنة بعد يوسف وهم على بقايا من دينهم مما كان يوسف ويعقوب واسحق وابراهيم شرعوا فيهم من الاسلام الى ان ظهر موسى واعطى الرسالة[٦٣] .

موسى والتوراة (حوالي ١٣٠٠ق . م) نبي عملاق يجعل من اليهودية اول ديانة سماوية :

والحقيقة ان شخصية النبي موسى تعتبر الشخصية المركزية بالنسبة لكل انبياء بني اسرائيل ، وهو من هذا الوجه يتميز بانه واضع الشريعة الاسرائيلية ، وكل من اتى بعده من انبياء بني اسرائيل كانوا يهدفون الى تقويم تلك الشريعة مما يعرض لها من الانحراف ، وهي العملية التي يعرفها ابن الاثير بتجديد التوراة بمعنى احيائها[٦٤] وهي العملية التي جعلت من اليهودية الديانة السماوية الاولى والوحيدة طوال ما يزيد كثيرا عن الف عام .

وهكذا يظهر موسى في صورة خارقة ترفعه فوق مستوى المألوف من الناس والانبياء : والاسم « موسى » هو اسم مصري قديم يعني عند المختصين « المولود » ولكنه يعني في روايتنا التراثية : ماء (مو) وشجرا (سا) نسبة الى المكان من النيل الذي عثر عليه فيه وهو طفل رضيع[٦٥] وموسى الشاب يتمتع بقوة عضلية تمكنه من قتل الرجل من خصومه بوكزة واحدة . وهو يستطيع ان يرفع الصخرة العظيمة عن فوهة البئر ليسقي غنم ابنتي شعيب النبي ، مما اثار اعجاب الفتاتين مع تقديرهما لمروءته . اما عصاه الشهيرة فقد اعطاه شعيب اياها لما وجده يستطيع حملها وكان شعيب لا يستطيع ذلك[٦٦] .

اما موسى النبي فمن الغريب ان يكون فظا غليظ القلب في بعض الاحيان . فهو يدعو على ابن عمه قارون ، وينتهز فرصة ما يوحي الله به اليه من انه لا يستطيع ان يأمر الارض بما يشاء فيقول : يا ارض خذيهم ، وعندما تخسف الارض بقارون واصحابه يرفض موسى الاستماع الى استرحام قارون حتى

---

(٦١) ابن الاثير ج ١ ص ١٠٢ (حيث يوجد رواية اخرى [illegible])
(٦٢) ابن الاثير الكامل ج ١ ص ١٥٥ .
(٦٣) نفس المصدر ج ١ ص ١٧١
(٦٤) نفس المصدر ج ١ ص ٢١٠ .
(٦٥) ابن الاثير الكامل ج ١ ص ٩٣ .
(٦٦) نفس المصدر ج ١ ص ١٧٢

يقول الله له : ما اقطك ، اما وعزتي لو إياي نادى لاجبته ، ولا اعيد الارض تطيع احدا ابدا بعدك[٦٧] .

واكثر من هذا فان موسى النبي يظهر عصبيا حاد المزاج حتى وهو في اخريات ساعاته اذ لا يتورع عن مقاومة ملك الموت حين اتى ليقبض روحه بل ويضربه حتى يفقأ عينه[٦٨] ورغم ذلك فموسى من حيث المروءة على خلق عظيم . فهو عندما يلبي دعوة شعيب يطلب من الصبية التي دعته ، وكانت تسير قدامه ان تسير خلفه وتدله على الطريق ويقول لها : « فأنا اهل بيت لا ننظر في اعقاب النساء[٦٩] » وعندما احضر شعيب العشاء امتنع موسى من الاكل وقال له : « انا من اهل بيت لا نأخذ على اليسير من عمل الآخرة الدنيا بأسرها » . وهو لا يأكل الا بعد ان يعرف ان قرى الضيف كان من عادات شعيب وآله من قبل[٧٠] .

اما عن نبوته فتتميز بالتقريب القريب الذي حباه الله به ، والذي يتمثل في توجيه الكلام اليه مباشرة فضلا عن وساطة الملائكة . وهكذا عندما لم يقدح زنده موسى رأى ناراً من نور الله ممتدة من السماء الى شجرة عظيمة من العوسج . وعندما اقترب من الشجرة الخضراء المتوهجة باللهب استأخرت عنه ففزع ورجع . وهنا نودي : ان بورك من في النار ومن حولها يا موسى : « اني انا الله رب العالمين » وعندما هدأ وثاب اليه عقله نودي « اخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى »[٧١] وعاد كليم الله موسى والناس لا يقدرون على النظر اليه . وفي ذلك قيل انه بقي اربعين يوما لا يراه احد الا مات ، كما قيل ما رآه احد الا عمي ، حتى انه جعل على وجهه حريرة نحو اربعين يوما لم يكشفها لما تغشاه من النور ، او انه جعل على وجهه ورأسه برنسا لئلا يرى وجهه[٧٢] وهذا ما يذكرنا بمتنبي اليمن « الاسود العنسي » الذي كان يلقب بذي الحمار (القناع) لأنه كان معتما متخمرا (مقنعا) ابدا . وفي تنبؤه تقول الرواية انه كان مشعبذا يريهم الاعاجيب »[٧٣] وهذا ما يذكرنا ايضا بحركة الثائر الخراساني هاشم المروي (١٥٩ ـ ١٦١هـ) المشهور بالمقنع ، في بلاد ما وراء النهرين على عهد الخليفة المهدي العباسي . اذ يقال ان الرجل كان يعتقد في فكرة التناسخ والحلول ، وانه رأى ان روح الله قد

---

(٦٧) نفس المصدر ١ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦
(٦٨) ابن الاثير الكامل ج ١ ص ١٩٩ . ولا بأس ان تكون هذه الرواية ثانوية الا ان الاصلية تقول ان الملائكة [illegible] عليه فحفروا قبرا بينما [illegible] عليه فلما نزل فيه قبض الله روحه . نفس المصدر ج ١ ص ١٩٨
(٦٩) نفس المصدر ١ ص ١٧٦
(٧٠) نفس المصدر ١ ص ١٧٧
(٧١) نفس المصدر ١ ص ١٨٨ سورة القصص الآية ٣٠ وانظر ابن العبري مختصر تاريخ الدول ص ١٢
(٧٢) نفس المصدر ١ ص ١٩٠ ، ١٩٣
(٧٣) نفس المصدر ٢ ص ٣٣٦ .

تقمصته ، وبناء على ذلك فقد كان يظهر امام الناس مرتديا قناعا منسوجا بخيوط الذهب لكي يبهر ابصار مشاهديه ، ويوهمهم في نفس الوقت انه لبس القناع حتى لا يبهرهم باشراق الانوار الالهية التي لا يطيقونها دون القناع . هذا ولو ان خصوم المقنع من المسلمين قالوا انه عمد الى لبس القناع لاخفاء عور كان في احدى عينيه . وعندما يئس الرجل من شدة حصر العسكر العباسي له القى بنفسه في النار كما فعل اهله وخواصه الذين ماتوا محترقين وهم يعتقدون انهم يرتقون معه الى السماء(٧٤)

ولا بأس ان تكون تلك التفصيلات الخاصة بانبهار الناس باشراق وجه موسى وما اتخذه من قناع حريرا او برنسا من نسيج ، من نموذج القصص الشعبي الذي احاط بشخصية المقنع ، والذي نجد له مثيلا فيما قيل من ان اهل الاسكندرية ظلوا يضعون قطع الحرير الاسود على وجوههم مدة ٧٠ (سبعين) سنة بعد ان بناها الاسكندر ، وذلك خشية على ابصارهم من ان يخطفها بياض الرخام الناصع(٧٥) ومثل ذلك ما قاله الفردوس في الشاهنامه في جمال الملكة سوذابة التي كانت تسير محجبة مع الرجال كما تسير الشمس خلف السحاب(٧٥ب).

اما عن النار التي رآها موسى وتوهج شجرة العوسج الخضراء باللهب ، فهي قريبة مما هو معروف من هالات النور التي تحيط برؤوس القديسين ، او تلك الانوار التي تشع من وجوه الاولياء وهو الامر الذي ينطقه علماء الفيزياء حاليا عندما يقررون ان المسألة خاصة بظاهرة طبيعية تظهر فوق قمم الجبال ، حيث خلوات العباد وصوامعهم ، وهي ترجع الى الكهرباء الجوية التي يمكن ان تأخذ شكل كهرباء مستقرة (استاتيكية) غير ضارة ، لأنها لا تسري كما يسري التيار الكهربائي المعتاد(٧٦) وعن كرامات موسى ومعجزاته العديدة فمنها كف مطر الطوفان ، وكشف الجراد ، والدبا اي القمل الذي اهلك الزرع ، وكذلك الضفادع ، ومنها كهف الدم الذي تحولت اليه مياه الفرعونيين طوال سبعة ايام ثم مسخ اموالهم - ما عدا الخيل وجواهر زينتهم . حجارة من النخل والاطعمة والدقيق(٧٧) .

واذا كان ادخال اليد في الجيب ثم اخراجها بيضاء مثل الثلج لها نور ، واحدة من كرامات موسى المنصوص عليها في الآيات القرآنية فان كرامات عصا موسى العديدة تعتبر من الآيات الباهرة ايضا ، فعصا موسى التي كانت لها شعبتان وفي رأسها محجن(٧٨) لم يكن يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه ويحمل عليها المزود والسقا فقط ، بل كانت تضيء له في الليلة المظلمة ، واكثر من هذا كان اذا اشتهى فاكهة

---

(٧٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ص ٣٨ - ٣٩ ص ٥١ - ٥٢ (احداث سنة ١٥٩ وسنة ١٦١ هـ)

(٧٥) انظر كتاب الاستبصار ص ٩٢ وهـ ٢ (من رواية ابن عبد الحكم) (٧٥ مكرر) ول ديورانت ، الترجمة ج ١٢ ص ٢٣٧ .

(٧٦) انظر عبد المحسن صالح ، الانسان الحائر بين العلم والخرافة ، سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ١٥ ص ١١٦ - ١١٩ .

(٧٧) ابن الاثير ج ١ ص ١٨٦ - ١٨٧ وانظر تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٣٨ وقارن ابن العبري مختصر تاريخ الدول ص ١٧ .

(٧٨) ابن الاثير ١ ص ١٧٧

غرسها في الارض ايضا فنبتت لها اغصان تحمل الفاكهة لوقتها[٧٩] وكان التحدي الكبير الذي واجهته العصا عند لقاء موسى بجماعة السحرة وذلك عندما تحولت ـ باذن الله ـ الى حية تسعى او ثعبان مبين ، كما تنص الآيات القرآنية[٨٠] واخذت تبتلع عصى السحرة وحبالهم الى ان انتهى الامر برئيس السحرة الى ان قال : هذا ليس بسحر فخر ساجدا وتبعه السحرة اجمعون[٨١] . اما ما فعلته من فلق البحر عند ضرب موسى البحر بها فكان كل فرق كالطود العظيم وصارفيه اثنا عشر طريقا لكل سبط طريق قبل ان يلتطم البحر على فرعون وجيشه فيغرقهم[٨٢] . فتلك كانت آية كبرى من الآيات العصا ، لا تعادلها الا كرامة ضرب الحجر بها « فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، لكل سبط عين[٨٣] .

اما الامر المستغرب بالنسبة لكرامات موسى فهو مقدرته على احياء الموتى وكانه عيسى بن مريم ، وان كان باسلوب يختلف بعض الشيء ، وفي ذلك تقول الرواية ان رجلا قتل آخر وادعى ان غيره هو الذي قتله . وعندما عرض الامر على موسى ليحكم فيه رأى ان يفحم الجاني الكذاب بشهادة المجني عليه نفسه ، وكانت وسيلته الى ذلك ان ذبح بقرة صفراء فاقعة وضرب القتيل بلسانها « فحيي ، وقام وقال : قتلني فلان . ثم مات »[٨٤] .

وآخر كرامات موسى كانت بمناسبة فتحه لمدينة اريحا على الجبارين من الكنعانيين فبعد ان قاتل موسى خصومه طوال النهار وقاربت الشمس الغروب ، وقد بقيت من الجبارين بقية ، فخشي موسى ان يدركهم الليل فيعجزوه ، فدعا الله تعالى الى ان يحبس عليهم الشمس ففعل وحبسها حتى استأصلهم ودخلها موسى فاقام بها ما شاء الله ان يقيم وقبضه الله اليه لا يعلم بقبره احد من الخلق[٨٥] وقصة حبس الشمس هذه موجودة في انشودة رولان (La Chansun de Roland) وهي من اناشيد شعراء التروبادور الفرنسيين في القرن الحادي عشر الميلادي ، وتتعلق بغزو شرلمان لشمال الاندلس ضد المسلمين (١٦١هـ /٧٧٨م) فبعد ان فاجأ المسلمون ساقة جيش شرلمان في ممر الرونسفال في جبال البرانس اثر عودته من حصار مدينة سرقسطة الاسلامية تمكن شرلمان من الثأر لمقتل الكونت رولان . ولما كانت الشمس قد قاربت على الغروب كما تقول الملحمة الشعبية الفرنسية فان

---

(٧٩) نفس المصدر ج ١ ص ١٧٩

(٨٠) سورة النمل (٢٧) الآية ١٠ سورة الاعراف (٧) الآية ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٨١) ابن الاثير ج ١ ص ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٣ .

(٨٢) نفس المصدر ج ١ ص ١٨٣ ـ ١٨٨ .

(٨٣) تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٣٦ (حيث الاشارة الى غضب الله على موسى لانه لم يذكر اسمه قبل ضرب الحجر) ابن الاثير ج ١ ص ١٩٦

(٨٤) ابن الاثير ج ١ ص ١٩٥ وقارن اليعقوبي ج ١ ص ٤٠ ، حيث كان الغرض من ذبح البقرة الصفراء ، احراق لحمها وجلدها ثم استخدام رمادها في تطهير الماء الذي يستخدم في التطهير .

(٨٥) ابن الاثير ج ١ ص ٢٠٢ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٢ ص ٨٦ ـ ٨٧ .

شرلمان الذي قارنه بعض الكتاب الاوروبيين بسيدنا محمد من حيث نشر المسيحية في اوروبا بين البرابرة الجرمان - دعا الله ان يوقف الشمس فوق الافق واستجاب الله لدعاء الملك القديس فلم تغب الشمس الا بعد ان حقق النصر الكامل على خصومه المسلمين[٨٦] هذا ولا بأس ان تكون كرامة شرلمان القديس صدى لكرامة موسى التي تنسبها رواية اخرى الى النبي يوشع الذي خلف موسى بعد ان كان من اعوانه[٨٧] .

في الشريعة الموسوية :

اما عما اتى به موسى من الامر والنهي - وهو ما يعرف في العهد القديم بالوصايا العشر - فهو اشبه بالحدود الاسلامية . واذا كان ابن الاثير لا يذكر منها الا ثلاثة فقط فان اليعقوبي يذكرها من قبله - جميعا - كما يستطرد في تفصيلات الشريعة الموسوية بشكل يثير الاعجاب والوصايا العشر هي :

١ - اني انا الرب . . . لا يكون لك إله آخر دوني .

٢ - نقمتي على مبغضي ، ونعمتي لمحبي .

٣ - لا تحلف باسم الرب كذبا .

٤ - اذكر يوم السبت لتطهره . . . سبت الرب إلهك لا تعمل فيه شيئا من الاعمال .

٥ - اكرم أباك وامك لتطول ايامك في الارض .

٦ - لا تقتل .

٧ - لا تزن (من زنى وليس له امرأة جلدناه مائة جلدة وان كانت له امرأة رجمناه حتى يموت) .

٨ - لا تسرق (من سرق قطعناه) .

٩ - لا تشهد على صاحبك شهادة كاذبة .

١٠ - لا تشته بيت صاحبك ولا زوجة صاحبك ولا عبده ولا امته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا من مال صاحبك[٨٧] .

ومما اوحى الله به الى موسى : انت عبدي وانا الملك الديان لا تستذل الفقير ، ولا تغبط الغني بشيء يسير وكن عند ذكري خاشعا[٨٩]

---

(٨٦) انظر انشودة رولان طبعة المكتبة سيكيات الفرنسية .

(٨٧) انظر ابن الاثير ج ١ ص ٢٠٢ (حيث الاشارة الى ان يوشع هو الذي ادركه ثلاث ليلة السبت فدعا الله ترد الشمس عليه وزاد في النهار ساعة لهزم الجبارين ودخل مدينتهم وجمع غنائمهم لياخذها القربان) وانظر ابن خلدون ، العبر ج ٢ ص ٨٧ .

(٨٨) انظر تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٣٧ وما يلية الوصايا انظر ص ٤١ وما بعدها وانظر الطبري تاريخ الفصل الاول ص ١٨ (وقارن ابن الاثير ج ١ ص ٢٠٥ حيث ذكر الوصايا رقم ٧ ، ٨ (بين الاقواس) ثم) من الوصايا جملة في كتاب المحصنات .

(٨٩) العقد الفريد ج ٣ ص ١٤٦ .

وهنا لا بأس من الاشارة الى ما يقارب ذلك مما يروي في باب ادب النبي (صلعم) لأمته حيث ينسب الى النبي انه قال : اوصاني ربي بتسع ، وانا اوصيكم بها : اوصاني بالاخلاص في السر والعلانية ، والعدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، وان اعفو عمن ظلمني ، واعطي من حرمني ، واصل من قطعني ، وان يكون صمتي فكرا ، ونطقي ذكرا ، ونظري عبرا[٩٠] وهكذا تستمر التقاليد الحنيفية الابراهيمية حية بفضل سلسلة الانبياء حتى موسى قبل ان تعمل الدعوة المحمدية على تجديدها او إحيائها بشكل نهائي في الاسلام ، فكما كان لموسى الكليم وصاياه العشر ، كان لمحمد الامين وصاياه التسع ، كما اراد العرف الاسلامي .

حول الرسالة الموسوية : فرق ما بين النبوة والتنبؤ والسحر والكهانة :

ارتبطت الدعوة الموسوية بوادي النيل كما ارتبطت قبلها بارض مصر من رسالة ابراهيم الذي عاش في مصر ردحا من الزمن وتزوج بهاجرام اسماعيل ، ورسالة يوسف الذي قضى عمره في خدمة الادارة الفرعونية والذي دفن على ضفاف النيل واصبح تابوته فيما بعد ، شعار بني اسرائيل في الحروب ، ومن هنا يرى البعض ان الديانة المصرية القديمة التي عرفت البعث والحساب والعقوبة والثواب كان لها اثرها الذي لا ينكر في الديانات السماوية بشكل عام[٩١] وان تأثيرها المباشر يظهر في دعوة موسى الذي يمكن ان يكون اميرا مصريا[٩٢].

وبصرف النظر عن ماهية الديانة المصرية القديمة نجد ان فرعون مصر المؤله يمثل في قصة موسى اعلى درجات العتو والكفر والاستبداد ، الامر الذي يتطلب دعوة ترشده الى طريق الهداية والصواب فتكون رسالة موسى قبل نزول العذاب : عقوبة عادلة من الله تحيق بأهل الضلال . وعن هذا الطريق يتضح الفارق بين موازين الحق وبين بهتان حكومة الباطل ، ويتمثل ذلك في كرامات موسى الربانية ، مقابل ضلالات كهان فرعون السحرية .

واذا كان من المعروف لغويا ان اصل السحر هو صرف الشيء عن حقيقة الى غيره ، بمعنى انه كان رؤية الباطل في صورة الحق ، وهو ما نسميه بخداع البصر ، فمن المعروف ايضا ان السحر يعني كل ما لطف مأخذه ودق . وهكذا تراوح معنى السحر ما بين المدح والذم او ما بين الفضيلة والرذيلة ، وبناء على ذلك احتمل قول النبي (صلعم) : « من تعلم بابا من النجوم فقد تعلم بابا من السحر » ان يكون ذلك بمعنى مجرم ، كما قد يكون بمعنى فطنة وحكمة . ولقد ترتب على ذلك انه لم يكن من الغريب

(٩٠) العقد الفريد ج ٣ ص ١٧٤ .
(٩١) انظر يسار الحضارة العربية الرجا ص ٦ ـ ٧ .
(٩٢) انظر التاسيرت ونتاليم حسن ثابت

ان يعرف موسى النبي باسم « الساحر » وذلك كما في الآية التي تقول : « يا ايها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك اننا لمهتدون » وذلك يعني ان الساحر عندهم ـ كما ينص ابن منظور ـ كان نعتا محمودا ، وان السحر كان علما مرغوبا فيه . فتكون الكلمة قد قيلت على جهة التعظيم ، لأنه جاء بالمعجزات التي لم يعهدوا مثلها . وبناء على ذلك تكون كلمة الساحر ـ وقتئذ بمعنى « العالم »[٩٣] .

وفي قريب من هذا المعنى تنص رسائل اخوان الصفا على ان علم احكام النجوم ليس ادعاء الغيب ، لأن علم الغيب هو علم ما يكون بلا استدلال ولا علل ، ولا سبب من الاسباب ، وهذا ما لا يعلمه احد من الخلق ، كذلك لا منجم ولا كاهن ولا نبي ، ولا ملك من الملائكة ، الا الله عز وجل[٩٤] . اما مايمكن ان يفعله الانسان فهو محاولة الاستدلال العقلي عما يمكن ان يتوقعه من الاحداث . وفي ذلك قيل عن عمرو بن العاص في تعريف العقل انه : الاصابة بالظن ، ومعرفة ما يكون بما قد يكون ـ وهي نظرية قياس الحاضر بالماضي ، في النقد التاريخي عند ابن خلدون كذلك قيل عن عمر بن الخطاب : من لم ينفعه ظنه لم ينفعه يقينه ، وفي هذا المقام شهد علي بن ابي طالب لابن عباس بانه : كان لينظر الى الغيب من ستر رقيق[٩٥] .

وطرق الاستدلال على معرفة الماضي تختلف عن تلك التي يعرف بها الحاضر والمستقبل . فوسيلة الاستدلال على الماضي هي السماع والاخبار بما كان ، ووسيلة الحاضر هي : الاحساس لما هو موجود . أما عن الاستدلال على المستقبل فهو الطف وادق مما يتعلق بالماضي والحاضر ، ولذلك اختلفت وسائله الى عدة انواع ، تدرج فيما يمكن ان يشبه بسلم المعرفة : فمنها : النجوم ، والزجر والفأل ، والكهانة ، والفكر ، والاعتبار ، وتأويل المنامات ، ثم الخواطر ، والوحي ، والالهام ، وهذا اجلها واشرفها فهو ليس باكتساب ، ولكن موهبة من الله[٩٦] .

وهكذا تتميز النبوة والرسالة بالوحي والالهام من قبل الله عز وجل ، ويصبح الوحي ذروة ما يمكن ان يصل الانسان من المعرفة . وهذا ما يصل اليه الفارابي عندما يمنطق المنامات والوحي بفضل انفراد القوة المتخيلة بنفسها عندما تتخلى عن خدمة القوة الناطقة (العقل) والنزوعية (الشهوة)[٩٧] . ومن هنا اتى الاختلاف بين النبي وبين المتنبي ، سواء كان ساحرا او منجما او عرافا او كاهنا . فالنبوة موهبة وتكريم رباني ، بينما التنبي حرفة من الحرف يحتاج الانسان فيها الى التعلم والنظر والفكر ، كما هو

---

(٩٣) انظر لسان العرب (سحر) ج ٤ ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩ .
(٩٤) رسائل اخوان الصفا دار صياد بيروت ج ١ ص ١٣٢
(٩٥) العقد الفريد ـ ط القاهرة ١٩٦٥ ج ٢ ص ٣٦٣
(٩٦) رسائل اخوان الصفا ـ ج ١ ص ١٢٤
(٩٧) آراء اهل المدينة الفاضلة الفصل ٢٤ ـ ٢٥ .

الحال في الزجر والفأل وضرب الحصى وللكهانة وغيرها مما يلجأ اليه الناس لمعرفة ما هو حادث من خفيات الامور . ولاشك ان ما هو حادث في المستقبل هو اهم ما شغل الناس منذ فجر الانسانية . وذلك ان الانسان بحكم طبيعته التأملية وما ينتابه من القلق غير راض تمام الرضا عن حاضره وهو لذلك آسف دائما على الماضي بحلوه ومره . وهو آمل دائما في المستقبل عسى ان يأتيه بما هو خير من الماضي والحاضر ، وهو كذلك دائما وابدا ممزق بين الخوف والرجاء .

وترتيبا على ذلك يمكن ان نفهم كيف ان مصير الانسان ونهاية العالم كانت من الموضوعات التي اثارت اهتمام الناس منذ القديم ، كما انها كانت الفكرة الاساسية التي ارتكزت عليها كل الديانات . فالدهريون او الطبيعيون لم يعتقدوا الا في عالم الحس والمادة الذي نعيشه ولم ينظروا الى ما وراءه ، بينما اعتقد الروحانيون في خلود النفس بعد فناء الجسد ، وعن هذا الطريق آمنوا بأشياء من الحلول والتناسخ ، اما الالهيون من اصحاب الديانات السماوية فانهم اعتقدوا في يوم الحساب وما يلحق به من العقوبة والثواب ، في نار الجحيم او فردوس النعيم .

والانبياء (عليهم السلام) ، وأولياؤهم هم المخبرون عن الآخرة ، المتصورون لها بقلوبهم ، والعارفون حقيقتها بعقولهم . والمؤمنون هم المقرون بالآخرة بألسنتهم ، المصدقون الانبياء في اخبارهم ، المتنظرون لكشفها لهم[٩٨] . وهكذا يصبح علم البعث والقيامة هو لب الالباب ، وسر لاولياء الله دون سواهم . وهذا ما يفسر زهد الاولياء وعباد الله الصالحين في الدنيا ، وكيف اصبحوا يتمنون الموت لما وعدهم الله من التحية والسلام حسبما تنص على ذلك الآيات[٩٩] . وذلك ان انفس المؤمنين ـ كما يرى اخوان الصفا ـ تنطلق الى ملكوت السموات[١٠٠] ، لأن النفوس المتجسدة الخيرة ملائكة بالقوة ، فاذا فارقت اجسادها كانت ملائكة بالفعل[١٠١] . اما انفس الكفار والفساق والاشرار فانها تبقى في عماها وجهالاتها معذبة متألمة الى يوم القيامة[١٠٢] ، والنفوس المتجسدة الشريرة هي شياطين بالفعل توسوس للنفوس الشيطانية بالقوة ، لتخرجها الى الفعل . وذلك كما قال الله تعالى : « شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا »[١٠٣] .

---

(٩٨) رسائل اخوان الصفا ج ٣ ص ٢٩٤ .
(٩٩) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ .
(١٠٠) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٨٩ .
(١٠١) نفس المصدر ج ٣ ص ٨١ .
(١٠٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٩٠ .
(١٠٣) نفس المصدر ج ٣ ص ٨١

وفيما يتعلق بمعرفة المستقبل يقول اخوان الصفا انه : « ليس في معرفة الكائنات قبل كونها صلاح لكل واحد من الناس »، بل على العكس من ذلك ، ففيها : « تنغيص للعيش واستجلاب للهم[١٠٤] ، وهو الامر المقبول عندما يوزن المستقبل بميزان الحاضر الذي سوف يكونه ، كما سبقت الاشارة . اما عن اهتمام الحكماء بالنظر في علم المستقبل ، فكان بهدف الترقي في درجات المعرفة الى ما هو اشرف منه واجل ، الا وهو : الوصول الى معرفة حقائق الموجودات ، مما يعني رؤ ية الدار الاخرة بعين اليقين ، وهو ما يترتب عليه الزهد في الدنيا ، وهو ان المصائب والملمات ، « فلا غم ، ولا جذع ، ولا حزن »[١٠٥] . وهو قريب مما يعانيه اهل الكشف والعرفان من اقطاب التصوف في حالة الذهول عن الألم واللذة بفضل المشاهدة[١٠٦] .

ولهذا نهى الفقهاء واصحاب الحديث واهل الورع عن النظر في علم النجوم ، ولأنه جزء من علم الفلسفة ايضا . وكان ذلك من اسباب كراهية النظر في علوم الفلسفة بالنسبة للاحداث والصبيان ، وكل من لم يتعلم علم الدين . « اما من قد تعلم علم الشريعة وعرف احكام الدين ، وتحقق امر الناموس فان نظره في علم الفلسفة لا يضره ، بل يزيده في علم الدين تحققا »[١٠٧] .

وهكذا تتميز السياسة النبوية عن غيرها من السياسات الملوكية والعامية ، من حيث كونها : معرفة كيفية وضع النواميس (القوانين) ، المرضية ، والسنن (الاعراف) الزكية بالاقاويل الفصيحة ، ومداواة النفوس المريضة من الديانات الفاسدة والأراء السخيفة . وبعد ذلك تأتي معرفة كيفية نقلها من تلك الاديان والعادات ، ومحو تلك الأراء عن ضمائرها بذكر عيوبها ، ونشر تزييفها قبل شفائها بالرأي المرضي والعادات الجميلة . والى جانب ذلك يكون معرفة كيفية سياسة النفوس الشريرة عن طريق القمع والزجر . وكل ذلك مما يدخل في مهام الانبياء والرسل ، ويقع على عاتقهم بصفتهم مبشرين ومنذرين[١٠٨] .

والخلاصة ان المواهب الربانية التي يقصد بها هداية الحق نحو الخير والمعروف يأتي بها الانبياء بفضل ما يوحي به الله اليهم عن طريق الملائكة بينما ، الغوايات الشيطانية التي يقصد بها تضليل الناس نحو الشر والمنكر فتأتي بها الأبالسة بفضل وسوستهم في الصدور وتغييرهم للنفوس . وكأننا نصل بذلك الى مبدأ التفرقة بين فكرة الخير التي تصبح حتمية (جبرية) ازلية وبين فكرة الشر التي تصبح بدورها ارادية

(١٠٤) نفس المصدر ج ١ ص ١٥٥ .

(١٠٥) نفس المصدر ج ١ ص ١٥٥

(١٠٦) قاسم غني ، تاريخ الفلسفة في الاسلام ، المرجع ص٤٩ .

(١٠٧) رسائل اخوان الصفاء ج ١ ص ١٧٢ .

(١٠٨) نفس المصدر ج ١ ص ٢٧٣ .

(قدرية) زائلة ـ وهي البشرى النهائية التي تزفها الاديان السماوية للانسانية ، والغاية الاخيرة النبوية .

السياسة النبوية في واقع التجربة الانسانية :

ومن الواضح ان تلك السياسة النبوية التي يرسمها حكماء اخوان الصفا مستوحاة من سير الانبياء ، كما هي معروفة في التراث الاسلامي . فنوح كان عليه ان يحذر قومه من بأس الله ويدعوهم الى التوبة والرجوع الى الحق ، والعمل بما امر الله تعالى . ورغم خشونتهم معه واساءتهم اليه ، فانه كان يدعو لهم بالمغفرة ويلتمس لهم العذر في جهلهم . ولكنه عندما يئس من هدايتهم دعا عليهم ، فقال : « رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا »[١٠٩] . والحياة الدنيا كما خبرها نوح ، ليست بشيء . فعندما حضرته الوفاة قيل له : كيف رأيت الدنيا ، قال : « كبيت له بابان دخلت من احدهما ، وخرجت من الآخر »[١١٠] .

وابراهيم الخليل يفر من بطش نمرود في بابل لكي يلقى عنت فرعون في مصر . وهو يضطر الى مداراة خصومه عن طريق الكذب الذي يمكن ان يكون نوعا من التقية ، وذلك عندما كسر الاصنام ، وعندما سأله فرعون عن زوجته الجميلة سارة . وفي ذلك ينسب الى النبي (صلعم) انه قال : « لم يكذب ابراهيم الا ثلاث مرات ، اثنتين في ذات الله ، قوله : « اني سقيم » وقوله : « بل فعله كبيرهم هذا » ، وقوله في سارة : « هي اختي[١١١] » . ومثل هذا ما ينسب الى ابراهيم في استخدام الرمز في كلامه ، عندما اوصى زوجة اسماعيل ابنه التي لم تحسن استقباله ، ان تطلب من زوجها ان يغير عتبة بابه ، فيفهم اسماعيل ذلك الرمز ويطلقها[١١٢] فكأن الرمز هنا دوره الفصاحة والبيان . هذا ، كما تلقى ابراهيم اوامر ربه عن طريق الرؤيا الصادقة الى جانب الوحي والالهام ـ اشرف وسائل الاستدلال على الامور الخفية .

اما عن المعنى الرمزي لالقاء ابراهيم في النار ، فهو الاستهانة بالجسد الفاني والتقدير للنفس الخالدة التي يكون بها اللحاق بالصالحين[١١٣] . هذا ، ولو انه توجد رواية اخرى تقول ان ابراهيم كان قد

---

(١٠٩) ابن الاثير ج ١ ص ٦٨ ـ ٦٩ .

(١١٠) نفس المصدر ج ١ ص ٧٣ .

(١١١) نفس المصدر ج ١ ص ١٠١ وقارن ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ص ١٣ (حيث الاشارة الى ان ابراهيم لم يكذب عندما قال عن سارة انها اخته وذلك انها كانت ابنة عمه فالام جدهما مكانا ابيها) .

(١١٢) ابن الاثير ج ١ ص ١٠٤ ، ابن خلدون ج ٢ ص ٣٨ .

(١١٣) اخوان الصفا ج ٤ ص ٣٢ .

سأل ربه ان لا يقبض روحه حتى يكون هو الذي يسأله الموت حتى ان الله ارسل اليه ملك الموت في صورة شيخ هرم لم يعد يعرف كيف يضع اللقمة في فمه ، رغم انه لا يكبره الا بسنتين مما جعل ابراهيم يتمنى الموت(١١٤) . وتمني الموت هو رغبة المؤمنين حقا ، اذ سيكونون في الآخرة مع الانبياء والصديقين .

وفيما يتعلق بيوسف فاذا كان جماله فتنة للناظرين ، فان القاءه في الجب موثقا كتافه بعد ضربه من قبل اخوته ، ثم مكثه في السجن سبع سنين بأمر الملك ، يعني الاستهانة بذلك الجمال الجسدي . ففي هول السجن وعذابه كتب يوسف على بابه : « هذا قبر الاحياء ، وبيت الاحزان ، وتجربة الاصدقاء ، وشماتة الاعداء »(١١٥) . اما آيات يوسف ، الذي آتاه الله العلم والحكمة قبل النبوة وهو في سن ثلاث وثلاثين سنة (عمر السيد المسيح) ، فهي الرؤية الصادقة في المنام ثم التقوى ، قبل تعبير الاحلام في الحبس ، واخيرا رد بصر ابيه يعقوب(١١٦) .

اما عما قيل من ان سبب ابتلاء يعقوب بفقد اعز ولده ، انه : كان له بقرة لها عجول فذبح عجولها وهي تخور فلم يرحمها ، فهي تعني ان رسالة النبي قد تخرج من نطاق التحنن على البشر لكي تشمل ايضا الرفق بالحيوان ، وهو الامر المقبول بالنسبة لصلاح الدنيا الذي يكون به صلاح الآخرة .

وفي معرض السياسة النبوية يتميز موسى بانه صاحب التوراة ، وواضع الشريعة الالهية التي جعلت من اليهودية اقدم ديانة سماوية . ولقد تعلم موسى على يدي الخضر ، وهو النبي المخلد منذ ايام ابراهيم لشربه من ماء نهر الحياة ، اشياء من علم الباطن . ولقد احاطت الرعاية الربانية بموسى منذ مولده ، من : الوحي الى امه بالقائه في اليم ، ولا تخاف عليه لأنه سيكون من المرسلين . ولما كان من علامات النبيين الفصاحة وطلاقة اللسان ، وهو ما لم يكن في موسى ، فان الله شد ازره باخيه هارون الذي شاركه في الرسالة . وكان اول من آمن بموسى رجل كان على بقية من دين ابراهيم (عم) اسمه خربيل ، وعرف بلقب « مؤمن آل فرعون » . وهو الذي حذر موسى من طلب فرعون له ، بقوله : « ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » ، فاخرج اني لك من الناصحين(١١٧) .

ورغم عنف موسى فان الله غفر له خطيئة قتل النفس لأن القتيل كان متماديا في كفره ، لم يؤمن بالله ولو لساعة واحدة . ثم ان موسى يظهر من المروءة والادب مع شعيب وبناته ما هو اهل للرسالة . اما

---

(١١٤) ابن الاثيرج ١ ص١٢٤
(١١٥) نفس المصدرج ١ ص١٤٦ .
(١١٦) نفس المصدرج ١ ص١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٥٥ .
(١١٧) ابن الاثيرج ١ ص١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ـ ١٨٠ سورة القصص (٢٨) الآية ٢٠ .

تكليم الله له مباشرة دون وساطة جبريل ، فتلك كرامة اختص بها الله كليمه تفوق غيرها من الآيات - كتوهج الشجرة الخضراء بالنار ، وابيضاض يده من غير سوء ، او تحول عصاه الى ثعبان مبين .

ثم يأتي عرض موسى الايمان على فرعون الذي يصر على غيه ، فينتقم ممن يؤمن برب موسى وهارون قتلا وصلبا واحراقا . واخيرا لم يكن بد من ان يدعو موسى على الفرعونيين ، وأن يؤمن هارون على دعائه الذي يقول فيه : « ربنا اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم »[١١٨] وكان خروج بني اسرائيل من مصر بعد ان استعاروا الكثير من حلى المصريين ، ثم غرق فرعون وجيشه في اليم .

وبعد الخروج تأتي مرحلة الوحي ونزول الكتاب . وكان على موسى ان يستعد لذلك بالصوم ثلاثين يوما ، وان يتطهر ويطهر ثيابه ، ثم يأتي الى جبل طور سيناء ليكلمه الله ويعطيه الكتاب . وكان ان اعطاه الالواح فيها الحلال والحرام والمواعظ[١١٩] . ولما عاد موسى الى بني اسرائيل وجدهم قد انحرفوا الى عبادة العجل الذي صيغ من حلى اهل مصر ، فألقى الالواح التي ذهب ستة اسباعها ولم يبق منها الا السبع . وبعد ان انزل الله عقابه ببني اسرائيل الذين اقتتلوا فيما بينهم عاد وتاب عليهم . وفي البداية رفض بنو اسرائيل التوراة للأثقال والشدة التي جاء بها ولم يقبلوا بها بعد التهديد بالوعد والوعيد[١٢٠] .

وكان انحراف بني اسرائيل نحو عبادة الاوثان بعد موسى ، وتركهم عهد الله هو السبب في بعث الانبياء اليهم لتجديد ما نسوا من التوراة . وهكذا بعث اليهم النبي الياس عندما اتخذوا صنما يعبدونه يقال له بعل ، وجعل يدعوهم الى عبادة الله وهم لا يسمعون . ورغم دعاء الياس عليهم ، ونزل العذاب بهم ممثلا في انقطاع المطر لمدة ثلاث سنين حتى هلكت الماشية والطيور والهوام والشجر ، فانهم ظلوا على غيهم بعد ان الى فرج الله فلم يؤمنوا . وانتهى الامر بيأس إلياس الذي طلب ان يقبضه الله « فكساه الله الريش ، والبسه النور ، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب ، فصار ملكيا انسيا سماويا ارضيا »[١٢١] .

الأنبياء والملوك من خلفاء موسى (الى حوالي سنة ١٠٠٠ ق . م) :

وكانت تلك مقدمة لكي يمر بنو اسرائيل بفترة اضمحلال سياسي ، كان ولاة امورهم فيها ما بين القضاة والملوك والمتغلبين . وخلال تلك الفترة ضاع منهم تابوت يوسف ، شعارهم في الحروب ، كما

(١١٨) انظر ابن الاثير ج ١ ص ١٨١ - ١٨٢ سورة يونس الآية ٨٨ .
(١١٩) ابن الاثير ج ١ ص ١٨٩ - ١٩٠ وقارن ابن خلدون ج ٢ ص ٨٣ وقارن ابن العبري مختصر الدول ص ١٨ .
(١٢٠) ابن الاثير ج ١ ص ١٩٠ - ١٩٢ ابن خلدون ج ٢ ص ٨٣ .
(١٢١) ابن الاثير ج ١ ص ٢١٣ - ٢١٤ .

اخذ منهم جالوت ملك الكنعانيين ، التوراة ، ولم تعد النبوة لبني اسرائيل الا بعد ان ثبت الملك فيهم[١٢٢] . وبذلك اصبحت سنة الله تعالى في بني اسرائيل انه اذا مَلَّكَ عليهم ملكا ارسل معه نبيا يرشده ويهديه الى احكام التوراة[١٢٣] . وهكذا آلت النبوة الى شمويل والملك الى طالوت .

وخلال لقاء الملك طالوت بملك الكنعانيين جالوت في تلك الوقعة التي تشبهها روايتنا الاسلامية بغزوة بدر بدأت تظهر مواهب داود التي وهبه الله اياها وهو صبي صغير فقذُافته لا تصيب شيئا الا صرعته وهو يركب الأسد ويأخذ باذنيه ويسبح فتسبح معه الجبال . واخيرا تكلم الاحجار داود وتقول له : « خذنا يا داود تقتل بنا جالوت » ، وهو ما حدث فعلا عندما وقع الحجر من القذافة بين عيني جالوت[١٢٤] .

وجمع داود بين الملك والنبوة ، وانزل عليه كتاب جديد هو الزبور بمعنى الكتاب »[١٢٥] ، وعرف داود برخامة الصوت فكانت له المزامير التي كان يرتلها ترتيلا . وهكذا شبه النبي (صلعم) صوت ابي موسى عندما اعجب به وهو يرتل القرآن ، فقال له : لقد اوتيت مزمارا من مزامير آل داود[١٢٦] . اما عن اجتهاده في اعمال الورع والعبادة ، من : البكاء وقيام الليل وصوم نصف الدهر فالظاهر انها كانت للتكفير عن خطيئته المشهورة التي ابتلاه الله بها عندما تخلص من اوريا الذي كان من ابطال رجاله طمعا في زوجته الجميلة . وكان داود قد اعجب بحسن المرأة الفاتنة عندما شاهدها عارية وهي تغتسل ، وقرر ان يضيفها الى حريمه اللواتي بلغن تسعا وتسعين امرأة ، فأمر بارسال زوجها الى الحرب على ان يكون في طليعة الجيش ، وبذلك قتل الرجل وآلت الى داود زوجته الحسناء . والى ذلك تشير الآية الكريمة ، عن طريق الرمز ، عندما تقول : « ان هـذا اخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة »[١٢٧] .

ويجمع سليمان (حوالي ١٠٠٠ ق . م) النبوة والملك مثل ابيه داود وهو مشهود بتسخير الانس والجن والشياطين والطير والريح ، وعن هذا الطريق ينسب اليه عمار بيت المقدس وبناء الهيكل الذي ينسب ايضا الى داود ـ وان كان ابن الاثير يعرف انه من بناه ايليا اندريانوس الرومانى[١٢٨] وعرف

---

(١٢٢) نفس المصدر ج ١ ص ٢١٤ ـ ٢١٧ وقارن ابن خلدون ج ٢ ص ١٨٨) حيث يسمع تلك الفترة : بفترة الحكام وحكم الشيوخ)

(١٢٣) ابن الاثير ج ١ ص ٢١٣

(١٢٤) نفس المصدر ج ١ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ .

(١٢٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٢١

(١٢٦) العقد الفريد ج ٦ ص ٢٥ ، وعن ترتيل المزامير على طول الاسبوع ايام داود انظر ابن العبري تاريخ مختصر الدول ص ٣٠ .

(١٢٧) ابن الاثير ج ١ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٥ وانظر ابن العبري التاريخ ص ٣٠ (حيث عدد نساء داود ٣ سوى امرأة اوريا ام سليمان) .

(١٢٨) نفس المصدر ج ١ ص ٢٢٥

سليمان بسداد الحكم ، والقضاء منذ ايام والده ، ولذلك اشتهر سليمان بالحكيم . اما ما يهمنا من قصته مع بلقيس ملكة العرب ، فيتلخص ان دعوته التي دعاها الى الدخول فيها هي الاسلام وفي ذلك تقول الآية (رب اني ظلمت نفسي واسلمت مع سليمان لله رب العالمين)[١٢٩] .

وآخر ايات سليمان انه مات وهو قائم يصلي متوكئا على عصاه ، وكان هدفه من تلك الآية الا يعلم الجن موته حتى يعلم الناس ان الجن لا يعلمون الغيب[١٣٠]

ما بين النبوة في بني اسرائيل وبينها في بلاد فارس : من زرادشت الى بخت نصر (قرن ٦ ق . م) :

وعلى عهد خلفاء سليمان تتفاقم الاحداث وتستشري الذنوب في بني اسرائيل ، وكان الله يتجاوز عنهم عطفا عليهم ، فكان كلما ملك عليهم رجل بعث الله اليه نبيا يرشده ويوحي اليه ما يريد ، وهكذا لما آل الملك الى صدقيه صارت النبوة الى شعيا ، وهو الذي بشر بعيسى وبمحمد ـ عليهما السلام ـ ورغم وقوف شعيا الى جانب صدقية في مدافعة سنحارب ملك بابل (نينوى) فان الامر انتهى بانتزاء بني اسرائيل على النبي شعيا . وبلغت القسوة بهم الى حد انه عندما فر منهم وتلقته شجرة انفلقت له فدخلها ، لم يترددوا في وضع المنشار على الشجرة ونشرها حتى قطعوه في وسطها ـ استجابة لغواية الشيطان[١٣١] تماما كما سيحدث لزكريا ايام المسيح .

وبفضل العلاقات السياسية والحربية المتطورة بين بني اسرائيل في فلسطين وبين ملوك بابل ونينوى وفارس تتداخل تعاليم التوراة والزبور بتعاليم الفرس ، كما يحدث نوع من المزج بين اصحاب الديانات الثنوية الفارسية وانبياء بني اسرائيل وملوكهم .

فزرادشت بن سفيمان[١٣٢] هو صاحب الديانة الثنوية التي عرفت باسمه ، فهي الزرادشتية احدى ديانات الفرس العريقة التي ظهرت على عهد الملك بشتاسب بن لهراسب ، والمشهور عند المجوس ان اصل زرادشت من بلاد اذربيجان . في جنوب غرب بحر قزوين ، وفي ظهوره يقولون انه نزل على

(١٢٩) سورة النمل (٢٧) الآية ٤٤ ابن الاثير ١ ص ١٢٩ ـ ٢٣٦ وانظر ايضاً ص ٢٣٨ ـ حيث النص على انه عندما اصطفى (وجه جنانه لصب بعد كل ... دعا الى « الاسلام » .

(١٣٠) ابن الاثير ١ ص ٢٤٢ سورة سبأ (٣٤) الآية ١٤

(١٣١) نفس المصدر ١ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٧

(١٣٢) لا نعرف ان كان هذا ليس لدى ابن الاثير الكامل ج ١ ص ٢٥٨) بين اسم والد زرادشت الذي نجده عند الشهرستاني في شكل بورشب (الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٦) وبين والد بوذا الذي يعرف باسم سكيا (شعيا) نسبة الى اسرته او باسم سكيامون (سكيا موني) بمعنى عرق سكيا (انظر كارل ياسبرز . فلاسفة المتنبئون الترجمة ص ٨٨ ـ ٩٢) الذي ربما تحول « الكامل » الى سفيمان .

الملك من سقف ايوانه وبيده كبة من نار يلعب بها ولا تحرقه ، وكل من اخذها من يده لم تحرقه ـ مما يذكر بنار ابراهيم التي كانت بردا وسلاما عليه ـ ومن الواضح ان تلك هي الرواية الشعبية من قصة زرادشت التي تظهر في شكل آخر اقل طرافة واكثر جدية .

فزرادشت ظهر على عهد الملك بشتاسب أو (كشتاسب) بن لهراسب ، وهذا يعني ان ديانته (الزرادشتية) فارسية عريقة وهي من ديانات الثنوية التي تبني وجود العالم على نوع من التوازن بين الخير والشر ، مما يرمز له بالنور والظلمة ويعرف زاردشت في الرواية الاسلامية بانه نبي المجوس ، وربما كان وصفه بالنبوة سببا لذلك الربط بينه وبين انبياء بني اسرائيل . فتزعم تلك الرواية انه من اهل فلسطين وانه كان يخدم بعض تلامذة ارميا النبي قبل ان يغدر بمخدومه فيخونه ويهاجر الى اذربيجان حيث شرع بها دين المجوس .

ولقد صنف زرادشت كتابا زعم انه لغة سماوية خوطب بها ، اي انه وحي من الله تعالى وطاف به الارض ، وانه قصد الملك بشتاسب الذي اتبعه ودان بدينه . واصبح زرادشت بمثابة الناصح له او صاحب مشورته . وفي ذلك يقول الشهرستاني ان زرادشت عندما بلغ الثلاثين سنة بعثه الله تعالى نبيا ورسولا الى الخلق فدعا كشتاسب الملك فاجابه الى دينه وكان دينه : عبادة الله والكفر بالشيطان والامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجتناب الخبائث .

اما عن النور الذي يمثل الخير فهو « يزدان » واما الظلمة التي تمثل الشر فهي « اهرمن » وهما مبدأ موجودات العالم وبجملت التراكيب من امتزاجهما وحصلت الصور من التراكيب المختلفة . والباري تعالى خلق النور والظلمة ومبدعهما وهو واحد لا شريك له ولا ضد ولا ند[١٣٣] ومن اجل مبدأ الخير والنور بني الملك بيوت النيران في البلاد ، واشعل من تلك النار التي اتى بها زرادشت في بيوت النيران ، وفي ذلك زعموا ان النيران التي كانت في بيوت عباداتهم في العصر الاسلامي الوسيط كانت من تلك النار القديمة . وهي الرواية التي لا تتفق مع ما يرد في السيرة النبوية من ان النار التي كانت للمجوس انطفئت في جميع البيوت بمناسبة البعثة المحمدية او المولد النبوي[١٣٤] .

وكتاب زرادشت يعرف عند المجوس بالبستاه (اوستا Avesta) كما يعرف عند العوام حسب مقالة المسعودي بالزمزمة ـ اتاهم فيه بالوعد والوعيد والامر والنهي وغير ذلك ولا شك ان الرواية تبالغ كثيرا عندما تقول انه كتب في ١٢ (اثني عشر) الف جلد تحظى به الكتب المقدسة عند الفرس قديما من عناية خاصة ، سواء في الكتابة بالذهب او التغليف المطعم بالجواهر ، او الحفظ في الخزانات الثمينة .

---

(١٣٣) الشهرستاني الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٧ .

(١٣٤) ابن الاثير ج ١ ص ٢٧٩ .

لقد شرح زرادشت كتابه وسمي ذلك الشرح « الزند » اي التفسير « زند اوستا » : تفسير البستاة ، ثم شرح الزند بكتاب سماه « بازند » اي تفسير التفسير [١٣٥] والى الزند اضيفت صفة زندي ، اي الذي ينحرف عن الاصل الى التفسير في هذا الدين ، وحورته العرب الى زنديق كما يقول المسعودي [١٣٦] وصفة الزنديق التي كان يرمي بها التمويه اي المانوية او من يحوم حومهم من اهل التحرر او الظرف من المسلمين . وعن البازند اي تفسير التفسير يقول ابن الاثير ان فيه علوما مختلفة مثل : الرياضيات ، واحكام النجوم والطب واخبار القرون الماضية ، وكتب الانبياء الى غير ذلك - مما يذكرنا بموسوعة رسائل اخوان الصفا اذا صح ذلك وبفضل معرفة زرادشت بالنجوم اصبح هو الذي يعين طالع تسيير الجيوش ضد الترك ، وكان الظفر على الترك مما زاد في عظم شأنه لدى الفرس [١٣٧] .

والمهم بعد ذلك او قبله من وجهة النظر الاسلامية انه جاء في كتاب زرادشت (تمسكوا بما جئتكم به الى ان يجيئكم صاحب الجمل الاحمر يعني محمدا (صلعم) [١٣٨] مما يكرس زرادشت كواحد في سلسلة الانبياء المبشرين بدعوة الاسلام المحمدية ، وبسبب ذلك تفسر تلك البغضاء التي - وقعت بين المجوس والعرب والتي ظهرت قبل الاسلام في غزو سابور ذي الاكتاف للعرب [١٣٩] كما ظهرت بعد الاسلام بشكل حاد في حركة التحرر الفارسية المعروفة باسم الشعوبية

وبالمقارنة مع رواية الشهرستاني بصدد تلك البشرى نجد ان الذي اخبر به زرادشت في كتاب زند اوستا (تفسير البستاه) : انه سيظهر آخر الزمان رجل اسمه « اشيزريكا » ومعناه الرجل العالم ، يزين العالم بالدين والعدل . . . ويرد السنن المغيرة ، وتنقاد له الملوك ، وتيسر له الامور ، وينصر الدين والحق [١٤٠] اما رواية ابن العبري فتقول انه عرف الفرس بظهور السيد المسيح وامرهم بحمل القرابين اليه [١٤١] .

وبعد زرادشت يأتي مزدك الذي وافقه في بعض ما جاء به فزاد ونقص ، وان كانت دعوة مزدك تميزت بانها حركة اصلاح اجتماعي تأخذ بالاتجاه الاشتراكي ، من : التسوية في الاموال والاملاك بل وفي النساء كما يريد لها البعض ، حتى لا يكون لاحد على احد فضل في شيء البتة . هذا كما نسب اليها

---

(١٣٥) انظر ابن ج ١ ص٢٥٩ - ٢٦٠ .

(١٣٦) مروج الذهب (تحقيق يوسف اسعد داغر ، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م دار الاندلس بيروت) ج ١ ص ٢٧٥

(١٣٧) ابن الاثير ، ج ١ ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(١٣٨) نفس المصدر ج ١ ص٢٥٩ .

(١٣٩) نفس المصدر .

(١٤٠) الملل والنحل ج ١ ص٢٣٩ .

(١٤١) مختصر تاريخ الدول ص ١٩

تحريم ذبح الحيوان والاكتفاء في طعام الانسان بما تنبته الارض وما يتولد من الحيوان مما يمكن ان يكون من قواعد البوذية او المانوية .

والاهم من كل ذلك من وجهة النظر الاسلامية ما زعمه البعض من ان مزدك كان يدعو الى شريعة ابراهيم الخليل(١٤٢) فكأنما هو من المبشرين بدعوة نبينا محمد .

بخت نصر وتداخل تاريخ النبوة والملكية الاسرائيلية بتاريخ بابل والعرب :

واعتبارا من غزو بخت نصر لبلاد الشام على عهد بهمن بن بشتاسب يتداخل تاريخ النبوة والملكية عند بني اسرائيل بتاريخ بابل ، وما ترويه كتب التاريخ من اسباب الغزوة وتخريب بيت المقدس مثل : نقض الصلح ، وقتل ملكهم او قتل رسل بهمن انما هي اسباب ظاهرية تفصيلية ، انما السبب الكلي الذي احدث هذه الاسباب الموجبة للانتقام من بني اسرائيل فهو « معصية الله تعالى ، ومخالفة اوامره » .

فعلى عهد الملك يقو نيابن يويا قيم كثرت الاحداث والمعاصي في بني اسرائيل ، فبعث الله اليهم ارميا النبي الذي ربما كان الخضر (عم) - والخضر عرفناه معلما لموسى من قبل . وازاء عدم مبالاتهم بالتحذير والانذار وتماديهم في الشر والمعصية قل نزول الوحي على ارميا وكان ذلك يعني اقتراب العقوبة والهلاك ، ولم تأت العقوبة على يدي بختنصر فقط بل ان الله ارسل ايضا صاعقة من السماء في بيت المقدس والتهب مكان القربان وخسف بسبعة ابواب من ابوابها(١٤٣) . وعاد بختنصر بعد تخريب بيت المقدس الى بابل ومعه سبايا بني اسرائيل وكان بين الصبيان الذين اختارهم : دانيال النبي ، وحنانيا ، وعزرايا وميشائيل ، وقرب بختنصر دانيال مما اثار حفيظة رجال الدولة الذين كادوا له حتى ألقي واصحابه في الاخدود مع الاسود التي لم تخدشهم فخرجوا سالمين ، وكان لوجود دانيا في بابل اثره في تعلم الملك كيرسن التوراة ودخوله في اليهودية . وادت تلك الصلة الى ان اتخذ ملوك الفرس زوجات اسرائيليات فكانت ام بهمن من نسل بنيامين بن يعقوب ، كما كانت ام ابنه ساسان من نسل سليمان ابن داود(١٤٤) .

---

(١٤٢) ابن الاثير ج١ ص ٤١٣ ، وعن مزدك انظر ايضا الشهرستاني الملل والنحل ج١ ص ٢٤٩ .

(١٤٣) ابن الاثير ج١ ص ٢٦٢ - ٢٦٥ ، وانظر المعارف لابن قتيبة ص ٢٢ (حيث النص على أن أرميا اقام في مصر بعد ... ثم عاد الى ايليا (القدس)) وقارن ابن خلدون ج ٢ ص ١٠٧ (حيث الاشارة الى تنبؤ ارميا في مصر ثم عودته الى القدس قبل ان ينتهي امره بالرجم في الحجاز) .

(١٤٤) ابن الاثير ج١ ص ٢٧٨ - ٢٧٩ وقارن تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٦٥ (حيث النص على انه كان فيمن سباهم بختنصر (وهم ١٨ الفا) الف نبي وان بختنصر تزوج امرأة اسرائيلية هي التي سألته ان يرد قومها الى بلدهم .

وفي بهمن يقال انه كان متواضعا مرضيا تخرج كتبه : من عبد الله ، خادم الله السائس لأموركم ، ورغم ذلك فليهمن قصة غريبة اذ يتزوج بابنته خماني وعندما تحمل بدارا الاول ـ الذي تصبح اخته وامه في نفس الوقت يعقد التاج على دارا وهو حمل في بطن امه . ولما كانت خماني قد ملكت قبل مولد دارا فانها تخلصت منه وليدا في قصة اشبه بقصة ام موسى عندما القته في اليم ، فلقد وضعت الملكة خماني وليدها في تابوت مع جواهر واجرته في نهر الكر في منطقة اصطخر او في نهر بلخ (جيحون) حيث اخذه طحان ورباه ولم يظهر امر دارا الاول الا عندما شب واقرت خماني باساءتها هذه ، وتوجد رواية اخرى تقول إن خماني او دارا الاول حضنته حتى كبر فسلمت اليه الملك وعزلت نفسها[١٤٥] .

والمهم انه عن طريق تلك العلاقات الاسرية سمح كيرسن لبني اسرائيل بالعودة الى بيت المقدس ، وهناك ولي دانيال القضاء واصبح بمثابة المستشار بالنسبة للملك[١٤٦] ويرجع الفضل الى عزيرا ـ الذي كان مستجاب الدعاء ـ في تجديد التوراة التي كانت اخذت منهم واعدمت ، فلقد بكي عزيرا من اجل التوراة بكاء شديدا ، فأرسل الله اليه ملاكا طلب منه ان يعد نفسه لذلك بالصوم والتطهر ، مما يذكر باستعداد موسى لتقبل الالواح في طور سيناء . وعندما سقى الملاك عزيرا ماء في اليوم التالي لصومه تمثلت التوراة في صدره ، وهكذا رجع الى بني اسرائيل فوضع لهم التوراة يعرفونها بحلالها وحرامها وحدودها . ولقد بلغ حبهم لعزيرا بسبب ذلك حتى قالوا : عزيرا ابن الله «[١٤٧] .

وكما كانت غزوة بختنصر لبني اسرائيل عقوبة انزلها الله بهم بسبب ما احدثوه من الأحداث والبدع ، ارادت الرواية ان يقوم بختنصر بغزو العرب عقوبة لهم على كفرهم وذلك بوحي من الله الى برخيا بن حنيا . وفي الوقت الذي اخذ فيه بختنصر تجار العرب في بلاده وبنى لهم حيرا بالنجف وهو اول سكنى العرب بالحيرة ـ اوحى الله الى برخيا وارميا يأمرهما بالمسير الى معد بن عدنان فيأخذاه ويحملاه الى حران ، واعلمهما انه يخرج من نسله محمد (صلعم) الذي يختم به الأنبياء .

وهكذا حفظ الله معد بن عدنان اكراما لولده محمد . فبعد حملة بخت نصر على الحجاز خرج معد بصحبة الانبياء من حران حتى اتى مكة ، فاقام اعلامها ، فحج وحج معه الانبياء وهناك تزوج من بنات بعض ولد الحارث بن مضاض الجرهمي فولدت له نزار بن معد ـ كما تريد الرواية[١٤٨] .

●●●

(١٤٥) ابن الاثير ج ١ ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .

(١٤٦) نفس المصدر ج ١ ص ٢٦٥ ـ ٢٧٨ وقارن ابن خلدون ج ٢ ص ١٠٨ .

(١٤٧) ابن الاثير ج ١ ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ وقارن لابن قتيبه ص ٦٣ [حيث النص على ان عزير كان نبيا ثم ان الله محى اسمه من الانبياء فصار رسولا فقط

(١٤٨) ابن الاثير ج ١ ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ .

المسيح آخر انبياء بني اسرائيل : ما بين عيسى وزكريا ويحيى :

أما عن غزو بني اسرائيل للمرة الثانية بمعرفة الروم زمن ملوك الطوائف فكان عقوبة لهم لما احدثوه من الاحداث ، ولقتلهم يحيى ثم والده زكريا . فلقد رفع الله منهم النبوة قبل ان ينزل بهم الذل ، ثم كان اجلاء من بقي من بني اسرائيل بعد ارتفاع السيد المسيح .

وظهور المسيح عيسى بن مريم يعتبر علامة بارزة في تاريخ النبوة ، فالعيسوية هي الديانة السماوية الثانية ، بمعنى انها اتت كحركة اصلاح للديانة اليهودية ، فعندما بعث الله عيسى رسولا نسخ بعض احكام التوراة ، ومن ذلك انه حرم زواج بنت الاخ وهو الامر الذي دعا اليه يحيى بن زكريا الذي نبيء صغيرا فكان سببا في ذبحه بين يدي هيرودس الملك ظلما ، وظل دم يحيى يغلي دهرا الى ان انتقم الله من الظالمين(١٤٩) .

اما عن زكريا الذي فر عندما علم بمقتل يحيى فكانت نهايته اشبه بتلك النهاية التي لقيها النبي شعيا من قبل ، فأثناء هربه من مطارديه مر بشجرة فنادته : هلم الي يا نبي الله وانشقت فدخلها فانطبقت عليه فشقوا الشجرة بالمنشار بعد ان اوما ابليس اليهم بذلك . هذا وتوجد رواية اخرى تقول ان ابليس جاء الى مجالس بني اسرائيل فقذف زكريا بمريم وقال لهم : ما احبلها غيره وهو الذي كان يدخل عليها ، فطلبوه فهرب ، وكان ما كان من دخوله الشجرة ونشرها(١٥٠) . وهناك رواية ثالثة تكتفي بالقول انهم ادركوه وقتلوه دون اشارة الى معجزة الشجرة(١٥١) .

ولما كانت الرواية الدارجة تحدد قتل يحيى بسنة ونصف السنة قبل رفع المسيح(١٥٢) فان هذا يعني معاصرة انبياء ثلاثة دفعة واحدة وهم : زكريا وابنه يحيى وعيسى بن مريم .

وزكريا بن برخيا هو زوج خالة السيدة مريم بنت عمران ، وهو من هذا الوجه قرين لعمران بن ماثان الذي كان من رؤوس بني اسرائيل واحبارهم . وهذا ما دعاه الى ان يطالب برعاية مريم الطفلة عندما نذرتها امها لسدانة بيت المقدس وخدمته .

---

(١٤٩) نفس المصدر ج ١ ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ (هذا ويمكن ان يخالف تحريم زواج الربيبة اي ابنة الزوجة كما تشير الى ذلك رواية اخرى) اما رواية اليعقوبي (ج ١ ص ٦٦) فتنص على ان هيرود كان يلي امرأة اخيه فنهاه يحيى (عن الحلال حق) .

(١٥٠) ابن الاثير ج ١ ص ٣٠٦ وقارن لابن قتيبة ص ٢٤

(١٥١) نفس المصدر ج ١ ص ٣١١ .

(١٥٢) ابن الاثير ج ١ ص ٢٩٩ ـ ٣٠١ (ص ٣٠٧ ـ هذا كما توجد رواية اخرى تجعل يحيى معاصرا لارد شيرين بابك أي معاصرا لبخت نصر (نفس المصدر ص ٣٠٢ ، ٣٠٦) ١/٤

اما عن دلائل نبوة زكريا فمنها : دعاؤه الى الله في صلاح زوجته العاقر وطلب الذرية واستجابة دعوته وهو قائم يصلي في المذبح الذي لهم ، اذ أتاه جبرائيل في صورة رجل شاب وبشره بيحيى ، وكذلك سؤاله الكرامة من الله حيث تقول الآية : « قال : رب اجعل لي آية ، قال آيتك الا تكلم الناس ثلاثة ايام الا رمزا » والرمز هو الاشارة فكأن الله امسك لسانه عقوبة لسؤاله الآية[153] وآخر كرامات زكريا هي انشقاق الشجرة ودخوله في جذعها مما سبقت الاشارة اليه . وهنا لا بأس من التنويه الى ان ابن الاثير عندما يبدأ كلامه في ذكر المسيح عيسى بن مريم يضيف اليه يحيى بن زكريا وحده ويقول « جمعنا هذين الامرين العظيمين في هذه الترجمة لتعلق احدهما بالآخر »[154] وان كان في مقابل ذلك يربط بين قصتي كل من زكريا ومريم .

ومريم تعني بلغتهم « العابدة » وكانت اولى مواهبها رغبة الاحبار في ان تكون رعايتها من نصيب كل منهم وعدم قبولهم لرغبة زكريا زوج خالتها الا بعد ان اتفقوا على القرعة ، فرموا اقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة في نهر جار ـ ربما كان الاردن ـ فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت اقلامهم ، وعندما كبرت مريم كان زكريا يجد في غرفتها ، التي بناها لها في المسجد والتي كان لا يرقى اليها الا بسلم ، فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء ، ولما سألها عن ذلك قالت : هو من عند ربي ، وهكذا كانت الكرامات تترى على مريم العابدة وكانت اعظمها هي ولادة عيسى بغير ذكر نفحة من روح الله ، فكأنه اول الانواع ـ اي اول ما خلق الله مثل ادم ـ كما لو كان زرعا بغير بذر ، او شجرا بغير غيث حسب سؤال يوسف النجار ورد مريم العذراء[155] .

وكان حمل يحيى بن زكريا هو الآخر آية اكرم الله بها امه العاقر واباه الشيخ الفاني ، وفي تبشير جبريل به الى زكريا تقول الآية « ان الله مبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله » ويعني مصدقا بعيسى بن مريم ، وهكذا كان يحيى اول من آمن بعيسى وصدقه ، بل انه وهو في بطن امه ، كان يسجد لعيسى الذي كان ايضا جنينا في بطن امه وذلك عندما تلتقي أماهما[156] .

اما عن يحيى الطفل فكان يتميز عن اترابه من الصبيان ، فهو لا يلعب معهم ، وهو يفضل اكل خبز

---

(١٥٣) ابن الاثير ج ١ ص ٣٠٠ وقارن تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٧٣ (من انجيل لوقا)

(١٥٤) الكامل ج ١ ص ٢٩٨ وقارن تاريخ اليعقوبي ص ٧٤ (من انجيل لوقا . حيث يوجد رجل من الانبياء يقال له شمعان ، حضر القربان الذي قدم من اجل يسوع ، وحمله وحمد الرب على ان رآه)

(١٥٥) ابن الاثير ج ١ ص ٢٩٩ ، ٣٠٨ ـ ٣٠٩

(١٥٦) نفس المصدر ج ١ ص ٣٠٠ وفي ذلك قيل ان ولادة يحيى كانت قبل المسيح بستة اشهر (تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٧٣ ـ عن انجيل لوقا) وان كانت هناك رواية اخرى تقول انه ولد قبله بثلاث سنوات اما عن مدة حمل يحيى بن زكريا فهي تتراوح ما بين ٩ اشهر ، ٦ اشهر ولكن كم الاية قيل : ساعات وقيل ساعة واحدة (نفس المصدر ج ١ ص ٣٠٩ وقارن تاريخ اليعقوبي (ج ١ ص ٧١) ـ عن انجيل لوقا . حيث كان يحيى يرتكض في بطن امه عندما تسمع كلام مريم وهي حامل بعيسى

الشعير ، بل كثيرا ما كان يأكل العشب واوراق الشجر ـ كما فعل موسى عندما فر هاربا من طلب فرعون . هذا ، ولقد نبيء يحيى صغيرا ، فكان يدعو الناس الى عبادة الله ، وهو يلبس ثياب الشعر . ويحيى في العبادة ، مجتهد بكاء ، فهو من خشية عذاب النار ـ التي حذره منها والده زكريا ـ ظل يبكي حتى اكلت الدموع لحم خديه ، وبدت اضراسه للناظرين ، وهكذا انتهى الامر بزكريا انه اذا وعظ الناس نظر حواليه فان كان يحيى حاضرا لم يذكر جنة ولا نارا(١٥٧) .

واهم معجزات يحيى كانت عندما ذبح جزاء له على نهيه عن زواج ابنة الاخ . فقد تكلم الرأس المقطوع وقال لهيرودس الملك : « لا تحل لك » كما بقي دمه يغلي الى ان انتقم الله من الجناة الظالمين مما سبق ذكره .

نبوة المسيح :

اما نبوة السيد المسيح فهي سلسلة من الآيات والمعجزات بدأت بالحمل دون ذكر وفي الموضع ـ الذي يمكن ان يكون بأرض مصر ـ كان الرطب يتساقط على مريم في غير موعده في فصل الشتاء ، هذا كما انتكست الاصنام على رؤوسها وفزعت الشياطين ، فخرجت من مكامنها ، وعند الولادة لم يمكن الملائكة ابليس من الدنو من عيسى المولود(١٥٨) ـ وكل ذلك ما نجد له شبيها في قصة المولد النبوي التي لا بأس ان يكون لها اثرها في قصة مولد المسيح هذه ، وفي المهد رضيعا كان يحدث والدته اذا خلت به وتحدثه ، وفي الطفولة كان يمر بيده على الجرار الفارغة فتمتلىء شرابا ، وفي صباح كان يحدث اترابه من الصبيان بما يصنع اهلوهم وما يأكلون ، بل كان يستطيع احياء الميت كما فعل عندما اتهم في قتل الصبي ، فطلب القتيل حتى يسأله من قتله ، ودعا الله فأحياه وقال : قتلني فلان يعني الذي قتله ، ثم مات الغلام من ساعته(١٥٩) مما يذكر بمعجزة موسى عندما اشكل عليه الامر في قضية قتل مشابهة وان اختلفت الوسيلة .

وعندما بلغ مبلغ الشباب وتعلم مهنة الصباغة ، كان يضع الثياب في جب (جرة : زير) واحد « فيخرج كل ثوب منها ـ لدهشة رفاقه ـ على اللون الذي اراد صاحبه » وعندما بلغ المسيح السنة الثلاثين من عمره اتته النبوة والرسالة(١٦٠) فأوحى الله اليه ان يبرز للناس « ويدعوهم الى الله تعالى

---

(١٥٧) ابن الاثير ج ١ ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ وقارن ابن خلدون العبر ، ج ٢ ص ١٤٤ .

(١٥٨) ابن الاثير ج ١ ص ٣١٢ .

(١٥٩) نفس المصدر ج ١ ص ٣١٣ .

(١٦٠) نفس المصدر ج ١ ص ٣٠٧ ، ص ٣١٤ وقارن تاريخ البطريرج ١ ص ٧١ (من الجيل ثوثا)

ويداوي الزمني والاكمه والابرص وغيرهم ـ وفي ذلك يقال ان الطب كان غاليا في زمانه فاتاهم بما ابرأ الاكمه والابرص تعجيزا لهم . واكثر من هذا فقد كان ينفخ في الطين الذي يصور على هيئة الطير فيصير طيرا ، كما كن يحيى الموتى ـ مثلما فعل بعازر[١٦١] .

هذا وتقول الرواية ايضا انه احيى يحيى بن زكريا ، واحيا سام بن نوح الذي ظن ان القيامة قد قامت فقال له المسيح لا ولكني دعوت الله فأحياك ، والظاهر ان احياء سام كان بغرض سؤاله عن قصة الطوفان ـ التي حيرت الناس ـ وذلك انه بعد ان رد على سؤالهم عنه عاد ميتا .

ومن اهم المعجزات ما يتعلق بزيادة الطعام ـ وهو الامر الطبيعي في البلاد التي كانت تعاني من قلة القوت ، كما كانت تهدها المجاعات . والمثل لذلك معجزة القصعة التي كان يأكل منها مع الناس فلا تنقص ، ثم المائدة التي نزلت من السماء بدعوته الى الله لكي تكون لهم عيدا لأولهم وآخرهم ، ومن خبر تلك المائدة انها لم تكن تنقص بل كانت تزيد حتى يبلغ الطعام الركب . وفي نوع الطعام الذي نزل عليها قيل : ٧ (سبعة) ارغفة وسبعة احوات (سمكات) وفي ذلك اشارة الى مهنة الصيد التي كان يمتهنها الحواريون ، وان قيل انهم اشتغلوا بالصباغة مع المسيح وانهم كانوا قصارين او ملاحين[١٦٢] هذا كما قيل ان ما عليها كان من الخبز واللحم ، او انها على العكس من ذلك ، كانت تمد بكل طعام الا اللحم ، او ان ما عليها كان من ثمار الجنة . ولا شك ان كل نوع من تلك الاطعمة يقصد به نوع من الرمز ، من الخير والبركة في البر والبحر وفي طعام اهل الجنة .

اما عن الاكلين فقد تراوح عددهم ما بين ١٣٠٠ (ألف وثلاثمائة) من المرضى والزمنى والفقراء ، لم يشاركهم المسيح ولا اصحابه من الحواريين ، وقيل انهم بلغوا ٥ (خمسة) آلاف ولم يشبع الاكلون فحسب ، بل لقد صح المرضى والزمنى ، بينما استغنى الفقراء منهم ، واخيرا صعدت المائدة الى السماء وهم ينظرون اليها حتى توارت ، وقدم الحواريون لانهم لم يأكلوا منها[١٦٣] .

ومسألة عدم اكل المسيح من المائدة التي تركت للفقراء تذكر بما هو معروف في السيرة النبوية من ان الرسول كان لا يأكل من الصدقة وان كان يقبل الهدية . وتحدث الناس بحديث المائدة فكذب من لم يشهد وقالوا : سحر أعينكم وكانت عقوبة المكذبين ـ الذين بلغ عددهم ٣٣٣ (ثلاث مائة وثلاثة وثلاثين) رجلا ـ ان مسخوا خنازير لمدة ثلاثة ايام ، انهم هلكوا . هذا ولو ان قصة المسخ هذه ترتبط

(١٦١) نفس المصدر ج ١ ص ٣١٤ ـ ٣١٥ وانظر تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٧٥ ـ ٧٦ .

(١٦٢) نفس المصدر ج ١ ص ٣١٤ .

(١٦٣) نفس المصدر ج ١ ص ٣١٤ ـ ٣١٧ (وقيل ايضا في المائدة انها ظلت طوال اربعين يوما تنزل يوما وتنقطع يوما)

ايضا بقصة رفع المسيح الى السماء ـ فعندما رآه الناس من اليهود ـ من معارضي دعوته ـ اتهموه بالسحر وكذلك امه ، كما قذفوهما . وهنا دعا عليهم المسيح فاستجاب الله دعاءه ومسخهم خنازير(١٦٤) .

ثم كانت المؤامرة التي انهت دعوة المسيح ـ التي لم تطل الى اكثر من ثلاث سنوات ـ بمعجزة الرفع الى السماء ، فعندما اعلم الله المسيح انه خارج من الدنيا صنع طعاما ودعا الحواريين وعشاهم وخدمهم ، واظهر من التواضع في خدمتهم والحب لهم ما لا مزيد عليه ، فغسل ايديهم ومسحها بثيابه ، واثناء ذلك « العشاء الاخير » قال لهم « ليكفرن احدكم قبل ان يصيح الديك ثلاث مرات ، وليبيعني احدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمني . اما عن قصة الرفع فيلخصها ابن الاثير في : انه عندما اراد راس (ملك) اليهود قتل عيسى بعث الله اليه جبرائيل فادخله في خوخة الى بيت فيها روزنة في سقفها فرفعه الى السماء . وعندما دخل عليه المكلف بقتله ولم يجده خرج وقد اظلمت الدنيا فظنوه هو ـ اي المسيح ـ فقتلوه وصلبوه وقيل ايضا ان الذي قتل مكانه هو الحواري الذي دل عليه اي يهوذا(١٦٥) .

والرواية هنا تريد ان يكون صعود المسيح الى السماء صعودا ماديا ، حيث انها جعلت في سقف الحجرة التي لجأ اليها روزنة (اي نافذة) كانت وسيلته في الصعود الى السماء ولا بأس من الاشارة الى اختلاف الآراء حول كيفية الصعود ، فقد رآه البعض بالجسد وبطريقة مادية ، وهذا ما عبر عنه الرسامون المسيحيون برفع غطاء تابوت الدفن أثناء ارتفاع الجسد ، بينما رأى آخرون من آباء الكنيسة انه يمكن لجسد المسيح ان ينفذ من التابوت وغيره كما ينفذ الضوء من الزجاج الشفاف ، وربما عبر اصحاب هذا الرأي عن خلود النفس وصعودها بعد موت الجسد الى ملكوت السماوات ، وهذا هو رأي اخوان الصفا الذي ينصون على ان الانبياء يعتقدون في بقاء النفس ، ويضربون المثل في تفاهة الجسد بما فعله المسيح بـ « ناسوته » ووصيته للحواريين .

فلقد دعا المسيح اصحابه للذهاب الى ملوك الاطراف وابلاغهم الدعوة وقال لهم « فاني اذا فارقت ناسوتي فاني واقف في الهواء عن يمنة عرش ابي وابيكم ، وانا معكم حيثما ذهبتم ، ومؤيدكم بالنظر والتأييد باذن ابي . . . أمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ما لم تقتلوا او تصلبوا او تنفوا من الارض »(١٦٦) وقريب من ذلك ما تقدمه رواية اخرى من وصف لعملية الصعود يجعلها قريبة من الاذهان على طريقة التصوير في علم حياة القديسين ، المعروف بالـ « جيوجرافي » .

(١٦٤) ابن الاثير ج ١ ص ٣١٦ ـ ٣١٧ ـ ٣١٨ .

(١٦٥) نفس المصدر ج ١ ص ٣١٨ ـ ٣١٩ وهنا تشير الرواية الى اختلاف العلماء في موت المسيح قبل رفعه الى السماء ، فقيل انه رفع ولم يمت وقيل توفاه الله ٣ ساعات او ٧ ساعات ثم احياه ورفعه ، وفي مقتل المسيح حسب الاناجيل انظر تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٧٦ وص ٧٨

(١٦٦) رسائل اخوان الصفاء ٤ ص ٢٨ .

فبعد الرفع بسبعة ايام نزل المسيح فاشتعل الجبل حين هبط نورا وقال لأمه انه رفع الى السماء ، وعندما جمعت له الحواريين بثهم في الارض رسلا عن الله وامرهم ان يبلغوا عنه ما امره الله به ». ثم رفعه الله اليه وكساه الريش والبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وطار مع الملائكة فهو معهم فصار ـ انسيا ملكيا ـ سماويا ارضيا »(١٦٧) مثل النبي الياس من قبل .

الحواريون رسلا :

هكذا اصبح تلاميذ المسيح من الحواريين رسلا ، اي مبعوثين من قبل الله ، وان كانوا في درجة اقل شرفا من الانبياء ، وبذلك وقع عبء الدعوة للمسيحية على عاتق الحواريين فعلا ، وهذا ما يتمثل في اناشيدهم الاناجيل الاربعة ، وما دعا بعض الدارسين من العقلانيين الى النظر الى المسيح على انه يمثل معنى رمزيا اكثر منه شخصية تاريخية(١٦٨) وهذا ما دعا آخرين الى الرد على تلك المقالة بانه : كما لا يوجد اسلام بغير محمد كذلك لا مسيحية بدون يسوع .

والمهم انه على عكس ما قد يظنه البعض من ان المسيح هو المبعوث الرباني قبل الاخير ، اي قبل محمد ، فان المسيحية تظل تسير في دورة نبوة وانبياء ، او بتعبير اصح في دورة رسل ومرسلين اشبه بتلك التي سارت فيها الابراهيمية الحنيفية ومن بعدها الموسوية التوراتية او اليهودية . فيونس بن متى الذي كان من اهل نينوى ، والذي نسب الى انه مثل عيسى ظل ٣٣ (ثلاثة وثلاثين) سنة ينهى قومه عن عبادة الاصنام فلما يئس من ايمانهم دعا عليهم ، وعندما بدأت آية العذاب تظهر عليهم وهم يبحثون عن يونس فلا يجدونه الهمهم الله التوبة فقاموا برد المظالم جميعا : « حتى ان احدهم كان ليقلع المجرمين بنائه فيرده الى صاحبه » وعندما علم يونس بتوبتهم وان الله كشف عنهم العذاب ، غضب ورفض العودة الى بلده وقال : والله لا ارجع كذابا ، ومضى مغاضبا لربه ، فركب احدى السفن على ان يسيح فيها بعيدا عن اهله ووطنه ، وكانت عقوبة الله له بأن اوقف السفينة ، وعندما عرف يونس انها وقفت بخطيئته ، القى بنفسه في البحر ـ لكي تسير ـ فالتقمه الحوت ـ الذي اوحى اليه الله ان لايخدش له لحما ولا يكسر له عظما . وبذلك حبسه الله في بطن الحوت بسبب عصيانه ، الى ان اطلقه بشفاعة عمله الصالح السابق وامره بالعودة الى قومه . ومع ذلك بقي يونس خارج القرية الى ان شهدت بوجوده الشاة والشجرة .

(١٦٧) لا يخلو من الاشارة هنا الى انه كان من وصية المسيح لاصحاب البشرى بالبلاد الفار قليط الذي يكون منهم نبيا (انظر تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٧٦)

(١٦٨) انظر كارل ياسبرس فلاسفة انسانيون (سقراط ـ بوذا ـ كونفوشيوس ـ يسوع) ترجمة عادل العوا [illegible] ، منشورات عويدات ، بيروت ص ٢٣٩ ـ حيث يقتطف المؤلف نصا من ([illegible]) يقول فيه : « لقد حفظت المسيحية الاولى بعد موت يسوع من كل انواع [illegible] التاريخية عندما اصبح اتباعها [illegible] انه [illegible] ـ اتصاله بالاعراج [illegible] وان بولس هو اول من ادخل [illegible] يسوع لشخص تاريخي »

وبسبب ما كان في يونس من الحدة والعجلة وقلة الصبر . نهى النبي (صلعم) ان يكون مثله فقال تعالى : « ولا تكن كصاحب الحوت »(١٦٩) .

واهل الكهف الذين كانوا على شريعة عيسى ، وان رأى البعض انهم كانوا قبل العصر المسيحي ، فقد كانت آيتهم النوم لمئات السنين ثم الصحو ، وقد اصبح الناس غير الناس ، وكان الغاية من ذلك الآية ان يثبت الله لأهل قريتهم ان البعث يكون بالروح والجسد جميعا ، هذا ولو ان صحوهم كان مؤقتا اذ توفاهم الله بناء على رغبتهم(١٧٠) والذي يسترعي الانتباه فعلا هو ان كثيرا من معجزات احياء الموتى مما هو منسوب الى الانبياء والرسل لم يكن بهدف البعث نفسه بل بغرض التدليل على صحة واقعة ما ، مثل : إحياء سام ليقرر صحة الطوفان ، او احياء القتيل ليدل على حقيقة من قتله كما حدث مع موسى وهو يحكم ، اومع عيسى صبيا عندما اتهم بقتل بعض الغلمان فكان الهدف من الآية هومعرفة الشيء الخفي اي التنبي .

ويعتبر شمشمون الجبار من الاولياء ان لم يكن من الرسل المبعوثين فقد كان اذا عطش انفجر له الحجر الذي فيه ماء عذب . اما عن قوته الأسطورية فتتضاءل امامها قوة موسى اذ كان لا يوثق الحديد ، ومكمن قوته تلك كان في شعره ، وهو الامر الذي لم يطلع عليه غير امرأته التي خانته واوثقته عندما نام . وبذلك واتت الفرصة للانتقام من الجبار العنيد فاخذوه وجدعوا انفه وسملوا اذنيه وفقأوا عينيه ، وعندما دعا المظلوم ربه ان يسلطه عليهم رد الله بصره ، وامره ان يأخذ بعمودين من عمد المدينة الظالم اهلها فيجذبها لكي تقع المدينة بملكها الحقود(١٧١) .

واما جرجيس الذي عاش في الموصل فيوصف بانه كان رجلا صالحا من اهل فلسطين وانه كان يكتم ايمانه مع اصحاب له صالحين ممن ادركوا بقايا الحواريين خشية ملك المدينة الجبار . وكان جرجيس صاحب تجارة كبيرة ولكنه عرف بالجود والسخاء ، وفي ذلك كان يقول لولا الصدقة لكان الفقر احب الى من الغنى . وعن هذا الطريق اكرمه الله ، فبعد ان كان آدميا يأكل ويشرب جعله أنسيا ملكيا . وهذا ما يفسر تحمله لالوان العذاب والآلام التي لا يطيقها البشر ، فالملك الجبار الذي اراده ان يعود الى عبادة الاصنام ، يمشطه بالحديد حتى يتقطع لحمه وعروقه ، وينضح جروحه بالخل والخردل ، ويسمر رأسه بالمسامير المحمية وهو يقول له : ان الهي حمل عني عذابك وصبرني ليحتج عليك .

---

(١٦٩) ابن الاثير ج ١ ص ٣٦٠ - ٣٦٢ .

(١٧٠) ابن الاثير ج ١ ص ٣٥٥ - ٣٥٧ وقارن المعارف لابن قتيبة ص ٢٥ ، حيث القول انهم بدأوا نومهم قبل المسيح وكان صحوهم فيما المسيح وبعد النبي (صلعم)

(١٧١) ابن الاثير ج ١ ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .

وعندما يؤيد الله جرجيس بالملائكة فيخرجه من السجن لمجاهدة عدوه ، يعجز الملك الجبار عن التخلص منه ، فهو عندما يقتله ويقطعه اربا ويلقيه للسباع يجمع الله جسده ويسويه ، وعندما يقولون انه ساحر ويدعون ساحرهم لاختباره يعترف الساحر العجيب ـ الذي يستطيع ان يحرث ويزرع ويحصد ويدق ويذري ويطحن ويخبز ويأكل في ساعة ـ بان جرجيس جبار السماء والارض ، ويؤمن به وعندما يحمى جرجيس في ثور نحاس مع رصاص ونفط وكبريت حتى الموت يرسل الله ميكائيل فيحييه . وهو اخيرا يدعو الله فتحضر دعامة البيت الخشبية اليابسة وتنبت كل فاكهة تؤكل وتعرف(١٧٢) .

وهكذا يعاني ولي الله جرجيس افظع ما يخطر على البال من الوان العذاب ويجعل الله له اشرف ما اكرم به مبعوثيه من الآيات مما يذكر : بنار ابراهيم الباردة ، وعصا موسى المزهرة ، وبلسم عيسى الشافي .

تحول النبوة نحو بلاد العرب :

البشارة : ملوك وكهان وحنفاء يبشرون بالنبي (صلعم) :

ومن هنا تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ النبوة والكهانة والتنبي يتحول بموجبها نحو بلاد العرب ، فتكون بمثابة البشارة بظهور نبي العرب محمد آخر الرسل وخاتم الانبياء .

فمن احداث العرب المشهورة على عهد يزدجرد وفيروز ما حدث لتبع بن حسان ملك اليمن فقد ، استهامت به الجن (اي عشقته وسارت به على غير هدى) ورجع من استهامته تلك وهو اعلم الناس بما كان قبله ، فكان ذلك سببا في ملكه اليمن وهيبة حمير له(١٧٣) .

والاهم من ذلك انه قدم على تبع كاهن العرب المشهور شافع بن كليب الصدفي وعندما سأله تبع ان كان يجد لقوم ملكا يوازي ملكه : ذكر ملك بني غسان في بلاد الشام ، وعندما سأله ان كان يجد ملكا يزيد عليه ؟ قال : « اجده لبار مبرور ايد بالقهور ووصف الزبور وفضلت امته في السفور يفرج الظلم بالنور ، احمد النبي طوبى لأمته حين يجيء ، احد بني لؤي ثم احد بني قصي فنظر تبع في الزبور فاذا هو يجد صفة النبي (صلعم)(١٧٤) .

وعلى عهد قباذ الذي كان زنديقا : يظهر الخير ويكره الدماء ويداري اعداءه عزم الملك اليمني تبان اسعد ابو كرب على تخريب يثرب (المدينة) ولكن منعه من ذلك حبران من يهود بني قريظة عالمان

---

(١٧٢) نفس المصدر ج ١ ص ٣٦٢ ـ ٣٧٣ .

(١٧٣) نفس المصدر ج ١ ص ٤١٠

(١٧٤) ابن الأثير الكامل ج ١ ص ٤١٢

بأحوال الحدثان اذ قالا له : انها مهاجر نبي من قريش تكون داره . فقبل نصيحتهما ودخل في دينهما . وعندما اخذ في دعوة قومه الى اليهودية حاكموه الى النار التي تأكل الظالم ولا تضر المظلوم فكأنها نار ابراهيم الخليل ، وعن هذا الطريق انتشرت اليهودية في بلاد اليمن[١٧٥] .

وقصة التحكيم الى النار هذه ، التي تعتبر نوعاً من المباهلة تذكر بنار الاخدود التي امتحن بها نصارى نجران من قبل نواس ملك اليمن . وكانت المسيحية قد انتشرت بنجران بفضل رجل مجتهد صالح اسمه فيمان كان ـ مثل الحواريين وخلفائهم من آباء الكنيسة ـ يشفي المرضى ويبرىء الاكمه والابرص ، ولقد تعرض الرجل لمحن كبيرة امتحنه بها ملك نجران الذي كان يلقى به من رأس الجبل فيقع الرجل الصالح على الارض لا بأس به ـ مما يذكر بكرامات جرجيس في الموصل ، ولن يتمكن الملك من قتل فيمون الا بعد ان آمن بدعوته ودخل في دينه . ويحدد ابن عباس استشهاد ذلك الرجل بـ ٧٠ (سبعين) سنة قبل مولد النبي (صلعم)[١٧٦] وكان اضطهاد ذي يزن للنصارى سببا في غزو الحبشة لبلاد اليمن .

واهم معارف الحدثان على عهد تبع التنبؤ بغزو الحبشة لبلاد اليمن ، وذلك انه لما ملك تبع قبائل ربيعة ، بمعنى سقوط العرب العدنانية تحت سلطان القحطانية ، رأى تبع في نومه رؤيا هالته فلجأ الى الكهان والسحرة والعيافة الذين احتاروا في تفسيرها ، ولم ينجح منهم الا كاهنا غسان الشهيران وقتئذ ببلاد الشام وهما : سطيح وشق .

وفي تفسير الرؤيا قال له سطيح في كلامه المسجوع « أحلف بما بين الحرتين من حنش ليهبطن ارضكم الحبش فليملكن ما بين أبين الى جرش . . خروجهم على يد وارم ذي يزن ، يخرج عليهم من عدن فلا يترك احدا منهم باليمن . » وتنسب الرواية الى سطيح عندما سئل : هل للدهر من آخر ؟ أنه قال : « نعم يوم يجمع فيه الاولون والآخرون يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون ، فكأنه كان يؤمن بيوم الحساب والمثوبة والعقاب ، وعندما سأل الملك ان كان ما يخبرهم به حقا ؟ قال سطيح « نعم والشفق والغسق والفلق اذا اتسق ان ما انبأتك به لحق » اما اهم ما في نبوءة سطيح فهي التبشير بالنبي العدناني . فعندما سئل ان كان ذو يزن يدوم قال « بل ينقطع ، يقطعه نبي زكي يأتيه الوحي من العلي وهو رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر يكون الملك في قومه الى آخر الدهر »[١٧٧] .

---

(١٧٥) نفس المصدر ج ١ ص ٤١٦ .

(١٧٦) نفس المصدر ج ١ ص ٤٢٥ ـ ٤٣٠ (والحقيقة ان رواية ابن عباس تنسب هذا الاستشهاد الى تلميذ « فيمون » واسمه عبد الله بن الثامر ، وكان غلاما للملك الذي اراد ان يعلمه السحر فقصد الغلام الراهب فيمون ودخل في خدمته بدلا من الذهاب الى الساحر

(١٧٧) نفس المصدر ج ١ ص ٤١٨ ـ ٤١٩ .

ولا يختلف تفسير الكاهن شق كثيرا عن تفسير سطيح للرؤيا التي قال عنها في كلامه المسجوع « رأيت جمجمة ، خرجت من ظلمة فوقعت بين روضة واكمة فاكلت منها كل ذات نسمة » وفي تأويلها قال : احلف ما بين الحرتين من انسان لينزلن ارضكم السودان وليملكن ما بين ابين الى نجران ، في توقيت ذلك قال للملك « بعدك بزمان ثم يستنقذكم منه عظيم ذو شان . يخرج من بيت ذي يزن واجابه عن دوام سلطانه وانقطاعه قال « بل ينقطع برسول مرسل ، يأتي الحق العدل بين اهل الدين والفضل ، يكون الملك في قومه الى يوم الفصل » وعندما سئل عن يوم الفصل قال « يوم تجزى فيه الولاة ويدعى من السماء بدعوات ويسمع منها الاحياء والاموات ويجتمع فيه الناس للميقات »[١٧٨] .

وهكذا فان الكاهنين العربيين قد عزما بما يحدث من ملك الحبشة لليمن قبل الاسلام ، كما انهما بشرا ببعث النبي العربي العدناني واستمرار الخلافة في قريش الى جانب ايمانهما بيوم الحساب والثواب والعقاب .

والحقيقة ان اصحاب السيرة النبوية يربطون ايضا بين مولد الرسول وبين سطيح الكاهن ، فبمناسبة المولد الشريف قالوا : انه ارتج ايوان كسرى وسقطت ١٤ (اربع عشرة) شرفة كما خمدت بيوت النيران ـ مما لم يكن له نظير منذ الف سنة ـ الى غير ذلك من المشاهد الطبيعية غير العادية في بلاد اخرى ، ولما كان فقيه الفرس ورئيس المجوس المعروف بالموبذان قد رأى في المنام ـ تلك الليلة ما هاله من الابل الصعاب التي تقودها الخيل العراب ، التي اقتحمت دجلة وانتشرت في بلادهم ، فانه رأى ان يستعين ملك العرب في الحيرة لكي يرسل اليه رجلا من علمائهم لاستشهادهم بانهم اصحاب علم بالحدثان . وعندما مالم ينجح كاهن الحيرة وهو عبد لمسيح الغساني في تأويل تلك الرؤيا رأى ان يلجأ الى خاله سطيح بالشام واستطاع سطيح الذي كان يحتضر ان يؤول ما حدث في فارس ، فقال لابن اخته كاهن الحيرة بالكلام المسجوع « عبد المسيح على جمل مشيح الى سطيح وقد اوفى على الضريح ، بعثك ملك بني ساسان لارتجاج الايوان . . فليست بابل للفرس مقاما ولا الشام لسطيح شآما ، يملك منهم ملوك وملكات عدد سقوط الشرفات وكل ما هو آت آت » .

واذا كان كسرى قد تعزى بانه مازال ١٤ (اربعة عشر) ملكا من آل ساسان يحكمون قبل زوال ملكهم ، وانه ربما يدور الزمان ، فالذي حدث انهم هلكوا جميعا في ٤٠ (اربعين) سنة[١٧٩] ودخل المسلمون بلادهم على عهد آخرهم يزدجرد .

(١٧٨) ابن الأثير ١ ص ٤١٩ - ٤٢٠
(١٧٩) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٨ - ٣٠

واذا كان من المقبول في الفكر الاسلامي ان يعرف الكهنة علم الحدثان ، وان يبشروا مثل الانبياء والرسل بالبعثة النبوية ، فان الامر الغريب حقا هو ما يسجله الكتاب المسلمون بشأن ما ينسب من النبوة قبيل ظهور الاسلام الى خالد بن سنان العبسي وما كان له من معجزة اطفاء النار التي ظهرت في ارض العرب فافتتنوا بها وكادوا يتمجسون . مما يعبر عن كراهية العرب لعبادة النار الفارسية . والاكثر غرابة من كل ذلك في تلك الرواية هو ما ينسب الى النبي (صلعم) من انه قال في خالد بن سنان « ذلك نبي ضيّعه قومه » وما قيل من ان ابنة خالد اتت النبي (صلعم) فآمنت به . ولا يقلل من تلك الغرابة ما يثار في نهاية القصة من التشكيك في صحة وضعها الزمني قبيل ظهور الاسلام مباشرة حيث الاشارة الى ما قيل من ان نبوة خالد كانت ايام ملوك الطوائف ، وانها كانت بعد المسيح بثلاثمائة سنة اي قبل الاسلام بثلاثمائة سنة (١٨٠) وتصوير النار التي اطفأها خالد بن سنان في السيرة الحلبية بانها خرجت من بئر يمكن ان تلفت النظر الى مواضع آبار النفط الحالية وهو الامر غير المستبعد .

اما ما هو اقرب الى واقع تاريخ فترة ما قبل النبوة مباشرة فهي كهانة قس بن ساعدة الذي كان يتردد على اسواق العرب على جمل احمر ـ مثلما يوصف جمل النبي عند من بشروا ببعثه ـ فيخطب في الناس داعيا الى التأمل في ملكوت السموات والارض ، ومبشرا بدين خير مما كانوا يدينون به وقتئذ . وفي ذلك قيل انه اول من تأله ، اي تعبد ، بمعنى انه ترك عبادة الاصنام ، فعندما اتت الوفود الى النبي في العام التاسع للهجرة واستقبل وفد اياد ، سألهم ان كان فيهم من عرف قس بن ساعدة الايادي ثم قال لهم « ما انساه بسوق عكاظ في الشهر الحرام على جمل احمر وهو يخطب الناس ويقول« اسمعوا وعوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت . ان في السماء لدينا هو ارضى من دينكم هذا . ثم قال « مالي ارى الناس يذهبون ولا يرجعون ، ارضوا بالاقامة فاقاموا ام تركوا فناموا » .
وعندما سألهم النبي عمن يروي من شعره انشد بعضهم :

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا ... للموت ليس لها مصادر(١٨١)

وفي حكم قس بن ساعدة قيل انه : اول من قال : البينة على من ادعى واليمين على من انكر ، وهو المبدأ الذي اصبح شهيدا في القضاء الاسلامي ، ولو ان اصحاب السيرة ينسبونه الى داود النبي والى كعب بن لؤي . هذا كما قيل ان قس بن ساعدة هو اول من اتكأ على عصا او قوس او سيف عند الخطبة .

(١٨٠) ابن الاثير ج ١ ص ٣٧٦ ، السيرة الحلبية ج ١ ص ٢١
(١٨١) العقد الفريد ج ٤ ص ١٢٨ وقارن السيرة الحلبية ج ١ ص ١٩٦ ، ١٩٧ (حيث اختلافات طفيفة في النص)

وهي العادة التي اصبحت اسلامية صميمة في خطبة الجمعة . وكذلك قيل انه اول من قال « اما بعد وهو فصل الخطاب . ولو قيل أيضا ان أول من قال ذلك هو كعب بن لؤي ، بل ونسب ذلك الى جد العرب الاول يعرب بن قحطان اول من تكلم باللسان العربي الذي اليه ينسب ، ومع انه من الواضح ان فصل الخطاب هنا خاص بطريقة ترتيب الخطبة وبراهين الاقناع فيها ، الا ان صاحب السيرة الحلبية يريد ان يربط فصل الخطاب الخاص « اما بعد » بفصل الخصومة في القضاء والحكم مما قيل فيه : البينة على المدعي واليمين على من انكر وهو موضوع آخر كما نظن[١٨٣] .

والظاهر انه بمرور الوقت ازدادت قصة قس بن ساعدة تفصيلا ، ولم يكتف الرواة بالاشارة الى الاختلافات الخاصة بمعاني الخطبة السابقة ، من : اضافة عبارات مسجوعة جديدة بعد « وكل ما هو آت آت » مثل « ليل داج ، وسماء ذات ابراج وبحر عجاج ونجوم تزهر وجبال مرسية وانهار مجرية » ، ومثل « اي الصعب ذو القرنين ملك الخافقين واذل الثقلين وعمر ألفين ، ثم كان ذلك كلمحة عين » .

بل صار التركيز على تبشير قس بن ساعدة بقرب زمان النبي (صلعم) كما قيل ان كعب بن لؤى هو الآخر ـ كان يبشر في خطبه بالنبي (صلعم) فبعد قوله « ان لله دينا هو احب اليه من دينكم الذي انتم عليه » ينسب الى أبي بكر أنه قال « ونبيا قد حان حينه وأظلكم زمانه فطوبى لمن آمن به فهداه وويل لمن خالفه فعصاه » ثم قال « تبا لأرباب الغفلة من الأمم الخالية والقرون الماضية . يا معشر اياد (قبيلة اليمنية) اين الأباء والأجداد واين المريض والعواد واين الفراعنة الشداد اين من بنى وشيد ، وزخرف ونجد (اي زين وطول) وغره المال والولد . اين من بغى وطغى وجمع فاوعى وقال : انا ربكم الأعلى ، الم يكونوا اكثر منكم أموالا واطول منكم آجالا وأبعد منكم آمالا طحنهم التراب بكلكله وفرقهم بتطاوله . . كلا بل هو الله الواحد المعبود ليس بوالد ولا مولود[١٨٤] .

وواضح من تلك الاضافة ان بعضها اسلامي لحما ودما مثل : قول فرعون انا ربكم الاعلى وكذلك عبارات التوحيد الاخيرة . وفي البشارة تأتي رواية اخرى منسوبة لابن عباس تقول : ان قس بن ساعدة كان يخطب قومه بسوق عكاظ فقال « سيأتيكم حق من هذا الوجه واشار بيده نحو مكة قالوا له « ما هذا الحق ؟ قال : رجل ابلج احور من ولد لؤي بن غالب يدعوكم الى كلمة الاخلاص وعيش نعيم لا ينفذان ، فاذا دعاكم فاجيبوه ولو علمت اني اعيش الى مبعثه لكنت اول من يسعى اليه »[١٨٥] .

---

(١٨٢) انظر السيرة الحلبية ج ١ ص١٩٦ ـ ١٩٧ .
(١٨٣) ابن الاثير ج ٢ ص ٢٤ .
(١٨٤) السيرة الحلبية ج ١ ص١٩٧ .
(١٨٥) السيرة الحلبية ج ١ ص١٩٨ .

والذي يلفت النظر هو ما يورده صاحب السيرة الحلبية من رواية تلك القصة بطرق متعددة مما يحمل في ثناياه فكرة التشكيك في صحتها ، وهو الامر المقبول فعلا اذ انه اتبع ذلك باختلاف آراء العلماء بهذا الصدد . فابن الجوزي - صاحب نقد العلم والعلماء المعروف بتدليس ابليس - يرى ان حديث قس بن ساعدة باطل من جميع جهاته . اما ابن حجر العسقلاني فهو لا يقبل رأي ابن الجوزي المتشدد في انكار القصة اصلا ، وان كان رأيه ان طرق الحديث كلها ضعيفة . اما الحافظ بن كثير فهو ينص على ان هذه الطرق على ضعفها كالمتعاضدة على اثبات اصل القصة[١٨٦] فكان يريد القول ان كثرة المقدمات الخاطئة يمكن ان تؤدي الى نتيجة صحيحة .

والمهم من كل ذلك هو ما ترمز اليه الرواية - التي يمكن ان توصف بانها معبرة عن الوجدان العربي الاسلامي من ان انساك العرب وعبادتهم كانوا مبشرين حقيقة بظهور الرسول العربي خاتم الانبياء . وفي ذلك قيل ان قس بن ساعدة كان حنيفا مؤمنا اذ نسب الى الرسول (صلعم) قوله : رحم الله قسا ، انه كان على دين ابي اسماعيل بن ابراهيم « والله اعلم كما تقول صاحب السيرة الحلبية[١٨٧] والاكثر غرابة من ذلك ما ينسب الى النبي (صلعم) من انه قال : لا تسبوا ربيعة ولا مضر فانهما كانا مؤمنين على ملة ابراهيم[١٨٨] مما يعني ان الابراهيمية الحنفية كانت متأصلة بين كل من الربعية والمضرية اي بين كل عرب الشمال من العدنانية . ولقد رأينا في قصة غزو بختنصر كيف حفظ الله معد بن عدنان من الهلاك ببركة محمد الذي سيكون من نسله وهو ما يعطي للاسلام صفة عرقية عربية مميزة .

وهكذا كانت العروبة على بكرة ابيها من قحطانيتها الى عدنانيتها بملوكها وكهنتها ونساكها تقف متحفزة منتصبة على اهبة الاستعداد لاستقبال نبيها المنتظر الذي كان املا في حشايا الوجود منذ خلق آدم الى مولد معد بن عدنان ثم ربيعة ومضر قبل ان يظهر نورا في جبين عبد الله بن عبد المطلب ثم في جبين آمنة بنت وهب ام النبي . وكان من حق العرب ان يباهوا به الامم من : الفرس المجوس اصحاب بيوت النيران ، والروم الصابئة اصحاب بيوت الاصنام ، وخاصة بني اسرائيل اليهود اصحاب الانبياء والملوك والقضاة ، وهذا ما تعبر عنه القصة المنسوبة الى شداد بن اوس والتي تقول ان بعض شيوخ بني عباد اتى متوكئا على عصاه وقال للنبي « يا ابن عبد المطلب اني انبئت انك تزعم انك رسول الله ، ارسلك بما ارسل ابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الانبياء الا وانك وانك تزعم انك

---

(١٨٦) نفس المصدر ج ١ ص ١٩٨ .
(١٨٧) نفس المصدر ج ١ ص ١٩٨
(١٨٨) نفس المصدر ج ١ ص ٢٠ .

فهت بعظيم ، الا وقد كانت الانبياء من بني اسرائيل ، وانت ممن يعبد هذه الحجارة والامثال ومالك وللنبوة ، وان لكل قول حقيقة فما حقيقة قولك وبدء شأنك ؟

وتقول القصة ان النبي اعجب ايما اعجاب بمسامة الشيخ العادي ، وانه بعد ان اجلسه قال له « ان حقيقة قولي وبدو شأني الي دعوة ابي ابراهيم وبشرى اخي عيسى وكنت بكر أمي وحملتني كاثقل ما تحمل النساء ، ثم رأت في منامها ان الذي في بطنها نور . . . الى آخر قصة المولد والرضاعة في بني سعد ، وشق الصدر وتطهر القلب وختمه وامتلائه بنور النبوة والحكمة(١٨٩) .

ومغزى هذه القصة يعني ان المتعارف عليه وقتئذ ، هو ان النبوة وقف على بني اسرائيل ، دون العرب عباد الاصنام . وربما كان ذلك تعبيرا عما وقر في قلب يهود الحجاز بالنسبة للنبي ، انه السبب الحقيقي لما قام بينهم وبينه من عداوة وصراع . اما عن بنوة النبي لابراهيم الخليل ، واخوته لعيسى المسيح فتعني جمع المحبة في الانسانية والوحدة في الاسرة الدينية الواحدة ـ اسرة النبوة .

وكرد فعل على مقالة ان العرب عباد اصنام ، وحتى يكون ظهور الاسلام في مكة في بيئته الطبيعية ، مثلما كان الحال بالنسبة لديانة بني اسرائيل في القدس ، ظهرت روايات تقول ان قريشا عبدوا الله قبل النبوة ما بين سبع سنين وعشر سنوات . وهذا لا بأس اذا كان القصد هو الفترة الاولى من العصر النبوي في مكة ، الا اذا كانت تلك الفترة تتفق مع حركة التحنث والنسك التي اعتبر عبد المطلب اول روادها ، والتي تبعه فيها النبي قبل البعثة ، كما هو معروف(١٩٠) . وهنا لا بأس في ذكر ما قيل من ان قريشا عندما بنت الكعبة ، وجدوا فيها كتابة بالسريانية ، من جملتها كتاب فيه : من يزرع خيرا يحصد غبطة ، ومن يزرع شرا يحصد ندامة(١٩١) . والمهم هنا هو مبدأ الحث على عمل الخير ، اي الامر بالمعروف وهو ما يذكر بحلف الفضول الذي حضره النبي شابا في العشرين من عمره ، في بيت عبد الله بن جدعان والذي قال فيه « ما احب ان لي به حمر النعم ، ولو دعيت اليه اليوم لأجبت »(١٩٢) .

عبد المطلب بين الانبياء والاولياء :

وعبد المطلب ، جد النبي يظهر في السيرة النبوية بمظهر مجدد التراث الابراهيمي وصلة الوصل المباشرة بين النبي وبين سابقيه من كبار الانبياء . وعبد المطلب من هذا الوجه في طبقة وسط لا ترقى في

---

(١٨٩) ابن الاثير الكامل ج ١ ص ٤٦٢ .
(١٩٠) انظر السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٣٧ .
(١٩١) الفسوي ، كتاب المعرفة والتاريخ ط . بغداد ١٩٧٦ ، ج ٣ ص ٢٧٤ وقارن السيرة الحلبية ج ١ ص ١٧ ، ١٤٢ ، ١٤٣ .
(١٩٢) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٧ ـ ١٨ .

سلم النبوة ولا تهبط في درجات الكهانة والتنبؤ . حقيقة ان عبد المطلب وصف بانه « ابراهيم الثاني »[١٩٣] ، ولكن ذلك بمناسبة تمسكه بالبقاء في الحرم بعد ان فرت قريش عندما هددته الحبشة ، ويقينه بحفظ الله للكعبة . هذا كما يمكن ان يشبه بابراهيم الخليل ايضا من حيث ما نذره من ذبح واحد من ابنائه حيث وقعت القرعة على عبد الله والد النبي الذي فدته كاهنة الحجر ـ اخت ورقة بن نوفل ـ بمائة ناقة في مقابل كبش اسماعيل . وعن هذا الطريق صار النبي (صلعم) ابن الذبيحين : اسماعيل وعبد الله[١٩٤] .

ولعبد المطلب كراماته وآياته مثله في ذلك مثل اولياء الله الصالحين ، بل وانبيائه المرسلين . فله الرؤيا الصادقة التي رآها قبل حفر بئر زمزم . فلقد اتاه آت وهو نائم بالحجر من الحرم فقال له : « احضر طيبة اي زمزم . وعندما سأله عبد المطلب ، وما زمزم ؟ قال ، في كلام مسموع : تراث أبيك الاعظم ، لا تنزف ابدا ولا تذم ، تسقي الحجيج الاعظم ، مثل نعام جافل لم يقسم ، ينذر فيها ناذر لمنعم . . . » . وفي الطريق الى كاهنة بني سعد بن هذيم بمشارف الشام لتحكم بين عبد المطلب وقريش بشأن تقسيم ماء زمزم ، عطش جد النبي واصحابه ، فانفجرت من تحت خف راحلته عين عذبة من ماء ، وكانت تلك الآية سببا في اعترافهم له بأن الله قضى له عليهم[١٩٥] .

واذا كان انفجار الصخر بالماء مما اكرم الله به موسى وشمشون من قبل ، فان انفجار الماء من تحت خف راحلة عبد المطلب يعتبر ، في ادب التصوف الاسلامي ، بشيرا بكرامات فرس الشيخ التي نرى اول نماذجها في كرامة عقبة بن نافع ـ فاتح المغرب (ت ٦٤ هـ) الذي عرف بأنه مستجاب الدعاء . ففي صحراء زويلة ، جنوب الصحراء الليبية ، يوجد موضع يعرف « بماء الفرس » ، ينسب ماؤه الى فرس عقبة الذي ضرب بحافره الارض ، في وقت شح فيه الماء ، فانفجرت عين سقت المجاهدين الذين كادوا يهلكون من العطش[١٩٦] .

وبعد حملة ابرهة على مكة ، وقضاء سيف بن ذي يزن على بقايا الحبشة في اليمن ، يذهب عبد المطلب على رأس وفد قريش هناك ، ويوجه الخطاب الى ملك العرب الجديد ابن ذي يزن ، فيقول له : « فأنت ـ ابيت اللعن ـ رأس العرب ، وربيعها الذي به تخصب ، وملكها الذي له تنقاد ، وعمودها الذي عليه العماد ، ومعقلها الذي اليه لجأ العباد . سلفك خير سلف ، وانت لنا بعدهم خير

(١٩٣) نفس المصدر ج ٢ ص ١١ .
(١٩٤) ابن الاثير ج ٢ ص ٧ وانظر السيرة والآثار المحمدية على هامش السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٨ .
(١٩٥) ابن الاثير ج ٢ ص ٥٢ ، ١٣ .
(١٩٦) انظر كتاب الاستبصار ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .

خلف . . ». وكان رد ابن ذي يزن على ذلك الكلام البليغ بكلام ذهب بين قبائل العرب مذهب الامثال . فقد قال لعبد المطلب : « مرحبا واهلا ، وناقة ورحلا ، ومستناخا سهلا ، وملكا رِبَحْلا ، يعطي عطاء جزلا »[١٩٧] .

والاهم من كل ذلك ان ملك اليمن ، قاهر الحبشة ، بشر عبد المطلب برسول الله ووصف له صفته ، فكبر عبد المطلب وعرف صدق ما قال سيف ، ثم خرسا جدا[١٩٨]

وفي تفصيل ذلك تقول الرواية ان حوارا دار بين سيف بن ذي يزن وبين عبد المطلب ، اسر فيه سيف بما كان يعرفه من علمهم (علم الحدثان) ، كالآتي :

ـ سيف : اني اجد في العلم المخزون ، والكتاب المكنون ، الذي ادخرناه لانفسنا ، واحتجبناه دون غيرنا ، خبرا عظيما ، وخطرا جسيما ، فيه شرف الحياة ، وفضيلة الوفاة ، للناس كافة ، ولرهطك عامة ، ولنفسك خاصة .

عبد المطلب : مثلك ايها الملك من بر وسر وبشر ، ما هو ؟ فداك اهل الوبر ، زمرا بعد زمر .

ـ سيف : اذا ولد مولود بتهامة ، بين كتفيه شامة ، كانت له الامامة ، الى يوم القيامة .

عبد المطلب : ابيت اللعن . لقد ابت بخير ما آب به احد فلولا اجلال الملك لسألته ان يزيدني في البشارة ما ازداد به سرورا .

سيف : هذا حينه الذي يولد فيه او قد ولد ، يموت ابوه وامه ، ويكفله جده وعمه ، قد ولدناه مرارا ، والله باعثه جهارا ، وجاعل له منا انصارا ، يعزهم اولياؤه . . ويستمر الحوار وسيف بن ذي يزن يزيد في ايضاح دلائل النبوة وعلاماتها :

سيف : ارفع رأسك ، ثلج صدرك ، وعلا أمرك ، فهل احسست شيئا مما ذكرت لك ؟

عبد المطلب : ايها الملك كان لي ابن كنت له محبا وعليه حدبا مشفقا ، فزوجته كريمة من كرائم قومه يقال لها آمنة بنت وهب بن عبد مناف فجاءت بغلام بين كتفيه شامة فيه كل ما ذكرت من ، علامة مات ، ابوه وامه وكفلته انا وعمه .

سيف : ان الذي قلت لك كما قلت فاحفظ ابنك واحذر عليه اليهود فانهم له اعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا اطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك ، فاني اجد في الكتاب الناطق والعلم السابق ان يثرب دار هجرته وبيت نصرته ، ولولا اني اتوقى عليه الآفات واحذر عليه العاهات لاعلنت على حداثة سنه امره ، واوطأت اقدام العرب عقبه ولكنني صارف ذلك اليك عن غير تقصير مني بمن

---

(١٩٧) ابن الاثير ج ١ ص ٦٥

(١٩٨) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٢ .

معك[١٩٩] وهكذا عرف ابو طالب شأن يتيم ابنه عبد الله منذ مولده ، وما قدر له من البعثة النبوية فقربه من نفسه تقريبا شديدا ودعاه بابنه ، فعندما كان عبد المطلب يجلس بفناء الكعبة كان لا يقرب فراشه الا النبي وهو غلام صغير ، اذ كان عبد المطلب يسمح له بتخطي رقاب اعمامه ويقول لهم دعوا ابني ان لابني هذا لشأنا »[٢٠٠] وهكذا وقع على عاتق عبد المطلب عبء الحفاظ على النبوة وهي بعد حدث مستقبلي في حشايا محمد الصغير فكأنها اللؤلؤة المكنونة في جوف الصدفة وهي في دور التكوين ، وكان عبد المطلب وهو يقوم بدور الحاضن الامين لمبعوث العناية الالهية ، القدوة الحسنة والمثل الذي يحتذى بالنسبة للنبي الصغير ، وهكذا ، رغم ان عبد المطلب مات والنبي لم يتجاوز الثامنة من عمره فانه ليس من المستغرب ان يروى عنه انه كان يعتبر عبد المطلب أبا له ، وحسبنا يروي انه كان يقول في غزوة حنين « انا النبي لاكذب انا ابن عبد المطلب »[٢٠١] هذا كما روي عنه انه قال « ان الله يبعث جدي عبد المطلب امة واحدة في هيئة الانبياء وزي الملوك »[٢٠٢] فكأن قريشا قد جمعت النبوة والملك مثلما كان الحال في بني اسرائيل . ويؤيد ذلك ما ينسب الى النبي من انه قال في قريش ايضا : « جمعت سبع خصال لم يعطها لها احد قبلهم ولا يعطاها بعدهم » فكأن الله فضلهم على العالمين كما فضل من قبل بني اسرائيل[٢٠٣]

الرسالة المحمدية ومنافسة الكهان والمتنبئين :

وهكذا كان تفوق قريش بقيادة عبد المطلب على قبائل العرب منذ حادثة الفيل وفشل الحبشة في الوصول الى مكة امرا طبيعيا ، وعن هذا الطريق تكون النبوة قد ظهرت في كنف آل البيت من بني عبد المطلب بن هاشم ايضا ظهورا منطقيا .

ولكن هذا لايعني ان تفوق الهاشميين على بني عمومتهم كان امرا سهلا ، كما ان نبوة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب لم تتم هي الاخرى دونما صعوبات او عقبات ، والذي قد يهمنا هنا هو الاشارة الى ما عاناه النبي من الشك في رسالته وما يلحق بذلك من المنافسة من قبل اصحاب الطموح من الكهان والمتنبئين ، فالذي لاشك فيه هو انه اذا كانت جماعة الفقراء والكادحين قد رأت في الدعوة المحمدية

(١٩٩) انظر العقد الفريد ج ٢ ص ٢٥ - ٢٨ وقارن تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٢ .

(٢٠٠) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٦ .

(٢٠١) العقد الفريد ج ٥ ص ٢٨٣

(٢٠٢) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٤ .

(٢٠٣) انظر السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٥ ، ومن الخصال السبع فهي : النبوة ، الخلافة ، الحجابة ، السقاية ، الانتصار على اصحاب الفيل ، انهم عبدوا الله سبع سنين او عشر سنوات دون غيرهم ، نزول سورة من القرآن فيهم .

املها في الخلاص مما كانت فيه من المعاناة ، فان الدعوة لم تلق آذانا صاغية من التجار الذين كانوا لا يهتمون الا بمكاسبهم المادية ، بينما كان من الطبيعي ان يقف رجال الدين من سدنة الاصنام والحكام والكهان ممن كانوا يعيشون على الهبات والنذور موقفا عدائيا من دعوة التوحيد الاسلامية .

هكذا وقف عم النبي وهو عبد العزى بن عبد المطلب المشهور بابي لهب موقفا عدائيا من الاسلام ، واتهم النبي بانه ذهب في دعوته مذهب الصابئة[٢٠٤] ومثله كان موقف الحارث بن قيس السهمي الذي عرف بانه دهري بمعنى طبيعي او لاديني . اما الوليد بن المغيرة المخزومي الذي عرف بالعدل لانه كان عدل قريش كلها في كسوة الكعبة فانه كان يتكلم في اختلاف اعداء الدعوة في أمر النبي ما بين القول بانه : ساحر ، او كاهن او شاعر او مجنون ، وكان يرى ان اصلح تلك التسميات هي القول بأنه : ساحر لانه يفرق بين المرء واخيه[٢٠٥] على رغم ان السحر يعني التمويه والباس الباطل ثوب الحق ، وفي ذلك قالت قريش عن القرآن : ما هذا الا سحر ، كما قالوا في النبي انه شاعر[٢٠٦] .

ومن الواضح ان التعصب القبلي كان يعمل على انتعاش حركة التنبؤ والكهانة والسحر بل والشعر ايضا ، اذا كان يسعد القبيلة ان يظهر نابغ من بين افرادها في اي من هذه المجالات ، فبعد عودة النبي كسير القلب من رحلته الى الطائف حيث اساء الثقفيون استقباله تساءل ابو الحكم عمرو بن هشام المخزومي المعروف بابي جهل ساخرا : هذا نبيكم يا عبد مناف ، وعندئذ انبرى له عتبة بن ربيعة جد معاوية لأمه قائلا : وما ينكر ان يكون منا نبي وملك ؟ وكان رد الرسول على عتبة : ما حميت لله وانما حميت لنفسك[٢٠٧] .

والظاهر ان عتبة بن ربيعة الذي يوصف بانه صاحب الجمل الاحمر وانه سيد قريش كان يطمح في النبوة ، وكذلك الامر بالنسبة للزعيم والشاعر الثقفي امية بن ابي الصلت ، ولا بأس ان يكون ذلك من دواعي موقفهما العدائي من الرسول . وفي ذلك يروى عن امية بن ابي الصلت انه كان يقول : انه كان لا يجد في الكتب صفة نبي يبعث في بلادنا فكنت اظن اني هو ثم ظننت انه عتبة بن ربيعة ، الا انه قد جاوز الاربعين ولم يوح اليه فعرفت انه غيره . ثم ان ابا سفيان قال : فلما بعث محمد (صلعم) قلت لأمية ، فقال امية : اما انه حق فاتبعه ، فقلت له : فأنت ما يمنعك ؟ قال : الحياء من نساء ثقيف اني كنت اخبرهن اني هو ثم اصير تابعا لفتى من بني عبد مناف[٢٠٨]

---

(٢٠٤) ابن الاثير ج ٢ ص ٦١ .
(٢٠٥) ابن الاثير ج ٢ ص ٧١ .
(٢٠٦) العقد الفريد ج ٥ ص ٢٧٣ .
(٢٠٧) ابن الاثير ج ٢ ص ٩٣
(٢٠٨) السيرة الحلبية ج ١ ص ٥٥ وفارة المعارف لابن قتيبة ص ٢٨ (وعن سيادة عتبة بن ربيعة انظر ابن الاثير ج ٢ ص ٦١) (٢٠٧ مكرر) ابن الاثير الكامل ج ٢ ص ٣٦٧ .

وفي مثل هذا التعصب القبلي ما ينسب الى واحد من اصحاب مسيلمة المتنبي ، هو طلحة النمر من انه قال لمسيلمة : « اشهد انك الكاذب وان محمدا صادق ، ولكن كذاب ربيعة احب الينا من صادق مضر » وفي هذا النزاع القبلي الذي استمر بين الربعية والمضرية في خراسان على عهد الدولة الاموية قال المضريون : لم تزل ربيعة غضابا على ربها منذ انزل نبيه في مضر .

قريش بين الشك واليقين : نبوة ام ملك :

وممن عرف برؤية الرؤى من القرشيين وقتئذ هو جهم بن الصلت بن مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف . فقبيل لقاء القرشيين والمسلمين في وقعة بدر رأى جهم وهو في معسكر قريش رؤياه فقال : اني رأيت فيما يرى النائم رجلا اقبل على فرس ومعه بعير له فقال : قتل عتبة وشيبة وابو جهل وغيرهم ممن قتل يومئذ ورأيته ضرب لبة بعيره ثم ارسله في العسكر فما بقي خباء الا اصابه من دمه ، كناية عن شيوع القتل بين القرشيين في بدر . وهنا قال ابو جهل « وهذا ايضا نبي من بني عبد المطلب سيعلم غدا من المقتول »[٢٠٩] .

اما عن ابي سفيان فانه حتى اسلامه عند فتح مكة (سنة ٨ هـ) لم يكن يفرق كثيرا بين النبوة والملك وفي ذلك تقول الرواية انه عندما مر النبي في المهاجرين والانصار قال ابو سفيان للعباس عم الرسول : لقد اصبح ملك ابن اخيك عظيما فقال له العباس : ويحك انها النبوة فقال : نعم اذن[٢١٠] وكانت مسألة النبوة والملك هذه قد ثارت قبل ذلك في العام السابق عند فتح خيبر فلقد قامت امرأة من اليهود ، هي زينب بنت الحارث باهداء النبي شاة (مشوية) مسمومة وعندما اخذ النبي منها مضغة لم يسغها وهنا اعترفت المرأة بفعلتها الشائنة ولكنها عللتها بأن قالت له : « بلغت من قومي ما لم يخف عليك ، فقلت : ان كان نبيا فسيخبر ، وان كان ملكا استرحنا منه »[٢١١] والمهم في تلك الرواية ان النبي لم يعرف ما في اللحم من السم الا بعد ان ذاقه ، وبذلك نقف على ارض الواقع والتجربة بعيدا عن التنبؤ ومعرفة الغيب ، وهنا لا بأس من الاشارة الى ما اجاب به النبي بعض زعماء العرب ممن وفدوا عليه في سنة (٩ هـ) وهو لقيط بن عامر بن المنتفق عندما سأله عما عنده من علم الغيب ؟ فقال له النبي « ضَنَّ ربك بمفاتيح خمس من الغيب لا يعلمهن الا الله . . . علم المنية . وعلم ما في غد ، وعلم المني حين يكون في الرحم ، وعلم الغيث وعلم الساعة »[٢١٢] ومن المهم ايضا في قصة السم ان النبي قبل تعليل

(٢٠٩) ابن الاثير ج ٢ ص ١٢١

(٢١٠) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٤٦

(٢١١) ابن الاثير ج ٢ ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ويكرر العقد الفريد ج ٦ ص ٢٢٦ (حيث الاشارة الى ان النقر موجود في مسند ابن ابي شيبة وانه منسوب باشكال عام الى يهود خيبر الذين قالوا : أردنا ان كنت كاذبا ان نستريح منك وان كنت نبيا لم يضرك السم » .

(٢١٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٨ ـ ٣٩

اليهودية التي ارادت بذلك النوع من التحكيم ـ الذي يكاد يشبه تحكيم نار القربان ـ ان تفرق بين الملك والنبوة ، ومع ذلك فقد ظل النبي يشكو من اثر تلك المضغة المسمومة حتى قيل : انها كانت من اسباب مرضه الذي مات فيه . وبذلك اضيف له الفوز بالشهادة مع النبوة .

ولقد حسم عدي بن حاتم ا(الطائي) مسألة النبوة والملك هذه بعدما حرضته اخته على العودة الى النبي من الشام التي كان قد هرب اليها سنة (٩هـ) فقالت له « فان كان نبيا كان للسابق (في الاسلام) فضله ، وان كان ملكا كنت في عز وانت انت » وامام ما شهده الزعيم الطائي من تواضع النبي سواء في وقوفه مع ضعفاء الناس وصبره على طول محاورتهم له ، او في جلوسه معه شخصيا وايثاره اياه على نفسه بالمجلس اللين قال : « ما هذا بملك » يعني انه نبي صادق النبوة[٢١٣] .

والحقيقة انه رغم الالحاح هنا على صفة النبوة دون الملك فانه لا يضير الرسالة المحمدية ان يكون صاحبها (قد جمع بين النبوة والملك تماما كما كان الحال بالنسبة لداود وسليمان . حقيقة ان تعريف النبي كما جاء في الآيات القرآنية) هو : الشاهد والمبشر والنذير والداعي الى الله والسراج المنير ، ولكن الآيات القرآنية اشتملت في نفس الوقت على كل القواعد التي تنظم حياة المسلمين على المستوى العام والخاص بفضل ما فيها من مبادىء العقيدة وقواعد الاخلاق واصول السياسة والحكم ، وعن هذا الطريق ارتبطت الآداب الدينية بالامور الدنيوية ، وفي ذلك يقول اخوان الصفا : ان الله تعالى قد جمع لنبيه محمد (صلعم) خصال الملك والنبوة جميعا كما جمعها لداود وسليمان (عم) وكذلك جمع ليوسف الصديق (عم) وهم يجعلون الفترة المكية من العصر النبوي فترة نبوة خالصة ، اما الفترة المدنية من العصر النبوي فهي التي يجتمع فيها الملك الى النبوة .

والفترة المكية التي تمتد الى حوالي اثني عشرة سنة دعا فيها النبي وعَلَّمَ الدين حتى استوفى خصال النبوة وأحكامها ، وخلال فترة الهجرة في المدينة التي امتدت حوالي عشر سنين امضاها في ترتيب امر الامة وتحذير الاعداء وجباية الخراج . . . حتى احكم امر الملك ، والمهم من كل ذلك ان النبي لما اضاف الله الى نبوته الملك لم يكن لرغبة في الدنيا ، ولكن اراد الله تعالى ان يجمع لأمته الدين والدنيا جميعا ، والحقيقة ان الاصل هو الدين ، وان الملك عارض .

وفي حكمة اضافة الملك الى الدين ينص اخوان الصفا على مبدأ « الناس على دين ملوكهم » ويقولون ان الناس لا يرغبون الا في دين الملوك وان تلك خصلة في طباعهم وجبلتهم ، والظاهر ان مسألة جمع النبوة والملك للرسول هي التي اشكلت على اليهود والنصارى ، وانها كانت سببا في شكهم في نبوته رغم ما قام به من الاحتجاج عليهم بسليمان وداود . وبسبب التضاد بين الملك والنبوة لم يكن الانبياء الملوك

(٢١٣) انظر ابن الاثير ٢ ص ٢٨٦

راغبين في الدنيا . ففي قصة داود انه كان اوابا حليما ، وفي قصة سليمان انه قال : « هذا من فضل ربي ليبلوني الشكر ام اكفر » . وكذلك عرض جبريل على النبي مفاتيح خزائن الارض فقال : خذها ولا ينقصك ما عند الله شيئا ، فقال عليه السلام : لا حاجة لي في شيء من ذلك ، حلالها حساب ، وحرامها عذاب »(٢١٤) .

●●●

وهكذا اجتمعت النبوة والملك في الدعوة المحمدية ، وظهر ذلك في اصول الحكم في الاسلام الممثلة في تنظيم الخلافة التي عرفت بأنها خلافة عن صاحب الشرع (الرسول) في حفظ الدين وسياسة الدنيا . هذا ، ولو ان اخوان الصفا لا يفرقون ما بين واضع الشريعة (النبي) وبين الامام (خليفة النبي) عندما يشترطون ان تكون في واضع الشريعة ١٢ (اثنتا عشرة) خصلة مثل : تمام الاعضاء وجودة الفهم ، وجودة الحفظ . . الخ وهي الشروط التي يجب ان تكون في الرئيس او الامام عند الفارابي في آراء اهل المدينة الفاضلة(٢١٥) ولا بأس ان يكون اخوان الصفا متأثرين هنا - بصفتهم من الشيعة - بفكرة العصمة التي تجعل من الامام وريث النبوة ايضا ، وعن هذا الطريق خلطوا بين الصفات المطلوبة في الامام ، تلك الصفات التي يتحلى بها الانبياء ، بل واولياء الله الصالحين ، وهو الامر الذي لا ينكر على كل حال .

من هذا العرض لسير الانبياء من لدن آدم الى محمد يتضح لنا ان الانبياء هم « سفراء الله » حسب مصطلح اخوان الصفا - بينه وبين خلقه ليعبّروا عنه المعاني ، ويفهموها الناس بلغات مختلفة لكل امة ما تعرفه ، على قدر احتمال افهامهم ، ولما كان الانبياء هم صفوة اولياء الله وجب ان يتصفوا بخصال الصالحين من التحلي بالعقل الجيد ، والاخلاق الحميدة ، والصفات الملائكية من : الرحمة والتحنن ورقة القلب ، الى جانب دفع اغواء الشيطان وتجنب المعاصي من : كل ما لا يحل في الشريعة ولا يجوز في السنة .

وفوق ذلك ينبغي ان يتميز الرسول ببلاغة الكلام وفصاحة اللسان والحفظ لما يسمع (٢١٦) . اما عن دورة النبوة فتبدأ بالوحي (في سن الاربعين عادة) او الرؤيا الصادقة ، ثم يأتي نزول الكتاب وبلاغ الدعوة ثم تمام الرسالة . واذا مضى الانبياء لسبلهم ، خلفهم العلماء والحكماء وقاموا مقامهم فيما كانوا يقولون ويفعلون ويعلمون الناس من امور الدين وطريق الآخرة ومصالح الدنيا . وهكذا اصبح العلماء ورثة الانبياء - وبفضلهم اصبحت الدعوة النبوية مستمرة . وبناء على ذلك فمن قبل من الناس منهم فهو على طريق النجاة ، ومن خالفهم فهو على خطر عظيم(٢١٧) .

---

(٢١٤) رسائل اخوان الصفا ج ٣ ص ٤٩٦ - ٤٩٧ .
(٢١٥) نفس المصدر ج ٤ ص ١٢٩ ، وانظر الفارابي وآراء اهل المدينة الفاضلة
(٢١٦) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٤٣
(٢١٧) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٤٧ .

وهكذا يكون محك الفرق ما بين النبوة والتنبؤ هو الهدف المنشود من وراء الدعوة ، فان كان خيرا فهو النبوة ، وان كان شرا فهو التنبؤ ، وما يلحق به من الكهانة والعرافة والسحر ، وهذه الفكرة ، ـ على بساطتها ـ تمثل حتمية انتصار الخير على الشر او الحق على الباطل ، وهي الفكرة التي تبناها ابن خلدون في الدفاع عن الدعوات المذهبية التي كانت موضع خلاف بين المسلمين مثل : الدعوة الادريسية ، والدعوة الفاطمية ، والدعوة الموحدية في بلاد المغرب . فهو في معرض دفاعه عن صحة انساب اصحابها يستند الى نجاح كل منها ويقول : انه لولا ذلك لما قدر لها النجاح ، فكأنه يأخذ فعلا بحتمية انتصار الخير والحق .

اما عن الفكرة الاساسية التي حاولنا التركيز عليها في عرض قصص الانبياء وما لحق بهم من المتنبئين فهي العلاقة الوثيقة بين الاسلام بصفته آخر الاديان السماوية (الالهية) وبين الديانات السابقة عليه من لدن آدم اول المبعوثين الى ابراهيم ابي الانبياء ، الى عيسى اخر انبياء بني اسرائيل ، بل ومرورا بانبياء الفرس ورسل اليونان وحتى متنبئي العرب وكهانهم الى عهد الرسول . فكان الاسلام هو الهدف النهائي لكل الديانات على اختلاف مشاربها ، وهو الامر المقبول بالنسبة لآخر الرسالات وكان النبي محمد هو قطب الرحى ومركز الدائرة في تلك الدورات من النبوة والتنبؤ .

والتقاء الانبياء والمتنبئين في التبشير بالنبي (صلعم) يعني المشاركة في وحدة الهدف ، وبالتالي المشاركة في صحة الدعوة ، ومن هذا الطريق يكون الاسلام عامل ربط بين مختلف الاديان التي لا تختلف في اصولها العامة . اما عن اختلافاتها في الفروع فتنجم عن طريق التفسير والشرح والتأويل وهو الامر الذي كان يتطلب شيئا من المراجعة والتعديل الى ان انتهى الامر بخاتم الانبياء والرسل الذي جمع له المتأخرون من اصحاب السيرة والمداحون من العباد والمتصوفة كل الخصال الجميلة والخلال الحسنة والآداب الفاضلة ، كما جعلوا له المعجزات الكبيرة والخوارق الباهرة والآيات الكريمة ، حتى لا يفضله في اي منها نبي ولا متنبي . ولم يكن من الغريب ان ينتهي الامر بان يصبح النبي في عيون اوليائه من المسلمين اصل الوجود في دنيا البشر ، وهكذا قال ابن عربي (ت ٦٣٨ هـ) : لو لم يكن نور سيدنا محمد لما انكشف سر على وجه الارض ولما تفجر ينبوع او جرى نهر . والذي لاشك فيه ان ابن عربي يأخذ بفكرة وحدة الاديان وهو ما يظهر في كتابه « نقش الفصوص » الذي تسلسل فيه الحكم الالهية ممثلة في كلمات الانبياء ، ابتداء من الكلمة الأدمية وما يليها من : النوحية والادريسية والابراهيمية والعيسوية ، وانتهاء بالكلمة المحمدية[٢١٨] مسك الختام .

---

(٢١٨) انظر كتاب نقش الفصوص فيما حيدر آباد ١٣٦٧/١٩٤٨ (ضمن رسائل ابن عربي ـ دار احياء التراث العربي ـ بيروت) .

المعـراج(١) وصداه في التراث الإنساني

احمد مختار العبادى

المعراج في عصور ما قبل الاسلام

اهتم الانسان من قديم بالفضاء الأعلى او بالعالم الآخر ، وصار يحلم بارتياده وكشف غوامضه ، ولعل اقدم حلم مدون عن الصعود الى السماء ورد في نصوص الاهرام المصرية وفي ادب العراق القديم ، ثم في ديانات الفرس والهنود ، فضلا عن الاساطير اليونانية .

لقد كان قدماء المصريين ، يؤمنون بوجود حياة اخرى بعد الممات ، وانما الحياة الباقية بعد هذه الدنيا الفانية التي ليست الا ممرا الى ذلك الخلود حيث النعيم المقيم للاخيار ، والعذاب الاليم والجحيم المظلمة للاشرار ، ويحتكم الى اوزيريس يزن اعمال الناس ويدفع بهم الى الجزاء العادل ، وان هناك حسابا عسيرا يمر فيه المحاسب على الصراط المستقيم وهو طريق ممدود فوق الجحيم ، فاذا اجتازه الشخص نجا وارتفع الى مرتبة الآلهة ، واذا سقط من فوقه انتهى الى واد فيه الافاعي والحيات التي تتولى عقابه حتى ينال جزاءه(٢) .

---

(١) [illegible]

(٢) محمد ابو زيد : الديانات القديمة ص١١ (دار الفكر العربي)

وكان المصريون القدماء يعتبرون الملك إلّها اكثر منه انسانا ، فأطلقوا عليه لقب « الأله الطيب » و « سارع » او ابن الشمس ، وسموا بيته بالبيت الكبير « برعو » وهي الكلمة التي اطلقت فيما بعد على الملك نفسه تحت الصورة التي حرفها اليونان الى فرعون[٣] .

وكان فرعون هو حلقة الاتصال الوحيدة مع الآلهة في السماء . ويفهم من نصوص الاهرام (٢٣٥٠ ـ ٢١٧٥ ق . م) التي عاصرت احداث الدولة القديمة والتي تضمنت تعاويذ سحرية كثيرة ، ان الغرض الرئيسي منها هو تمكين الملك المتوفي من ان يأخذ مكانه بين الآلهة ، وليصبح متحدا مع رع ملك الآلهة . بل لعل الغرض من كثرة اعداد هذه التعاويذ هو التأكيد على صعود الملك الى السماء . كذلك يفهم من خلال الوصف الذي صورته تلك النصوص في هذا الصدد ، ان ذلك المعراج الملكي ، كان على اجنحة وريش الصقر حورس المضيئة والتي كانت عيناه تمثلان الشمس والقمر . وقد اختلفت اشكال اجنحة ذلك المعراج ، كما اختلفت المراقي من سلالم ودرجات ومنحدرات . والى هذه العقيدة يتجه تفكير الفرد الى اهرامات الجيزة ذات الطرز المعمارية العجيبة التي رفعت البناء في تلك الايام الى ارتفاعات شاهقة بالشكل الهرمي الخاص بالقبور الملكية في الدولة القديمة . لقد صور فيها استقبال الملك بواسطة الآلهة ، واللحظة التي اخذ مكانه في سفينة الشمس الخاصة بالاله رع دون ان يسمح لاحد ان يعترض ـ طريقه »[٤] .

اما في الأدب العراقي القديم ، فنجد ايضا ما يشير الى حلم البشرية بالصعود الى السماء من قديم ، مثلا في اسطورة ايتانا الراعي ETANA الذي عرج الى السماء على ظهر نسر ووطد جميع البلاد . وقد صورت اسطورة صعوده الى السماء في اختتام العصر البابلي القديم ، في الالف الثاني قبل الميلاد ، حيث يظهر انسان على ظهر نسر . وملخص هذه الاسطورة ، ان رجلا اسمه ايتانا ، كان يسعى للحصول على نبات من السماء له خاصية الحمل لأن امرأته كانت عاقرا . ولما استعطف ايتانا الاله ان يدله على السبيل الذي يحصل على النبات ، نصحه بأن يذهب الى حفرة وقع فيها نسر عظيم ، فتكسرت اجنحته ، ونتف ريشه حتى كاد يهلك جوعا . ففعل ايتانا وذهب الى النسر واتفق معه على ان يخلصه من الموت ، على ان يتعهد بان يجعله يمتطي ظهره ليصعد الى السماء .

وبعد ان تعافى النسر ونبت ريشه واستعاد قوته ، امتطى ايتانا ظهره فطار به الى السماء ، واخذ يرتفع ويرتفع وفي كل مرة كان النسر يطلب منه ان ينظر الى حجم الارض . فشاهدها كانها التل وبحارها كالانهار الصغيرة . واستمر في الصعود حتى بلغا مدخل سماء آنو (وهي السماء السابعة) .

---

(٣) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم جـ ١ ص ٢٢٩ (دار المعارف ١٩٦٦)

(٤) عبد الحميد زايد : مقدمة في تاريخ مصر الفرعونية منذ أقدم العصور حتى عام ٣٣٢ ق . م ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ (دار النهضة القاهرة ١٩٦٦)

وعلى الرغم من ان النص ينخرم عند هذا الموضع ، الا انه يبدو ان ايتانا قد حصل على النبات الذي يساعد على الحمل ، بدليل ورود اسم الملك « بالخ » في اثبات الملوك السومرية على انه ابن ايتانا الذي خلفه في الحكم في سلالة كيش الاولى[5] .

وفي ديانة الهند ، نجد يود هيشترا يهبط الى الجحيم حيث رائحة الاثم والجثث والديدان والهوام والطيور الكواسر وامواج اللهب ، بينما يصعد ارجنا الى السماء مأوى المؤمنين حيث الازهار الجميلة ، والحوريات تحت الاشجار الخضراء والانغام السماوية ، ويصل البطل محاطا بالملائكة وصفوة البراهمة الى حضرة رب الارباب[6] .

وفي ديانة زرادشت Zorzastre، نبي الفرس (قرن ٧ ق . م) ، نجد ما يسمى بجسر الحساب الذي يمر عليه النفس بعد الموت وهو صراط ممدود على شفير جهنم ، يتسع للمؤمن ويضيق للكافر حتى يصبح ارق من الشعرة .

فمن عمل صالحا جاز الصراط بسلام ، ولقي اله الخير اهورا مزدا في السماء ، والا سقط في الجحيم وصار عبدا لاله الشر اهرمن . وان تعادلت سيئاته وحسناته ذهبت الروح الى الاعراف الى يوم الفصل[7] .

أما الاساطير او الميثولوجيا اليونانية ، فقد وردت فيها اشياء مشابهة ، مثل اسطورة الاله زيوس Zeus ، اله السماء والفضاء الاعلى ، الذي تقمص في شكل نسر واختطف الشاب الجميل جانيميديس Ganymedes ابن ملك طرواده ، ثم عرج به الى عرشه في السماء ليتخذ منه ساقيا له بعد ان ارضى اباه ملك طرواده بمجموعة من الجياد الكريمة[8] .

وهناك أيضا مسرحية السلام لامام الكوميديا القديمة في اليونان ارسطوفانيس (٤٠٠ ـ ٣٨٥ ق . م) التي جعل من بطل مسرحيته تريجايوس Trygaeus (اي قاطف الكروم) رجلا ريفيا أنها قد ربى جعلا او خنفساء ضخمة ، ثم ركب فوق ظهرها ، وحلق في السماء ليستنجد بربة السلام ايريني Eirene ، كي يحل السلام في بلاد اليونان ، ثم يجمع تريجايوس قبل عودته الى الارض رجالا فضلاء من شتى الانحاء (الكورس) للبحث عن ربة السلام . وبعد جهد ومشقة يعثر تريجايوس والرجال الفضلاء على ايريني ويحط نوايا اله الحرب لسحق الدويلات اليونانية ، وبذلك تعود ربة السلام لتباشر مهامها . ثم يهبط تريجايوس الى الارض من السماء مستخدما في نزوله صورة ضخمة لربة السلام كمعراج او سلم له مراقي او عتبات[9] .

---

(5) طه باقر : مقدمة في أدب العراق ص١٣٩ ـ ١٤٠ (مطبعة بغداد ١٩٧٦)

(6) حسن شحاتة : كوميديا الى الجحيم جـ١ ص٥٦ (دار المعارف) .

(7) احمد امين : فجر الاسلام ص١٠٩ ـ ١٠٤ (مكتبة النهضة المصرية) .

(8) عبد اللطيف احمد علي : التاريخ اليوناني جـ١ ص٢١

(9) عبد اللطيف احمد علي . مصادر التاريخ اليوناني ص١١٥ .

اما المعراج في المسيحية ، فيعتقد المسيحيون بان للسيد المسيح عليه السلام معراجا او قيامة في الفصح بعد ثلاثة ايام من صلبه ووفاته ودفنه ، وان ذلك تم بطريقة ـ اعجازية خارقة ، انحلت بها الاكفان ، وفتح القبر بقوة الهية وصعد يسوع بجسده الى السماء بعد ان اكمل عمله في الارض .

وعلى هذا الاساس تعد هذه « القيامة » ركنا هاما في العقيدة المسيحية ، ويتفق فيها كافة الطوائف المسيحية ، بناء على ما ورد في الكتاب المقدس في قوله « ونا رجل اسمه يوسف وكان رجلا صالحا بارا .. تقدم الى بيلا طس (الحاكم الروماني) وطلب جسد يسوع ، وانزله ولفه بكتان ، ووضعه في قبر منحوت ، حيث لم يكن احد وضع قط .. وتبعته نساءكن قد اتين معه من الجليل ، ونظرن القبر وكيف وضع جسده . فرجعن واعددن حنوطا واطيابا . وفي السبت استرحن حسب الوصية . ثم في اول اسبوع ، اول الفجر ، اتين الى القبر حاملات الحنوط الذي اعددنه ومعهن اناس ، فوجدن الحجر مدحرجا عن القبر فدخلن ولم يجدن جسد الرب يسوع . وفيما هن محتارات في ذلك اذا رجلان وقفا بهن بثياب براقة .

واذا كن خائفات ومنكسات وجوههن الى الارض ، قالا لهن « لماذا تطلبن الحي بين الاموات ؟ ، ليس هو ههنا لكنه قام » . . . ورجعن من القبر ، واخبرن الاحد عشر ، وجميع الباقين بهذا كله . . . فتراءى كلامهن لهم كالهذيان ، ولم يصدقوهن . فقام بطرس وركض الى القبر فانحنى ونظر الاكفان موضوعة وحدها فمضى متعجبا في نفسه مما كان[10] .

ومن اقوال المسيحيين كذلك ، ان السيد المسيح نزل على الارض بعد ستة ايام من رفعه وانه اخذ بطرس ويعقوب ويوحنا اخاه ، وصعد بهم الى جبل عال منفردين ، وتغيرت هيئته قدامهم ، واضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالثلج وفيما هو يتكلم اذا سحابة نيرة ظللتهم وصوته من السحابة قائل « هذا هو ابن الحبيب الذي سررت له ، اسمعوا » ولما سمع التلاميذ سقطوا على وجوههم وخافوا » ثم بثهم في الارض دعاة الى الله .

ثم رفعه الله اليه ليعود للجلوس بجواره . . ولسوف يأتي يسوع مرة ثانية الى الارض ويعيد السلام والبركة[11] .

اما موقف علماء المسلمين من المعراج العيسوي الى الحق سبحانه وتعالى ، فمختلف فيه ، وان كانت آراؤهم كلها تقوم على اساس ما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ، وما لهم به من علم الا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه ، وكان الله عزيزا حكيما[12] » وفي قوله تعالى ايضا « يا عيسى اني متوفيك ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا[13] » .

---

(١٠) انجيل لوقا : الاصحاح الرابع والعشرين ص٢٧٢ [illegible] (دار الثقافة المسيحية بالقاهرة)

(١١) احمد الثعلبي النيسابوري (٤٢٧هـ) : قصص الانبياء ص٤٠٠ ـ ٤٠٢ (القاهرة ١٩٥٤) محمد ابو زهرة . النبوات القديمة ص٣٩ ، ٦٠ ـ ٦١ (دار الفكر العربي)

(١٢) سورة النساء ١٥٧ ـ ١٥٨ .

(١٣) سورة آل عمران ٥٥ .

وليس موضع خلاف على الاطلاق عند المسلمين ، ان عيسى نجا من الصلب والقتل ، فالآية الكريمة السابقة واضحة الدلالة على ذلك ، اما مسألة رفعه حيا بجسمه الى السماء فهي مسألة خلافية ، ايدها بعض علماء المسلمين وعارضها البعض الاخر قائلين بان السيد المسيح بعد ان نجا من القتل عاش زمنا حتى استوفى اجله ثم مات ميتة عادية ، ورفعت روحه الى السماء مع ارواح النبيين والصديقين والشهداء . وان قوله تعالى « ورافعك الي » ، معناه رفع الدرجة والمكانة عند الله ، كما قال تعالى في ادريس « ورفعناه مكانا عليا » .

اما مسألة نزول عيسى عليه السلام من السماء الى الارض في آخر الزمان فقد قررتها الاحاديث النبوية كقول مسلم في صحيحه عن رسول الله (صلعم) « ان عيسى سينزل في آخر الزمان فيقتل المسيح الدجال » وان كان القرآن الكريم ليس فيه ما يفيد عن نزول عيسى مرة اخرى[٢٤] » .

هذا وزرت المسيحية في العصور القديمة والوسطى مليء برؤى القديسين عن العالم الاخر ، التي تصف عذاب الآثمين في الجحيم بين النيران والزمهرير والوحوش والافاعي ، كما تصف سعادة الابرار في الفردوس مع الملائكة في السماء ينشدون التراتيم العلوية . ولقد جاء في الرسالة الثانية للقديس بولس وصف لصعوده الى السماء ومشاهدته جسرا ادق من الشعر يمتد فوق نهر عكر مضطرب ، ويصعد الى السماء وتعبره النفوس الصالحة في سهولة ويسر ، على حين تسقط عنه النفوس الشريرة فيجرفها تيار النهر الصاخب[٢٥] » .

الاسراء والمعراج في الاسلام :

الاسراء والمعراج ، رحلة ليلية الرسول (صلعم) في عمق الفضاء والزمن ، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم ، وفي تفاسيره المختلفة ، وفي الاحاديث النبوية وكتب السيرة ، واقوال الصحابة والتابعين وغيرهم من الائمة الصالحين ، بحيث تعتبر ركنا اساسيا في العقيدة الاسلامية .

ويمكن حصر النصوص القرآنية التي وردت حول هذا الحادث الهام في الآيات التالية :

« سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله ، لنريه من آياتنا ، انه هو السميع البصير »[٢٦] .

« والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى وهو بالافق الاعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فاوحى الى عبده ما اوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، افتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة اخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، اذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى[٢٧] » .

---

(٢٤) راجع الفصل في [illegible] الجزء الاول [illegible] .
(٢٥) حسن [illegible] الكوميديا الالهية [illegible]
(٢٦) سورة الاسراء آية ١ .
(٢٧) سورة النجم الآيات ١-١٨ .

« انه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم امين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالافق المبين ، وما هو على الغيب بضنين ، وما هو بقول شيطان رجيم »[١٨] .

اما أسانيد الاسراء والمعراج في السنة الشريفة ، فقد تعددت رواياتها وصورها التي اخرجها ائمة الحديث ، كما تعدد سند كل صورة منها ، اي اختلف الرواة الذين رووها فيرويها بعضهم مختصرة ، ويرويها البعض الاخر في اسهاب كثير ويذكر بعضهم ما لم يذكره البعض الاخر . هذا بالاضافة الى الاساطير الخرافية التي تخللتها على مر العصور بفعل الاضافات والمبالغات التي ترجع الى اصول بعيدة . غير ان الروايات مع ذلك تتفق جميعا في جوهرها المتواتر[١٩] .

وفيما يلي عرض موجز لحادثة الاسراء والمعراج برواية الصحابي الجليل ، وابن عم الرسول (صلعم) عبد الله بن العباس بن عبد المطلب[٢٠] .

وصف ليلة الاسراء والمعراج برواية ابن عباس[٢١] (عرض موجز) :

قال رسول الله (صلعم) :

« كنت في بيت ام هانيء بنت ابي طالب ، رضي الله عنها ، واسمها فاخته ليلة الاثنين ، ليلة السابع والعشرين من رجب سنة ثمان من البعثة ، واذا بالباب قد طرقه طارق ، فخرجت فاطمة الزهراء لترى من بالباب ، فرأت شخصا عليه الحلي والحلل وله جناحان اخضران قد سد بهما المشرق والمغرب ، وعلى رأسه تاج مرصع بالدر والجوهر مكتوب على جبينه لا اله الا الله محمد رسول الله . . . فخرج النبي (صلعم) فلما رآه فاذا به جبريل عليه السلام ، فقال : يا اخي يا جبريل ، اوحي نزل ، ام وعد حضر ، ام امر حدث ؟ قال : يا حبيبي قم والبس ثيابك وسكن قلبك فانك في هذه الليلة تناجي ربك .

وصف البراق :

فلما سمعت كلام جبريل عليه السلام ، نهضت قائما فرحا مسرورا ، وشددت على ثيابي ، وخرجت الى

---

(١٨) سورة التكوير الآيات ١٨ - ٢٩ .

(١٩) عبد الحليم محمود : الاسراء والمعراج ص٩٨ (دار المعارف بالقاهرة) .

(٢٠) عبد الله بن العباس بن عبد المطلب [illegible]

(٢١) الاسراء والمعراج للامام ابن عباس ، رسالة في (٦) صفحة طبعت في شركة الشمرلي بالقاهرة .

الصحراء فاذا بالبراق(٢٢) قائما وجبريل يقوده واذا هو دابة لا تشبه الدواب ، فوق الحمار ودون البغل ، له وجه كوجه ابن آدم وجسده كجسد الفرس ، عرفها من اللؤلؤ الرطب ، منسوج بقضبان الياقوت يلمع بالنور واذناها من الزمرد الاخضر وعيناها مثل كوكب دري يوقد ، لها شعاع كشعاع الشمس ، عليها جل(٢٣) مرصع بالدر والجوهر . . . فدنا مني فركبته .

الاصوات المنادية :

فبينا انا في المسير بين السماء والأرض ، واذا بصائح عن يميني وهو يقول « قف يا محمد فاني انصح لك ولأمتك فسرت ولم التفت اليه ، وكان ذلك فضلا من الله تعالى ثم سرنا ما شاء الله ، واذا بصائح عن شمالي وهو يقول « قف يا محمد فاني انصح لك ولأمتك » فسرت ولم التفت اليه وكان ذلك فضلا من الله تعالى ، ثم سرنا ما شاء الله واذا بامرأة ناثرة شعرها وعليها من كل زينة خلقها الله تعالى من الحلل والجواهر والدر والياقوت قد اشرق حسنها وجمالها وهي تناديني وتقول « يا محمد قف حتى اكلمك ، فاني انصح لك ولأمتك فسرت ولم اقف وكان ذلك فضلا من الله عز وجل ، ثم سرنا ، واذا عن يميني شاب حسن الثياب طيب الرائحة فلما رآني اقبل وسلم علي وعانقني ثم غاب عني فقلت : يا اخي يا جبريل ، اخبرني عن الصائح الذي ناداني في الطريق ، فقال : اما الصائح الاول ، فهو داعي النصارى ولو اجبته لتنصرت امتك من بعدك . واما الصائح الثاني فهو داعي اليهود ، ولو اجبته لتهودت امتك من بعدك . واما المرأة الناثرة شعرها المتزينة بالحلل فتلك الدنيا ، ولو اجبتها لأختارت امتك الدنيا على الاخرة . واما الشاب الذي سلم عليك فهذا دين الله عز وجل ، فان امتك يموتون مؤمنين .

الوصول الى بيت المقدس :

ثم ان جبريل سبقني الى بيت المقدس فتبعته ، واذا هو قد اقبل ومعه ثلاثة اقداح في الاول لبن ، وفي الثاني خمر ، وفي الثالث ماء . فقال لي اشرب ايها شئت ، فاخذت اللبن فشربته الا قليلا ، فقال لي جبريل : اخذت الفطرة كلها(٢٤) ولو اخذت الخمر لغوت امتك ، ولو اخذت الماء لغرقت امتك .

وصف المعراج :

ثم ان جبريل عليه السلام اتى بي الى الصخرة واذا بالمعراج قد نصب الى الصخرة من عنان السماء(٢٥) فلم ار

---

(٢٢) البراق : سمي كذلك [illegible] (السيرة الحلبية جـ ١ ص ٤٩٦) .

(٢٣) الجل للفرس او الدابة كالثياب للانسان [illegible] .

(٢٤) الفطرة [illegible]

(٢٥) [illegible] (بيروت ١٩٦٨) .

شيئا احسن من المعراج وهو مرقاة من الذهب ومرقاة من الفضة ومرقاة من الزبرجد ومرقاة من الياقوت الاحمر ، فضمني جبريل الى صدره ولفني بجناحه وقبل ما بين عيني وقال : إرْقَ يا محمد ، فصعدت أنا وجبريل فحار نظري من مقامات المصعدين ، واذ بملائكة لا يحصى كثرتهم الا الله تعالى يسبحون الله تعالى لا يفترون .

السماء الأولى (الرقيعة) ولقاء جده اسماعيل :

ثم صعد الى سماء الدنيا في اسرع من طرفة عين ، وبينها وبين الارض خمسمائة عام ، وسمكها مثل ذلك . فطرق الباب ، فقالوا : من هذا ؟ فقال : جبريل . قالوا : ومن معك ؟ قال محمد (صلعم) قالوا : أو أُرسل اليه ؟ قال : نعم قالوا : مرحبا بك وبمن معك . ففتحوا الباب ودخلناها : فاذا هي سماء من دخان يقال لها الرقيعة ، وليس فيها موضع قدم الا وعليه ملك راكع او ساجد ، ونظرت فاذا فيها نهران عظيمان مطردان ، فقلت : ما هذان النهران يا جبريل ؟ قال : هذا النيل وهذا الفرات ، عنصرهما اي اصلهما من الجنة(٣٦) ، واذا بنهر اخر وعليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضربت يدي فيه فاذا هو مسك اذفر . فقلت : ما هذا النهر ؟ فقال : هذا الكوثر الذي خبأه الله لك .

ثم نظرت فاذا بملك عظيم الخلقة وهو راكب على فرس من نور وعليه حلة من نور وهو موكل بسبعين الف ملك مسومين بانواع الحلي والحلل ، بيد كل واحد منهم حربة من نور ، وهم جند الله تعالى . فقلت : يا اخي يا جبريل من هذا الملك العظيم ؟ فقال : هذا اسماعيل خازن سماء الدنيا ، ادن منه وسلم عليه . فدنوت منه وسلمت عليه ، فرد السلام وهنأني بالكرامة من ربي عز وجل وقال ابشر يا محمد ، فالخير كله فيك وفي امتك الى يوم القيامة . فقلت : لربي الحمد والشكر .

السماء الثانية (الماعون) ولقاء يحى بن زكريا وعيسى بن مريم :

ثم صعدنا الى السماء الثانية في اسرع من طرفة عين، وبينها وبين سماء الدنيا خمسمائة عام ، وسمكها مثل ذلك . . . ففتحوا لنا الباب ودخلناها ، فاذا هي سماء من حديد يقال لها الماعون ، ورأيت فيها من الملائكة ركبانا على خيل مسومة ، متقلدين السيوف وبايديهم الحراب . فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : هؤلاء جند من الملائكة خلقهم الله تعالى لنصرة الاسلام الى يوم القيامة . ورأيت فيها شابين متشابهين فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : احدهما يحى بن زكريا ، والاخر عيسى بن مريم عليهما السلام . أدن منهما وسلم عليهما ، فدنوت منهما وسلمت عليهما فردا على السلام .

(٣٦) في صورة اخرى لقصة المعراج يخرج من سدرة المنتهى اربعة انهار : النيل والفرات وسيحان وجيحان (سيحون وجيحون) راجع (السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٥٣٦)

أما عيسى فانه سبط الشعر ، جميل الوجه ، أبيض اللون ، مشرب بحمرة كأنه خارج من ديماس[٢٢] واما يحيى فرأيت على وجهه اثر الخشوع .

السماء الثالثة (المزينة) ولقاء داود وسليمان ويوسف :

ثم صعدنا الى السماء الثالثة . . . فاذا هي سماء من نحاس يقال لها المزينة ورأيت فيها ملائكة معهم الوية خضر . فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : هؤلاء ملائكة ليلة القدر وشهر رمضان ، يطلبون مجلس الذكر ومجالس الشهداء ويسلمون على اهل صلاة الليل ، ورأيت فيها شيخا وشابا . فقلت : من هذا يا جبريل ؟ فقال : داود وسليمان عليهما السلام . أدن منهما وسلم عليهما . فدنوت منهما وسلمت عليهما ، فردا السلام وهنآني بالكرامة من ربي .

ونظرت فاذا بينها غلام جالس على كرسي من نور وقد اشرق النور من وجهه وصورته كالقمر ليلة البدر .

فقلت من هذا الشاب يا جبريل ؟ قال : هذا يوسف بن يعقوب ، فضله الله بالحسن والجمال . فدنوت منه وسلمت عليه فرد على السلام وهنأني بالكرامة من ربي .

السماء الرابعة (الزاهرة) ولقاء ادريس وعزرائيل وابراهيم :

ثم صعدنا الى السماء الرابعة فاذا هي سماء من فضة بيضاء يقال لها (الزاهرة) ورأيت فيها اصنافا من الملائكة ، كما رأيت رجلا على وجهه نور ساطع وله قلب خاشع فقلت من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا اخوك ادريس ، ادن منه وسلم عليه . فدنوت منه وسلمت عليه فرد على السلام . ثم رأيت ملكا عظيم الخلقة والمنظر قد بلغت قدماه تخوم الارض السابعة ورأسه تحت العرش وهو جالس على كرسي من نور ، والملائكة بين يديه . وعن يمينه لوح ، وعن شماله شجرة عظيمة ، الا انه لم يضحك ابدا ، فقلت يا اخي يا جبريل من هذا ؟ قال : هذا هازم اللذات ، ومفرق الجماعات ، ومخرب البيوت ، ومعمر القبور . . هذا ملك الموت ، عزرائيل . فدنوت منه وسلمت عليه ، فلم يرد علي السلام فقال له : لم لا ترد السلام على سيد الخلق ؟ فلما سمع كلام جبريل وثب قائما ورد السلام . . . فقلت يا اخي عزرائيل ، هذا مقامك ؟ قال : نعم ، منذ خلقني ربي الى قيام الساعة : فقلت : كيف تقبض الارواح وانت في مكانك هذا ؟ قال : ان الله مكنني من ذلك ، وسخر لي من الملائكة سبعين الف ملك ، افرقهم في الارض ، فاذا بلغ العبد اجله واستوفى رزقه ، وانقضت مدة حياته ارسلت اليه اربعين ملكا يعالجون روحه فينزعونها من العروق والعصب واللحم والدم ، ويقبضونها الى السرة ، ثم يريحونه ساعة ثم يجلبونها الى الحلقوم

(٢٢) الديماس : الحمام .

قطع الغرغرة ، فتناولها واسلها كما تسل الشعرة من العجين ، فاذا انفصلت من الجسد ، جمدت العينان وشخصتا لأنها يتبعان الروح ، فاقبضها باحدى حربتي هاتين واذا بيده حربة من نور وحربة من سخط فالروح الطيبة يقبضها بحربة النور ويرسلها الى عليين ، والروح الخبيثة يقبضها بحربة السخط ويرسلها الى سجين وهي صخرة سوداء مظلمة تحت الارض السابعة السفلى فيها ارواح الكفار والفجار قلت : وكيف تعرف حضر اجل العبد ام لم يحضر ؟ قال : يا محمد ، ما من عبد الا وله في السماء بابان : باب ينزل منه رزقه وباب يصعد اليه عمله ، وهذه الشجرة التي على يساري ما عليها ورقة الا عليها اسم واحد من بني آدم ذكورا واناثا . فاذا قرب اجل الشخص اصفرت الورقة التي كتب عليها اسمه ، وتسقط على الباب الذي ينزل منه رزقه ويسود اسمه في اللوح فاعلم انه مقبوض فانظر اليه نظرة يرتعد منها جسده ، ويتوعك قلبه من هيبتي ، فيقع في الفراش فارسل اليه اربعين من الملائكة يعالجون روحه وذلك قوله تعالى « حتى اذا جاء احدكم الموت ، توفته رسلنا وهم لا يفرطون » .

قال النبي (صلعم) : فودعته ، وتقدمت امامي ، فاذا برجل صبيح الوجه غزير العقل . فلما رآني ضحك مبتسما . فقلت يا اخي جبريل من هذا ؟ قال : هذا ابوك ابراهيم الخليل ، ادن منه وسلم عليه . فدنوت منه وسلمت عليه ، فرد علي السلام وهنأني بالكرامة . .

السماء الخامسة (المثيرة) ولقاء مع مالك خازن النار ووصف جهنم :

ثم ارتقينا الى السماء الخامسة . . . فاذا هي سماء من الذهب الاحمر واسمها المثيرة وبها ملك عظيم الخلقة مرهوب النظر ، ظاهر الغضب ، شديد البأس ، صعب المراس بين عينيه عقدة لو اشرف بها على أهل الارض ، لماتوا عن اخرهم وغارت منه البحار وتفطرت منه الجبال . قلت يا اخي جبريل من هذا الذي اقشعر منه جلدي ووجف منه فؤادي ؟ قال يا حبيب الله ، هذا مالك خازن النار ، خلقه الله من غضبه وسخطه وولاه جهنم[٢٨] . . . أدن منه وسلم عليه فدنوت منه وسلمت عليه ، فلم يرد السلام ، فقال جبريل : لم لا ترد على حبيب الله ؟ فلما سمع مالك ذلك ، نهض قائما على قدميه وقال : الله الله العذر لك يا حبيب الله . فقلت له : ارني جهنم . فقال مالك : ليس الامر لي . واذا بالنداء من العلي الاعلى « لا تخالف حبيبي محمدا » فعند ذلك كشف عنها الغطاء فاذا هي سوداء مظلمة ممتزجة بغضب الله . فرأيت فيها سبعين الف بحر من نار في كل بحر الف مدينة من نار في كل مدينة الف قصر من نار . . في كل قصر سبعون الف صنف من العذاب ورأيت فيها حيات كامثال النخل الطويل ، وعقارب كامثال البغال ، ورأيت فيها سبعين الف بئر من الزمهرير . ورأيت نساء قد احترقت وجوههن ، والسنتهن مندلعات على صدورهن فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللواتي يطلبن لأزواجهن طلقنا من غير سبب ، ورأيت نساء صما بكما عميا في تابوت من نار يخرج من دماغهن ، مثل الدهن من مناخيرهن ، وابدانهن منتنة تتقطع من

(٢٨) سميت جهنم [illegible] (ابن عربي : الفتوحات المكية ج ٤ ص ٣٢٧ ، طبعة صادر بيروت)

الجذام والبرص . . فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللواتي اولادهن من غير ازواجهن . ورأيت نساء سود الوجوه يأكلن امعاءهن فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء القوادات اللاتي يجمعن بين اثنين في الحرام ، ورأيت نساء معلقات من ارجلهن في تنور من نار فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللاتي يشتمن ازواجهن ، ورأيت امرأة على صورة الكلب والنار تدخل من فوقها وتخرج من تحتها . والملائكة يضربون رأسها بمقامع من حديد فقلت : من هذه يا اخي جبريل ؟ قال : هذه المحرشة بين الناس بالبغضاء . ورأيت رجالا مقلبين على وجوههم وعلى ظهورهم صخرة من نار والملائكة يضربونهم بمقامع من حديد فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء اللوطية الذين يأتون الذكران من العالمين ، ورأيت رجالا ونساء مصفدين باصفاد من نار وجباههم قد اسودت ، والحيات مطوقات باعناقهم تلدغهم فتهري لحومهم ثم يعودون خلقا جديدا . فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، ورأيت نساء معلقات بشعورهن في شجرة الزقوم[٢٩] والحميم يصب عليهن ، فتهرى لحومهن فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء النساء اللاتي كن يشربن الادوية حتى يقتلن اولادهن خوفا من مطعمهم ومشربهم وتربيتهم الم يعلمن ان الله يطعمهم ويسقيهم ، وقد قال الله تعالى « ما من دابة في الارض الا على الله رزقها » ورأيت رجالا ونساء في السعير والنار لها دوي في بطونهم تدخل من ادبارهم وتخرج من افواههم قلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما . . ورأيت رجالا ونساء يسقون من القيح والصديد وتتمزق جلودهم ثم يعودون خلقا جديدا . قلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون الربا . . . ورأيت النار واهوالها وعقابها فداخلني منها رعب على ضعاف امتي . ثم انطبق الباب وعاد كما كان .

السماء السادسة (الخالصة) ولقاء موسى :

ثم ارتقينا الى السماء السادسة . . . فاذا هي سماء من زمردة خضراء اسمها الخالصة رأيت فيها رجلا كهلا طويلا كثير الشعر عليه مدرعة من صوف ابيض يتوكأ على عصا يكاد شعره يغطي جسده له لحية بيضاء على صدره . فقلت : من هذا يا اخي جبريل ؟ قال : هذا اخوك موسى بن عمران ، فضله الله بكلامه وجعله كليما له . ادن منه وسلم عليه فدنوت منه وسلمت عليه فنظر الي وجعل يقول : يزعم بنو اسرائيل اني اكرم الخلق على الله ، وهذا اكرم مني على ربه .

السماء السابعة (العجيبة والعالية) ولقاء ادم :

ثم ارتقينا الى السماء السابعة . . . فاذا هي سماء من درة بيضاء يقال لها العجيبة وهي العالية . . ورأيت فيها من ملائكة ربي عز وجل ملائكة يقال لهم الروحانيون فالتفت عن يميني ، فاذا انا بشيخ حسن الوجه حسن الثياب

(٢٩) شجرة [illegible]

جالس على كرسي من نور قلت : يا اخي جبريل ؟ من هذا ؟ قال هذا ابوك آدم . . فدنوت منه وسلمت عليه فرد علي السلام وهنأني بالكرامة من ربي عز وجل .

ورأيت البيت المعمور وفيه قناديل من جواهر وانوار مصطفة . . واذا بالملائكة يطوفون حوله فقمت وطفت معهم سبعا وقلت للملائكة : كم لكم تزورون هذا البيت ؟ فقالوا من قبل ان يخلق الله اباك آدم بالفي عام .

سدرة المنتهى وبحور العالم الاخر وما فيها من ملائكة ضخام :

ثم رفعت الى سدرة المنتهى ، واليها ينتهي ما يعرج من الارض فيقبض منها واليها ينتهي ما يهبط من فوق فيقبض منها ويقع عليها نور العرش فلا يقدر احد ان ينظر اليها .

ثم تقدمت امامي فلم ار اخي جبريل معي فقلت يا اخي جبريل في مثل هذا المكان يفارق الخليل خليله فلم تركتني وتخلفت عني ؟ فنادى جبريل: يعز علي ان اتخلف عنك والذي بعثك بالحق نبيا ما منا إلاّ وله مقام معلوم ولو ان احدا منا تجاوز مقامه لاحترق بالنور . . واذا بالنداء من قبل الله تعالى : زجوا حبيبي محمدا في النور ، فأتتني الملائكة برفرف اخضر مثل المقعد يحمله اربعة من الملائكة فوضعوه بين يدي وقالوا : ارق يا محمد . فاستويت على الرفرف فسار بي كالسهم الذي يخرج من القوس ، حتى انتهى الى بحر من نور ابيض واذا بملك ذلك البحر واسع ما بين كتفيه لو ان الطير المسرع يطير بين منكبيه لما بلغه في خمسمائة عام .

ثم زج بي في بحر من نور اخضر جلالاً واذا بملك ذلك البحر لو اذن الله له ان يبلع السموات السبع والارضين السبع في دفعة واحدة لهان عليه ذلك لعظمة خلقه .

ثم خرجت من ذلك البحر الى بحر اسود فنظرت فاذا ظلمات متراكبة بعضها فوق بعض في كثافة لا يعلمها الا الله فلما نظرت اليه اسود بصري وخررت على الرفرف ساجدا لله تعالى وناديت برفيع صوتي : يا غياث المستغيثين ويا اله العالمين آنس وحشتي بعبد من عبيدك يكلمني ويؤنسني واذا بالنداء من ساحل البحر : يا محمد الى اقبل ، فاقبلت واذا بملك عظيم الخلقة على ذلك البحر يكيل الله بمكيال ويزنه بميزان . فناديت السلام عليك ورحمة الله وبركاته يا عبد الله . فقال : وعليك السلام يا حبيب الله . فقلت سألتك بالله ، لم سميت ميكائيل ؟ قال : اعلم يا حبيب الله انني سميت ميكائيل لاني موكل بالقطر والنبات ، اكيل الله بمكيال وازنه بميزان وارسله الى السحاب الى حيث شاء الله ، فسلمت عليه ومضيت حتى انتهيت الى ملك افرق[٣٠] على هيئة الديك اصفر واخضر وهو ساجد يقول في سجوده : سبحان الله العظيم ، فاذا سبح ذلك الديك سبحت ديوك الارض جميعا واجابوه بما يقول ، وتميل باعناقها وتصغي باذانها لاستماع ذلك التسبيح من ذلك الديك وتخفق باجنحتها محية بالتسبيح والتقديس لله الواحد القهار ، واذا سكت سكتت .

---

(٣٠) ملك افرق اي ملك على شكل طائر

فبينما انا كذلك واذا انا بملائكة قيام على اقدامهم فقلت يا اخي اسرافيل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الروحانيون الكروبيون وهم حملة العرش ، ادن منهم وسلم عليهم ، فسلمت عليهم .

رفع الحجب وحدوث المناجاة :

فبينما انا كذلك اذا بملك عظيم الخلقة اشد بياضا من الثلج يتقدمه سبعون الف ملك على صورته ، فعانقني وقبلني وقال : سر يا حبيب الله فسرت مع هؤلاء الملائكة يعظمونني ويكرمونني حتى اخترقنا سبعين الف حجاب من نور ابيض .. حتى وصلت الى حجاب الفردانية . واذا بالنداء من قبل الله تعالى ، ارفعوا الحجب التي بيني وبين حبيبي محمد ، فرفعت حجب لا يعلمها الا الله فرأيت مائة الف صف من الملائكة قياما لا يركعون ، ومائة الف صف من الملائكة ركوعا لا يسجدون ومائة الف صف سجودا لا يجلسون ولا يرفعون رؤوسهم الى يوم القيامة .

وبينما انا افكر وقد اخذتني الهيبة مما رأيت .. نوديت ، يا احمد .. ادن مني ، فخطوت خطوة مسيرة خمسمائة عام فقيل لي ، يا احمد لا تخف ولا تحزن ، فسكن قلبي ثم اخذ الرفرف يعلو بي حتى قربني من حضرة سيدي ومولاي ، فابصرت امرا عظيما لا تناله الاوهام ، ولا تبلغه الخواطر ، سبحانه وتعالى مما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . فدنوت من ربي حتى صرت منه كقاب قوسين او ادنى ، فوضع سبحانه وتعالى يده بين كتفي ولم تكن يدا محسوسة كيد المخلوقين ، بل يد قدرة وارادة ، فوجدت بردها على كبدي ، فذهب عني كل ما كنت اجده واورثني علم الاولين والاخرين ، فاخذني عند ذلك الثبات والسكون فظننت ان من في السموات والارض قد ماتوا الا انا ، لا اسمع هناك حسا ولا حركة ثم رجع الى عقلي فنوديت : يا احمد ادن مني ، فقلت : يا الهي وسيدي ومولاي ، انت السلام ومنك السلام ، فناداني ثانيا : ادن مني ، فدنوت منه فقال : وعليك السلام ، فالهمني ربي ، فقلت : التحيات لله والصلوات والطيبات . فقال الله تعالى ، السلام عليك ايها النبي ورحمة الله وبركاته فقلت : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . فقالت الملائكة من ورائنا : اشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له . قال الله تعالى ، وانا اشهد ان محمدا عبدي ورسولي ، فمن احبك فقد احبني ، ومن كذبك فقد باء بغضبي . قلت : يا رب اين انا ؟ فقال : انت على بساط الانس ، فرجعت وهممت ان اخلع نعلي فناداني ربي ، دس على بساطنا ، فقد اصطفيناك .. هل تراني بعينيك ؟ فقلت : سبحانك ، لا تدركك الابصار ولا تحويك الاقطار وانت الوحيد القهار الهي وسيدي ، غشي بصري نورك وبهاؤك وجلالك فلا اراك الا بقلبي .

فرض الصلاة :

ثم هممت بالنزول ، فناداني ربي عز وجل : على رسلك يا محمد ، اني مفترض عليك وعلى امتك فريضة من وفّى بها دخل الجنة ، ومن قصر عنها فان شئت غفرت له وان شئت عذبته ، فرضت عليك وعلى امتك خمسين صلاة في كل يوم وليلة فقلت سمعنا واطعنا . ثم نزلت ، فلم ازل اسير حتى اتيت اخي موسى بن عمران عليه السلام ، فلما رآني نهض قائما وقال : مرحبا بالصادق الامين ، امن عند ربك ؟ قلت : نعم : قال : ما اعطاك ؟

قلت : اعطاني وارضاني . قال : فما اعطى امتك ؟ قلت : اعطاهم وارضاهم . وفرض علي وعليهم خمسين صلاة في اليوم والليلة . قال موسى : فارجع واسأله التخفيف ، فاني قد بلوت بني اسرائيل من قبلك[٣١] وامتك امة آخر الزمان ، جسدهم ضعيف وعمرهم قصير ، لايطيقون ذلك فاسأل ربك ان يخفف عنهم . قلت : يا اخي ومن يخترق تلك الحجب التي اخترقتها ؟ قال موسى : اسأله من هنا فانه قريب مجيب . فلم ازل اسأل ربي عزوجل وموسى يكلمني حتى فرض علي وعلى امتي خمس صلوات . قال موسى : اسأله التخفيف . قلت : يا اخي قد استحييت من ربي . فقال ربي : جعلناها خمسا في العمل وخمسين في الميزان ، الحسنة بعشر امثالها . ثم ودعت موسى وانصرفت حتى اتيت اخي جبريل . واذا هو قائم على حاله فلما رآني عانقني ورحب بي .

وصف الجنة ولقاء رضوان خازنها :

ثم اخذ جبريل بيدي وسرنا حتى اتينا الجنة ، فاذا مكتوب على بابها : لا اله الا الله محمد رسول الله ، واذا بملك عظيم الخلقة حسن المنظر يلوح النور من وجهه جالس على كرسي من نور وعليه الحلي والحلل . فقلت : يا اخي يا جبريل من هذا ؟ قال هذا رضوان خازن الجنان . فتقدمت وسلمت عليه . . . فاخذني وادخلني الجنة ، فنظرت فاذا ارضها بيضاء مثل الفضة ، وحصباؤها من اللؤلؤ والمرجان ، وترابها المسك ، ونباتها الزعفران ، واشجارها ورقة من فضة وورقة من ذهب ، والثمار عليها مثل النجوم المضيئة ، والعرش سقفها ، والرحمة حشوها والملائكة سكانها ، والرحمن جارها .

فأخذ رضوان بيدي وسرنا بين اشجارها وما فيها من سرور وعيون ، وحور الحول وابكار ، وقصور عاليات ، وولدان كأنهن الاقمار ، وخدم وحشم وكرم ، وانعام ونعيم ومقام وخلود . .

العودة الى الارض . :

ولم ازل انزل من سماء الى سماء ، فما مررت على شيء في السموات الا وهو يقول « لا اله الا الله محمد رسول الله » فلما انتهينا الى السماء الدنيا ، اذا الليل على حاله لم يتقدم ولم يتأخر فركبت واتيت مكة ، شرفها الله وعظمها ، ونزلت عن البراق ، فودعني جبريل وقال : يا محمد اذا اصبحت فحدث قومك بما رأيت من العجائب في هذه الليلة وبشرهم برحمة الله تعالى فقلت : يا اخي جبريل اني اخاف ان يكذبوني . فقال جبريل ان كذبوك صدقك ابوبكر ، فلا تبال بمن كذبوك بعده . فنمت على فراشي الى وقت صلاة الصبح .

امتحان المؤمنين :

ثم خرجت الى باب المسجد وكان من عادة ابي جهل الخبيث اذا مر علي يقول : بم ثبت يا محمد البارحة ؟ فمر علي وسألني على حسب عادته . فقلت له : اسرى بي قال : الى اين ؟ فقلت : الى بيت المقدس ثم الى العرش ،

---

(٣١) [illegible]

وخاطبت الحق وخاطبني واعطاني واكرمني ، ورأيت الجنة وما اعد الله لأهلها من النعيم المقيم ، ورأيت النار وما اعد الله لأهلها من الزقوم والحميم ».

قال ابو جهل : يا محمد اكتم هذا الامر ولا تتكلم به والا كذبك الخلق ، فقلت له أأكتم امرا انعم الله به علي ، وقد قال تعالى « واما بنعمة ربك فحدث » قال ابو جهل ، يالله العجب من قولك ، هل تقدر ان تحدث قومك بما اخبرتني به ؟ فقلت : نعم فنادى « يا اهل مكة هلموا الي » فاجتمع اهل مكة كلهم فقام رسول الله (صلعم) خطيبا وقال : يا معشر قريش ، اعلموا ان الله سبحانه وتعالى اسرى بي في هذه الليلة الى بيت المقدس ، ثم عرج بي الى السماوات السبع ، وشاهدت الانبياء عليهم السلام ورفعت الى العرش ودست[٣٢] بساط النور وخاطبت الحق وخاطبني » ورأيت الجنة والنار وجعلت اصف هذا كله ، وابو بكر الصديق يقول : صدقت يا صفوة الله ، صدقت يا حبيب الله . فقال ابو جهل « وصفت فاحسنت فما اريد منك خبر السماء ولكن نريد منك خبر بيت المقدس ، كيف هو ؟ صفه لنا حتى نعلم ان كلامك حق وقولك صدق ؟ فاطرق النبي (صلعم) رأسه الى الارض لأنه دخل بيت المقدس بالليل ومر عليه راجعا بالليل ولم ير علامة ولا اشارة . فاوحى الله الى جبريل ان اهبط الى بيت المقدس واقتلعه بارضه وجباله وتلاله واوديته وازقته وشوارعه ومساجده وابسطه بين يدي حبيبي محمد . قال فعند ذلك هبط الامين جبريل على النبي (صلعم) بيت المقدس ، فجعل النبي ينظر اليه ويصفه مكانا مكانا وموضعا موضعا حتى اطرقوا جميعا الى الارض وابو بكر الصديق يقول : صدقت يا حبيب الله . ثم قال النبي (صلعم) لما كنت انا واخي جبريل في الهواء رأيت من بني مخزوم فلانا وفلانا هم وركب عند جبل الاراك قد ضل منهم جمل اورق[٣٣] فناديتهم من الهواء : ان جملكم في وادي النخل وهم عند طلوع الشمس من الغد يقدمون عليكم فاذا جاؤكم فاسألوهم . فلما اصبح ذلك اليوم وكان الركب بعيدا ولم يقدروا ان يدركوا مكة عند طلوع الشمس قال فامسك الله في ذلك اليوم الشمس حتى لحق الركب مكة اكراما وتصديقا لكلام سيد الخلق .

ولما طلعت الشمس دخل الركب مكة واخبروا انه ضل منهم بعير قالوا وكنا نبحث عنه فاذا بشخص من الهواء « ان البعير في وادي النخيل » فأتينا الوادي فوجدناه كما ذكر لنا . فلما سمع المسلمون ذلك فرحوا فرحا شديدا وضجوا بالتهليل والتكبير وخرج رسول الله (صلعم) والمسلمون حوله وهو بينهم كالقمر وهم حوله كالنجوم .

أصداء هذه الرحلة الالهية واثرها في التراث الانساني :

منذ روى الرسول انباء هذه الرحلة الالهية والجدل شديد حولها ، وفي ذلك يقول الله تعالى « وما جعلنا الرؤيا التي اريناك الا فتنة للناس » .

(٣٢) [illegible]

(٣٣) [illegible]

ولقد ارتد عدد من المسلمين الاوائل عند سماع هذه الحادثة واختبر الرسول في وقائعها حتى انه طلب منه كما رأينا ان يصف لهم بيت المقدس وهو لم يسافر اليه من قبل فوصفه لهم وصفا دقيقا، وصدقه ابو بكر وكثير ممن سافروا اليه .

على ان جدلا كثيرا استمر حتى الان في طبيعة الاسراء والمعراج ، فيذهب البعض الى انها كانت بالروح وانها من الرؤى المنامية عند الرسول حقائق وليست احلاما كما هي عند بقية الناس[٣٤] ويرى فريق اخر ان الاسراء الى بيت المقدس كان بالجسد بينما كان المعراج الى الملكوت بالروح[٣٥] ويرى فريق ثالث انها كانت بالاثنين معا بالروح والجسد ، وانها معجزة خرق الله فيها لرسوله قوانين الارض وقوانين السماء ليريه من آياته الكبرى ، يثبته ويفرض عليه وعلى امته اقدس العبادات واقربها الى الله وهي الصلاة[٣٦] .

والى هذا الرأي الاخير يتجه تفكير العلماء الان بعد ان اكدت رحلة الاسراء والمعراج حقائق علمية حديثة عرف بعضها بعد غزو القمر والفضاء ، وتفتيت الذرة ، وتحويل المادة الى طاقة والعكس . وقد علق بعضهم على ذلك بقوله وربما ازددنا امعانا في هذه القصة اذا علمنا ان الدراسات الاكاديمية في الفضاء في كثير من الدول ـ وخاصة بعض الجامعات في امريكا ـ يدرسون هذه الرحلة بشيء كثير من الامعان ، ويدققون كثيرا في كتب السيرة التي ربما نستهزيء بها او لا نكاد نصدقها[٣٧] .

على ان موضع الاهمية هنا هو ان قصة الاسراء والمعراج بما قدمته من صور عديدة ومتنوعة عن عالم الفضاء وعالم ما بعد الحياة قد اثرت تأثيرا كبيرا على الشعراء والقصاص ورجال الفكر والفن والتصوف ، اذ فتحت امامهم افاقا جديدة للتأمل الروحي والابداع الفني مما اثري التراث الاسلامي وامتد صداه الى الفكر الاوروبي مؤثرا فيه ايضا .

في الادب الجغرافي :

اذا تصفحنا كتب الجغرافيا الرياضية والوصفية التي كتبها المسلمون الاوائل في وصف الكون والافلاك والمسالك والممالك والانهار والبحار واخبار البلدان وما فيها من عجائب وغرائب ، نجد فيها مادة خصبة مستقاة مما ورد في قصة الاسراء والمعراج مع زيادات ومبالغات ابتدعها وزينها الخيال البشري ومثال ذلك قولهم :

---

(٣٤) صلاح الدين عبد الغني: كشف الشبهات حول الاسراء والمعراج ص ١٩ (المكتبة القومية الحديثة) .

(٣٥) محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ١٩٣ .

(٣٦) محمد علي الدراوي : صفوة الفكر ، ٦ ص ٧٩ .

(٣٧) سامي حمود : رحلة الى الله (جريدة الاهرام ١٩٨١/٦/٢) .

« ان اربعة انهار تخرج من الجنة وهي : النيل والفرات وسيحان وجيحان ، وزعموا ان الفرات مد في زمن علي بن ابي طالب او في زمن معاوية ـ فرمى برمانة عظيمة الحجم مثل البعير البازل[٣٨] ، فاخذ المسلمون يقتسمونها بينهم وكانوا يرون انها من الجنة » . كذلك نجد كلاما كثيرا في مدح الفرات منسوبا الى الامامين علي بن ابي طالب وجعفر الصادق على انه نهر مبارك يصب اليه ميزابان من الجنة[٣٩] .

اما الجغرافي المشهور ابو الحسن علي المسعودي (ت ٣٤٦ هـ) فان تعدد رحلاته مكنه من التعرف على حقيقة بعض الامور بصورة جعلته ينتقد بعض الاخطاء التي وقع فيها غيره ، مثل قوله في كتابه « مروج الذهب » وقد ذكر الجاحظ (ت ٢٢٥ هـ) ان نهر مهران السند من نيل مصر واستدل على ذلك بوجود التماسيح فيه ، فلست ادري كيف وقع له هذا الدليل وذكر ذلك في كتابه المترجم بكتاب الامصار وعجائب البلدان ، وهو كتاب في نهاية الحسن وان كان الرجل لم يسلك البحار ولا اكثر الاسفار ولا تقرأ الممالك والامصار ولم يعلم ان مهران السند يخرج من اعين مشهورة من اعالي السند »[٤٠] .

وقوله ايضا في كتابه « التنبيه والاشراف » وقد ذكر ابو عثمان عمرو ابن الجاحظ في كتابه الاخبار عن الامصار وعجائب البلدان ان مخرج مهران السند والنيل من موضع واحد ، واستدل على ذلك باتفاق زيادتهما وكون التماسيح فيهما وان سبب زراعتهم في البلدين واحد ولا ادري كيف وقع له ذلك ، وقد توجد التماسيح في اكثر اخوار الهند ، وتلحق بالناس وسائر الحيوانات منها الاذية على حسب ما يلحق اهل مصر وحيواناتهم[٤١] . ولكن من الطريف حقا ان المسعودي رغم انتقاده السالف الذكر يعود ويقول عند كلامه عن نهر النيل « وليس في انهار الدنيا نهر يسمى بحرا وبما غير نيل مصر لكبره واستبحاره ، ونهر النيل من سادات الانهار واشراف البحار لأنه يخرج من الجنة على حسب ما ورد به خبر الشريعة : ان النيل وسيحان وجيحان والفرات ، تخرج من الجنة وكذلك الدجلة وغيرها مما اشتهر من الانهار الكبرى »[٤٢] .

وحينما يتكلم القزويني (ت ٦٨٢ هـ) عن سلطان السماوات والملائكة المقربين يستشهد بما روى عن النبي في احدى صور المعراج النبوي فيقول « ولنذكر بعض من اخبر بهم صاحب الشريعة ، صلوات الله عليه وسلامه وهم الملائكة المقربون ومنهم حملة العرش وهم اعز الملائكة واكرمهم على الله تعالى ، فمنهم من هو على صورة النسر ومنهم من هو على صورة الثور ، ومنهم من هو على صورة البشر ، فمن هو على صورة ابن ادم يشفع لبني آدم في

(٣٨) [illegible]

(٣٩) [illegible]

(٤٠) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ١ ص١١٤ .

(٤١) المسعودي : التنبيه والاشراف [illegible] ص١٦٩ [illegible] .

(٤٢) المسعودي : مروج الذهب جـ١ ص٣٢٨ ـ ٣٢٩ .

ارزاقهم ، ومن هو على صورة الثور يشفع للبهائم في ارزاقها ، ومن هو على صورة النسر يشفع للطيور في ارزاقها ، ومن هو على صورة الاسد يشفع للسبع في ارزاقها[٤٣] .

وهناك تأثير جغرافي اخر يلفت النظر ويسترعي الانتباه وهو تطابق اسماء بعض المدن الاسلامية مع اسماء السماوات العلا التي وردت في المعراج النبوي ولعل السبب في ذلك يرجع الى ان مؤسسي تلك المدن من حكام المسلمين ارادوا من وراء اتخاذ تلك الاسماء السماوية اضفاء البركة وحسن الطالع على مدنهم كما جرت عادتهم بذلك ، ومن ذلك مثلا مدينة العالية التي صارت تسمى بعد ذلك بمدينة فاس ، احدى عواصم المغرب الاقصى فيحدثنا التاريخ ان النواة الاولى لهذه المدينة كانت من تأسيس المولى ادريس بن عبد الله الاكمل حفيد الحسن بن علي بن ابي طالب (سنة ٧٢ هـ - ٧٨٩ م) على الضفة اليمنى من النهر المسمى بوادي فاس واعطاها اسما بربريا وهو فاس ، ثم جاء ولده من بعده الامام ادريس الاصغر او الثاني فبنى مدينة مقابلة بدار القيطون في غرب مدينة والده على الضفة اليسرى لوادي فاس سنة ١٩٢ (٨٠٩ م) واطلق عليها اسم العالية ، وضرب هذا الاسم على نقوده . وبمرور الزمن غلب اسم فاس على هاتين المدينتين المتقابلتين الى الآن[٤٤] .

والذي يهمنا في هذا الصدد هو اسم العالية السالف الذكر فقد رجح المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال ان يكون هذا الاسم تحريفا للفظ العلوية او العلية باعتبارها كانت عاصمة لدولة الادارسة العلويين[٤٥] . وان كنا لا نستبعد ان يكون العاهل المغربي ادريس الثاني قد استوحى اسم عاصمته من اسم السماء السابعة العالية التي ورد في المعراج النبوي وذلك من باب التفاؤل وحسن الطالع .

مدينة اسلامية اخرى بالاندلس ، وهي المدينة الزاهرة التي بناها الحاجب المنصور ابن ابي عامر في شمال شرق قرطبة سنة ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م)[٤٦] واسم الزاهرة كما ورد في قصة المعراج النبوي هو اسم السماء الرابعة ، وكانت من الفضة الخالصة فلعل المنصور بن ابي عامر اختار هذا الاسم لمدينته تبركا وتيمنا بهذا الاسم السماوي الجميل .

والجدير بالذكر هنا ، ان هذه المدينة الزاهرة كانت تقابلها في شمال غرب قرطبة مدينة اخرى بنيت قبلها بنحو نصف قرن وهي مدينة الزهراء التي بناها الخليفة الاموي عبد الرحمن الناصر[٤٧] (٣٢٥ هـ) وعلى الرغم مما يقال من انه بناها تكريما لجارية له اسمها الزهراء الا انه يلاحظ ان اسم الزهراء والزهرة ورد في معارج الصوفية على انه اسم للسماء الفلكية الثالثة ، سماء الشهادة والجمال ومقر النبي يوسف الذي اشتهر بحسن النظر وجمال الصورة « ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم » . هذا فضلا عن ان

---

(٤٣) القزويني : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات (هامش كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري) جـ ١ ص ١١١

(٤٤) ابن الخطيب : اعمال الاعلام (القسم الثالث) ص ١٩٨ - ٢٠٠ حاشية ٢ تحقيق احمد مختار العبادي وابراهيم الكتاني (الدار البيضاء ١٩٦٤)

(٤٥) ليفي بروفنسال : الاسلام في المغرب والاندلس ص ٣٨ (ترجمة عبد العزيز سالم ولطفي عبد البديع)

(٤٦) احمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والاندلسي ص ١٨١ [illegible]

(٤٧) بنيت الزهراء على شكل [illegible]

كوكب الزهرة تعتبر عند الاقدمين الهة الجمال ، فهي عند الفينيقيين عشتروت ، وعند اليونان افروديت وعند الرومان فينوس ، فلا اقل من ان تكون عند المسلمين يوسف عليه السلام[٤٨] . والجدير بعيد بالمرة ان يكون الخليفة الناصر قد استوحى اسم مدينة الزهراء من اسم السماء الثالثة رمز الجمال ، خصوصا وان قصة الجارية السالفة الذكر لم يقم عليها اجماع تاريخي . وتجدر الاشارة كذلك الى ان الزهراء تعني لغويا البياض الجميل ، وكان البياض شعار الامويين شرقا وغربا .

وهناك مدينة اسلامية اخرى بناها المسلمون الاوائل في شمال جزيرة صقلية العربية لتكون قاعدة لسلطانهم ومقرا لجنودهم الا وهي مدينة الخالصة التي كان اسمها يطلق في المعراج النبوي على اسم السماء السادسة التي شبهت بزمردة خضراء .

والواقع اننا لا نعرف شيئا عن تاريخ انشاء مدينة الخالصة او كيفية بنائها ، غير ان الجغرافي المشهور باسم الشريف الادريسي اشار اليها في معرض كلامه على مدينة بلرموم Palerma التي زارها في اوائل القرن السادس الهجري (١٢م) فقال انه كان يوجد بوسط بلرم مدينة قديمة تعرف بالخالصة كانت مقر السلطان وجنوده ايام حكم المسلمين ، ولعلنا نستنتج من كلام الادريسي ان المسلمين الاوائل بعد ان فتحوا جزيرة صقلية على يد اسد بن الفرات سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) ، بنوا قاعدتهم الخالصة بجوار مدينة عامرة ، جريا على العادة العربية ، وهي مدينة بلرمه في شمال الجزيرة ، وانه بمضي الزمن اتصل العمران بين المدينتين حتى صارتا مدينة واحدة ، ويؤيد ذلك ان الرحالة الاندلسي ابن الجبير الذي زارها بعد ذلك (ت ٦١٤ هـ) وصفها بقوله : « والمسلمون يعرفونها بالمدينة والنصارى يعرفونها بلرمة[٤٩] وهكذا غلب اسم بلرمو على الخالصة ، كما غلب اسم فاس على العالية .

على ان موضوع الاهمية هنا هو انه اذا صح القول بان مسلمي صقلية قد استوحوا اسم مدينتهم الخالصة من اسم السماء السادسة التي ورد ذكره في المعراج النبوي فان معنى ذلك ان قصة المعراج كانت شائعة منذ وقت مبكر وقريبة جدا على اسماع الايطاليين غير مضيق مسبق وربما على سمع الشاعر الايطالي دانتي الذي تأثر بها بعد ذلك .

صدى المعراج في الأدب العربي :

١ ـ رسالة التوابع والزوابع لابي عامر احمد بن شهيد :

من اقدم الشعراء الذين تأثروا بالاسراء والمعراج هو الشاعر العربي والناقد الاندلسي ابو عامر احمد بن شهيد (٣٨٢ ـ ٤٢٦ هـ = ٩٩٢ ـ ١٠٣٤م) وهو من بيت عريق الحسب والنسب والثراء فقد كان جد ابيه الوزير الشاعر

---

(٤٨) [illegible]

(٤٩) [illegible]

احمد بن عبد الملك بن شهيد وزير الخليفة الاموي عبد الرحمن الناصر الذي منحه لأول مرة في الاندلس لقب « ذو الوزارتين » وكذلك كان ابوه واخوه ومعظم افراد اسرته شعراء .

غير ان شاعرنا ابا عامر كان اجودهم شعرا واوسعهم شهرة ولم يكن الشعر عنده خدمة بل سيادة على غرار الطبقة الراقية التي عبر عنها فيما بعد الشاعر والوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب في قوله :

الطب والشعر والكتابة
سماتنا في بني النجابة

ولقد عاصر ابن شهيد نخبة من علماء قرطبة امثال المؤرخ ابي مروان بن حيان (ت ٤٦٩ هـ) والفقيه ابي محمد بن حزم (ت ٤٥٦هـ) وتوطدت بينهم اواصر الصداقة التي تظهر واضحة في كتاباتهم واشعارهم ، هذا الى جانب الخصوم والحساد الذين لقي ابو عامر منهم عنتا شديدا .

وكان لابن شهيد انتاج غزير من الاشعار والرسائل التي لم تخل من نظرات جريئة ولمحات ذات وقع حديث . ومن اهم رسائله رسالته النقدية التي بعنوان « التوابع والزوابع » صور فيها رحلته كشاعر الى الجنة او عالم الارواح . سابقا بذلك المعري (ت ٤٤٩ هـ) ودانتي (ت ٧٢١ هـ) الى ذلك الموضوع ، فمن المعروف ان ابن شهيد توفي في سنة ٤٣٦هـ اي بعد ظهور رسالة الغفران لابي العلاء المعري بنحو سنتين او ثلاث كان ابن شهيد خلالها يعاني من مرض الفالج الذي اودى بحياته ، ولهذا يرجح ان يكون ابن شهيد قد الف رسالته في حوالي سنة ٤١٤هـ وهو في قوة شبابه اي قبل تصنيف رسالة الغفران بنحو عشر سنوات ، اذ انه من المعلوم ان ابا العلاء الف رسالته الالهية « الغفران » في اثناء عزلته بمعرة النعمان(٥٠) سنة ٤٢٤هـ وبهذا يكون شاعر قرطبة متقدما على شاعر المعرة في موضوع رسالته وغير بعيد بالمرة ان يكون المعري قد اطلع على رسالة التوابع والزوابع فتنبهت فيه فكرة رحلته السماوية(٥١) .

ورسالة التوابع والزوابع اوردها ابن بسام الشنتريني الاندلسي (ت ٥٤٢هـ) في القسم الاول من كتابه الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، وكذلك احمد المقري التلمساني (ت ١٠٤١ هـ) في كتابه نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب .

ثم نشرها حديثا بطرس البستاني في كتاب مستقل مع دراسة تحليلية قيمة . والرسالة تصور رحلة الشاعر ابن شهيد الى السماء صحبة تابعه او شيطان شعره الذي يتبعه ويوحي اليه على حسب عقيدة العرب الاقدمين .

ويصف ابن شهيد تابعه هذا بانه كان على شكل فارس من الجن على متن فرس ادهم وبيده رمح ، وقد يقل

(٥٠) معرة النعمان بلدة سورية من اعمال حلب في شمال سوريا كانت مسقط رأس ابي العلاء المعري (٣٦٣ - ٤٤٩هـ) .
(٥١) راجع المقدمة الوافية لرسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الاندلسي تحقيق ودراسة بطرس البستاني (دار صادر بيروت ١٩٦٧) .

وجهه اي خرج الشعر منه وانه كان يسمى (زهير بن نمير من اشجع الجن) اي ينتسب الى قبيلة بني اشجع في الجن ، وهي قبيلة عربية من بطون غطفان التي ينتسب اليها ايضا ابن شهيد في عالم الانس بمعنى انه كان قريبه او بالاصح قرينه .

ويضيف ابن شهيد بانه كان اذا اراد استدعاءه تابعه انشد بعض الابيات فيظهر له في الحال ، ثم يصف بعد ذلك رحلته مع صاحبه الى عالم الجن او الارواح ، وكيف طار بهما الجواد الادهم عبر الاجواء والفلوات الى عالم التوابع او شياطين الشعراء والكتاب ، ثم يستمر ابو عامر في وصف لقاءاته مع توابع شعراء الجاهلية امثال امريء القيس وطرفة بن العبد ، وقيس بن الخطيم ، ثم مع توابع شعراء العباسيين امثال ابي تمام والبحتري وابي نواس وابي الطيب المتنبي . كل ذلك في وسط الجنان السماوية الخضراء اليانعة وعيون المياه المتفجرة . وفي خلال زياراته هذه يساجل الشعراء ويعارضهم ويذاكرهم ويأخذ الاجازة منهم .

وينتقل ابن شهيد وتابعه بعد ذلك الى لقاء توابع الكتاب امثال عبد الحميد الكاتب وابي عثمان الجاحظ ، وبديع الزمان الهمذاني ، فيحادثهم ويساجلهم ويشكو اليهم امر حساده وخصومه ، ويظهر لهم فضله وينوفه الى ان يمنحهم باجازته كشاعر وخطيب .

ولم ينس ابن شهيد في اخر رسالته ان يشير الى مجالس الجن الادبية وما كان يدور فيها من حوار وانشاد شعري هو من نظمه بطبيعة الحال . كذلك اشار الى حيوان الجن من حمير وبغال واوز ، جعلها عاقلة تتكلم وهي رموز ساخرة لحساده ومناوئيه ويصفهم فيها بالسخف والحمق .

ولاشك ان ابن شهيد في رسالته ، قد استوحى من المعراج النبوي فكرة صعوده الى السماء ولقائه مع الارواح ، ثم زينها بخياله وابداعه الفني بحيث جعلها قاصرة على الناحية الادبية فقط ، كذلك يلاحظ انه جسد الارواح والاتباع كشخصيات واقعية في شكل اصحابها وبالصفات والاخلاق التي اشتهروا بها في دنياهم حتى صار عالم التوابع لا يختلف عن عالم البشر ، فعالم ابن شهيد - كما يقول بطرس البستاني - عالم واقعي انسي وان اضافه الى جنة عبقر(٤٢) .

على ان ابن شهيد رغم ذلك ، اعطانا صورا لبعض الخوارق التي تتناسب مع عالم الجن ، مثال ذلك قوله عن زهير وجواده « فصرنا على متن الجواد ، وسار بنا كالطائر يجتاب الجو فالجو ، ويقطع الدو فالدو(٤٣) ، حتى التمحت أرضا لا كأرضنا ، وشارفت جوا لا كجونا ، متفرع الاشجار ، عطر الزهر فقال لي « حللت ارض الجن ابا عامر فبمن تريد ان تبدأ ؟(٤٤) وكذلك في قوله عن تابع ابي تمام « فانفلق ماء العين عن وجه فتى كفلقة القمر ثم اشتق الهواء صاعدا الينا من قعرها حتى استوى معنا(٤٥) .

(٤٢) راجع القصة العربية / رسالة التوابع والزوابع
(٤٣) المصدر : نفسه
(٤٤) راجع نص رسالة التوابع والزوابع ص ٩١ .
(٤٥) راجع نص رسالة التوابع والزوابع ص ٩٥

وهكذا نرى مما تقدم ان الشاعر ابا عامر بن شهيد قد استوحى من حادثة المعراج فكرة موضوعة وان كان قد احاطها بغلاف من خلقه وإبداعه ، مما اعطاها لونا خاصا وطابعا مميزا مستقلا .

٢ ـ رسالة الغفران لأبي العلاء المعري :

وما يقال عن ابن شهيد ، يقال ايضا عن معاصره الشاعر والمفكر الناقد الزاهد ابي العلاء المعري (٣٦٣-٤٤٩هـ=٩٧٩-١٠٥٨م) الذي ولد في معرة النعمان من اعمال حلب ، وفقد بصره في الرابعة من عمره ، ودرس في حلب وطرابلس وانطاكية وبغداد ، ثم عاد الى المعرة مسقط رأسه ليعيش فيها زاهدا متبرما متشائما معتزلا العالم . ومن مؤلفاته اللزوميات وسقط الزند ، ثم رسالة الغفران ، التي تعنينا في هذا المقام . ورسالة الغفران هي رحلة الى العالم الآخر ايضا . ولكنها لم تقتصر على عالم الجن مثل رسالة التوابع والزوابع ، بل شملت الحياة الاخرة بما فيها من جنة ونار وثواب وعقاب ، ولهذا تأثرت هي الاخرى بما جاء في الاسراء والمعراج من تفصيلات دينية ، الى جانب ما اضفاه عليها ابو العلاء من خيال وثقافة ادبية ولغوية واسعة .

وكما وجه ابن شهيد رسالته « التوابع والزوابع » الى صديقه ابن حزم ، وجه ابو العلاء رسالته (الغفران) الى صديقه الشيخ علي بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح حينما دعاه هذا الاخير الى تأليفها .

غير ان رسالة الغفران امتازت على رسالة التوابع والزوابع باتساع نطاق موضوعها وعمق افكارها وكثرة اعداد شخصياتها ، وفيض بحورها ومعرفتها اللغوية والادبية ، وللسيدة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء) فضل تحقيق وشرح رسالة الغفران مما ساعد على فهم لغة المعري والاستفادة مما تضمنته رسالته من تراث وعلم غزير[٣٦] .

والبطل المسافر في رسالة الغفران هو شخصية الشيخ ابن القارح وليست شخصية المؤلف نفسه كما فعل ابن شهيد في رسالته . ولعل ذلك راجع الى عاهة الضرارة التي ابتلى بها ابو العلاء فحرمته من نعمة المشاهدة .

ويركب ابن القارح في هذه الرحلة نجيا من نجب الجنة ، خلق من ياقوت ودر ، فينتقل به في نزهة بالفردوس على غير منهج ، ومعه شيء من طعام الخلود[٣٧] وهناك في الجنة يصف انهارها واشجارها وطعامها وشرابها وجمال حورها من الصالحات الناجيات ، ثم يقيم مأدبة أنيقة يدعو اليها كل من في الجنة من شعراء وادباء وعلماء . وكانت الارحاء التي تطحن بر المأدبة من در وعسجد وجواهر ، وتديرها جوار من الحور العين ، وكانت اصناف اللحوم يأتي بها الولدان المخلدون ، ثم يجيء السقاة بأصناف الاشربة والمسمعات بالاصوات المطربة ، والحور يرقصن على ابيات منسوبة للخليل[٣٨] .

كذلك يعقد ابن القارح في الجنة مجالس للادب والمذاكرة ويحضرها الشعراء والأدباء وعلماء اللغة فيدور بينهم

(٣٦) ابو العلاء المعري . رسالة الغفران تحقيق وشرح عائشة عبد الرحمن (دار المعارف ، مصر ١٩٦٣) .

(٣٧) راجع نص رسالة الغفران ص ١٧٥ - ٢١٦ .

(٣٨) نفس المصدر ص ٢٢٧ - ٢٢٩ ويقصد [illegible] الخليل بن احمد الفراهيدي المتوفى سنة ١٧٥هـ .

الحوار الذي قد يصل الى الشجار على غرار ما يقع في الدار العاجلة ، ولكن من غير شعور بالعداوة والبغضاء التي انتزعته الجنة من قلوبهم .

ثم يشير المعري الى رحمة الله الواسعة التي شملت الشعراء والمتحررين بالغفران ، وهو الاسم الذي اختاره عنوانا لرسالته ، فالاعشى صار عشاه حورا معروفا ، وانحناء ظهره قواما موصوفا » ، وقد غفر له بسبب مدحه للرسول (صلعم) وادخل الجنة على ان لا يشرب فيها خمرا[٥٩] . » وزهير بن ابي سلمى يعود شابا كالزهرة الجنية وكأنه ما لبس جلباب هرم ولا تأفف من البرم وكأنه لم يقل : سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا ابالك يسأم .
وقد غفر الله له وادخل الجنة لانه كان مؤمنا بالله قبل الاسلام ولأنه اوصى ابناءه قبل موته بطاعة القائم الذي يدعوهم الى عبادة الله[٦٠] .

ثم ينتقل ابن القارح الى الجحيم ، ويلقى فيها ابليس وهو يضطرب في الاغلال ومقامع الحديد ، ومع ذلك لا يتورع ان يسأل ابن القارح بخبث عما يفعله اهل الجنة بالولدان المخلدين ، كذلك يلقى شعراء النار امثال بشار بن برد الضرير الذي اعطي عينين لينظر بهما الى ما انزل به من العذاب . ومثل صخر اخو الخنساء الذي تضطرم النار في رأسه كأنه علم في رأسه نار ، ومثل عنترة العبسي الذي يتلدد في السعير[٦١] .

ويلاحظ ان شخصيات المعري وان فاقت في عددها شخصيات ابن شهيد ، الا انها تتفق معها في انها شخصيات واقعية معروفة ، ومعظمها من الشعراء والعلماء والادباء ، لأن المقصود في كلتا الرحلتين هو اجراء نوع من النقد الادبي .

هذا ولم يفت المعري ان يشير في رسالته الى مدائن الجن في اطراف الجنة ، ويطلق عليها اسم جنة العفاريت المؤمنين ، ويصفها بانها كانت اقل نورا من مدائن الانس في الجنة وتكتنفها الاشجار الكثيفة والسراديب ، واهلها يدركهم الشيب على عكس اهل الجنة الانسي فهم شباب دائم . وعندما سأل ابن القارح احد شيوخ الجن ويدعى « أبو هدرش » عن سبب ذلك ، قال « ان الانس اكرموا بذلك وحرمناه ، لأنا اعطينا الحولة في الدار الماضية فكان احدنا ان شاء صار حية رقشاء ، وان شاء صار عصفورا ، وان شاء صار حمامة فمنعنا التصور في الدار الاخرة ، وتركنا على خلقنا لا نتغير وعوض بنو ادم ، كونهم فيما حسن من الصور ، وكان قائل الانس يقول في الدار الناهبة اعطينا الحيلة واعطي الجن الحولة »[٦٢] .

اما الحيوان عند المعري فهو عاقل كما هو الحال عند ابن شهيد ، فاسد القاهرة يتكلم مع ابن القارح مبيا له سبب

(٥٩) رسالة الغفران ص ١٣٩ - ١٤٠ .
(٦٠) رسالة الغفران ص ١٨٢ ، ١٨٣ .
(٦١) رسالة الغفران ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ .
(٦٢) رسالة الغفران ص ٣٩٣ .

دخوله الجنة وهو انه افترس عتبة ابن ابي لهب الذي دعا عليه النبي (صلعم) « اللهم سلط عليه كلبا من كلابك » فكان هو السبع الذي افترسه عند القاصرة بطريق الشام(٦٣) .

كذلك يشير المعري الى اوز الجنة ، ويجعلها تتكلم مع ابن القارح شأن طير الجنة فينتفضن فيصرن جواري كواعب يرفلن في وشي الجنة ، ويايديهن المزاهر وما يلتمس به الملاهي ثم يأخذن في الغناء والضرب على الدفوف(٦٤) ويلاحظ ان اوزة المعري هنا تختلف عن اوزة ابن شهيد التي جعلها بيضاء شهلاء ، اديبة نحوية ، في مثل جثمان النعامة ، تتقلب في الله برشاقة ولكنها بلهاء وحمقاء كما هو معروف عن بنات جنسها(٦٥) .

معارج الصوفية :

واذا كان الادباء والشعراء ـ كما رأينا ـ قد استوحوا من حادثة المعراج صورا نثرية وشعرية رائعة ، صيغت في حوار مع سلطان السماء فان رجال التصوف الاسلامي ايضا قد استلهموا من روح المعراج معارج خاصة بهم تقوم على منهج التصوير العاطفي والتحدث بلسان الباطن ، ـ واستعمال لغة الرموز والاشارات للتعبير عن فلسفتهم الصوفية ، التي اتسمت نتيجة لذلك بالالتواء والغموض والتعقيد .

ولعل خير مثال نستشهد به في هذا المقام ، هو الشيخ الاكبر ابو بكر محمد بن علي الملقب بمحيى الدين بن عربي الحاتمي الطائي المرسي الاندلسي(٦٦) المتوفى بدمشق سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م .

ولد ابن عربي بمدينة مرسيه murcia شرقي الاندلس في بيت حسب وتقى ، ثم انتقل به اهله وهو صبي الى اشبيليه Sevilla في غرب الاندلس ، عندما استولى الموحدون على مرسيه . وفي اشبيلية درس علوم الدين والفقه والادب ثم تزوج بمريم بنت محمد بن عبدون البلجي التي ضربت له المثل الاعلى في الورع ، كما كان لمواعظها تأثير كبير في تغيير مجرى حياته ، ثم توفى علي بن عربي الذي كان قد اخبر ـ أي أبوه ـ يوم وفاته قبل حلول اجله بخمسة عشر يوما ، كل هذه العوامل دفعت ابن عربي الى طريق الزهد والتصوف ، فانصرف الى دراسة كتب التصوف ولجأ الى الاعتكاف والانفراد بنفسه اياما طويلة بين القبور يناجي ارواح الاموات . كذلك مارس ابن عربي حياة التصوف مع شيوخ كثيرين واخذ عنهم الكثير من رياضيات الصوفية ونخص بالذكر عجوزا تسمى نونه فاطمة بنت ام المثنى القرطبية التي لازمها ستين خادما ومريدا ، وشاهد بنفسه ما كان يجري على يديها من ظواهر التنبؤ الغريبة . وعندما

---

(٦٣) [illegible]

(٦٤) رسالة الغفران ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٦٥) رسالة التوابع والزوابع ص ١٤٩ [illegible]

(٦٦) [illegible]

احس انه استكمل عدته ، خرج يجول في الارض في سياحات صوفية ، فقضى بقية حياته في رحلة متصلة : طاف اولا ببلاد الاندلس والمغرب ثم رحل الى مكة وجاوز فيها ، ثم واصل تجواله الى العراق ثم مصر على عهد السلطان العادل الايوبي ، وشارك في حلقات الصوفية بحي القناديل بالقاهرة ، ثم رحل الى دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى حيث طاف بانحاء الاناضول ، واوصى السلطان عز الدين كيكاوس بأن يشتد على النصارى وبشره بنصر قريب لم يلبث ان تحقق باستيلائه على انطاكية .

وفي نهاية المطاف استقر به المقام في دمشق حيث مات (٦٣٨هـ ـ ١٢٤٠م) ودفن بالتربة الصالحية على سفح جبل قاسيون(٦٧) .

ويعتبر ابن عربي ـ كما يقول استاذنا المرحوم ابو العلا عفيفي ـ من اغزر كتاب المسلمين علما ، واوسعهم افقا ، وادناهم الى العبقرية والتجديد في ميدان دخل فيه كثيرون غيره ، ولم يخرجوا منه بمثل ما خرج ، ولا بلغوا فيه الشأو الذي بلغ . لم يشغل نفسه بمشاكل الفلاسفة والرد عليهم ، وبالتأليف في اصول الفقه والمنطق والتصوف كما فعل الغزالي ، او بالطب والرياضة والتصوف كما فعل ابن سينا ، وانما كرس جهده للكتابة في التصوف في شتى نواحيه النظرية والعملية ككتاب « الفتوحات المكية » الذي الفه بين ٥٩٨ الى سنة ٦٣٥هـ فقد جمع في هذا الكتاب اشتاتا من المعارف التي تمثل الثقافة الاسلامية بأوسع معانيها وحشدها جميعا لخدمة العلم الاساسي الذي ندب نفسه للكتابة فيه ، وهو التصوف ، ولهذا يعد هذا الكتاب اعظم موسوعة في التصوف باللغة العربية (٦٨)

وعلى الرغم من انشغال ابن عربي بما يشغل به الصوفية انفسهم من ضروب المجاهدة ـ والمراقبة والمحاسبة فان عدد مؤلفاته بلغ على حد قوله في مذكرة كتبها عن نفسه سنة ٦٣٢هـ نحو مائتين وتسعة وثمانين كتابا ورسالة وهو عدد لا يكاد العقل يتصور صدوره من مؤلف واحد (٦٩)

كيمياء السعادة :

والذي يعنينا من هذه المؤلفات هو ما اودعه ابن عربي في فتوحاته المكية من رسوم تصور مواضع العالم الاخر او قبة الفلك على شكل هيئات دائرية تصور اطباق الجحيم ومساري النجوم ، ودوائر جماعات الملائكة التي تحف بمطلع النور الالهي . وكان يرى ان الوصول الى رؤية الله سبحانه وتعالى لا يتأتى بغير هدى من الله ، اذ ان العقل العادي او الفلسفي لا يصل بالانسان الى المراحل الاولى من هذا الطريق الطويل . اما الوصول الى مدارج الجنة العليا ، فلا يدرك بغير اشراق الهي(٧٠) .

(٦٧) راجع ما كتبه عنه المستشرق الاسباني آسين بلاثيوس (ترجمة عبد الرحمن بدوي مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٥) وكذلك ما كتبه عنه جونثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسي ص ٣٧١ ـ ٣٨١ ترجمة حسين مؤنس .

(٦٨ ، ٦٩) ابو العلاء عفيفي : نصوص الحكم للشيخ محي الدين بن عربي القاهرة ص ٥ ـ ٧ (دار الكتاب العربي بيروت) .

(٧٠) جونثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسي ص ٣٢٤ .

وفي هذا المعنى الذي يدور حول تفضيل منهج التصوير العاطفي الصوفي على منهج العقل الفلسفي الذي يقوم على التحليل والتركيب ، يضع ابن عربي قصته الرمزية ، « كيمياء السعادة » التي اوردها في فتوحاته[٧١] : وابطال هذه القصة المجازية ، مسافران ينتميان الى هذين النوعين من البشر : احدهما يرمز للدين وهو عالم بالشريعة ، والآخر يرمز للعقل وهو فيلسوف عقلاني . ويشقان طريقهما في وقت واحد الى الحضرة الالهية . ويتمكن المسافران في بداية الرحلة من التخلص من الروابط الارضية والعواطف الضارة ، احدهما بهداية العقل ، والثاني بنور الايمان . ثم يبدأ الراحلان الرمزيان المعراج السماوي باجتياز السماوات السبع الفلكية ، وعلى نفس المراحل التي مر بها الرسول في معراجه ، وهي على التوالي :

سماء القمر وفيها ادم

سماء عطارد وفيها عيسى ويحيى

سماء الزهرة وفيها يوسف

سماء الشمس وفيها ادريس

سماء المريخ وفيها هارون

سماء المشتري وفيها موسى

سماء زحل وفيها ابراهيم

ويصل المسافران معا وفي نفس الوقت والسرعة ، احدهما وهو الفيلسوف على مركبه الخاص الذي يرمز للعقل ، والثاني وهو المؤمن على جناح النور والنعمة الالهية وهنا يبدأ الاختلاف في المعاملة التي يلقاها كل منهما . فتابع الشريعة يحظى به الملائكة المحتشدون في السماوات ، بينما يضطر الفيلسوف الى البقاء بعيدا عن رفيقه ، وهذا الفرق في المعاملة بينهما يملأ تابع الشريعة بالفرح والغبطة ، ويفعم الفيلسوف بالحزن والألم .

وبالرغم من ان الفيلسوف لا يظل ضائعا تماما ، اذ تتولى العقول التي تسكن هذه السماوات تعليمه واطلاعه على المشاكل الفلكية ومدى تأثيرها على الارض الا ان سعادته تتضاءل عندما يرى ان تابع الشريعة يجد حلولا لجميع تلك المشاكل الفلسفية في تعاليم الانبياء بطريقة اسمى واوضح من طريقة العلم الطبيعي .

وتستمر رحلة المسافرين في السماوات الفلكية حيث يلتقيان بعدد من الانبياء الذين يلقون عليهما خطبا تعبر عن آراء ابن عربي وفلسفته الصوفية .

واخيرا ينتهي المطاف بتوقف الفيلسوف عن متابعة الرحلة ، بينما يواصل تابع الدين رحلته الى آخر السماوات الفلكية وهي « السماء ذات البروج » التي تتكشف للمؤمن فيها اسرار ظواهر الفردوس السماوي ، ثم يغمره الضوء المنبثق من العرش الالهي ببهائه ، وتحرك الموسيقى المنبعثة من السماوات شغاف قلبه حتى يستغرق في ذهول

(٧١) ابن عربي : الفتوحات المكية المجلد الثاني ص ٢٧٠ وما بعدها (طبعة دار صادر بيروت) وكذلك (صلاح فضل : تأثير الثقافة الاسلامية في الكوميديا الالهية لدانتي ص٨٨ ـ ٩٣ (دار المعارف) .

عميق . فاذا افاق ارتقى الى سدة العرش الذي يعد رمزا لجلال الله وعظمته ويحيط به خمسة ملائكة وثلاثة أنبياء هم آدم وابراهيم ومحمد ، فيتعلم منهم المؤمن خلاصة سر الكون وحقائق العالم التي المرقومة على اللوح المحفوظ ، ثم يأخذ التابع في الهبوط بحثا عن رفيقه الفيلسوف فيعودان الى العالم الارضي ويسارع الفيلسوف الى اعتناق الدين الاسلامي حتى ينعم بالتأملات الروحية والمشاهدة الصوفية التي حرم منها خلال معراجه .

الاسراء الى مقام الاسرى :

لم يقتصر ابن عربي على هذا العروج الرمزي الذي اورده في قصة كيمياء السعادة بل اعطانا كذلك رؤيا بديعة يصور فيها عروجه الروحي الى الحضرة الالهية وذلك في رسالته التي اسماها « الاسرا الى مقام الاسرى »(٧٢) . والتي نهج فيها ايضا على منوال المعراج النبوي . والرسالة تقع في ٥٤ صفحة ، وقد استخدم في كتابتها اساليب الصوفية المليئة بالرموز والاشارات والتشبيهات الصوفية الشعرية والنثرية ، الى جانب اسلوب المقامات الادبي المليء بالسجع مما جعل الرسالة تتسم بالغموض والتعقيد ، وحسبنا في هذا المجال ان نعرض ما جاء فيها بايجاز شديد .

يصف ابن عربي رحلته الالهية بانها بدأت من الاندلس الى بيت المقدس صحبة فتى روحاني الذات ، رباني الصفات ليكون رفيقه ورسوله في رحلته وهناك في بيت المقدس ، قدم له الخمر واللبن فشرب اللبن حتى لا يضل من يقفو اثره ، ثم ارتقى مع رسوله حتى اشرف على البحر المسجور(٧٣) وهو بحر محيط عبره على متن سفينة العارفين التي كان شراعها الشريعة ومرساها القوة ، وصابورها الطبيعة ، وحبالها الأسباب ، ومجاذفها اللباب .

ثم عرج به حين فارق الماء الى اول سماء وهي سماء الوزارة او سماء الاجسام ، حيث التقى بآدم عليه السلام الذي عانقه واجابه على اسئلته . ثم انتقل بعد ذلك على جواد سابح صيغ من نحاس الى السماء الثانية وهي سماء الكتابة وسماء الارواح . وهناك شاهد المسيح الذي اقبل عليه مرحبا وقد غمره النور ، واخذ يجيبه على اسئلته ، ثم امر كاتبه ان يكتب لابن عربي ظهيرا بالامان ، فصار بينه وبين مملكته ترجمان . ولعل في هذا اشارة الى الحروب الصليبية بين المسلمين والمسيحيين ، وأمل ابن عربي في ان يتحقق السلام والامان ، ثم انتقل السالك (ابن عربي) مع رسوله الى السماء الثالثة ، وهي سماء الشهادة او سماء الجمال حيث التقى بالنبي يوسف الذي اتصف بالجمال وحضر حفل عرسه على الزهراء او الزهرة وهناك يضعة ابيات ترمز الى كوكب الزهراء او الزهرة رمز الجمال(٧٤) والتي كانت تسمى باسمها السماء الفلكية الثالثة كما رأينا في رسالته السابقة كيمياء السعادة .

---

(٧٢) راجع (ابن عربي) . كتاب الاسرا الى مقام الاسرى ، طبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد ، الدكن ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م . وقد قامت دار احياء التراث العربي في بيروت بطبعه ضمن مجموعة رسائل ابن عربي الاخرى .

(٧٣) [illegible] راجع (ابن عربي) : الفتوحات المكية ، ج ٥ ص ٢٨٠ طبعة صادر بيروت [illegible]

(٧٤) يقول ابن عربي مخاطبا يوسف وزهرته الزهراء :

[illegible]

راجع رسالة الاسرا الى مقام الاسرى ص١٩ .

ثم انتقل السالك مع صاحبه الى السماء الرابعة وهي سماء الامارة والاعتلاء حيث قابل النبي ادريس ، ثم انتقل الى السماء الخامسة وهي سماء الشرطة فاعترضه بوابها وحجابها ثم سمحوا له بالدخول حيث قابل هارون ، وفي السماء السادسة او سماء القضاة قابل السالك موسى الكليم وسلم عليه ثم تحدث معه ومع قاضي قضاته في امور تتعلق بأحكام السماوات ، وفي السماء السابعة او سماء الغاية تحدث السالك مع الخليل ابراهيم ورأى سر روحانيته يلوح في البيت المعمور في غلائل من النور » .

وهنا يقول ابن عربي : « وبعد الخروج عن السبع الطباق توقف البراق والقى الرسول عصا التسيار بسدرة الانوار فقلت له : ما هذا النور والبهاء ؟ قال : « سدرة المنتهى » ثم تلا : وما منا الا له مقام معلوم « فسكتنا عن تعبيرما رأينا سكوت حصر وعجز لا يقوى معه اشارة ولا رمز .. فغشاها من نور الله ما غشى »[٧٥] .

وكما حدث في المعراج المحمدي يتحدث ابن عربي عن استوائه على متن الرفرف (المقعد) حيث الملأ الاشرف ثم طيرانه الى حضرة الكرسي القدسي الذي يعرف به كل امر حكيم . وهناك قدمت له الوصية السنية فحفظها والتزم بها ثم واصل طيرانه على جناح اللطائف ممتطيا ظهور الرفرف الى حيث سمع صرير الاقلام ، ودخل في مناجاة مع ربه ذي الجلال والاكرام »[٧٦] .

واخيرا ، لا يفوتنا في هذا المقام ان نشير الى الدور الكبير الذي ساهم به متصوفة الفرس في اثراء التراث الاسلامي والادب الفارسي بسياحاتهم الصوفية ومنظوماتهم الاشراقية ، متخذين من المعراج النبوي نبراسا يهتدون بهديه ، ومنهاجا ينهجون على منواله ، ونخص بالذكر منهم الشاعر سنائي (ت ٥٢٦هـ) في منظومته « سير العباد الى المعاد » التي تقع في ثمانمائة بيت باللغة الفارسية ، وتصور رحلة صوفية ورمزية لمسافرين يرمزان للنفس والعقل الى عالم الافلاك ثم الى عالم الملكوت الاعلى حيث الحضرة الالهية[٧٧] .

صدى المعراج في الأدب الشعبي :

وكان القصص الشعبي من بين الموضوعات الهامة التي تأثرت بالمعراج النبوي واتخذت من قصته اساسا للتأمل والتخيل والمحاكاة . ومثال ذلك اقاصيص الف ليلة وليلة التي كتبت للعامة وتضمنت خرافات واشعارا وامثالا وحكما ، وبعضها ذو مغزى اخلاقي .

ويبدو ان هذه القصص وصلت الى العرب عن طريق الفرس وعن طريق كتاب « هزارا فسانة » ومعناه بالفارسية « الف خرافة » والناس يسمون هذا الكتاب الف ليلة وليلة ، وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها ، وهما شهرازاد

(٧٥) رسالة الاسرا الى مقام الاسرى ص٣٣ .
(٧٦) رسالة الاسرا الى مقام الاسرى ص٣٣
(٧٧) راجع رسالة عبد الحكيم مير : رحلة الروح بين ابن سينا وسنائي ودانتي ص١٨ - ٣٩ (مكتبة الشباب القاهرة ١٩٧٧) وكذلك د صلاح فضل : [illegible] ص٩٨ - ١٠٣ .

وديناراد وقد وضعت هذه القصص في قالب عربي اسلامي في العصر العباسي الاول ثم زيد فيها في العصر الفاطمي والمملوكي بقصص شعبية مستوحاة من التراث الثقافي الاسلامي بحيث لم يبق من التأثير الفارسي سوى بعض الاسماء الفارسية(٧٨) .

ولعل اصداء المعراج في هذا الخيال الشعبي تتمثل فيما ابتدعه القصاص من احاديث عن المردة والشياطين والحيات والثعابين والحور العين والجواهر والزبرجد والياقوت . . الخ . وفي حكاية ابي محمد الكسلان مع الرشيد عند قوله : « فانطلق عبد مارد من عبيدهم فانحنى وقال : اركب ، فركبت ، ثم طار بي في الجو حتى غاب عن الدنيا ورأيت النجوم كالجبال الرواسي وسمعت تسبيح الملائكة في السماء ، فبينما انا كذلك اذا بشخص عليه لباس اخضر وله ذوائب شعر ووجه منير ، وفي يده حربة يطير منها الشرر قد اقبل علي(٧٩) ، وفي قوله : ثم ركب الحكيم الفرس وركب الجارية خلفه ثم حرك لولب الصعود ، فامتلأ جوف الفرس بالهواء وتحركت وماجت ثم ارتفعت صاعدة الى الجو ولم تزل سائرة حتى غابت عن الدنيا »(٨٠) .

وهناك حكاية الحسن البصري مع الجن الطيار(٨١) وحكاية سيف الملوك وبديعة الجمال التي طارت بين السماء والارض(٨٢) وحكاية السندباد مع اهل المدينة الطائرين وتعلقه بواحد منهم طار به في الجو حتى سمع تسبيح الملائكة في قبة الافلاك(٨٣) ثم هناك المواقف والمقامات الخفية المجهولة وكافات الاغراء المعسولة التي توجه الى البطل او الشاطر من نساء جميلات لامتحانه واختبار قوة ارادته وعقله تذكيرا بالمغريات التي واجهت النبي (صلعم) في ليلة المعراج .

على ان خير نموذج شعبي تأثر بالتراث الديني للمعراج فهي قصة بلوقيا ملك بني اسرائيل التي بدأت شهرزاد تقصها على شهريار في الليلة الثانية والثمانين بعد المائة الرابعة واستمرت تحكيها له بعد ذلك عدة ليال متتابعة والقصة تقوم على فكرة النبوءة ـ اليهودية التي تبشر بظهور النبي محمد (صلعم) وان الملك بلوقيا عرفها من كتاب سري عثر عليه في احدى خزائن ابيه الراحل اذ قرأ فيه صفة محمد ، وانه يبعث في اخر الازمان وهو سيد الاولين والاخرين ، فتعلق قلب بلوقيا بحب محمد (صلعم) وترك الملك لامه وخرج هائما سائحا للبحث عنه وتقع القصة في ٢٥ صفحة(٨٤) وتتعدد فيها الصور والرموز والتشبيهات التي تجسم مختلف القوى في مخلوقات حية وغير حية كالاشجار والاعشاب والملائكة والجان والحيوانات الكاسرة والحيات الضخمة التي هي في حجم النخل والجمال والقبة كلها

(٧٨) سهير القلماوي ـ الف ليلة وليلة ص ١٩ (دار المعارف ١٩٥٩) .
(٧٩) قصص الف ليلة وليلة / الف القصص في بولاق / احمد رشدي صالح جـ ١ ص ٣٧٤ .
(٨٠) نفس المصدر جـ ١ ص ٦٢٣
(٨١) نفس المصدر جـ ٢ ص ١٣٣
(٨٢) نفس المصدر جـ ٢ ص ١١٧٧
(٨٣) نفس المصدر جـ ٢ ص ٨٩١
(٨٤) الف ليلة وليلة (كتاب الشعب احمد رشدي صالح) جـ ١ ص ٧٩٧ ـ ٨٢٥ .

عاقلة ناطقة تتكلم وتصلي على محمد وتصيح بالتهليل والتسبيح باسمه مما يقوى من غرام بلوقيا في حبه لمحمد ويزيد من اشتياقه اليه فيواصل سياحته للبحث عنه .

ويبدأ الرحلة من مصر الى بيت المقدس حيث يقدم بلوقيا اللبن والخمر الى صديقته ملكة الحيات ثم يتعرف على صديقه عفان الذي يتقن العلوم الروحانية وعلوم الفلك والهندسة والكيمياء فيصحبه في رحلة الى الجبال حيث يدله على نوع من العشب اذا عصره ودهن بمائه قدميه امكنه ان يمشي على اي بحر خلقه الله ، وبهذه الوسيلة يستطيع بلوقيا ان يعبر البحار السبعة التي هي رمز لبحور العالم الاخر او السماوات السبع . وفي خلال رحلته يرى وحوش البحر والبر تجتمع على جزيرة وتتحادث اثناء الليل ثم تفترق عند طلوع الشمس .

ثم يقابل ملوك الجان المؤمنين امثال صخر وبراخيا ، ويصف طبقات النار السبع الاولى جهنم وهي اهون عذابا وتليها لظى والجحيم والسعير وسقر والحطمة ثم الهاوية(٨٥) ثم يقابل الملائكة العظام وهم : جبريل واسرافيل وميكائيل وعزرائيل ويستمر بلوقيا في السير حتى يرى صورة سدرة المنتهى ومجمع البحرين وهو بحر عظيم نصفه مالح ونصفه حلو ، وحول ذلك البحر جبلان من الياقوت الاحمر رأى فيهما ملائكة مشغولين بالتسبيح والتقديس ، فلما رآهم سلم عليهم فردوا السلام فسألهم عن هذا البحر ، فقالت الملائكة : ان هذا المكان تحت العرش وان هذا البحر يمد كل بحر في الدنيا ونحن نقسم هذا الماء ونسوقه الى الاراضي ، المالح للاراضي المالحة والحلو للارض الحلوة وهذان الجبلان خلقهما الله ليحفظا هذا الماء وهذا امرنا الى يوم القيامة » .

وفي نهاية المطاف يؤمن بلوقيا ان زمان بعث محمد بعيد كما اخبره بذلك من قبل كل من الملك جبريل وملكة الحيات وصديقه عفان فيندم على ذلك ويجهش بالبكاء ، والقصة تبدو من شكلها الخارجي ومن تاريخ احداثها واسماء ابطالها انها من الاسرائيليات ولكن اذا نظرنا الى مضمونها وجدناه اسلاميا يحاكي كثيرا قصة المعراج النبوي بشيء من الخيال . فالبطل المجهول الذي وضع سيرة بلوقيا في القصص الشعبي الاسلامي واحد من المسلمين العاشقين او المداحين لمحمد (صلعم) اتخذ من النبوة اليهودية اطارا ورمزا ليصيغ في داخله ملحمته الشعبية التي استوحاها من التراث الديني للمعراج . فاذا كان معراج الرسول رحلة الى الله وفي العشق الالهي ، فان معراج بلوقيا رحلة الى محمد وفي العشق المحمدي .

المعراج الاسلامي والكوميديا الالهية لدانتي :

لقد ثبت تاريخيا ان القرآن الكريم ترجم ملخص له الى اللغة اللاتينية في النصف الاول من القرن الثاني عشر الميلادى (٨٦) كما ثبت تاريخيا منذ ١٩٤٩ ان احدى صور المعراج النبوي قد ترجمت من العربية الى الاسبانية

(٨٥) يستخدم ابن عربي اسم سجين بدلا من الهاوية (الفتوحات المكية جـ٣ ص ٤٣١ طبعة مصر .

(٨٦) حسن عثمان : كوميديا الهي الجحيم سنة (الجحيم) ص ٤٩ (دار المعارف) .

القشتالية بامر من الملك الاسباني الفونسو العاشر الملقب بالعالم EL Sabio سنة ١٢٦٤م وقام بهذه الترجمة طبيب يهودي يعمل في بلاطه باشبيلية يدعى ابراهيم الفقيه او الحكيم .

وفي نفس تلك السنة (١٢٦٤م) طلب الملك الفونسو العالم الى بونا فنتورا دا سينا الايطالي ترجمتها من القشتالية الى اللاتينية والفرنسية لاذاعتها فيما وراء الحدود الاسبانية[٨٧] لهذا كانت الفرصة سانحة امام الشاعر الفلورنسي الايطالي دانتي اليجيري (١٢٦٥ - ١٣٢١م) Dante Alighieri لكي يصل الى الترجمة اللاتينية والفرنسية للمعراج الاسلامي . وهناك احتمال في ان يكون استاذه برونيتو لاتيني Brunetto Latini او غيره ممن كانوا يترددون بين فلورنسا وبلاط ملك قشتالة فقد ساعد دانتي على ذلك بأن حمل له مسودة من الترجمة .

هذا ويبدو من الصعب ان يكون دانتي ملماً باللغة العربية لكي يقرأ كتب ابن شهيد وابي العلاء المعري وابن عربي ذات الاسلوب المعقد والغامض في كثير من الاحيان ، ولكن من السهل جداً ان يكون دانتي قد استفاد من ترجمات القرآن الكريم وقصة المعراج النبوي وآراء ابن سينا وابن رشد وغيرهما من التراث الاسلامي الذي تسرب الى اوروبا وكان متداولاً باللغة اللاتينية على ايامه ، ولعل اوجه الشبه التي تجمع بين دانتي وبين المعري وابن شهيد وابن عربي ترجع الى انهم جميعاً استقوا من معين واحد رئيسي وهو قصة المعراج الاسلامي[٨٨] . والكوميديا الالهية ملحمة شعرية مجموع ابياتها ١٤٢٣٣ بيتاً وتنقسم الى ثلاثة اناشيد متساوية الطول : الجحيم والمطهر والفردوس وهي تصور رحلة خيالية قام بها الشاعر دانتي الى العالم الاخر .

وتبدأ الرحلة في ليلة الجمعة ٨ ابريل سنة ١٣٠٠م وتستمر اسبوعاً يومين في الجحيم واربعة ايام في المطهر ونهاراً واحداً في الفردوس وبقية الوقت في العبور ، وكان دليل دانتي في رحلته عبر الجحيم والمطهر الشاعر الروماني القديم وصاحب ملحمة الاينادة ، فرجيليوس (٧١ - ١٩ ق . م) الذي كان على غرار جبريل ، ليس مجرد دليل بل كان مرشداً واستاذاً يشرح له الطريق .

ولم يستطع فرجيليوس مواصلة الطريق في الفردوس لأنه مات وثنياً ، فحلت محله بياتريش محبوبة دانتي ، لتكون مرشدته في الفردوس ، ثم يحل محلها سان برناردو في الملكوت الاعلى او الوردة الدائية على غرار ميكائيل واسرافيل ورضوان في المعراج الاسلامي . وفي خلال هذه المرحلة نجد تشابهاً بين الجحيم الاسلامية وجحيم دانتي في وصف لهب النار ومشاهد المعذبين وآلات التعذيب والوحوش والافاعي الرهيبة ، ثم هناك الاعراف التي ورد ذكرها في القرآن الكريم وعرفها المفسرون المسلمون بانها تل بين الجنة والنار ، فأخذ دانتي منها فكرة اللمبو Li,bo يعني

---

(٨٧) وجد النص اللاتيني في مكتبة [illegible] النص الفرنسي في [illegible] . [illegible] الاستاذ [illegible] بالمستشرق الايطالي [illegible] Escala de Mahoma [illegible] ١٩٤٩ راجع :

Sendones Jose muroy - La Escala de Mahoma . Traduccion del arabe al castellano Latin y Frances Ordenada por Alfonso el Sabio Madrid 1949 & Cerulli Enrico: le Libro della Scala e la questione delle fonti arabo — Spagnola della Divina Commedia . Vaticano 1949.

(٨٨) [illegible] المستشرق الايطالي [illegible] سنة ١٩٤٩ [illegible]

الحاقة او الشفا ، وخصصها لارواح الاطفال الذين توفاهم الله قبل ان يعمدوا وارواح الوثنيين الفاضلين . وفي هذا الكتاب وضع دانتي ارواح ثلاثة من المسلمين وهم ابن سينا وابن رشد وصلاح الدين تقديرا لفضلهم .

ولقد ترجم استاذنا المرحوم حسن عثمان هذه الكوميديا الخالدة الى العربية في ثلاثة اجزاء (الجحيم ، المطهر ، والفردوس) مع مقدمة دراسية تحليلية في كل جزء منها ، وقضى في ذلك العمل العلمي الرائع معظم سنوات عمره ، الا انه اسقط من الترجمة جزءا من الجحيم وهو الجزء الخاص بوصف الرسول وعلي بن ابي طالب تحرجا من ايراده لأن يسيء الى مكانة الرسول وابن عمه .

وقد علقت رشا حمود الصباح على هذا الجزء الناقص : انطلاقا من المثل القائل بأن « ناقل الكفر ليس بكافر » مع عقد دراسة قيمة تشرح فيها التصورات الاوروبية للاسلام في العصور الوسطى ، التي فرضت نفسها على الشاعر الايطالي وجعله يتجه هذا الاتجاه في ملحمته [٨٩] ولا شك ان شاعرا كبيرا في مثل ثقافة دانتي لابد وان يكون قد استفاد من مختلف انواع المعارف والعلوم السائدة في عصره عند تصميم بناء روعته الخالدة . وهكذا جمعت كوميديا دانتي بين عناصر التراث المسيحي اللاهوتي وبين عناصر التراث الاسلامي بالصورة التي جاءت عليها قصة المعراج .

ولا يتسع المجال الآن لتتبع اصول هذه المؤثرات الاسلامية في الكوميديا الالهية ، واوجه الشبه بينها ، فهناك اعمال علمية لها شهرتها وقيمتها قد تناولت هذا الموضوع بالدراسة والتحليل ، نذكر منها ما كتبه المستشرق الاسباني ميجل آسين بلا ثيوس في كتابه الذي وضعه بالاسبانية سنة ١٩١٩م بعنوان « العلم الاسلامي لما بعد الحياة في الكوميديا الالهية »[٩٠] ويقوم على بيان اوجه الشبه بين ما كتبه دانتي وما كتبه المعري وابن عربي وبعض المفسرين المسلمين حول العالم الآخر .

وكان ذلك قبل اكتشاف الترجمة الاوروبية لقصة المعراج الاسلامي ، ثم هناك ما كتبه حديثا سنة ١٩٤٩م كل من ستشينو وتشيرولي حول هذا الموضوع بعد اكتشاف الترجمة الاوروبية المذكورة والتي تعتبر الاساس المباشر الذي تأثر به[٩١] دانتي ، كذلك ينبغي ان نشير الى الدراسة العلمية القيمة والمستفيضة التي ظهرت في كتاب حول هذا الموضوع بعنوان « تأثير الثقافة الاسلامية في الكوميديا الالهية لدانتي » للزميل صلاح فضل . على ان المهم هنا ، هو ان كل هذه الدراسات وغيرها التي تناولت هذا الموضوع ، اتفقت على ان كل هذه المؤثرات الاسلامية والمسيحية التي تأثر بها دانتي ، لا تقلل مطلقا من قيمة عمله الرائع ولا تنقص من اصالته ، لأن العبرة هنا ليست بالحكم على نوع المادة التي صنع منها عمله وانما بالحكم على موضوعية العمل نفسه .

(٨٩) رشا حمود الصباح : التصورات الاوروبية للاسلام في العصر الوسيط وأثرها في الكوميديا الالهية ـ عالم الفكر / المجلد العاشر / العدد الثالث ١٩٨٠ .

(٩٠) [illegible] الى العربية حسين مؤنس ص ٤٤١ [illegible] الكتاب الذي [illegible] بالاسبانية [illegible] (مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٥) .

(٩١) سبقت الاشارة الى كتابي ستشينو وتشيرولي في هذا البحث .

بعض جهود المسلمين العلمية والعملية في دراسة السماء :

اهتم العرب من قديم بعلامات السماء او الاجرام السماوية التي كانوا يهتدون بها في صحاريهم وبحارهم التي ليس فيها مسالك مألوفة ، ولعل هذا كان من اسباب حيادتهم للنجوم والكواكب ، وقراءة السماء لم تكن ممكنة لاي شخص عادي بل كان لابد لها من علم ، وفي ذلك يقول الله تعالى : وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » . ولعل الآية الأخيرة تشير الى ذلك المعنى[٩٢] . ولما جاء الاسلام ، زاد اهتمام المسلمين بعلم الفلك لانه يعينهم على معرفة اوقات الصلاة والصوم ، كما يعينهم في رحلاتهم البرية والبحرية ، ولهذا عكفوا في بداية الامر على نقل وترجمة الكتب الفلكية المشهورة في علوم الاولين الى اللغة العربية ، ومثال ذلك الكتاب الهندي القديم « سوريا سد هانتا » اي « المعرفة من سوريا » الة الشمس » الذي ترجمه ابراهيم الفزاري عن اللغة السنسكريتية بتوجيه من الخليفة العباسي ابي جعفر المنصور في القرن الثاني الهجري . وقد عرف هذا الكتاب بالعربية باسم « السند والهند » وهو تحريف للعنوان الاصلي ، وعلى منواله جاءت كتب السند هند التي الفت بعد ذلك ، وفي عهد الخليفة المنصور العباسي ايضا ترجمت بعض اعمال العالم السكندري القديم بطليموس القلوذي (ت ١٧٠م) Claudius Ptoomy ومن اهم كتبه كتابه المعروف باسم المجسطي واسمه باليونانية Megale Suntayis, Madthematik اي كتاب الحساب الأعظم ويبدو ان العرب حولوا لفظة مجال الى مجسطي ويعتبر هذا الكتاب دائرة معارف في علوم الفلك وموضوعاته تدور حول كروية الارض وحركات الشمس والقمر والنجوم ... الخ .

وقد استفاد منه علماء المسلمين وشرحوه واضافوا اليه[٩٣] ولم يقتصر علماء المسلمين على ذلك بل استخرجوا من هذه الكتب جداول حسابية او فلكية تبين مواقع النجوم وحركاتها . وقد عرفت هذه الجداول باسم الزيجات او الازياج ومفردها الزيج . كذلك استخدم المسلمون الات لقياس ارتفاع الشمس والنجوم والكواكب فوق الافق سواء على البر او في البحر ، ومن اهمها آلة الاسطرلاب ، وهي آلة يونانية الاصل عمل العرب على تطويرها واليهم يعزى ابتكار الاسطرلاب الكامل الذي نقله الاوروبيون في العصور الوسطى واستخدموه في قياس ارتفاع الاجرام السماوية[٩٤] ، وقد برز علماء مشهورون في هذا المجال الفلكي والرياضي نذكر منهم محمد بن موسى الخوارزمي (ت٢٣٢هـ) Algoritmi الذي اشتهر بالزيج او الجدول الفلكي الذي وضعه واطلق عليه اسم « السند هند الصغير » وقد جمع فيه بين مذهب الهند ومذهب الفرس ومذهب بطليموس (اليونان) فاستحسن اهل زمانه ذلك وانتفعوا به مدة طويلة في الشرق والغرب . كذلك ينسب اليه عمل الربع المجيب على قرص الاسطرلاب ومن هذا

(٩٢) راجع : جورج فضلو حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى ترجمة يعقوب بكر ومراجعة يحيى الخشاب (ص٢٧٦ (مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٨) .

(٩٣) عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ص١٣٨ (ط بيروت ١٩٧٠ دار العلم للملايين .

(٩٤) أنور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب ص١١٩ (الكويت ١٩٧٩ عالم المعرفة) .

الربع المجيب ابتكر الخوارزمي القياس المعروف باسم « عصا الخوارزمي »، هذا الى جانب كتابه « حساب الجبر والمقابلة » الذي ادى الى وضع لفظ الجبر واعطائه مدلوله الحالي في جميع اللغات Algebre .

كذلك نذكر ابا العباس احمد الفرغاني (ت ٢٤٩هـ) وهو Alfraganus عند الغربيين ، وقد ترجمت كتبه في علم الفلك الى اللاتينية والعبرية واشتهر بدقة حساباته حتى انه يقال ان الولايات المتحدة قد اطلقت اسمه على قطاع من القمر تقديرا لفضله .

هذا ولا يفوتنا ان نشير الى العالم الفلكي الاندلسي ابراهيم بن يحيى الزرقالي (٤٥٢ ـ ٤٧٢هـ) الذي وضع مع ابن صاعد جداول طليطلة المعروفة بالزيج الطليطلي ، كما اخترع اسطرلابا جديدا عرف باسم « صفيحة الزرقالي » التي عرفها الغرب باسم Asafea وكتب حولها « رسالة العمل بالصفيحة » يشرح فيها طريقة العمل بها ، كما ابتكر في الفلك نظريات جديدة عن الكواكب السيارة والحركات الدائرية للنجوم ، وقد ترجمت اعماله الى اللغة اللاتينية في عهد الملك الاسباني الفونسو العالم السالف الذكر (٩٥) .

اما من الناحية التجريبية التطبيقية ، فنشير هنا الى العالم الاندلسي الكبير « عباس بن فرناس » الذي عاش في القرن الثالث الهجري او التاسع الميلادي في كنف الامير عبد الرحمن الثاني الاموي . واشتهر هذا العالم باتقانه لعلوم الفلك والطبيعة والرياضة والكيمياء . ويروى انه صنع في بيته قبة على شكل السماء بما فيها من نجوم وافلاك وانه استطاع ان يحدد فيها ظواهر الرعد والبرق والطير بطرق آلية .

فهي دراسة تجريبية تطبيقية لعمليات الظواهر الطبيعية . ويروى عنه كذلك انه حاول الطيران ، فكسا نفسه بقوادم النسر (اي ريش النسر) وصنع لنفسه جناحين على هيئة اجنحة الطيور وربطها في جسمه بشرائط دقيقة من الحرير المتين . ثم قام بمحاولته من ناحية الرصافة بقرطبة ، فحلق في الهواء مدة واستطاع ان يطير الى مسافات بسيطة ولكنه اخفق في تقدير وزن الجسم فسقط على الارض واصيب ببعض الكدمات . ويقال ان اخفاقه يرجع الى عدم اتخاذه ذنبا (ذيلا) يعينه على الهبوط .

وكيفما كان الامر فان هذه المحاولة هي اول محاولة للطيران في التاريخ وقد حرصت كلية الطيران المصرية في القاهرة على تكريم هذا العالم عباس بن فرناس فاقامت له نصبا تذكاريا تقديرا لفضله وعلمه .

***

(٩٥) جونثالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ص ٤٥٠ .

أضواء على حركة الردة في صدر الإسلام

سعيد عبد الفتاح عاشور

عندما نفكر في إعادة كتابة التاريخ ، علينا أن نضع أمامنا هدفين أساسيين ، أولها تنقية التاريخ مما علق به من شوائب وخرافات وأيهام ومبالغات - وربما افتراءات - ألصقها به الرواة ، وصارت مع الأيام جزءا من الرواية التاريخية . والهدف الثاني هو محاولة تفسير الاحداث التاريخية تفسيرا صحيحا يتفق مع الواقع والحقيقة ، بعيدا عن الاهواء الشخصية والنعرات الاقليمية او المحلية ، والتشدد الديني ، والتعصب المذهبي ، والتحيز الفكري .

ذلك أن المشكلة الكبرى التي تواجهنا في دراستنا لمصادر التاريخ عموما ، هي اعتماد اللاحقين على ما دونه السابقون ، ونقلهم عنهم في كثير من الأحيان نقلا أعمى دون وعي أو تمحيص أو تفنيد . ولهذا هو السر في تشابه الروايات - وربما تطابقها - في مختلف كتب التاريخ عن حادث بعينه . وفي كثير من الحالات يكون سبب هذا التشابه أن أصل الرواية واحد ، ذكرها على نحو معين مؤرخ سابق ، ثم نقلها عنه - وعن بعضهم البعض - من جاء بعده من المؤرخين ، حتى ليخيل لمن يرجع الى عشرات المصادر ان الرواية حقيقية ، وأن هناك اجماعا على صحتها . وهنا يكمن الخطر ، لأن الاصل الذي نقل عنه اللاحقون قد يكون مبالغا فيه ، او متحيزا لجانب معين ، او غير صحيح .

●●●

ومن المواضع الحساسة في التاريخ الاسلامي التي تتطلب وقفة خاصة طويلة من الباحثين للحكم عليها

حكما أمينا صادقا . تلك الحركة المعروفة باسم حركة الردة في صدر الاسلام . ذلك أننا نعتقد أن هذه الحركة أسيء فهمها وتصويرها في التاريخ . فضلا عن أنها لم تعلل او تفسر التفسير الواقعي السليم .

فعندما تتبع مسيرة الاحداث في السنوات الاخيرة من حياة الرسول - عليه الصلاة والسلام - نجد اجماعا من الرواة وكتاب السيرة والتاريخ على أن الرسول صلى الله عليه وسلم فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة . وبعد ذلك مباشرة - اي في السنة التاسعة للهجرة - أقبلت عليه الوفود تمثل قبائل شبه الجزيرة العربية تعلن اسلامها . ولم يلبث - عليه الصلاة والسلام - أن حج حجة الوداع في السنة العاشرة ، ثم مرض وتوفي في أوائل السنة الحادية عشرة .

وثمة حقيقة اخرى أجمعت عليها المصادر والروايات المعاصرة ، هي أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما كاد يعود من حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة حتى بلغه خروج الأسود العنسي باليمن (وهي اول ردة في الاسلام) وتبع ذلك خروج كثير من القبائل في شتى أنحاء شبه الجزيرة العربية ، وخاصة بعد أن شاع خبر مرض الرسول صلى الله عليه وسلم ثم وفاته ، وعندئذ (كفرت الارض وتضرمت ، وارتدت من كل قبيلة عامة أو خاصة ، الا قريشا وثقيفا) على قول الطبري .

وهنا لابد لنا من وقفة لتقييم الحقائق السابقة :

من الخطأ والمبالغة اعتبار مجيء الوفود الى الرسول صلى الله عليه وسلم في السنة التاسعة للهجرة لتعلن اسلامها دليلا على ايمان القبائل بالاسلام كعقيدة ، والقول بأن ذلك يعبر عن انتشار الاسلام في شتى انحاء شبه الجزيرة العربية وتغلغل تعاليمه ومبادئه في قلوب الناس . ذلك أنه يتعذر علينا فهم الحقيقة الخاصة بأن آلاف الافراد ، من شتى القبائل المتناثرة في مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية ، اقتنعوا بالدين الجديد في مدى سنوات قليلة ، مع عدم وجود وسائل دعاية أو اعلام أو معرفة . لو كانت هناك صحافة او اذاعة او طباعة ، لقلنا أن الاعلام آتى ثماره ، وأن آلاف النسخ التي طبعت من القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول جذبت الناس الى الصراط المستقيم . ولكنا نعلم من واقع السيرة النبوية والمصادر الاولى ان حفاظ القرآن عند وفاة الرسول (ﷺ) كانوا قليلين ، وقد خشي على القرآن من الضياع عند تناقص عددهم في عهد أبي بكر رضي الله عنه ؛ نتيجة الموت او الاستشهاد . فأشار عليه بعض المخلصين من الصحابة بالاسراع في جمع القرآن .

يروي الطبري أن سبعين صحابيا من حفظة القرآن استشهدوا في معركة اليمامة ضد مسيلمة الكذاب ، الامر الذي افزع عمر بن الخطاب ، وجعله يخشى ان يتبدد القرآن . فذهب الى أبي بكر وقال له : « ان القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، واني أخشى ان يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن . واني أرى ان يجمع القرآن » . فقال له ابو بكر (كيف تفعل ما لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟) ويروي أبو بكر - رضي الله عنه - ما تم بعد ذلك . فيقول (فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في

ذلك الذي رأى عمر) . وكان أن كلف أبو بكر الصديق عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت – رضي الله عنهما – وعن الصحابة أجمعين بأن يقفا على باب المسجد وطلبا من كل من يحفظ القرآن أن يذكر لهما ما يحفظ . فوقف عمر وصاحبه على باب المسجد ، ونادى : (من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من القرآن فليأت به) .

وتعنينا من هذه القصة نتيجة واحدة : اذا كان هذا هو شأن القرآن الكريم عند وفاة الرسول (ﷺ) واذا كان هذا هو عدد حفاظ القرآن الكريم في تلك المرحلة ، فماذا كان نصيب القبائل العربية الضاربة في شتى أنحاء بوادي شبه الجزيرة ، وكتاب الله ؟ وهل ينتظر ان يكون بعضها قد ألم به الماما كافيا واستوعب أحكامه ، لينشرح في ضوئه صدره لدين الله ؟؟

حقيقة ان الرسول (ﷺ) أرسل بعض الصحابة الى القبائل – مثل علي بن أبي طالب – الى اليمن وعمرو بن العاص الى عمان – ولكن هذا حدث في وقت متأخر – في السنة العاشرة للهجرة ، قبيل انتفاضة القبائل فيما عرف باسم حركة الردة . ولم يكن باستطاعة هؤلاء مع قلة عددهم من ناحية ، وسعة انتشار القبائل العربية من ناحية ثانية ، وضيق الوقت وتلاحق الاحداث بسرعة من ناحية ثالثة ، أن يشقوا طريقا للاسلام الى قلوب قطاع عريض من عرب شبه الجزيرة .

وهكذا فان أقصى ما نسمعه عن انتشار الاسلام في تلك المرحلة لا يتعدى اشارات لا يمكن أن نحملها أكثر مما تحتمل ، لنقول ان الاسلام كعقيدة لها تعاليمها ومبادئها ، وكرسالة لها نظرتها الى الحياة ومشاكلها ... كان بعيدا عن قلوب الغالبية الكبرى من العرب عندئذ . ومن أمثلة ذلك ما يقال من أن البعض – مثل ملوك حمير – كتبوا الى الرسول (ﷺ) مقرين بالاسلام ، فكتب اليهم الرسول (ﷺ) (يأمرهم بما عليهم في الاسلام ، وينهاهم عما حرم عليهم)[1] فهل كانت تكفي مثل هذه العملية السطحية لاقناعنا بأن مثل هؤلاء دخلوا فعلا بأحاسيسهم في دين الله ، وتشربت قلوبهم تعاليمه وأركانه وآدابه ؟؟

بل لعله من الغريب أن نسمع عن بعض الرسل الذين أوفدهم رسول الله (ﷺ) الى قبائل العرب لتبصيرهم بالاسلام ، أن الايمان لم يكن قد رسخ في قلوبهم بعد . من ذلك ما يقال من أن هوذة بن علي ملك اليمامة أرسل الى النبي (ﷺ) وفدا ، فيهم مجاعة والرجال . وأقام الرجال عند الرسول (ﷺ) حتى قرأ البقرة وغيرها وتفقه ، وعندئذ بعثه الرسول معلما لأهل اليمامة ، فاذا به يرتد وينضم الى مسيلمة الكذاب ، ويشهد أن رسول الله (ﷺ) أشرك مسيلمة معه ، فكانت فتنته أشد من فتنة مسيلمة[2] . واذا كان هذا هو شأن المعلم الذي

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٢ ص ٢٨٦ – ٢٩٠ .

(٢) ابن الاثير . الكامل في التاريخ ، ج ٢ ص ٢١٥ (السنة السادسة للهجرة)

Massignon ; Annuaire du Monde Musulman , P . 210 .

أرسله الرسول (ﷺ) الى أهل اليمامة (ليشدد من أمر المسلمين) فماذا تنتظر من أناس لم يروا الرسول ولم يسمعوا منه ، ولم يقرأوا بين يديه آية واحدة من آيات القرآن الكريم ، ولم يعرفوا عن الاسلام الا صورة غير واضحة رواها القصاص والاخباريون ؟؟

ان مجيء وفد من بضعة أفراد - غالبا دون العشرة - ليعلن دخول قبيلة بأسرها في الاسلام ، لا يعني أن أفراد هذه القبيلة قد أمنوا فعلا بهذه العقيدة الجديدة . والذي نعتقده أن القبائل العربية اهتزت أمام سقوط مكة في قبضة الرسول (ﷺ) ، وانكسار قريش أمامه (ﷺ) ، وأدركت أنها لا تستطيع الصمود أمام تلك القوة الكاسحة ، فأرسلت وفودها تعلن استسلامها وخضوعها في الطاعة . ولما كانت تعلم أن الدخول في الاسلام هو الشرط الوحيد لموادعة المسلمين واتقاء خطرهم ، فان استسلامها جاء في صورة اعلان اسلامها .

ولا يخفى عنا أن إحلال تعاليم الاسلام في القلوب محل عقائد راسخة موروثة ، يتطلب جهدا واقناعا ووقتا ، ذلك أن هذا الأمر لابد له أولا من تفريغ القلوب والصدور من الشحنة الفاسدة الكامنة فيها ، وبعد تنظيفها جيدا يعاد شحنها بشحنة أخرى سليمة من تعاليم الاسلام ومثله ومبادئه . وفي الحالتين - حالة التفريغ وحالة الملء - لابد من تتميم العملية تدريجيا - وبأناة وصبر - حتى تكون سليمة مثمرة .

لماذا لم تحدث ردة عن الاسلام في بعض البلاد التي فتحها المسلمون بعد ذلك مثل مصر مثلا ؟ لأن انتشار الاسلام في تلك البلاد لم يتم سريعا في مدى بضع سنوات قليلة ، وانما استغرق قرونا طويلة . ويعطي المؤرخون - مثل ماسينيون - سنة ٢٣٩هـ (٨٥٣م) أهمية خاصة في تاريخ انتشار الاسلام في مصر ، لأنه منذ هذه السنة أخذت تختفي ثورات الاقباط ، مما يدل على ان غالبية أهل البلاد صارت فعلا من المسلمين[٩] . وكان ذلك بعد الفتح العربي لمصر بأكثر من قرنين من الزمان . أما في شبه الجزيرة العربية ، فاننا نريد أن نصور الاسلام وقد انتشر بين قبائلها في مدى عامين !!

ثم ان علينا أن نذكر دائما أن الاسلام يمثل من بعض زواياه ثورة اجتماعية بكل معاني الكلمة ، وليس مجرد شهادة ينطق بها أو طقوس وفرائض تؤدى . لقد استهدف الاسلام احلال مجتمع سليم محل مجتمع فاسد ، واستبدال عادات وتقاليد عفنة بأخرى كريمة ، ونشر سلوك اجتماعي قويم بدلا من آخر منحرف .

ومن دراستنا للتاريخ نستطيع أن ندرك أن انقلابا عسكريا أو سياسيا يمكن أن ينجح في مدى ساعات ، وأن تحولا اقتصاديا يمكن أن يتم في مدى أعوام قليلة . أما ثورة اجتماعية شاملة فلا يمكن أن تكتمل في مدى جيل واحد ، ولابد لها من بضعة أجيال لتؤدي ثمارها . ذلك أنه يصعب على البشر أن يتخلى بسرعة عما ورثه عن آبائه وأجداده من عقائد وعادات وتقاليد ، ولد وشب في ظلها ، ورأى آباءه وأجداده يدينون بها ، وغدت جزءا لا يتجزأ من تكوينه الروحي والفكري والنفسي . وجاء مصداق ذلك في القرآن الكريم (بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة

وانا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك من قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون)[3] وكذلك قوله تعالى : (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا . أولوا كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير)[4] وهكذا يبدو أن التمسك بتراث الآباء والاجداد وسننهم وعقائدهم وتقاليدهم هو أمر طبيعي في النفس البشرية ، يحتاج تغييره الى جهد كبير ، ووقت ليس بقصير .

ولذا نرجح أن القرار الذي اتخذته غالبية القبائل العربية ، في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بالدخول في الاسلام كان قرارا سياسيا ، استهدفت به زعامات تلك القبائل المحافظة على كيانها ، ودرء خطر المسلمين عنها . وليس معنى هذا أن هذه القبائل أرسلت وفودا الى الرسول (ﷺ) تعلن اسلامها أنها فهمت ما هو الاسلام ، أو أنها ألمت بروحه وآمنت بتعاليمه ، وحرصت على الدخول فيه .

وهنا لابد لنا من وقفة أمام الآية الكريمة (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا)[5] . وفي رواية للطبري أن المقصود في هذه الآية أعراب بني أسد في خزيمة[6] . وأيد أبو حيان هذا الرأي ، وقال ان بني أسد بن خزيمة قبيلة تجاور المدينة ، أظهروا الاسلام وقلوبهم دخلة ، انما يحبون المغانم وعرض الدنيا ، ويردف ذلك بقوله (مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار ، قالوا : آمنا فاستحققنا الكرامة) فرد الله تعالى عليهم بقوله : (قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا) فهو اللفظ الصادق من أقوالكم ، وهو الاستسلام والانقياد ظاهرا ، ولم يواطىء أقوالكم ما في قلوبكم . فلذلك قال : ولما يدخل الايمان في قلوبكم . ولفظ - ولما - هنا أي معنى التوقع ، مما يدل على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد[7] .

ويسوقنا هذا الى تحديد معنى الاسلام ، والفارق بينه وبين الايمان . قال ابن منظور في لسان العرب (الاسلام والاستسلام : الانقياد . والاسلام من الشريعة : اظهار الخضوع واظهار الشريعة ، والتزام ما أتى به النبي (ﷺ) وبذلك يحقن الدم . والاسلام باللسان والايمان وبالقلب) .[8] أما الزمخشري فيقول : الايمان هو التصديق مع الثقة وطمأنينة النفس . اما الاسلام فهو الدخول في السلم (فاعلم أن ما يكون من الاقرار باللسان

---

(3) سورة الزخرف ، ٢٢ - ٢٣ .

(4) سورة لقمان ، ٢١ .

(5) سورة الحجرات ، ١٤ .

(6) تفسير الطبري ، ج ٢٦ ص ١٤١ .

(7) أبو حيان - التفسير الكبير ، ج ٨ ص ١١٦ (طبعة الرياض) .

(8) ابن منظور - لسان العرب - مادة سلم .

من غير مواطأة القلب فهو اسلام ، وما واطأ فيه القلب واللسان فهو ايمان)[٩]. ويوضح ابن كثير هذا المعنى فيقول (ان الايمان أخص من الاسلام ، ويدل عليه حديث جبريل عليه السلام حين سأل عن الاسلام ثم عن الايمان ثم عن الاحسان ، فترقى من الاعم الى الاخص . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال (سأل رجل النبي (ﷺ) ما الايمان ؟ قال : الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه وبرسله وتؤمن بالبعث . قال : ما الاسلام ؟ قال : الاسلام أن تعبد الله ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان . قال : ما الاحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك[١٠] . روى الامام أحمد عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما : أعطى رسول الله (ﷺ) رجالا ولم يعط رجلا منهم شيئا . فقال سعد رضي الله عنه : يارسول الله : أعطيت فلانا وفلانا ، ولم تعط فلانا شيئا وهو مؤمن . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أو مسلم ؟! [١١] .

ويقول الطبري : الاسلام الكلمة والايمان والعمل . وفي تفسير (قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) يقول الطبري : قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ، قل لهم لم تؤمنوا ولكن استسلمتم خوف السباء والقتل[١٢] ويروي ابن كثير في تفسير هذه الآية - عن سعيد بن جبير ومجاهد - ما نصه (ولكن قولوا أسلمنا) أي استسلمنا خوف القتل والسبي !!

وفي ضوء هذه التفاسير والشروح ، نستطيع أن نقرر موقف القبائل العربية عندما أرسلت وفودها في السنة التاسعة للهجرة تعلن اسلامها . ذلك أن اسلامها كان استسلاما - خوف القتل والسبي - وليس ايمانا بالاسلام كعقيدة وأسلوب ومنهج . لقد خافت هذه القبائل أن يحل بها ما حل بغيرها ، بعد أن تحقق انتصار محمد - عليه الصلاة والسلام - على قريش ، وبعد أن تم له فتح مكة ، فأسرعت تعلن استسلامها له ، ودخولها في طاعته . ولما كانت سياسة الاسلام واضحة تجاه المشركين ، تتلخص في قوله تعالى (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه) فان القبائل العربية عندما أعلنت استسلامها جاء ذلك مصحوبا بأعلانها قبول الاسلام كعقيدة ، دون أن يفهموا عقيدة الاسلام او يستوعبوها ، وانما قال القوم ذلك بألسنتهم (ولم يصدقوا قولهم بفعلهم) على قول الطبري .

وصفوة القول أن الرسول عليه الصلاة والسلام عندما حج حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة ، ثم انتقل الى جنات ربه في العام التالي ، لم يكن الاسلام - كعقيدة - قد تغلغل في قلوب الغالبية الكبرى من عرب شبه

---

(٩) الزمخشري : تفسير الكشاف - ج ٤ ص ٣٧٦ .

(١٠) مصطفى عمارة : جواهر البخاري بشرح القسطلاني ص ٥٣ (طبعة القاهرة) .

(١١) انظر تفسير ابن كثير .

(١٢) تفسير الطبري : سورة الحجرات - ج ٢٦ ص ١٤١ .

الجزيرة ، وأن القبائل التي أعلنت ردتها - قبل وفاته عليه الصلاة والسلام وعقب وفاته - كانت في حقيقة الامر قد أعلنت استسلامها دون أن يكون معظمها قد آمن بالاسلام . وبناء على ذلك لم تكن هناك ردة عن الاسلام كعقيدة ، وانما كان هناك خروج عن الطاعة وتمرد على السلطة ... طاعة الحكومة الاسلامية في المدينة ، وسلطة قريش التي أخذت تباشرها باسم الاسلام على كافة أنحاء شبه الجزيرة العربية .

●●●

واذا كانت الغالبية الكبرى من القبائل العربية التي أعلنت اسلامها قد فعلت ذلك حقنا للدماء وخوف السباء والقتل ، فانه يبدو أنها عندما فعلت ذلك لم تكن تعرف بوضوح ما يلقيه هذا الأمر عليها من التزامات وفروض ، ربما بدت في نظرنا نحن اليوم طبيعية وهينة ، ولكنها سرعان ما بدت غير ذلك في نظر غالبية العرب أنفسهم . حقيقة ان الوفود أظهرت الطاعة والامتثال لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم عندما كان (يأمرهم بما عليهم في الاسلام ، وينهاهم عما حرم عليهم) وعادوا الى ربوعهم وقبائلهم ليبلغوهم الرسالة . ولكن الأمر لم يكن بهذه السهولة ، اذ بدت الصعوبة عند التطبيق ، فاتضح للكثيرين منهم ان النهوض بما عليهم في الاسلام والامتناع عما حرم عليهم ، معناه الخروج عما ألفوه ، وعما وجدوا عليه آباءهم ، وتغيير مجرى حياتهم الدينية والاجتماعية والفكرية ، والحد من حريتهم الشخصية التي طالما اعتزوا بها ، وفاخروا بها آباءهم وأجدادهم .

ومن المعروف أن جو الصحراء يخلق الحرية ، وفي بيئة شبه الجزيرة العربية عاش العربي منذ أقدم العصور يعتز بحريته ويحرص عليها ويدافع عنها ، وربما يدافع عن مساوىء العصبية القبلية ، فاننا اذا حللنا هذه الظاهرة نلمس فيها مظهرا من مظاهر الحفاظ على حرية القبيلة ، وهي الوحدة الاجتماعية والسياسية والادارية والاقتصادية التي يعتز العربي بانتمائه اليها ، ويفخر بها على غيرها من القبائل . ومن واقع هذا الاحساس انفجرت حروب طويلة بين القبائل العربية قبل الاسلام ، وكثير منها استمر بعد الاسلام ، داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها . ويعبر ابن خلدون عن هذه الظاهرة تعبيرا صادقا دقيقا حين يقول (ان العرب أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض) .

حقيقة ان الاسلام - كديانة سماوية كريمة - كفل حرية الفرد وحرية المجتمع ، حرية الفكر وحرية العمل وحرية الحركة ، ولكن الاسلام وضع هذه الحرية في اطار بارز من الانضباط والاعتدال وعدم الاسراف والتمسك بمكارم الاخلاق ، مع مراعاة تحقيق التوازن الدقيق بين حرية الفرد وحرية المجتمع ، وبين حرية الذات وحرية الغير . ان لفظ الحرية جميل في معناه ومدلوله وروحه ، ولكن حرية بلا ضوابط معناها الانحلال والفوضى والتسيب . واذا كان الاسلام قد شرع حقوقا للفرد ، الا أنه فرض عليه واجبات تجاه الله ، وتجاه نفسه ، وتجاه المجتمع الذي يعيش فيه ، وتجاه الدولة التي ينتمي اليها ويحيا في ظلها لتوفر له حياة آمنة وتقدم له خدمات متعددة .

ولكن يبدو ان نسبة كبيرة من العرب الذين أعلنوا اسلامهم في حياة الرسول ، سرعان ما ضاقوا ذرعا بالواجبات التي فرضها الاسلام عليهم ، ورأوا فيها انتقاصا من حريتهم الشخصية والجماعية ، ومساسا بكبريائهم وأنفتهم ، الأمر الذي أدى بهم الى النفور من الاسلام ، تخلصا مما اعتبروه قيودا فرضها عليهم .

من ذلك أن بعضهم رأى في نهي الاسلام عن الخمر والميسر ، واعتبارهما رجسا من عمل الشيطان انتقاصا من حريتهم ، وهم الذين ألفوا شرب الخمر ولعب الميسر . يروي الطبري أن بني حنيفة في البحرين ما كانوا يعلنون ردتهم حتى أفرطوا في الشراب ، فغلب عليهم السكر ، الأمر الذي مكن المسلمين من التغلب عليهم (فوضعوا السيوف فيهم حيث شاءوا) [١٣] .

أما الصلاة فقد رأى فيها البعض قيدا يحد من حريتهم ، وربما ينتقص من كبريائهم وأنفتهم ، بما تحويه من ركعات وسجدات عدة مرات يوميا ، الأمر الذي يجعلهم يرجون اعفاءهم منها أو التخفيف من عدد مراتها . ومن ذلك أن مسيلمة الكذاب عندما تزوج سجاح قالت له (اصدقني صداقا) فطلب منها أن ينادي مؤذنها في أصحابها (ان مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد ، صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر) [١٤] . ويذكر صاحب كتاب الاغاني أنه قد وضع عنهم صلاة العصر فقط ، وأن (بني تميم الى الآن[١٥] بالرمل [١٦] لا يصلونها ، ويقولون : هذا حق لنا ومهر كريمة منا لا نرده) ولا شك في أن مسيلمة أراد برفع تلك الصلوات التقرب اليهم بعمل شيء محبب الى نفوسهم ، والتخفيف مما اعتبروه عبئا على كواهلهم ، وتحريرهم مما ظنوه قيودا على حريتهم .

على انه اذا كان الامتناع عن الخمر والالتزام باقامة الصلاة من الامور التي يسهل التستر عليها والتهرب منها ، بحيث يستطيع المنافق أن يظهر فيها غير ما يبطن ، فان الأمر اختلف بالنسبة للزكاة . ذلك أنه كان مفروضا في الزكاة ان تدفع للعامل الذي تحدده الدولة ، وان تحمل الى بيت مال المسلمين في المدينة ، حيث يثبت ما يستحق على كل قبيلة دون تطفيف أو نقص ، وفق قواعد ثابتة شرعها الاسلام . وفي هذه الحالة كان لا يمكن التهرب من ايتاء الزكاة ، وخاصة أنها ركن من الأركان التي قام عليها الاسلام .

ولو كان العرب الذين أعلنوا اسلامهم في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم عرفوا شيئا عن جوهر الاسلام ، لأدركوا القيمة الحقيقية للزكاة ، وأهدافها السامية ، في تحقيق الرعاية الاجتماعية لقطاعات عريضة من أبناء

---

(١٣) تاريخ الطبري ، ج ٣ ص ٣٠٨ .

(١٤) تاريخ الطبري ، ج ٣ ص ٢٧٤ (طبعة القاهرة) .

(١٥) أي الى أيام أبي الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني (القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي) .

(١٦) أي بالبادية

المجتمع ، وتمكين الدولة من النهوض بمسئوليات ضخمة على الصعيدين الداخلي والخارجي . ولكنهم في غيبة عن الايمان ، اعتبروا الزكاة عبئا ألقي بطريقة عشوائية ، دون أن يعرفوا ما هناك من شروط لوجوبها ، مثل البلوغ والعقل والحرية والملكية والتمكن من التصرف في المال وتوافر النصاب والحول .. بحيث لا يكلف الله نفسا الا وسعها . هذا فضلا عن أنهم لم يفطنوا الى حقيقة ما نص عليه الاسلام من أن الزكاة لها مستحقوها الذين حددهم الله تعالى في محكم أياته (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) [١٧] .

ولكن غالبية العرب الذين خرجوا عن طاعة الدولة - والذين عرفوا باسم المرتدين - لم يروا في الزكاة الا اتاوة يدفعونها لقريش ، وأنها بهذا المعنى تحمل بين طياتها دلالات الذلة والخضوع والاستكانة ، الأمر الذي يتعارض مع كبرياء العربي وأنفته . هذا فضلا عما فيها من عبء مادي تعتبره من وجهة نظرنا خفيفا مقننا ، ولكن علينا أن نذكر أن حروبا دارت بينهم وأياما خلد التاريخ أسماءها ، نشبت بسبب النزاع حول مرعى او ناقة أو بعير .

وقد ظهر هذا الاحساس في أواخر أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، اذ ما كاد الاسود العنسي يعلن خروجه في اليمن ، حتى أرسل الى عمال النبي صلى الله عليه وسلم يقول لهم : (أيها المتوردون علينا أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ، ووفروا ما جمعتم ، فنحن أولى به ، وأنتم على ما أنتم عليه) [١٨] وفي عبارة (أيها المتوردون) تبدو نظرة هؤلاء الخارجين - أو المرتدين - الى عمال النبي صلى الله عليه وسلم ، واعتبارهم دخلاء متسلطين يعبرون عن سيادة قريش ، دون أن يدركوا روح الاسلام ، وما نادى به من طاعة أولي الامر ، بعد طاعة الله ورسوله . وعندما يقول الاسود العنسي لعمال النبي (ﷺ) (وفروا ما جمعتم فنحن أولى به) فانه يطالبهم برد ما جمعوه من أموال الزكاة بدعوى أن أهل اليمن أولى بها ، ظنا منه أنهم جمعوا هذا المال لقريش دون أن يدري أن فقراء اليمن أنفسهم ومساكينه لهم نصيب من أموال الزكاة .

ولو كانوا أدركوا ما في الآية الكريمة (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) [١٩] لعرفوا أن الزكاة هي اسهام مشترك يسهم به القادرون لرعاية شؤون فقراء المسلمين والنهوض بمطالب الدولة الجديدة بما يعود على المسلمين جميعا بالخير . ولكنهم لم يعوا شيئا من أحكام الدين وأهدافه . يروي الطبري أن عمرو بن العاص عند منصرفه من عمان - بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم - نزل بقرة بن هبيرة بن سلمة بن قشير ، فذبح له وأكرم مثواه . فلما أراد عمرو الرحلة ، قال له قرة يا هذا : ان العرب لا تطيب لكم نفسا بالاتاوة . فان أنتم

---

(١٧) سورة التوبة ، ٦٠ .

(١٨) تاريخ الطبري (ج ٣ ص ٢٢٦ سنة ١١هـ) طبعة دار المعارف بالقاهرة) .

(١٩) سورة التوبة ، ١٠٣ .

أعطيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم ونطيع . وان أبيتم فلا أرى أن نجتمع عليكم !! وهكذا اعتبر قرة بن هبيرة - وهو مسلم - الزكاة (اتاوة) وليست ركنا من أركان الدين الجديد . كما اعتبر القاءها شرطا لطاعة العرب ، وبقاءها مبررا لعصيانهم [٢٠] . ولا شك في ان هذه كانت نظرة غالبية العرب الى الزكاة عندما أعلنوا اسلامهم دون ان يلموا الماما كافيا بروحه وأحكامه .

كذلك يصور الطبري الموقف بعد وفاة الرسول (ﷺ) فيقول أنه ما كاد أبو بكر يبايع بالخلافة في المدينة ، حتى جاءته وفود العرب مرتدين يقرون بالصلاة ويمنعون الزكاة !... وقدمت هوازن رِجْلاً وأخرجت رِجْلاً ، أمسكوا الصدقة [٢١] أما مرة وثعلبة وعبس ، فقد أرسلوا وفودهم على أبي بكر في المدينة (على أن يقيموا الصلاة وعلى ألا يؤتوا الزكاة) [٢٢] . ولذا حرص أبو بكر رضي الله عنه في الكتاب الذي أرسله الى قبائل العرب المرتدة - أن يحذرهم بأنه أمر جيوش المسلمين بقتالهم اذا أبوا دفع ما عليهم من زكاة ، حتى ولو أعلنوا شهادتهم بأن لا اله الا الله وبأن محمدا رسول الله [٢٣] :

ولا أدل على أن قبائل العرب اعتبرت الزكاة اتاوة تدفع لقريش من أنه عندما بعث الخليفة أبو بكر - العلاء ابن الحضرمي - على قتال أهل الردة بالبحرين ، استقبله قيس بن عاصم - الذي كان قد ظل على اسلامه - وقدم له الزكاة قائلا [٢٤] :

ألا أبلغا عني قريشا رسالة
اذا ما أتتها بينات الودائع

وفي توجيه الخطاب الى قريش ما يشير الى أن الطاعة كانت مقدمة لها ، وليست لحكومة المسلمين برئاسة خليفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكأن الزكاة مقدمة لها وليست لبيت مال المسلمين .

●●●

ولا شك في أن الاحساس بأن الزكاة اتاوة تدفع لقريش تعبيرا عن الخضوع والتبعية ، جاء مصحوبا باستثارة نزعة العصبية القبلية ، وهي النزعة التي تبدو واضحة وسط التيارات التي حركت الردة .

(٢٠) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٢١) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٤٤ .

(٢٢) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٤٤

(٢٣) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٥١ .

(٢٤) تاريخ الطبري ، ج ٣ ص ٣٠٦ ، كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ج ١٤ ص ٧٥ .

ذلك أنه من الاحكام المتواترة في كتب التاريخ الاسلامي أن الاسلام وحد العرب في شبه الجزيرة ، وجعل منهم دولة واحدة على رأسها سلطة سياسية عليا ، وأنه لأول مرة في تاريخهم خضع العرب لحكومة واحدة مركزها المدينة ، واعترفوا جميعا لها بالسيادة .

هذا القول في نظرنا يتصف بالشمولية والمبالغة ، ولذا فهو في حاجة الى مراجعة ونقاش :

أولا : متى تم توحيد العرب في ظل حكومة واحدة ؟ هل تم ذلك في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أو بعد وفاته ؟

ثانيا : هل يعتبر مجيء الوفود الى المدينة في السنة التاسعة للهجرة معلنة دخولها في الاسلام اعترافا منها بالخضوع لحكومة واحدة بالمعنى الدقيق لتلك العبارة ؟ والى أي حد كان التطبيق العملي لعملية الخضوع هذه ؟

ثالثا : حتى بعد أن أخذت العقيدة الاسلامية ، تتغلغل في قلوب أفراد القبائل المنتشرة هنا وهناك في شبه الجزيرة على المدى القصير أو البعيد ، هل أعطى الافراد ولاءهم للدولة أولوية على ولائهم للقبيلة ؟ وهل خضعوا في يوم ما خضوعا تاما لسلطة حكومة اسلامية مركزية أيا كان مركز هذه الحكومة وأيا كان لونها ؟

ان المتتبع لتاريخ العرب داخل شبه الجزيرة منذ ظهور الاسلام - وعلى مر عصور التاريخ الاسلامي حتى يومنا هذا - يجد أن النزعة القبلية التي ميزت هذا التاريخ قبل الاسلام لم تختف . قد نسمع في تاريخ شبه الجزيرة العربية عن دول وعن سلطة ، ولكن مثل هذه الظواهر السياسية لم تستطع ان تمحو مطلقا النزعة القبلية ، وما يرتبط بها من روح العصبية . وفي دراستنا لتاريخ هذه الدول ونشأتها ، وما كان يختلجها من تيارات وخلافات داخلية أدت الى سقوطها ، نلمس أثر العامل القبلي واضحا قويا ، مهما يحاول البعض أن يخفيه أو يتستر عليه . وما زلنا نلمس اليوم في بعض أنحاء شبه الجزيرة أن ولاء الفرد يتجه نحو القبيلة بدلا من الدولة .

لو كان الأمر مجرد تقاليد وعادات موروثة لأمكن تغييرها أو تعديلها عبر القرون ومع طول الوقت ، ولكن الأمر أبعد من ذلك وأخطر . انها البيئة التي فرضت وضعا معينا على سكان بقعة من الارض . انها الظروف الجغرافية التي أكسبتهم اتجاهات فكرية ونفسية واجتماعية معينة ، وحرصت على مر العصور على أن تغذي هذه الاتجاهات ، وتكسبها صفة الثبات والاستقرار . انها الطبيعة التي كيفت البشر تكييفا خاصا ، وصبتهم في قالب ذي أبعاد معينة ، قد يتسع قليلا أو يضيق كثيرا - حسب الظروف - ولكن مع ثبات الجوهر ، وبقاؤه لا يتغير على مدى القرون .

وقد أدرك هذه الحقيقة العالم المسلم ابن خلدون عندما عقد فصلا في مقدمته الشهيرة عنوانه ان الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل ان تستحكم فيها دولة . وفسر ابن خلدون هذه الظاهرة باختلاف الآراء والأهواء

في تلك الأوطان ، بحيث (أن وراء كل رأي منها وهوى عصبية تمانع دونها ، فيكثر الانتقاض على الدولة ، والخروج عليها ، وان كانت ذات عصبية ، لأن كل عصبية ممن تحت يدها تظن في نفسها منعة وقوة) [٢٥] .

وقبل ان يتسرع البعض متهما ابن خلدون بتحامله على العرب ، نبادر فنعلن ان هذا العالم الكبير عندما أصدر حكمه السابق فانه لم يختص به العرب وحدهم ، وانما عممه على (الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب) واختار أن يستشهد على ما يقول بأهل ملته من المغاربة والبربر ، وليس بالعرب ، فذكر ما نصه (انظر ما وقع في ذلك بافريقية والمغرب منذ أول الاسلام ولهذا العهد ، فان ساكن هذه الاوطان من البربر أهل قبائل وعصبيات ... فعاودوا بعد ذلك الثورة والردة مرة بعد أخرى ... ولما استقر الدين (الاسلام) عندهم ، عادوا الى الثورة والخروج ...) .

أما العرب بالذات ، فان ابن خلدون عندما تعرض لهم في مكان آخر من مقدمته ، قال ان الملك لا يحصل لهم الا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية ، أو أثر عظيم من الدين على الجملة . وفسر ابن خلدون ذلك بأن العرب (أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة ، والمنافسة في الرئاسة ، فقلما تجتمع أهواؤهم . فاذا كان الدين بالنبوة او الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم ، وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم ، فسهل انقيادهم واجتماعهم ، وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة ، الوازع عن التحاسد والتنافس) [٢٦] .

ومهما يكن في قول ابن خلدون من مبالغة لا نقرها ، فانه لمس في النص السابق حقيقتين على جانب من الاهمية :

<u>الاولى</u> : ما هو معروف عن العرب من (منافسة على الرئاسة) بين بعضهم وبعض ، وهذه في رأينا ظاهرة متوارثة ترتبط جذورها بروح الحياة القبلية وطبيعة البلاد .

<u>والثانية</u> : أن اجتماعهم واتحاد كلمتهم يكون أكثر وضوحا في ظل الدين ، لا في ظل السياسة والحكم .

وهكذا فاننا نرى أن العرب عندما توحدوا بعد ظهور الاسلام ، فان وحدتهم كانت دينية وليست سياسية . وهذه الوحدة الدينية يقصد بها تحقيق الترابط بين القلوب في ظل الاسلام ايمانا منهم جميعا بأن لا اله الا الله وبأن محمدا رسول الله . وهذا هو ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى (وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم) [٢٧] .

---

(٢٥) مقدمة ابن خلدون - الفصل التاسع من الفصل الثالث من الكتاب الأول ص ١٦٤ .

(٢٦) مقدمة ابن خلدون ، ص ١٦٤ .

(٢٧) سورة الانفال ، ٦٣ .

وإذا كان الاسلام هو الذي ألف بين قلوب العرب ، وإذا كانت الوحدة التي جمعت العرب في شبه الجزيرة هي قبل أي اعتبار آخر وحدة دينية ، فان الاسلام - بروحه ومبادئه - لم يتغلغل في القلوب الا تدريجيا وعلى مدى سنوات طويلة ، امتدت الى ما بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بحقب وأجيال . وبعبارة أخرى ، فانه عند وفاة الرسول (ﷺ) لم تكن هناك وحدة فعلية ، او رابطة دينية اسلامية ألفت فعلا بين كافة قبائل شبه الجزيرة العربية ، وانما كانت هناك نزعة قبلية وعصبية هدامة ، وضغائن ومنافسات موروثة تطفو على سطح المجتمع حينا وتخبو نارها أحيانا .

وإذا كان الله - عز وجل - قد ألف بين قلوب جماعة من أهل شبه الجزيرة في حياة الرسول ، فان هذه الجماعة كانت ضيقة النطاق محدودة العدد ، تشمل المؤمنين الذين تغلغل الايمان في قلوبهم ، ومعظمهم من المهاجرين والانصار ، من قريش وثقيف ، ممن خالطوا الرسول ، وتأثروا به ، وانفعلوا بشخصيته ، وتأدبوا بحديثه من قول أو فعل أو تقرير ، واتخذوا منه أسوة حسنة .

والواقع ان الباحث في تاريخ الحركة المعروفة بالردة في صدر الاسلام ، لا يمكنه أن يقلل من أثر عامل العصبية القبلية في تلك الحركة ، وخاصة ما كان بين اليمنية والمضرية من عداوة راسخة الجذور ، وكراهية متأصلة في القلوب ، ظلت تشوه صورة التاريخ الاسلامي - من الشرق والغرب جميعا - قرونا طويلة . يروي المسعودي [٢٨] أن مفاخرة جرت بين قحطاني وعدناني في مجلس أبي العباس السفاح ، فقال القحطاني مفتخرا على ولد نزار « ماذا أقول لقوم ليس فيهم الا دابغ جلد ، أو ناسج برد ، أو سائس قرد ، أو راكب عرد ، أغرقتهم فأرة [٢٩] وملكتهم امرأة ، ودل عليهم هدهد [٣٠] » .

اذا كان هذا هو الحال بين ربيعة ومضر بعد مرور قرن وثلث على هجرة الرسول (ﷺ) ، فهل نستطيع في ضوء هذه الاحاسيس أن نفسر اشتداد تيار حركة الردة بين العدنانية بالذات ، بعد أن شاءت الارادة الالهية أن يكون خاتم الانبياء - عليه الصلاة والسلام - من مضر ؟! وهنا تحضرنا عبارة نقلها المعاصرون ، ورددها الخليفة المأمون العباسي ، نصها (ان ربيعة ساخطة على ربها منذ بعث الله نبيه من مضر !!) [٣١] .

وفي تتبعنا لاحداث حركة الردة ، نلمس شواهد عديدة على أثر العصبية القبلية في تلك الحركة . من ذلك أن خالد بن الوليد ما كاد يفرغ من أمر طيء - بعد أن عادت الى الاسلام دون قتال وغدت قوة للمسلمين - حتى

---

(٢٨) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٨٣

(٢٩) قيل في بعض الأساطير أن سد مأرب تصدع بسبب فأرة نخرت بعض جدرانه .

(٣٠) سورة النمل

(٣١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ص ٤٣٢ سنة ٢١٨هـ .

اليه لمنازلة قيس وبني أسد . وعندئذ قال له طيء : (نحن نكفيك قيسا ، فان بني أسد حلفاؤنا) فقال لهم خالد (قاتلوا أي الطائفتين شئتم) ولكن عدي بن حاتم - وهو القائد الذي وثق فيه أبو بكر وأرسله الى خالد في طيء - امتنع عن محاربة بني أسد ، وقال : (أنا امتنع عن جهاد بني أسد لحلفهم ؛ لا لعمر الله لا أفعل) . ويضيف الطبري الى ذلك أن خيل طيء كانت تلقى خيل بني أسد وفزارة قبل قدوم خالد عليهم ، فيتشامون ولا يقتتلون . فتقول أسد وفزارة : لا والله لا نبايع أبا الفصيل (خالد بن الوليد) أبدا . فتقول لهم خيل طيء : أشهد ليقاتلنكم حتى تكنوه أبا الفحل الاكبر [٣٢]!!

وبماذا نعلل اجماع بني أسد وغطفان وفزارة - وكلهم من العدنانية - مع طليحة يوم بزاخة ، وهو اليوم الذي أنزل فيه خالد بن الوليد هزيمة نكراء بالحلفاء المرتدين ؟ ربما تتضح الاجابة عن هذا السؤال فيما يرويه الطبري من أن عيينة بن حصن الفزاري وقف في ذلك اليوم معلنا تأييده لاسد وغطفان ، وقال (اني لمجدد الحلف الذي كان بيننا في القديم ومتابع طليحة . والله لئن نتبع نبيا من الحليفين أحب الينا من أن نتبع نبيا من قريش ، وقد مات محمد وبقي طليحة) [٣٣] .

كذلك روى الطبري أن طلحة النمري جاء اليمامة ، فقال : (أين مسيلمة ؟) قالوا (مه ! رسول الله) . فقال (لا ، حتى أراه) . فلما جاءه قال (أنت مسيلمة ؟) فقال (نعم) قال (من يأتيك ؟) قال (رحمن) . قال (أفي نور أو في ظلمة ؟) فقال (أشهد أنك كذاب وأن محمدا صادق . ولكن كذاب ربيعة أحب الينا من صادق مضر !!) [٣٤] .

●●●

ويرتبط بالعصبية القبلية وما يتولد عنها من تحاسد وتنافس بين القبائل العربية ، ما نلاحظه في حركة الردة من تسابق في ادعاء النبوة . ذلك أن المظاهر الأساسية لحركة الردة لم تقتصر على رفض الاسلام أو بعض أركانه ، او رفض الامتثال لسلطة حكومة مركزية والاعتراف بسيادتها ، وانما جاءت هذه الحركة مصحوبة ايضا بادعاء بعضهم النبوة ، وهي ظاهرة تستحق الوقوف عندها ومحاولة تعليلها وتفسير ما أحاط بها من ظروف . هل جاء ذلك وليدا لما وصف به ابن خلدون العرب من حب المنافسة في الرئاسة ، وبأن الملك لا يحصل عندهم الا بصبغة دينية (من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة ؟) .

---

(٣٢) تاريخ الطبري ، ج ٣ ص ٢٥٥ (سنة ١١هـ) .

(٣٣) المصدر السابق ، نفس الجزء والسنة ، ص ٢٥٧ .

(٣٤) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٢٨٦ .

(٣٥) جمع سحوق ، وهي الطويلة من النخل .

هناك حقيقة لا نستطيع أن نغفلها ، هي أن النجاح الكبير الذي حققه النبي صلى الله عليه وسلم في حياته ، والزعامة التي صارت لقريش عند وفاته ، غدت مثار حسد كافة القبائل العربية في شبه الجزيرة . ولم تلبث أن أصبحت سيرة الرسول (ﷺ) مثلا يمكن أن يحتذيه أي طموح في أن يحقق لنفسه ولقومه ولقبيلته نوعا من الاهمية والزعامة في مجتمع جبل بحب الزعامة وشغف بسير الابطال ، ودأب على أن يتغنى بهم في رواياته وأشعاره .

ان الكثيرين في ذلك المجتمع كانوا طلاب زعامة ورئاسة ، فلماذا لا يفعلون مثلما توهموا أن الرسول قد فعل ، ويدعون النبوة ، وبذلك يحققون لأنفسهم ولقومهم ما يتطلعون اليه من زعامة ورئاسة ؟

هكذا حفلت حركة الردة بعدد من أدعياء النبوة ، لعل أشهرهم طليحة ومسيلمة وسجاح . وهؤلاء حاولوا في تصرفاتهم وأقوالهم أن يتشبهوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وفيما يلي بعض الامثلة نسوقها للوقوف على الاثر الذي تركته شخصية الرسول (ﷺ) في نفوس العرب من ناحية ، ومدى حرص أدعياء النبوة على محاكاته في أقواله وأفعاله من ناحية أخرى :

أتت مسيلمة امرأة من بني حنيفة - تكنى بأم الهيثم - فقالت (ان نخلنا لسحق[٣٦] ، وان آبارنا لجرز[٣٧] ، فادع لمائنا ولنخلنا كما دعا محمد لأهل هزمان ! . فقال مسيلمة (يا نهار[٣٧] ما تقول هذه ؟!) فقال (ان أهل هزمان أتوا محمدا (ﷺ) فشكوا بعد مائهم - وكانت آبارهم جرزا - ونخلهم أنها سحق . فدعا لهم ، فجاشت آبارهم ، وانحنت كل نخلة قد انتهت حتى وضعت جرانها لانتهائها ، فحكت به الارض حتى انشبت عروقا ، ثم قطعت من دون ذلك ، فعادت فسيلا[٣٨] مكمما ينمي صاعدا) . قال : (وكيف صنع بالآبار ؟) . قال : (دعا بسجل[٣٩] ، فدعا لهم فيه ، ثم تمضمض بفمه منه ، ثم مجه فيه ، فانطلقوا به حتى فرغوه في الآبار ثم سقوه نخلهم) . فدعا مسيلمة بدلو من ماء ، فدعا لهم فيه ، ثم تمضمض منه ، ثم مج فيه ، فنقلوه فأفرغوه في آبارهم .

ويكمل الطبري القصة فيقول : فغارت مياه تلك الآبار ، وخوى نخلهم ، وانما استبان بعد مهلكه .[٤٠]

وقصة أخرى رواها الطبري : أتى نهار الرجال بن عنفوة ، وقال لمسيلمة : (بَرِّكْ مولودي بني حنيفة) . فقال له : (وما التبريك ؟) قال (كان أهل الحجاز اذا ولد فيهم مولود أتوا به محمدا صلى الله عليه وسلم فحنكه ومسح

(٣٦) أي بعيدة من الماء .

(٣٧) يعني نهار الرجال بن عنفوة ، كان قد هاجر الى النبي وقرأ القرآن وفقه في الدين ، فبعثه معلما لأهل اليمامة ، وليشغب على مسيلمة ، فكان أعظم فتنة على بني حنيفة من مسيلمة ، اذ شهد لمسيلمة أنه سمع محمدا (ﷺ) يقول انه قد أشركه معه .

(٣٨) الفسيل : صغار النخل .

(٣٩) السجل : دلو به ماء .

(٤٠) تاريخ الطبري : ج ٣ ص ٢٨٤ - ٢٨٥ سنة ١١هـ .

رأسه) ويعلق الطبري على ذلك قائلا : فلم يزت مسيلمة بصبي فحنكه ومسح رأسه الاقرع[٤١] والثغ[٤٢] ، واستبان ذلك بعد مهلكه .

وثمة قصة ثالثة : قالوا لمسيلمة (تتبع حيطانهم كما كان محمد (ﷺ) يصنع ، فصل فيها) فدخل حائطا[٤٣] من حوائط اليمامة فتوضأ . فقال نهار الرجال بن عنفوة لصاحب الحائط (ما يمنعك من وضوء[٤٤] الرحمن ، فتسقي به حائطك حتى يروي ويبتل ، كما صنع المهرية[٤٥] ؟) . ففعل ، فعادت يبابا لا ينبت مرعاها[٤٦] .

وهذا القصص قليل من كثير ، ذكرنا بعضه بايجاز على سبيل المثال لا الحصر ، وان دل على شيء فانما يدل على أن أدعياء النبوة وجدوا في الرسول صلى الله عليه وسلم مثلا يحتذى في أفعاله وتصرفاته ، فحاولوا ان يحاكوه ليحققوا لأنفسهم مثل ما أراده الله له من رئاسة وجاه .

بل ان أدعياء النبوة حاولوا التشبه بالنبي عليه الصلاة والسلام فيما أوحى اليه به من آيات محكمات . ولما كانت طاقتهم تقصر عن اختلاق كتاب متكامل يحاكون به القرآن الكريم ، فانهم أتوا بعبارات مسجوعة مهلهلة المعاني ركيكة المضمون ، لاطعم لها ولا روح فيها ، تتصف معانيها بالسذاجة والضحالة ، وسجعها بالتكلف والسخف .

من ذلك ان المسلمين ظفروا برجل من بني أسد كان عالما بأمر طليحة ، فقال له خالد بن الوليد (حدثنا عنه وعما يقول لكم) ، فزعم انما أتى به (والحمام واليمام ، والصرد والصوام ، قد صمن قبلكم باعوام ، ليبلغن ملكنا العراق والشام)[٤٧] .

ويحكي عن سجاح انه عندما اجتمع معها حلفاؤها على قتال الناس ، وقالوا (بمن نبدأ ؟ بخضم أم ببهدي أم بعوف والابناء أم بالرباب ؟) قالت لهم سجاح (أعدوا الركاب ، واستعدوا للنهاب ، ثم أغيروا على الرباب ، فليس دونهم حجاب) .

---

(٤١) أي سقط شعر رأسه .

(٤٢) تحول لسانه من السين الى الثاء ومن الراء الى الغين .

(٤٣) الحائط هنا البستان .

(٤٤) الوضوء - بفتح الواو - الماء يتوضأ به .

(٤٥) كان رجل من المهرة قدم على النبي (ﷺ) فأخذ وضوءه فنقله معه الى اليمامة ، فأفرغه في بئر ، ثم نزع وسقى ، وكانت أرضه تهوم فرويت وجرت وصارت خضراء مهتزة .

(٤٦) تاريخ الطبري : ج ٣ ص ٢٨٥ (سنة ١١هـ) .

(٤٧) المصدر السابق : ج ٣ ص ٢٦٠ (سنة ١١هـ) .

أما مسيلمة فكان أكثر اقتباسا لألفاظ القرآن الكريم . ويبدو لنا ان السر في ذلك يرجع الى أن مسيلمة رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وكلمه . ذكر ابن اسحق ان مسيلمة كان من جملة وفد بني حنيفة الذي قدم على رسول الله (ﷺ) عام الوفود - سنة تسع للهجرة - وأن الرسول (ﷺ) كلمه وسأله [٤٨] هذا فضلا عن أن مصاحبة نهار الرجال بن عنفوة لمسيلمة كان لها أثرها . وقد سبق أن أشرنا الى أن نهارا هذا كان قد هاجر الى النبي صلى الله عليه وسلم (وقرأ القرآن وفقه في الدين) [٤٩] حتى ان الرسول بعثه معلما لأهل اليمامة . فارتد (وشهد أن محمدا صلى الله عليه وسلم يقول : ان مسيلمة قد أشرك معه) . ويبدو مما كتبه الطبري وغيره أن مسيلمة كان يستشير نهار الرجال فيما يفعل وفيما يقول . فكان نهار بحكم خبرته السابقة بأحوال الرسول (ﷺ) ودرايته بالقرآن الكريم وأساليبه وحفظه بعض آياته يلقن مسيلمة الكثير . وهذا هو السر - في نظرنا - في أن مسيلمة كان أكثر أدعياء النبوة محاكاة لالفاظ القرآن الكريم . ومع ذلك فان أسلوبه اتصف بالتكلف والركاكة ، ومعانيه بالسطحية والضحالة .

من ذلك أن مسيلمة كان يقول لأصحابه (لما رأيت وجوههم حسنت ، وأبشارهم صفت ، وأيديهم طفلت ، قلت لهم : لا النساء تأتون ، ولا الخمر تشربون ، ولكنكم معشر أبرار تصومون يوما وتكلفون يوما . فسبحان الله (اذا جاءت الحياة كيف تحيون ، والى ملك السماء ترقون ، فلو أنها حبة خردلة لقام عليها شهيد يعلم ما في الصدور ، ولاكثر الناس فيها الثبور) .

ومن ذلك أيضا قوله (سمع الله لمن سمع ، وأطمعه بالخير اذا طمع ، ولا زال أمره في كل ما سر نفسه يجتمع . رآكم ربكم فحياكم ومن وحشة خلاكم ويوم دينه أنجاكم . فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار ، لا أشقياء ولا فجار ، يقومون الليل ويصومون النهار ، لربكم الكبار ، رب الغيوم والامطار) [٥٠] .

وامتد أسلوب المتنبئين في المحاكاة الى التشريع . وكان مما شرعه مسيلمة لأصحابه أن من أصاب ولدا واحدا عقبا لا يأتي امرأة الى أن يموت ذلك الابن فيطلب الولد ، حتى يصيب ابنا ثم يمسك . وبذلك حرم النساء على من له ولد ذكر .

ولما أدركوا الدور الذي لعبه الوحي في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ادعى المتنبئون أن الوحي يأتيهم ، فأخذ بعضهم يصدر أحكاما ويقول (بذلك أوحي الي) . ويقال انه عندما اجتمع مسيلمة بسجاح سألها (ما أوحي اليك ؟) فقالت (هل تكون النساء يبتدئن ؟ ولكن أنت قل ما أوحي اليك) قال (ألم تر الى ربك

(٤٨) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ٤ ص ٢٢٢ - ٢٢٣ (تحقيق مصطفى السقا وزميليه) .

(٤٩) تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) ج ٣ ص ٢٨٢ ، ابن الاثير : الكامل ج ٢ ص ٣٦١ .

(٥٠) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٧٢ (سنة ١١هـ) .

كيف فعل بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق [٥١] وحشى) ومازال يختلق لها الاقوال حتى قالت (أشهد أنك نبي !!) [٥٢] .

على أنه من الواضح ان هؤلاء الادعياء لم يكن لهم شيء من أدب النبوة . يروي الطبري أن مسيلمة كان (لا يبالي ان يطلع الناس على قبيح) . ولعل في أخباره مع سجاح ما يستثير الاشمئزاز ، فضلا عن خروجه على الآداب العامة التي عرف بها أهل البادية . [٥٣]

ولم يقف المتنبؤن في محاولاتهم التشبه بالاسلام ونبي الاسلام صلى الله عليه وسلم عند هذا الحد ، بل أراد بعضهم أن يكون له بيت حرام يتنافسون به البيت الحرام في مكة ، حتى تؤمه مختلف قبائل العرب ويلتفون حوله . وكان أن ضرب مسيلمة حرما باليمامة ، نهى عنه وأخذ الناس به ، فكان محرما . ووقع في ذلك الحرم قرى الاحاليف ، أفخاذ من بني أسد كانت دارهم باليمامة ، فصار مكان دارهم في الحرم . والأحاليف هم سيحان ونارة ونمر والحارث بنو جروة ، فان أخصبوا أغاروا على أهل اليمامة ، واتخذوا الحرم دغلا - أي موئلا يستترون به - فان نذروا بهم ودخلوه احجموا عنهم ، وان لم ينذروا بهم فذلك ما يريدون . فكثر ذلك منهم حتى استعدوا عليهم ، وعندئذ قال مسيلمة (انتظر الذي يأتي من السماء فيكم وفيهم) ثم قال لهم : (والليل الاطحم [٥٤] ، والذئب الادلم [٥٥] والجذع الازلم [٥٦] ما انتهكت أسيد من محرم ! وبذلك دافع عن أسيد وبرر عدوانهم وما يأتونه من سلب ونهب . فقالوا له (أما محرم استحلال الحرم وفساد الاموال ؟) ثم عادوا للغارة وتكررت الشكوى ، فقال (انتظر الذي يأتيني) . ثم قال (والليل الدامس ، والذئب الهامس ، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس) فقالوا له (أما النخيل مرطبة فقد جذوها [٥٧] وأما الجدران يابسة فقد هدموها) . فقال (اذهبوا وارجعوا فلا حق لكم) . وهكذا لم يفلح المتنبئون في وضع اطار لمنهج سليم يحدد المعاملات بين الناس .

وثمة ملاحظة أخيرة على ظاهرة ادعاء النبوة التي واكبت حركة الردة ، هي أن هذه الظاهرة تفجرت في بلاد وعلى أيدي أفراد عرفوا المسيحية وسمعوا بها ، أو أن لهم صلة بالكهانة .

---

(٥١) الصفاق : القشاء الذي تحت الجلد .

(٥٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٧٣ (سنة ١١هـ) .

(٥٣) المصدر السابق - نفس الجزء والصفحة .

(٥٤) الطحمة : سواد الليل .

(٥٥) الأدلم : الأسود الطويل .

(٥٦) الجزع الأزلم : الدهر .

(٥٧) أي قطعوها

ولتوضيح ذلك نقول ان العرب قبل الاسلام - شأنهم شأن معظم الشعوب الوثنية - عرفوا الكهانة ، وامتلأ تاريخهم - وخاصة عرب الجنوب أوحمير - بأخبار الكهان ، مثل (طريفة الكاهنة) او (طريفة الخير) التي تنبأت بأخبار سد مأرب ، ومثل (سطيح الغساني) وغيرهما [٥٨] ولكن هذه الكهانة كانت لا تعني أكثر من معرفة العلوم من الغيب ، فادعى صنف من الكهان أن نفوسهم قد صفت ، فهي مطلعة على أسرار الطبيعة ، وادعى صنف آخر ان الارواح المنفردة - وهي الجن - تخبرهم بالاشياء قبل كونها .

أما المسيحية ، فقد عرفتها شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام عن طريق الاحباش في الجنوب ، وعن طريق الانباط من الشمال ، ووجدت كنيسة كبرى باليمن ، وأخرى في مزون (صحار) بعمان . أما اليمامة فيذكر ابن الاثير أن ملك اليمامة في السنة السادسة للهجرة كان نصرانيا - اسمه هوذه بن علي - أرسل اليه الرسول سليط بن عمرو يدعوه الى الاسلام [٥٩] .

وجاء التقارب بين الكهانة والنصرانية عند العرب في الجاهلية ، من أن قوما من النصارى ذهبوا الى أن السيد المسيح كان يعلم الغائبات في الامور ، ويخبر عن الاشياء قبل كونها - أشبه بالكهان - لأنه كانت فيه نفس عالمة بالغيب ، ولو كانت تلك النفس في غيره من الاشخاص الناطقين لكان يعلم الغيب . ويضيف المسعودي الى ذلك قوله (ولا أمة خلت الا وقد كان فيها كهانة) [٦٠] .

والظاهرة التي تسترعي الانتباه أن غالبية أدعياء النبوة ظهروا على أرض وفي بلاد عرفت المسيحية ، او اشتهرت بالكهانة هذا وان كان ادعياء النبوة قد استغلوا عن الطرفين ، لانهم كما سبق ان اشرنا - حاولوا محاكاة الرسول صلى الله عليه وسلم في سيرته وأقواله وأفعاله ، فادعوا أنهم أنبياء ، وان الوحي ينزل عليهم ، وشرعوا لاتباعهم ، وطالبوا لانفسهم بسيادة وزعامة عليهم .

لقد شملت حركة الردة - أو التمرد - معظم أنحاء شبه الجزيرة العربية ، شرقها وغربها ، وشمالها وجنوبها ، وقلبها ووسطها ، ولكن هل من باب المصادفة أن يكون أشهر أدعياء النبوة وأقواهم نفوذا في اليمن واليمامة وبادية الجزيرة في الشمال ؟ فاليمن ارتبط بها الأسود العنسي ، ومسيلمة ارتبط باليمامة ، في حين أقبلت سجاح بنت الحارث من بلاد تميم من اقليم الجزيرة [٦١] على مشارف بلاد الشام ، وهي البلاد التي شهدت مولد المسيحية ، وكان معها (الهذيل بن عمران في بني تغلب ، وكان نصرانيا ، فترك دينه وتبعها) [٦٢] .

---

(٥٨) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٥٥ .

(٥٩) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٢ ص ٢١٥ (السنة السادسة للهجرة) .

(٦٠) المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٢ ص ١٦٦ ، ١٨٥ - ١٩٢ .

(٦١) يقصد بالجزيرة هنا الجزء الشمالي من شبه الجزيرة العربية الذي يعرف باسم بادية الجزيرة . يقول أبو الفداء ما كان من حد الأنبار الى بالس الى تيه ... القرى ، فهو بادية الجزيرة ، تقويم البلدان ، ص ٨٠ .

(٦٢) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٢ ص ٢٥٨ (سنة ١١ هـ) .

ولا أقل من أن نستعرض أحداث حركة الردة وتطوراتها ، لنقف على حقيقة العوامل المحركة لها والبواعث الكامنة وراءها ، والتيارات الموجهة لها ، ثم مدى التوافق بين هذا كله من ناحية وما سبق أن أشرنا اليه من آراء وأفكار واتجاهات من ناحية أخرى . ولتوضيح ذلك نقول :

كان بعث الرسول محمد عليه الصلاة والسلام في شبه الجزيرة العربية ظاهرة فريدة بالنسبة للعرب . حقيقة ان بلاد شبه الجزيرة عرفت في تاريخها القديم أنبياء عديدين ورد ذكرهم في القرآن الكريم ، ولكنهم كانوا يمثلون مصلحين محليين أكثر منهم أصحاب رسالات عالمية . وحقيقة ان بلاد العرب عرفت قبل الاسلام اليهودية والنصرانية ، ولكنها عرفتهما في صورة تيارات دخيلة وافدة من خارج البلاد ، مما جعل تقبلها ضعيفا ، وانتشارها محدودا ، لا يتعدى مراكز محدودة في جنوب شبه الجزيرة وشمالها .

أما الرسالة المحمدية فكان لها شأن آخر بالنسبة لبلاد شبه الجزيرة العربية وأهلها . لقد بشر بها نبي ينحدر من أصل عربي صريح ، وينتمي الى أشرف القبائل العربية وأعرقها أصلا وأفصحها لسانا وأوسعها شهرة وأوفرها احتراما وأعظمها مكانة . وجاءت هذه الرسالة مدعمة بكتاب نزل بلسان عربي مبين ، احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، مما جعل منه دستورا خالدا للعرب - وغير العرب من البشر - في كل زمان ومكان .

وعلى الرغم من صعوبة الجغرافيا الطبيعية وعدم سهولة الجغرافيا البشرية وتعقيد الجغرافيا الاجتماعية لشبه الجزيرة العربية ، الا أن النبي - عليه الصلاة والسلام - نجح نجاحا منقطع النظير على المدى القصير او الطويل - في تغيير الكثير من ملامح تلك الصورة في حياته ، أي في السنوات العشر الواقعة بين هجرته الى المدينة ووفاته .

واذا كانت الهجرة النبوية الشريفة تمثل علامة كبرى على طريق الاسلام وانتشار الدعوة ، فان فتح مكة سنة ثمان للهجرة يمثل العلامة الكبرى الثانية على طريق الاسلام وانتصار الدعوة . ذلك أن مكة كانت أكبر بكثير من مجرد مدينة من مدن الحجاز او شبه الجزيرة . انها مركز البيت الحرام محج العرب ، ومقر قريش ، سيدة قبائل العرب ، وولاة الكعبة وسدنتها .

ومهما يقال من أن بعض القبائل العربية في شتى انحاء شبه الجزيرة استجابت لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم في السنوات السابقة التي أعقبت هجرته الى المدينة ، فان الغالبية الكبرى من تلك القبائل كانت ترقب عن كثب الصراع القائم بين المسلمين في المدينة وقريش في مكة ، لتحدد موقفها النهائي من الاسلام ودعوته . وفي ذلك يقول ابن هشام - نقلا عن ابن اسحق - (ذلك ان قريشا كانوا امام الناس وهاديهم ، واهل البيت الحرام ، وصريح ولد اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، وقادة العرب لا ينكرون ذلك . وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافه . فلما افتتحت مكة ، ودانت له قريش ، ودوخها الاسلام ، وعرفت

العرب أن لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عداوته ، فدخلوا في دين الله - كما قال عز وجل - يضربون اليه من كل وجه ...) [٦٣]

ومن الفقرة الاخيرة من العبارة السابقة ، يفهم أن (العرب) لم يدخلوا في دين الله أفواجا الا بعد أن (افتتحت مكة ، ودانت له قريش ، ودوخها الاسلام ، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عداوته) ومعنى هذا ان دخول العرب في الاسلام في تلك المرحلة كان نوعا من الرضوخ اكثر منه اقتناعا بالاسلام كعقيدة .

وهكذا اذا كان قد أطلق على سنة تسع للهجرة اسم (سنة الوفود) لأن فيها (ضربت اليه وفود العرب من كل وجه) [٦٤] ، تعلن اسلامها فاننا ندرك من واقع النص السابق ان تلك الوفود اقبلت تعلن استسلامها بعد أن عرفت (أنه لا طاقة لهم بحرب الرسول صلى الله عليه وسلم ولا عداوته) . وبعبارة أخرى فان مجيئها الى الرسول ومبايعتها له واعلان اسلامها ، لا ينبغي أن يفسر في التاريخ على أنه اعتراف بعقيدة الاسلام ، نابع عن اقتناع بتلك العقيدة واستيعاب لاركانها وأصولها .

ولا أدل على ذلك من تحليل سلوك هذه الوفود التي قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو سلوك بعيد عن آداب الاسلام ، ويدل على أن أصحابه لم يتأثروا بروحه . من ذلك أن وفد بني تميم عندما قدم المدينة دخل المسجد ، ونادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء حجراته ، أن اخرج الينا يامحمد . فآذى ذلك رسول الله ، ونزل فيهم قوله تعالى (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) [٦٥] وعندما خرج اليهم ، قالوا : (يا محمد جئناك نفاخرك ، فأذن لشاعرنا وخطيبنا) ثم جلسوا امام الرسول صلى الله عليه وسلم يفاخرون بأمجادهم وحسبهم ونسبهم ، وبدلا من أن يبادروا بمبايعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذا بشاعرهم الزبرقان بن بدر ينشد شعرا يقول فيه : [٦٦]

نحن الكرام فلا حي يعادلنا ... منا الملوك وفينا تنصب البيع
كم ترى الناس تأتينا سراتهم ... من كل أرض هوانا ثم نتبع

وهكذا أخذوا يفاخرون رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن البيع - وهي مواضع الصلوات والعبادات -

---

(٦٣) السيرة النبوية لابن هشام ، تحقيق الاستاذ مصطفى السقا وزميليه ، الطبعة الثالثة - الجزء الرابع ، ص ٢٠٥ .

(٦٤) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٦٥) سورة الحجرات ، ٤ .

(٦٦) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ٤ ص ٢٠٨ .

تتعصب لهم ، وبأن سراة الناس تأتيهم من كل أرض لتتبعهم . فهل هذا أسلوب قوم استوعبوا روح الاسلام ، وأتوا ليعلنوا دخولهم في دين الله ، وهو الدين الذي ينادي بأن الله لا يحب من كان مختالا فخورا ؟ [٦٧]

أما وفد بني عامر الذي وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان فيهم عامر بن الطفيل ، الذي أراد أن يغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب أن يخلو به ليقتله بالسيف . فلما أبى الرسول (ﷺ) الانفراد به ، قال له عامر (أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا) [٦٨] فهل هذا اسلوب رجل قدم ضمن وفد لمبايعة الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

وأما وفد بني حنيفة الذي قدم على رسول الله (ﷺ) فكان يضم مسيلمة - كما سبق أن أشرنا - وهو الذي لم يلبث ان أعلن ردته فيما بعد وعرف بالكذاب . وعندما عاد الى قومه (أحل لهم الخمر والزنا ووضع عنهم الصلاة !!) [٦٩]

وهذه الامثلة قليل من كثير . حقيقة ان بعض أعضاء تلك الوفود أسلم وحسن أسلامه ، ولكن البعض الآخر أعلن اسلامه أمام الرسول (ﷺ) (وصدقه وآمن به) ، ولكنه ارتد بعد ان عاد الى قومه أو بعد أن سمع بوفاة الرسول (ﷺ) . ومن هؤلاء عمرو بن معد يكرب الذي كان قد قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم في وفد من بني زبيد [٧٠] .

ثم ان رسول الله - عليه الصلاة والسلام - عندما أرسل معاذ بن جبل الى اليمن ، قال له : (يسر ولا تعسر ؛ وبشر ولا تنفر . وانك ستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك ما مفتاح الجنة ...) [٧١] . وبذلك لم يكتف - عليه الصلاة والسلام - برسم اسلوب الدعوة لمبعوثه ، وانما لفت نظره الى انه سيواجه قوما من أهل الكتاب - نصارى ويهود - وهؤلاء لابد لهم من منطق قوي في الدعوة واسلوب متين في الاقناع ، يفوقان المنطق والاسلوب المتبعين مع سائر العرب الوثنيين .

وعندما أرسل - عليه الصلاة والسلام - خالد بن الوليد في السنة العاشرة للهجرة الى بني الحارث بن كعب بنجران ، أمره ان يدعوهم الى الاسلام ثلاثا قبل ان يقاتلهم ، فان لم يستجيبوا قاتلهم ، (فبعث خالد الركبان يضربون في كل وجه ، ويدعون الى الاسلام ، ويقولون : أيها الناس أسلموا تسلموا ، فأسلم الناس) . ولا

---

(٦٧) سورة النساء ، ص ٣٦ .

(٦٨) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ٤ ص ٢١٤

(٦٩) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٢٣ .

(٧٠) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ٤ ص ٢٣٠ .

(٧١) نفس المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٣٧

تقتصر أهمية هذه العبارة أن الرسول حدد فيها أسلوب العمل في مواجهة المشركين فحسب ، وانما ايضا في نوعية هذا الاسلوب ، اذ يبدو أنه حمل بين طياته مزيدا من الترغيب والتهديد ، مما يحملنا على الظن بأن بعضهم أسلم ليسلم ، ولم يسلم عن اقتناع كاف بالدين الجديد ، مما يفسر حركة الردة فيما بعد . حقيقة ان ابن هشام يروي ان خالدا (أقام فيهم يعلمهم الاسلام وكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم) ولكن اقامة خالد لم تدم طويلا في بني حارث بن كعب ؛ اذ ما كاد يبلغ الرسول (ﷺ) أنهم اسلموا حتى كتب الى خالد يقول له (أقبل . وليقبل معك وفدهم) وبذلك لم تتح الفرصة الكافية لخالد ورجاله لتمكين الدعوة الاسلامية من التغلغل في قلوب القوم .

ويتضح من كتاب كتبه الرسول (ﷺ) لعمرو بن حزم الذي بعثه الى بني الحارث (ليفقههم في الدين ويعلمهم السنة ومعالم الاسلام ، ويأخذ منهم صدقاتهم) أن الرسول لم يكتف في تلك المرحلة بتبشير القبائل بالاسلام وأمرهم بتقوى الله ، وانما حرص على أن يعلم الناس أركان الدين وقواعد الوضوء والصلاة (باسباغ الوضوء وجوههم وأيديهم الى المرافق وأرجلهم الى الكعبين ، ويمسحون برؤوسهم . كما أمرهم الله ، وأمر بالصلاة لوقتها ، واتمام الركوع والسجود والخشوع ... وأمر بالسعي الى الجمعة اذا نودي لها ، والغسل عند الرواح اليها)[٧٢] هذا فضلا عن حرص الرسول (ﷺ) على تحديد الزكاة تحديدا دقيقا - مثلما يدل عليه خطاب الرسول الى ملوك حمير - (من العقار عشر ما سقت العين وسقت السماء ، وعلى ما سقى الغرب نصف العشر . وفي كل عشر من الابل شاتان ، وفي كل عشرين أربع شياه . وفي كل أربعين من البقر بقرة . وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها ، شاة ...)[٧٣]

ولكننا نقول أن ورود هذه الاحكام في كتاب زود به الرسول (ﷺ) مبعوثه الى احدى القبائل لا يكفي . لقد كانت معظم هذه القبائل في حاجة الى اقناع وترويض وتلقين وتطبيق عملي . فهل كانت تكفي جهود فرد واحد للنهوض بهذه الامانة وسط عديد الافخاذ والعشائر والقبائل الضاربة في مساحات واسعة متباعدة من البادية ؟ فما بالنا والمدة بين ايفاد أمثال هؤلاء المبعوثين في العامين التاسع والعاشر للهجرة وبين مرض الرسول عليه الصلاة والسلام ووفاته في ربيع الاول في السنة الحادية عشرة كانت قصيرة لا تتجاوز بضعة أشهر ؟

ومهما يقال من ان الاسلام هذب أخلاق العرب وقضى على كثير مما كان يسود مجتمعهم الجاهلي من أمراض اجتماعية ، فان علينا أن ندرك أن هذه العملية استغرقت أجيالا ، وربما في بعض جوانبها قرونا ، بمعنى أنها لم تكتمل تماما في حياة الرسول (ﷺ) للاسباب العديدة التي سبقت الاشارة اليها ، وأهمها ضعف وسائل الانتقال ، وصعوبة ظروف البيئة وانعدام وسائل الاعلام من ناحية ، والحرص على الماضي والتمسك بتراثه من

---

(٧٢) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ٤ ص ٢٤١ .

(٧٣) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٣٥ .

ناحية أخرى . ومع أن كثيرا من القبائل أعلنت اسلامها للرسول (ﷺ) الا أننا نؤكد ما سبق أن ذكرناه من أن نسبة كبيرة من هذه القبائل فعلت ذلك رضوخا للقوة الجديدة . لقد أسلمت لتسلم ، تسلم من القتل والاسر والسبي . وفيما عدا ذلك ظلت رواسب الماضي بأبعاده وأحاسيسه وأوضاعه الخلقية والاجتماعية والفكرية ، حية في القلوب والنفوس والعقول . ولما كان من الصعب التوفيق داخل اطار واحد بين تعاليم الاسلام من ناحية ونزعات الجاهلية من ناحية اخرى ، فان الباطن تغلب على الظاهر ، وحدث الانفجار ممثلا في حركة الردة .

ثم ان هناك انطباعا آخر غير سليم ، نخرج به من كتابات المحدثين من المؤرخين ، عندما يرددون ان الاسلام وحد العرب ، مما يجعل البعض يظنون أن شبه الجزيرة العربية شهدت وحدة سياسية لاول مرة في عهد الرسول ، وأنه - عليه الصلاة والسلام - ترك العرب عند وفاته في صورة دولة واحدة متماسكة يدينون جميعا لسلطانها ، ويدركون أن عليهم واجبات تجاهها ، ولهم حقوق قبلها .

والحقيقة هي ان الرسول (ﷺ) وضع بذور الدولة الاسلامية الواحدة بهجرته الى المدينة ، وان دعوته ألفت بين قلوب من أمن بها . ولكن لم يحدث مطلقا - حتى أيام ازدهار العصر الذهبي للدولة الاسلامية - أن نجحت هذه الدولة في تشديد قبضتها على كافة قبائل شبه الجزيرة العربية ، وجعل أفرادها يقدمون ولاءهم للدولة على ولائهم للقبيلة التي ينتمون اليها . حتى عندما أعلنت تلك القبائل دخولها في الاسلام ، وقبلت ان تلتزم بأحكامه ، فانها لم تدرك مطلقا أن يكون ذلك معناه ذوبان الشخصية الاعتبارية للقبيلة داخل المحيط الاسلامي الجديد ، او تفكك الروابط بين أفراد القبيلة ليتجه ولاء الفرد نحو سلطة جديدة عليا ، يفوق أفقها في سمته سلطة القبيلة وشيخها .

وصفوة القول أن تأثير الاسلام في السنوات العشر التي أعقبت الهجرة كان أقوى ما يكون في قريش وثقيف ، وفي البيئة التي أحاطت بالرسول (ﷺ) وفي الافراد الذين اتصلوا به اتصالا مباشرا قويا ، أعني بيئة أهل البيت وصحبه الكرام ، والاماكن التي عاش فيها بين مكة والمدينة . أما خارج هذه الدائرة ، فيبدو ان تعاليم الاسلام وآدابه ومفاهيمه وروحه لم تكن أحرزت استجابة فعلية في قلوب الغالبية من الناس . وفي تلك الفترة القصيرة .

●●●

ولو كانت روح الاسلام قد تغلغلت في نفوس العرب في ذلك الدور المبكر ، لما انفجرت حركة الردة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وقبل ان يموت . ومن خطأ القول الاعتقاد بأن حركة التمرد المعروفة باسم الردة ظهرت نتيجة لانتشار خبر مرض الرسول عليه الصلاة والسلام ذلك أنه من الواضح في مصادر التاريخ أن بعض الخارجين - او المرتدين - أعلنوا خروجهم دون ان يسمعوا خبر مرضه .

وفي رأينا ان الشرارة الاولى التي أشعلت حركة الردة تولدت عندما شرع الرسول صلى الله عليه وسلم في جمع الزكاة ، تنفيذا لركن هام من أركان الاسلام يتمثل في قوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) [٧٤] وكان ذلك في السنة العاشرة للهجرة ، عندما أرسل النبي (ﷺ) مندوبيه بوصفهم (عمالا على الصدقات) الى مختلف انحاء شبه الجزيرة لجمع الزكاة من القبائل التي أعلنت اسلامها . وفي ذلك يقول ابن هشام والطبري [٧٥] : « بعث امراءه وعماله على الصدقات على كل ما أوطأ الاسلام من البلدان ، فبعث المهاجر بن أمية بن المغيرة بني الانصاري الى حضرموت على صدقتها . وبعث عدي بن حاتم على الصدقة - صدقة بني طيء وأسد ، وبعث مالك بن نويرة على صدقات بني حنظلة . وفرق صدقة بني سعد على رجلين منهم . وبعث العلاء بن الحضرمي على البحرين . وبعث علي ابن أبي طالب الى نجران ليجمع صدقاتهم وقدم عليه بجزيتهم ... » .

ومن هذا النص نخرج بحقيقتين لهما أهمية واضحة فيما ذهبنا اليه . أما الحقيقة الأولى فترتبط بما جاء فيه من أن الرسول (ﷺ) بعث المهاجر بن أبي أمية بن المغيرة على صنعاء « فخرج عليه العنسي وهو بها » والعنسي هذا هو الاسود العنسي عيهلة بن كعب بن عوف . فخروج العنسي واعلانه الردة جاء بعد وصول عامل الرسول (ﷺ) الى اليمن لجمع الزكاة ؛ وأعلن العنسي خروجه وردته أثناء وجود عامل الرسول (ﷺ) - المهاجر بن أبي أمية - في صنعاء .

وهنا نكتفي بسؤال محدد : هل من باب المصادفة أن يعلن الاسود العنسي خروجه بعد وصول عامل النبي (ﷺ) الى صنعاء لجمع الزكاة ؟ ولماذا ؟

وأما الحقيقة الثانية فتبدو عند الربط بين النص السابق وبين ما ذكره الطبري في رواية أخرى من أن « أول ردة كانت في الاسلام باليمن ، كانت على عهد رسول الله (ﷺ) على يدي ذي الخمار عيهلة بن كعب - وهو الاسود - في عامة مذحج » [٧٦] .

ومعنى هذا ان حركة الردة انطلقت - أول ما انطلقت - من بلاد اليمن ، وأن خروج الاسود العنسي يمثل الشرارة الأولى في تلك الحركة . ولا يسع المؤرخ في تحليله لهذه الحقائق سوى أن يصل الى قناعة بأن حركة الردة مهما تتنوع أسبابها العامة والخاصة - الظاهرة والباطنة - فانها تبدو مرتبطة بجمع الزكاة ارتباط نتيجة بسبب . ومهما يقال عن تعدد أسباب حركة الردة وتنوعها ، فاننا نرجح ان السبب المباشر الذي أدى الى اشعال فتيل تلك الحركة

---

(٧٤) سورة البقرة - ٤٣ ، ١١٠ .

(٧٥) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ٤ ص ٢٤٦ ، تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٤٧ (طبعة دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٦٢) .

(٧٦) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ١٨٥ (السنة الحادية عشرة) .

هو شروع الرسول (ﷺ) في ضبط عملية الزكاة ، وارساله العمال « على الصدقات الى كل ما أوطأ الاسلام من البلدان » .

والواقع ان حركة الردة بدأت في وقت صعب بالنسبة للمسلمين والدولة الاسلامية ، الناشئة . ذلك أن هذه الحركة جاءت متوافقة زمنيا مع حادثين لهما أهميتهما وخطورتهما على طريق الدولة الاسلامية ، الناشئة ، أولهما مرض الرسول (ﷺ) ، وثانيهما خروج حملة أسامة .

أما عن مرض الرسول (ﷺ) وهو المرض الذي انتهى بانتقاله الى جنات ربه بعد وقت قصير ، فان الروايات والمصادر المعاصرة تجمع على أنه - عليه الصلاة والسلام - أخذ يشكو في ليال بقين من صفر - أو في أول شهر ربيع الأول - سنة احدى عشرة للهجرة - أي بعد حجه الوداع [٧٧] ويروي الطبري[٧٨] عن عبيد مولى رسول الله (ﷺ) أنه قال : « لما انصرف النبي (ﷺ) الى المدينة بعد ما قضى حجة التمام ، فتحلل به السير - أي ضعف عن الجد في السير - وطارت به الأخبار لتحلل السير بالنبي (ﷺ) أنه قد اشتكى . فوثب الأسود باليمن ومسيلمة باليمامة . وجاء الخبر عنهما للنبي (ﷺ) ثم وثب طليحة في بلاد بني أسد بعد ما أفاق النبي ، ثم اشتكى في المحرم وجعه الذي توفاه الله فيه » .

ونخرج من هذه الرواية بحقيقة تاريخية هامة هي أنه ما كادت تطير الأنباء بشكوى النبي ، وتحلل السير به ، حتى وثب الأسود باليمن ومسيلمة باليمامة . ويعنى ذلك - وفق هذه الرواية - أن خروج الأسود ومسيلمة وطليحة - ومن تلاهم - تعاقب بعد أن شاع خبر مرض النبي عليه الصلاة والسلام . وجاء ذلك في وقت كان عمال الرسول على الزكاة قد أخذوا يباشرون مهامهم ، الأمر الذي حرك أشياء كثيرين . فجاء الخبر بمرض الرسول (ﷺ) مشجعا على الخروج والارتداد واعلان العصيان .

وأما الحادث الثاني الهام الذي وافق حركة الردة زمنيا فيتعلق بحملة أسامة بن زيد بن حارثة . وكان الرسول قد ضرب شهر المحرم من سنة احدى عشرة - قبيل مرضه الذي اعتداه في شهر صفر من نفس السنة - حملة الى الشام ، وجعل لواءها لمولاه أسامة بن زيد ، وأمره أن يتجه الى تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، فتجهز الناس ، وكان هذا « آخر بعث بعثه رسول الله (ﷺ) » [٧٩] . وقد أرعب مع أسامة المهاجرون الأولون ، ومن جلتهم « أبو بكر وعمر ، الأمر الذي أتاح فرصة لأقاويل المنافقين . فكثر لغطهم بأن الرسول (ﷺ) أمر غلاما

(٧٧) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ٤ ص ٢٩١

(٧٨) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ١٤٧ (السنة العاشرة) .

(٧٩) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ٤ ص ٢٩١

على جلة المهاجرين والانصار . فلما سمع ذلك رسول الله (ﷺ) قال : « ان تطعنوا في امارته فقد طعنتم في امارة أبيه من قبل ، وانه لخليق للامارة وكان ابوه خليقا لها »[٨٠] .

ويعنينا من هذا الأمر أن خروج أسامة جاء مواكبا لابتداء شكوى الرسول (ﷺ) ، ثم لخروج المرتدين في أكثر من جهة من شبه الجزيرة العربية . وحدث كل ذلك وسط بلبلة فكرية أحدثها المنافقون ، وهم أشبه شيء بطابور خامس يعمل في جوف الدولة على زعزعة الجبهة الداخلية للدولة الاسلامية . وفي تلك الأزمات المتواكبة قال الرسول (ﷺ) لمولاه أبي مويهبة « قد أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم ، يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى » .

وكان الرسول عندما اشتد به الوجع قد انتقل الى بيت السيدة عائشة ليتمرض فيه . وعندما بلغته أخبار خروج المرتدين وأراجيف المنافقين ، خرج - صلى الله عليه وسلم - على المسلمين ، عاصبا رأسه من الصداع ، وقال : « اني رأيت البارحة - فيما يرى النائم أن في عضدي سوارين من ذهب ، فكرهتهما ، فنفختهما فطارا ، فأولتهما هذين الكذابين ، صاحب اليمامة وصاحب اليمن . وقد بلغني أن أقواما يقولون في امارة أسامة ؛ ولعمري لئن قالوا في امارته ، لقد قالوا في امارة أبيه من قبل ، وان كان أبوه لخليقا للامارة ، وانه لخليق لها ، فانفذوا بعث أسامة » .

وقد يبدو غريبا أن يأمر الرسول (ﷺ) بانفاذ حملة أسامة الى الشام ، وهي تضم قوة حربية كبيرة ، وعددا من الصحابة ، في الوقت الذي ظهر أن الخطر الحقيقي الذي هدد الاسلام ودولته ينبثق من جنوب شبه الجزيرة العربية وليس من شمالها . ولكن حكمة الرسول - عليه الصلاة والسلام - وبعد نظره اختارتا ألا تعطيا المنافقين مزيدا من الفرص للارجاف والتشكك ، فضلا عن أنه أراد أن يعلم المسلمين ضرورة احترام قرارات القيادة الرشيدة ، وخاصة في وقت الخطر ، والحرص على ان تظهر الدولة في صورة الواثقة من نفسها ، الثابتة في ارادتها ، فلا تردد ولا نكوص .

ولا شك في أن مثل هذه السياسة لابد وان يكون لها آثارها المعنوية في مواجهة الخارجين والمرتدين في اليمن واليمامة ، وغيرهما من أنحاء شبه الجزيرة العربية . هذا الى أن خروج أسامة على رأس حملته يعبر في صورة أو أخرى عن الاقلال من شأن هؤلاء الخارجين والمرتدين ، والتحقير من خطرهم ، مما تنعكس صورته في الجانب

---

(٨٠) يعني زيد بن حارثة والد أسامة . وكان الرسول (ﷺ) في غزوة مؤتة سنة ثمان للهجرة قد استعمل زيد بن حارثة على المسلمين في تلك الغزوة ، وقال « ان أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب ، فان أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة » . فقال جعفر « ما كنت أذهب أن تستعمل على زيدا » . فقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - « امض فانك لا تدري أي ذلك خير » . أنظر : ابن الاثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة (مطبعة كتاب الشعب بالقاهرة) ج ٢ ص ٢٨٣ ترجمة زيد بن حارثة رقم ١٨٢٩ ، ١ ص ٧٦ ترجمة أسامة بن زيد رقم ٨٤ .

المعنوي للمسلمين والمرتدين سواء . هذا وان كان اشتداد المرض على الرسول (ﷺ) ثم وفاته قد عرقلت مسيرة حملة أسامة بعد أن كان قد خرج فعلا ، وضرب معسكره « وأتشأ الناس في العسكر »[٨١] .

وفي الوقت الذي اتخذ الرسول (ﷺ) قراره الخاص بخروج حملة أسامة ، واجه حركة المرتدين في حزم شديد وحكمة بالغة « ولم يشغله ما كان فيه من الوجع عن أمر الله عز وجل والذب عن دينه » . يروي الطبري أن الرسول (ﷺ) بدأ محاربة أولئك المرتدين « بالرسل » فأرسل الى نفر من الأنصار يأمرهم بالقيام على الدين ، والنهوض في الحرب ، والعمل في القضاء على الأسود والخارجين والمرتدين ، ومعنى هذا أن الرسول (ﷺ) لم يرسل جيوشا من المدينة للقضاء على المرتدين ، وانما اعتمد على القوى المحلية ، فأرسل الرسل الى عماله في تلك الجهات يستحثهم على الاستعانة بالثابتين على الاسلام والصمود أمام المنشقين ، ومحاولة القضاء على رؤوس الفتنة « إما غيلة وإما مصادفة » . وطلب الرسول من عماله ابلاغ هذه الدعوة الى من يرون « أن عنده نجدة ودينا »[٨٢]

وسرعان ما بدا أن الأسود العنسي هو أخطر الخارجين - أو المرتدين - وأصلبهم شوكة . وقد وصفته المصادر المعاصرة بأنه كان كاهنا شعباذا - أي مشعوذا - يظهر الأعاجيب ويتصف بقوة الشخصية ، بحيث أنه كان (يسبي قلوب من مع منطقه) ولم تلبث أن أيدته مذحج ونجران ، فاشتد ساعده . وعندئذ أرسل الى عمال النبي (ﷺ) يقول لهم : « أيها المتوردون علينا ، أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ، ووفروا ما جمعتم ، فنحن أولى به ، وأنتم على ما أنتم عليه » ومرة أخرى تؤكد على ما في هذه العبارة من احساس واضح بأن الخارجين - أو المرتدين - اعتبروا عمال النبي (ﷺ) دخلاء عليهم ، مغتصبين لأرضهم ، فضلا عما يتضح فيها من أثر العامل الاقتصادي - والزكاة بالذات - في تحريك الأسود العنسي وأتباعه ، اذ يطالب عمال النبي (ﷺ) بأن يوفروا ما جمعوه من أموال الزكاة « فنحن أولى به » .

وبينما عمال الرسول (ﷺ) في حيرة من أمرهم ، اذا بالأسود العنسي يقتحم صنعاء ، وكان الرسول (ﷺ) قد فرق عمل اليمن كلها بين جماعة من أصحابه ، فجعل عمرو بن حزم على نجران ، وخالد بن سعيد بن العاص على ما بين نجران ورمع وزبيد ، وعامر بن شهر على همدان ، وعلى صنعاء ابن باذام ، وعلى عك والاشعريين الطاهر بن أبي هالة ، وعلى مأرب أبا موسى الاشعري ، وعلى الجند يعلي بن أمية . وجعل معاذ بن جبل معلما يتنقل في عمالة كل عامل باليمن .

---

(٨١) الطبري . تاريخ الرسل والملوك . ج ٣ ص ١٨٦ (سنة ١١هـ) .

(٨٢) الطبري . تاريخ الرسل والملوك . ج ٣ ص ٢٣١ .

وتطورت الأمور بسرعة ، فساء موقف هؤلاء العمال نتيجة لاشتداد ساعد الأسود العنسي ، بعد أن « جعل يستطير استطار الحريق .. وثبت ملكه ، واستغلظ أمره ، ودانت له سواحل من السواحل ... » وكان أن خرج معاذ ابن جبل هاربا ، حتى مر بأبي موسى - وهو بمأرب - فاقتحما حضرموت . ثم نزل معاذ في السكون ، في حين نزل أبو موسى في السكاسك مما يلي المفور . أما الطاهر ابن أبي هالة فكان عندئذ في وسط بلاد عك بجبال صنعاء ، فانحاز اليه سائر أمراء اليمن ، الا عمرا وخالدا فانهما رجعا الى المدينة .

على أن الموقف لم يلبث أن تبدل بسرعة ، نتيجة لعدة عوامل :

أولا : أن الأسود العنسي - شأنه شأن بقية الادعياء والمرتدين - لم يكن على شيء من حسن الخلق والسيرة مما يقربه الى قلوب الناس ويجعل منه أسوة حسنة لهم . حتى امرأته - آزاذ - قالت فيه : « والله ما خلق الله شخصا أبغض الي منه : ما يقوم لله على حق ، ولا ينتهي له عند حرمة » [٨٣] . ولم يسلم أعوانه وأقرباؤه من بطشه ، مما جعله في نهاية الأمر فريسة لتآمر الجميع عليه .

ثانيا : لجأ عمال الرسول في اليمن الى السياسة للتغلب على الأسود العنسي ، حيث أنهم كانوا يفتقرون الى ما كانت لهم من جموع وقوة . ومن ذلك أنهم حاولوا استمالة بعض القبائل « وكاتبنا الناس ودعوناهم » . ثم انهم حاولوا عن طريق المصاهرة عقد سلسلة من المحالفات . ومن أمثلتها أن معاذ بن جبل تزوج الى بني بكرة - حي من السكون - امرأة اخوالها من بني زنكبيل يقال لها رملة ، فمالوا الى جانب معاذ ضد الأسود . وبذلك اشتد جانب المسلمين وقوي ساعدهم ، وخاصة بعد أن أرسل اليهم الرسول يأمرهم بعدم الاستكانة ، ومحاولة الأسود العنسي ومصاولته « فعرفنا القوة ووثقنا النصر » [٨٤] .

ثالثا : هناك من قبائل اليمن وعشائرها من ثبتوا على اسلامهم ، ورفضوا مؤازرة الأسود العنسي ، ووقفوا الى جانب الاسلام والمسلمين . بل لقد اعترض بعضهم - مثل عامر بن شهر وذي زود وذي مدان وذي الكلاع وذي ظليم - على الأسود العنسي ، وكاتبوا معاذ بن جبل وأمراء المسلمين « وبذلوا لنا النصر ، وكاتبناهم ، وأمرنا ألا يحركوا شيئا حتى نبرم الأمر » . وهؤلاء استجابوا لرسل النبي التي أرسلها لهم ، وأعلنوا ثباتهم على مبدأ الاسلام « واحتاجوا لذلك حتى جاء كتاب النبي (ﷺ) . وانضم الى هذا الفريق جماعة من غير العرب من أهل نجران ، استجابوا للنبي عندما كتب اليهم « فثبتوا وتنحوا وانضموا الى مكان واحد » [٨٥] .

---

(٨٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٣٢ .

(٨٤) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٣٠ .

(٨٥) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٣٦ .

وسرعان ما قتت تحركات المسلمين في عضد الأسود العنسي ، « فأحس بالهلاك » . على أن الخطر الذي عصف به وأجهز عليه جاء من الداخل وليس من الخارج ، اذ اجتمعت الاطراف المعادية له ، ووضعوا خطة لقتله ، فنقبوا عليه داره واغتالوه ، حتى اذا ما طلع الفجر نادوا بالأذان وبأن لا اله الا الله وبأن محمدا رسول الله ، وأن عبهلة كذاب (الأسود) . ولم يلبث أن تفرق أتباع الأسود « وخلصت صنعاء والجند ، وأعز الله الاسلام وأهله ، وتنافسنا الامارة ، ورجع أصحاب النبي (ﷺ) الى أعمالهم ، فاصطلحنا على معاذ بن جبل ، فكان يصلي بنا » (٨٦) .

وشاءت الأقدار أن يأتي خبر ذلك النبي (ﷺ) من ليلته ، وأن يتوفى - عليه الصلاة والسلام - صبيحة تلك الليلة . وقد استغرقت حركة الأسود العنسي - من أولها الى آخرها - ثلاثة أشهر ، وقيل أربعة ، عادت بعدها الأمور في اليمن الى ما كانت عليه « واعتذر الناس ، وكانوا حديثي عهد بالجاهلية » (٨٧) .

ولم تكن ردة الأسود العنسي الحركة الوحيدة من نوعها في أواخر أيام الرسول (ﷺ) فقد حدث أيضا في السنة العاشرة للهجرة - والغالب بعد حجة الوداع - أن كتب مسيلمة الكذاب الى الرسول (ﷺ) يدعى أنه أشرك معه ، وجاء في كتابه « من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله . سلام عليك ، فاني قد أشركت في الأمر معك ، وان لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشا قوما يعتدون » .

وعندما قدم على النبي (ﷺ) رسولان بهذا الكتاب ، قال لهما (ﷺ) : فما تقولان أنتما ؟ قالا : نقول كما قال . فقال : أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما . ثم كتب الى مسيلمة « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » .

وفي الوقت الذي أخذ نفوذ مسيلمة يزداد حتى غلب على اليمامة ، ادعى طليحة النبوة ، وعسكر بسميراء . وكان أن بعث طليحة ابن أخيه حبال الى النبي (ﷺ) يدعوه الى الموادعة ويخبره خبره . وقال حبال : ان الذي يأتيه ذو النون . فقال : لقد سمى ملكا . فقال حبال : أنا ابن خويلد . فقال النبي (ﷺ) : قتلك الله وحرمك الشهادة .

وعلى الرغم مما كان يعاني منه الرسول (ﷺ) من آلام المرض ، فانه ظل يذب عن الاسلام في مختلف الجبهات « وظل طليحة ومسيلمة وأشباههم بالرسل » ولكن قضاء الله حل برسوله الكريم قبل أن يستأصل الفتنة من جذورها .

(٨٦) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٣٥

(٨٧) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٣٩ .

وفي اللحظة التي قبض رسول الله (ﷺ) كان أسامة بن زيد قد غادر المدينة على رأس حملته متجها الى حيث قتل أبوه زيد بن حارثة من أرض الشام ، وهي الجهة التي كان الرسول (ﷺ) قد أمره بالمسير اليها . وعندما بلغ أسامة الخبر ، وهو لا يزال على مقربة من المدينة ، توقف عن المسير وقال لعمر - رضي الله عنهما - « ارجع الى خليفة رسول الله فاستأذنه - يأذن لي أن أرجع بالناس - فان معي وجوه الناس وحدهم ، ولا آمن على خليفة رسول الله (ﷺ) وثقل رسول الله (ﷺ) ، وأثقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون ... » .

ويبدو أن أسامة كان يدرك الموقف على حقيقته في تلك المرحلة الدقيقة من تاريخ الامة الاسلامية . حقيقة أن الانصار والمهاجرين استطاعوا في سقيفة بني ساعدة أن يتخطوا الأزمة الخطيرة الخاصة باختيار خليفة لرسول الله (ﷺ) . ولكن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - ولي الخلافة في وقت صعب ، ظهر فيه أن مصير الأمة الناشئة غدا في كفة الميزان ، بعد أن « ارتدت العرب ، اما عامة واما خاصة من كل قبيلة ، ونجم النفاق ، واشرأبت اليهود والنصارى . والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية ، لفقد نبيهم (ﷺ) ... » .

ولا نستطيع أن ننكر أن انتشار خبر وفاة الرسول (ﷺ) أثار موجة واسعة من التشكك بين بعض العرب في حقيقة رسالته . ذلك أنهم - بفكر الجاهلية ومنطقها - ظنوا أن هذه الشخصية التي لم يرها كثير منهم وانما سمعوا فقط عنها ، مفروض فيها البقاء والخلود . ولو كانوا قد ألموا بالقرآن واستوعبوه . لما وقعوا في هذه الاوهام ، ولأدركوا قوله تعالى « انك ميت وانهم ميتون »[٨٨] وقوله عز وجل « وما جعلنا لبشر قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون »[٨٩] .

وزاد من موجة التشكك هذه ما حدث من خلاف بين الصحابة أنفسهم حول من يكون له الأمر بعد الرسول (ﷺ) ، اذ قال المهاجرون « منا الأمراء ومنكم الوزراء » فقالت الأنصار « بل منا أمير ومنكم أمير » . وحدث هذا في مرحلة لا تزال نعرة العصبية القبلية متأججة في القلوب ، وكثير من القبائل - كما أسلفنا - تحسد الرسول (ﷺ) وتحسد قريش ، على ما تحقق لهم من مكانة على المستويين الفردي والقبلي . وكانت النتيجة أن أخذت بعض القبائل تستعيد ذكرى أمجادها وأيامها ، لتحشد المبررات التي تمكنها من المطالبة بالزعامة العليا على العرب جميعا ، مثلما تحقق لقريش . فلما آل أمر الخلافة الى أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - لم تستطع هذه القبائل اخفاء خيبة أملها ، وحنقها لأن الأمر خرج من يدها ، فأعلنت تمردها ، ورأت في استمرار زعامة قريش بعد وفاة الرسول (ﷺ) نوعا من الاذلال لها ، ومنافاة التقاليد التي جرى عليها العرب من قبل .

---

(٨٨) سورة الزمر ، ٣٠ .

(٨٩) سورة الانبياء ، ٣٤ .

وقد أدرك كثير من المسلمين أن مثل هذه الظروف تتطلب تجميع قوى الاسلام وحشدها ، وأشفقوا من أن يترك جوف الدولة الاسلامية مشتعلا بالفتنة ، في حين يتجه جيش كبير بقيادة أسامة بن زيد - يضم صفوة المجاهدين وعلى رأسهم حشد من الانصار والمهاجرين - الى أطراف بلاد الشام . وكان أن واجه بعضهم الخليفة الجديد بهذه الحقيقة ، وقالوا له « ان هؤلاء جل المسلمين . والعرب على ما ترى قد انتقضت بك ، فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين » . ولكن أبا بكر رفض في إصرار أن يستجيب لرأي هؤلاء ، واعتبر ذلك نقضا لقرار اتخذه رسول الله (ﷺ) ، فرد عليهم قائلا « والذي نفس أبي بكر بيده ، لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ، ولو لم يبق غيري لأنفذته » [٩٠] . أما عمر الذي أرسله أسامة الى أبي بكر يستأذنه في الرجوع ، فقد رد عليه أبو بكر قائلا « لو خطفتني الكلاب والذئاب لم أرد به قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ولا شك أن خروج أسامة الى الشام شجع الخارجين والمرتدين ، بعد أن أحسوا بتشتت قوى المسلمين في وقت افتقدوا نبيهم . وتوضح احدى الروايات التي رواها الطبري مدى وفاة النبي (ﷺ) من ناحية ، وخروج حملة أسامة من ناحية أخرى ، في توسيع حركة العصيان والردة ، اذ تقول الرواية « لما مات رسول الله (ﷺ) ، وفصل أسامة ، ارتدت العرب عوام أو خواص ، وتوحي مسيلمة وطليحة ، فاستغلظ أمرهما ، واجتمع على طليحة عوام طيء وأسد » [٩١] .

على أن الخليفة أبا بكر أثبت أنه أهل للنهوض بالأمانة ، فأخذ يتصرف في حكمة وشجاعة وحزم ، ورفض أن يساوم المرتدين على ركن واحد من أركان الاسلام ، أو يتخلى عن مبدأ من مبادىء السياسة التي وضعها الرسول (ﷺ) . ان الأمر لم يكن مجرد فتنة محلية ، وانما كان مستقبل الاسلام كعقيدة ورسالة ونظام ، فضلا عن كونه يعبر عن مستقبل أمة ناشئة ، أراد الله تعالى أن يكون خير أمة أخرجت للناس . لقد كان الأمر ايضا يتعلق بمصير دولة وليدة أسست على التقوى ، مفروض فيها أن تنمو وتستمر لتحمل رسالة الاسلام بعيدا الى مختلف أركان العالم .

وكما أطلق على سنة تسع للهجرة اسم « سنة الوفود » لأن فيها « ضربت وفود العرب من كل وجه » على الرسول (ﷺ) تشهر اسلامها والدخول في دين الله ، كذلك تعتبر سنة احدى عشرة للهجرة « سنة وفود » ولكنها وفود من نوع آخر ، قدمت على خليفة رسول الله (ﷺ) تعلن رجوعها عن الاسلام ، واذا بالخليفة أبي بكر يجد نفسه « وقد جاءته وفود العرب مرتدين .. وارتدت من كل قبيلة عامة او خاصة ، الا قريشا وثقيفا .. وارتدت سائر الناس بكل مكان » [٩٢] .

---

(٩٠) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٢٥ (سنة ١١هـ) ٧
(٩١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٤٢ (سنة ١١هـ) .
(٩٢) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٤١ - ٢٤٦ .

والحق ان صمود أبي بكر أمام تلك العاصفة استرعى انتباه المعاصرين وغير المعاصرين . وفي ذلك قال ضرار بن الأزور« ما رأيت أحدا - ليس رسول الله صلى الله عليه وسلم - املأ بحرب شعواء من أبي بكر » (٩٣) . ولم يشأ أبو بكر أن ينتظر عودة أسامة وصحبه من حملتهم على الأطراف الجنوبية لبلاد الشام ، وانما شرع فورا في التخطيط لمواجهة الأزمة ، حيث ان الموقف لم يعد يحتمل أي تباطؤ ، وأخذ يتطور تطورا سريعا اتسعت فيه دائرة الخروج عن الاسلام وطاعة دولة الاسلام .

وقد اختار أبو بكر - رضي الله عنه - أن يقتفي أثر الرسول (ﷺ) في سياسته تجاه المرتدين ، فبدأ بارسال رسل اليهم يدعوهم الى التوبة والعودة الى حظيرة الطاعة . بذلك « حاربهم بما كان رسول الله (ﷺ) حاربهم بالرسل » (٩٤) وفي نفس الوقت كانت وفود المرتدين قد وصلت الى المدينة تعلن ردتها ، فنزلوا على وجوه الناس بالمدينة ، فأنزلوهم - ماخلا عباسا - فتحملوا بهم على أبي بكر ، رفض ذلك بشدة وحزم ، وردهم قائلا : « لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه » (٩٥) .

ويبدو أن وفود المرتدين عندما انقلبوا عائدين الى عشائرهم وقبائلهم ، أخبروهم بقلة أهل المدينة وخلوها من المدافعين - في غيبة أسامة ورفاقه - وأطمعوهم في الاستيلاء عليها ، ومن جهة أخرى فان أبا بكر أحس بما يتهدد المدينة - عاصمة الدولة ومثوى الرسول عليه الصلاة والسلام - من خطر ، فأقام على حراستها نفرا ، منهم : علي والزبير وطلحة وعبدالله بن مسعود ، رضي الله عنهم . ثم ان أبا بكر رأى أن يبصر أهل المدينة بحقيقة الموقف حتى يأخذوا حذرهم ويكونوا معه في الصورة ، فاجتمع معهم في المسجد ، وقال لهم « ان الارض كافرة (٩٦) ، وقد رأى وفدهم منكم قلة ، وانكم لا تدرون أليلا تؤتون أم نهارا ، وأدناهم منكم على بريد . وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم . وقد أبينا عليهم ، ونبذنا عليهم عهدهم ، فاستعدوا وأعدوا » .

وكان أن حدث ما توقعه أبو بكر ، فلم تمض ثلاثة أيام حتى طرق المرتدون المدينة ليلا ، فثبت لهم المسلمون القائمون بالحراسة ولكن يبدو ان المسلمين لم يستطيعوا ان يحرزوا نصرا سريعا على المهاجمين ، ولم يتمكنوا من ردهم على أدبارهم بسبب قلة عددهم ، الأمر الذي أطمع المرتدين ، فبعثوا الى قومهم بالخبر ، فقدموا عليهم .

وفي تلك الشدة ، أظهر أبو بكر ثباتا كبيرا ، « فبات ليلته يتهيأ ، فعبى الناس . ثم خرج على كعبية من

(٩٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٥٨ .

(٩٤) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٤٣ .

(٩٥) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ص ٢٤٤ . وقد جاء فيه أنه أراد بالعقال الحبل الذي يعقل به البعير الذي كان يؤخذ في الصدقات لأن على صاحبها التسليم . وقيل أنه أراد ما يساوي عقالا من حقوق الصدقة . وقيل أراد بالعقال صدقة العام ، يقال أخذ المصدق عقال هذا العام أي أخذ منهم صدقته .

(٩٦) أي مظلمة .

أعجاز ليله يمشي ، وعلى ميمنته النعمان بن مقرن ، وعلى ميسرته النعمان بن مقرن ، وعلى الساقة سويد بن مقرن معه الركاب » . وبنى المسلمون خطتهم على أساس مفاجأة العدو « فما سمعوا للمسلمين همسا ولا حسا حتى وضعوا فيهم السيوف » . وكانت معركة حامية ، أخذ فيها المرتدة على غرة ، بحيث ما كادت تبزغ الشمس الا وكانوا - على كثرتهم - قد ولوا الأدبار ، والمسلمون يطاردونهم . وقد ارتفعت أصواتهم بنداء « الله أكبر ... الله أكبر ... » (٩٧) .

وكانت هذه الموقعة « أول الفتح .. فذل بها المشركون .. وعز المسلمون بوقعة أبي بكر .. » ولم يسع المتمردون ازاء تلك الصدمة سوى الانتقام ممن كان فيهم من المسلمين ، فوثب عليهم ذبيان وعبس « فقتلوهم كل قتلة » ولما سمع أبو بكر ذلك ، حلف ليقتلن في المشركين كل قتلة ، وليقتلن في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة (٩٨) .

وكان لانتصار المسلمين ، وبخاصة في انقاذ مدينة رسول الله (ﷺ) من خطر المشركين رد فعل واضح ، سواء في صفوف المسلمين ، أو في صفوف أعدائهم « فازداد المسلمون ثباتا على دينهم في كل قبيلة ، وازداد المشركون انعكاسا من أمرهم في كل قبيلة » . ولا أدل على صدى هذا النصر من أن بعض القبائل والعشائر سارعت الى ارسال الزكاة الواجبة عليها الى المدينة ، مثل صفوان والزبرقان وعدي (٩٩) .

ولم تكد تمر أيام على هذا النصر حتى وصل أسامة بن زيد عائدا من حملته الناجحة التي استغرقت قرابة سبعين يوما ، أغار فيها على المستقين ، وعاقب بني الضبيب من جذام وبني ضليل من لخم . فلما وصل أسامة بن زيد استخلفه أبو بكر على المدينة - ويقال استخلف سنانا الضمري - وخرج هو لقتال المرتدين ، فالتقى بالابرق ببني عبس وذبيان وجماعة من بني عبد مناة بن كنانة ، فحلت بهم الهزيمة ، ثم رجع أبو بكر الى المدينة .

ويلاحظ أن أبا بكر لم يشأ أن يشن هجومه الشامل على المرتدين الا بعد أن يستجم جند أسامة ، ويستريحوا من عناء الحملة التي قاموا بها على جنوب الشام ، « فلما أراح أسامة وجنده ظهرهم وحجوا » خرج أبو بكر على رأس الجند الى ذي القصة - وهو موضع على بعد بريد من المدينة تجاه نجد - وهناك « قطع الجند وعقد الألوية » . وقد عقد الخليفة أحد عشر لواءا من المسلمين من أهل القوة ، وحدد لكل منهم وجهته وخطته وهدفه على النحو التالي (١٠٠) :

(٩٧) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٩٨) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٤٧ .

(٩٩) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٤٦ .

(١٠٠) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٤٨ .

١ - عقد لخالد بن الوليد ، وأمّره بطليحة بن خويلد ، فاذا فرغ سار الى مالك بن نويرة بالبطاح ، ان أقام له .

٢ - وعقد لعكرمة بن أبي جهل ، وأمره بمسيلمة .

٣ - وللمهاجر بن أبي أمية ، وأمره بجنود العنسي ، ومعونة الابناء على قيس بن المكشوح ، ومن أعانه من أهل اليمن عليهم ، ثم يمضي الى كنده بحضرموت .

٤ - ولخالد بن سعد بن العاص ، وكان قد قدم على حين ذلك فترك عمله [١٠٦] وبعثه على الحمقتين من مشارف الشام .

٥ - ولعمرو بن العاص الى جماع قضاعة ووديعة والحارث .

٦ - ولحذيفة بن محصن الغلفاني وأمره بأهل دبا .

٧ - ولعرفجة بن هرثمة ، وأمره بمهرة .

٨ - وبعث شرحبيل بن حسنة في أثر عكرمة بن أبي جهل ، وقال : اذا فرغ من اليمامة فالحق بقضاعة ، وأنت على خيلك تقاتل أهل الردة .

٩ - والطريفة بن حاجز ، وأمره ببني سليم ، ومن معهم من هوازن .

١٠ - ولسويد بن مقرن ، وأمره بتهامة اليمن .

١١ - ولعلاء بن الحضرمي ، وأمره بالبحرين .

وبدراسة التوزيع السابق للحملات التي نظمها الخليفة أبو بكر ضد المرتدين ، يمكننا أن نخرج بالحقائق الآتية :

أولا : مدى خطورة الموقف عندئذ بالنسبة للاسلام والدولة الاسلامية . فالخارجون على الدين والدولة انتشروا من مشارف الشام شمالا حتى حضرموت ومهرة واليمن وبحرها جنوبا . ومن البحرين وعمان والخليج شرقا حتى شاطىء البحر الأحمر غربا . ناهينا بالقبائل التي ارتدت في قلب شبه الجزيرة العربية - مثل غطفان وعبس وذبيان ، والقبائل الضاربة في نجد . بل ان بعض القبائل على مشارف الحجاز - مثل هوازن - وعلى أبواب المدينة عاصمة الدولة - مثل بني سليم - أعلنت خروجها وردتها .

وهكذا ولي أبو بكر منصب الخلافة في وقت بدا أن البناء الكبير الذي أقامه الرسول (ﷺ) قد أخذ يترنح ،

(١٠٦) كان الرسول (ﷺ) قد أرسل في سنة عشرة الهجرية خالد بن سعيد بن العاص - صحبة فروة بن مسيك المرادي - على مراد وزبيد ومذحج كلها ، فكان على الصدقات الى أن توفي الرسول (ابن الاثير ، الكامل ، ج ٢ ص ٢٦٦ - ٢٦٧) .

وكأن القبائل العربية في شتى انحاء شبه الجزيرة كانت على موعد ، لتعلن النكوص على أعقابها ، والخروج على طاعة الحكومة الاسلامية بالمدينة .

ثانيا : يصور لنا هذا الوضع عظم المسئولية التي ألقيت على كاهل أبي بكر ، والجهد الكبير الذي بذله - هو ومن التف حوله من كبار الصحابة - لانقاذ الموقف . لقد كان عليهم النهوض بعقيدة الاسلام من الكبوة التي ألمت بها ، واحياء شعائر دين الله وتثبيت أوتاده ، واعادة فتح الأبواب ، واعلاء سلطة الدولة بعد أن زعزع المتمردون أركانها .

ثالثا : كان المؤمنون في ذلك الدور يمثلون قلة عددية ، عليها أن تواجه الاكثرية الساحقة من الخارجين والمرتدين وغير الثابتين على الاسلام . لذا لم يكن أمام المؤمنين سوى سلاح الاعتماد على الله وعلى النفس ، ايمانا بقوله تعالى « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » وعلى رأس كل مجموعة من هذه القلة المؤمنة ، جعل أبو بكر اللواء لأحد الصحابة المعروفين بحسن البلاء .

هذا وقد تمسك أبو بكر في مواجهة المرتدين بمبادىء ثابتة لا يحيد عنها ، أهمها :

١ - عدم التفريط أو التساهل في تطبيق أي ركن من أركان الاسلام ، أو المقايضة والمساومة على أسس الدين .

٢ - دعم الروح المعنوية عند المسلمين بتذكيرهم بأحكام القرآن الكريم ، وما بشر الله به المجاهدين والصابرين من أجر وحسن ثواب ، والتماس الأسوة الحسنة من سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام .

٣ - كسب تأييد القلة التي مازالت على اسلامها أو على شيء من اسلامها ، وانعاش بذور الاسلام في قلوب افرادها لتكون عونا لجيوش المجاهدين ضد أعداء الاسلام .

٤ - التمسك بسياسة الحزم تجاه المشركين . حقيقة ان أبا بكر حرص على أن يدعوهم الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وحاول في جميع الحالات أن يبدأ اقناعهم بالعودة الى دائرة الاسلام . ولكنه في حالة اصرارهم على موقفهم وعدم استجابتهم لداعي الحق « حلف ليقتلن في المشركين كل قتلة » . ولم تلبث سياسة الحزم هذه أن أتت أكلها « فازداد المسلمون لها ثباتا على دينهم في كل قبيلة ، وازداد المشركون انعكاسا من أمرهم في كل قبيلة » [١٠٢] .

أما الخطة التي وضعها أبو بكر والاستراتيجية التي أتبعها في التصدي للمرتدين ، فقد قامت على عدة أركان أهمها :

أ - اذا كان أبو بكر قد أنفذ أحد عشر جيشا لمحاربة المرتدين ، فان استراتيجيته تضمنت أحكام التعاون بين هذه الجيوش جميعا ، بحيث لا تعمل كأنها جيوش منفصلة تحت قيادات مستقلة ، وانما هي - رغم تباعد المكان -

(١٠٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

جهاز واحد ، قد تلتقي - أو يلتقي بعضها ببعض - لتفترق ، ثم تفترق لتلتقي . وكان ذلك في الوقت الذي بقي أبو بكر في مقره بالمدينة ، متخذا منها ما يشبه غرفة العمليات التي يدير منها حركة العمليات الحربية ضد المرتدين . مثال ذلك أن أبا بكر عندما أرسل خالدا لمحاربة طليحة « أمره أن يبدأ بطيء على الاكناف ، ثم يكون وجهه على البذاخة ، ثم يثلث بالبطاح . ولا يريم اذا فرغ من قوم ، حتى يحدث اليه ويأمره بذلك » ؟

ب - عندما أرسل أبو بكر جيوشه الاحد عشر الى مختلف أنحاء شبه الجزيرة لمحاربة المرتدين ، احتفظ في المدينة بقوة تحمي قلب الدولة ، وبعدد من كبار الصحابة يستشيرهم ويشاركونه في توجيه سياسة الدولة في تلك الفترة العصيبة ، وذلك تمشيا مع مبادىء الاسلام في الشورى وعدم الاستبداد بالرأي . وهذا هو السر في عدم ظهور أسماء بعض اللامعين من كبار الصحابة في الجيوش التي وجهها أبو بكر ضد الخارجين والمرتدين .

ج - أدرك أبو بكر أن هناك جيوشا من المسلمين داخل المناطق التي شملتها حركة العصيان والردة . وقد حرص أبو بكر على هؤلاء المسلمين من أن يتعرضوا لنقمة تيار الشرك الذي أحاط بهم . ولذا فانه أمر قادة الجند باستنفار من يرون بهم من أهل القوة من المسلمين من جهة ، وبضرورة « تخلف بعض أهل القوة لمنع بلادهم من جهة أخرى »[١٠٣] .

د - الحرب خدعة . طبق أبو بكر هذا المبدأ في خطته التي وضعها لضرب الخارجين والمرتدين ، فعمل على خديعتهم والتظاهر بأن جيوش المسلمين تنوي شيئا ، وهي في حقيقة الأمر تستهدف شيئا آخر . من ذلك أن أبا بكر عندما بعث خالدا لقتال المرتدين ، فانه أظهر « أنه خارج الى خيبر ، ومنصب عليه منها حتى يلاقيه بالاكناف ، اكناف سلمى » . أما خالد فقد أظهر أنه خارج الى خيبر - لملاقاة أبي بكر ومن معه - ثم منصب عليهم . وانجلت هذه الخدعة على طيء « فقعد ذلك طيئا وبطأهم عن طليحة »[١٠٤] .

●●●

وخير ما يوضح سياسة أبي بكر تجاه المرتدين ، ويلقي أضواء على الخطة التي وضعها لمواجهة حركتهم ، ذلك الكتاب الذي بعث به الى عرب شبه الجزيرة ، وخاصة القبائل التي أعلنت عصيانها وردتها ، وهو كتاب واحد أرسله اليهم جميعا بنفس الصيغة [١٠٥] ونظرا لأهمية هذا الكتاب - حيث أنه يعكس سياسة أبي بكر والاسلوب الذي اتبعه لمواجهة هذه الفتنة - فاننا سنعمد في دراستنا له الى تقسيمه الى فقرات تتناول كلا منها بالشرح والتعليق :

---

(١٠٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٤٨
(١٠٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٥٣ .
(١٠٥) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٥٠ - ٢٥١

أولاً : « بسم الله الرحمن الرحيم . من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة ، أقام على اسلامه او رجع عنه . سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى الى الضلالة والعمى . فاني أحمد اليكم الله الذي لا اله الا هو . وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله . نقر بما جاء به ، ونكفر من أبى ونجاهده » .

نخرج من هذه الفقرة بما يلي :

١ - حرص أبو بكر على أن يبدأ خطابه باسم الله ، وأن يوضح صفته التي يخاطب بها الناس ويتعامل معهم بمقتضاها . انه خليفة رسول الله ، بمعنى أن منزلته من الأمة كمنزلة الرسول (ﷺ) له عليهم ما للرسول (ﷺ) من الولاية العامة والطاعة التامة ، والقيام على شئون دينهم ودنياهم .

٢ - وبخلاف ما ذكرته المصادر من أن أبا بكر وجه كتابه هذا الى « قبائل العرب المرتدة »[١٠٦] فاننا نلمس في افتتاحية هذا الكتاب أنه حرص على توجيه هذا الكتاب « الى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة ، أقام على اسلامه أو رجع عنه » . بمعنى هذا أنه أراد بكتابه أن يكون بيانا للناس جميعا ، سواء من بقي على الطاعة أو خرج عنها . وبعبارة أخرى أنه استهدف من هذا الكتاب أن يكون نذيرا للخارجين ، في حين يتخذ من الذين أقاموا على اسلامهم شهداء عليهم .

٣ - وبعد أن يوجه خطابه الى الجميع ، انما يخص بتحية الاسلام - بالسلام - من اتبع الهدى فقط ، أي من آمن بالاسلام وثبت عليه ولم يرجع الى الضلالة . أما غيرهم من المرتدين والخارجين فلا سلام عليهم . ويذكر الجميع بشعار الاسلام وأول ركن من أركانه ، وهو شهادة أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله .

٤ - وفي ختام هذه المقدمة يعلن أبو بكر اقراره بكل ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ، وتكفيره لكل من ينكر ذلك ، ويتعهد بجهاد الكفار .

ثانيا : أما بعد ، فان الله تعالى أرسل محمدا بالحق من عنده الى خلقه بشيرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، لينذر من كان حيا ، ويحق القول على الكافرين . فهدى الله بالحق من أجاب اليه . وضرب رسول الله (ﷺ) - باذنه - من أدبر عنه ، حتى صار الى الاسلام طوعا وكرها .

انتقل ابو بكر في هذه المقدمة الى توضيح هذه الرسالة المحمدية ثم بيان الاسلوب الذي اتخذه النبي (ﷺ) لتحقيق هذا الهدف « لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين » ثم حرص أبو بكر على أن يذكر الجميع بأن

(١٠٦) الطبري - تاريخ الرسل والملوك - ج ٣ ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

الرسول (ﷺ) اتبع الحزم في سياسته تجاه المشركين والكفار فضرب من أدبر وتولى ، حتى دخل الجميع في الاسلام « طوعا وكرها » .

ثالثا : « ثم توفى الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد نفذ لأمر الله ، ونصح لأمته ، وقضى الذي عليه . وكان الله قد بين له ذلك - ولأهل الاسلام - في الكتاب الذي أنزل فقال « انك ميت وانهم ميتون » (١٠٧) وقال « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون » (١٠٨) وقال للمؤمنين « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكرين » (١٠٩) فمن كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله وحده لا شريك له ، فان الله له بالمرصاد ، حي قيوم لا يموت ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ، حافظ لأمره ، منتقم من عدوه يجزيه » .

من الواضح أن أبا بكر أراد بهذه الفقرة من كتابه أن يرد على ذلك الفريق الذي عجب لموت الرسول (ﷺ) فيذكرهم بما جاء في كتاب الله من أن محمدا بشر ، يجري عليه ما يجري على سائر البشر من حياة او موت . وتخصيص فقرة طويلة من كتاب أبي بكر لهذه المسألة بالذات ، يعكس ما كان للأمر من أهمية في تفكير المعاصرين ، وفي ادعاءات الخارجين والمرتدين بالذات . من ذلك أنه عندما ذاع خبر وفاة الرسول (ﷺ) قام عيينه بن حصن في غطفان وقال « وقد مات محمد وبقي طليحة » (١١٠) أما عبد قيس بالبحرين فقد قالت عندما ارتدت وسمعت بموت النبي (ﷺ) « لو كان محمد نبيا لما مات » (١١١) وهذان المثلان قليل من كثير .

وفي الوقت الذي أوضح أبو بكر صفة محمد - عليه الصلاة والسلام - البشرية ، أبرز قدرة الله عز وجل ، وأنه حي لا يموت ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، يجزي الصادقين بصدقهم ، ويجزي الذين أساءوا بما عملوا .

رابعا : وأني أوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم من الله . وما جاءكم به نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وأن تهتدوا بهداه ، وأن تعتصموا بدين الله . فان كل من لم يهده الله ضال ، وكل من لم يعافه مبتلى . وكل من لم يعنه الله مخذول . فمن هداه الله كان مهتديا ، ومن أضله كان ضالا . قال الله تعالى « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا » (١١٢) ولم يقبل منه في الدنيا عمل حتى يقربه ، ولم يقبل منه في الآخرة صرف ولا عدل » .

---

(١٠٧) سورة الزمر ، ٣٠

(١٠٨) سورة الانبياء ، ٣٤

(١٠٩) سورة آل عمران ، ١٤٤ .

(١١٠) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٥٧ .

(١١١) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٣٠٦

(١١٢) سورة الكهف ، ١٧ .

وفي هذه الفقرة ينتقل أبو بكر في كتابه بشيء من المنطق الهادىء المقنع الى تقديم النصح للناس بتقوى الله واتباع ما جاء به رسوله عليه الصلاة والسلام ، والاعتصام بدينه . وهو في خلال ذلك يبشر المهتدين بثواب الله ويحذر الضالين من عذابه . وهكذا فانه أوضح أن الأمر كله لله ، من ثواب وعقاب .

خامسا : « وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالاسلام وعمل به ، اغترارا بالله وجهالة بأمره ، واجابة للشيطان . قال الله تعالى « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ، ففسق عن أمر ربه ، افتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو ، بئس للظالمين بدلا » [١١٣] وقال « ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » .

في هذه الفقرة اقترب أبو بكر في خطابه من صلب الموضوع ، فأشار الى ما بلغه من ردة بعضهم عن الاسلام وخروجهم عن طاعة الله . وأوضح لهم أن هذا من عمل الشيطان ، وحذرهم من المصير الذي ينتظر أولياء الشيطان وحزبه .

سادسا : « واني بعثت اليكم فلانا في جيش من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان . وأمرته ألا يقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله ، فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا ، قبل منه وأعانه عليه . ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ، ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه . وان يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة . وأن يسبي النساء والذراري ولا يقبل من أحد الا الاسلام ، فمن اتبعه فهو خير له ، ومن تركه فلن يعجز الله » .

بعد أن أوضح أبو بكر في الفقرات السابقة حكم الله في الضالين ، وأظهر أبعاد الأمانة الملقاة على عاتقه بوصفه خليفة رسول الله (ﷺ) في « حراسة الدين وسياسة الدنيا به » على قول ابن خلدون [١١٥] كشف النقاب في هذه الفقرة عن خطته العامة تجاه الخارجين والمرتدين . وتقوم هذه الخطة على أساس دعوتهم بالحسنى الى داعية الله ، فان استجابوا قبلت توبتهم ، ومن لم يستجب ليست له الا الحرمة بالنار والقتل بالسيف ، وسبي النساء والذراري .

وهذه السياسة هي التي أخذت بها أئمة الفقهاء ، اذ أجمع جمهورهم على ضرورة امهال من يرتد عن الاسلام ثلاثة أيام بلياليها ، يستتاب فيها ، ويدعى الى الاسلام « بلا جوع ولا عطش ، بل يطعم ويسقي من ماله وبلا معاقبة » لأنه ربما قد دخلت عليه شبهه ارتد لأجلها . ولذا وجب أن يستمهل ليفكر ما قد يؤدي الى زوال

---

(١١٣) سورة الكهف ، ٥٠

(١١٤) سورة فاطر ٦

(١١٥) المقدمة ، ص ١٦٦

الشبهة . فاذا انقضت هذه المهلة ، ولم يهتد الى الحق وجب قتله ، لأن بقاءه يشكل فتنة تصيب الاسلام وتهدد كيان المسلمين (١١٦) .

سابعا : وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم . والداعية لأذان . فاذا أذن المسلمون فأذنوا ، كفوا عنهم . وان لم يؤذنوا عاجلوهم .. وان أذنوا اسألوهم ما عليهم ، فان أبوا عاجلوهم ، وان أقروا قبل منهم . وحملهم ما ينبغي لهم ....» .

وأخيرا اختتم أبو بكر كتابه بأن حدد أسلوب التفاهم والتوصل الى قرار لحسم الموقف مع المرتدين ، اما السلم واما الحرب ، وقد جعل أبو بكر من الاذان علامة للاستجابة والرضوخ واعلان التوبة والدخول في طاعة الله . فاذا أذن المسلمون من جانبهم ، وجب على الطرف الآخر أن يؤذنوا ، فيكون ذلك اعلانا لشهادتهم بأن لا اله الا الله وبأن محمدا رسول الله . وفي هذه الحالة يكف المسلمون عنهم . فاذا لم يجب المرتدون بالأذان ، اعتبر ذلك اصرارا منهم على موقفهم في الخروج من الاسلام .

على أن الاستجابة بترديد الأذان ينبغي أن تأتي مشفوعة باقامة ركن آخر من أركان الدين ، هو ايتاء الزكاة . وقد سبق أن أشرنا الى أن موضوع الزكاة كان مثار جدل كبير في حركة الردة ، وسببا أساسيا في خروجهم . لذا احتاط أبو بكر لهذا الأمر ، واعتبر الأذان وحده غير كاف لاعلان الامتثال والطاعة ، وانما اشترط ايتاء الزكاة ، وهو ما عبر عنه بعبارة « وان أذنوا اسئلوهم ما عليهم فان أبوا عاجلوهم » . ويعني ذلك أنهم اذا امتنعوا عن دفع ما وجب عليهم من زكاة ، وجب قتالهم دون ابطاء .

●●●

هذا وقد حرص أبو بكر على أن يصل كتابه السابق الى القبائل قبل وصول جنده اليها . ويتضح ذلك من عبارة ذكرها الطبري نصها « فنفذت الرسل بالكتب أمام الجنود » (١١٧) .

ثم ان خليفة رسول الله (ﷺ) لم ينس أن يزود أمراء الجند بعهد يوصيهم فيه بمهامهم ويحدد لهم اطار عملهم ، ويرسم لهم أسلوب ذلك العمل . وفيما يلي نص عهد أبي بكر لأمراء الجند :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله (ﷺ) لفلان ، حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الاسلام ، وعهد اليه أن يتقي الله ما استطاع من أمره كله ، سره وعلانيته ، وأمره بالجد في أمر الله ؛ ومجاهدة من تولى عنه ، ورجع عن الاسلام الى أماني الشيطان . بعد أن يعذر اليهم ، فيدعوهم بداعية

(١١٦) الدردير . الشرح الكبير - باب الردة ، ج ٢ ص ٣٢٠ (طبعة بولاق ١٣١٩هـ) وحاشية الدسوقي - ج ٤ ص ٣٦٧ .

(١١٧) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٢ ص ٢٥١

الاسلام . فان أجابوه أمسك عنهم . وان لم يجيبوه شن غاراته حتى يقروا له . ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم . فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم . لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم . فمن أجاب الى أمر الله عز وجل وأقر له . قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف . وانما يقاتل من كفر بالله على الاقرار بما جاء من عند الله . فاذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل . وكان الله حسيبه فيما استسر به . ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان . وحيث بلغ مراغمه . لا يقبل من أحد شيئا أعطاه الاسلام . فمن أجابه وأقره قبل منه وعلمه . ومن أبى قاتله . فان أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران . ثم قسم ما أفاء الله عليه . الا الخمس فانه يبلغناه . وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد . وألا يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم . لا يكونوا عيونا . ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم . وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم . ولا يعجل بعضهم عن بعض . ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول »(١١٨) .

ونرى أن هذا العهد يتفق مع ما هو معروف من وصايا دأب الرسول (ﷺ) - ومن بعده الخلفاء - على تزويد أمراء الجند بها عند خروجهم للجهاد . وتضم طرفا من آداب الاسلام في الجهاد .

وفي هذا العهد نجد الخليفة أبا بكر يوصي أمراء الجند بتقوى الله في السر والعلن . والجد في أمر الله وفي مجاهدة من تولى ورجع عن الاسلام . وألا يحملوا الناس الا ما يجب عليهم . في حدود ما أمر به الاسلام . مع مراعاة تجنب كل من يستجيب لداعية الله . اما من لم يجب فينبغي أن يقاتل ويقتل دون رحمة أو هوادة . ويذكر أبو بكر أمراء الجيش بحكم الله عز وجل في الغنيمة . وفقا لقوله تعالى « واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل »(١١٩)

وفي جميع الحالات ينبغي على أمير الجيش أن يأخذ حذره من العدو . ومن عساه يندس في جيشه من عيون العدو وجواسيسه . وأن يمنع رجاله من الفساد . وأن يعتني بأمر جنده فلا يحملهم فوق طاقتهم . ويرفق بهم في الصحبة والقول .

وفي ضوء هذه التوجيهات . خرجت الجيوش الاسلامية الأحد عشر للقضاء على أفدح الأخطار التي واجهت الاسلام ودولته في المهد . ولا شك في أن جيوش المسلمين كانت تمثل قلة عددية اذا قورنت بجموع المرتدين . بعد أن اتسعت حركتهم حتى استوعبت غالبية قبائل شبه الجزيرة العربية . ولكن المسلمين تسلحوا بسلاح الايمان . وهو سلاح قوي افتقر اليه خصومهم . واستمدوا الثقة من قوله تعالى « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله »(١٢٠) .

---

(١١٨) الطبري . تاريخ الرسل والملوك . ج ٣ ص ٥١ - ٢٥٢ .

(١١٩) سورة الانفال ، ٤١

(١٢٠) سورة البقرة ، ٢٤٩

ومن بين أمراء الجيوش الاسلامية الذين أبلوا بلاءا حسنا في تلك المعركة المصيرية ، برز اسم خالد بن الوليد بوصفه الرجل الذي تحمل العبء الاكبر في اخماد الفتنة [١٢١] . وكان الخليفة أبو بكر قد أمر خالدا « أن يبدأ بطيء » ولكن عديا بن حاتم الذي كان أبو بكر قد بعثه قبل خالد الى طيء استطاع أن يؤثر عليهم ، مستخدما في ذلك أسلوبا يجمع بين الترغيب والتهديد . ذلك أنهم رفضوا الاستجابة له في أول الأمر ، وقالوا « لا نبايع أبا الفيصل أبدا » وعندئذ أنذرهم عدي ، وقال لهم « لقد أتاكم قوم ليبيحن حريمكم ، ولتكنته بالفحل الاكبر ، فشأنكم به » . وعندئذ خافوا ورضخوا ، وطلبوا امهالهم حتى يستعيدوا من عند طليحة رجالهم ، والا قتلهم . وكان أن أسرع عدي الى استقبال خالد - وهو في طريقه اليهم - وطلب منه امهالهم وعدم التسرع بالوثوب عليهم ، حتى تم الأمر وعادت طيء الى الاسلام . وعندما اتجه خالد يريد جديلة ، استمهله عدي بن حاتم مرة اخرى ، وأسرع اليهم يدعوهم الى الاسلام فأجابوه ، وانضم الى جيش المسلمين منهم ألف راكب « فكان خير مولود ولد في أرض طيء وأعظمه بركة عليهم » [١٢٢] .

وسرعان ما غدت طيء قوة للمسلمين في حربهم ضد المرتدين ، وخاصة طليحة وأتباعه . ويقال أن خالدا عندما أقترب من طليحة بعث عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم ، طليعة ، أي لاستطلاع أخبار العدو ، فظفر بهما طليحة وقومه وقتلاهما . وكان أن جزع خالد ورجاله عندما مروا ورأوا ثابت بن أقرم قتيلا ، وعكاشة بن محصن صريعا ، وقالوا « قتل سيدان من سادات المسلمين وفارسان من فرسانهم » . ولما لمس خالد ما حل بأصحابه من جزع ، حاول أن يخفف عنهم ويبعث الطمأنينة في نفوسهم ، فقال لهم « هل لكم الى أن أميل بكم الى حي من أحياء العرب كثير عددهم ، شديدة شوكتهم ، لم يرتد منهم عن الاسلام أحد ؟ » . فقال له رجاله « ومن هذا الحي تعني ؟ فنعم والله الحي هو » . قال لهم « طيء » فقالوا « وفقك الله . نعم الرأي رأيت » فانصرف بهم حتى نزل بالجيش في طيء .

ونخرج من هذه القصة بحقيقة هي أن بعض القبائل التي اعتبرها التاريخ مرتدة - مثل طيء - كانت في حقيقة الأمر ضحية مزيج من عدة أحاسيس ومشاعر ، تفاعلت في نفوس أبنائها نتيجة عدم تغلغل العقيدة الاسلامية ، في قلوبهم من ناحية ، واستمرار وقوعهم تحت تأثير أوضاع الجاهلية وأفكارها من ناحية ثانية ، وارتباطهم بروابط الأحلاف والمجاملة وحسن الجوار مع القبائل الأخرى من جهة ثالثة . هذا فضلا عما رأوه في بعض أحكام الاسلام من تضييق على حريتهم وانتقاص من سطوتهم وتحميلهم أعباء ، هم في غنى عن تحملها . ومثل هؤلاء كانوا في حاجة الى مزيد من الاقناع بالحكمة والموعظة الحسنة ، والتعريف بأحكام الاسلام وأهدافه ، والتبصرة بمزايا الحياة الجديدة تحت مظلة الاسلام . وهذا ما كان يتعذر تحقيقه في بضع سنين .

---

(١٢١) انظر ترجمته في كتاب (أسد الغابة في معرفة الصحابة) لابن الاثير ج ٢ ص ١٠٩ - ١١٢ ، ترجمة رقم ١٣٩٩ (طبعة كتاب الشعب بالقاهرة) .
(١٢٢) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٥٤

ومهما يكن من أمر، فان الهزيمة حلت بالمرتدين - فريقا بعد آخر - وذلك في مدى أشهر قليلة . أما طليحة فقد انكسر في موقعة بزاخة ، ففر الى الشام مصطحبا امرأته ، وقال لاتباعه « من استطاع أن يفعل مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل » . ولم يلبث أن خضع من كان قد انضم اليه من فزارة وعبيته وأسد وغطفان ، ومن ارتد من طيء ، وقالوا « ندخل فيما خرجنا منه ، ونؤمن بالله ورسوله ، ونسلم لحكمه في أموالنا وأنفسنا » [١٢٣] .

ويروي الطبري أن طليحة مضى حتى نزل كلب على النقع ، فأسلم . وكان اسلامه هنالك حين بلغه أن أسدا وغطفان وعامرا قد أسلموا ، ثم خرج نحو مكة معتمرا في امارة أبي بكر ، ومر بجنبات المدينة ، فقيل لابي بكر « هذا طليحة » . فقال « ما اصنع به ! خلوا عنه ، فقد هداه الله للاسلام » . ومضى طليحة نحو مكة فقضى عمرته . ولما مات أبو بكر واستخلف عمر ، أتى طليحة لبيعة عمر ، فقال له عمر « أنت قاتل عكاشة وثابت ! والله لا أحبك أبدا » . فقال « يا أمير المؤمنين ، ما ترى من رجلين أكرمهما الله بيدي ! ولم يهني بأيديهما » . فبايعه عمر ، ثم قال له « يا خدع ، ما بقي من كهانتك ؟ » قال « نفخة أو نفختان بالكير » . ثم رجع الى دار قومه حتى خرج الى العراق » [١٢٤] .

وبعد أن حلت الهزيمة بأهل بزاخة ، أقبلت بنو عامر يقولون « ندخل فيما خرجنا منه » . فبايعهم خالد بن الوليد على ما بايع عليه أهل البزاخة . ولم يقبل من أحد من أسد ولا غطفان ولا هوازن ولا سليم ولا طيء ، الا أن يأتوه بالذين حرقوا وعدوا على أهل الاسلام في حال ردتهم . وعندما أتوا بهم ، أمر خالد باحراقهم بالنيران ، ورضخهم بالحجارة ورمى بهم في الجبال ، ونكسهم في الآبار... وكتب خالد الى أبي بكر بذلك ، فأرسل اليه خليفة رسول الله (ﷺ) يقول « جد في أمر الله ننله وتكلت به غيره » . فأقام خالد على البذاخة شهرا في طلب أولئك « فمنهم من أحرق ومنهم قمطه ورضخه بالحجارة ، ومنهم من رمى به من رؤوس الجبال » [١٢٥] .

وسرعان ما تجمعت فلال غطفان وهوازن وسليم وطيء وغيرهم من المنهزمين ، والتفوا في ظفر حول سلمى ابنة مالك بن حذيفة بن بدر ، التي « استكشف أمرها وغلظ شأنها » . وأمرتهم بحرب خالد . ولكن خالد بن الوليد سار اليها ، وقاتلها بمن معه من المسلمين قتالا شديدا حتى سقطت قتيلة ، ومن حولها مائة رجل من أتباعها .

وأما سجاح بنت حارث التي تنبأت بعد موت الرسول (ﷺ) فقد خرجت في جماعة من قومها بني تغلب بالجزيرة ، واتجهت الى اليمامة حيث كان مسيلمة الكذاب قد قوي أمره ، فتزوج منها ، وصالحها على أن يحمل اليها النصف من غلات اليمامة ، وطلب منها أن تنصرف ، فانصرفت الى مقرها بالجزيرة . ويقال انها ظلت هناك في بني تغلب حتى كان عام الجماعة ، فنقلهم معاوية من الجزيرة الى الكوفة ، فجاءت معهم سجاح « وحسن اسلامها » [١٢٦] .

(١٢٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٥٦ .
(١٢٤) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٦١
(١٢٥) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .
(١٢٦) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٧٥ .

وأما مسيلمة ، فقد وجه أبو بكر خالد بن الوليد اليه ، فأنزل به وبجماعته الهزيمة في يوم عقرباء ، وقتل مسيلمة . وقد أظهر خالد في ذلك اليوم من الشجاعة ما سجلته الأخبار ، فكان ينادي وسط المعركة « يامحمداه » . وكان لا يبرز له أحد من العدو الا قتله [١٢٧] وقيل انه قتل من بني حنيفة في عقرباء بضعة آلاف [١٢٨] .

وهكذا كانت المعركة بين خالد بن الوليد من ناحية ، والمرتدين من ناحية أخرى عنيفة ضارية . أظهر فيها من الحزم والجدية ما خلد أسمه ، وجعل « له في قتالهم الاثر العظيم » . ذلك أنه أدرك أن المعركة بالنسبة للاسلام والمسلمين هي معركة حياة أو موت ، فلم يتردد في موقف من المواقف ، ولم يستسلم للشكوك والظنون ، وانما جعل من نفسه سيفا مسلولا ضد أعداء الاسلام والخارجين عليه . على أن يبدو أن افراطه في الحزم وحرصه على حسم الموقف ، أوقعه أحيانا في بعض الحرج ، من ذلك أنه قتل مالك بن نويرة في بني يربوع من تميم ، فقال بعضهم انه قتل مسلما لظن ظنه خالد به وكلام سمعه عنه . ومن هؤلاء كان أبو قتادة الذي أنكر على خالد ذلك ، وأقسم أنه لا يقاتل تحت رايته .

ويقال ان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنكر ذلك على خالد [١٢٩] ولكن علينا أن نقدر خطورة الموقف ، وظروف المعركة ، وثقل الامانة التي ألقيت على كاهله ، وما كان مطالبا به من حسم للأمر في سرعة وحزم .

وفي ذلك الوقت كان أهل البحرين قد ارتدوا عن الاسلام بعد وفاة النبي ، وقالوا « لو كان محمد نبيا لم يمت » . ولكن الجارود بن المعلى العبدي نصحهم وأوضح لهم أن محمدا (ﷺ) مات مثلما مات غيره من الأنبياء السابقين . فاقتنع بكلامه عبد القيس ، من بني بكر ووائل أحاطوا بالمسلمين وحاصروهم ، حتى بعث اليهم أبو بكر العلاء بن الحضرمي ، وأمره بقتال أهل الردة بالبحرين . ويقال ان المسلمين سمعوا ضجة في معسكر المشركين ، فدسوا فيهم من يتعرف خبرهم ، فأخبرهم أن القوم سكارى . وعندئذ « خرج المسلمون عليهم ، فوضعوا فيهم السيف كيف شاؤوا وهرب الكفار ، فمن بين متردد وناج ومقتول ومأسور . واستولى المسلمون على المعسكر ، ولم يفلت رجل الا بما عليه » .

ومثل هذا يقال عن نجاح الجيوش التي أرسلها أبو بكر للقضاء على ردة أهل عمان ومهرة وحضرموت وكندة . أما اليمن فيبدو أن الأحوال لم تهدأ بها تماما ، وأن بعض القبائل بها قد ارتدت ثانية ، ومنهم قيس بن عبد يغوث المكشوح . ولكن فيروز تصدى للمرتدين ، كما قدم المهاجرين أمية في جمع من مكة والطائف ، فقبض على قيس وأرسله الى أبي بكر ، وانتهى الأمر باخضاع المرتدين باليمن [١٣٠] .

●●●

(١٢٧) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٩٣ .
(١٢٨) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٢٩٧ .
(١٢٩) ابن الاثير . أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ج ٢ ص ١٠٩ - ١١٢ ترجمة خالد بن الوليد (رقم ١٣٩٩) .
(١٣٠) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٣٢٣ وما بعدها .

وهكذا تم للدولة الاسلامية في عهد أبي بكر التغلب على أكبر خطر هددها ، وهي بعد في المهد . وتجمع معظم الروايات على أن الفتوح في أهل الردة كانت كلها في سنة احدى عشرة ، الا أمر ربيعة بن بجير - في الحيرة جنوب الفرات - فانه كان في سنة ثلاث عشرة [١٣١] .

وتظهر مهارة الخليفة أبي بكر - رضي الله عنه - في أنه حرص على ألا يعطي القبائل العربية فرصة لالتقاط أنفاسها وتبديد طاقتها في مشاكل داخلية تؤثر على مسيرة الاسلام والدولة الاسلامية ، وانما اختار أن يوجه امكانات العرب المسلمين في شبه الجزيرة نحو حركة الفتوح - خارج شبه الجزيرة - بغية شق طريق لايصال الدعوة الاسلامية الى اسماع الشعوب المجاورة ، وتحطيم الحكومات التي شكلت حواجز أمام انتشار هذه الدعوة .

يروي الطبري أنه ما كاد خالد بن الوليد يفرغ من أمر اليمامة حتى كتب اليه أبو بكر الصديق - وهو لا يزال مقيما باليمامة - يقول له « سر الى العراق حتى تدخلها ، وابدأ بفرج الهند - وهي الأبلة - وتألف أهل فارس ، ومن كان في ملكهم من الأمم » . وسواء كان خالد بن الوليد قد مضى من اليمامة الى العراق مباشرة ، أو أنه اتجه الى المدينة ، ومنها سار الى العراق حتى انتهى الى الحيرة حسب اختلاف الروايات [١٣٢] فالذي يعنينا من هذا الأمر أن ذلك حدث سنة اثنتي عشرة للهجرة ، أي عندما تم اخماد جذوة حركة الردة ، بل ربما قبل أن تخمد تماما آخر بقايا تلك الجذوة في بعض أطراف محدودة من شبه الجزيرة .

وبذلك فتح أبو بكر أمام المسلمين في شبه الجزيرة العربية الباب على مصراعيه لحركة جديدة ، هي حركة الفتوح العربية الاسلامية ، التي أقبلت على الاسهام فيها شتى القبائل العربية - مع ما بينها من بقايا عداوات وثارات قديمة - وانطلقت ضد الفرس من ناحية ، وضد الروم من ناحية أخرى . وقد قدر لحركة الفتوح العربية الاسلامية ان تستمر في عنفها ونشاطها أكثر من قرن من الزمان ، بحيث لم تكن تهدأ وتفتر ، الا وكان الاسلام قد تأصل فعلا في قلوب عرب شبه الجزيرة ، وارتقى معظمهم من مرتبة الاسلام الى مرتبة الايمان .

ومع اتساع الدولة الاسلامية من بحر الظلمات - أو المحيط الأطلسي - غربا الى بلاد الهند وحدود الصين شرقا ، شغل العرب بالاسهام في بناء حضارة جديدة ضخمة ، قدر لها أن تصبح أعظم حضارة عرفها العالم أجمع طوال العصور الوسطى ، وهي الحضارة العربية الاسلامية ، وكما يتضح من الاسم المدون لهذه الحضارة ، فانها استمدت عظمتها من العنصر العربي من ناحية ، ومن مبادىء الاسلام ومثله وروحه من ناحية أخرى . وحسب العرب في عهدهم الجديد ، أنهم أحسوا بكونهم بناة الدولة وحماتها ، ودعاة الاسلام وحاملو رسالته والمبشرون بعقيدته في مختلف أرجاء الأرض .

---

(١٣١) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٣١٤ .

(١٣٢) الطبري - تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ص ٣٤٣

السيرة النبوية بين التاريخ والخيال الشعبى

نبيلة ابراهيم سالم

استاذة الادب العربي

كلية الآداب/جامعة القاهرة

ـ ١ ـ

يرتبط تدوين السيرة النبوية بوعي العرب بمفهوم التاريخ من ناحية ، كما يرتبط بوعيهم بحركة التدوين والتأليف من ناحية أخرى .

ومن المعروف أن ابن اسحق هو أول من دون سيرة الرسول عليه السلام ، وكان كما قيل ، من اكثر معاصريه جميعا حفظا لأخبار رسول الله وحديث مغازيه .

هو محمد بن اسحق بن يسار بن خيار . وكان جده يسار بن خيار مولى لقيس بن مخرمة بن المطلب ابن عبد مناف . وكان هذا الجد من أصل فارسي ، وأسر في العام الثاني عشر من الهجرة في قرية قريبة من الأنبار غرب الكوفة . وذلك عندما غزاها خالد ابن الوليد وأخذ منها أسرى وسبايا . وهناك في المدينة صار ولاء يسار الى قيس بن مخرمة وولد له هناك اسحق ومن بعده محمد بن اسحق كاتب السيرة[1] .

وقد ولد محمد بن اسحق في عام ٨٥ هـ على الأرجح ، وشب في المدينة واخذ يحصل العلم والثقافة على نحو ما كان يفعل علماء عصره ، وكان القرآن الكريم قد دون منذ زمن مبكر على نحو علمي بحيث لم تترك في تدوينه ثغرة للتدخل فيه . وبهذا اطمأن الجيل الأول من المسلمين الى انهم قد انجزوا الخطوة الأساسية الاولى في ارساء دعائم الاسلام بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان على تابعيهم بعد ذلك أن يواصلوا حركة التدوين والتأليف .

---

(١) سيرة ابن هشام (تحقيق محيي الدين عبد الحميد ـ المكتبة التجارية ـ القاهرة) المقدمة ، جـ ١ ص ٢٤ .

ولا بد أن الجيل الذي عاصرة محمد بن اسحق في المدينة كان يحفظ ماكان يحفظه الجيل الأول من الصحابة والتابعين ، ولا بد ان هذا الجيل كان يستوعب بدرجات متفاوتة تراثا ضخما ، جاهليا وإسلاميا ، شعرا ونثرا . وقد كان الاستيعاب مصدره الرواية كما كان ذلك القدر الضئيل من التدوين .

وكان قد انقضى العصر الأول والمسلمون لا يكتبون شيئا باستثناء ما كتبه عبد الله بن عمرو بن العاص فيما يقال . فقد روى البخاري عن ابي هريرة « مامن احد من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم اكثر حديثا عنه مني الا ما كان من عبد الله بن عمرو فانه كان يكتب ولا اكتب [٢]» . ومن المعروف ان النبي عليه السلام نهى عن كتابة شيء غير القرآن ، ولكن الرغبة في التدوين مالبثت ان ألحت على نفوس أجيال المائة الثانية من الهجرة او قبل ذلك بقليل عند ما هم الخليفة عمر بن عبد العزيز بتدوين الحديث فكتب الى واليه في المدينة يقول « انظر ما كان من حديث النبي صلى الله عليه وسلم وانقشوا العلم وتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فان العلم لا يهلك حتى يكون سرا » . [٣]

عند ذلك بدأت حركة التدوين بتدوين الحديث في شكل أبواب ، كل باب يجمع الاحاديث الخاصة به فباب في الوضوء ، وباب في الصلاة ، وباب في الزكاة ، وهكذا ، وكان من بين هذه الأبواب باب في أخبار رسول الله عن ولادته ورضاعته وبعثه وغزواته وجهاده ، وقد سمي هذا الباب « باب المغازي والسير » . وقد توسع في هذا الباب الاخير فأصبح يضم أخبارا عن العصر الجاهلي مثل أخبار جرهم ودفن زمزم وغير ذلك من الاخبار . وقد عنى بهذا الموضوع جماعة من الصحابة والمحدثين عاشوا في القرن الأول وحقبة من القرن الثاني ، ولم ينقطع التاليف في هذا الموضوع بعد ذلك .

ولولا حفظ الخلف عن السلف هذه الروايات والأخبار لما وصلت الى المؤرخين الكبار مثل الطبري والبلا ذري وابن سعد والواقدي .

على ان السيرة التي وصلتنا كاملة ،وهي سيرة محمد بن اسحق ، وصلتنا عن طريق ابي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري البصري الذي توفي على الأرجح في العقد الثالث من القرن الثالث الهجري . وكان محمد بن ابي اسحق قد استقر في العراق بعد طواف بين الاسكندرية والري والكوفة والجزيرة والحيرة . وفي العراق اتيحت له فرصة الاتصال بالخليفة ابي جعفر المنصور الذي أمره أن يؤلف في أخبار العرب . وفي ذلك يقول الخطيب البغدادي « دخل محمد بن اسحق على المنصور وبين يديه ابنه المهدي فقال له : اتعرف هذا يا ابن اسحق ؟ قال : نعم هذا ابن امير المؤمنين قال : اذهب فصنف له كتابا منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام الى

(٢) السيرة جـ ١ ص ١٢
(٣) السيرة جـ ١ ص ١٤

يومك هذا . فذهب فصنف هذا الكتاب فقال : لقد طولته يا ابن اسحق اذهب فاختصره . فذهب فاختصره فهو هذا ـ الكتاب المختصر ، وألقى الكتاب الكبير في خزانة أمير المؤمنين (٤) .

ويسير هذا النص الى ان ابا جعفر المنصور عندما امر محمد بن اسحق ان يؤلف لابنه كتابا في التاريخ لم يطلب منه صراحة ان يؤلف كتابا في السيرة النبوية ، بل قال له « إذهب فصنف له (اي للمهدي) كتابا منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام الى يومك هذا » (ومعنى هذا انه طلب منه ان يؤلف كتابا في التاريخ وهو يعني بطبيعة الحال كتابا في تاريخ العرب . ومن الطبيعي أن يكون جوهر الكتاب هو الرسالة المحمدية التي فصلت بين عصرين ، عصر الجاهلية وعصر الاسلام . ويهمنا من هذا الخبر انه يمثل لأول مرة مطلبا علميا لم يفكر فيه أحد من خلفاء المسلمين من قبل . اذ كان العرب ابتداء من العصر الجاهلي حتى العصر الأموي يعتمدون على الرواية في نقل الأخبار التاريخية وكانت الأخبار التاريخية في العصر الجاهلي تختص بأنساب العرب وأيامهم ، ومثل هذه الأخبار لاتمثل تاريخ أمة ، فضلا عن انها ليست تاريخا كاملا ، ولا يكون التاريخ متكاملا وقابلا للتدوين الا عندما تعي الأمة ذاتها ، وتعي ماضيها ومستقبلها .

ولم يكن الماضي بالنسبة للعربي الجاهلي قيمة حضارية تؤكد وجود الذات الحاضرة ، بل كان مجرد تذكر مواقف بطولية عاشتها قبيلته . وهو يتذكرها اما من قبيل الفخر والزهو بحروبها ضد القبائل المعادية الأخرى أو بقصد استثارة الهمم للدخول في حرب جديدة معها . واما المستقبل فقد كان غائبا بالنسبة له ، وغياب هذا المستقبل كان مرتبطا بغياب النظام السياسي المتكامل الذي يجمع شمل العرب تحت تأثيره كما كان مرتبطا بغياب مفهوم متكامل لدين يقدم له مفهوما واضحا لعلاقته بالزمان والمكان ولغائية الحياة .

لقد كان الانسان الجاهلي يعيش في زمن هو الزمن الحسي المرتبط بفترة بقائه في الحياة . وهذه الفترة كانت معروفة البداية والنهاية ، فبدايتها الميلاد ونهايتها الوفاة والعدم ، وبتعبير آخر فان الانسان قدر له أن يوجد في المكان لكي يملأه فلا يظل فراغا ، ولكن هذا الوجود . في حد ذاته لم يكشف عن هدف محدد او عن غاية تقنع الانسان ـ بوجوده . ولهذا فقد أفاض الشعراء الجاهليون في تعبيرهم عن هذا الاحساس ، وليست المقدمة الطللية التي تغنى بها الشعراء في مطالع قصائدهم سوى تعبير خصب عن تلك النهاية المحتمة وهي الفناء الأبدي ، بل ان الشاعر الجاهلي كان يرى شبح الموت أمامه وهو في غمرة النشوة والاستمتاع بالحياة . يقول عمرو بن كلثوم في معلقته :

وكاس قد شربت ببعلبك ... وأخرى قد شربت بقاصرينا
وانا سوف تدركنا المنايا ... مقدرة لنا ومقدرينا

---

(٤) السيرة جـ ١ ص ٢٦

وإذا كانت نهاية الحياة تتحد ، بهذا الزمن القصير فان وجود الانسان في الارض عبث وضرب من الاقدار . ولايمكن للانسان وهو يحس هذا القلق وهذه الحيرة ان يجد فرصة للتأمل في خلق الكون ووضع الانسان في هذا الكون وعلاقته بالزمن السرمدي . ذلك ان مشكلته كانت تنحصر في هذا الاحساس المفزع بالزمن الحسي ، أما الزمن الكوني الأبدي فلم يكن سوى تأكيد لمأساة الانسان في الارض . حقا ان هناك شعر قاله بعض الشعراء قبل البعثة المحمدية يشير الى اي حد كان الجاهلي يتوق الى حل يريح ذاته القلقة ومن ذلك قول الشاعر :

ألا نبي لنا منا فيخبرنا　　ما بعد غايتنا من رأس مجرانا ؟[٥]

حقا إن هناك من الأساطير الجاهلية مايعبر صراحة عن نزوع الانسان الجاهلي الى تغيير معتقداته التي بدأ يتشكك فيها . ومن ذلك ماروى من أن قبيلة مراد كانت تعبد نسرا . وكان هذا النسر يأتيها في كل عام فيقرعون بين فتياتهم ، فايتهن أصابتها القرعة تقدم للنسر فيحمل نحوها ويأكلها ثم يؤتى له بخمر فيشرب وينتشي ثم يخبرهم بما يحدث في عامهم المقبل ويطير .

ثم حدث أن جاءهم النسر كعادته . فاقرعوا بين فتياتهم وأصابت القرعة احدى الفتيات ، وكان يعزها ابوها كثيرا فحزن كل الحزن . فلما رأى الرجال مرادا ماهو عليه من حزن قالوا له :

ماذا لو فدينا ابنتك بابنة الهمدانية ! وكانت هذه الابنة الهمدانية ابنة لرجل مرادي وامرأة من قبيلة همدان ، ثم توفي أبوها وبقيت الأم في قبيلة مراد . فقر رأى مراد على ذلك . ولما علمت الأم وابنتها بهذا الامر ساءت حال الام واخذت البنت تبكي ، وصادف هذا قدوم خال الابنة لزيارة اخته ، فلما رأى ماهما عليه من حزن سألها عما بها ولكن الأم رفضت أن تبوح له بشيء . اما الابنة فانها دخلت خباء واخذت تقول الشعر بصوت عال لتسمع خالها وعرف الخال القصة فقال لاخته : اذا جاءوك فادفعي اليهم ابنتك وانا اتدبر الامر بعد ذلك ، فلما جاءوها دفعت اليهم ابنتها فدفعوا بها في خباء النسر . فلما رآها النسر حجل نحوها ، ولكن الخال كان يختفي داخل الخباء فرمى النسر بسهم اصابه وارداه قتيلا ، وأخذ أخته وابنتها وولى هاربا ، فلما أدركت قبيلة مراد ان الحيلة قد تمت عليها خلت السير وراءهم ولكنها لم تدركهم . فكان هذا سببا في استعال نار العداوة بين مراد وهمدان الى ان جاء الاسلام فحجز بينهما [٦] .

فنحن هنا بإزاء اسطورة متأخرة ، ذلك انه لابد ان تكون هناك اساطير سبقتها تحكي عن عبادة إله النسر وغيره من الآلهة . أما هذه الاسطورة فقد قضت على الاله ، اي ان الاله قد مات ولم يكن السبب في موته سوى الانسان . ومعنى هذا ان الانسان الجاهلي قد وصل الى مرحلة الشك في عباداته القديمة ، وانه اخذته الجرأة لأن

(٥) د . عفت الشرقاوي : أدب التاريخ عند العرب . انظر فصل مغزى التاريخ والتفسير القرآني للتاريخ
(٦) السيوطي ـ المزهر . الحلبي جـ ١ ص ٦٦٤

يعترض عليها ويلقيها . فاذا ربطنا هذا الفعل بمهمة الاله النسر كما افصحت عنها الاسطورة من أنه كان يعطي في مقابل ان يأخذ ، وان ما كان يعطيه هو الكشف عن احداث المستقبل للقبيلة فان دلالة هذا ان ـ القبيلة لم تكن تتعب نفسها في معرفة ما سيجد من احداث ، وبتعبير آخر ان الانسان لم يكن يحس بمسؤليته في صنع تاريخه ، فلما قضي الاله نحبه ولم يعد هناك من يخبر القبيلة بأحداث المستقبل كان على القبيلة ان تقوم بهذه المهمة بنفسها .

كل هذه الاخبار والروايات تؤكد ان العقلية العربية كانت في طريقها الى التحول ، كما أنها تؤكد أنهم كانوا ما يزالون يعيشون مرحلة عدم وضوح الرؤية بالنسبة لوعيهم بوجودهم .

—٢—

ثم جاء الاسلام ليغير هذا المفهوم من رؤية غامضة الى رؤية واضحة . فالزمن ذو البعد الواحد اصبح ذا بعدين ، زمن حسي وزمن كوني ، ولا يمكن فصل الزمن النسبي الذي يرتبط بحياة الانسان في الارض عن الزمن السرمدي او الكوني الذي يرتبط بالبعث . وحيث ان الانسان هو الذي سيبعث ليحاسب ، فهو يهم اذن علاقته بالزمن الكوني اي بتلك اللحظة الحاسمة التي يدعى فيها ليحاسب على فعله في الدنيا .

وهذا هو أول تغيير أدخله الاسلام على مفهوم العربي لوجوده في الحياة . وهو مفهوم كفيل بأن يزيل الاحساس بالقلق حيث انه لم يوجد فيها الا ليموت . ثم اكد الاسلام هذا المفهوم بتوضيحه لمسئولية الانسان في الارض، فهو لم يخلق الا من اجل السعي وراء حياة أفضل ، ولا يتحقق هذا الا من خلال أعمال عقله في اختيار العمل الصالح ونبذ العمل الطالح . وبهذا يكون الانسان مسئولا عن النتائج بقدر ما سيكون مسئولا عن المقدمات ، كما انه سيحاسب عن أن ما يفعله يكون وسيلة لبناء وليس معولا لهدم . ذلك ان الحياة بوصفها نظاما كليا لا تكن ان تستقيم الا اذا رجحت كفة الخير على الشر . فاذا حدث عكس هذا واستشرى الشر بين قوم ، أبادهم الله وأحل محلهم قوما آخرين ، كما حدث لعاد وثمود وغيرهم .

وهكذا يرتبط أول الحياة بآخرها ، وهكذا يرتبط فعل الانسان في الأرض بمعيار ثابت من القيمة ، وهكذا يرتبط الانسان بالله . وكل هذه المفاهيم جعلت الانسان العربي يعيد تقييمه لموقفه من الحياة ، فبدلا من المفهوم القديم : أنصر أخاك ظالما أو مظلوما ، أصبح الدين الجديد يحثه على أن ينصره مظلوما ولا ينصره ظالما . وقد ترتب على هذا أن أصبح هناك نظام شامل للمجتمع بأسره ، وهذا النظام يخضع لمعيار الحق والخير الجماعي . وحاضر هذا النظام يعد حصيلة الماضي ، كما أنه يرسم شكل المستقبل . ومعنى هذا أن الحياة سلسلة متصلة الحلقات تبدأ بالماضي وتستمر الى المستقبل ، وهذا هو جوهر التاريخ .

وربما احتوت قصة آدم في القرآن الكريم خروجه من الجنه ونزوله الى العالم الأرضي كل هذه المفاهيم

الانسانية . فالقصة لم ترد على نحو ما وردت في التوراة على الرغم من تشابه القصتين في خطوطها العريضة ، كما أن دلالتها تختلف كلية عن دلالة القصة التوراتية . فقد قال تعالى في كتابه الكريم قبل أن يخلق آدم : « واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال اني أعلم ما لا تعلمون . » (البقرة ٢٩) فهذا نص صريح على أن آدم خلق لكي يكون مكانه في الأرض وليس في السماء . ولم تكن اذن أحداث الجنة سوى برهان على أن آدم لم يخلق على نحو ما خلقت الملائكة مبرئا من العيب ، بل هو معرض للغواية وعليه وحده أن يفصل بين الخير والشر . وبناء على ذلك فان قصة آدم في القرآن لم تهدف الى اثبات خطيئة آدم كما أقرتها التوراة والانجيل ، بل ان ما فعله آدم يشير الى طبيعة الآدمي ساكن الأرض .

ثم تؤكد الآيات القرآنية بعد ذلك حكمة الخالق في صنعة آدم على هذا النحو وذلك في قوله تعالى « وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين » قالوا سبحانك لاعلم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم » . وليست اسماء المسميات مجرد اسماء ولكنه الادراك الذي يميز بين الشيء وغيره ، بل لنقل أنه العلاقة بين الانسان والموضوع . وهنا تتمثل جوهر طبيعة الانسان ـ وجوهر قيمة وجوده في الأرض . ويتحدد هذا الجوهر بان الانسان فكر يتحرك في كل ما حوله . وهذا الفكر ينطلق مرة من الداخل الى الخارج ، ومرة أخرى من الخارج الى الداخل .

ثم يقول سبحانه وتعالى « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم » (البقرة ٣٦) « وهكذا تنتهي قصة آدم بالتصالح بينه وبين ربه على أساس تحمله لتبعاته وادراكه لمسئولياته ، ثم تحسم القضية بقوله تعالى « انا عرضنا الامانة على السماوات والأرض فأبين ان يحملها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » .حقا انها مسئوليات جسام تلك التي يحملها الانسان على عاتقه في الارض ، اليس هو المسئول الأول عن صنع حياته بل حياة الجماعة التي يعيش بينها ؟ واذا كانت حياة هذه الجماعة ليست سوى حلقة من حلقات التاريخ البشري أفلا يكون الانسان مسئولا عن صنع تاريخ البشرية بأسره ؟ .

كل هذه المفهومات أصبحت واضحة في عقل المسلم ، بل انه وسعها وصاغها على شكل مسائل فلسفية او كلامية خاض فيها علماء الكلام والمعتزلة بعد قيام الدولة العباسية . وبعد ان انتقل الجو الادبي والفلسفي كلية الى البصرة ثم بغداد .

وليس غريبا اذن ان يكون مطلب كتابة التاريخ من خليفة عباسي هو أبو جعفر المنصور . وليس غريبا أن يطلب الخليفة المنصور من محمد بن اسحق أن يكتب هذا التاريخ لابنه المهدي . فالخليفة كان يفكر في مسئوليته بقدر ما كان يفكر في مسئولية ابنه الذي سيرث الخلافة من بعده . وهذا الابن ، من جهة نظر الأب ، في أشد الحاجة الى العلم بأحداث الماضي للاعتبار بها في صنع الحاضر والمستقبل . وقد سبق أن ذكرنا أن الخليفة لم

يطلب من ابن اسحق أن يكتب السيرة النبوية ، بل طلب منه أن يكتب له في التاريخ ، منذ خلق الله آدم الى اليوم الذي يعيشه ابن اسحق . وهذا يكفي لأن تتمثل مقصد أبي جعفر المنصور في أن يكون بين يدي ابنه كتاب يجمع بين ماضي الأمة العربية وحاضرها . وفي بؤرة هذا الماضي والحاضر تقع الدعوة المحمدية بطبيعة الحال ، كما تقع أخبار النبي صلى الله عليه وسلم وغزواته وحكمه وتعليماته ، فمن أجل هذه الدعوة تمت الفتوحات ، ومن أجلها كبرت مسئولية الدولة الاسلامية وكبرت مسئولية الخليفة .

— ٣ —

على ان الرواية التي دونها ابن اسحق نقلا عن البكائي لاتحتوى على المادة التي طلبها المنصور من ابن اسحق . واذا كان المنصور قد طلب من ابن اسحق ان يختصر تاريخه كما يقال فلا يعتقد انه اختصر هذا التاريخ الى حد ان قصره على السيرة النبوية . ولهذا فنحن نفترض ان ما حفظ عن ابن اسحق وعلى رأسهم البكائي كان يقتصر على السيرة النبوية وهي التي دونها ابن هشام . فابن هشام لم يؤلف كتابا في تاريخ العرب وانما الف كتابا في السيرة النبوية . واذا كان الجزء الاول من الكتاب الذي يحكي اخبارا قبل ولادة الرسول عليه السلام وبعدها الى ان نزل عليه الوحي ، يرتبط بتاريخ العرب قبل الاسلام ، فان ابن هشام وظف هذا الجزء توظيفا جيدا لخدمة السيرة النبوية ، والغرض من هذا هو ابراز المثل الأعلى ممثلا في شخصية الرسول عليه السلام ، فنحن في عصر شعر الشعب العربي فيه انه في اشد الحاجة الى تمجيد البطولة العربية وتأكيدها . وربما كانت السيرة النبوية بداية تمجيد البطولات العربية في ضوء المثل الاسلامية فطرة الشاعر المحارب في العصر الجاهلي زحزحته سيرة عنترة زمانيا ومكانيا ، فجعلت بطولته تتجاوز الجزيرة العربية ، كما جعلت رسالته انسانية ، فقد كان على عنترة ان ينشر الحق والعدل من خلال دفاعه عن قضية الانسانية جمعاء . وحيث ان جوهر الاسلام هو الحق والعدل . فان عنترة اذ فعل هذا كان يمهد الفكر العربي لقبول الدعوة الاسلامية .

وربما بدأت في هذا العصر كذلك سيرة الاميرة ذات الهمة وعبد البطال . فالسيرة تحكي عن الصراع بين العرب والروم ، ولم تكن الحرب بين دولتين بل كانت بين دينين الى حد ان عدها المؤرخون بداية الحروب الصليبية ، كما زحزحت سيرة عنترة بطلها من فكرة عصره الفوضوي الى فكر انساني منظم ، كذلك زحزحت سيرة الأميرة ابطالها من مكانهم في قلب الجزيرة العربية وجعلتهم يقيمون في مناطق الثغور حيث تدور رحى الحرب بين العرب والروم او لنقل بين الاسلام واعدائه ، وكل هذه النماذج البطولية تكشف عن رغبة جمعية في تأكيد البطولة الاسلامية التي يقف على قمتها الرسول عليه السلام .

ونعود الى سيرة ابن هشام فنجده يرتب الاحداث بحيث يلتحم بعضها مع بعض في تكوين ملحمي . فهو يبدؤها برفع نسب الرسول عليه السلام في ايجاز بالغ الى اسماعيل ثم ابراهيم ثم آدم ، ثم يستطرد بعد ذلك من ذكر الاخبار التي تكشف عن حركة الحياة الفكرية في الجزيرة العربية قبل ولادة الرسول عليه السلام بزمن ثم بعد ولادته الى ان نزل عليه الوحي .

وتتوزع الحوادث التي تأتي بها السيرة في سبيل الكشف عن هذه الحركة الفكرية الى ثلاثة أنماط من الأخبار ، وهي تسهم جميعا في إجلاء روح الحياة السائدة في عصر ما قبل الاسلام ، فهناك الاخبار التي تتحدث عن بعض جوانب الحياة القبلية وتلتقط السيرة من هذه الاخبار ما يمكن ان يدخل في نسيج السيرة النبوية ، اي تلك التي تكشف الستار عن طبيعة الدين الذي كان يدين به العرب ، أو لنقل مجموعة المعتقدات التي تكيف حياة العربي .

وهناك الأخبار التي تكشف القناع عن الأديان السماوية التي سبقت الاسلام ، وكانت هذه البقايا تعيش منزوية عن الجو الديني العام . فاذا ما تكشف حوربت ، وهناك اخيرا الاخبار التي تشير الى مجموعة النبوءات المبشرة بظهور الدعوة المحمدية .

فمن الأخبار الأولى تحكي عن الصراع بين عبد مناف وعبد الدار على مكانتهم بالنسبة للكعبة « فعقد كل قوم على أمرهم حلفا مؤكدا على ان لايتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا .. فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً، فيزعمون ان بعض نساء بني عبد مناف أخرجتها لهم فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة ثم غمس القوم ايديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم فسموا المطيبين »[٧]

فمثل هذا الخبر يكشف عن شكل من اشكال الصراع القبلي حول الزعامة وهو يكشف في الوقت نفسه عن معتقد سحري يندرج تحت ما يسمى بسحر المشاركة. فاذا اجتمعت ايدي القبائل في جفنة واحدة مملوءة بالطيب ، فهذا الفعل يتصل بتأثير السحر الى شعورهم بالالتزام بوحدتهم ، كما أن غمس الأيادي في الطيب معناه أن ما يفعلونه ستفوح رائحته مثل الطيب . وكذلك يشير فعل مسح الأيادي المتطيبة الى هذا الشعور الطيب المشارك بينهم وبين الرمز المقدس .

ومن هذه الاخبار خبر حفر بئر زمزم . فقد جاء الهاتف الى عبد المطلب جد الرسول عليه السلام يأمره بحفر بئر سميت في الليلة الاولى طيبة وسميت في الليلة الثانية برة حتى اذا كانت الليلة الثالثة أمره الهاتف بحفر زمزم فلما سأله عبد المطلب ، وما زمزم ؟ قال له الهاتف « لاتنزف ابدا ولاتذم « تسقي الحجيج الاعظم وهي بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم عند قرية النمل »[٨] .

فلما تحددت البئر على هذا النحو شرع عبد المطلب في حفرها ولكن قريشا طلبت منه أن تشاركه في هذا الحفر فقال : « ما انا بفاعل ، ان هذا الامر قد خصصت به دونكم . ـ واعطيته من بينكم فقالوا له « فانصفنا فانا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها » قال « فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم اليه قالوا : كاهنة بني سعد هذيم قال : نعم فسار جمع عبد المطلب وجماعه قريش حتى اذا كانوا منتصف الطريق نفذ الماء من جماعة عبد

---

(٧) السيرة جـ ١ ص ١٤٣
(٨) السيرة جـ ١ ص ١٥٤

المطلب فطلبوا السقيا من جماعة قريش فأبوا ان يمدوهم بالماء ، وكاد قوم عبد المطلب يهلكون من العطش واستقر رأيهم على ان يظلوا في مكانهم حتى يدفن بعضهم بعضا ولكن عبد المطلب لم رأيه بعد ذلك على ألا يستسلموا لمصيرهم ، وان يواصلوا السير . وما كاد عبد المطلب يمتطي صهوة جواده واثار الجواد الغبار من تحت رجله ، انبجست عين من الماء تحت حوافره . عند ذلك قالت قريش « والله لقد قضى الله علينا يا عبد المطلب . والله لانخاصمك في زمزم ابدا . ان الذي سقاك الماء بهذه الفلاة لهو الذي سقاك زمزم » فارجع الى سقايتك راشدا . فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا الى الكاهنة وخلوا بينها وبينه »[٩] .

ويفيد هذا الخبر السيرة من نواحي عدة اولا ـ ان هذا الحدث تم مع جد الرسول عليه السلام ، وفي هذا تأكيد لأصالة سلالة النبي عليه السلام . ثانيا ـ انه يمثل بداية المعجزات التي تمت مع جده ومع ابيه من بعده كما سنرى . ثالثا : انه يشير الى الروح القبلية ممثلة في صراعاتها على الزعامة وممثلة في معتقداتها ، ذلك ان الحسم في هذا الموضوع كان سيتم على يد كاهنة بني سعد . وما كانت ستقوله هذه الكاهنة كان سيكون ملزما للطرفين لولا ان المعجزة تمت فحسمت الامر .

واذا كان الحدث السابق يتركز حول عبد المطلب جد الرسول عليه السلام فان الحدث التالي يتركز حول والده عبد الله « وكان عبد المطلب بن هاشم فيما يزعمون ، والله اعلم « قد نذر حين لقي من قريش مالقي عند حفر زمزم لئن ولد له عشرة نفر ثم يبلغوا معه حتى يمنعوا لينحرن أحدهم لله عند الكعبة . فلما توافى بنوه عشرة وعرف انهم سيمنعونه جمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم الى الوفاء لله بذلك فاطاعوه وقالوا : كيف نصنع قال : ليأخذ كل رجل منكم قدحا ويكتب عليه اسمه ثم ائتوني ، ففعلوا ثم اتوا فدخل بهم على هبل في جوف الكعبة ..فقال عبد المطلب لصاحب القداح : اضرب على بني هؤلاء بقداحهم هذه واخبره بنذره الذي نذر . فاعطاه كل رجل منهم قدحه الذي فيه اسمه وكان عبد الله اصغر بنيه .. كان فيما يزعمون ، احب ولد عبد المطلب اليه ، وكان عبد المطلب يرى ان السهم اذا اخطاه فقد ـ اشوى » (اى قد ابقي) ولكن القدح خرج على عبد الله ، فهم عبد المطلب بذبحه . ولكن قريشا وبنوه اعترضوه ونصحوه ان يرحل الى عرافة في الحجاز لها تابع فيسألها عما هو فاعل فرحل اليها وقالت له : ارجعوا حتى يأتيني تابعي فأسأله . فرجعوا من عندها . فلما خرجوا عنها قام عبد المطلب يدعو الله . ثم غدوا عليها فقالت لهم : قد جاءني الخبر . كم الدية فيكم قالوا : عشرة من الابل . وكانت كذلك قالت : فارجعوا الى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الابل ثم اضربوا عليها القداح فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل حتى يرضى ربكم وينجي صاحبكم.[١٠] فعاد الجميع الى مكة ثم ضربوا القداح فخرجت على عبد الله فاخذوا يزيدون في الابل وكانت في كل مرة تصيب عبد الله حتى بلغت الابل مائة . وبعدها

---

(٩) السيرة جـ ١ ص ١٥٦
(١٠) السيرة جـ ١ ص ١٦٤

ضربوا القداح ـ فخرجت على الابل . فاعادوا ضرب القداح فخرجت على الابل . فهلل الجميع وقالوا لعبد المطلب : قد انتهى رضى ربك يا عبد المطلب ثم نحرت الابل تضحية للاله .

فهذا الخبر يؤكد مثل سابقه على معتقدات العرب قبل الاسلام وهي تلك المعتقدات التي الغاها الاسلام من بعد ، كما أنها تؤكد المعجزة التي تمت مع والد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتنتمي الى مجموعة هذه الاخبار الأولى أخبار أخرى لاصلة لها بالسيرة النبوية ، ولكنها تأتي لتؤكد ما كان عليه العرب الجاهليون من عبادة الأوثان . فمن ذلك ماترويه السيرة من أنه كان لبني ملكان بن كنانة بن خزيمة ابن مدركة بن الياس بن مضر صنم يقال له سعد ، صخرة بفلاة من ارضهم الطويلة . فاقبل رجل من بني ملكان بإبل له مؤبلة ليقفها عليه التماس بركته ، فيما يزعم . فلما رأته الابل وكانت مرعية لاتركب . وكان يراق عليها الدماء ، نفرت منه فذهبت في كل وجه وغضب ربها الملكاني فأخذ حجرا فرماه به ثم قال : لابارك الله فيك ، نفرت على إبلي . ثم خرج في طلبها حتى جمعها فلما اجتمعت له قال :

أتينا الى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد الا صخرة بتنوفة من الارض لايدعو لغي ولارشد [١١]

كما تروي السيرة على سبيل تعليل وجود بعض الاصنام في مكان محدد ، وكان أساف ونائلة رجلا وامرأة من جرهم فوقع أساف على نائلة في الكعبة فمسخهما الله حجرين [١٢] وعلى الرغم من هذا الفعل الآثم الذي ارتكبه اساف ونائلة ، وعلى الرغم من مسخ الله لها كما تروي الاسطورة ، فقد أصبح أساف ونائلة صنمين يعبدان عند زمزم وتنحر لهما الذبائح .

اما النوع الثاني من الاخبار فهي تلك التي تخص هؤلاء الذين يدينون بالدين المسيحي السليم الذي يدعو الى عبادة الاله الواحد . فاذا ظهر احد هؤلاء يدعا الناس الى دينه حورب وظل حكايته ترويها الأجيال ، وقد ظهر اثر ذلك في مطلع الاسلام معجزة تؤكد ما حدث ، ومثال هذا حكاية عبد الله بن الثامر التي ترويها السيرة في جزئها الأول . وكان عبد الله بن الثامر اذا دخل نجران لم يلق أحدا به الا قال « ياعبد الله أتوحد الله وتدخل في ديني وادعو الله فيعافيك مما انت فيه من البلاء ؟ فيقول نعم فيوحد الله ويسلم ويدعو له فيشفى حتى لم يبق بنجران احد في ضر الا اتاه فاتبعه على امره ودعا الله فعوفي حتى رفع شأنه الى ملك نجران فدعاه وقال : افسدت على اهل قريتي وخالفت ديني ودين ابائي . لأمثلن بك فقال : لا تقدر على ذلك . قال : فجعل يرسل به الى الجبل الطويل فيطرح على رأسه فيقع الى الارض ليس به بأس وجعل يبعث به الى مياه بنجران بحور لا يقع فيها شيء الا هلك فيلقى فيها فيخرج ليس به بأس فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر : انك والله لن تقدر على قتلي حتى توحد الله بما امنت به فانك ان فعلت ذلك سلطت علي فقتلتني قال : فوحد الله تعالى ذلك الملك وشهد عبد

(١١) السيرة جـ ١ ص ٥٥
(١٢) السيرة جـ ١ ص ٦٦

الله بن الثامر ثم ضربه بعصا في يده فشجه شجة غير كبيرة فقتله ثم هلك الملك مكانه . واستجمع اهل نجران على دين عبد الله بن الثامر . ثم ان « رجلا من اهل نجران كان في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه حفر خربة من خرب نجران لبعض حاجته فوجدوا عبد الله بن الثامر تحت دفن منها قاعدا واضعا يده على ضربة في رأسه ممسكا عليها بيده، فاذا اخرت يده عنها تنبعث دما واذا ارسلت يده ردها عليها فامسكت دمها . وفي يده خاتم مكتوب فيه « ربي الله » فكتب فيه الى عمر بن الخطاب يخبر بامره فكتب اليهم عمر رضي الله عنه ان اقروه على حاله وردوا عليه الدفن الذي كان عليه ففعلوا[١٣] . ثم نأتي الى النوع الثالث من الاخبار التي يحتوي الجزء الاول من السيرة والذي يمهد لولادة الرسول عليه السلام . وهذا النوع خاص بالامارات المبشرة بظهور نبي من بين العرب فمن ذلك ما تحكيه السيرة عن رؤيا ربيعة بن نصر ملك اليمن فقد رأى ربيعة رؤيا ازعجته فنصحه اتباعه ان يرسل في طلب شق وسطيح الكاهنين ليفسراها له فحضر سطيح اولا واخبر ربيعة بالرؤيا قبل ان يخبره هو بها وقال « رأيت حممة خرجت من ظلمة فوقعت بارض تهمة فأكلت منها كل ذات جمجمة » وكانت هي الرؤيا بعينها التي رآها ربيعة ثم اخذ سطيح بعد ذلك في تفسيرها له فقال له : ان الاحباش سيغزون اليمن بعد بضع وسبعين من السنين ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين فسأله ربيعة : ومن يلي ذلك من قتلهم واخراجهم قال : يليه ارم بن ذي يزن يخرج عليهم من عدن فلا يترك احدا منهم باليمن قال : افيدوم ذلك من سلطان ام ينقطع ؟ قال : بل ينقطع قال : ومن يقطعه ؟ قال : نبي زكي يأتيه الوحي من قبل العلي . قال : ومن هذا النبي ؟ قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر يكون الملك في قومه الى اخر الدهر . قال : وهل للدهر من آخر ؟ قال : نعم ، يوم يجمع فيه الاولون والاخرون يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون[١٤] .

وبعد فترة وصل شق فقال ما قاله سطيح او كاد .

— ٤ —

ثم تستطرد السيرة الى ذكر ولادة الرسول عليه السلام وحياته في مكة قبل ان يهبط عليه الوحي ، ومن الطبيعي ان الاخبار التي تحكي عن هذا الموضوع تدور جميعها حول النبوة المستقبلة ، ومن الطبيعي ان تتواقر الاخبار وتتضخم بحيث يصعب التمييز فيها بين الواقع والخيال . ولهذا فان ابن هشام كثيرا ما يفتقده السيد الذي يرتكز عليه من دعم الخبر فيقول على سبيل المثال في خبر حمل آمنة بنت وهب بالرسول عليه السلام « ويزعمون فيما يتحدث الناس ، والله اعلم ، ان آمنة بنت وهب ام رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تحدث أنها أتيت حين حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل لها ، انك قد حملت بسيد هذه الأمة فاذا وقع على الارض فقولي :

---

(١٣) السيرة جـ ١ ص ٣٤
(١٤) السيرة جـ ١ ص ١١

أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ثم سمه محمدا . ورأت حين حملت به انه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام » (١٥) .

كما تروي السيرة عن حليمة مرضعة الرسول عليه السلام انها قالت « فوالله انه بعد مقدمنا بأشهر مع أخيه لفى بهم لنا خلف بيوتنا اذ اتانا اخوه يشتد فقال لي ولأبيه « ذاك أخي القرشي قد اخذه رجلان عليهما ثياب بيض فاضجعاه، فشقا بطنه فهما يسوطانه (سطف اللبن والدم وغيرهما اسوطه إذا ضربت بعضه ببعض وحركته) قالت : فخرجت انا وابوه نحوه فوجدناه قائما منتقعا وجهه قالت :فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له : مالك يابني ؟ قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فاضجعاني وشقا بطني فالتمسا (فيه) شيئا ولا ادري ما هو قالت : فرجعنا الى خبائنا قالت وقال أبوه : ياحليمة لقد خشيت ان يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقيه بأهله قبل ان يظهر ذلك به » (١٦) .

ثم تتوالى معجزات النبي : وكلما كبر وتوالت معجزاته قلما ان يتعرف على نبوته أهل الكتاب وينصحون عمه أبا طالب أن يخفي أمره عن اليهود حتى لا يتعرض لأذاهم ، اذ انهم يعرفون ان كتابهم قد بشر به ، أو قد تحدث ظواهر كونية لم تحدث من قبل كما حدث للحية التي كانت تسكن بئر الكعبة وتحول دون تسقيفها مهددة كل من يقترب منها « فبينا هي ذات يوم وتشرق على جدار الكعبة كما كانت تصنع ، بعث الله اليها طائرا فاختطفها فذهب بها فقالت قريش إنا لنرجو أن يكون الله قد رضي ما أردنا . (١٧) وأما ان تحدث للنبي نفسه معجزات قبل نزول الوحي عليه كتلك التي ذكرناها سابقا ، اوما ذكره كذلك ابن اسحق نقلا عن بعض اهل العلم « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اراده الله بكرامته وابتدأه بالنبوة كان اذاخرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه ، البيوت ويفضي الى شعاب مكة وبطون اوديتها فلا يمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر ولا شجر الا قال : السلام عليك يارسول الله قال : فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم . كذلك يرى ويسمع ما شاء الله ان يمكث ، ثم جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء في شهر رمضان » (١٨) .

ثم يهبط الوحي على الرسول عليه السلام وتبدأ الرسالة ، وهنا تفسح السيرة المجال للتاريخ فتحكي عن وقائع الصراع بين الرسول عليه السلام ومن تبعه من ناحية ، وقريش ومن تبعها من ناحية أخرى ، ولكن محمود ابن اسحق يأتي بين الحين والآخر بما سمعه عن معجزات تمت بعد الدعوة . ولا يسع ابن هشام إلا أن يروي بسندها الذي ذكره محمد بن اسحق ، فهذه رواية يحكيها محمد بن اسحق عن أبيه اسحق بن يسار قال « كان ركانة بن عبديزيد بن هاشم بن عبدالمطلب بن عبدمناف اشد قريش،فخلا يوما برسول الله صلى الله عليه وسلم

(١٥)السيرة جـ ١ ص ١٧٠
(١٦) السيرة جـ ١ ص ١٧٦
(١٧) السيرة جـ ١ ص ٢٠٩
(١٨) السيرة جـ ١ ص ٢٥٢

في بعض شعاب مكة . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياركانة الا تتقي الله وتقبل ما ادعوك اليه ؟ قال : اني لو اعلم ان الذي تقول حق لاتبعتك . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرأيت ان صرعتك أتعلم أن ما اقول حق ؟ قال : نعم . قال : فقم حتى اصارعك قال : فقام ركانة اليه فصارعه فلما بطش به رسول الله صلى الله عليه وسلم اضجعه وهو لا يملك من نفسه شيئا . ثم قال : عد يا محمد . فعاد فصرعه . ثم قال : يا محمد والله ان هذا للعجب أتصرعني ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأعجب من ذلك ان شئت ان اريكه إن اتقيت الله واتبعت أمري . قال : ماهو ؟ قال : ادعو لك هذه الشجرة التي ترى فتأتيني . قال أدعها . فدعاها فاقبلت حتى وقفت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فقال لها : ارجعي الى مكانك . قال : فرجعت الى مكانها . قال : فذهب ركانة الى قومه فقال : يا بني عبد مناف ، ساحروا بصاحبكم أهل الارض ، فوالله ما رأيت اسحر منه قط ، ثم اخبرهم بالذي رأى والذي صنع »[١٩] .

ثم توجت معجزات الرسول عليه السلام بالاسراء والمعراج ، وتكثر في هذه الحادثة المعجزة الروايات والأقوال : فمما رواه ابن اسحق نقلا عن ابن مسعود انه قال : أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق وهي الدابة التي كانت تحمل عليها الأنبياء قبله ، تضع حافرها في منتهى طرفها فحمل عليها ثم خرج به صاحبه يرى الآيات فيما بين السماء والارض حتى انتهى الى بيت المقدس فوجد فيه ابراهيم الخليل وموسى وعيسى في نفر من الانبياء قد جمعوا له فصلى بهم ثم أتي بثلاثة آنية : اناء فيه لبن واناء فيه خمر واناء فيه ماء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فسمعت قائلا يقول حين عرضت علي : ان اخذ الماء غرق وغرقت امته ، وان اخذ الخمر غوى وغوت أمته ، وان اخذ اللبن هدى وهديت امته . فقال : فاخذت اناء اللبن فشربت منه فقال لي جبريل عليه السلام : وهديت أمتك يا محمد »[٢٠] .

وفي رواية اخرى نقلها ابن اسحق عن الحسن انه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينا انا نائم في الحجر اذ جاءني جبريل فهمزني بقدمه فجلست ، فلم ار شيئا فعدت الى مضجعي فجاءني الثانية فهمزني بقدمه فجلست ، فلم ار شيئا فعدت الى مضجعي فجاءني الثالثة ، فهمزني بقدمه فجلست فأخذ بعضدي فقمت معه فخرج الى باب المسجد فاذا دابة لونها أبيض بين البغل والحمار في فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه يضع يده في منتهى طرفه فحملني عليه ثم خرج معي لايفوتني ولا أفوته »[٢١] .

وفي رواية ثالثة عن قتادة انه قال « حدثت ان رسول الله صلى عليه وسلم قال » لما دنوت منه لاركبه شمس ، فوضع جبريل يده على معرفته ثم قال : ألا تستحي يابراق مما تصنع فوالله يا براق ماركبك عبد لله قبل محمد اكرم على الله منه قال : فاستحيا حتى أرفض عرقا ثم قر حتى ركبته »[٢٢] .

---

(١٩) السيرة جـ ١ ص ١٧٨
(٢٠) السيرة جـ ٢ ص ٢ ، ٣
(٢١) السيرة جـ ٢ ص ٣
(٢٢) السيرة جـ ٢ ص ٣ ، ٤

ثم يأتي ابن اسحق برواية اخيرة عن بعض آل ابي بكر عن عائشة انها قالت « ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن اسرى بروحه »(٢٣).

هذا بالنسبة للاسراء . أما ما قبل المعراج فهو كثير ونحن نكتفي برواية الأخبار المسندة التالية لأنها لعبت دورا كبيرا في الروايات الشعبية . فقد روى ابن اسحق قال « وحدثني من لا أتهم عن ابي سعيد الخدري رضى الله عنه انه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لما فرغت مما كان في بيت المقدس اتى بالمعراج ولم ارشيئا قط أحسن منه وهو الذي يمد اليه ميتكم عينيه اذا حضر فاصعدني صاحبي فيه حتى انتهى بي الى باب من ابواب السماء يقال له باب الحفظة عليه ملك من الملائكة يقال له : اسماعيل تحت يديه اثنا عشر ألف ملك تحت يدي كل ملك منهم اثنا عشر الف ملك قال : يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حدث بهذا الحديث « وما يعلم جنود ربك الا هو » قال فلما دخل بي قال : من هذا ياجبريل ؟ قال محمد ، قال : أو قد بعث ؟ قال نعم : فدعا لي بخير وقاله » (٢٤).

ثم يستطرد ابن اسحق فيقول : وحدثني بعض أهل العلم عمن حدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : تلقتني الملائكة حين دخلت السماء الدنيا ؛ فلم يلقني ملك الا ضاحكا مستبشرا يقول خيرا ويدعو به ، حتى لقيني ملك من الملائكة فقال مثل ما قالوا ودعا بمثل مادعوا به ، الا أنه لم يضحك ولم ارمنه من البشر مثل ما رايت من غيره فقلت لجبريل : يا جبريل من هذا الملك الذي قال لي كما قالت الملائكة ولم يضحك ، ولم ار منه من البشر مثل الذي رأيت منهم ؟ قال : فقال لي جبريل : اما انه لوكان ضحك الى أحد كان قبلك اوكان ضاحكا الى احد بعدك لضحك اليك ولكنه لا يضحك . هذا مالك خازن النار . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت « لجبريل وهو من الله تعالى بالمكان الذي وصف لكم (مطاع ثم آمين) ألا تأمره ان يريني النار ، فقال : بلى . يا مالك أرِ محمدا النار . فقال : فكشف عنها غطاءها ففارت وارتفعت حتى ظننت لتأخذن ما أرى . قال : فقلت لجبريل : ياجبريل مره فليردها الى مكانها . قال : فأمره فقال لها : إخبي . فرجعت الى مكانها الذي خرجت منه فما شبهت رجوعها الا وقوع الظل حتى اذا دخلت من حيث خرجت رد عليها غطاءها . (٢٥)

ثم يستطرد ابن اسحق في ذكر مارآه الرسول عليه السلام في السموات نقلا عن الاحاديث المروية . فقد رأى في السماء الأولى الذين يضربون بسوءاتهم . فمن اكلة اموال اليتامى الى أكلة الربا ، الى اهل الزنا الى النساء غير الشريفات وغير ذلك . اما في السماء الثانية فقد رأى عيسى عليه السلام ، وفي الثالثة رأى يوسف ، وفي الرابعة رأى ادريس ، وفي الخامسة رأى هرون بن عمران ، وفي السادسة رأى موسى بن عمران ، وفي السابعة رأى ابراهيم أبا الانبياء .

---

(٢٣) السيرة جـ ٢ ص ٥
(٢٤) السيرة جـ ٢ ص ١٠ ، ١١
(٢٥) السيرة جـ ٢ ص ١١ ، ١٢

- ٥ -

ونكتفي بهذا القدر من الاخبار التي رويت بالسيرة ، لأن مايلي ذلك في السيرة النبوية المدونة عن ابن اسحق يفرغ لتاريخ الدعوة : كيف حوربت وكيف انتشرت وكيف هاجر المسلمون الى الحبشة ثم الى المدينة ، ثم يلي ذلك تاريخ غزوات الرسول عليه السلام شرقا وغربا حتى وفاته عليه السلام .

ونحن اذ نهتم بذكر هذه الاخبار السالفة في السيرة فلأنها كانت تختص بفترة حاسمة في تاريخ الدعوة ، وهي التي وقف منها الناس من على بعد يتأملونها ويجيلون الفكر بين ما هو قائم وما سيكون . ولهذا فهي فترة لاتمتلئ بالاحداث بقدر ما تمتلئ بالصراعات النفسية . ثم تاخذ الدعوة بعد ذلك في الاستقرار تدريجيا ويصبح الصراع صراعا حربيا بين جماعتين إحداهما آمنت وكونت جيشا بقيادة الرسول عليه السلام ، والأخرى لاتريد ان تستسلم فتكون جيشا يقف مناوئا للقوة المسلمة . وعندما يستقر الاسلام وينتصر المسلمون وتنتشر الدعوة في الداخل وتأخذ في الانتشار في الخارج ، ويصبح للدولة كيان سياسي ديني وطني هو الاسلام تظل الألسنة تردد اخبار هذا التاريخ الطويل ، وتظل شخصية الرسول عليه السلام هي شخصية البطل المثالي ، واذا تعلق الشعب بشخصية البطل المثالي فان الروايات تكثر كما هو الحال في القصص البطولي التي تلا ذلك حول شخصية البطل من قبل ولادته ، ثم في اثناء ولادته وبعدها ، حتى يصبح بطلا محاربا يخوض المعارك لينتصر وينصر قومه ، ولهذا فان الحقبة الأولى من حياة البطل قبل قيامه بالحروب تحفل دائما بروايات كثيرة مبدؤها الخيال ، أو لنقل يصنعها الخيال ، ذلك ان البطل ـ المنقذ لأمته والذي يدعو لدعوة جديدة تلغي القديم البالي وتحل محله الجديد النافع ، هذا البطل لابد أن يكون مختارا بعناية ، إلهية ، ولابد ان تكون هناك بشارات بميلاده ، ثم ان ميلاده لابد ان يكون معجزا ، وتستمر الروايات التي تكشف عن تميزه دينيا واجتماعيا حتى يثبت كل هذا عمليا من خلال عمله البطولي .

وليس غريبا ان تحفل القصة النبوية المروية بهذا الجزء بصفة خاصة ولاتحفل بالغزوات . وربما استغلت الغزوات في رواية قصص بطولي فيما بعد كما سنرى وشيكا . ولكن مثل هذه الروايات انتشرت لأسباب حزبية ثم دونت . أما الرواية التي مازال تروى في المناسبات الدينية بصفة خاصة فهي تلك التي تختص بأحداث الجزء الاول والثاني من السيرة قبل ان تبدأ الغزوات وهما الجزء ان اللذان يحفلان بصفة خاصة بالمعجزات ، ونحن نفترض ان ابن اسحق كان اطال هذا الجزء من السيرة اكثر من ذلك ولكنه ـ اختصره بامر من المنصور ، ومع ذلك فقد وجد ابن هشام نفسه امام روايات كثيرة بعضها ـ ضعيف السند او قد يرفضه العقل كلية ، ولهذا فقد صرح في مقدمة كتابه ان سيترك لنفسه حرية التصرف في مثل هذه الروايات فقال وانا ـ ان شاء الله ـ مبتدئ" هذا الكتاب بذكر اسماعيل بن ابراهيم ومن ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ولده وأولادهم ـ لأصلابهم الأول ، فالأول من اسماعيل الى رسول الله صلى عليه وسلم وما يعرض من حديثهم ، وتارك ذكر غيرهم من ولد

اسماعيل على هذه الجهة للاختصار الى حديث سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتارك بعض ما ذكره ابن اسحق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ذكر ولانزل منه من القرآن شيء وليس سببا لشيء من هذا الكتاب ولاتفسيرا له ولا شاهدا عليه » [٣٦] .

ولهذا فاننا نجد ان ابن هشام حريص على ذكر السند ضعيفا كان ام قويا فان لم يجد سندا فانه يبدأ الخبر بعبارة (ويزعمون والله اعلم) ثم يترك القارئ يميز بين الخبر القوى والضعيف من خلال درجة السند . وابن هشام اذ يفعل هذا انما يفعله بتأثير الاتجاه العقلي الذي ساد فكر العرب آنذاك .

ونحاول الآن تقديم بعض الروايات الشعبية المدونة والمروية لنرى :

اولا : الموضوعات الاساسية التي ترتبط بالسيرة من قريب اومن بعيد والتي شغلت ضمير الشعب العربي فصاغ حولها قصصا مختلفة .

ثانيا : كيف ضخم الخيال الشعبي لبعض الاحداث التي وردت في السيرة ولماذا ؟

ثالثا : ما هو النمط الذي يروي اليوم ويحرص الشعب على روايته في المناسبات الدينية .

ـ ٦ ـ

اولا :

اما الموضوع الذي اهتمت به الروايات العربية متأثرة بالسيرة النبوية فهو موضوع قصص الانبياء ، فقد سبق ان ذكرنا ان السيرة النبوية حرصت على ان تبدأ من الاجداد الانبياء فرفعت نسب الرسول عليه السلام الى اسماعيل وابراهيم عليهما السلام، بل ان كتاب التاريخ مثل الطبري كانوا يبدأون تاريخهم بآدم ثم يتسلسلون بالتاريخ حتى الرسول عليه السلام ،ولاغرو ان يهتم الضمير العربي بقصص الانبياء بخاصة هؤلاء الذين خصهم القرآن الكريم بكثير من الأيات . ويهمنا ان نعرف كيف صاغ الخيال الشعبي مثل هذا القصص متأثرا بالسيرة النبوية بصفة خاصة وبحسه الاسلامي بصفة عامة .

ولنتخذ من قصة ابراهيم عليه السلام نموذجا لهذا القصص [٣٧] وهنا نجد ان القصة تحذو حذو السيرة النبوية في بنائها العام ، وتتلخص الخطوط الاساسية لهذا البناء فيما يلي :

١ ـ الاشارة الى الحياة الدينية التي كان عليها الناس من قبل وبعد ولادة النبي .

٢ ـ ولادة النبي المعجزة والبشائر التي تبشر بولادته .

٣ ـ نمو وعي النبي عندما يكبر بما عليه قومه من كفر وطغيان .

٤ ـ بدء معركة الصراع بينه وبين قومه .

---

(٣٦) السيرة المقدمة ص ١٩

(٣٧) قصة سيدنا ابراهيم ـ وهي قصة تقع في ست عشرة صفحة ـ المكتبة التجارية القاهرة .

٥ ـ انتصاره عليهم .

٦ ـ وفاته بعد ان يخلف وراءه من يحمل رسالته .

وكما ان السيرة تهتم بحياة الرسول الخاصة التي لاتنفصل بحال من الاحوال عن رسالته الدينية ، كذلك اهتمت سيرة ابراهيم عليه السلام فحكت عن زواجه وعن اسفاره ، وعن علاقته بابنائه ، وبذلك تتكامل السيرة من بدايتها الى نهايتها .

كما يتمثل تأثر قصة ابراهيم عليه السلام بالسيرة النبوية في استغلال بعض موضوعاتها الاساسية ، ومثال ذلك استغلالها لموضوع الاسراء . فهي تحكي نقلا عن محمد بن اسحق ان ابراهيم كان « اذا اراد زيارة هاجر واسماعيل حمله البراق فيغدو من الشام فيقيل بمكة ويروح من مكة فيبيت عند اهله في الشام » .

واذا كانت السيرة النبوية ذكرت حديثا رفعته الى عائشة انها قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما اسمعه يقول : ان الله لم يقبض نبيا حتى يخيره »[٢٨] فان قصة ابراهيم تستغل هذا الحديث في ادارة حوار بين ابراهيم وملك الموت الذي جاءه متنكرا ولم يقدم على قبض روحه إلا بعد ان طلب ابراهيم منه ذلك .

اما الاثر الاسلامي العام فيتضح من خلال ربط قصة ابراهيم عليه السلام بما ورد في القرآن الكريم من آيات بحيث استنفذت القصة جميع الآيات التي وردت عن الرسول الكريم في نسج احداثها ، بل انها لخصت صفات النبي ومعالم شخصيته مستعينة بما ورد في القرآن الكريم من صفات فهي تقول : « انه النبي تجرى ألسنة الخلق كلهم بتصديقه وتفضيله وتبجيله في كل أمة وذلك بدعائه عليه السلام (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) وهو المبتلى بأنواع البلاء ، والمشهود له بالوفاء . قال الله تعالى (واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن) . وقال تعالى (وابراهيم الذي وفى) . اي بما أمر به وهو القانت . قال الله تعالى (ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين) وهو اول من اقام المناسك بدعائه حيث قال (وأرنا مناسكنا) فاستجيب له ، وهو أول من ضحى ، واول من القي في النار ، واول من احيا الله له الموتى بسؤاله حيث قال (رب ارني كيف تحيي الموتى) واول مهاجر لله وسماه حليما ومنيبا وأوابا . قال الله تعالى (ان ابراهيم لحليم أواه منيب) وبالاضافة الى كل هذه العناصر التي استغلتها قصة ابراهيم ، فهناك الروايات التي مصدرها الخيال الشعبي ، وعندما تلتحم هذه العناصر الخيالية التي ـ استمدها الرواة من السيرة النبوية والقرآن الكريم فان السيرة تبدو في مجملها في اطارها التاريخي كما يبدو الحديث القريب كأنه طبيعي عندما يؤدي دوره في نسج القصة .

ونحاول الآن أن نقدم ملخصا لقصة ابراهيم لنرى كيف استطاعت ان تجمع بين هذه العناصر جميعا في اطار قصصي متكامل .

كان مولد ابراهيم عليه السلام في عصر الملك النمرود الذي عرف بكفره وطغيانه ، وحذره المنجمون من أنه سيولد في بلده هذا العام غلام يغير دين أهل الارض ويكون هلاكه وزوال ملكه على يديه ويقال « رأى النمرود في

(٢٨) السيرة جـ ٤ ص ٣٤٢

سماه كوكبا طلع فذهب منه نور الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء فقال له الكهنة : هو مولود يولد في هذه السنة يكون هلاك أهل بيتك على يديه » . (نلاحظ هنا تشابها بين هذه النبوءة ونبوءة ملك اليمن قبل ان يولد النبي عليه السلام بسنين طويلة) . عندئذ أمر النمرود بذبح كل غلام يولد في تلك السنة . وحملت أم ابراهيم ، ثم ولدته وأخفته في مغارة ، وكانت كلما دخلت عليه وجدته يمص أصابعه ، فكان إصبع يدر له اللبن والثاني العسل والثالث السمن والرابع الماء والخامس الخمر . وكان اليوم على ابراهيم كالشهر ، والشهر كالسنة ، فلم يمكث ابراهيم في المغارة إلا خمسة عشر يوما حتى جاء الى ابيه فاخبرة أنه ابنه (خيال يعتمد على موضوع الطفولة المعجزة) فلما شب عن الطوق أتته أمه يوما فقال لها « يا أماه من ربي ؟ قالت : أنا . قال : فمن ربك ؟ قالت : أبوك . قال : فمن رب أبي ؟ قالت : النمرود . قال فمن رب النمرود ؟ قالت : أسكت ، فسكت . فرجعت الى زوجها فقالت : أرأيت الغلام الذي كنا نتحدث عنه انه يغير دين أهل الارض ؟ انه ابنك ! .

وتفكر ابراهيم في خلق السموات والأرض فرأى الكوكب قبل القمر قال : هذا ربي . فذلك في قوله تعالى (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال : هذا ربي) فلما غرب قال : (لا أحب ربا يغيب . (فلما رأى القمر بازغا قال : هذا ربي) فلما غرب قال : (لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين) (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا اكبر) فلما غربت قال (يا قوم اني بريء مما يشركون اني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض حنيفا وما أنا من المشركين) . (هنا تستعين الرواية بالنص القرآني) .

وكان قومه يعبدون الأصنام فكان أبوه يصنعها ويعطيها لابراهيم ليبيعها لهم فكان ينادي عليها قائلا : من يشتري ما يضر ولا ينفع ! فلا يشتريه أحد (وحاجه قومه) .

فقال لهم اتحاجوني في الله وقد هداني . ثم دعا أباه آزر الى دينه وقال له (يا أبت لم تعبد ما لا يضر ولا ينفع) فأبى أبوه الاجابة فبلغ ذلك النمرود فدعاه اليه فقال : من ربك ؟ قال (ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت) آخذ الرجلين قد استوجبا القتل في حكمي ، فأقتل أحدهما واعفي عن الآخر فأكون قد أمت وأحييت . فقال له ابراهيم (ان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر) أي النمرود .

ثم ان ابراهيم أراد أن يظهر الحجة عليهم فلما كان يوم عيدهم خرجوا ولم يبق أحد وأخذ أبو ابراهيم ابراهيم ابنه معه فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال (اني سقيم) اشتكي رجلي فتركوه وذهبوا ، فدخل بيت الاصنام وكسرها جميعا تاركا كبير الاصنام بعد أن علق في رأسه الفأس . فلما رجع القوم ودخلوا بيت الاصنام هالهم ما رأوا وتساءلوا عمن يمكن أن يكون قد فعل هذا بآلهتهم فرد قوم (سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم) فأمر باحضاره وسأله النمرود (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوه إن كانوا ينطقون)فنكسوا رؤوسهم وحاروا في الجواب ، ثم قر رأيهم على أن يلقوه بالنار ، ويقال أن الذي أشار عليه بحرقه هو رجل من الاكراد يقال له شعيب ، وقيل اسمه هنون ، فخسف الله به الأرض وهو يتخلخل فيها الى يوم

القيامه . (خيال) فلما أعدوا له النار صاحت السموات والأرض والجبال ومن فيهن من جميع الملائكة صيحة واحدة وقالت : يارب أنت أعلم ان ابراهيم ليس في الأرض من يعبدك غيره يحترق فيك فأذن لنا في نصرته ، فقال لهم الله تعالى : ان استعان بكم في شيء أو دعا أحدا منكم فلينصره ، وقد أذنت له بذلك ، وان لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه ، فخلوا بيني وبينه . فلما أرادوا القاءه في النار أتاه ملك المياه فقال له : ان أردت أطفأت النار ، فان خزائن المياه والأمطار عندي . وأتاه خازن الريح فقال : إن أردت طيرت النار في الهواء . فقال لهم ابراهيم : لا حاجة بي اليكما ثم رفع رأسه الى السماء فقال : اللهم أنت الواحد في السماء وأنا الواحد في الأرض ، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري . ثم جاءه جبريل فقال له ابراهيم :ألك حاجة ، قال : أما اليك فلا . فقال له جبريل : سل ربك ، فقال : حسبنا الله ونعم الوكيل » . (نلاحظ هنا أن القاص يريد أن يبرز قوة شخصية ابراهيم وقوة ايمانه بحيث أنه لا يريد أن يستعين بأي من مخلوقات اللـه حتى لو كانت مسخرة لمساعدته) .عند ذلك قال الله تعالى (يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم) . « قال علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهما : لو لم يقل سلاما لمات ابراهيم من بردها ولم يبق يومئذ في الأرض نار الا أطفئت » . ثم أخذت الملائكة به وأجلسته الى جانب عين ماء وورد أحمر ونرجس أصفر . كما أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة .

وعلى هذا النحو تستمر القصة في سرد سيرة ابراهيم . فهي مرة تستعين بالأحداث التاريخية التي يدعمها النص القرآني . ومرة اخرى تملأ ما تجده من فراغ قصصي بروايات خيالية او قصص تعليلية طريفة . فاذا قال الله تعالى في كتابه الكريم : « وفديناه بذبح عظيم » . علل القاص كلمة عظيم بقوله : « وكان كبشا رعى في الجنة اربعين خريفا ، وهو الذي قربه هابيل ابن آدم عليهما السلام وقتل بسببه . فلذلك سماه الله عظيما ». واذا كان هناك يومان في شعائر الحج ، احدهما يسمى يوم التروية والآخر يوم عرفة ، علل هذه التسمية بقوله : « ثم رأى ابراهيم عليه السلام في منامه قائلا يقول له : يا ابراهيم ان الله يأمرك بذبح ولدك ، وكان ليلة التروية ، فلما اصبح تروى في نفسه أمِنَ الله هذا المنام ام من الشيطان .فمن ثم سمي بيوم التروية . فلما امسى رأى في المنام ثانيا : فلما اصبح عرف ان ذلك من الله ، فمن ثم سمي يوم عرفة ». وهو اذا قص عن الموقف الذي تهيأ فيه ابراهيم لذبح ابنه ، صعد هذا الموقف دراميا حتى يجعله يطلب اسماعيل من ابيه قائلا : « يا ابت كبني على وجهي فانك اذا نظرت الى وجهي رحمتني وتدركك رقة تحول بينك وبين امر الله تعالى ».

وتنتهي قصة ابراهيم عليه السلام بموته . وقد سبق ان ذكرنا ان القصة تفيد من الحديث الذي ورد في السيرة والذي يقول « ان الله لم يقبض نبيا حتى يخيره . فتتفنن في وصف هذا الموقف فتقول « لما اراد الله تعالى قبض روح ابراهم عليه السلام ارسل ملكا في صفة شيخ هرم ... فبينا هو يطعم الناس اذا هو بشيخ كبير يمشي في الخلوة فبعث اليه بحمار فركبه . فلما اتاه قدم اليه الطعام ، فجعل الشيخ يأخذ اللقمة يريد ان يدخلها فاه فيدخلها مرة في عينه ومرة في اذنه ثم اذا ادخلها في فمه ودخلت في جوفه خرجت من دبره . وكان ابراهيم عليه

السلام قد سأل ربه الا يقبض روحه حتى يكون هو الذي يسأل الموت . فقال ابراهيم للشيخ حين رأى حاله : ما بالك يا شيخ تصنع هذا ؛ قال يا ابراهيم ، الكبر . قال : ابن كم انت ؟ قال : ابن مائتي سنة . فوجد عمره يزيد عن عمر ابراهيم بسنتين . فقال له ابراهيم : انما بيني وبينك سنتان . فاذا بلغت عمرك صرت مثلك ، اللهم اقبضني قبل ذلك اليوم . فقام الشيخ فقبض روحه عليه الصلاة والسلام .

ولا تنسى القصة في خاتمتها ان تلمح الى ان ابراهيم كان يسير على شريعة الاسلام فتقول : « ان اول من صلى صلاة الصبح آدم صلوات الله عليه حين اهبط من الجنة الى الارض ودخل الليل ، ولم يكن يعرف الليل قبل ذلك ، فخاف خوفا شديدا من الظلمة . فلما انشق الفجر صلى ركعتين شكرا لله تعالى ، الركعة الاولى للنجاة من ظلمة الليل ، والثانية شكرا لرجوع ضوء النهار ، فكان ذلك سبب كونها ركعتين وفرضت علينا ، واول من صلى الظهر ابراهيم عليه السلام حين امر بذبح الولد ، صلى اربعا : الاولى شكرا لذهاب غم الولد ، والثانية شكرا لنزول الفداء ، والثالثة شكرا لرضاء الله تعالى حين نودي : قد صدقت الرؤيا ، والرابعة لصبر ولده على معرة الذبح ، وكان ذلك منه تطوعا ، وقد فرض علينا » .

وهكذا نرى كيف جمعت القصة بين العناصر المختلفة المنقولة والمؤلفة في تناسق وتناسب تام بحيث لم يطغ عنصر على الآخر ، وبحيث اصبحت القصة متكاملة ليست فيها فجوة الا وملئت بحدث .

واذا كانت قصص الانبياء تكاد تلتف حول هذا الشكل من التأليف فان قصة موسى عليه السلام [29] وقد صيغت على نحو آخر . ذلك ان قصة ولادة موسى وحوادث حياته تنقشع على نحو متكامل ، ولكن الحدث الذي ربما شغله أكثر من اي حدث اخر هو كلام الله مع موسى ، ففضلا عن ان هذا الموضوع موجز من القرآن الكريم ، ويكاد يقتصر على رسالة موسى الى فرعون ، فان الخيال الشعبي اتخذ منه مجالا خصبا للافاضة في حوار طويل بين الله وموسى بحيث يقف موسى متسائلا عن كل المسائل التي يود الانسان الشعبي المسلم أن يجد لها اجابة شافية فقد سأل موسى ربه على سبيل المثال قائلا « يارب بما اتقرب اليك ؟ قال الله تعالى : ياموسى قل لا إله الا الله فان من قالها على حق ياموسى فلو وضعت السماوات والارض ومن فيهما من البحر والبر والسهل والجبل وجعلت في كفة فقول لا إله الا الله افضل .. قال موسى . رب بما اتقرب اليك ايضا ؟ : قال من اكثر من الصلاة على محمد وكان قائما بين يدي الله عز وجل وفي يده سبعة الواح من اللون الابيض مكتوب فيها بعلم مأثور من حكمة وعظة . فلما سمع موسى بذكر محمد قال : ومن محمد حتى اعرفه ؟ فلما نطق موسى بهذه الكلمات طار من الالواح ثلاثة من يده وبقى أربعة فقال عز وجل : ما خلقت الجنة الا لمحمد وامته وان تقر بنبوته لطارت بقية الالواح من يدك قال موسى يارب آمنت به . ثم قال موسى : يارب من احب اليك انا ام محمد ؟ قال الله تعالى : انت كليمي ومحمد حبيبي والحبيب افضل من الكليم قال : يارب كيف فضلته على وانت كلمتني بلا واسطة ؟ قال : ياموسى

(٢٩) قصة مناجاة كليم الله سيدنا موسى عليه السلام ـ المكتبة الأهلية ـ وادي مدني ـ السودان

انا اكلمك على جبل الطور واكلم محمدا على بساط من النور ... فسأل موسى : ياربي هل كلمت احدا قبلي ؟ قال : نعم كلمت آدم قال : هل تكلم احدا بعدي ؟ قال : اكلم محمدا فاعطيه الرضا عن امته . قال : من أحب اليك امة محمد أم بنو اسرائيل ؟ قال الله ياموسى امة محمد احب الى من جميع الامم ، ونبيهم اكرم عندي من جميع الانبياء » .

وبهذا تكون قصة « كليم الله موسى عليه السلام » مبشرة برسالة محمد ومؤكدة لانتشار هذه الرسالة بين امة تدعى أمة محمد .

على ان القصة تحتوي في حوارها على مسائل اخرى شغلت الضمير الجمعي ووجدتها فرصة لان تطرحها على لسان موسى . ولن نخوض في هذه المسائل حيث لاصلة بينها وبين السيرة النبوية ، بل هي اشبه بمسائل ميتافيزيقية ونحن نحيل القارئ على قراءتها مفصلة لطرافتها .

ونخلص من هذا بان هذه القصة التي بين ايدينا تحت عنوان « قصة كليم موسى » ليست في الحقيقة قصة بل هي مجرد حوار بين موسى والله تعالى . وربما سميت قصة على سبيل التجاوز حيث انها تتحدث عن نبي من الانبياء .

ونكتفي بهذا القدر من قصص الانبياء لنفرغ لموضوع آخر انتشر في الروايات الشعبية متاثرا بالسيرة النبوية ونعني بذلك موضوع المعجزات .

-٢-

ثانيا ـ القصص المدون عن معجزات الرسول عليه السلام :

ومن المعروف ان الشعوب جميعا تميل الى قص حكايات المعجزات كما تميل الى الاستماع اليها ، ولا غرابة ان تنتزع من السيرة تلك الاخبار التي تشير الى المعجزات او تلك التي يمكن ان تستغل هذا الموضوع فينميها القصاص الشعبي ويفرد لها قصصا مستقلة . ولا يخرج الدافع وراء مثل هذا القصص عن ثلاثة امور : إما ان يكون الدافع هو رواية معجزات الرسول عليه السلام في حد ذاتها بقصد تاكيدها ، او ان يكون وراء هذه المعجزات دافع اجتماعي اخلاقي ، وربما روجت هذه الحكايات بعد تحريرها للدعاية لحزب الشيعة الموالي لعلي بن ابي طالب . فقصة عامر اليهودي عابد الاصنام [٢٠] تروي بغرض تاكيد ـ معجزات الرسول (ص) . وقصة اليتيم المظلوم تهدف الى التذكير بالقيم الاجتماعية الايجابية التي دعا اليها الاسلام ، أما قصة الغزالة والجمل والتي ماتزال تروي حتى اليوم فانها تشير الى الغرضين معا . واما القصص الذي روج لعلي بن ابي طالب فهو كثير وسنكتفي بالاشارة الى نمط منه في حينه مستقل من السيرة النبوية .

(٢٠) قصة عامر اليهودي ـ المكتبة التجارية وتقع في ثلاث صفحات .

وتحكي قصة عامر اليهودي عبد الاصنام انه كا له ابنة اصيبت بالفالج والجذام ، وكان ابوها يتوسل لدى الاصنام لكي تشفيها من دائها ، وذات يوم بينما كان الاب عامر عاكفا على عبادة صنمه ، شاهد نورا ملأ الآفاق ثم كشف الله عن بصيرته فرأى الملائكة عند الكعبة وقد اصطفت وراء الجبال الساجدة والارض الهامدة وسمع مناديا ينادي قد ولد النبي الهادي ، ثم نظر الى الصنم فاذا هو منكوس ، واذا به يسمع صوتا مصدره حجر يناديه : قد ولد النبي الهادي ، فلفت نظر زوجته الى الصوت ومصدره فقالت : له : سله ما اسم هذا المولود الذي شرف به الوجود » فقال له : اسمه محمد المصطفى فقال لزوجته : اخرجي بنا نسير في طلبه لعلنا نهتدي الى الحق بسببه ، وفي هذه اللحظة راى ابنته تقف امامه سليمة معافية ليس بها أي داء ، وكان قد تركها طريحة الفراش في اسفل البيت فسألها ابوها وهو في ذهول تام عما اذا كانت قد شفيت فحكت له انها رأت نورا قد ملأ مابين السماء والارض وعم الوجود ، ثم رأت شخصا امامها يسطع النور من وجهه فلما سالت عمن هو : قيل لها انه سيد ولد عدنان ، فلما سالت عن اسمه قيل لها محمد واحمد ، ثم سالت عن دينه قيل لها حنيفا دين الاسلام ، وهو قرشي ويعبد الواحد القهار رب السماوات والارض ، فلما سالت عن مصدر الصوت أجابها الصوت : انا الملائكة المبشرون » عندئذ شكت لها دائها فقالت لها الملائكة : توسلي الى الله بجاهه فقد قال الرب القريب الداني اني قد اودعت الانسان سري وبرهاني ، فلا اخيب من دعاني فبسطت يدي ودعوت الله بجاهه كما وفقني وهداني ، ثم سحبت بيدي على وجهي وجسدي فاستيقظت وانا صحيحة كما تراني » .

عند ذاك اخذ الاب ابنته بين احضانه وقرر ان يرحلوا جميعا لتوهم الى مكة لرؤية المولود النبي ، وهناك في مكة طرقوا بيت آمنة بنت وهب وسالوها عن هذا المولود الذي نور الله به الوجود ، فقالت « اني اخاف عليه من اليهود فقالوا لها ، نحن فارقنا اوطاننا في محبته وتركنا ديارنا لنرى جمال هذا الحبيب الذي من قصده لا يخيب » فسمحت لهم بالدخول وكشفت الغطاء عن وجه الطفل لتطلعهم عليه « فتبسم وخرج من فمه عامود نور فصاحوا من فرحهم وصفقوا ، ثم قبلوا قدميه وسلموا العهد والامانة ، وقالوا :اخفيه عن اعين الناظرين » ثم خرجوا .

ولم يكد عامر يجاوز عتبة الباب حتى شعر برغبة شديدة في رؤية الطفل مرة اخرى فعاد الى ام الوليد ولم تمنعه من رؤيته مرة اخرى« فانكب على قدميه واخذ يقبلها وشهق شهقة وعجل الله بروحه الى الجنة » .

فهذه القصة مع بساطتها استغلت عناصر كثيرة من السيرة النبوية وهي تلك العناصر التي تحكي عن معجزات الرسول عليه السلام ، فقد استغلت ماروى في السيرة من ايمان بعض المكابرين والمعاندين المقاومين للدعوة سواء كانوا من العرب او من اليهود ، كما استغلت قصة النبوءة التي رآها كسرى وغيره ورأوا فيها اشراقة من النور تعم الكون عند ولادة الرسول عليه السلام ، ثم ذلك الخبر الذي يحكي كيف ان الاحجار كانت تحيي النبي عليه السلام قبل ان يهبط عليك الوحي وتقول له « السلام عليه يا رسول الله » .

هذه العناصر جميعا استغلتها القصة لتحكي عن الميلاد المعجز للرسول عليه السلام ، وقد اسندت القصة احداثها ليهودي جعلته عابدا للأصنام ، ومعنى هذا انها جعلته كافرا بدينه ، ومع ذلك فقد جعلته مصدقا برسالة الرسول عليه السلام وهو مازال طفلا في المهد .

اما قصة اليتيم المظلوم[٣٦] فربما ألفت بتأثير الآية القرآنية (وأما اليتيم فلا تقهر) وهي تحكي ان النبي عليه السلام بينما كان عائدا من غزوة من غزواته اذ به يرى طفلا صغيرا مسكينا نائما على الأرض ومن حوله الاطفال يلعبون فايقظه الرسول عليه السلام وسأله عن السبب في عدم مشاركته الاطفال في اللعب فرد عليه الطفل قائلا ولم يكن يعرفه « ياعمي لم تسألني هذا السؤال ما الفائدة التي تعود عليك منه ؟ اني قرات في التوراة من سأل عما لايعنيه يقع فيما لايرضيه » ثم أنشد شعرا يشكي فيه حال الدنيا وظلم اهلها فاعجب النبي بفصاحة الصبي ، وكان ابدى اعجابه بشعر قال له شعرا آخر احسن منه . وبعد ذلك عرفه الرسول بنفسه فراح الصبي يقبل قدمي الرسول عليه السلام . عند ذلك سأله ـ النبي ما اذا كان يقبل ان الرسول عليه السلام جده وابوه علي بن ابي طالب والحسن والحسين اخواه فتهلل الصبي وقبل مطلب الرسول عليه السلام على الفور وهناك في المدينة قدم الرسول عليه السلام الصبي الى فاطمة ابنته وزوجة علي بن أبي طالب وطلب منها ان ترعاه رعايتها للحسن والحسين . فرحت فاطمة بالصبي وضمته الى ابنيها وذات يوم غضبت ـ فاطمة منه لسلوك لم يعجبها منه فضربته فبكى الصبي ورآه الرسول عليه السلام وهو يبكي فقال لفاطمة « يا فاطمة ما احضرته الا ان تربيه وتحسني اليه وان الله سبحانه وتعالى غضب على ضرب اليتيم وانه انزل اية في ضرب اليتيم بسم الله الرحمن الرحيم » (فأما اليتيم فلا تقهر واما السائل فلا تنهر واما بنعمة ربك فحدث) عند ذلك اعتذرت له فاطمة بشدة كما اعتذرت للصبي .

وكان النبي يتهيأ بعد للخروج الى غزوة من غزواته فطلب للصبي ان يخرج معه محاربا فاخذه الرسول عليه السلام معه ودخل الصبي فأصيب بضربة قاتلة اودت بحياته فغسله الرسول عليه السلام وكفنه وصلى عليه ووراءه سبعون الف من الملائكة واودعه قبره وانصرف » .

واما قصة الجمل والغزالة [٣٧] فهي قصة منظومة ومازال تروي شعرا حتى اليوم وتحكي القصة عن معجزة نطق فيها الجمل والغزالة لكي يشتكيا للرسول عليه السلام من ظلم الانسان وطلبا منه الانتصار لهما .

واذا كانت هذه القصة في عمومها تعد من قصص الحيوان الرمزي يقوم بوظيفة الكشف عن طبائع الانسان الخسيسة وعن غبائه وقلة حيلته في بعض الاحيان فانها هنا في هذا المجال لاتؤدي هذا الغرض وحده ، بل تؤدي

(٣٦) قصة اليتيم المظلوم ـ المكتبة التجارية وتقع في سبع صفحات .
(٣٧) قصة الجمل والغزالة ـ المكتبة التجارية وهي تقع شعرا في سبع صفحات .

غرضا آخر أهم منه هو اثبات معجزة الرسول عليه السلام فضلا عن الاشارة باخلاقه السامية التي حرص ان ينشرها بين المسلمين . وتبدأ القصة بمدح الرسول عليه السلام فتقول زجلا .../

في أول القول مدحك يانبي استفتاح   يامن تسلم عليك الشمس كل صباح
ما احلى مديحك وما اخفه على المداح   وانا ان مدحت النبي لم على جناح
وثاني القول مدحك يانبي مطلوب   وكم من ضيقة تفرجها على المغلوب

ثم يبدأ القاص في سرد أحداث الحكاية مشيرا الى خاتمتها التي تمثل عنصر التصعيد في حوادثها فيقول بعد هذا المدح مباشرة .

جت الغزالة لبنها على الثرى مسكوب   ضمنتها ياحبيبي لما أوفت المكتوب

فهذا البيت يشير الى خاتمة هذه الحادثة كما سنراها وهي ان النبي عليه السلام قبل ان يكون رهنا لدى صاحب الغزالة في مقابل ان يفك صاحبها اسرها حتى تذهب لارضاع اطفالها ثم تعود ، ولكن القاص لايلبث ان يترك موضوع الغزالة بعد هذا البيت ليحكي عن قصة الجمل وكأنه قد اكتفى بهذه الاشارة عن الغزالة ليوحي للمستمع انه سيحكي حكاية تربط بين قصة الغزالة وقصة الجمل في نسيج واحد ومن ثم فهو يعود فيربط الابيات الاولى التي قالها في مدح الرسول عليه السلام بما سيأتي بعد ذلك فيقول :

من بعد مدح النبي اسمع كلام معدود   منظوم منثور جواهر كله عقود
نطق الجمل والغزالة وأسلم ابو مسعود   على يد ابن رامة صفوة المعبود

وبهذا يكون القاص قد اكد عملية الربط للقصص بين حادثتين هما حادثة الغزالة وحادثة الجمل فيقول :

كان النبي والصحابة جالسين صفين   متجمعين بابن رامة سيد الكونين
الا اتى له جمل يبكي بدمع العين   نطق وقال السلام عليك مني يازين
قال الجمل للنبي ما جئت الا لك   وماجرى لي اريد ان انبئك واسالك
يامصطفى الحكاية تكتب في اوراق   بيني وبين صاحبي ياصفوة الخلاق
قد كنت ايام الصبا يازكي الأخلاق   ولي عزم تحت الحمول امشي ولا أنساق
وانا كنت مكروم وانا له شديد الحيل   ولي عزم تحت الحمول امشي شبيه الخيل
لما اتاني الفنا ياأحمد حلت الويل   بركت وعييت بعد القدرة والشيل
وكل يوم يجي صاحبي يشوف حالي   يزيد عليقي ويتوصى باحالي
جا صاحبي يوم شافني كده مسقوم   عيان ولا ليس جلد اهم واقوم

قال ده جمل حاله بحال الشوم ... يكره اذبحه واني بغيره يقوم
انا سمعت الكلام من صاحبي ياهادي ... بكيت على سقم حالي بعد اجتهادي
امر بذبحي فزاد سقمي وانكادي ... وقل عني عليقي وانقطع زادي
بقيت واقف وانا في علو واستحذار ... خايف من الذبح والسكين والجزار
فقلت مالي سوى الهادي مجير الجار ... اقصد حماه من قد الحيا ينجار
فانا أتيت قاصد الحمى والفرض ... يجيرني يامجير الناس يوم العرض
قال النبي للجمل ارتاح وحق الفرد ... لاخلصك باذن من السما والأرض
لاخلصك ياجمل من صاحبك واساه ... واكفيك شره وشر ابيه اذيته وبلاه
سار الجمل والصحابة والنبي قدّام ... من اجل شكوى الجمل والامر لله
سار النبي والصحابة والنبي قدام ... يرى الصحابة سحابة كانية النبي بلمام
قصد بيت صاحبه شار النبي لبلال ... أطرق الباب وصحى صاحبه في الحال
سمعت الجارية نزلت سريع للباب ... للجارية شرح ومعنى يسمع لجواب
كان سيدها ضربها كف فوق الخد ... قلع لها عين من جهله وهو معتد
نزلت لقت محمد لم مثله حد ... فتح عينها بعد العمى وارتد
رجعت تزغرت وهي في الحظ فرحانة ... فقال لها سيدها متين الفرح جاكي
قالت رأيت نبي بعيون نعسانه ... فتح عيوني بقت بالنور مليانه
فقال لها راجل ساحر وسحره فاق ... يبقي سحرك وجانا في دجل ونفاق
يبقي سحرك وجانا يطلب الاسرار ... انا انظر مراده واشوف ايه اللي جابه الدار
نزل يلاقي محمد باهي بالانوار ... وقف وقال : ايه مرادك ياسحار
قال النبي : بالعجل قبحت واتعديت ... وصرت من اهل الشرك واتعديت
لولا الجمل جايشكي من عيا حاله ... من كتر ما ضربته سقم وضعف حاله
قلّلت عنه العليق ليش ماله ... سمعك تقول ادبحه لليت وشكا لي
جيته وجيت ، سببه كراما لي ... تبقي مروة عظيمة واكراما لي
قال اليهودي لطّه يامحمد سير ... هذا الكلام غير صحيح ليس معني تأثير
كيف ما تطلق يهود الصعب والتصير ... وهو جمل اخرس عادم التفسير
وهو جمل اخرس نطقه معدوم ... ماله فصاحة وعن رد السؤال معدوم
انا ان سمعته يتكلم كلام مفهوم ... كنت اعتقه واصلي كمان واصوم
قال النبي سير بنا في الخلا واسمع ... نطق الجمل والغزّالة يطرب السمع

وهكذا يوجد القاص مجالا في السياق لكي يؤكد مرة اخرى العلاقة بين قصتي الجمل والغزالة فهو يزحزح مطلب اليهودي الذي يتحدى فيه النبي في أن يجعل الجمل ينطق أمامه ، فيجعل له البرهان في معجزة أخرى هي معجزة نطق الغزالة ومن هنا يبدأ في سرد قصة الغزالة فيقول :

سار النبي والصحابة كلهم أجمع   والاربعة الأفاضل حريهم يقمع
والأربعة اللي اتسموا كل قوم شديد   ساروا بجنب النبي في النصر مع التأييد
عند بيت مزى في الخلا بعيد   مربوطة بجنبه غزالة مقيدة تقييد
مربوطة بجنبه غزالة في أسرها ماسورة   مقيدة باكية العين محصورة
طلعت تلاقي محمد عيونه بالنور مغمورة   قالت له انا بيك وحق الله منصورة
مصطفى اصطفني ياحجة التضام   ياخاص خواص الانبياء وختام
بقى لي ثلاثة ايام مأسورة باللهام   عن اولادي وهم في صفه أيتام
قال لها النبي عنك يزول الشر   هو حين صيادك اللي جهل واغتر
قالت ادى ثلاث ايام ماعليْ مَرّ   داير يصطاد الغزلان في الفلا والبر
حين تمت الغزالة قطعت الباب من   في فتحة بابه رأى حرمه تحب الحق
وهي تقول يامحمد بك الصدق   أسلمت ، قال النبي صدقت وحق الحق
قربني من النار وبين شدة لها لبيها   هي الغزالة لك أم حد جايبها ؟
قالت له بعلي ومن اجلك اسيبها   ولو كان بعلي يرتني من سبايبها
خدها وروح يا خاص خواص النور   لأحسن ده بعلي بان منه اسا وشرور
اليهودي يرطلوا بألفين دهب وكسور   إن راح وجابك لهم مقتول مأسور
ماتتم قول المرأة لما أقبل الصياد   راكب على مهر غالي للقا معتاد
حتى رأى الهادي محمد صفوة الأجداد   نزل وبعد النزول سلم سلام اجواد
بعد السلام قال لهم ما تطلبوا صار   مين اللي جابكم نحو الحمى والدار
قال له النبي سبب الظبية بالأكام   اللي الحزن والبين عليها صار
اللي ابتلت بالحزن والدمع منها عام   ومن بكى اولادها كل درجة يعام
وان تكرمت فيها تقلل الاكرام   وان حقا تريد تفطين بلا أوهام
قال اليهودي لطه الزين انت مين   باللي اتيت للغزالة مسند ومعين
قال انا احمد وسماني الاله ياسين   شفيع في امتي يوم الحساب ضمنين
قال اليهودي زمان عيني تراعيك   دلوقتي أوريك لحرب مني ليك
وقعت في ايد من لا تصبر ليك   لاحاربك واحارب من يحاميك

قال النبي فض هذا القبح والعياب ... ولا تكن مدعي تندم على اللي فات
سيب لنا الغزالة واترك لنا اللوعات ... يرضع ولادها اللي قاسو من اللوعات
قال اليهودي لطه الزين ما جاني ... انا الغزالة حدايا ما اسيبها شي
قال النبي سيبها واترك الكلام الواني ... يرضع اولادها وترجع على الثاني
قال النبي للغزالة ان ضمنتك ترجعي لي ... بالتحقيق ماتهربيش تفضحيني مع الزنديق
ردت عليه بلسان فصيح صديق ... ماغير ارضع وارجع بالعجل تحقيق
لما سمع نطقها دنا منها ... وحلها بعد ما كان القيد ساجنها
وبعد ما حلها بحقيق بعيد عنها ... وقالوا قليل ان رجع لضامنها
قال النبي ان انت تسلم وحق الحق ... قال اصوم واصلي واشهد بانك حق
من بعد هذا استمع للكلام ثابت ... وماجرى للغزالة بعدما سابت
راحت لأولادها بعد ما سابت ... تلقى بكاهم روى عشب الجبال ثابت

قالوا يا امنا مين كان لاهيكي ... ثلاث ايام واحنا لم نلاقيكي
تشوفك بعيدة عنا بواكيكي ... تبكي بحرقة على اللي صابنا فيكي
قالت لهم ارضعوا ما حد يشفقني ... الا الصياد كافني والعطب غلبني
وقعت في ايد صياد شقي وعنيد ... اخذني معاه في حبل الذل والتنكيد
قات التهامي لقاني في بكى وعديد ... وقف ضمني وخلصني من التقييد
وقف ضمني وفعل الخير سعى فيه ... يا ليخب من كان للمختار وسعى فيه
يا لله ارضعوا لأجل ما ارجع ورجعوا ... ضمانته قبل الصياد ما يقصر فيه
قالوا يا امنا القول ده ما ترضاه ... لبنك علينا حرام وحياة حبيب الله
كيف ترهني المصطفى عند اليهود واعداه ... ياخجلتك يوم القيامة بين ايادي الله
كيف ترهني المصطفى اصيل الجد ... عند يهودي عنيد ما يختشيش من حد
كيف ترهني يا امنا اللي من النار يضمنا ... هيا ارجعي واقريه السلام منا
رجع تعدد وزاد بكاها حصر ... قال النبي جتيني ليه بالعجل وبان النصر
قال ابو يرضعوا يافريد النصر ... لما سمع نطقها الصياد قال الضر
من الغزالة وامرك للاله سلم ... قال اليهودي انا لا اسلم ولااسلم

إلا إن سمعت الجمل ينطق ويتكلم

قال النبي خصمك اهو جالك ... احكي له قصتك وانبيه على حالك
قال الجمل للنبي ماجيت الا لك ... انبيك على ماجرى لي يازين واسالك

فكم لقيت في العالـم مجير سواك انا مستجير بك يا احمد ومن ملاك
قال اليهودي حقيق اسلمت ياعدنان واشهد ان السكريم واحد ديان
واشهد بانك محمد للمجالس زان شفيع لنا يوم ينصب الميزان
وان كان سليمان عطي من ربنا انعام انت يا مصطفى للانبياءختام

وبهذا تنتهي قصة الجمل والغزالة وهي قصة محكمة النسج حيث راعي فيها التسلسل الدقيق للأحداث من اولها الى اخرها ، وفضلا عن هذا فقد تجاوزت القصة بساطة القص فكسرت التتابع الافقي بعمق رأسي ، وذلك عندما علقت المستمع عند قرب نهاية قصة الجمل ، فبدأت قصة اخرى هي قصة الغزالة بهدف تأييد سر الشخصية الشريرة وتاكيد الظلم الذي يقع على الضعيف ثم قلة حيله الضعيف لو لم تسانده قوة عادلة تضع الامور في نصابها ، فقد كان من الممكن ان تتابع القصة الاولى قصة الجمل حتى نهايتها بحيث يتحدث الجمل مرة اخرى أمام اليهودي عندما تحدى الرسول عليه السلام قائلا :

انا ان سمعته يتكلم كلام مفهوم كنت أعتقه وأصلي كمان وأصوم

ولكن القاص ارجأ الاجابة عن هذا التحدي لكي يجعلها مكثفة او مضاعفة فتضاعف المعجزة في الوقت نفسه كما يتعمق مفهوم ظلم الانسان وجبروته الذي يبرر عدم قبوله الدعوة المحمدية بالنطق والعقل فاذا اسقط في يده لم يجد مفرا من قبولها . والجمل والغزالة حيوانان صحراويان ، فالأول رمز للجلد والصبر وقوة التحمل ، والثاني رمز للحرية والانطلاق . ولهذا فقد جعل القاص الحيوان الأول يشكو ظلم الانسان عندما تنكر لخدمته الطويلة له في صبر وجلد وتحمل . كما جعل الثاني يشكو من أسر الانسان له وحرمانه اياه من حرية الحياة مع أبنائه . وفي كلا الحالتين لايريد الانسان الا أن يشبع بطنه من لحم الحيوانين » .

وبهذا تكون القصة المؤلفة قد حققت غرضها في تأكيد المعجزات النبويه ، وبث القيم الأخلاقية ، وكشف طبائع الانسان الخسيسة .

واذا كانت مهمة الدعوة المحمدية هي اعادة النظام الى الحياة والغاء فوضويتها من خلال تطبيق أسس الاسلام العادلة ، فقد انتهت القصة بتحرير المظلوم ـ وفك قيد الأسير ـ وخضوع الظالم للنظام الديني العادل .

(٨)

واذا كانت القصص السابقة تركز حول معجزات الرسول عليه السلام إما لغرض أخلاقي أو من أجل تأكيد المعجزات في حد ذاتها ، فهناك اتجاه آخر في القصص التأثر بالسيره النبوية نحو الى ينتزع حدثا من السيره

ويحيك حوله قصة ، لا ليكون التأكيد فيها على المعجزة ، وان وجدت ، بل لتأكيد مكانة علي بن أبي طالب وزوجته بنت الرسول عليه السلام ، من الرسول ومن الاسلام . ولدينا نموذجان مدونان لمثل هذا القصص هما قصة معاذ بن جبل ، وقصة علي في حرب تبوك .

أما قصة معاذ بن جبل ، فهي تدور حول الخبر الذي ورد في سيرة ابن هشام على النحو التالي : « قال ابن اسحق : حدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث معاذ بن جبل مع قوم جاءوا اليه من اليمن يطلبون الدخول في دينه ليفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن وقال له : « « يسر ولاتعسر ، وبشر ولاتنفر ـ وانك ستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك : ما مفتاح الجنة ؟ فقل : شهادة أن لا اله الا الله وحده لاشريك له . » [٣٣] .

هذا الخبر اتخذت منه القصة نواة لأحداثها وصاغته على النحو التالي : « حكى أن رسول صلى الله عليه وسلم كان جالسا في خيمة . اذ دخل عليه عشر من أكابر اليمن ، فقالوا : السلام عليك يا محمد : فقال السلام على من اتبع الهدى . من أنتم ؟ فقالوا : يا رسول الله نحن من أكابر اليمن ، أمنا بك أن نراك وقد جئناك . فأخذهم الى بيته وكانت ليلة عائشة رضي الله عنها . فأمر لهم بزاد فأكلوا وبات النبي صلى الله عليه وسلم راكعا ساجدا وهو متفكر في أمرهم الا هبط عليه جبريل وقال يا محمد ربك يقرئك السلام ويقول لك أرسل معاذ بن جبل الى اليانيين وأذن بلال أذان الصباح . وصلى النبي بأصحابه وأقبل يدعو المسلمين . فلما فرغ من دعائه قال : يا معشر الناس ان أخي جبريل أتاني وأمرني أن أرسل الى اليانيين معاذ بن جبل . قالوا : نحن طائعون . فعند ذلك نادى النبي لمعاذ . . فقال لبيك يا رسول الله . فقال : امض الى منزلك وجهز نفسك للسفر ، فاني أريد أن أوجهك مع أهل اليمن لتكون أنت المتولى عليهم وتعلمهم قواعد الدين . فقال معاذ : السمع والطاعة لك يا رسول الله » . ثم تمضي القصة فتخلق مشاهد حوارية بين معاذ بن جبل وبين أمه التي تلومه على ترك الرسول عليه السلام ، ثم بينه وبين أهل اليمن عندما يصل اليهم ، مستخدمة الشعر الغنائي بين فصول هذه المشاهد .

« وأقام معاذ رضي الله عنه في ولايته باليمن سبع سنين ، فلما كان بعض الليالي ، جلس في المحراب بعد أن فرغ من صلاته وتعليمه للناس وجعل يسبح الله تعالى فأخذته سنة من النوم ، فأتاه هاتف وقال له : يا معاذ ، أنت غافل والله ليس بغافل ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فارق الدنيا . فانتبه معاذ من نومه مرعوبا ولعن ابليس ، وجدد وضوءا آخر ورجع الى صلاته واتخذ من الليل جانبا ، فغلب عليه النوم فنام فأتاه الهاتف ثانيا ، وقال يا معاذ ، ان الرسول صلى الله عليه وسلم فارق الدنيا ، ما هذا الرقاد . انتبه ! قال ابن عباس : فانتبه معاذ من نومه مكروبا وهو يقول : لاحول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . ثم جلس في المحراب ينظر وقت

---

(٣٣) السيرة جـ ٤ ص ١٤٨

الصلاة اذ سمع هاتفا يسمع كلامه ويرى شخصه وهو يقول : يا معاذ مضت ثلاثة أيام من حين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معاذ ، ما أنا بشيطان ولكن ملك من الملائكة » .

وعندئذ تأكد معاذ من حقيقة الرؤيا ، وقام وودع الناس وهو يبكي وينتحب وقفل راجعا الى المدينة ، وكان أول من قابله فيها أمه التي كانت تبكي لفراق الرسول عليه السلام وفراق ابنها الذي لم يدرك وفاته . وقد كان السؤال الذي يلح على معاذ بن جبل هو : كيف مات رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولهذا فقد دخل على أبي بكر ليحكي له كيف استقبل الرسول عليه السلام الموت وكيف استقبل المسلمون موته .ولكن أبا بكر الذي كان غارقا في دموعه لم يتمكن من أن يحكي له تفاصيل الحادث وأحاله على عمر بن الخطاب . ثم أحاله عمر على عثمان الذي أحاله بدوره على علي بن أبي طالب .

وأخذ علي بن أبي طالب يحكي له تفاصيل الحادث ابتداء من اللحظة التي خير فيها الرسول عليه السلام عن طريق جبريل بأن ملك الموت قد أتى ليقبض روحه .« يدخل (جبريل) على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فقال : ما يبكيك يا أخي جبريل فقال يامحمد ، وكيف لا أبكي وملك الموت واقف بالباب ، وهاهو يستأذنك في الدخول . فعند ذلك بكى النبي . فقال له ملك الموت :لا تبك يا محمد والذي بعثك بالحق بشيرا ونذيرا وسراجا منيرا . اني لأرفق بك .. فعند ذلك قال النبي : يا أخي عزرائيل لا تستعجل علي حتى أجمع أصحابي وأحبابي وأنظر الى قرة عيني أم المسلمين فاطمة الزهراء والحسن والحسين » . فسمح عزرائيل له بذلك . فدخل النبي عليه السلام على فاطمه وقال لها : « يا فاطمه اذا كان يوم القيامة يحشر الناس حفاة عراة ، وتكوني أنت في هودج من نور فلا تزالي عليها الى أن تقرعي باب الجنة ، ويكون جبريل آخذ بزمام الناقة وهو ينادي : يا جميع الخلائق ، يا أهل الموقف ، غضوا أبصاركم ونكسوا رؤوسكم ، فان فاطمة الزهراء بنت محمد صلى الله عليه وسلم جائزة الى الجنة » .ثم أخبرها بعد ذلك أن عزرائيل جاءه ليقبض روحه . وتستطرد القصة فتحكي عن اجتماع النبي عليه السلام بالمسلمين وصلاته بهم الصلاة الأخيرة . ثم تحكي كيف أن عكاشة بن بلال قام بعد الصلاة وذكر الرسول عليه السلام بأن ضربه مرة بقضيب في غزوة بدر ، ولم يعرف حتى هذه اللحظة سبب ضربه له . فأمر النبي أن يقوم ويقبض لنفسه منه قبل أن يقبض الله روحه . ولكن عكاشة أصر على أنه ضربه وهو عاري الظهر . عندئذ خلع النبي ملابسه حتى يضربه على ظهره كما ضربه من قبل وعندئذ قام عكاشة وقبل النبي وهو يبكي ويقول « ما عاش من يقتص منك يارسول الله ، ولكني سمعتك تقول ما من أنف يشم رائحة جسمي إلا حرمه الله على النار » .

وتنتهي القصة بمشهد دوامي يحضره الصحابة والمقربون من الرسول عليه السلام وهم يشهدون موته .

أما القصة الثانية التي استغلت كذلك في الدعوة الشيعية فأصلها خبر في السيرة ملخصه أن النبي عليه السلام تهيأ لغزو الروم سنة تسع هجرية . وبعد أن حث الناس على السير والأغنياء على النفقة توجه الى علي ابن أبي طالب وخلفه على أهله « وأمره بالاقامة فيهم . فأرجف به المنافقون وقالوا : ما خلفه الا استثقالا وتخففا

منه . فلما قال المنافقون ذلك أخذ علي رضوان الله عليه سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بالجرف فقال يانبي الله ، زعم المنافقون انما خلفتني وتخففت مني . فقال : كذبوا ، ولكني خلفتك لما تركت ورائي . فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك . أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى الا أنه لانبي بعدي . فرجع الى المدينة ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى سفره .[٣٤] ثم تمضي السيرة فتحكي كيف أن صاحب أيلة صالح الرسول عليه السلام على الجزية ، فعاد الرسول بعدها الى المدينة . والى هنا ينتهي خبر غزوة تبوك .

وقد استغل القصاص هذا الخبر أروع استغلال في وصف قصة حرب بطولية بين العرب والروم . ولهذه القصة عدة روايات عثرنا عليها في مخطوطات برلين في ألمانيا الغربية . ونكتفي هنا بعرض رواية منها نختارها من بين الروايات لاكتمالها ولأن القصاص فيها لم يكن يهدف الى حكاية قصة مكتملة فحسب ، بل أراد أن يصور لنا الحركة المتصلة منذ أن تجمعت الجيوش الاسلامية لتفتح بلاد الروم حتى تنتهي المعركة . والقصة معروفة بالزجل وقد استخدم فيها أسلوب الحوار الذي يجعل المشاهد نابضة حية بالنسبة للقارىء أو المستمع وتبدأ القصة بنداء من ملك الروم وزيره بولص فتقول :

ان الملـوك ما أقاموا الوزرا الا لينفذ أمرهم بين الورا
ساعة وصول ذا الـكتاب لعندكا يابولص انهض عاجلا من وقتكا
واجمع الأبطال والجحافل من كل ليث بطل مقاتل
واقض بهم من كل بد سبب واقصد الى أرض الحجاز العرب
واقطعوا الأرض باهلهي ما بين يثرب مع بلاد الشامي
وما لأحد عندنا جوابا الا بضرب السيف والحرابا

فلما سمع بولص كلام ملكه كتب الى النبي عليه السلام يحذره من اعتدائه عليهم ويحمله نتيجة عمله . فأرسل الرسول عليه السلام ـ رسولا من عنده يدعوهم الى دين الاسلام . فلما مثل الرسول بين يدي بولص وقال قوله ، رد عليه بولص غاضبا وقال :

قال استمع ياذا الفتى كتابنا وامض وبلـغ صاحبك جوابنا
وقل له ما عندنا جوابا الا بضربه السيف والحرابا
نحن أسود البر ما نبالي في معمع الجبـل ولا النضال
جهز لنفسك والتقينا عاجلا فان عسكرنا اتا يواصلا
أنتم أسود البر والقفارى واحنا ليوث الحرب في البراري
وليس تخدعنا بذا الكلام ونحن أعلمناك لاسـلام

(٣٤) السيرة (تحقيق مصطفى السقا) جـ ٢ ص ٣٣٣

ولم يتزعزع الرسول عليه السلام لرد بولص ، وبدأ يعد العده للقتال ، فنادى بلال للأذان ولدعوة العرب الى الاجتماع بالرسول . فلما حضروا قال لهم الرسول عليه السلام :

كونوا اعلموا أن الجهاد فرض عليكموا في طولها والعرض
وقد أمرني الملك الجبار تأخذ بثأر جعفر الطيار
ومن قتل معه من الاسلام فما تقولــوا يامعشر الكرام

فرد المسلمون عليه قائلين :

قالــوا جميعا يارسول الله يا أكرم الخلــق على الالهْ
احنا لما تقول طايعينا وأمرك المطاع يا أمينا
ولــو تقولــوا شيلــوا الجبال شلنا ولــو تقولــوا هاتلــوا قاتلنا
ولــو تقولــوا خوضوا البحر خضنا ولــو تقولــوا هبوا النفوس هنا

ثم سارت الجيوش بعد ذلك متفائلة مستبشرة . وفي أثناء الطريق تحدث معجزة مع جيش الرسول عليه السلام يحكيها المغيره لأصحابه فيقول :

فقال مغيرة كنت يا أصحابي مع النبي المصطفى الأوابي
نزلــت من وقتي عن حصاني وقد جعت حنظل يكفاني
وسرت طالــب طيبة الأمينة وقد علتني هيبة السكينة
فيها أقطع السيري فاختلــج يا قوم في ضميري
وقلــت هذا حنظل كالعلقمي والله ما فيه لزاد مطعمي
ولا رأيته أبدا في قايدا تا لله ماقي حمل هذا قايدا
فصرت أرميه وناق الفقرا حتى بقى من الجميــع عشرا
فبيط أنا ساير بجهدي فالتقاني في الــطريق عبدي
وكان ما بين العبيد صالح وشاطر في حربة وفالح
فقال يا مولاي فين الزادي اللي أوهبوا لك النبي الهادي
فقلــت ياذا الفارس المفضلا زودنا محمد بالحنظل
فقال ابن الــزاد يا مولاي أخبرني براوح السباى
فقلــت له أرميته بجمعه فقال لي أعطيت وفاتك نفعه
أما علمت سيدي أن النبي صل عليه ربنا في الكتب

ويستمر القاص الشاعر في سرد القصة وتصوير حركتها ، فيصور النبي عليه السلام وقد تجمع حوله الجيوش في شكل كتائب وعين لكل كتيبة . وتأخذ الحماسة الأبطال فيهتف أحدهم :

سيروا بنا يا معشر الاسلام على اسم رب ملك علام
أنا الفتى المقداد بن الكندي وفي الفوارس بطل مفند
أضرب بهم بحسام هندي وأجول في الجيوش وحدي
وانعزل من وقته وساعته وسارت الأبطال تحت رايته

وينشد الآخر :

تسير للأعلاج والأورام واقتهموا بالصارم الحسام
تسير الى بولص والهرقل الهام نقاتلـه ونفني اللئامي

وقبل أن يصل الجيش الى تبوك ، توقف النبي واستدعى عليا وطلب منه العودة الى المدينة لأن الوحي هبط عليه وطلب منه ذلك ، فرجع علي مذعنا لأمر الله ورغبة الرسول عليه السلام . واستأنف الجيش مسيرته حتى التقى بجيش الروم ودارت رحى الحرب وكانت سجالا بين الطرفين . غير أن جيش الاسلام مني بالهزيمة بعد ذلك ويصور الشاعر الشعبي استغاثات الأبطال وكأننا نسمعها من خلال ألفاظ القصيدة . فهذا بطل مسلم قد انسحب بكتيبته وجاء يشرح للقائد خالد ابن الوليد سبب هزيمته ويبرر له هزيمته فقال :

لما رأيت القوم كالبحار وأقبلوا من ساير الأقطار
ولسب جميع رفقتي وانهزمت وأبطالنا لعندكم قد عزمت

وجاء العباس عم الرسول عليه السلام يشكي له كثرة جيوش الروم فيقول :

فقال له العباس يا حبيبي ياصفوة الله العلي النجيبي
لو سلموتا كلهم أرواحهم كنا عجزنا كلنا عن ذبحهم

ولكن النبي أخذ يطمئنه فقال له :

قال النبي ياعم لاتبالي معنا الالـه الـواحد المتعالي
لقد وعدنا خالقي بالنصر وهو معي في عسرها واليسر

فلما تأزمت الأمور بين جيوش المسلمين ، وقد حرص القاص على تأزيمها حتى يصل الى عقدتها وهي احساس المسلمين بغياب علي ، جاء العباس الى الرسول عليه السلام وصارحه بسبب اندحار جيش المسلمين :

فعندهـا قد خرج العباس عم النبـي الطاهـر الأنفاس
وسيفـه في يده ورمحه ينفض من دم الأعـداء نفسه
ولـم يزل سايرا من غـير خطا حتـى أتـى الى النبـي المصطفى

وقال للهادي النبي ياسيدي لو كان معنا فرد فارس واحد
لا كان يحمي عسكر الكفار ويفني الأعلاج والفجار
وكأن النبي عليه السلام لم يفهم مغزى قوله :
فعندها قال النبي المرسل عمن تقول ؟ فقال مولانا علي
فعندها قال صاحب السكينة ان عليا ياعم في المدينة
وبيننا وبينه أيام ونحن يا عم بأرض الشام
ارجع وقاتل عسكر الجهال وحرض القوم على القتال

وكانت كلمات النبي هذه بمثابة مفتاح السر . فما كاد يفرغ منها حتى هبط عليه الوحي ليقول للرسول : نادي عليا ، فلو أنك بالمشرق وهو بالمغرب وناديته لأجابك . فنادى رسول الله على علي وأجابه علي . لبيك ، لبيك يا رسول الله ، وطار على جواده . وفي لحظة كان بين صفوف المحاربين وبذلك تم النصر للمؤمنين .

وهكذا استغلت القصة الخبر الموجز الذي ورد في السيرة عن ارتقاء الرسول عليه السلام لعلي في المدينة ، بينما سارهو وجيش المسلمين الى بلاد الروم . استغلت هذا الخبر في اثبات مكانة علي الدينية . فالنبي عليه السلام ، حسب القصة ، لم يبق في المدينة الا بناء على أمر من الله جاء به جبريل ، كما أنه لم يحضر المعركة الا بوساطة جبريل .

ـ ٩ ـ

على أنه لا ينبغي علينا أن نترك الحديث عن القصص الشعبي المدون المتأثر بالسيرة النبوية قبل أن نشير الى أكثر موضوعات السيرة اثارة لخيال الرواة ، ونعني بذلك اسراء الرسول عليه السلام ومعراجه . وقد تنوعت النصوص حول هذا الموضوع وتعددت وانتقلت من الشرق الى الغرب الى درجة أنها أصبحت جديرة بدراسة مستقلة .

وقد كان من الطبيعي أن يثير موضوع الاسراء والمعراج الخيال الشعبي في أن يتصور دقائق رحلة الرسول عليه السلام من مكة الى القدس ثم من القدس صاعدا الى السماوات العلى ، وهي التفاصيل التي لم ترد في القرآن الكريم . على أن هذا لا يعني أن قصص الاسراء والمعراج قد انتشر على هذا النحو في حياة الرسول عليه السلام أو في السنوات التي تلت موته ، ولكن رواجه كان في زمن متأخر . وطوال هذه العصور انشغل الانسان بموضوعات تخص العالم الآخر يذكرها له الدين مثل ، الجنة والنار ، وسدرة المنتهى ، والعرش ، والسماوات السبع . ولهذا ليس غريبا أن يجد الخيال الشعبي في قصة الاسراء والمعراج مجالا فسيحا يصور من خلاله كل هذه الجوانب في العالم السماوي .

ولا يمكننا الآن أن نقدم رواية كاملة لقصة الاسراء والمعراج ، فان ذلك يستغرق حيزا كبيرا ولكننا نكتفي بأن نأتي ببعض النصوص التي تبين كيف تصور الخيال الشعبي العالم الآخر بأبعاده المختلفة : وهذه المقتطفات نأتي بها من مخطوط من مخطوطات برلين ، (٣٥) ومن الطبيعي أنها وردت في غيره من المدونات . ويذكر في أول هذا المخطوط أنه من تأليف الكسائي ، ولا ندري ما اذا كان هو الكسائي النحوي المعروف أم غيره .

وتبدأ القصة بأن فاطمة ابنة الرسول عليه السلام سمعت طرقا على الباب ، فلما فتحت « رأت شيخا مهابا وعليه من الحلي والحلل ، وله جناحان وقد سد بهما المشرق والمغرب ، وعلى رأسه تاج مرصع بالدرر والجوهر ومكتوب على جبينه لا اله الا الله محمد رسول الله . فرجعت فاطمة الزهراء الى أبيها وقالت : يا أبتا ان في الباب شخصا قد أهالني وأفزعني ما رأيت مثله أبدا وقال أريد محمدا . قال : فخرج اليه سيد الخلق وحبيب الحق فلما رآه جبرائيل قال : السلام عليك يا محمد . قال النبي (ص) وعليك السلام يا أخي جبرائيل . أمر حدث أو وحي نزل أو وعد حضر ؟ قال جبرائيل : « يا محمد قم والبس ثيابك وسكن روعك فانك تريد ان تناجي في هذه الليلة من لاتأخذه سنة ولانوم » ثم تصف القصة البراق على نحو ما وصفت السيرة مع بعض الاضافات فعندما تساءلت البراق قائلة « قد ركبني آدم صفوة الله وابراهيم خليل الله فمن هذا الذي هو اكرم منهما ؟ أجابها جبريل قائلا : هذا محمد حبيب الله ورسول رب العالمين وافضل من في السماوات والارضين وكل الخلايق يرجون شفاعته يوم القيامة ، الجنة عن يمينه والنار عن شماله فمن صدقه دخل الجنة ومن كذبه دخل النار فقالت البراق : قل لصاحب الوجه الانور والجبين الازهر والحوض الكوثر والشفاعة الكبرى أن يدخلني الجنة بشفاعته حتى اركبه ظهري ويكون يوم القيامة فخري وذخري فقال النبي : يا براق انت في شفاعتي ومعي في الجنة » .

ثم ركبها الرسول (ص) وطارت به . وتحكي القصة على لسانه عليه السلام بعد ذلك فتقول « فبينما انا ساير واذا انا بمنادي ينادي قف يا محمد قليلا حتى اكلمك كلمتين فاني انصح البرية الك ولأمتك ، فسرت ولم التفت وكان ذلك توفيقا من الله تعالى » وتكرر هذا المشهد مرة أخرى ، ثم فاذا بامرأة نافشة شعرها فطلبت منه ان يقف ولم يفعل . فسأل عليه السلام جبريل قائلا « لاتسمع الله ولاترى ما ارى ؟ قال : بلى يامحمد سر فسوف يأتيك تأويل ذلك . ثم سارت البراق حتى علت جبال الطور وارض فلسطين فقال لي جبرائيل يا محمد انزل وصل هنا ركعتين فقلت ما هو ذا الموضع . قال : هذا الموضع الذي كلم الله به موسى بن عمران ، ثم سرت قليلا فقال جبرائيل : انزل وصل هنا ركعتين فقلت يا اخي جبريل : امرتني بالصلاة ها هنا فقال : هاهنا ولد أخوك عيسى بن مريم ثم ركبت وسارت البراق . فقلت ياجبرائيل : من الهاتف الذي صاح عن يميني ؟ قال : يامحمد ذلك داعي اليهود فلو اجبته لتهودت بعض أمتك . واما الهاتف الآخرالذي صاح عن شمالك فذلك داعي النصارى ، فلو اجبته لتنصرت بعض امتك ، واما المرأة التي رأيتها فهي الدنيا فلو أجبتها لكانت امتك اختارت الدنيا على الآخرى » .

---

(٣٥) مخطوط برلين Ms. OPTH. II 436

ثم تصف القصة المعراج فتقول على لسان الرسول عليه السلام كذلك « فنظرت الى المعراج إذا أصله صخرة بيت المقدس ورأسه ملتصق بالسماء الدنيا من حسنه وجماله وإذا مراقيه مختلفة الألوان مرقاة من ياقوت ومرقاة من لؤلؤ ومرقاة من الزبرجد ومرقاة من الذهب الاحمر ومرقاة من المسك الأذفر ، فاخذ جبريل بيدي وجعلني على مرقاة من مراقي المعراج وقبل ما بين عيني وضمني الى صدره وقال لي اكرم الخلق على الله سر معي صلوات الله عليك وسلامة ثم كتفني بجناحه وعرج بي حتى صرنا في الهوا فحار بصري من مقامات المتعبدين ومواقف المجتهدين ».

ثم تستطرد القصة فتصف عوالم السماء وتبدأ بالسماء الاولى التي يصفها الرسول (ص) بقوله : ثم ارتقينا الى سماء الدنيا فاستفتح لي بابها فقالوا : من معك ياجبريل قال : معي محمد حبيب الله فقالوا : مرحبا بك وبمن معك ، ثم فتح الباب فنظرت الى خازن السماء الدنيا وإذا هو عجيب الخلقة يقال له اسماعيل وهو جالس على كرسي من نور وحوله سبعون الف ملك مثله وبيد كل واحد حربة لامعة وهم يسبحون الله تعالى وإذا عصى واحد من اهل الارض ينادون عصى فلان بن فلان فيغضب الله والملائكة لغضبه وإذا استغفر الله وتاب سمعت الملائكة استغفاره وتوبته فينادون ان الله قد رضي على فلان بن فلان،وإذا انا بملائكة بأيديهم الحراب والملائكة يسلمون علي ويدعون لأمتي ثم تقدمت امامي وإذا انا بملك نصفه من ثلج ونصفه من نار لا الثلج يطفى النار ولا النار تطفى الثلج وإذا له الف الف رأس في كل رأس الف الف فم وفي كل فم الف الف لسان يسبح لله تعالى بالف الف لغة ، كل لغة لاتشبه الاخرى وهو ينادي اللهم يا من الف بين الثلج والنار الف بين قلوب عبادك المؤمنين فتقول الملائكة « آمين » .

وتستمر القصة على هذا النحو من الوصف الخيالي المثير حتى يلتقي الرسول (ص) بعزرائيل قابض الأرواح فيجدها الراوي فرصة لأن يسأل السؤال الملح وهو كيف يقبض عزرائيل وحده أرواح الناس جميعا . يقول الراوي على لسان الرسول (ص) : « وإذا أنا بملك عظيم الخلقة جالس على كرسي من نور وعن يمينه لوح وعن يساره شجرة وهو تارة يجد النظر في اللوح وتارة في الشجرة ، وحوله ملائكة غلاظ شداد بعدد التراب وهم يسارعون الى أمره ونهيه . فلما رأيته ارتجف قلبي وطار لبي ، فقال جبريل يا محمد لا تفزع منه أتدري من هذا ؟ قلت : لا . قال : يا محمد هذا هادم اللذات ومفرق الجماعات ومخرب الدور ومعمر القبور ، هذا ملك الموت هو ومالك خازن النار ملكان فظان غليظان لا يضحكان الى يوم القيامة . أدْنُ منه وسلم عليه . فدنوت منه وسلمت عليه فلم يرد علي السلام . فقال له جبريل : لاترد السلام على سيد الخلق وحبيب الحق محمد حبيب الله ، فلما سمع عزرائيل كلام جبرائيل وثب قائما على قدميه واعتذر مني وهنأني بالكرامه من الله تعالى وقال : أبشر يا محمد فان الخير فيك وفي أمتك الى يوم القيامة . ثم قال النبي (ص) يا أخي عزرائيل : كيف تقبض الأرواح وأنت في مكانك ؟ قال : إعلم يا محمد ان الله أيدني بخمسمائة من الملائكة ، فاذا بلغ العبد أجله واستوفي رزقه ، أرسلت اليه أربعين ملكا يعالجون روحه من العروق والعصب واللحم ويقبضون روحه من رؤوس الأنامل وينقلونها الى

الركب ويرمحون الميت ساعة ، ثم ينقلونها الى الحلقوم فأتناولها و اسلها كالشعرمن العجين وأقبضها بحربتي هذه .. قلت : وكيف تعرف اذا حضر أجل العبد ؟ قال : يا محمد ، ما من عبد ولا أمة إلا وله في السماء بابان ، باب ينزل منه رزقه وباب يصعد منه وهذه الشجرة التي عن شمالي كل ورقة مكتوب عليها اسم صاحبها حتى اذا قرب اجل العبد اصفرت الورقة التي عليها اسمه فتسقط على الباب الذي نزل منه رزقه ويسود اسمه في اللوح المحفوظ فاعلم انه مقبوض فانظر اليه نظرة فيضعف جسده ويقع في فراشه مريضا فارسل اليه من عند الله اربعين ملكا يعالجون روحه ، ويهبط الى العبد ملكان من السماء فيقف الواحد عند يمينه والآخر عن شماله فينادي الملك الموكل بعمله : ايها العبد عظم الله أجرك في مصيبتك فقد طويت صحيفة عملك فلا يصعد لك عمل الى يوم القيامة يعني لا من حسنة ولا من سيئة تنقص وينادي الملك الموكل برزقه : ايها العبد عظم الله اجرك في نفسك فقد طويت صحيفة رزقك فلا ينزل لك رزق الى يوم القيامة فعند ذلك يشخص بصره الى السماء فتصفر الورقة لذلك ، فاذا نظر اليها بكى واذا بكى سقطت الورقة واغلق البابان ؟ . ..

ثم يقابل الرسول عليه السلام الانبياء في طريقه في السماوات العلا ، ولم يبق بعد ذلك الا سدرة المنتهى فيقول : « ولم ازل سائرا حتى اخترقت سبعين الف حجاب من الاستبرق وسبعين الف حجاب من السندس الاخضر وسبعين الف حجاب من الضياء ثم انتهيت الى حجاب الدخان ثم الى حجاب الثلج ثم الى حجاب البرد ثم الى حجاب الجبروت ثم الى حجاب الملكوت ثم الى حجاب الجلال ثم الى حجاب الجمال ثم الى حجاب القدرة ثم الى حجاب البهاء ثم الى حجاب البقاء ثم الى حجاب السلطان ثم الى حجاب الوحدانية ثم الى حجاب العظمة واذا النداء من قبل الله يا ملائكتي ارفعوا الحجب التي بيني وبين حبيبي محمد صلى الله عليه وسلم » .

ونكتفي بهذا القدر من قصة المعراج التي كثرت نصوصها وكان لها تأثيرها في رسالة الغفران » لابي العلاء المعري وكذلك في رسالة التوابع والزوابع » لابن شهيد فلما وصل كل هذا التراث الى الغرب أثر بدون شك في ملحمة « دانتي الخالدة » « الكوميديا الالهية » على نحو ما وضحه دارسو الادب المقارن .

(١٠)

ثم تاتي نهاية المطاف الى النص الذي يروى اليوم في المولد النبوي وفي غيره من الاحتفالات الدينية ويختلف هذا النص عن النصوص المدونة التي سبقت الاشارة اليها مما يدفعنا الى القول بأن الرواة اعتمدوا في هذه الرواية على خيالهم أكثر من اعتمادهم على النص الاصلي للسيرة أو على النصوص المدونة الأخرى . اذ لم تكن الأحداث التي روتها السيرة وألفها الناس هي التي تثير مشاعر الجماعة ، بل هي الاضافات التي تنبع من وحي مشاعرهم وتصورهم كيف احتفل الكون بأسره بميلاد الرسول عليه السلام منذ أن كان بذرة في بطن أمه الى أن خرج الى الوجود .

ويبدأ السيرة المروية بذكر نسب الرسول عليه السلام كما و الحال في السيرة الأصلية . ويتوقف عند حادث حفر عبد المطلب لبئر زمزم ، ثم حادث خلاص عبد الله والد الرسول عليه السلام من مأزق تقديمه ضحية للآلهة حتى تصل الى حمل آمنة بنت وهب في الرسول عليه السلام . ولننظر كيف صور الراوي احتفال الكون بأسره بهذا الحدث الجليل .

« وفي أول ليلة من ليالي حمله صلى الله عليه وسلم أغلقت أبواب الجحيم وفتحت أبواب الجنة الرضوانية ، واطلع الحي القيوم وتجلى برحمته ورضوانه التجلي العام ، واهتز العرش طربا ومال الكرسي عجبا وانتشرت الرايات الربانية وتلألأت الكائنات بالأنوار وتنكست على رؤوسها الأصنام ، ونطقت دواب قريش بالمقالات العربية وقالت حمل برسول الله صلى الله عليه وسلم ورب الكعبة فهو امام الدنيا وسراج الأنام ، وفرت وحوش المغارب بالبشائر القولية ، وبشرت حيتان البحر بعضها بعضا بظهور مصباح الظلام ، ونادى لسان حال الكائنات جاءنا اليسر بعد الشدائد العسرية .

ولايقتصر الاحتفال على هذه الظواهر ، بل ان الأنبياء جميعا بالغوا بهذا الحدث الجليل وظهروا للمشاركة فيه . واذا كان الحمل قد دام تسعة شهور ، فان الأنبياء ظهروا على التوالي ابتداء من آدم حتى عيسى ، كل في شهر . وكان كل نبي يبشرها بما اشتهر به أو عرف عنه . فاذا كان آدم قد أذنب فهو يبشرها بشفيع المذنبين ، واذا ارتبط نوح بالسفينة فهو يبشرها بسفينة العلوم اللدنية كما يبشرها الخليل ابراهيم بأنها حملت برسول الله الحنيفية . واذا كان اسماعيل أبا العرب فهو يبشرها بأنها حملت بأفضل من نطق بالعربية . واذا كان الحديد لان لداود ، فهو يبشرها بأنها حملت بمن كانت الجوامد في يده لينة طرية . وعلى هذا النحو يبشرها موسى بأنها حملت بطور التجليات الالهية ، كما يبشرها عيسى الذي عرف بطهره وتبتله بأنها حملت بأفضل من حج وصلى وصام وتهدف الرواية بطبيعة الحال أن تشير الى أن محمدا عليه السلام سيجيء الى الدنيا وهو يحمل فضائل الأنبياء جميعهم كما يحمل كل ما منحوه من الله من قدرات .

ثم يحين وقت الولادة . وهذا المقام يليق بحضور النساء الطاهرات بالاضافة الى حوريات الجنة ، كما يحضره جبريل مع نفر من الملائكة . فاذا اجتمع كل هؤلاء وحانت لحظة الميلاد تدلت الكواكب وأضيء الكون .

« واشتد بآمنة الطلق بلا وجع ولا اسقام ، وكانت السيدة في منزلها فدخلت عليها النسوة الحوريات ومعهن آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران فبدأنها بالتحية والسلام ، وأقبلت حواء في جماعة وجاءت سارة الخليلية وهن يهنئنها بأحسن تهنئة لأجل اختتام . وفتحت أبواب السماء ونزلت الملائكة الروحانية ، وأقبل الأمين جبريل في كوكبة من الملائكة وبيده ثلاثة أعلام . ودقت طبول الأفراح في السموات والأرض وعبقت روائح الطيب بين العوالم الجبروتية وتعطر الملأ الأعلى بخبر لحظات أوقاته العظام » .

« ولما بدا من بطن امه كالشمس البهية سقط على يد أم عبد الرحمن بن عوف احد البررة الكرام فسجد لمولاه على الارض وأوما بطرفه الى السماء العلية . ثم عطس فقال الحمد لله رب العالمين بفصيح العربية فقالت له الملائكة يرحمك ربك ياخير الانام . ثم غشته سحابة من النور فاخذته الملائكة فغيبته عن امه ساعة زمانية وطافوا به جميع الكائنات فعرفه اهل السموات والارض وكل منهم في محبته هام . ثم ردته الملائكة الى امه وهو ملفوف في ثياب خضر سندسية وملك يقول ياعز الدنيا وياشرف الاخرة من قال بمقالتك وشهد بشهادتك حشر تحت لوائك يوم الزحام » .

وبهذا يكون الكون كله قد احتفل بالرسول عليه السلام منذ اول يوم حملت فيه امه الى بعد ان خرج منها الى الدنيا .

وتنازعت الظواهر الكونية على رضاعته . فقالت الملائكة : ربنا مرنا أن نحمله الى السموات ونقوم بتربيته حتى القيام . وقال الغمام ربنا مرنا أن نحمله معنا الى جوانب الأرض الشرقية والغربية . وقالت الوحوش ربنا مرنا أن نحمله الى أوكارنا . وقالت الطيور ، ربنا مرنا أن نحمله الى أعشاشنا ونلتزم بكفالته حق الالتزام . فخرج النداء بلسان حال القدرة الالهية : معاشر الخلائق قد جعله الله رضيعا لحليمة فكان لها بذلك الحظ الأوفر والأعتناء » .

وربما كان هذا هو الجزء الأكبر من السيرة الذي لونه الخيال الشعبي بتصورات فريدة وتستمر السيرة بعد ذلك مستقلة كل ماروى في النص الأصلي من أخبار معجزة سواء في أثناء اقامته عند حليمة أو في أثناء رحلاته مع عمه أبي طالب حتى تزوج خديجة ونزل عليه الوحي بعد ذلك . ولاتخلو الرواية من جزء من قصة الاسراء والمعراج التي سبقت الاشارة اليها . ولا تسرف الرواية بعد ذلك في حكاية صراع قريش مع الرسول عليه السلام ومن معه من المؤمنين ، كما لا تذكر مغازيه . ذلك أن هذا الجزء التاريخي لا يهمها بقدر ما يهمها وجود الرسول عليه السلام المعجز .

هذه هي الرواية الشعبية للسيرة النبوية . ومن المتفق عليه أنها لم تكتمل على هذا النحو الا في عصور متأخرة نسبيا . ولكن روايتها أصبحت بعد ذلك جزءا من حياة الشعوب الاسلامية . وتكثر هذه الروايات بصفة خاصة في مصر . وقد رأى بعض علماء مصر من زمن أن هذه الروايات قد « حشيت بقصص ضعيفة السند لا تصور المعروف من مولد الرسول وحياته في صورته الصحيحة » (٣٦) . ومن ثم فقد دعا وزير الأوقاف محمد نجيب الغرابلي في عام١٣٥٣هـ أهل العلم الى وضع صيغة جديدة للمولد يراعي فيها تحري الأخبار الصحيحة . وقد قوبلت دعوة وزير الأوقاف بالترحيب من الهيئات العلمية والأدبية . ولم يعارضه من رجال الأدب والرأي سوى الدكتور طه حسين . قال له في رأيه الذي نشره في جريدة الوادي في عدد أول أغسطس سنة ١٩٣٤ ،

(٣٦) زكي مبارك . المدائح النبوية ـ دار الكتاب العربي ص ٢٥٠ . نفسه ص٢٥١ ـ ٢٥٢ .

ضمن ما قال : « وأي بأس على المسلمين في أن تتحدث اليهم قصص كهذه الأحاديث الحلوة العذاب فتنبئهم بأن أمم الطير والوحش كانت تختصم بعد مولد النبي كلها يريد أن يكفله ولكنها ردت عن هذا لأن القضاء سبق بأن رضاع النبي سيكون الى حليمة السعدية ؟ وأي بأس على المسلمين في أن يسمعوا أن الجن والانس والحيوان والنجوم تباشرت بمولد النبي ،وأن الشجر أورق لمولده ، وأن الروض ازدهى لمقدمه ، وأن السماء دنت من الأرض حين مس الأرض جسمه الكريم ؟ لم تصح الأحاديث بشيء من هذا ولكن الناس يحبون أن يسمعوا هذا ويرون في التحدث به والاستماع اليه تمجيدا للنبي الكريم لا بأس به ولا جناح فيه . وأي بأس على المسلمين في أن يسمعوا أن نفرا من الملائكة أقبلوا الى النبي وهو طفل يلعب فأضجعوه وشقوا عن قلبه وغسلوه حتى طهروه ثم ردوه كما كان ،وأقاموه كأن لم يصبه مكروه ؟ لم يصح الحديث بهذا ولكن المسلمين يتحدثون به ويستمعون له منذ أكثر من اثنى عشر قرنا لم يفسد لذلك ذوقهم ولم يضعف ايمانهم .. ان من فاحش الخطأ أن يضيق على الجماهير حتى في القصص البريء ، ان من فساد الذوق أن لايباح للجماعات الا الحق الذي لا حظ للخيال فيه . ان من سوء العناية بالدين أن يكف الخيال عن تأييد الدين ؟

وبهذه الكلمة الرائعة لتلك العقلية المتفتحة نختم مقالنا عن السيرة النبوية في الخيال الشعبي . وأحسب أنه لو كان قد استجيب لدعوة وزير الأوقاف وألف نص ملتزم بالتاريخ والدافع لما التزم به الشعب . فالخيال بالنسبة للحياة الشعبية مع جوهر ابداعها الفني ، وهو يوظف على نحو رائع للتعبير عن متاعبها النفسية وطموحاتها الاجتماعية وانبهاراتها الدينية .

***

المَسجد ـ والقصص والمذكرون

محمد توفيق بديع

نريد في هذا البحث ان نلقي الضوء على دور المسجد في نشأة القصص وتطوره وتشعبه من قصص ديني قائم على الوعظ والتذكير ، الى اشكال اخرى من هذا الفن ، يمكن ان نسميها طبقا لمضامينها وأغراضها بالقصص السياسي ، والقصص الشعبي ، والقصص العسكري أو الحربي ، الى غير ذلك من التسميات التي تدل كل منها على نوع معين ومتميز اشتغل واشتهر في ميدانه مجموعة من القصاص كان لهم اهمية كبرى في ميادين القتال ، بقدر ما كان لهم من آثار بعيدة المدى في الحياة الاجتماعية والفكرية ، ومن توجيه الناس نحو اتجاهات سياسية معينة واتجاهاتهم المذهبية ، لا سيما بعد أن أصبح القصص وظيفة من الوظائف الرئيسية التي حظيت باهتمام الدولة في عالم الاسلام ، مما رفع من شأن القاص ومكانته الاجتماعية ، وزاد من موارده المالية بعد نجاحه في كسب ثقة أولي الأمر ورضاهم ، الى درجة أن زاد بعضهم من اختصاصاته ومسئولياته ، فجمعوا له الى هذا العمل « الديني ـ السياسي » أعمالا أخرى لا تقل شأنا وربما تزيد ، كما هو الحال مع عبد الرحمن بن حجيرة الخولاني ، قاضي مصر المشهور الذي جمع له واليها عبد العزيز بن مروان مع القضاء ، القصص والاشراف على بيت المال ، ويبدو ان الفقيه القاص قام بهذه المهمات الثلاث على اكمل وجه وأتمه ، فشمله الأمير الأموي برعايته وعطائه حتى أوصل رزقه الى ألف دينار في السنة ، فصدق فيه قول النابغة الذبياني :

ومن اطاعك فانفعه بطاعته
كما اطاعك وادلله على الرشد

الكهان والقصص

وعندما نبحث في نشأة القصص الاسلامي ،

والتعرف على شخصيات القصاص الذين ذاع صيتهم وعلت منزلتهم بين طبقات المجتمع في المدينة الاسلامية علينا أن نتوقف عند العصور الجاهلية للتعرف على أصول هذا الفن . ومن حسن الحظ ان المصادر التي بين ايدينا قد امدتنا بأخبار مفيدة وطريفة في ذات الوقت عن الكهان الذين يمكن أن نعتبرهم اكثر من غيرهم كالحكماء والعرافين ـ اقرب الناس شبها بالقصاص فيما كانوا يخبرون به كل من يلجأ اليهم طلبا لمشورة أو محاولة لكشف الأستار عما يخبئه المستقبل من احداث .

ولعل ابن خلدون ومن قبله المسعودي يأتيان في مقدمة الكتاب العرب الذين خصوا الكهانة والكهان بفصول مفصلة ومفيدة من مؤلفاتهما .

فأبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦ هـ) الرحالة والجغرافي والمؤرخ المعروف الذي نعته المستشرق الروسي كراتشكوفسكي بأنه قاص ماهر ، يقف على قمة المعارف الجغرافية لعصره ، ويتطلع الى الحصول على أحدث المعلومات عن البلاد التي لم يزرها (١) عقد هذا العالم العربي فصلا طريفا في « مروج الذهب » فصّل فيه القول عن الكهانة التي يمكن ـ كما اشرنا ـ اعتبار القائمين عليها والمشتغلين بها من أوائل القصاص الذين اجتمع اليهم الناس ، وطلب مشورتهم أصحاب السلطان والنفوذ كلما داهمتهم الأحداث وأطبقت عليهم الملمات .

تحدث ابو الحسن المسعودي في هذا الفصل عن نشأة الكهانة واختلاف الاقوال فيها ، فذكر ان حكماء اليونان الذين اشتغلوا بها ادعى صنف منهم ان نفوسهم قد صفت حتى امكنها الاطلاع على اسرار الطبيعة وعلى ما تريد ان تكون منها ، بينما ادعى صنف آخر منهم أن الأرواح المنفردة ، ويقصد بها الجن ، تخبرهم بالأشياء قبل كونها ، لأن ارواحهم صفت حتى صارت تلك الأرواح من الجن متفقه كما اشار الى ما تقول به النصارى الذين ذهب قوم منهم الى أن المسيح كان يعلم الغائبات من الأمور ويخبر عن الأشياء قبل كونها ، لأن فيه نفس عالمة بالغيب ، ودللوا على ذلك بأنه لو كانت تلك النفس في غيره من الأشخاص الناطقين لعلم الغيب مثله ، ثم استطرد المسعودي مبينا وجهة نظر فريق آخر ـ تتمشى مع ما نادى به حكماء اليونان ـ أرجعوا فيها أسباب التكهن الى عوامل نفسية تتولد من صفاء مزاج الطباع ـ وقوة النفس ولطافة الحس ، فاذا قويت وزادت قهرت الطبيعة وأبانت للانسان كل سر لطيف ، وخبرته بكل معنى شريف . ويقرر العالم الرحالة ان الكهانة بمثل هذا المفهوم النفسي كانت في العرب على الاكثر وفي غيرهم على وجه الندرة ، ثم يعلل أسباب نجاح أقطاب الكهان العرب بقدرتهم على قمع شرور أنفسهم بكثرة الوحدة وإدمان التفرد وشدة الوحشة من الناس وقلة الانس بهم ، لأن النفس كما يقول ـ اذا تفردت فكرت ، واذا هي فكرت تعدت ، واذا تعدت هطلت عليها سحب العلم النفسي ، فنظرت بالعين النورية ، ولحظت بالنور الثاقب ، ومضت على الشريعة المستوية ، فأخبرت عن الاشياء على ما هي به وعليه ، وربما قويت هذه النفس في الانسان فاشرقت به على دراية الغائبات قبل ورودها ، ولم يفته أن يشير هنا الى أن أهل اليونان كانوا ينعتون مثل هذه الطائفة من أصحاب النفوس الصافية النورانية بالروحانيين . (٢)

١ - اغناطيوس كراتشكوفسكي - تاريخ الادب الجغرافي العربي - الترجمة العربية - جـ١ ص ١٨١ - ١٨٣ .
٢ - مروج الذهب للمسعودي - جـ ٢ ص ١٥٦ - ١٥٥ .

ولا نستبعد أن يكون المسعودي قد قصد من كلمة « الروحانيين » التي اطلقها على تلك الفئة ما عرفه الاغريق عن تنبؤ ومعرفة المستقبل الذي اشتهر به بعض آلهتهم مثل زيوس (Zeus) الذي كان الناس يتوافدون الى معبده في مدينة دودونا (Dodona) أوفي غيرها حيث تتواجد معابده، يستفسرون منه عن أحداث المستقبل ـ فكان يحصل على اجابات اسئلتهم بطرق عجيبة كان يستخلصها من صوت حفيف اوراق شجرة بلوط قديمة ، او من بعض أوان نحاسية تعلق في أغصانها ، أو من هديل الحمام الواقف عليها ، أو من خرير مياه أحد الينابيع .

أما إلاله أبللون (Apollon) فقد فاق سابقه في هذا الميدان ، فهو الاله الواقي من الشر وإله التطهير ، وإله النبوءة ، فمكنته هذه الاختصاصا المتعددة من ان يتربع على عرش معرفة الغيب والقدرة على كشف استار المجهول والتنبؤ بالمستقبل .

فكان طالبو مشورته ومريدو نبوءاته يتوافدون الى معبده في دلفي قبل الاقدام على بعض الاعمال التجارية الهامة ، بالاضافة الى ما يمس حياتهم الخاصة كالزواج وأسباب العقم ، كما كان يسأله الزعماء والرؤساء ان يتعرف لهم على مستقبل ممالكهم وما يتعلق بحروبهم وتأسيس المستعمرات وغير ذلك من شئون الحكم والملك .

وكان يعمل في معبد الاله ابللون فريق من الكهنة من اشهرهم ذلك الكاهن الذي كان يتلقى اسئلة الناس وتوصيلها الى كبيرة الكهنة التي تدعى بيثيا (Pythia) فكانت تتقمص روح الاله وتذهب في غيبوبة بعيدة تهذي خلالها بكلمات تتضمن الاجابة على كل ما سأل عنه السائلون فيتلقاها الكاهن منها ويفسرها لأصحابها .

ومما تجدر الاشارة إليه أنه إذا لم تكن تتحقق تلك النبوءات ، أو جاءت الأحداث والأيام بعكس ما تنبأت به الكاهنة (بيثيا) فالذنب كله يقع على الشخص صاحب النبوءة لأنه لم يستطع فهم تفسير ما اخبره الكاهن الذى لابد ان يكون قد تلقى الاجابة الصحيحة التي أوحى بها الى ربيبته الكاهنة بيثيا ، الاله العظيم أبللون المعصوم من الخطأ والصادق دائما .(٣)

ولعل ذلك التفسير يلقي مزيدا من الضوء على مدى الايمان العميق بهذه الآلهة وكل ما تأتي به وكذلك المكانة المرموقة التي كان يتمتع بها الكهان في ذلك الزمان .

من ناحية أخرى نلاحظ ان وصف المسعودى لهذه الفئة الروحانية هو نفسه ما عبر عنه بعض فلاسفة المسلمين المشهورين كابن سينا ، الذين رأوا في العقل البشري قوة من قوى النفس اطلقوا عليها « النفس الناطقة » وقسموها الى نوعين : الأول عملي يسوس البدن وينظم السلوك ، والآخر نظرى يختص بالادراك والمعرفة ، يتقبل المدركات الحسية ويستخلص منها المعاني الكلية ، ثم قالوا ان في وسع هذه النفس الناطقة أن تسمو الى مرتبة سامية تستطيع عندها أن تتكشف لها المعقولات ، وتخلص الى عالم القدس ، عندها تبلغ السعادة التي ما بعدها سعادة ، فالنفس بهذه الصورة جوهر روحى متميزة من البدن

(٣) انظر : د. عبداللطيف احمد علي - التاريخ اليوناني - العصر الهللادي ج ١ ص ١٢٤ - ١٢٧ والحواشي أيضا .

لاتفنى بإنعدامه لأنها من عالم العقول المفارقة والنفوس الفلكية . (٤)

ثم عاود المسعودي حديثه عن الكهانة واستعانة الكهان بالجن ، وذكر أن هذا الرأي يتفق مع ما نادت به الغالية فقال : ذكر كثير من الناس ان الكهانة تكون من قبل شيطان يكون مع الكاهن يخبره بما غاب عنه ، وأن الشياطين كانت تسترق السمع وتلقيه على ألسنة الكهان فيؤدون الى الناس الأخبار بحسب مايرد اليهم . (٥)

ويلاحظ ان هذا الرأي هو ماذهب اليه علماء اللغة عندما فسروا معنى الكهانة والتكهن بمن قضى له بالغيب ، وقالوا أن الكاهن هو الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدعي معرفة الأسرار ، وأن منهم من كان يذكر أن له تابعا من الجن ورئيا يلقى اليه الاخبار ويطلعه على ما يزعم من الغيب ، لذلك قيل ان الشياطين كانت تسترق السمع وتلقيه على السنة الكهان من العرب في الجاهلية فيؤدون الى الناس الاخبار بحسب مايرد اليهم أو يزيدون فيه ، وتقبله الكفار منهم وقد اوضح صاحب « المحبر » ذلك فقال « لايكون كاهنا حتى يكون معه شيطان تابع له » .(٦)

وقد أخبر الحق تبارك وتعالى بذلك فقال في محكم أياتـه « وان الشياطـين ليوحـون إلى أوليائهـم ليجادلوكم ، وإن أطعمتموهم إنكم لمشركون » .(٧)

كذلك كان من بين كهان العرب من زعم انه كان يعرف الامور بمقدمات اسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله ، أو من حاله أو من فعله ، واطلق العرب على مثل هذا الشخص اسم « العراف » الذي كان يدعي معرفة الشيء المسروق ، ومكان الضالة ونحوها ، وكان هؤلاء العرافون دون الكهان في المنزلة ، ومن أشهرهم الأبلق الازدي ، والأجلح الدهري ، ورياح بن عجلة ، عراف اليمامة الذي قال فيه عروة :

جعلت لعـراف اليمـامة حكمه
وعـراف نجـد إن هما شفيانـي (٨)

أما الفيلسوف العربي ابن خلدون ، فقد كان اكثر توفيقا من المسعودي في كتاباته عن الكهانة فلم يرض عن كل ما ذكره صاحب المروج ، بل ونعته بانه كان بعيدا عن الرسوخ في المعارف ، ينقل ما سمع من أهله ومن غير اهله (٩) وهو نفس النقد الذي وجهه بعض الباحثين المحدثين للمسعودي عندما اشاروا الى انه سطر في مؤلفاته القيمة العديد من الأخبار كما سمعها من الرواة دون تمحيص او نقد فجاءت كالأساطير ، بعيدة عن الواقع ومجافية للحقيقة . ومها كان الامر ، فالملاحظ أن ابن خلدون قد غاص بفكره الثاقب وعقله المدقق الى اعماق أقوال من سبقه من الكتاب لسبر غورها ، واستجلاء حقيقة الكهانة ، وخرج لنا بنتيجة مقبولة وهي ان

(٤) انظر مقال : الدكتور ابراهيم مدكور في الفلسفة في كتاب : أثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية - القاهرة ١٩٧٠ - ص ١٤٤ ، ١٨٥ - ١٨٦

(٥) المسعودي - مروج الذهب - ج ٢ ص ١٥٢ .

(٦) محمد بن حبيب البغدادي - كتاب المحبر ص ٣٩٠ . أنظر كذلك : لسان العرب لابن منظور كلمة « كهن »

(٧) الانعام / ١٢١

(٨) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ١٥٤ ، مقدمة ابن خلدون ص ٦٦ ، انظر كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ٢٠٤

(٩) المقدمة لابن خلدون - ص ٦٦ .

الكاهن لا يقوى على الكمال في ادراك المعقولات ، لأن وحيه من وحي الشيطان الذي يهجس في قلبه ما يقذفه على لسانه ، فربما صدق ووافق الحق ، وربما كذب.وفسر العالم الفقيه ذلك قائلا : إن الكاهن يحاول أن يتمم نقصه بامر ذلك الهاجس الغريب عن ذاته المدركة ، المباين وغير الملائم لها ، فيعرض له الصدق والكذب معا فلا يكون موثوقا ، كما اشار الى أن علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضا ، وانتهى الى ان ارفع الكهان مكانة واكثرهم شهرة من استعان بالكلام الذي فيه السجع والموازنة ليقوي على ما في نفسه من نقصان . (١٠) ونلاحظ ان ما ذكره ابن خلدون يتمشى مع الحديث النبوي الشريف الذي اخرجه الامام البخاري منسوبا الى السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : سأل رسول الله (صلعم) ناس عن الكهان فقال : ليس بشيء فقالوا : يارسول الله إنهم يحدثونا احيانا بشيء فيكون حقا ، فقال رسول الله (صلعم) : تلك الكلمة من الحق يخطفها من الجني فيقرها في أذن وليه فيخلطون معها مائة كذبة . (١١)

ويعتبر التنبؤ بالغيب والأخبار بما يمكن ان يقع في المستقبل ـ على الاقل من وجهة نظر المسلم ـ من الأمور غير الممكنة ، إن لم تكن مستحيلة على البشر جميعا ، لأنه من شئون الخالق المدبر لأمر العباد ، ومن العلوم التي تفرد بها رب السماوات والارض كما اخبر في محكم كتابه حيث قال تعالى « ولله غيب السماوات والأرض واليه يرجع الامر كله . »

وقال تعالى « قل لا يعلم من في السماوات والارض الغيب إلاالله » (١٢) حتى الانبياء والمرسلين لم يطلعوا على الغيب ويتعرفوا على اسراره إلا عن طريق الوحي ، وقد اوضح القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى « ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم ايهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون » . (١٣) ويوضح هذا النص ما كان من احداث الماضي التي دخلت نطاق المجهول من التاريخ الذي لم يعرفه الرسول الكريم (صلعم) وهو ما ينطبق ايضا على المستقبل ، كما يتضح في قول الحق تبارك وتعالى على لسان نبيه المصطفى (صلعم) « قل لا املك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ماشاء الله ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء » . (١٤) فاذا كان الامر كذلك فان كل ما قيل عن الملائكة والجن والشياطين وغيرها من المخلوقات التي يمكنها ان تعلم الغيب يظل مرتبطا هو الآخر بمشيئة الرحمن ، فقال تعالى فيما قصه عن آدم عليه السلام « وعلّم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم » . (١٥) وكذلك من الأخبار عن موت سليمان ، يقول

(١٠) المصدر السابق ص ٦١ .

(١١) صحيح البخاري ج ٤ ص ٦٤ .

(١٢) انظر على التوالي سورة هود / ١٢٣ ، والنمل / ٦٥ .

(١٣) آل عمران / ٤٤

(١٤) الاعراف / ١٨٨ .

(١٥) البقرة / ٣١ - ٣٢ .

الله تعالى « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين » . (١٦)

اما الذين ذهبوا الى ان الشياطين كانت تسترق السمع من السماء وتلقي بما سمعته في آذان المشتغلين بالكهانة وغيرهم فلم يفت القرآن الكريم الاشارة الى إفك من ادعى معرفة الغيب عن هذا الطريق وكذبهم ـ كما اشرنا ـ فقال تعالى « هل انبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفاك اثيم ، يلقون السمع واكثرهم كاذبون » . (١٧)

كذلك بينت الأحاديث النبوية كذب الكهان والعرافين وامثالهم ممن ادعى معرفة الغيب عن طريق الشياطين ، وحمقت من يصدقهم بالكتب والشراب ، فيروي عن النبي (صلعم) في ذلك قوله « من أتى عرافا او كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما انزل على محمد » .

وبالرغم من كل ذلك فان النصوص المختلفة تقدم لنا صورا عديدة لتبوءات كهان العرب من الرجال والنساء على المولد التي كثر الحديث عنها قرب مبعث نبي العرب ورسول الاسلام (صلعم) وهي ـ كما نرى ـ لا تتعدى كونها نوعا من القصص الذي يمكن ان يكون قد وضع على ألسنة عدد من هؤلاء الكهان ، مثل سطيح ، وشق اشهر كهان العرب ، والذي غلب الخيال على الحقيقة في كل ما روته المصادر المختلفة عنهما .

أما أولهما فهو ربيع بن ربيعة بن مسعود ، الذي ينسب الى غسان ، وعرف بسطيح لانه كان جسدا ملقى لا جوارح له ، فكان لا يقدر على الجلوس الا اذا غضب ، حينئذ ينتفخ جسده ويجلس ، ومن رواية أخرى أن جسده كان يدرج كما يدرج الثوب لاعظم فيه الا جمجمة الرأس ، وكانت اذا لمست باليد يلين عظمها . وقد بلغ هذا الرجل « العجيب البنية » من الكهانة مالم يبلغه أحد ، حتى عرف : بكاهن الكهان . (١٨)

أما معاصره ، وندّه في الكهانة والشهرة ، فهو شق بن صعب بن يشكر ، الذي ينحدر نسبه من أنمار بن ربيعة بن نزار ، وقد عرف هو الآخر بهذا الاسم لأنه كان شق انسان ، له يد واحدة ، ورجل واحدة ، وعين واحدة (١٩) .

ومن القصص الذي يروى في هذا الشأن أن الأعراب وأشباههم كانوا في جاهليتهم لا يتحاشون الايمان بالهاتف ، بل يعجبون ممن رد ذلك ، وكانوا يرون أنه اذا ألف الجني انسانا وتعطف عليه وخبره ببعض الأخبار وجد حسه ورأى خياله ، عندئذ يصبح مع هذا الانسان رئى من الجن ، وقد قالوا ذلك في زعماء من ذوي الأقدار مثل عمرو بن لحي ، وفي كهان مثل شق وسطيح ، وفي عرافين مثل الأبلق الأسدي ، ورباح بن كحله .

---

(١٦) سبأ / ١٤ .

(١٧) الشعراء / ٢٢١ - ٢٢٣ .

(١٨) المسعودي - مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٠ ، وله ايضا ، أخبار الزمان ، ص ١١٧ ، أنظر كذلك الروض الأنف السهيلي - طبعة بيروت - ج ١ ص ٧ .

(١٩) السهيلي - الروض الأنف ج ١ ص ٢٢ ، أما المسعودي فقد عده بحكيم العرب في الجاهلية ، وذكر انه شق بن حويل بن ادم بن سام بن نوح أول كاهن في العرب البائدة - أخبار الزمان ص ١٢٢ - ٢٢٣ .

ومن أعجب ما قالوا به أن من الجن جنس على صورة نصف انسان أطلقوا عليه اسم « شق » وأنه كثيرا ما يعرض للرجل المسافر اذا كان بمفرده ، فربما أهلكه من الفزع ، أو قتله من الضرب ، وساقوا في ذلك العديد من القصص والأساطير ، كحديث علقمه بن صفوان بن أمية الكناني ، جد مروان بن الحكم ، الخليفة الأموي ، فقد خرج علقمة في الجاهلية يريد مالا له بمكة في ليلة أضحيانة ، أي مضيئة لاغيم فيها ، فلما انتهى الى موضع يقال له حائط خرمان ، عرض له شق من الجن له يد ورجل وعين ، فضرب كل منهما صاحبه حتى خرا ميتين .

ولم يكن علقمه هذا هو الوحيد الذي راح ضحية الجن ، بل كان هناك العديد غيره مثل حرب بن أمية بن عبد شمس ، والد أبي سفيان ، وقد ساقوا في مقتله هو الآخر قصة طريفة ، وذكروا أن الجن قالت فيه هذا البيت من الشعر :

وقبـر حرب بمكان قفر
وليس قرب قبـر حرب قبر

وحاولوا التدليل على صحة نسبة هذا الشعر للجن بأن أحدا لا يستطيع أن ينشده ثلاث مرات متصلة لا يتتعتع فيها ، في الوقت الذي يمكنه أن ينشد أثقل شعر معروف وأشقه ، عشر مرات متتالية دون أن يتعتع . (٢٠)

حتى المغنين لم يسلموا بدورهم من هذا القصص الأسطوري ، فذكروا أن الغريض ، المغني المعروف الذي أخذ هذا الفن عن ابن سريج ، والذي نبغ في زمن الوليد بن عبد الملك وغنى في حضرته ، وكان متفوقا على كل معاصريه في الرثاء والنياحة ، هذا المغني الفنان الذي استوطن مكة لم ينج من ايذاء الجن ، فعندما تغنى بهذا الصوت .

تشرب لون الرازقـي بياضه
أو الزعفـران خالـط المسـك رادعه

قتله الجن لأنهم ـ كما قالوا ـ تهوى أن يتغنى به .(٢١)

ومما يستوقف النظر أن المسعودي حاول أن يرجع سبب التشوه الخلقي والنقص الجسماني الذي حدث لبعض كهان العرب الى تفوق النفس الناطقة على الجسد الميت ، ورأى أنه عندما تقوى النفس وتصفو تغلب على الجسد الذي لا يمكنه الحركة إلا بها ، عندئذ تستطيع هذه النفس القوية أن تقهر الطبيعة وتظهر للانسان أسرارها وتهديه الى استخراج الغيب وعلم الآتي ، فقال : « فاذا كانت النفس في غاية البروز ، ونهاية الخلوص ، تامة النور ، وكاملة الشعاع ، كان توقلها في دراية الغائب بحسب ما عليه نفوس الكهنة ، وبهذا وجد الكهان على هذه السبيل من نقصان الأجسام ، وتشويه الخلق ، كما اتصل بنا عن شق وسطيح وسملقة وزوبعة ، وأشباههم من الكهان . » (٢٢)

ومن القصص الذي ألبس ثوب التاريخ ، أن كلا من سطيح وشق ولدا في اليوم الذي ماتت فيه طريفة الكاهنة ، امرأة عمرو بن عامر ، وأنهما أخذا

(٢٠) كتاب الحيوان ، للجاحظ ج ٦ ص ٢٠٦ - ٢٠٨ انظر كذلك ، المسعودي ، مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٦ - ٢٩٧ .

(٢١) الأغاني ، لأبي الفرج الأصفهاني - طبعة بيروت ١٩٥٦ - ج ٢ ص ٥٨٦ .

(٢٢) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ١٥٤ .

الكهانة عنها ، فقبل أن تموت أحضر سطيح اليها ، فتفلت في فيه ، وأخبرت أنه سيخلفها في علمها وكهانتها ، وكذلك فعلت بشق ، ثم ماتت . (٢٣)

ومما يبعث على الدهشة والعجب في نفس الوقت أن النصوص المختلفة التي أوردت أخبار هذين الكاهنين قد أجمعت ـ رغم ما ذكرته عن تشوه جسديهما ـ على أنهما كانا من أشهر كهان العرب وأكثرهم ذكرا عند الكتاب والمؤرخين ، فكان الملوك والرؤساء يتنافرون اليهما في الخصومات ليعرفوهم بالحق فيها ، ويفزعون الى لقائهما للتعرف من مدارك غيبهما على أحداث المستقبل ، بالاضافة الى تفسير الرؤى ، وغير ذلك من المجهول .

ولعل من أشهر ما روى عنهما في ذلك شخوصهما الى ملك اليمن ربيعة بن نصر عندما استدعاهما لتأويل الرؤيا التي هالته وفظع بها ، بعد أن عجز الكهنة والسحرة والمنجمون من أهل مملكته عن تفسيرها ، وكان الملك يشترط عليهم أن يخبروه برؤياه قبل أن يفسروها له قائلا : إني إن أخبرتكم بها لم أطمئن الى خبركم عن تأويلها ، فانه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها ، لذلك نصحه رجل منهم بأن يستعين في ذلك بسطيح وشق باعتبارهما أعلم العرب وأقدرهم على تحقيق رغبته ، فبعث اليهما ، وكان سطيح أسبق اليه من صاحبه ، فطلب منه الملك أن يخبره بالرؤيا أولا ، فقصها عليه الكاهن قائلا : « رأيت حممة ، خرجت من ظلمة ، فوقعت بأرض تهمه ، فأكلت منها كل ذات جمجمة » فقال له الملك : ما أخطأت منها شيئا يا سطيح ، ثم أمره بتأويلها ، فأخذ الكاهن يسجع له بكلام أخبره فيه بانتهاء ملكه واستيلاء الأحباش على بلاده ، وبعدها يخرج من عدن ابن ذي يزن ليحرر البلاد من نير الأحباش ، ثم ينقطع سلطانه هو الآخر بظهور النبي العربي القرشي الذي تختاره السماء للتبشير بدين جديد . فلما سأله الملك عن مدى صدق نبوءته أكدها له الكاهن قائلا : « والشفق والغسق،والفلق اذا اتسق ، ان ما أنبأتك به لحق » .

فلما حضر شق ، أخبر هو الآخر تبع اليمن بمثل الذي قاله سطيح مع اختلاف يسير في اللفظ ، دون أن يخرج عن مضمون النبوءة ، وابراز القصد منها .

وقد عمر سطيح زمانا طويلا بعد ذلك الحديث ، وكانت له نبوءات أخرى مع كل من عبد المطلب بن هاشم ، وكسرى أنو شروان ، حيث قضى لجد النبي (صلعم) بماء له في الطائف عندما نافره عليه الثقفيون ، وفسر رؤيا ملك الفرس عن ارتجاس الايوان وخمود النيران بانقضاء سلطانهم ونهاية دولتهم على يد العرب بعد ظهور رسول الاسلام (صلعم) .(٢٤)

فاذا أمعنا النظر في أقوال هذين الكاهنين ، نلاحظ أنها جاءت متمشية مع طبيعة العصر الذي عاشا فيه ، وظروف البيئة ، والمنطقة العربية التي وجدا فيها ، بالاضافة الى ما كان من استعداد الناس وحاجاتهم في نفس الوقت ، الى دين جديد ينقلهم من الظلمات الى النور ، فقد تنبأ كل منهما لملك اليمن وكسرى فارس بانقضاء ملكيهما على يد دولة العرب بعد ظهور نبي الاسلام (صلعم) الذي ينتسب الى قريش ، صاحبة المكانة الرفيعة والمنزلة الخاصة عند القبائل العربية كلها ، وعزوا تلك النهاية لسلطان

(٢٣) الروض الأنف للسهيلي - ج ١ ص ٢٧ .

(٢٤) السمودي - أخبار الزمان ص ١١٢ - ١٢١ ، الروض الأنف للسهيلي ج ١ ص ٢٩ - ٣٠ ، مقدمة ابن خلدون ص ٦٩ .

تبابعة اليمن وأكاسرة الفرس الى ظهور الدين الجديد الذي سيدعو له - كما ذكر سطيح - نبي زكي من أبناء غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يأتيه الوحي من قبل العلي (٢٥) . كما أشار الكاهنان أيضا في حديثهما الى فكرة البعث والنشور والحساب والجزاء في اليوم الآخر ، وهي من المفاهيم التي لم يعرفها أهل الشرك وعبدة الأوثان في ذلك الزمان ، فقال سطيح لصاحب اليمن : « يوم يجمع فيه الأولون والآخرون يسعد فيه المحسنون ، ويشقى فيه المسيئون » .

أما زميله شق فقد أسماه - « يوم الفصل » ثم فصل حديثه للملك بانقضاء دولته وانتهاء كل أشكال الانقسام ومظاهر الفرقة بين عرب شبه الجزيرة على يدي « رسول يأتي بالحق والعدل بين أهل الدين والفضل يكون الملك في قومه الى يوم الفصل ، يوم تجزى فيه الولاة ، ويدعى فيه من السماء بدعوات يسمع منها الأحياء والأموات ، ويجمع فيه الناس للميقات ، يكون فيه لمن اتقى الفوز بالخيرات » .(٢٦)

وليس من المستبعد أن تكون مثل هذه الأقوال قد وضعها بعض الكتاب أو القصاص على لساني هذين الكاهنين الأسطوريين ، لا سيما من كان لهم معرفة بكتب الأقدمين وأخبار الرسل والأنبياء السابقين . ومما له دلالته في هذا المقام ، أنه يروي عن وهب بن منبه اليهودي اليمني الأصل ، أنه قال ، قيل لسطيح أنى لك هذا العلم ، فقال : لي صاحب من الجن أستمع أخبار السماء من طور سيناء حين كلم الله تعالى موسى - عليه السلام - فهو يؤدي الي من ذلك ما يؤديه . (٢٧)

المعروف أن ابن منبه (ت : بين ١١٠و١١٦ هـ) ، الذي كان له أثر كبير في تطعيم القصص الاسلامي بالاسرائيليات ، كان على معرفة واسعة بالتوراة ، كما قرأ العديد من كتب السابقين ، فلما دخل في الاسلام تفقه في الدين واتخذ له مجلسا للوعظ والتذكير كانت تغشاه جموع كبيرة من المسلمين فنعته صاحب « حلية الأولياء » بالحكيم الدافع للمشبه ، والحكيم الدافع للمتسفه ، وغدا من أشهر قصاص اليمن ، فقال عنه كذلك ابن خلكان ، أنه صاحب أخبار وقصص ، له معرفة بأخبار الأوائل ، وقيام الدنيا ، وأحوال الأنبياء وسير الملوك .(٢٨)

ولا نستبعد أن يكون الدافع وراء هذا القصص الذى روى على لسان كل من سطيح وشق ابراز أهمية النقلة الجديدة التى أحدثها الاسلام فى حياة العرب الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية من جهة ، وبيان الجهد الضخم الذى قام به الرسول الأعظم (صلعم) فى هذا المجال ، من جهة أخرى ، لاسيما وأن القرآن الكريم قد وضع الاصول لذلك كله ، مما أفسح المجال أمام العرب للاعتزاز بجهدهم في تأسيس دولة الاسلام الأولى ، وتوصيل الدين

---

(٢٥) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٨

(٢٦) نفس المصدر ج ١ ص ١٩ .

(٢٧) الروض الأنف السهيلي - ج ١ ص ٢٧ .

(٢٨) ابو نعيم الأصبهاني - حلية الأولياء ، ج ٤ ص ٢٣ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٦ ص ٣٥ - ٣٦ .

الجديد الى الشعوب المختلفة ، والافتنان بمدح نبيهم وتسليط الأضواء على فضله وسمو مكانته ، ومما يروى عن النبي (صلعم) في ذلك قوله : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الانبياء قبلي ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ، وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس كافة ، وأعطيت الشفاعة . [٢٩]

هذا الى جانب ما تحدث به أحبار اليهود ورهبان النصارى عن رسولنا الأعظم (صلعم) قبل مبعثه مما وجدوه في كتبهم عن صفته ، وأخبار زمانه وما كان من عهد أنبيائهم اليهم فيه . قال تعالى : « وإذ قال عيسى بن مريم يابني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » [٣٠]

ومما يذكر في هذا الشأن ، أن الأنصار من الأوس والخزرج كانوا يتحدثون قبل الاسلام عما كانوا يسمعونه من أحبار اليهود الذين يقيمون بين ظهرانيهم في يثرب قبل البعث ، وكانوا ينذرونهم به على أمل أنه منهم ، مما جعل عرب المدينة يسرعون الى قبول دعوة نبي العرب (صلعم) فقالوا : ان مما دعانا الى الاسلام مع رحمة الله تعالى وهداه لنا ، لما كنا نسمع من رجال اليهود وكنا أهل شرك ، أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب ، عندهم علم ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فاذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : انه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم ، فلما بعث الله رسوله (صلعم) أجبناه حين دعانا الى الله تعالى ، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم اليه فآمنا به ، وكفروا به ، فنزل فينا وفيهم قوله تعالى : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » . [٣١]

كذلك تحدثت النصوص التاريخية عما كان يسمعه رسول الله (صلعم) من بعض زعماء العرب الذين اطلعوا على كتب السابقين ودخلوا النصرانية أو اليهودية قبل اعتناقهم الاسلام ، كما حدث مع الجارود بن عمرو بن المعلى ، زعيم عبد القيس وكان نصرانيا عندما قدم هو وقومه المدينة عام الوفود لاعلان اسلامهم بين يدي الرسول (صلعم) . فتكلم الجارود وقال : والذي بعثك بالحق لقد وجدت صفتك في الانجيل ، ولقد بشر بك ابن البتول ، فأنا أشهد أن لا اله الا الله وأنك محمد رسول الله ، وآمن قومه ، وثبت على ولائه لدينه ولدولته عندما ارتدت القبائل العربية بعد وفاة النبي (صلعم) عن الاسلام ومنع قومه من الانحراف في ذلك الطريق ، فاستجابوا لنصيحته وثبتوا على اسلامهم . [٣٢]

---

(٢٩) صحيح البخاري ج ١ ص ٦٠

(٣٠) الصف / ٦ .

(٣١) البقرة / ٨٩ ، سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٥

(٣٢) ابن سيد الناس - عيون الأثر ، ج ١ ص ٦٩ ، الكامل في التاريخ لابن الاثير ج ٢ ص ٣٦٨ ، سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٢٢ .

وإذا كان بعض كهان العرب الذين عاشوا قبل ظهور نبي الاسلام (صلعم) بزمن قد تنبأوا بمجيئه ، مثل سطيح وشق ، فمن الطبيعي أن نجد أخبار قدومه (صلعم) على ألسنة العديد من كهانهم من الرجال والنساء على السواء ، من الذين عاشوا قبيل مبعثه (صلعم)أو حتى بعده .فتحدثنا الأخبار أن سوداء بنت زهرة ، كاهنة قريش قد طلب من قومها بنى زهرة ان يعرضوا عليها بناتهم فقالت فى كل واحدة منهن قولا ظهر بعد حين ، فلما عرضت عليها آمنة بنت وهب قالت : هذه النذيرة ، وفى رواية أخرى هذه ستلد نذيرا ".[٣٣]

أما كاهن دوس سواد بن قارب فقد أخبره رئيه فى ثلاث ليال متتالية بنزول الرسالة على سيد المرسلين (صلعم) قائلا : قم يا سواد واسمع مقالتى واعقل ان كنت تعقل ، قد بعث رسول الله) (صلعم) من لؤى بن غالب يدعو الى الله وعبادته وكان ينشده فى كل مرة أبياتا من الشعر منها :

عجبت للجن وطلابها
وشدها العيس بأقتابها
تهوى الى مكة تبغى الهدى
ما صادق الجن ككذابها
فارحل الى الصفوة من هاشم
ليس قداماها كأذنابها

فاعتنق الاسلام وحسن اسلامه ، وروى أنه أدرك زمان عمر بن الخطاب ، وكانت له قصة أخرى معه ، فبينما كان الخليفة جالسا فى مسجد المدينة اذ أقبل عليه سواد فمازحه أمير المؤمنين قائلا : ما فعلت كهانتك يا سواد ؟ فغضب وقال : سبحان الله ياأمير المؤمنين ، لقد خلت فى واستقبلتنى بأمر ما أراك قلته لأحد من رعيتك منذ وليت ، قد كنت أنا وأنت على شر من هذا من عبادة الأصنام وأكل الميتات ، أفتعيرنى بأمر تبت منه .بعد أن أكرمنا الله برسوله وبالاسلام ؟فتأثر الخليفة من اجابته وكأنه ندم على قوله وقال : اللهم غفرا [٣٤]

هكذا نلاحظ أن بعضا من كهان العرب الذين أدركوا الاسلام دخلوا فيه وتبرأوا من كهانتهم ، واعتبروها من الآثام التى يجب على المسلم أن يتوب منه ، الا ان هذه الحالة لم تكن عامة وشاملة ، فقد استمر فريق آخر يطلب الزعامة ويمارس الكهانة مثل عبد الدار بن حبيب كاهن جهينة ، وأبو بردة الأسلمى من خزاعة يروى عنه أن رجلا من منافقى الأنصار يقال له قيس وآخر من اليهود اختلفا فى حق تداروا فيه وكان الذمى يميل الى تحكيم نبى الاسلام (صلعم) لانه يعلم أنه لن يجوز عليه ، بينما أبى عليه ذلك الأنصارى المنافق ودعاه الى أبى بردة الكاهن ليقضى بينهما فاستجاب له اليهودى فعاب الحق جل شأنه ذلك الفعل وأنزل فيها قوله تعالى « ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا

---

(٣٣) الروض الأنف للسهيلى ج ١ ص ١٤٥ - ١٤٦ ، عيون الاثر لابن سيد الناس ج ١ ص ٧٥ .

(٣٤) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٣ - ٢٢٤ ، عيون الاثر لابن سيد الناس ج ١ ص ٧٢ - ٧٥ الروض الانف للسهيلى - ج ١ ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا.واذا قيل لهم تعالوا الى ماأنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » ويقال أن أبا بردة أسلم بعد أن اعتنق ولداه الاسلام فأمر النبي (صلعم) مناديا فنادى : الا ان كاهن أسلم قد أسلم .(٣٥)

مما سبق تلاحظ أن الكهانة غدت بعد مجيء الاسلام شيئا مكروها بل محرما يتبرأ منها صاحبها الذى نعته القرآن الطاغوت . فلا غرو أن ينحسر أمرها ويقتصر عمل المشتغلين بها على الفصل بين المنافقين أو من بقى على دينه القديم . أو الحاقدين على رسول الاسلام (صلعم)الكارهين لدعوته . وكان من هذه المجموعة بعض زعماء اليهود الذين وصموا بالكهانة لشدة حسدهم وبغضهم للنبي الكريم (صلعم) مثل كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب ، وكلاهما من بنى النضير ، ولبيد بن الأعصم من بنى زريق الذى بلغ حسده وضغنه لرسول الاسلام (صلعم) ذروته عندما أخذه عن نسائه فذكر مشهور وكتاب السيرة وكبار علماء الحديث ان ابن الأعصم قد سحر النبي (صلعم) وجعل سحره فى مشط ومشاطه وبخال النخل ودفنه في بئر فى بستان لقومه بالمدينة . وذكرت النصوص أن النبى (صلعم) مكث متأثرا بهذا « العمل » ما يقرب من سنة كاملة يخيل اليه أنه يفعل الفعل ولا يفعله . وأخرج صاحبا الصحيحين هذه الواقعة من حديث لأم المؤمنين السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت :سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم حتى كان رسول الله (صلعم) يخيل اليه انه كان يفعل الشيء وما فعله ـ ومن رواية اخرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن ـ حتى اذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندى لكنه دعا ودعا ثم قال يا عائشة أشعرت أن الله أفتانى فيما استفتيته فيه . أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلى فقال أحدهما لصاحبه : ما وجع الرجل فقال مطبوب فقال من طبه ؟ قال لبيد بن الأعصم قال : فى أى شيء ؟؟ فى مشط ومشاطة وجف طلع نخلة ذكر . قال وأين هو ؟ قال : فى بئر ذروان . فأتاها رسول الله (صلعم) فى ناس من أصحابه . فجاء فقال : يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء . أو كأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين . قلت يا رسول الله أفلا أستخرجته ؟ قال : قد عافانى الله فكرهت أن أثور على الناس فيه شرا . فأمر بها فدفنت .(٣٦)

ويرى جمهور الفقهاء والمحدثين أن السحر من العلوم الثابتة الحقيقية التي تعلمها الانسان عن طريق الشياطين . وان من أشد آثاره ما يفرق بين المرء وزوجه . وقد أخبر بذلك الحق جل شأنه فى قوله تعالى : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما

(٣٥) سورة النساء / ٦٠ - ٦١ . انظر : أسباب النزول للواحدي ص ١٠٧ - ١٠٩ .

(٣٦) صحيح البخاري ج ٤ ص ١٤ - ١٥ انظر كذلك صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٤ ص ١٧٤ - ١٨٥ اشار ابن الاثير كذلك الى لبيد بن الاعصم وقال انه اليهودي الذي سحر النبي (صلعم) وقال بخلق التوراة كمقولة المعتزلة بخلق القرآن انظر الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٢٥ .

نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وماهم بضارين به من أحد الا باذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم »[٣٧]

وعلى ذلك فان معظم فقهاء المسلمين وكبار المحدثين لايرون ما يحول دون حدوث ما قام به ابن الاعصم اليهودي . قال تعالى « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا او يلقى اليه كنز او تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا »[٣٨] .

قال العالم الفقيه المفسر ابو جعفر ابن جرير الطبري في تفسير العبارة الاخيرة يقول المشركون للمؤمنين بالله ورسوله ان تتبعون ايها القوم باتباعكم محمدا الا رجلا به سحر[٣٩]

من ناحية أخرى فقد ذكر الحافظ الفقيه المفسر أبو عبد الله محمد بن أحمد الانصارى القرطبى في تفسير قول الله تعالى « نحن أعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك واذ هم نجوى اذ يقول الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا »[٤٠] يقول الامام القرطبى ان هذه الآية الكريمة نزلت حين دعا عتبة بن ربيعة أقرانه من أشراف قريش الى طعام صنعه لهم فدخل عليهم النبى الكريم (صلعم) وقرأ عليهم القرآن ودعاهم الى الله فلم يستجيبوا له وتناجوا فيما بينهم بظلمهم قائلين ان تتبعون الا رجلا مطبوبا قد أثر فيه السحر فاختلط عليه أمره .[٤١]

لذلك فان الامام النووى فى تفسيره وشرحه لحديث النبى (صلعم) ينقل عن الامام المازري قوله : ان مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة يرون اثبات السحر كغيره من الحقائق الثابتة خلافا لمن أنكره ونفاه . ودلل على ذلك بأن الله تعالى قد ذكره فى محكم آياته مما يتعلم وانه مما يكفر به وانه يفرق بين المرء وزوجه وقال : ان هذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له . ونعت من أنكر الحديث « بالمبتدعة » وبين أن ادعائهم بأنه يحط منصب النبوة وشككه فيها ويمنع الثقة بالشرع هو ادعاء باطل ؛ لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدق النبى (صلعم) وصحته وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ . ثم أوضح الامام النووى نقلا عن القاضى عياض قوله : ان روايات هذا الحديث جاءت مبنية على أن السحر انما تسلط على جسد النبى (صلعم) وظواهر جوارحه دون عقله وقلبه واعتقاده وان جاء من قوله (صلعم) أنه يخيل

---

(٣٧) البقرة / ١٠٢ .

(٣٨) الفرقان / ٧ - ٨ .

(٣٩) جامع البيان في تأويل أي القرآن للطبري - الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٥٤ ج ١٨ ص ١٨٣ .

(٤٠) الاسراء / ٤٧ .

(٤١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي - طبعة وزارة الثقافة - القاهرة ١٩٦٧ ج ١٠ ص ٢٧٢ بالمعروف ان السحر عند القدرين هو كل عمل يقرب فيه الى الشيطان وبمعونة منه ويرى بعضهم ان ما جاء فى قوله تعالى « ان تتبعون الا رجلا مسحورا » انه يعني مخدوعا ؛ انه لو سحر مثلا بالتالي انه سحر وازيل عن حد الاستواء انظر : لسان العرب لأبن منظور كلمة « سحر » .

اليه فعل شيء لم يفعله ونحوه محمول على التخيل بالبصر لا لخلل تطرق الى العقل وليس في ذلك ما يدخل لبسا على الرسالة ولا طعنا لأهل الضلالة .(٤٢)

من ناحية أخرى فقد أشار الفقيه المحدث أبو القاسم عبدالرحمن الخثعمي السهيلي (ت ٥٨١هـ) الذي يرجع اليه فضل شرح سيرة ابن هشام وتفصيلها بالتحرير والضبط الى قصة ابن الأعصم اليهودي والى حديث الرسول (صلعم) ووصفه بأنه حديث مشهور عند الناس ثابت عند أهل الحديث ولا مطعن فيه من جهة النقل ولا من جهة العقل . وذكر أن المعتزلة وطوائف أخرى ، تتهم بأهل البدع ، لم يرضوا عنه وطعنوا في امكانية حدوثه بحجة انه لا يجوز على الأنبياء أن يسحروا وقال : ان بعضهم نزع الى هذا الرأي بما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى « والله يعصمك من الناس »(٤٣) وقد فند فقيه الأندلس هذه الحجة بأن عصمة الأنبياء انما وجبت لهم في عقولهم ودياناتهم . أما أبدانهم فانهم يبتلون فيها . وذكر أنه يمكن على ذلك أن يخلص اليهم بالجراحة والضرب والسموم والقتل ، وأشار الى ان الأخذة التي أخذها رسول الله (صلعم) من هذا القبيل انما كانت في بعض جوارحه دون بعض ، ثم بين السهيلي أن ما جاء في قوله تعالى « والله يعصمك من الناس » انما نزل بخصوص حراسة رسول الله (صلعم) من أعدائه في الغزو حيث كان الصحابة يقولون بهذا العمل فلما نزلت هذه الآية صرف النبي الكريم (صلعم) حراسه وقال : لا حاجة لي بكم فقد عصمني الله من الناس .(٤٤)

وقد جاءت هذه العبارات القرآنية ضمن آية في سورة المائدة ذكر أنها نزلت بعد منصرف الرسول (صلعم) وأصحابه من الحديبية في السنة السادسة للهجرة . ويروى عن السيدة عائشة رضي الله عنها - في ذلك قولها : سهر رسول الله (صلعم) ذات ليلة فقلت يا رسول الله ما شأنك ؟ قال ألا رجل صالح يحرسنا الليلة ؟ (فقالت بينا نحن في ذلك سمعت صوت السلاح فقال من هذا ؟ قال سعد وحذيفة جئنا نحرسك فنام رسول الله (صلعم) حتى سمعت غطيطه ونزلت هذه الآية فأخرج رسول الله (صلعم) من قبة أدم وقال : انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله » .(٤٥)

ولنا بعد ذلك كلمة نريد أن نعلق بها على كل ما

(٤٢) انظر شرح النووي في صحيح مسلم ج ١٤ ص ١٧٤ - ١٧٥ وقد أشار بعض علماء اللغة الى أن من أنواع السحر الأخذة التي تأخذ العين حتى يظن أن الأمر كما يرى وليس الأصل على ما يرى وقد أشار ابن هشام في سيرته الى ذلك عندما ذكر أن لبيد بن الأعصم من يهود بني زريق هو الذي أخذ رسول الله (صلعم) عن نسائه . سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٦٢ انظر كذلك لسان العرب لابن منظور كلمة « سحر » .

(٤٣) المائدة / ٦٧ .

(٤٤) الروض الأنف السهيلي ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٤٥) أسباب النزول الواحدي - ص ١٢٥ [illegible] (صلعم) [illegible] (صلعم) [illegible] (صلعم) [illegible] (صلعم) [illegible] (صلعم) على [illegible] . انظر ، سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٥٥ المغازي الواقدي ج ٢ ص ٧١٢ .

ذكرناه عن حديث السحر ، فسواء أخذ المحدثون بهذا الحديث أولم يأخذوا به ، وسواء قصد المفسرون بكلمة السحر المعنى الحرفى الظاهر دون الاجتهاد أو تأويل او أى معنى آخر ، فيبقى المغزى الذى يكمن فى روايته هاما ، لأنه يبين الى أى مدى وصل الحقد والبغض والغدر وغير ذلك من الصفات والمشاعر اللاانسانية التى كانت تملأ قلوب يهود يثرب ، وتسيطر على نفوسهم نحو بنى العرب ورسول الاسلام(صلعم) حتى أنهم لم يتركوا سلاحا مشروعا وغير مشروع الا واستخدموه فى محاولاتهم المستمرة اليائسة للتخلص منه والقضاء على دولته التى لم يكن ساعدها قد اشتد بعد ، فصدق فيهم قول الحق تبارك وتعالى : « كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ، ويسعون فى الأرض فسادا ، والله لا يحب المفسدين » [٤٦] .

ولعل انصراف كهان العرب واليهود ـ بعد مجيء الاسلام ـ الى السحر وغيره دون الاهتمام بعملهم الأصلى المتعلق بمحاولة معرفة الغيب والآتى من الأحداث يرجع الى أن الشياطين من الجن التى كانت تسترق السمع وتأتيهم ببعض أنبائه قد حيل بينها وبين المقاعد التى كانت تقعدها لاستراق السمع فيها ، فرموا بالنجوم ، وعرفت الجن أن ذلك لأمر من الله فى العباد لما تقارب أمر النبى (صلعم) وظهور مبعثه ، فقال تعالى : « وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ، وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا ، وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ، وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ، وانا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا » [٤٧]

ومما يروى فى ذلك أن قريشا حين كثر القذف بالنجوم اعتقدت بقيام الساعة ، فقال لهم عتبة بن ربيعة : انظروا الى العيون ـ وهو التصبب من الماء ـ فان كان رمى به فقد آن قيام الساعة والا فلا . [٤٨]

هكذا انتهت الكهانة ، وانقطع عمل الكهان بعد أن رميت الشياطين بالنجوم قال تعالى « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير » . [٤٩]

أما أهل الطائف ، فقد فزعوا ، وريعهم من هذا الفعل ، ولجأوا الى عمرو بن أمية ، من بنى الخلاج ، وكان من الكهان الذين عرفوا برجاحة العقل ، فسألوه عما رأى فى السماء من القذف بالنجوم ، فقال لهم : انظروا فان كانت معالم النجوم التى يهتدى بها فى البر والبحر ، وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء لما يصلح الناس فى معايشهم هى التى يرمى بها فهو والله طى الدنيا وهلاك هذا الخلق الذى

---

(٤٦) المائدة / ٦٤ .

(٤٧) الجن / ٦ ـ ١٠

(٤٨) الروض الانف للسهيلى ج ١ ص ٢٢١ ، سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١٢ ـ ٢١٩ .

(٤٩) الملك / ٥

فيها ، وان كانت نجوم غيرها وهى ثابتة على حالها ، فهذا لأمر أراد الله به هذا الخلق .

ويوضح هذا النص معرفة العرب فى الجاهلية ـ كما تعلم ـ بشىء من علم النجوم لا سيما النجوم الزاهرة المتلألئة التى كانوا يستعينون بها فى التعرف على الطرق فى القفار والبحار ، وتفسير بعض الظواهر الطبيعية كالخسوف والكسوف والمطر ، الى جانب قراءة الطالع ومعرفة الحظ وغير ذلك من الأحداث التى تهمهم فى حياتهم العامة وعلاقاتهم الخاصة ، وهو ما كان يطلق عليه التنجيم (Astrology) وذلك قبل أن يتعرفوا على أصول علم الفلك (Astronomy) .

أما ظاهرة الشهب التى تتساقط من السماء فلم يتوصل العرب الى حقيقة دلالتها الا بعد مجىء الاسلام وذكرها فى القرآن ، ويتضح ذلك فيما روته النصوص عن النبى (صلعم) وحديثه مع نفر من الأنصار عن تلك النجوم التى يرمى به ، فقالوا يا نبى الله كنا نقول حين رأينا ها يرمى بها : مات ملكٌ ، مُلِّكَ ملكٌ ، ولد مولود ، مات مولود ، فقال رسول الله (صلعم) ليس ذلك كذلك ، ولكن الله تبارك وتعالى كان اذا قضى فى خلقه أمرا سمعه حملة العرش فسبحوا ، فسبح من تحتهم حتى ينتهى الى السماء الدنيا ، فيتحدثوا به ، فتسترقه الشياطين بالسمع على توهم واختلاف ، ثم يأتوا به الكهان من أهل الأرض فيحدثوهم به فيخطئون ويصيبون ، فيتحدث به الكهان فيصيبون بعضا ويخطئون بعضا ، ثم ان الله عز وجل حجب الشياطين بهذه النجوم التى يقذفون بها ، فانقطعت الكهانة اليوم ، فلا كهانة .(٥٠)

وهذا يثبت ما ذكرناه من أن المشتغلين بالكهانة كانوا يوهمون الناس بقدرتهم على معرفة الغيب وما يأتى به المستقبل . فاذا نحينا الزمان جانبا ، ونظرنا الى كنه عمل الكاهن لرأينا أنه لا يختلف كثيرا عن القاص الذى يتكسب من وراء عمله ، فكلاهما يحاول تعريف الناس بأخبار غابت عنهم أو وقائع يجهلونها بالحيلة والخداع ، مستخدما فى معظم الأحيان أسلوبا متميزا غلب عليه السجع لزيادة التأثير على السامعين ، فيثقوا به واعتقدوا ما يقول ، فكل منها صنو صاحبه من هذه الوجوه . ونريد أن نلفت النظر الى أن هذا التشبيه للكاهن بالقاص لا ينسحب الا على ما كان شائعا ومعروفا عن كهان العرب فى الجاهلية . فلما جاء الاسلام ، وأظهر حقيقة الكهانة وحرمها ، حاول بعضهم الهروب منها بادعاء النبوة مثل « صاف » الذى اشتهر بابن صياد » أوه ابن صائد » ، وقد روت لنا النصوص قصته مع رسول الله (صلعم) ، فعندما علم بأمره وما يدعيه من النبوة ويتعاطاه من الكلام فى الغيب ، أراد أن يمتحنه ويبين للناس كذبه وعجزه ، ويكشف لهم حقيقة أمره وواقع حاله ، فخبأ له رسول الله (صلعم) فى يده قول الحق تبارك وتعالى : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين » (٥١) وأتاه وأصحابه ،وقال له : خبأت

(٥٠) سيرة ابن هشام ، ج ١ ص ٢١٩ - ٢٢٠ ، الروض الانف للسهيلى ج ١ ص ٢٢٨ - ٢٢٩ ، وانظر كذلك ما ذكره ابن سيد الناس ، عن كاهن بنى لهب خطر بن مالك وغيره من كهان العرب فى عيون الأثر ج ١ ص ٧٢ - ٨٠

(٥١) سورة الدخان / ١٠ .

لله يا ابن صياد خبيئا ، فأجابه الكاهن : هو الدخ . وبهذه الاجابة المبتورة ظهر عجز هذا المتنبىء وانكشف خداعه ، فقال له النبى (صلعم) اخسأ فلن تعدو قدرك . فأظهرت هذه القصة فشل ابن صياد فى معرفة الآية الكريمة الكاملة ، ولم يهتد الكاهن الا لهذا اللفظ من كلمة « الدخان » فجاءت ناقصة على عادة الكهان الذين لا يلقى اليهم شياطينهم من الجن الا بقدر ما يخطف قبل أن يدركه الشهاب الذى يرمى به ، فلا يحفظون منه الا كلمة واحدة أو جزء منها لا يمكنه أن يصل بها الى بيان أمور الغيب وتحقيقها ، بخلاف الأنبياء الذين يوحى الله تعالى اليهم من علم الغيب ما يوحى ، فيكون كاملا واضحا (٥٢)

لذلك وجدنا المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون يصنف مجموعة المتنبئين كابن صياد وأمثاله الذين ظهروا بعد الاسلام ضمن فئة الكهان ، بطمعهم فى النبوة ؛ ولجوئهم الى الكذب والخداع ، واستعانتهم على بلوغ مآربهم والتأثير على الناس بالكلام المسجوع ، فقال : ان هؤلاء الكهان اذا عاصروا زمن النبوة فانهم عارفون بصدق النبي ودلالة معجزته لأن لهم بعض الوجدان من أمرها ككل انسان ، ولا يصدهم عن ذلك ويوقعهم فى التكذيب الا قوة المطامع فى أنها نبوة لهم فيقعون فى العناد كما وقع لأمية بن أبي الصلت الذي كان يطمع أن يتنبأ ، وكذا وقع لابن صياد ولمسيلمة وغيرهم . (٥٣)

المتنبئون والقصص :

من المفيد أن يكون لنا فى هذا المقام وقفة متأنية نكشف فيها عن حقيقة حركة المتنبئين من جهة ، ونبين أوجه الشبه بينهم وبين ما كان يقوم به الكهان والقصاص من جهة أخرى .

من الشائع والمعروف أن الدوافع لحركة المتنبئين ، التى اشتد ساعدها بعد وفاة الرسول الكريم (صلعم) ترجع الى أسباب دينية واقتصادية ، ولكن الوقائع تشير الى أن العامل السياسي كان له هو الآخر دور فعال ومؤثر فى تحريك نفوس المتنبئين ، ولانبالغ اذا قلنا أنه كان أبعد أثرا وأشد خطرا على دولة الاسلام لو لم تنجح جهود الخلافة فى اجهاض تلك الحركة والحاق الهزيمة بزعاماتها ، وتخليص المجتمع الاسلامى من شرورهم .

فالذى لاشك فيه أن بعض زعماء القبائل من أصحاب الطموح رأى أن أبا بكر لم يول عليهم من قبل السماء كما كان الحال بالنسبة للرسول (صلعم) الذى كان يأتيه الوحى من عند الله تعالى ، فاستغلوا هذا الادعاء للتأثير على أصحابهم والتحلل من نفوذ قريش وسيادتها ، والخروج على سلطان الدولة ، والتمرد على مفهوم السلطة المركزية التى لم يكن العرب وكبار زعمائهم قد اعتادوا عليها ومرسوا فيها ، ويتضح ذلك كله فى حركة مسيلمة بن حبيب زعيم بنى حنيفة ، وموقفه من سجاح بنت الحارث عندما قدمت على رأس قومها من بنى تغلب الى بلاده ، طمعا فى الغزو والغنيمة ، فهابها مسيلمة ورغب فى

(٥٢) عن ابن صياد الكاهن وقصته مع النبي (صلعم) انظر صحيح مسلم ج ١٨ ص ٤٦ - ٤٩ ، الروض الانف للسهيلي ج ١ ص ٢٢٨

(٥٣) مقدمة ابن خلدون ص ٦٠ - ٦١ .

موادعتها والتحالف معها مقابل أن يعطيها ما كانت تحصل عليه الدولة الاسلامية كزكاة من غلة الأرض ، فعرض عليها ذلك قائلا : لنا نصف الأرض وكان لقريش نصفها لو عدلت ، وقد رد الله عليك النصف الذى ردت قريش فحباك به ، وكان لها ذلك لو قبلت .

وكان مسيلمة عندما طمع في النبوة والرياسة كتب الى النبى (صلعم) قبيل وفاته يقول : من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله ، أما بعد فانى قد أشركت معك في الأمر ، وان لنا نصف الأرض ، ولقريش نصفها ، ولكن قريشا قوم يعتدون .

فلما عرض مسيلمة ذلك العرض على سجاح قبلت بتلك الغنيمة السهلة التي جاءتها دون قتال ، وقالت : لايرد النصف الا من شنف ، فاحمل النصف الى خيل تراها كالسهف . فاغتبط مسيلمة بموافقتها ، وعرض عليها الزواج وقال : أكل بقومى وقومك العرب . فوافقته وأقامت عنده ثلاثة أيام ، فسجع لها كلاماً على طريقة الكهان مدحها وقومها ، وأظهر فيه نبوته وقال : سمع الله لمن سمع ، وأطمعه بالخير اذا طمع ، ولازال أمره في كل ما سر نفسه يجتمع ، رآكم ربكم فحياكم ، ومن وحشة خلاكم ، ويوم دينه أنجاكم ، فأحيا علينا من صلوات معشر أبرار أشقياء ولافجار ، يقومون الليل ، ويصومون النهار لربكم ، رب الغيوم والأمطار .(٥٤)

ومما يثبت هذا الدافع السياسي الذى يقف بقوة وتأثير وراء حركة الردة ، ما روته النصوص التاريخية عن طلحة النمرى عندما قدم اليمامة للقاء مسيلمة والتعرف عليه قبل أن ينضم الى حركته ، فلما لقيه سأله عن حاله ، فأجابه مسيلمة بأن الوحى يأتيه في ظلمة ، فقال له النمرى : أشهد أنك كذاب ، وأن محمدا صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب الينا من صادق مضر ، وانضم اليه ، وقاتل معه حتى قتل في موقعة عقرباء التى انتصر فيها خالد بن الوليد .(٥٥)

ويحكي لنا هذا النص أثر العصبية القبلية في نفوس العرب ، واستمرار تحكمها في حياتهم وفي علاقات القبائل مع بعضها البعض ، كما يظهر رغبة بعض زعماء العرب في التخلص من نفوذ قريش ونفض سلطان الدولة وسلطتها المركزية عن كاهلهم كما ذكرنا .

كذلك لانرى بأسا في تصنيف ابن خلدون لهم مع طبقة الكهان ، فقد ادعى مسيلمة أن معه رئيا من الجن ، مما جعل أحد الشعراء يشير الى ذلك عندما وصف خداعه ومخاريقه قائلا :

بيضة قارور وراية شادن
وخلة جنى وتوصيل طائر(٥٦)

(٥٤) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٧٢ ، أنظر كذلك : الكامل في التاريخ لابن الاثير ج ٢ ص ٣٠٠ - ٣٥٦
(٥٥) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٧٦ ، الكامل في التاريخ لابن الاثير ج ٢ ص ٣٦٢ . ومما تجدر الاشارة اليه أن النسابة يذكرون ان بني النمر مثل بني حنيفة ينحدرون من ربيعة بن نزار ، بينما قريش الذين يعتبرهم من مضر بن نزار ، ينتسب الى مضر بن نزار
(٥٦) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ٢٥ .

من ناحية أخرى ، نلاحظ أن أحاديث مسيلمة لأصحابه كانت تشبه كلام القصاص ، فكان يسجع لهم الأساجيع مضاهاة لكتاب الله تعالى لترسيخ فكرة نبوته ، ومما جاء في ذلك قوله : « لقد أنعم الله على الحبلى ـ وأخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشى » وفي تفضيل قومه واشتغالهم بالزراعة على من سواهم ـ وربما قصد هنا قريشا التي كان نشاطها محصورا في التجارة ـ وحثهم على التصدي لأعدائهم بقوة وحزم قال : « والمبذرات زرعا ، والحاصدات حصدا ، والذاريات قمحا ، والطاحنات قمحا ، والخابزات خبزا ، والثاردات ثردا ، واللاقمات لقما ، اهالة وسمنا ، لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعتر فآووه ، والباغي فناوئوه .(٥٧)

ولم يكتف بذلك ، فحاول أن يشرع لهم بما يرضى أهواءهم ، ويساير عاداتهم الجاهلية ليزدادوا إقبالا عليه ، وتمسكا به ، فأحل لهم الخمر والزنا ، ووضع عنهم الصلاة ، فأصفقت معه بنو حنيفة .(٥٨)

أما طليحة بن خويلد الأسدى ، الذي تنبأ هو الآخر في حياة الرسول (صلعم) ، فقد وصمه الجاحظ بالكهانة لقدرته على السجع وتفوقه في الخطابه وقرض الشعر ، وكلها من الفنون التي كان يتقنها الكهان ويستخدمونها للتأثير على الناس وكسب ثقتهم ، فقال : « كان طليحة خطيبا وشاعرا ، وسجاعا كاهنا ، ناسبا »(٥٩) ، فكان يدعى لخداع الناس أن جبريل يأتيه ويوحى اليه بالتخفيف عن أصحابه ، فأمرهم بترك السجود في الصلاة ، وقال لهم : ان الله لايصنع بتعفر وجوهكم وتقبح أدباركم شيئا ، اذكروا الله أعفة قياما . (٦٠) لذلك تبعه ـ هو الآخر ـ كثير من العرب عصبية لنسبهم وتخلصا من زعامة قريش وسيادتها ، فكان أكثرهم من أسد وغطفان وطيء ، والقبيلتان الأوليان من غير ابناء الياس بن مضر الذى تنتسب قريش اليه ، بينما الثالثة من القبائل القحطانية .

ولعل ما ذكره الجاحظ عن طليحة عندما نعته بالكهانة واستعمال السجع يؤيد ما أشرنا اليه عن مسيلمة ، ومن قبله سطيح وشق وغيرهما من كهان العرب ، فهذا الارتباط الوثيق والقوى بين الكهانة والكلام المسجوع يجعلنا لانفرق ـ من هذه الناحية ـ بينهم وبين المتنبئين الذين ـ كما رأينا ـ استغلوا هذا الأسلوب نفسه للتأثير على الناس لسهولة استيعابه وحفظه ، بالاضافة الى يسر انتقاله ونقله وانتشاره على نطاق واسع بين الناس ، وهو ما كان يفعله القصاص أيضا ، وقد أوضح ذلك الفقيه عبد الصمد ابن الفضل الرقاشي ، أحد قصاص البصرة المعروفين عندما سئل عن أسباب ايثار السجع على المنثور ، والزام نفسه بالكلام المقفى الموزون فقال : « ان كلامي لو كنت لاآمل فيه الا سماع الشاهد لقل خلافي عليك ولكني اريد الغائب والحاضر والراهن والغابر فالحفظ اليه اسرع والاذان لسماعه انشط وهو

---

(٥٧) تاريخ الطبري ، ج ٣ ص ٢٧٢ - ٢٨٤

(٥٨) سيرة ابن هشام ج ص ٩ .

(٥٩) الجاحظ - البيان والتبيين ج ١ ص ٣٥٩

(٦٠) الكامل في التاريخ لابن الاثير ج ٢ ص ٣٤٤ .

احق بالتقييد وبقلة التفلت » .(٦١) فلا غرو ان أصبح الكلام المسجوع الذى اختص به الكهان والمتنبئين والقصاص من الاساليب المكروهة ـ على الاقل في صدر الاسلام ـ وقد بين ذلك الجاحظ فقال : وكان الذى كره الأسجاع بعينها وان كانت دون الشعر في التكلف والصنعة أن كهان العرب الذين كان اكثر الجاهلية يتحاكمون اليهم وكانوا يدعون الكهانة وان مع كل واحد منهم رئيا من الجن وكانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع فوقع النهى في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيتها فيهم وفي صدور كثير منهم فلما زالت العلة زال التحريم .(٦٢)

اغلب الظن ان المتنبئين اتخذوا من المساجد مراكز يعقدون في رحابها مجالسهم التى يقصون فيها على أصحابهم ويدعون لأنفسهم ويروجون لأفكارهم ، ويحدثنا ابن الجوزى الفقيه والقاص والمؤرخ المعروف عن واحد من هولاء المتنبئين ظهر في دمشق زمن عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ) كان يدعى الحارث كان والده ينزل الغوطة وقد اشتهر بين اهلها بالزهد والتعبد . يعظ الناس ويقص لهم بكلام لم يسمع السامعون الى احسن منه كتب اليه ابنه المتنبيء يطلب منه القدوم اليه للاستعانة به واستشارته في اشياء رآها ويتخوف من ان تكون من عمل الشياطين ـ فأجابه الشيخ الوالد بفتوى قائلا : يابني اقبل على ما آمرت به ان الله يقول « هل انبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل آفاك اثيم » ولست بافكاك ولا اثيم فامض لما أمرت به . فزادت هذه الفتوى المضللة الابن الطموح لجا ، وشجعته على الاستمرار فيما عقد عليه العزم ولم يجد الحارث الكذاب للتستر وراء التدين واظهار التقوى والصلاح لتحقيق اهدافه افضل من المساجد مكانا لبث سموم دعوته فكان يطوف على مساجد المدينة يلقي روادها ويذكر لكل منهم على انفراد امره فمن استجاب له وانخدع بمظهره وحديثه اخذ عليه العهد والميثاق والا طلب منه ان يكتم عليه امره . وكان يحاول اقناع الناس بما يريهم من اعاجيبه وحيله وبما يسمعهم من حسن قصصه ومسجوع كلامه ـ فاقبل عليه العامة حتى كثروا فاشتهر وفشى أمره وبلغ خبره الخليفة فجرد له حملة للقبض عليه ولكن الحارث تمكن من النجاة وفر هاربا بجولته الى بيت المقدس ، واستخفى في موطنه الجديد عن عيون الدولة في مكان سرى أمين فكان أصحابه يخرجون يلتمسون الرجال ويدخلونهم عليه فيخبرهم عن حاله فكان منهم المخدوع المصدق والواعي الذى كشف حقيقة أمره كما كان جند الدولة يفتشون ويبحثون عنه حتى قبضوا عليه وساقوه الى أمير المؤمنين في دمشق فحاول عبد الملك اصلاح ذات بينه ولكن دون جدوى فامر بصلبه وقتله فطعن بحربه في صدره ولكنها صادفت احد ضلوعه فانكفأت عنه ولم تنل منه مقتلا فازداد اعتقاد البسطاء والجهلاء من العامة بنبوته وصاحوا :الانبياء لايجوز فيهم السلاح ، فاسرع احد الجند بطعنه بين ضلعين طعنه قوية ناقذة أنهت حياته . (٦٣)

الواقع ان استغلال المتنبئين والطامعين في الزعامة والرئاسة لم يقتصر ظهورهم على بلاد المشرق الاسلامي فقد وجد بعضهم في المغرب ايضا التربة

(٦١) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٢٨٧ .

(٦٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠ .

(٦٣) ابن الجوزي ـ تلبيس ابليس ص ٣٧٩ ـ ٣٨١ .

الخصبة والبيئة الصالحة لتحقيق طموحاته ، فتحدثنا النصوص ان أبا عبدالله الشيعي عندما وصل الى ارض كتامة في أواخر القرن الثالث الهجرى اتخذها مقرا لدعوته والتبشير بالمهدى المنتظر فاجتمعت اليه قبائل كتامة البربرية فكان يقص عليهم بما اوتي من علم وفهم ودهاء ومكر من اخبار المهدى ويقول « ان للمهدى هجرة تنبو عن الاوطان ينصره فيها الاخيار من اهل ذلك الزمان قوم اشتق اسمهم من الكتمان وانهم كتامة يخرجون من هذا الفج الذى يسمى فج الاخيار » فاستحوذ على افئدتهم وملك ألبابهم بمثل هذه الحيل والمكيدات والتارنجيات فذاعت شهرته وعظمت مكانته حتى قاتلت من اجله كتامة قبائل البربر الاخرى التي رغبت ان تأخذه الى مضاربها وتستأثر به في منازلها .(٦٤)

ولانستبعد ان يكون هذا القصص عن المهدى المنتظر قد ترك في نفوس طوائف العامة من قبائل البربر آثارا راسخة توارثتها الاجيال مع تعاقب القرون والأزمان ، ولم تكن تحتاج لكى تطفو مرة اخرى على سطح الاحداث الا لقاص أوتي من الفطنة ومعرفة باخبار السابقين لتحريك مكنون القلوب بحسن الحديث والقدرة على السجع ، وبمثل تلك الحيل والنارنجيات التي كان يتبعها الاقدمون ، وأغلب الظن أن مثل هذا القاص قد ظهر خلال العصور التالية في بعض المناطق التى تتوافر فيها فرص النجاح ، فيحدثنا ابن خلدون أنه ظهر ببلاد السوس في أوائل القرن الثامن الهجرى رجل من البربر يعرف بالتويذرى ـ ادعى أنه المهدى المنتظر واتخذ من مسجد مدينة ماسة على ساحل البحر مقرا لدعوته فأقبلت عليه طوائف العامة من البربر الذين كان يملأ قلوبهم الاحساس بانتظاره وأن من ذلك المسجد ستكون أصل دعوته ، فلما كثر أتباعه وخشى زعماؤهم اتساع نطاق الفتنة ، دس اليه كبير الصامدة ، وكان يدعي عمر السكسيوى من قتله في فراشه .(٦٥)

هكذا يتضح من الروايات السابقة دور المسجد الذى حاول المتنبئون وامثالهم من الطامعين في النفوذ والرياسة استغلاله والخروج به على غير ما أنشىء له وقام من اجله قال تعالى « انما يعمر مساجد الله من أمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين ».(٦٦)

كما تبين ايضا قدرة هؤلاء المخادعين المضللين والطامعين في الحكم والملك على السيطرة بسهولة ويسر على العامة من اصحاب النفوس الضعيفة والعقول البسيطة بالكذب والحيل وسحر الحديث مما جعل بعض فقهاء المسلمين وعلمائهم يذمون القصص بصورة عامة ويرونه بدعة وفرقوا بين المشتغلين به وبين المذكرين والوعاظ الذين غلب على مجالسهم القصص القرآني وحديث الايمان باعتباره علم المعرفة بالله وبالمعلومات والتفقه في بصائر القلوب كما سنرى فيما بعد .

القصص عند العرب : من الملاحظ أن الذى كان يشتهر من بين العرب بالكهانة أو الحكمة أو

(٦٤) الكامل في التاريخ لابن الاثير ج ٧ ص ٣٢ - ٣٣ .

(٦٥) مقدمة ابن خلدون ص ٩٦ - ١٩٥ .

(٦٦) التوبة / ١٨ .

المراقة ، أو يعرف شيئا عن أيامهم كحروب الفجار أو داحس والغبراء أو البسوس أو غيرها من المعارك والوقائع التى تجلت فيها العصبية القبلية وصفات الشجاعة والفروسية والاقدام على ارتياد المخاطر في سبيل المحافظة على القبيلة وشرفها ، أو على حق الاجارة وما كان لصاحبه من أحداث قد تصل الى الاقتتال وعقد الأحلاف ، وطلب الثأر وعدم القعود عنه مهما كانت الظروف ، الى غير ذلك من التقاليد والعادات القبلية التي كانت تستهوى نفس العربي وتشبع غرائزه ، من كان يعرف شيئا من ذلك ، أو بعضا من قصص العشق والهوى التى تذخر بها أشعارهم وقصائدهم ، أو يحفظ جانبا من تاريخ الممالك المجاورة كالحيرة وأكاسرة الفرس وحروبهم ووقائعهم ، من كان على دراية بشيء من هذا أو ذاك فزع اليه الملوك والحكام والرؤساء يطلبون حكمته ، أو تفسير رؤاهم ، كما كان يجتمع اليه الناس في سمرهم ومجالسهم ليقص عليهم ويحكى لهم شيئا من هذه الأخبار التى ألبست في كثير من الأحيان ثوب القصص والأساطير ، وممن عرف عنه ذلك ، وكيع بن سلمه بن زهر الايادى الذى اشتهر بالفصاحة والحكمة حتى وصف بأنه كاهن وصديق ، فأقام لنفسه صرحا في منطقة الحرورة بالقرب من الكعبة كان أهل مكة يختلفون اليه ، يلقونه فيه ، ويجتمعون به يعظهم بما أوتي من الحكمة وطلاقة اللسان فكان في قصصه ، يحث عشيرته على التحلى بالأخلاق الفاضلة ، والعمل على صلة الرحم ، وحسن الكلم ، ومن مأثور حكمته : ان ربكم ليجزين بالخير ثوابا ، وبالشر عقابا . فلما حضرته الوفاة جمع قومه من اياد ليوصيهم فقال لهم : الكلام كلمتان ، والأمر بعد البيان ، من رشد فاتبعوه ، ومن غوى فارفضوه ، وكل شاة معلقة برجلها . فكان أول من قال هذه العبارة الأخيرة التى ذهبت مثلا .(٦٧)

وبعد مجيء الاسلام ، وجد القصاص سوقا رائجة لدى القبائل المشركة التى رأت فيهم وفي أحاديثهم وسيلة أخرى من وسائل مقاومة الاسلام ودعوته ، فمن ناحية ، رأى شيوخ القبائل في هؤلاء القصاص الأداة التي يمكن بواسطتها المحافظة على منزلتهم وزعامتهم واقناع عشائرهم بعدم الانسياق وراء النبى (صلعم) لاعتقادهم أنه طامع في ملك أو جاه ، كما وجدوا - من ناحية أخرى - في قصصهم السبيل لمواجهة ما كان يأتى به الوحى الرسول الكريم (صلعم) ، لاسيما القصص القرآنى الذى يحكى سير الأنبياء والرسل وأخبار الشعوب والأمم السابقة ، وكان من الطبيعي أن يكون قصاص قريش أكثرهم شهرة ، وأبعدهم صيتا ، وأشدهم ذكرا ، باعتبار مكة المهد الذى ولدت فيه دعوة الاسلام ، فكان زعماؤها ومن ورائهم عشائرهم أكثر العرب مناهضة للنبى (صلعم) وأشدهم صلابة في مقاومة الدين الجديد .

وتحدثنا النصوص عن واحد من ألمع هؤلاء القصاص ، هو أبو قائد ، (أو أبو قتيله) ، النضر ابن الحارث بن كلدة ، الذى يصل نسبه الى عبد الدار بن قصى . رحل النضر في صباه الى بلاد الفرس ومملكة الحيرة فسمع من أهلها أخبار الأكاسرة والملوك اللخميين ، وتاريخ الدولتين ، كما عرف عنه

(٦٧) ابن حبيب - كتاب المحبر - ص ١٣٦ - أما الحرورة فهي رابية صغيرة كانت تجاور قديما مقد المسجد الحرام من جهة الشمال ، وكان يقام بها أحد أسواق مكة الشهيرة ، ويقال أن قصي بن كلاب حفر بها بئرا عرفت باسم العجول كانت العرب اذا قدموا مكة يردونها ويتزاحمون عليها . انظر أخبار مكة للأزرقي ج ٢ ص ٦٢ ، ٢٩٤ ، ٢١٥ ، فتوح البلدان البلاذري ص ٥٦ .

أنه كان يخالط اليهود والنصارى فسمع منهم كذلك بذكر النبي (صلعم) وقرب مبعثه ، فكان يقول : ان جاءنا نذير لنكونن أهدى من احدى الأمم (٦٨) ، فلما ظهر الاسلام صدقت نبوءته في قومه بينما ظل هو من أشد أهل مكة مخالفة للاسلام ، وبغيا على صاحب دعوته ، وقد تميز النضر بواسع معارفه مما مكن له أن يكون من أشهر قصاص المشركين تحذيرا للعرب ولقومه خاصة من خطورة الدين الجديد ، وما كانت تشكله مبادؤه السامية من تهديد لقريش بالقضاء على مكانتها المتميزة بين القبائل ، وبالتالي ضياع نفوذ سادتها وسلطانهم وقد وصل بغيه على النبي (صلعم) الى حد محاولة اغتياله لولا رعاية السماء . فيروى عروة بن الزبير بن العوام (ت ٩٤ هـ) احد المتقدمين من المهتمين بسيرة النبي (صلعم) قال : خرج رسول الله (صلعم) يوما يريد حاجته نصف النهار في حر شديد فبلغ أسفل من ثنية الحجون وكان يبعد اذا ذهب لحاجته فرآه النضر فقال : لا أجد ابدا أخلى منه الساعة فأغتاله ، فدنا الى رسول الله (صلعم) لكنه انصرف راجعا مرعوبا الى منزله فلقي ابا جهل فسأله : من اين فاجابه النضر : اتبعت محمدا رجاء اغتياله وهو وحده فاذا اساود تضرب بانيابها على رأسي فاتحة افواهها فذعرت منها ووليت راجعا فقال له أبو جهل : هذا بعض سحره (٦٩) .

وقد فكر النضر في طريقة اخرى عله يجد فيها الخلاص من النبي (صلعم) والنهاية لدعوته فهداه تفكيره الى استغلال علمه ومواهبه الكلامية فاخذ يقص على اهل مكة ويحدثهم فيستملحون حديثه ، وقد حفظت لنا النصوص شيئا من قصصه وطريقته في ذلك فكان يترصد رسول الاسلام (صلعم) ويتعقبه في مجالسه التي كان يعقدها في البيت العتيق يدعو فيها الى الله تعالى او يتلو فيها شيئا من القرآن لترغيب الناس في الدين الجديد وهدايتهم الى طريق الرشاد ، فاذا مافرغ النبي (صلعم) من حديثه خلفه النضر في نفس المجلس وحدث المجتمعين عن رستم واسفنديار وما تعلم وسمع وقرأ عن الفرس وغيرهم ، ثم يختم كلامه باثارة الشك والريبة في كل ما تكلم به الرسول (صلعم) قائلا : والله ما محمد بأحسن حديثا مني وما حديثه الا اساطير الاولين اكتبها كما اكتتبها . فانزل الله عز وجل فيه « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا قل انزله الذي يعلم السر في السماوات والارض انه كان غفورا رحيما » .

كذلك روى ان النضر استمع مع الملأ من قريش من بينهم أبو سفيان بن حرب والوليد بن المغيرة المخزومي وعتبه وشيبه ابنا ربيعة وأمية وأبيا ابنا خلف استمعوا الى رسول الله (صلعم) وهو يحدث الناس بالقرآن ويقص عليهم مافيه من أخبار الانبياء والرسل مع اقوامهم فقالوا للنضر : يا أبا قتيلة ما يقول محمد ؟ فأجابهم : والذي جعلها بيته ما ادرى مايقول الا أني ارى انه يحرك شفتيه يتكلم بشيء وما يقول الا اساطير الاولين مثل ما احدثكم به عن القرون الماضية فانزل الله تعالى فيه « ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة ان يفقهوه ، وفي آذانهم وقرا وان يروا كل آية لايؤمنوا بها حتى اذا

---

(٦٨) الكامل في التاريخ لابن الاثير ج ٢ ص ٧٣ سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٦١ .

(٦٩) جلال الدين السيوطي - الخصائص الكبرى ج ١ ص ٣٣١ .

جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا اساطير الأولين » .

ومما تجدر الاشارة اليه ان ابن عباس كان يقول « نزل في النضر بن الحارث كل ماجاء في القرآن الكريم من آيات فيها عبارة « أساطير الأولين » وعددها تسع .

من ناحية اخرى فقد كان النضر بن الحارث مع عقبة بن ابي معيط الاموي يشكلان وفد قريش الذي ارسلته الى أحبار اليهود في يثرب باعتبارهم اصحاب كتاب لسؤالهم عن حقيقة امر النبي (صلعم) فقال اليهود لهما سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فان أخبركم بهن فهو نبي ، وان لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الاول ما كان امرهم ، فانه قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الارض ومغاربها ما كان نبأه ، وسلوه عن الروح ما هي ؟ فلما عادا الى مكة جمعا قريشا وقالا : قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، واخبروهم الخبر فطلبت قريش من الرسول (صلعم) تفسيرا لهذه الاسئلة فاستمهلهم النبي (صلعم) حتى جاءه الوحي بسورة الكهف التي تتضمن قصصها اجابة وافية على كل ما سألوا [٧٠] .

أما نهاية قاص مكة المشهور فكانت بعد غزوة بدر الكبرى اذ كان هو وأبو جهل عمرو بن هشام المخزومي وعقبة بن ابي معيط على رأس المحرضين لقريش على الخروج لمقاتلة المسلمين في ذلك اليوم عندما شعروا بتقاعس أهل الرأي بعد نجاة اللطيمة ووصولها سالمة الى مكة فلما نشبت المعركة قتل ابو جهل على ارضها ، اما صاحبيه فقد وقعا في الاسر فأمر النبي (صلعم) علي بن ابي طالب بقتل النضر ، وعاصم بن ثابت بقتل عقبة ، وبهذه الصورة نفذ امر الحق تبارك وتعالى في هذا النفر من رجالات قريش الذين ملأ الحقد على الاسلام قلوبهم وأعمى بصيرتهم البغي على الرسول الكريم (صلعم) [٧١] .

تلك كانت لمحة سريعة عن سيرة اشهر قصاص العرب الذين كان لهم دور في هذا الفن مع النبي (صلعم) ونشاطه في هذا الميدان الذي حاول فيه تقليد القصص القرآني بما قرأه وسمعه من أخبار الاولين فلما قامت دولة الاسلام وقضت على كل مظاهر الشرك في بلاد العرب اتجه المجاهدون الى البلاد المجاورة فحملوا تعاليم الدين الجديد الى شعوبها فنشأت بها مراكز متعددة لهذا الفن الذي ساعد – دون جدال – على اذكاء الحياة الدينية بتعريف المسلمين الجدد بالقصص القرآني وتذكيرهم بفضائل الاسلام وشريعته وأحكامه وايام الله وضرورة الامتثال لأوامره ، والابتعاد عما نهى حتى يسعدوا بالعز والرضا في دنياهم ، ويحظوا بثمرة القرب من رب العالمين والالتحاق بأفق الملائكة مع الابرار والصديقين في آخرتهم ، ولم يعد القصاص من مكان

---

(٧٠) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٢١ – ٣٢٢ ، ص ٣٥٣ – ٣٥٨ اسباب التنزيل للواحدي ص ١٤٤ – ١٤٩ انظر كذلك عن ذلك باستفسار الروض الانف للسهيلي ج ٢ ص ٥٢ – ٥٣ ، دكتورة وجيهة طه النحس – القصص والقصاص في الاسلام ص ١٦ – ١٧ .

(٧١) المغازي للواقدي – ج ١ ص ٣٧ ، ص ١٤٨ – ١٤٩

لتحقيق ذلك أفضل من المساجد فعقدوا في رحابها مجالس ذكرهم ووعظهم لأنها المكان الذي يتناسب مع طبيعة هذا اللون الديني من القصص الذي يتمشى بل ويتم الوظيفة الاولى والمهمة الاساسية التي انشئت من اجلها المساجد كدور للعبادة واداء الصلاة وذكر الله تعالى والتقرب اليه .

القصص في الاسلام

كان رسولنا الأعظم (صلعم) المعلم الاول في تاريخ الاسلام والمسلمين ، كذلك يمكن ان نعده المذكر والواعظ والقاص الاول اذا اخذنا في الاعتبار ان هذه الاعمال الثلاثة مضمون متشابه ومتكامل ، فالذكر كما يقول علماء اللغة يعني الحفظ للشيء ، وتذكره قال تعالى : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » [٧٢] وقال تعالى « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » [٧٣] كما ان الوعظ يعني النصح والتذكير بالعواقب قال تعالى « وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » [٧٤] وقد لمس الحكماء هذا المعنى فقالوا : السعيد من وعظ بغيره والشقي من اتعظ به غيره .

فاذا انتقلنا الى القاص نجد اللغويين يعرفونه بمن يأتي بالقصة على وجهها متتبعا معانيها والفاظها ، فهو يروي القصة من قصها أي من أصلها الذي خرجت منه ، وعلى حقيقتها ، قال تعالى : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن » [٧٥] .

فاذا نظرنا في السور المكية نلاحظ أنها تتضمن بالاضافة الى أسس العقيدة ، العديد من القصص القرآني الذي يحكي لنا أخبار الأنبياء والرسل السابقين مع أقوامهم وشعوبهم ، وما انتهى اليه أمر المصدقين بهم والمكذبين لهم لاستجلاء العبرة والموعظة ، ويظهر مثل هذا القصص في سورة يونس ، وهود ، ويوسف ، وابراهيم ، ومريم ، وأهل الكهف ، وطه ، والاسراء ، والانبياء ، والشعراء ، والروم ، ولقمان ، وسبأ ، والانعام ، والنحل ، والنمل ، والعنكبوت ، وغيرها ، واصل ما نجده في سورة القصص التي تحدثت بشيء من التفاصيل عن أخبار موسى وبني اسرائيل وفرعون ما أعان الرسول (صلعم) وحفزه على الصبر والعزم والتصميم على إعلاء راية الاسلام وهداية الناس ورفع الظلم عنهم ، كذلك تحدثت سورة الأعراف عن قصص الانبياء والرسل ، فروت قصة ناقة النبي صالح مع الثموديين ، ولوطا مع قومه ، وشعيبا مع أهل مدين ، وموسى مع بني اسرائيل وفرعون ، وغير ذلك من الأخبار والمعارف التي لم تصلنا الا عن طريق ذلك القصص الديني الذي أمر الحق تبارك وتعالى رسوله (صلعم) أن يقصصه على الناس ليتدبروا أمرهم

---

(٧٢) سورة ق / ٤٥ .

(٧٣) الطور / ٢٩ .

(٧٤) هود / ١٢٠ .

(٧٥) يوسف / ٣ . انظر كذلك : لسان العرب لابن منظور كلمات : ذكر ، وعظ ، قصص

ويتعظوا بمن سبقهم ، قال تعالى : « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » وقال تعالى : « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » .[٧٦]

بمثل هذه المضامين الروحية الخالية تقريبا من الأحكام والتشريعات تتوافق هذه السور المكية مع ظروف الدعوة في مرحلتها المتقدمة من جهة ، ومع طبيعة الجماعة الاسلامية من جهة ثانية . فكان من الضروري أولا غرس قواعد الدين وفضائله في نفوس المسلمين ، والتمكين لها في قلوب تلك الفئة القليلة المؤمنة التي كانت تذوب في المجتمع القرشي المشرك الواسع ، صاحب الكثرة العددية ، والقوة والسطوة ، والذي سلم قيادته طائعا الى الملأ الذي كان يتمثل في زعماء وكبراء البيوتات الأرستقراطية القرشية الذين استحوذوا على المال والثروة والسلطة والسلطان . قال تعالى : « وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد » [٧٧] . لذلك مكثت الدعوة للدين الجديد ما يقرب من ثلاث سنوات محصورة في نطاق الخاصة من رهط النبي (صلعم) وأصحابه المقربين . فلما نادى رسول الله (صلعم) قومه بالاسلام وصدع به كما أمره الله تعالى ، لم يجد أفضل من البيت العتيق موضعا يلتقي فيه بأهل مكة والقادمين اليها . فاتخذ لنفسه في رحابه الطاهرة مجلسا يدعوهم فيه الى الله عز وجل ، ويحثهم على نبذ الشرك ورفض الأوثان والأصنام . فكان يقرأ لهم ما ينزل به جبريل الأمين من آيات الذكر الحكيم ، ويقص عليهم من قصصه ، يعظهم به . فكان - كما رأينا - كلما فرغ من مجلسه خلفه فيه شيطان قريش وقاصها المشهور النضر بن الحارث يقص هو الآخر على الناس قصصا من نوع آخر يحذر به من الخطر المزعوم الذي كان يرى انه يتهدد قريشا وأرستقراطيتها لو نجحت دعوة الاسلام وارتفع نجم رسوله الكريم (صلعم) فكان النضر يقول في مجلسه « يامعشر قريش إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد . قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة حتى اذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم ساحر ، لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم . وقلتم كاهن ، لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم . وسمعنا سجعهم . وقلتم شاعر - لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها : هزجه ورجزه ، وقلتم مجنون ، لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون ، فما هو بخنقه ولا وسوسته ، ولا تخليطه ، يامعشر قريش فانظروا في شأنكم ، فانه والله لقد نزل بكم أمر عظيم » [٧٨]

بمثل هذه المجالس ، اتسع نطاق دائرة الحرب والمنافسة بين رسول الله (صلعم) وبين قريش ، فشملت القصص كميدان جديد يمكن أن نضيفه الى

(٧٦) الأعراف / ١٧٦ ، ابراهيم / ٢٥ .

(٧٧) سورة ص / ٦ .

(٧٨) سيرة ابن هشام ص ٣٢٠

أشكال الصراع ومظاهره المختلفة والمتعددة التي دارت بين الحق والباطل ، وظل النبي (صلعم) خلال السنوات العديدة التي قضاها في مكة صابرا محتسبا ، مظهرا لأمر الله ، لا يستخفي به ، مبادلا أهل الضلال بما يكرهون من عيب دينهم ، واعتزال معبوداتهم ، مفارقا لهم على كفرهم وسوء تفكيرهم ، فزاد حقدهم ، واشتد كيدهم وضغنهم ، وبلغ ذروته عندما استقر رأي الملأ منهم على التآمر على حياته وتدبير اغتياله فحفظته عناية السماء ورعته حتى دخل يثرب سالما ، فبنى مسجده واتخذ منه مكانا في دار هجرته لمجالس علمه وقصصه ، فكان المعلم الأول ، والقاص الأول كما كان معروفا ومقررا بين صحابته ، ومما يروى في هذا الشأن أن الحسن بن علي مر يوما وقاص يقص على باب مسجد المدينة ، فقال له : ما أنت ؟ فقال : أنا قاص يا ابن رسول الله ، قال : كذبت ، محمد القاص ، قال الله عز وجل فاقصص القصص ، قال الرجل : فأنا مذكر ، فقال الحسن : كذبت – محمد المذكر – قال له عز وجل : فذكر انما أنت مذكر ، فسأله الرجل : فما أنا ، فأجابه الحسن : المتكلف من الرجال [٧٩] .

كان الطبيعي اذن أن يتخرج على يدي الرسول (صلعم) فريق من كبار الصحابة كانوا نواة القصص الديني ، كما هو الحال في ميدان العلم ، وتحدثنا النصوص أنه (صلعم) خرج من منزله يوما فدخل المسجد فصلى فاذا رجل من الأنصار في مجلس يقص على الناس ويذكرهم ، وهم مقبلون عليه بوجوههم فلما أبصر الرجل النبي (صلعم) مقبلا قطع قصصه وقام من مجلسه لرسول الله (صلعم) الذي أشار اليه لكي يستمر في حديثه ، وجلس (صلعم) في أدنى الناس حتى لا يتخطى أحد ، فلما فرغ الانصاري من قصصه أمره رسول الله (صلعم) ألا يترك مجلسه ولا يقطع قصصه وقال : اني أمرت ان أصبر نفسي مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولئن أصبر نفسي مع قوم يذكرون الله عز وجل من حين يصلون الصبح الى أن ترتفع الشمس أحب الي من أن أعتق أربع مرات رقاب مؤمنات من ولد اسماعيل ، ولئن أقعد مع قوم يذكرون الله عز وجل من حين يصلون العصر الى أن تغيب الشمس أحب الي من أن أعتق أربع رقاب من ولد اسماعيل [٨٠] .

وقد كشفت النصوص النقاب عن شخصية ذلك الأنصاري الذي كان يقص على المسلمين في حضور رسول الله (صلعم) فاذا هو عبدالله بن رواحة الذي كان يرى في القصص والتذكير مظهرا من مظاهر الايمان ومقوماته ، فقد روي عنه أنه كان اذا أراد أن يقص للناس قال : تعالوا حتى نؤمن ساعة ، فيجلسون اليه ويقص عليهم ويذكرهم ويفقههم في دينهم فربما خرج عليهم رسول الله (صلعم) وهم مجتمعون فيجلس اليهم ويأمرهم أن يأخذوا فيما هم فيه ويقول : الحمد لله الذي جعل من أمتي من يذكرهم

(٧٩) تاريخ اليعقوبي – ج ٢ ص ٢٢٧ – ٢٢٨ . المتكلف = هو الشخص الزائغ فيما لا يعنيه .

(٨٠) ابن الجوزي – كتاب القصاص والمذكرين – ص ٦٤ – ٦٥ .

بأيام الله ، والذي نفسي بيده لئن أصبر على هذا طرفي النهار أحب الي من أن أعتق أربع رقاب من بني اسماعيل ، بهذا بعثت ، وبهذا أمرت ، وفي رواية أخرى : بهذا أمرت والى هذا دعوت [٨١] . وكان من محاسن ابن رواحة في مجالس قصصه أنه كان يتجنب كلمة « الرفث » كلما وردت في حديثه ، ويستعيض عنها بأبيات من الشعر يحكي فيها بما كان يفعله رسول الله (صلعم) بانصرافه الى قراءة القرآن والعبادة وحياته الخاصة في أوقات السلم التي لا يخرج فيها لجهاد المشركين ، ويدعو للاهتداء به والسير على نهجه ، فيقول :

وفينا رسول يتلو كتابه
إذا انشق معروف من الليل ساطع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه
إذا استثقلت بالكافرين المضاجع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا
به موقنات إن ما قال واقع [٨٢]

ولا نستبعد أن نهج هذا الصحابي الانصاري الجليل في الاستعانة بالشعر في قصصه - وهو الذي اشتهر بين أقرانه بشاعريته - يمثل هذه الصورة التي تتمشى مع ما قصد اليه من تذكير وعظة والاهتداء بسيرة سيد الخلق وامام المرسلين (صلعم) ، قد أخذ طريقه بعد ذلك - وعلى امتداد العصور - الى القصاص ، فاستعانوا بدورهم بالشعر لحث الناس على كبح جماح النفس وعدم الانسياق وراء الشهوات وطلب الآخرة بالاقبال على الاعمال الصالحة ، فروي عن سعيد بن المسيب فقيه المدينة وعابدها المعروف ، عندما سئل عن بعض النساك الذين يعيبون الشعر ، قوله : نسكو نسكا أعجميا [٨٣] .

وهذا القول يتمشى الى حد بعيد مع ما اشتهر به العرب ، لأن الشعر - كما هو معلوم - كان على رأس الفنون التي أجادوها في جاهليتهم وبعد الاسلام .

كذلك روي عن الحسن البصري (ت ١١٠هـ) صاحب أكبر وأشهر مجلس للقصص والوعظ بمسجد البصرة في زمانه ، كان هذا الفقيه الزاهد العالم ينشد في مجالس علمه وتذكيره وقصصه هذا البيت :

ليس من مات فاستراح بميت
انما الميت ميت الأحياء [٨٤]

وتحدثنا النصوص أن أبا الفيض ثوبان بن ابراهيم ، المعروف بذي النون المصري (ت حوالي ٢٤٥هـ) الذي اشتهر بعلمه وأدبه وحكمته وفصاحته وورعه حتى لقب « بأوحد زمانه » كان هو الآخر يستعمل الشعر في قصصه وتذكيره للتدليل على

(٨١) المصدر السابق ، ص ١٦ . انظر كذلك : قوت القلوب للمكي ج ٢ ص ٣٠٦ .

(٨٢) ابن الجوزي - كتاب القصاص والمذكرين ص ٥٠ .

(٨٣) الجاحظ - البيان والتبيين ج ١ ص ٢٠٢ .

(٨٤) المصدر السابق ج ١ ص ١١٩ . انظر كذلك ، احمد أمين - ضحى الاسلام ص ١٥٨ الذي قال عن الحسن البصري انه كان فقيها يستقي ما يعرض من المرافعات فيقضي بعلم ، وكان قصاصا يعد من سادة القصاص وأصدقهم .

فضل القرآن الكريم ، وأثره الكبير في تهذيب النفوس فيقول :

منع القرآن بوعده ووعيده
مقل العيون بليلها أن تهجعا
فهموا عن الملك الكريم كلامه
فهما تذل له الرقاب وتخضعا

ولما سأله بعض من كان يحضر مجلسه عن الذين قصدهم بهذا الوصف الذي جاء في شعره قال : هؤلاء قوم خالط القرآن لحومهم ودماءهم فعزلهم عن الأزواج ، وحركهم بالادلاج ، فوضعوه على أفئدتهم فانفرجت ، وضموه الى صدورهم فانشرحت ، فجعلوه لظلمتهم سراجا ، ولنومهم مهادا ، ولسبيلهم منهاجا ، ولحجتهم أفلاجا ، فرجوا على غرائم القرآن ، وتخلصوا بخالص القربان ، واستناروا بنور الرحمن ، فما لبثوا أن أنجز لهم القرآن وعوده ، وأوفى لهم عهوده ، وأحلهم سعوده ، وأجارهم وعيده ، فنالوا به الرغائب ، وعانقوا الكواكب ، وأمنوا العواطب ، وحذروا العواقب .

كذلك كان من حسن كلامه في قصصه ووعظه للناس قوله : اذا صحت المناجاة بالقلوب استراحت الجوارح [٨٥] .

والمغزى الهام الذي يمكن أن نتبينه من كل ما سبق هو أن عددا من كبار الصحابة الذين اشتهروا بالعلم والفقه قد تأثروا بالنبي الكريم (صلعم) وساروا على نهجه في هذا الميدان أيضا ، فأخذوا عنه الجلوس الى المسلمين للقصص والوعظ والتذكير ، كما رأينا مع عبدالله بن رواحة ، ولا شك أنه كان وغيره كثير مثل أبي بكر وعمر وعلي وعبدالله بن مسعود ومعاذ بن جبل وسلمان الفارسي وأبي موسى الأشعري وأبي ذر الغفاري وأبي الدرداء عويمر بن عامر، وعبدالله بن عباس وتميم الداري ، ولا شك أن هؤلاء جميعا وغيرهم من الصحابة والتابعين كانوا نواة مدارس القصص التي انتشرت في الأمصار المفتوحة ، فعندما نزل أبو الدرداء دمشق ، اتخذ من مسجدها موضعا لمجالس قصصه ووعظه ، فلما رأى من أهلها عزوفا عن مجالسه ، وانصرافهم عن العلم والتفقه في الدين الى أمور الدنيا وجمع المال ، أخذ يحثهم على تغيير منهجهم ويذكرهم قائلا ، يا أهل دمشق أنتم الاخوان في الدين ، والجيران في الدار ، والانصار على الاعداء ، ما يمنعكم من مودتي ، وانما مؤونتي على غيركم ، مالي أرى علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون ، واراكم قد أقبلتم على ما تكفل لكم به ، وتركتم ما أمرتم به ، ألا ان قوما بنوا شديدا ، وجمعوا كثيرا ، وأملوا بعيدا ، فاصبح بنيانهم قبورا ، وأملهم غرورا ، وجمعهم بورا ، ألا فتعلموا وعلموا ، فان العالم والمتعلم في الآخرة سواء ، ولا خير في الناس بعدهما [٨٦] .

أما عبدالله بن مسعود ، نزيل الكوفة ، وصاحب القراءة المنسوبة اليه ، فكان اذا اتخذ مقعده في مجلس القصص والتذكير افتتح حديثه حاثا الحاضرين على التقرب الى الله تعالى بالعمل الصالح قبل أن يدركهم

---

(٨٥) أبو نعيم الاصبهاني - حلية الأولياء ج ١ ص ١٣ - ١٤ ، وفيات الأعيان لابن خلكان - ج ١ ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٨٦) حلية الأولياء لابي نعيم الاصبهاني - ج ١ ص ٢١٣ .

الموت الذي يأتي بغتة ، مبينا لهم أهمية الايمان بقضاء الله وقدره ، وأهل العلم والفقه وفضلهم وفائدة الجلوس اليهم فيقول : إنكم في مر الليل والنهار في آجال منقوصة وأعمال محفوظة ، والموت يأتي بغتة ، فمن زرع خيرا فيوشك أن يحصد رغبة ، ومن زرع شرا يوشك أن يحصد ندامة ، ولكل زارع مثل ما زرع ، ولا يسبق بطيء بحظه ، ولا يدرك حريص ما لم يقدر له ، فمن أعطى خيرا فالله أعطاه ، ومن وقي شرا فالله وقاه ، المتقون سادة ، والفقهاء قادة ، ومجالستهم زيادة [٨٧] .

هكذا كان القصص الديني ، وثيق الصلة بالوعظ والتذكير شديد الارتباط بها ، قال تعالى : « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل » وقال جل شأنه : « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » [٨٨] لذلك رأى الفقهاء والمشتغلون بالقصص وغيرهم أن مهمة القاص في هذه الحالة لا تختلف عن عمل الواعظ ، وأن قصصه في مضمونه ومحتواه وهدفه هو نوع من التذكير والعبرة والعظة ، وقد أشار الى ذلك الجغرافي العربي الكبير المقدسي البشاري (ت حوالي ٣٨٨ هـ) عندما وصف مجالس المذكرين في بيت المقدس ، فذكر أنه رأى لأصحاب الامام أبا حنيفة - صاحب المذهب المعروف - بالمسجد الأقصى مجلس ذكر يقرأ فيه المذكر على الحاضرين من دفتر ، ثم أردف ذلك بقوله موضحا حقيقة هذه المجالس فقال : وأن المذكرين به قصاص [٨٩] .

أما ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) العالم والفقيه الحنبلي ، والقاص أيضا ، فقد فسر ذلك وشرحه فقال : ان هذا الفن - يقصد القصص - ثلاثة أسماء : قصص ، وتذكير ، ووعظ ، فيقال قاص ، ومذكر وواعظ ، ثم يستطرد لبيان مهمة القاص وعمله فيقول : هو الذي يتبع القصة الماضية بالحكاية عنها والشرح لها ، وهذا لا يذم لنفسه لأن في ايراد أخبار السالفين عبرة لمعتبر ، وعظة لمزدجر ، واقتداء بصواب لمتبع [٩٠] .

وأخيرا نجد محمد بن محمد بن احمد القرشي ، المعروف « بابن الاخوة » (ت ٧٢٩هـ) الكاتب الذي صنف واحدا من أهم وأشهر كتب الحسبة بعد أن اكتملت كل مقومات هذه الوظيفة ، واستوفت تماما اختصاصات المحتسب وتشعبت لتصبح « أمرا بالمعروف اذا ظهر تركه ، ونهيا عن المنكر اذا أظهر فعله » فقد ذكر ابن الاخوة أن العديد من المشتغلين بالعلم كانوا يعتبرون المذكرين والوعاظ قصاصا أيضا ، فقال : والفقهاء والمتكلمون والأدباء والنحاة يسمون أهل الذكر والوعظ قصاصا [٩١] .

(٨٧) ابن الجوزي - كتاب القصص والمذكرين - ص ١١ .

(٨٨) انظر على التوالي القرآن الكريم - الروم / ٥٨ ، العنكبوت / ٤٣ .

(٨٩) شمس الدين محمد بن احمد المقدسي البشاري - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٨٢

(٩٠) ابن الجوزي - كتاب القصاص والمذكرين - ص ٩ - ١٠ .

(٩١) ابن الاخوة - معالم القربة - ص ٢٩٢ .

ولكي يبقى هذا الارتباط بين القصص والوعظ والتذكير قويا ، ويستمر دون انفصام ، لا سيما بعد ظهور ألوان جديدة من هذا الفن غير القصص الديني ، كان لابد من توافر صفات معينة في القاص حتى يباشر مهمته الدينية على أكمل وجه ، فذكر ابن الجوزي أنه ينبغي أن يكون حافظا لحديث رسول الله (صلعم) عارفا بصحيحه وسقيمه ومسنده ومقطوعه ومعضله ، عالما بالتواريخ وسير السلف ، حافظا لأخبار الزهاد ، فقيها في دين الله ، عالما بالعربية واللغة ، فصيح اللسان [٩٢] .

لذلك اهتم الخلفاء منذ عصر الراشدين بأمر القصاص ومدى صلاحيتهم للقيام بهذا العمل الديني الجليل ، فروى أن عليا بن أبي طالب اختبر أحد القصاص قائلا : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ فلما أجابه بالايجاب صرح له أن يقص . وفي مرة أخرى شاهد أحد قصاص الكوفة يقص على الناس ، فأراد أن يعلم دخيلة نفسه ، ومدى صدقه فسأله عن الايمان قائلا ما ثبات الايمان ؟ وما زواله ؟ فقال القصاص : ثبات الايمان الورع ـ وزواله الطمع ، فاستحسن منه أمير المؤمنين هذه الاجابة ، وقال : مثلك يقص [٩٣] .

ولم يتوقف هذا الاهتمام بأمر القصاص ، بل ازداد بمرور الزمن خاصة بعد أن ارتبط عملهم بسياسة الدولة منذ العصر الأموي ـ كما سنوضحه فيما بعد ـ وأصبح من حق أولى الأمر تعيين القصاص والاشراف عليهم ، وبذلك دخل عمل القاص في نطاق مسئولية صاحب الحسبة في المدينة الاسلامية .

ومما يستوقف النظر أن صفات القاص التي تحدث عنها ابن الجوزي الفقيه ، لا تختلف كثيرا عن مواصفات المحتسب التي شرطها في القاص ، بعد أن أصبح له الحق في الاشراف عليه ، بل نلاحظ أن المحتسب شدد أيضا على ضرورة صفات التقوى والتدين والخير ، ولذلك ذكره باسم الواعظ ، وقد أوضح ذلك كله صاحب معالم القربة فقال : يجب على المحتسب أن ينظر في أمر الوعاظ ، ولا يمكن أحدا من يتصدى لهذا الفن الا من اشتهر بين الناس بالدين والخير والفضيلة ، وأن يكون عالما بالعلوم الشرعية ، وعلم الأدب ، حافظا للكتاب العزيز ، ولأحاديث النبي (صلعم) ، وأخبار الصالحين ، وحكايات المتقدمين ، ويمتحن بمسائل يسأل عنهامن هذه الفنون ، فان أجاب والا منع . [٩٤]

لذلك وجد القصاص والمذكرون منذ صدر الاسلام في المساجد المكان المناسب لاقامة مجالسهم ، حتى في البيت العتيق ، فروى عن موسى الجهني أنه رأى عطاء بن أبي رباح ، فقيه مكة المعروف ، يدعو القصاص مشاركته في عقد مجلس قصصهم بالمسجد الحرام ، فاجتمع معه خمسة كان من بينهم الفقيه أبو ذر عمر بن ذر ، من قصاص مكة المعروفين . [٩٥]

---

(٩٢) ابن الجوزي ـ كتاب القصاص والمذكرين ـ ص ٢٤ .

(٩٣) نفس المصدر ـ ص ٢٥ ـ ١٢٠ .

(٩٤) ابن الاخوة ـ معالم القربة ـ ص ٢٧٨ .

(٩٥) ابن الجوزي ـ القصاص والمذكرين ص ٢٥ ، وفيات الاعيان لابن خلكان ج ٣ ص ٤١٢ .

وحتى بعد ظهور القصص الشعبي الذي استخدم كلون من ألوان التسلية والترفيه للكسب وجمع المال ، واضطرار من اشتغل بهذا الفن الى الخروج من المساجد الى الأماكن العامة والطرقات ، ظل المسجد يلعب دوره التقليدي بالنسبة الى القصص الديني . فتذكر النصوص أن الخليفة العباسي في بغداد أمر في سنة ٢٨٩ هـ الا يقعد على الطريق ، ولا في المسجد الجامع قاص ، ولا منجم ، ولا زاجر [٩٦] . ويوضح هذا الأمر استمرار الدور الذي يؤديه القصص الديني وكذلك مدى تأثيره على الحياة الروحية في المدينة الاسلامية رغم وجود تلك الالوان المختلفة والمتعددة التي كانت تجذب اهتمامات الناس وتشغل جانبا كبيرا من حياتهم الاجتماعية ، وليس ذلك بغريب على القصص الديني اذا علمنا أنه كان يجمع في مضمونه ومحتواه أهم عوامل الحياة والبقاء في كل الأجواء وتحت أية ظروف ، وهل هناك أقوى من الدين والعلم وتقوى الله والتذكير بوجوده من أسباب للابقاء على هذا اللون من القصص واستمراره ينبض بالحياة لايقاظ الناس من غفوتهم كلما انحرفوا عن الجادة ! بل رأينا ـ في بعض الأحيان ـ تفوق مجالس القصص الديني على عدد حلقات العالم فيروى عن ابن عون في ذلك قوله : أدركت هذا المسجد ـ يقصد مسجد البصرة الجامع ـ وما فيه حلقة تنسب الى الفقه الا حلقة واحدة تنسب الى مسلم بن يسار ـ وسائر المسجد قصاص .[٩٧]

وقد أوحى هذا الارتباط الوثيق بين القصص الديني وبين المسجد الى بعض الباحثين بتسميته « بالقصص المسجدي »[٩٨] ولعل ذلك يؤكد ما ذكرناه من اتساق مهمة القاص اتساقا كاملا مع الوعظ والتذكير وتبصير الناس بما ينفعهم في حياتهم ويفيدهم في آخرتهم ، وليس هناك أشرف ولا أطهر ولا أقدس من بيوت الله لايجاد الجو الروحاني المشوب بالهدوء والوقار والسكينة ، لاتاحة الفرصة أمام الحضور للاستفادة بكل ما يرويه القصاص من أخبار عن الانبياء والرسل مع أقوامهم وشعوبهم كما تحدث عنها الكتاب المبين لتذكير الناس ووعظهم قال تعالى « وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع »[٩٩] ومما يروى عن الخليفة الراشد الرابع ، انه اخرج من المسجد البصرة الجامع القصاص الذين لم يلتزموا بأصول هذا اللون الديني من القصص ، فلما سمع الحسن البصري سمح له بالبقاء ، لأنه وجده يذكر بآلاء الله ونعمائه وتقصير العبد في شكره ، ويعرف بحقارة الدنيا وعيوبها وتصرمها ونكث عهدها ، وخطر الآخرة وأهوالها وهكذا ـ كما يقول الامام الغزالي ـ هو التذكير المحمود شرعا .[١٠٠]

(٩٦) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٧ ص ١٥٣ ، تاريخ الخلفاء ـ للسيوطي ص ٣٧٠ .
(٩٧) ابن الجوزي ـ القصاص والمذكرين ص ١٧ .
(٩٨) د . وديعة طه النجم ـ القصص والقصاص في الأدب الاسلامي ص ٣٧ .
(٩٩) الانعام / ٧٠ .
(١٠٠) احياء علوم الدين للغزالي ـ طبعة دار الشعب ـ ج ١ ص ٨٨ ، قوت القلوب للمكي ج ١ ص ٣٠٢ .

وقد يتبادر الى الذهن أن هذا اللون من القصص قد اقتصرت أهميته وآثاره على الجوانب الروحية والدينية فقط لكن الواقع غير ذلك اذ وجد الباحثون والأدباء أن تأثيراته قد امتدت لتشمل كذلك ميدان الأدب ، فكان النواة التى نبتت منها عناصر القصة الأدبية التى انصهرت فيها ثقافات الأمم الأخرى .(١٠١)

أما عند المؤرخين فقد كان تفسير هذا اللون الدينى من القصص بالاضافة الى سيرة رسولنا الأعظم (صلعم) تشكلان المادتين الأساسيتين اللتين وجدتا طريقها الى مؤلفات الاخباريين والمؤرخين الأول عندما بدأ تدوين التاريخ الاسلامى فى النصف الثانى من القرن الأول للهجرة لاسيا فى مدرسة مصر التاريخية .(١٠٢)

كذلك لم يخل القصص بما كان يتكلم به القصاص فى مجالسهم من فائدة للجغرافيين فقد اعترف آخر الممثلين الكبار للمدرسة الجغرافية الكلاسيكية ، أبو عبد الله شمس الدين المقدسى (ت حوالى ٣٨٨ هـ) الذى نعته المستشرق كريمر بأنه أكثر الجغرافيين العرب أصالة كما وصف مؤلفه بأنه من أكثر المصنفات قيمة ، اعترف هذا الجغرافى العربى الكبير بأهمية ما كان يسمعه من القصاص فى مجالسهم التى حضرها خلال تطوافه بمعظم البلاد الاسلامية التى زارها وذكر أن هذا القصص كان من بين المصادر التى استعان بها على جمع المادة اللازمة لاخراج مؤلفه القيم فقال « وما تم لى جمعه الا بعد جولانى فى البلدان ودخولى أقاليم الاسلام ولقائى العلماء وخدمتى الملوك ومجالستى القضاء ، ودرسى على الفقهاء واختلافى الى الأدباء والقراء وكتبة الحديث ومخالطة الزهاد ، والمتصوفين وحضور مجالس القصاص والمذكرين . »(١٠٣)

هكذا تظهر أهمية القصص الدينى فى الحياة الاجتماعية ، كما يتضح أثره فى تطور الفكر الاسلامى ، وبالتالى دور المسجد فى الميدان الدينى والأدبى والعلمى .

ولعل السؤال الذى يلح علينا بعد ذلك هو : الى أى حد استمر القصص الدينى يمثل هذا الصفاء والنقاء معتمدا بالدرجة الأولى على ما جاء فى القرآن الكريم وغير ذلك من أمور الدين والشرع دون أن يتأثر بأية مؤثرات أخرى ؟ .

لقد تعرض العديد من الباحثين للاجابة على هذا السؤال ، وانتهوا الى أن القصص الاسلامى تأثر الى حد بعيد بالاسرائيليات كغيره من الفنون والعلوم الاسلامية ، ويأتى كل من تميم الدارى وكعب الأحبار ، ووهب ابن منبه فى مقدمة القصاص الذين سربوا الكثير من سير الأنبياء والرسل وأخبار الشعوب والأقوام بالاضافة الى بعض الأفكار والمعتقدات الدينية كبداية الخلق ونشأة الكون التى

---

(١٠١) د . بهيجة طه النجير - القصص والقصاص فى الادب الاسلامى ص ٤٠ انظر كذلك د . شاكر مصطفى - التاريخ العربى والمؤرخون ج ١ ص ٣٦٥ .

(١٠٢) د . شاكر مصطفى - التاريخ العربى والمؤرخون ج ١ ص ١٩٣ ص ١٠١ - ١٠٢ ج ٢ ص ١٤٣ - ١٤٧ .

(١٠٣) المقدسي - احسن التقاسيم - ص ٢ انظر كذلك - اغناطيوس كراتشكوفسكي تاريخ الادب الجغرافي العربي - الترجمة العربية - ج ١ ص ٢٨ .

وردت في كتب اليهود والنصارى ، سربوا مثل هذه المفاهيم وغيرها الى القصص الاسلامي وبذلك يمكن القول بأن مثل هذه المؤثرات الخارجية وجدت طريقها الى قصص المسلمين في وقت مبكر وسنفصل في هذا المقام الحديث عن تميم الداري لصحبته من جهة وما نسب اليه عن حديث الجساسة باعتباره أول من جلس للقصص بأمر الخليفة كما أشارت المصادر من جهة أخرى .

فهو تميم بن أوس بن خارجة ينحدر نسبه من الدار بن هاني اللخمي فعرف بالداري وكنى أبا رقية ، ابنته التي لم يولد له غيرها . كان من نصارى قبيلة لخم التي تفرقت بطونها في المناطق الجنوبية من أرض فلسطين ، لاسيما الأجزاء الشرقية والغربية من البحراليت .

ولما تم للرسول (صلعم) فتح مكة ودانت له قريش وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيف وعرفت العرب انه لا طاقة لهم بحرب رسول الله (صلعم) ولا عداوته ضربت اليه الوفود من كل وجه في السنة التاسعة من بعد الهجرة التي عرفت بعام الوفود ، وكان من بين الوفود التي قدمت المدينة لاعلان اسلامها وطاعتها لدولة الرسول (صلعم) وفد الداريين الذي كان على رأسه تميم بن أوس وأخوه نعيم ومعهما سبعة آخرون من الشيوخ من أبناء مالك والنعمان وبر ، وأعلن جميعهم اسلامهم بين يدي النبي (صلعم)

ويبدو أن أبا رقية تم له فضل البقاء والاقامة في حاضرة الدولة الاسلامية في صحبة الرسول (صلعم) وبقي بها حتى اندلاع نيران الفتنة الكبرى . فلما قتل عثمان بن عفان رأى الصحابي الجليل أن ينتقل الى أرض فلسطين فخرج اليها ونزل بيت جبرون الى أن وافته المنية فقضى بها .

كان لتميم الداري خلال الفترة القصيرة التي قضاها في مدينة رسول الله (صلعم) صحبة مكنته بجانب ما عرف عنه من اطلاع على كتب الأقدمين ، من التفقه في الاسلام فاشتهر بالصلاح والتقوى وكثرة القيام والتهجد حتى روى أنه قام ليلة بآية حتى أصبح ، كما ذكر عنه أنه كان أول من أسرج السراج في المسجد ، وأول من قص في زمن عمر بن الخطاب لذلك كله عرف براهب أهل عصره وعابد أهل فلسطين.(١٠٤)

يرتبط اسم هذا الصحابي الجليل بحادثتين وقعتا له مع النبي (صلعم) جعلتاه يحظى بمكانة مرموقة بين الصحابة والتابعين وكذلك بين القصاص ولدى المؤرخين والباحثين .

أولاهما ، قصة الاقطاع الذي طلبه من النبي (صلعم) في أرض فلسطين قبل فتح الشام وقد استجاب رسول الله (صلعم) لرغبته وكتب له كتابا بذلك فقال صاحب فتوح البلدان « وفد تميم بن أوس أحد بني الدار بن حبيب من لخم ويكنى أبا رقية على

(١٠٤) الاستيعاب لابن عبد البر - بهامش الاصابة ج ١ ص ١٨٤ . أسد الغابة لابن الاثير ج ١ ص ٢١٥ وقد ذكر في تاريخه « الكامل » أن تميما اهدى النبي (صلعم) فرسا يقال له الورد ، فوهبه رسول الله (صلعم) لعمر بن الخطاب ، تاريخ ابن الاثير ج ٢ ص ٣٢٨ . أما ابن اسحق فذكر أن قدوم وفد الداريين الى المدينة وكان في السنة السابعة للهجرة بعد فتح خيبر وأن الرسول (صلعم) أوصى لهم من أرض حبرى وبيت عينون في فلسطين كما أشار الى أسماء وفد الداريين سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .

النبي (صلعم) ومعه أخوه نعيم بن أوس فاقطعهما رسول الله (صلعم) حبرى ، وبيت عينون ومسجد ابراهيم عليه السلام فكتب بذلك كتابا ».(١٠٥)

اما المقريزى فذكر ان تميما سأل رسول الله (صلعم) أن يقطعه عيون البلد الذى كان منه بالشام قبل فتحه ففعل .(١٠٦)

وقد ذكر خبر هذا الاقطاع الصفدى فى تذكرته ، القلقشندى فى صبح الأعشى وصاحب مسالك الابصار ، وسنشير هنا الى ما جاء فى هذا المصدر الذي شاهد مؤلفه نص كتاب النبى (صلعم) لتميم الدارى .

يروى لنا ابن فضل الله العمرى أنه زار مدينة الخليل وقبر ابراهيم ـ عليه السلام ـ فى أواخر سنة ٧٤٥ هـ حيث عرض عليه ناصر الدين بن عبد الله محمد ، من سلالة تميم الدارى والقائم على الوقف عرض على صاحب المسالك نسخة من كتاب النبى (صلعم) ومعها كتاب آخر بخط الخليفة العباسى المستضىء بالله (٥٦٦ ـ ٥٧٥ هـ) يقر فيه للداريين بمضمون ما جاء فى كتاب النبى (صلعم) وأحقيتهم فى ذلك الوقف ، ونص الكتاب كما أورده العمرى هو : (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى محمد رسول الله لتميم الدارى واخوته حبرون والمرطوم وبيت عينون وبيت ابراهيم بما فيهن نطية بت بذمتهم ونفذت وسلمت ذلك لهم ولأعقابهم فمن آذاهم آذاه الله فمن آذاهم لعنه الله شهد عتيق بن أبى قحافة وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وكتب على بن أبو طالب وشهد » ثم أوضح أنه مكتوب على قطعة من الأدم بالخط الكوفى المليح القوى ، وانه رأى ذلك كله رأى العين ،وتأكد منه ثم قال « فقبلنا تلك الآثار وقصنا منه بعد الاتزاره للتبرك به ، وزيادة التأكيد على أنه من مخلفات النبوة .(١٠٧)

واذا كان المستضىء العباسى قد أقر للداريين بما جاء فى كتاب النبى (صلعم) كما ذكر ابن فضل الله العمرى فان الأمويين من قبلهم قد اعترفوا بهذا الحق فروى عن سليمان بن عبد الملك أنه اذا مر بهذه المنطقة لم يعرج على وقف الداريين وقال « أخاف أن تصيبنى دعوة النبى (صلعم) ».(١٠٨)

أما القصة الثانية التى أظهرت فضل تميم الدارى ومكانته المرموقة عند المسلمين فهى قصة « الجساسة » التى أخبر بها المسيح الدجال لما ومجموعة من قومه بظهور رسول الاسلام بمكة ، ثم ارتفاع شأنه بالمدينة وقد قصها أبو رقية بدوره على النبى (صلعم) الذى حدث بها المسلمين من فوق منبر مسجد الجامع بالمدينة المنورة .

---

(١٠٥) البلاذري - فتوح البلدان ص ١٥٣ .

(١٠٦) خطط المقريزي - ج ١ ص ٩٦ .

(١٠٧) ابن فضل الله العمري - مسالك الابصار ج ١ ص ١٧٣ - ١٧٥ ، انظر كذلك صبح الاعشى للقلقشندي ج ١٣ ص ١١٨ - ١٢٢ ، د . بهيجة بهجة خليل بحثها ، تميم الداري اول قاص في الاسلام مجلة كلية الآداب - جامعة بغداد - العدد الخامس - نيسان ١٩٦٢ ص ٣٠٦ - ٣٠٩ .

(١٠٨) البلاذري - فتوح البلدان ص ١٥٣ .

وقد أسندت المصادر المختلفة التي تحدثت عن هذه القصة روايتها الى الصحابية الجليلة فاطمة بنت قيس التي ينتهي نسبها الى محارب بن فهر، فهي بهذا النسب قرشية فهرية كانت من المهاجرات الأول، ولها صحبة، كما أنها أخت الضحاك بن قيس الذي خدم الأمويين ثم خرج عليهم وانضم الى جانب عبد الله بن الزبير فقتل في مرج راهط سنة ٦٤هـ وكانت أخته فاطمة تكبره بعشر سنين.

وقد ذكر الطبري هذه الصحابية في حديثه عن أهل الشورى وأشار الى أنه بعد دفن الخليفة عمر بن الخطاب تفرق أهل الشورى يريدون منازلهم فناداهم عبد الرحمن بن عوف الى أين، ثم طلب منهم أن يتبعوه حتى دخل بيت هذه الصحابية التي نعتها الفقيه بأنها عالية الهمة ذات رأي، فاجتمعوا في دارها وانتهى أمرهم ـ كما هو معروف ـ باختيار عثمان بن عفان للخلافة. عاشت فاطمة بنت قيس بعد ذلك طويلا الى أن توفيت في خلافة معاوية بن أبي سفيان. (١٠٩)

كذلك ذكرها ابن سعد في طبقاته وقال انها كانت تحت أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي القرشي، فلما طلقها خطبها كل من معاوية بن أبي سفيان وأبو جهم بن حذيفة العدوي، فاستشارت النبي (صلعم) فأشار اليها بأسامة بن زيد وكان أهلها كرهوا ذلك ولكنها فضلته وقالت: لا انكح الا الذي قال رسول الله (صلعم) وقد سعدت في حياتها معه فقالت: لقد اغتبطت بنكاحي اياه، ومما يروى عنها قولها: طلقت زوجي ثلاثا فأمرني رسول الله (صلعم) أن أعتد عند ابن أم مكتوم، ولم يجعل لي نفقه، لذلك كله قيل أن في طلاقها ونكاحها سنن كثيرة مستعملة (١١٠).

وقد روى عنها جماعة من التابعين من بينهم أبو عمرو شراحيل الشعبي (ت حوالي ١٠٥هـ) فقيه الكوفة وقاضيها المعروف، وهو الذي روت له قصة الجساسة والمسيح الدجال وأخرجتها أشهر كتب الحديث.

واذا كان القصص والأساطير يغلبان على الكثير من أحداث قصة الجساسة، فان ما روي عنها قد حظي بقدر كبير من اهتمام أشهر المحدثين، والمؤرخين وغيرهم، لذلك رأينا من المفيد ونحن نبحث في القصص الاسلامي أن نفرد لها جانبا، كما وجدنا في رواية إمام أهل الحديث أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ) أفضل الروايات التي يمكن الرجوع اليها لرسوخ قدمه في هذا العلم، فقيل عنه وفي وصف « صحيحه » وأهميته، أن من حقق نظره فيه، واطلع على ما أودعه في اسناده وترتيبه وحسن سياقته، وأنواع الورع والاحتياط والتحري في الروايات وكثرة اطلاعه واتساع روايته، وغير ذلك مما فيه من المحاسن والاعجوبات واللطائف الظاهرات والخفية، علم أنه إمام لا يلحقه من بعد عصره، وقلّ من يساويه بل

(١٠٩) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٣٤. انظر كذلك سير اعلام النبلاء للحافظ شمس الدين بجبي ج ٢ ص ٣٢٦.

(١١٠) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٨ ص ٢٧٣ - ٢٧٥. الاستيعاب لابن عبدالبر بهامش الاصابة ج ٤ ص ٣٨٣. الاصابة لابن حجر ج ٤ ص ٣٨٤.

بدايته من أهل دهره [١١١] ، هذا بالاضافة الى انه من كبار أوائل المحدثين الذين اهتموا بقصة الجساسة ، والمسيح الدجال وفصلوا الحديث عنها أكثر من غيره .

أخرج الامام مسلم حديث الجساسة عن الشعبي - نسبة الى شعب همدان - وهو من أكثر من روى عنهم في صحيحه ، لما عرف عنه من شغف بتتبع الأخبار حتى اعتبر من أظهر رواة الحديث في زمانه .

حدث الشعبي ، أنه سأل فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس وكانت من المهاجرات الأول ، فقال : حدثيني حديثا سمعتيه من رسول الله (صلعم) لا تسنديه الى أحد غيره ، فقالت : لئن شئت لأفعلن ، فقال لها أجل ، حدثيني ، فقالت نكحت ابن المغيرة وهو من خيار شباب قريش يومئذ ، فأصيب في أول الجهاد مع رسول الله (صلعم) فلما تأيمت خطبني عبدالرحمن بن عوف في نفر من أصحاب رسول الله (صلعم) وخطبني رسول الله (صلعم) على مولاه أسامة بن زيد ، وكنت قد حدثت أن رسول الله (صلعم) قال من أحبني فليحب أسامة ، فلما كلمني رسول الله (صلعم) قلت أمري بيدك فانكحني من شئت ، فقال انتقلي الى أم شريك ، وأم شريك امرأة غنية من الأنصار ، عظيمة النفقة في سبيل الله ، ينزل عليها الضيفان ، فقلت سأفعل ، فقال : لا تفعلي ، ان أم شريك امرأة كثيرة الضيفان فاني اكره أن يسقط عنك خمارك أو ينكشف الثوب عن ساقيك فيرى القوم قبلك بعض ما تكرهين ، ولكن انتقلي الى ابن عمك عبدالله بن عمرو بن أم مكتوم ، وهو رجل من بني فهر ، قريش ، الذي هي منه ، فانتقلت اليه ، فلما انقضت عدتي سمعت نداء المنادي ، منادي رسول الله (صلعم) ينادي الصلاة جامعة ، فخرجت الى المسجد ، فصليت مع رسول الله (صلعم) فكنت في صف النساء التي تلي ظهور القوم ، فلما قضى رسول الله (صلعم) صلاته جلس على المنبر وهو يضحك فقال : ليلزم كل انسان مصلاه ، ثم قال : أتدرون لم جمعتكم ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : أني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة ولكن جمعتكم لأن تميما الداري كان رجلا نصرانيا فجاء فبايع وأسلم ، وحدثني حديثا وافق الذي كنت أحدثكم عن المسيح الدجال ، حدثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلا من لخم وجذام فلعب بهم الموج شهرا في البحر ، ثم ارفأوا الى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس ، فجلسوا في أقرب سفينة ، فدخلوا الجزيرة فلقيتهم دابة أهلب كثير الشعر ، لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر ، فقالوا ويلك ، ما أنت ، فقالت أنا الجساسة ، قالوا : وما الجساسة ، قالت أيها القوم انطلقوا الى هذا الرجل في الدير فانه الى خبركم بالأشواق ، قال لما سمت لنا رجلا فرقنا منها ان تكون شيطانه ، قال فانطلقنا سراعا حتى دخلنا الدير فاذا فيه أعظم انسان رأيناه قط خلقا وأشده وثاقا ، مجموعة يداه الى عنقه ما بين ركبتيه الى كعبيه بالحديد ، قلنا : ويلك ، ما أنت ، قال : قد قدرتم

(١١١) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ص ٥ من التعريف بالامام مسلم .

على خبري - فأخبروني ما أنتم . قالوا : نحن أناس من العرب ركبنا في سفينة بحرية فصادفنا البحر حين اغتلم فلعب بنا الموج شهرا . ثم أرفأنا الى جزيرتك هذه فجلسنا في أقربها فدخلنا الجزيرة فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر لا يدري ما قبله من دبره من كثرة الشعر . فقلنا ويلك ما أنت . فقالت أنا الجساسة . قلنا وما الجساسة . قالت : اعمدوا الى هذا الرجل في الدير فانه الى خبركم بالأشواق . فأقبلنا اليك سراعا وفزعنا منها . ولم نأمن أن تكون شيطانة . فقال : أخبروني عن نخل بيسان . قلنا عن أي شأنها تستخبر . قال أسألكم عن نخلها هل يثمر . قلنا نعم . قال : أما إنه يوشك أن لا يثمر . قال : أخبروني عن بحيرة الطبرية . قلنا عن أي شأنها تستخبر . قال : هل فيها ماء . قالوا : هي كثيرة الماء . قال : أما ان ماءها يوشك أن يذهب . قال أخبروني عن عين زغر . قالوا : عن أي شأنها تستخبر . قال : هل في العين ماء ؟ وهل يزرع أهلها بماء العين ؟ قلنا له نعم . هي كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها . قال : أخبروني عن نبي الأميين ما فعل قالوا : قد خرج بمكة ونزل يثرب قال : اقاتله العرب . قلنا : نعم قال : كيف صنع بهم فاخبرناه انه قد ظهر على من يليه من العرب واطاعوه قال لهم : قد كان ذلك قلنا : نعم . قال : اما ان ذاك خير لهم ان يطيعوه واني مخبركم عني . اني انا المسيح واني اوشك او يؤذن لي في الخروج فاخرج فاسير في الارض فلا ادع قرية الا هبطتها في اربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرمتان على كلتاهما . كلما اردت ان ادخل واحدة او واحدا منهما استقبلني ملك بيده السيف صلتا يصدني عنها . وان على كل نقب منها ملائكة يحرسونها قالت : قال رسول الله (صلعم) وطعن بمخصرته من المنبر هذه طيبة . هذه طيبة . هذه طيبة . يعني المدينة ألا هل كنت حدثتكم ذلك فقال الناس : نعم فانه اعجبني حديث تميم إنه وافق الذي كنت احدثكم عنه وعن المدينة ومكة . الا انه في بحر الشام او بحر اليمن لا بل من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق . ما هو وأومأ بيده الى المشرق قالت : فحفظت هذا من رسول الله (صلعم) [٨١٢] .

هكذا مهدت هذه القصة وحديث الاقطاع الذي أشرنا اليه من قبل بالاضافة الى ما اكتسبه هذا الصحابي من علم وفقه اسلاميين ، وما استوعبه من كتب الاقدمين . مهد ذلك كله الطريق امام تميم الداري ليكون اول من جلس للقصص في الاسلام بتكليف من ولي الامر . فقد ذكر المقريزي ان اول من قص في مسجد رسول الله (صلعم) تميم الداري استأذن عمر ان يذكر الناس فأبى عليه حتى كان آخر ولايته فأذن له ان يذكر في يوم الجمعة قبل ان يخرج عمر . فلما تولى عثمان بن عفان استأذنه تميم في

---

(٨١٢) صحيح مسلم بشرح النووي - القاهرة ١٩٣٠م - ج ١٨ ص ٧٨ - ٨٤ . انظر كذلك ما ذكره البخاري في صحيحه ج ٤ ص ١٥٦ - ١٥٧ . الخصائص الكبرى للسيوطي ج ٢ ص ١٢٧ - ١٢٨ . بهجة طه النجم - مقال في مجلة كلية الآداب جامعة بغداد - العدد الخامس - نيسان ١٩٦٢ بعنوان تميم الداري اول قاص في الاسلام ص ٢٠٢ - ٢٠٥ .

ذلك فأذن له ان يذكر يومين في الجمعة فكان تميم يفعل ذلك [١١٣] .

أما ابن الجوزي فيقول في روايته التي لا تختلف في مضمونها عن السابقة لم يكن يقص على عهد رسول الله (صلعم) ولا أبي بكر ، وكان اول من قص هو تميم الداري استأذن عمر بن الخطاب ان يقص على الناس قائما فأذن له الخليفة [١١٤] .

وقد يجد القارىء في النصوص ما يتعارض مع ما ذكرناه من قبل عن النبي (صلعم) انه كان أول من ذكر بالقصص القرآني ومن بعده كبار الصحابة مثل عبدالله بن رواحة وغيره ممن اشرنا اليهم ، وذلك قبل ان يقص تميم الداري ، أو حتى قبل ان يدخل في الاسلام ، والواقع ان مثل هذا التناقض غير وارد لأن المصادر عندما ذكرت ان تميما الداري كان أول من قص في الاسلام ربما قصد بكلمة « اول » انه كان اول من انتدب من قبل ولي الامر للقيام بهذا العمل ، ويوضح ذلك ويثبته ما جاء بعد ذلك في كلمة « استأذن » فوافق له عمر بن الخطاب ان يتخذ مجلسا في المسجد النبوي ويقص على الناس مرة واحدة كل اسبوع في يوم الجمعة ، قبل ان يأتي الخليفة المسجد للصلاة وإمامة المسلمين كما هو متبع ومعروف ، ثم رأى هذا الصحابي ان هذا المجلس المفرد غير كاف لاستيفاء الهدف من ورائه من تذكير المسلمين ووعظهم ، فلما تولى عثمان بن عفان طلب منه تميم ان يسمح له بالاستمرار في قصصه بل وفي زيادة عدد مجالسه فاستجاب الخليفة له ، فكان تميم يلقى المسلمين ويقص عليهم في مجلسه بالمسجد النبوي مرتين في كل يوم جمعة .

ويؤيد هذا الرأي ما روي عن النبي (صلعم) فقال : لا يقص إلا أمير أومأمور اومختال ، وفي رواية اخرى عن ابن سيرين فقيه البصرة المعروف عندما قيل له لو قصصت على اخوانك فأجاب : قد قيل لا يتكلم على الناس الا أحد ثلاثة : امير او مأمور او احمق ، ثم استطرد مبينا سبب امتناعه قائلا : فلست بأمير ولا مأمور واكره أن أكون الثالث [١١٥] ، ونفهم من هذه الاحاديث انه لا ينبغي القصص إلا لولي الامر يعظ الناس ويخبرهم بما جاء في القصص القرآني ليعتبروا ويتفكروا كما كان يفعل الرسول (صلعم) والخلفاء من بعده سواء في قصصهم او خطبهم التي كانوا يتلونها ، والثاني هو المأمور الذي يقيمه الامام وهو مثله يعظ الناس ويقص عليهم غير مكتسب من هذا العمل ، أما الثالث فهو القاص الذي ذمه الفقهاء وقالوا انه يمارس عمله متكبرا ، فهو يرائي الناس بقوله وعمله ، فوعظه وحديثه في هذه

---

(١١٣) خطط المقريزي ج ٢ ص ٢٥٣ .

(١١٤) ابن الجوزي - كتاب القصاص والمذكرين ص ٢٢ وقد ذكر ابن الجوزي في رواية اخرى ان عبيد بن عمير هو اول من قص في خلافة عمر بن الخطاب وهو ابو عاصم عبيد بن عمير قتادة الليثي قاضي مكة وأحد أعيان المذكرين بها يقول مجاهد فيه : بين ابن عباس كنا نفخر بفقيهنا ابن عباس وبقاصنا عبيد بن عمير وقد بلغ من سمو مجالس قصصه ان كبار رجال الصحابة كانوا يحضرونها بين بينهم عبدالله بن عمر الذي كان يبكي في قصصه من شدة تأثره بوعظ وتذكير عبيد . انظر كذلك - البيان والتبيين للجاحظ - ج ١ ص ٣٦٢ .

(١١٥) ابن الجوزي - كتاب القصاص والمذكرين ص ٢٨ - ٢٩ قوت القلوب المكي ج ١ ص ٣٢٩ .

الحالة مجافيان للخليفة ، وربما كان هذا النوع من القصص هو ما انتهى اليه القصاص في العصور المتأخرة بعد أن انصرفوا عن العلم واتخذوا من القصص موردا للكسب ، لذلك ذمهم كثير من العلماء والفقهاء وانكروا قصصهم ، وفيهم يقول ابو طالب المكي ان اكل الدنيا بالدين ، واخذها على الصلاح وبيع العلم بالدنيا والتصنع والتزين للعموم من قبيح ما أحدث ، وهو أظهر من أن يدل على فساده عند من عرف ظاهر العلم ، وقد سمي هؤلاء الجاهلون بالعلم علماء ، وجعلهم الناقصون عن الفضل فضلاء لقلة معرفتهم بطريق المتقدمين ، وعدم بصيرتهم بحقيقة علم الدين [١٦٦] .

يوضح هذا القول ما وصلت اليه مكانة القصاص عند العامة والبسطاء بصورة خاصة فأقبلوا على مجالسهم واعتقدوا في علمهم وفضلهم ، وفضلوهم على كبار أهل العلم والفقه ، ومما يروى في هذا الشأن ان والدة ابي حنيفة النعمان فقيه العراق وامام أهل الرأي بها وصاحب المذهب المعروف ، وبالرغم من مكانته المشهود له بها ، فانها لم تقتنع بذلك كله عندما افتاها في امر من الامور وقالت : لا اقبل الا ما يقول به « زرعة » الذي كان يقص على الناس في المسجد ، فلما جاءته واعترف لها ان ولدها افقه واعلم منه وان القول ما قال ، رضيت وانصرفت [١٦٧] .

ومما لاشك فيه ان هذه الثقة الكبيرة التي منحتها الطبقة العريضة من غير المثقفين واصحاب المهن والحرف وغيرهم من طوائف العامة للقصاص كان لها أبعد الأثر في انصرافهم عن العلم والتركيز على كل ما يعينهم على تحقيق رغبتهم من الكسب والحصول على المال ، فاهتموا بالأمور الظاهرية للتأثير على الناس ، كالتأنق في الملبس وتزيين الكلام وسجعه ، واتخذوا الكراسي بدلا من ان يقصوا قائمين ، مما جعل بعض الفقهاء يقسم المتكلمين طبقا لمجالسهم الى اقسام ثلاثة : اصحاب الكراسي وهم القصاص ، وأصحاب الاساطين وهم المفتون ، وأصحاب الزوايا وهم أهل المعرفة [١٦٨] . ومع مرور الوقت كان لابد من القصاص ان يتشبثوا بهذه المكانة وتلك الثقة اللتين اكتسبها بعضهم على غير أساس وبدون وجه حق ، فغلب الجهل والخداع والكذب على قصصهم ، واخذوا يفتون الناس في كل ما يسألون دون علم او معرفة حتى لا تهتز الثقة بهم ويصيب الكساد اسواقهم فتبور تجارتهم وتضيق ارزاقهم ، وتسوق لنا النصوص قصة ابي مرحوم المجسام الذي اشتهر بقصصه في بغداد كمثال لهذا الصنف من القصاص الذي كان الجهل والكذب أشد آفاتهم ، فعندما سأله احد الحاضرين في مجلسه عن المزابنة والمحاقلة لم يتردد في الاجابة قائلا : المحاقلة حلق الثياب عند

---

(١٦٦) ابو طالب المكي - قوت القلوب - ج ١ ص ٣٢٩ .

(١٦٧) ابن الجوزي - كتاب القصاص والمذكرين ص ١٠٨ .

(١٦٨) آدم متز - الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٧٨ انظر كذلك . د . بهيجة عبد المنعم القصص والقصاص في الادب الاسلامي ص ٤٣ .

السمسار ، والمزابنة ان تسمي اخاك المسلم زبوناً (١١٩) . فاذا علمنا ان المزابنة والمحاقلة من انواع البيوع التي نهى النبي (صلعم) عنهما في العديد من الاحاديث ادركنا الى اي حد بلغ استهتار القصاص من امثال ابي مرحوم الحجام بعقول الناس ، وفي نفس الوقت ادركنا الذي انحدر اليه علمهم فجهلوا أبسط امور الشرع من القرآن والسنة التي كانت تشكل أول المبادىء وأهم الأسس لمن يريد ان يشتغل بالقصص . لهذا كان كثير من العلماء يرون القصص بدعة وينهون عنه ويكرهون مجالسة القصاص حتى قال بعضهم : نعم الرجل فلان لولا انه يقص (١٢٠) . في حين عبر الاديب والفيلسوف أبو حيان التوحيدي عن ذلك بطريقة أخرى صنف بها الناس حسب تفكيرهم وقدراتهم العقلية ، فكتب في مؤلفه الأدبي الأنيق « الامتاع والمؤانسة » يقول : وليس يقف على القاص الا أحد ثلاثة : إما رجل أبله ، فهو لا يدري ما يخرج من أم دماغه ، وإما رجل عاقل فهو يزدريه لتعرضه لجهل الجهال ، وإما له نسبة الى الخاصة من وجه آخر ، فهو يتذبذب عليه من الانكار الجالب للهجر ، والاعتراف الجالب للوصل (١٢١) . لهذا كان الامام أحمد بن حنبل يقول : ما أحوج الناس الى قاص صدوق (١٢٢) .

القصص الشعبي :

ولم يتوقف القصص عند هذا الحد ، بل أخذ القصاص به الى مسار جديد خرجوا فيه عن الدائرة الدينية الى مجال آخر غلبت فيه المتعة والتسلية على ما عداها من أهداف ، وذلك سعيا وراء الرغبة في الكسب والحصول على الرزق والمال . وكان لابد أن يصاحب هذا التطور تبديل للمكان التقليدي الذي كانت تعقد فيه مجالس القصص الديني ليتناسب الموضع الجديد مع طبيعة هذا اللون ومضامينه وأهدافه أيضا . لذلك خرج القصاص من المساجد الى الطرقات والأماكن العامة ومناطق تجمع الناس ، كالأسواق والميادين وغيرها .

ويحدثنا صاحب مروج الذهب عن واحد ممن برع في هذا الفن من القصص اشتهر ببغداد زمن المعتضد بالله (٢٧٩ - ٢٨٩هـ) ، يعرف بابن المغازلي كان يتكلم على الطريق ويقص على الناس بأخبار ونوادر ومضاحك ، فلما رآه أحد خدام الخليفة على باب الخاصة يضحك ويتنادر في حلقته أعجب به واتفق معه على أن يوصله الى مجلس المعتضد بشرط أن يقاسمه نصف جائزته ، فلما حضر ابن المغازلي بين يدي الخليفة العباسي سأله عن قصصه ووعده إن

(١١٩) ابن الجوزي - كتاب القصاص والمذكرين ص ٢١٠ . ونريد ان نوضح هنا ان بيع المزابنة هو الجزاف في كل شيء لا يعلم كيله ولا عده ولا وزنه ، كبيع الرطب على رؤوس النخل بالتمر كيلا ، كما كان يفعل العرب في جاهليتهم . ولا يخفى ما في هذا البيع من غبن لأحد الطرفين عرين الغبن صاحبه عن حقه ويتخاصما . أما المحاقلة فهي بيع الزرع في الحقل قبل نضجه ، كبيع القمح في سنبله بكيل معلوم من الحنطة الخالصة . فيداخله الربا لعدم العلم بالمماثلة . وكذلك المخاضرة من الخضرة ، يعني بيع الحبوب والثمار ونحوها خضراء قبل نضجها وصلاحها . وكلها - كما ذكرنا - من أنواع البيوع التي حرمها الاسلام . أنظر صحيح مسلم ج ١ ص ١٩٢ ، صحيح البخاري ج ٣ ص ٩٤ - ٧٢ . لسان العرب لابن منظور كلمات : زبن ، حقل ، خضر .

(١٢٠) قوت القلوب للمكي ج ١ ص ٢٣٩ .

(١٢١) د . وديعة طه النجم - القصص والقصاص في الأدب الاسلامي - ص ٤١ .

(١٢٢) ابن الجوزي - كتاب القصاص والمذكرين - ص ١٩ .

أضحكه كافأه بخمسمائة درهم . ويروي القاص خبره قائلا : « أخذت في النوادر والحكايات والتقاسة والعبارة . فلم أدع حكاية أعرابي ولا نحوي ولا مخنث ولا قاص ولا زطي ولا نبطي ولا سندي ولا زنجي ولا خادم ولا تركي ولا شطارة ولا عيارة ولا نادرة ولا حكاية الا أحضرتها وأتيت بها حتى نفد جميع ما عندي وتصدع رأسي ، وانقطعت وسكت وفترت وبردت » فضحك جميع من بالمجلس الا الخليفة الذي أمره بالاستمرار . ولما لم يكن في جعبة ابن المغازلي المضحك مزيدا من النوادر وعجز عن اضحاك الخليفة أمر بضربه ، ثم رق لحاله وسأله النصيحة . وهنا خطر للقاص الأريب ألا يفلت الخادم من أخذ نصيبه هو الآخر من هذه « الجائزة » حسب الاتفاق فقال للخليفة : ياسيدي انه ليس في الديانة أحسن من الأمانة ، ولا أقبح من الخيانة ، وقد ضمنت للخادم الذي أدخلني عليك نصف الجائزة على قلتها وكثرتها ، وأمير المؤمنين أطال الله بقاءه بفضله وكرمه قد أضعفها ، فقد استوفيت نصفها ، وبقي لخادمك نصفها ، فانفجر المعتضد بالضحك حتى استلقى واستحسن هذا الجواب من ابن المغازلي وأمر بضرب الخادم ، ثم أخرج الجائزة وقسمها بين الاثنين (١٣٣) .

وقد أردنا من ايراد هذه القصة بكل هذه التفاصيل القاء الضوء على هذا اللون من القصص الذي كان يتطلب من القائمين عليه والمشتغلين به علما وثقافة من نوع آخر ، سداته ولحمته النوادر والملح ، وقصص الناس وأخبار الاجناس ، فكلما حفظ القاص مضاحكهم ونوادرهم وغريب أخبارهم ، واستوعب منها أكبر قدر ممكن ، وفي نفس الوقت تمتع بقدر غير قليل من الفطنة والذكاء وسرعة البديهة ، كلما حقق ذلك كله تمتع بمكانة عالية ، واسعة وأقبل الناس على مجالسه ، وازدحموا حول حلقته ، كما تبين هذه القصة ايضا تشكيلة المجتمع في حاضرة الخلافة العباسية في تلك الفترة وطوائفه وطبقاته المتباينة والمتعددة من ناحية ، وطبيعة الحياة الاجتماعية من ناحية اخرى حيث كثر المال والغنى ، وانصرف الحكام والرعية على السواء الى اللهو والطرب والغناء والشراب ومجالس القصص للضحك والتندر والتسلية وغير ذلك من ملذات الدنيا وشهوات النفس ، وليس أدل على ذلك من امتزاج القصص والخيال بالحقيقة والواقع مما ورد الاخبار عن زواج الخليفة المعتضد بالله - صاحب تلك القصة - من قطر الندى ، اسماء بنت خمارويه الطولوني ، صاحب مصر ، فيحدثنا المسعودي أن صداقها بلغ ألف ألف درهم بالاضافة الى المتاع والطيب ولطائف الصين والهند والعراق ، كما خص الخليفة الزوج والد العروس من الجوهر ووشاح وتاج واكليل وغير ذلك من النفائس التي يعجز العقل عن تصورها وتقدير قيمتها ، وفي ذلك العرس الكبير يقول ابن العباس الرومي الشاعر :

ياسيد العرب الذي زفت له
باليمن والبركات سيدة العجم

(١٣٣) المسعودي - مروج الذهب - ج ٤ ص ١٦٣ - ١٦٤ .

أسعد بها كسعودها بك أنها
ظفرت بما فوق المطالب والهمم
ظفرت بملأى ناظريها بهجة
وضميرها نبلا وكفيها كرم
شمس الضحى زفت الى بدر الدجى
فتكشفت بها عن الدنيا الظلم[١٢٤]

هذه الصورة لجانب من جوانب حياة الطبقة الارستقراطية التي تمتعت بقدر واف من الثراء والغنى والجاه والنفوذ والترف والنعيم ، والتي كانت دون جدال تقود المجتمع بأسره الى التشبه بها ، توضح أسباب تفشي هذا اللون الجديد من القصص الذي غلبت عليه المتعة والمسامرة والتسلية فتركزت همة المشتغلين به حول فكرة التكسب من جانب ، والاهتمام بتزيين الكلام ووزنه بقدر الامكان من جانب آخر ، مما حدا بالباحثين الى الربط بينه وبين المقامات للتشابه الواضح بين شخصية القاص وحديثه وهدفه ، وبين المكدين الذين لا يستقرون في مكان واحد ، وينتقلون دائما وباستمرار داخل المدن ، وبين البلاد سعيا وراء المال والكسب ، فشخصية المكدي بهذه الصورة ، كما تظهر في مقامات الهمذاني ، والحريري ، ومواعظ أبي الفتح السكندري ، ما هي الا صورة أخرى للقاص الذي يستعمل في حديثه كلاما أدبيا يغلب عليه أسلوب الوعظ لاستغلال عواطف الناس الدينية[١٢٥] .

ويظهر وصف هذا اللون من قصص المكدين وخداعهم في القصيدة الساسانية لشاعر الملح والطرف أبي دلف مسعر بن مهلهل الخزرجي ، أحد ندماء الصاحب ابي القاسم اسماعيل بن عباد ، وزير فخر الدولة البويهي ، وقد صاغ الشاعر هذه القصيدة في بني ساسان ، وهم قوم من العيارين والشطار الذين ظهروا وانتشروا في المجتمع البغدادي في الفترات التي ساد فيها الاضطراب وعدم الاستقرار خلال العصر العباسي الثاني ، وكان لهم حيل ونوادر يتكسبون بها ويحصلون على المال من ورائها ، ونلاحظ ان ابا دلف وضع في قصيدته اشار اليها اصطلاحات وكنايات والفاظ لبيان تفنن هؤلاء المكدين في الاحتيال على الناس فكان – على سبيل المثال – يصاحبهم من يعرف « بالكوز » الذي يقوم على امر « الكوز » الذي تجمع فيه عطايا الناس وتبرعاتهم ، وكان من مهمة القاص في قصصه حث الحضور ودعوتهم الى عدم التقتير والبذل بسخاء الى هذا « المكوز » الذي غلب على مظهره الفقر والحاجة ، فيرمي كل بما قدر عليه في « الكوز » فاذا ما انتهى المجلس وتفرق الناس قاسم المكدون جميعا ما تجمع

(١٢٤) مروج الذهب للمسعودي ج ٤ ص ١٤٦ – ١٨٢ – أنظر كذلك خطط المقريزي ج ١ ص ٣١٩ ، التي ذكر ان والد العروس بنى على رأس كل مرحلة ، وعلى امتداد الطريق وبعد المسافة من القطائع في مصر الى بغداد بالعراق ، قصرا تنزل فيه ويجهز بكل ما تحتاج اليه الاميرة – لتبيت ليلة واحدة – من فرش وطعام وشراب وخدم وحشم ما يتناسب مع شرفها ورقي مكانتها حتى يشعرها كأنها في قصر أبيها تنتقل من مجلس الى مجلس ، كما حملها من الملابس والجوهرات والمعادن والآلات وغير ذلك مما يلزمها ، ما لم ير مثله ، ولا يسمع به .

(١٢٥) انظر ، وديعة طه النجم – القصص والقصاص في الادب الاسلامي ص ٧٢ – ٧٤ .

لدى هذا « المكوز » من مال وقد عبر الشاعر عن ذلك كله بهذا البيت الذي يقول فيه :

ومن دروز او حرز
او كوز بالدغر[١٢٦]

وقد انتقل هذا النوع من قصص المواعظ المغلف بالملح والنوادر وأخبار المكدين وحيلهم الى المغرب الاسلامي ، فتحدثنا النصوص عن واحد من أشهر قصاص المغاربة في هذا اللون من القصص ، هو الأديب أبو عبدالله محمد الكرسوطي الذي ولد ونشأ وتعلم بمدينة فاس ثم رحل في سنة ٧٢٥هـ الى الأندلس واستقر به المقام في غرناطة حاضرة ملوك بني نصر ، زمن السلطان محمد الخامس الغني بالله . وقد أشار ابن الخطيب الى مجالس الكرسوطي التي كان يظهر فيها بجانب فقهه وأدبه ووعظه ، ذلك الفن من قصص الملح والنوادر وحيل المكدين فقال : « كان يفيض من حديث الى فقه ، ومن أدب الى حكاية ، ويتعدى الى ذلك ، الى غريب المنظومات ، مما يختص بنظمه أولو الشطارة من المغاربة ، ويستظهر مطولات القصاص ، وطوامير الوعاظ ، وسماطير أهل الكدية ، في أسلوب وقاح يفصحه اعراب » [١٢٧] . ومازالت هذه العادة في بوادي المغرب الى اليوم ، حيث يجتمع الناس الى القصاص الذين يعظونهم ويذكرونهم بأيام الله ، وسير الأنبياء والرسل ، بالاضافة الى ملح الأخبار عن الأبطال والأدباء والزهاد والمكدين وغيرهم مما يثير نفوس العامة ويشحذ هممهم ويدفعهم الى الحرص على حضور مثل هذه المجالس .

ومع هذه الألوان المختلفة من القصص بقي - كما ذكرنا - القصص الديني يلعب دوره في حياة الناس ، وان كان هذا الدور يخبو نوره أحيانا ويتوارى خلف أي من تلك الألوان الأخرى لهذا الفن ، ولكن ما يلبث أن يعاود ضوؤه الى الظهور مرة أخرى ، فيقوى نوره ، ويلمع بريقه وتزداد فعاليته ويشتد أثره في نفوس الناس ومس شغاف قلوبهم كما عهدناه دائما .

صور من تذكير بعض مشهوري القصاص :

ولعل من المفيد في هذا المقام أن نشير في عجالات سريعة الى نماذج من القصاص والوعاظ الذين برزوا في هذا « القصص المسجدي » من بين مئات الأسماء اللامعة التي حفظتها لنا المصادر المختلفة ، وسنحاول في هذه الاشارات القاء الضوء على ما كان يميز كلا منهم ، ويظهر تفوقه على أقرانه مما يوضح بعض مقومات هذا اللون من القصص من جهة ، ويبين أهميته وأثره في الحياة الدينية والاجتماعية في المدينة الاسلامية من جهة ثانية .

ولتكن وقفتنا الأولى مع أبي ذر الغفاري ، العابد الزاهد ، الثابت على الشظف والعناء أول من

---

(١٢٦) انظر القصيدة بكاملها مع شرح مفرداتها : يتيمة الدهر للثعالبي ج ٣ ص ٣٥٢ - ٣٧٣ ، وكذلك ما ذكره آدم متز من كتابه عن الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ١١٠ - ١١١ وعن الشطار والعيارين انظر مقال : د . احمد مختار العبادي عن الحياة الاقتصادية في المدينة الاسلامية بمجلة عالم الفكر - المجلد ١١ ، العدد الاول - يونيو ١٩٨٠ ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(١٢٧) أنظر : د . احمد مختار العبادي - مملكة غرناطة في عهد محمد الخامس - من مطبوعات معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ١٩٧٣ - باللغة الاسبانية ، ص ١٨١ .

تكلم في علم البقاء والفناء كان هذا الصحابي الجليل يعقد مجلسه في رحاب البيت العتيق ، ومما روي عنه ، أنه قام عند الكعبة فقال : يا أيها الناس أنا جندب الغفاري ، هلموا الى الأخ الناصح الشفيق ، فاكتنفه الناس ، فوعظهم قائلا : أرأيتم لو أن أحدكم أراد سفرا ، أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ويبلغه ؟ قالوا وما يصلحنا ؟ قال حجوا حجة لعظام الأمور ، صوموا يوما شديدا حره لطول النشور ، صلوا ركعتين في سواد الليل لوحشة القبور ، كلمة أخيرة تقولها ، أو كلمة سوء تسكت عنها لوقوف يوم عظيم ، تصدق بمالك لعلك تنجو من عسيرها ، إجعل الدنيا مجلسين ، مجلسا في طلب الآخرة ، ومجلسا في طلب الحلال ، والثالث يضرك ولا ينفعك لا تريده ، اجعل المال درهمين ، درهما تنفقه على عيالك من حله ، ودرهما تقدمه لآخرتك ، والثالث يضرك ولا ينفعك لا تريده ، ثم نادى بأعلى صوته : يا أيها الناس قد قتلكم حرص لا تدركونه أبدا[١٢٨] .

ولا جدال في أن حديث أبي ذر هذا يوضح فلسفته التي اشتهر بها في الحياة وعرفت عنه في سيرته ، فهو الانسان المحب للناس ، الذي يحس آلامهم ، المؤمن الذي يشغل فكره وعقله القضاء على مظاهر الظلم والشر والعبودية ، وقبل هذا وذلك ، فهو الصحابي الذي وعى علما عجز عنه الكثيرون ، فزهد في الدنيا بكل ما فيها من مفاتن ومباهج ومتعة ونعيم ، فاعتزل مخالطة البرايا الى أن حل بساحة المنايا .

ومن أشهر قصاص البصرة موسى بن سيار الأسواري ، الذي كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان له مجلس مشهور في مسجدها يرتاده العرب الذين يتحلقون عن يمين القاص ، والفرس الذين يأخذون الجانب الآخر ، عن يساره ، فكان ابن سيار يعظهم ويذكرهم ويقص عليهم من كتاب الله ، فيقرأ الآية ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه ناحية الفرس ويفسرها لهم بلغتهم ، دون أي تداخل او تأثير من احدى اللغتين على الأخرى ، فلا يدري كل من حضر مجلسه واستمع الى قصصه وحديثه بأي لسان هو أبين ، فكان - كما ذكر الجاحظ - من أعاجيب الدنيا[١٢٩] .

ويبدو أن هذه الطريقة ، باستعمال اللسانين ، العربي والفارسي ، كانت شائعة ومعروفة بين كبار الفقهاء والقصاص العجم الذين تزدحم مجالسهم بأعداد وافرة من المنصرين ، العربي والعجمي ، فيحدثنا ابن جبير أنه حضر خلال وجوده بالمدينة المنورة مجلسا للوعظ في مسجدها النبوي الشريف ، وحضرته أيضا الخاتون « سلجوقة » ابنة الامير عز الدين قليج أرسلان الثاني ابن مسعود ، أحد سلاطين السلاجقة ، وكان يعظ في هذا المجلس العالم الفقيه نور الدين محمد بن عبد اللطيف الخجندي ، رئيس الشافعية بأصبهان ، الذي رحل الى بغداد واستوطنها ، وتصادف وجوده في موسم الحج ، فأقيم

(١٢٨) أبو نعيم الأصبهاني - حلية الأولياء ج ١ ص ١٥٦ - ١٦٥ .

(١٢٩) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٣٦٨ ، أنظر كذلك : احمد بن يحيى بن المرتضى - طبقات المعتزلة - ص ٦٠

له كرسي بازاء الروضة الشريفة فصعده وحضر قراؤه أمامه فابتدروا القراءة بنغمات عجيبة ، وتلاحين مطربة مشجية ، وهو يلحظ الروضة المقدسة فيعلن البكاء ، ثم أخذ في خطبة من انشائه سحرية البيان ، ثم سلك في أساليب من الوعظ باللسانين ، وأنشد أبياتا بديعة من قوله . ثم يصف الرحالة الأندلسي مجلس هذا القاص وهيئته فيقول : وأمر هذا الرجل عجيب في قعدده وأبهته وملوكيته وفخامة آله ، وبهاء حالته ، وظاهر مكنته ، ووفرة عدته ، وكثرة عبيده وخدمه ، واحتفال حاشيته وغاشيته . ثم يعلق على ذلك كله قائلا : فهو من ذلك على حال يقصر عنها الملوك . ويستطرد ابن جبير بعد ذلك في وصف تبسط هذا العالم الجليل ، وتواضعه الجم ، كما يبدي اعجابه الشديد به فيقول : وشأن هذا الرجل العظيم لا يستوعبه الوصف ، شاهدنا مجلسه فرأينا رجلا يذوب طلاقة وبشرا ، ويخف للزائر كرامة وبرا ، على عظيم حريته ، وفخامة بنيته ، وهو أعطى البسطتين علما وجسما ، واستخرناه فأجازنا نثرا ونظما ، وهو أعظم من شاهدناه بهذه الجهات[١٣٠] .

فاذا انتقلنا الى نموذج آخر من كبار قصاص المعتزلة ، نجد أبا موسى عيسى بن صبيح الملقب بالمردار ، من علماء هذه الفرقة ، والمقدمين فيها ، قال عنه ابن المرتضى في طبقاته : « كان من أحسن عباد الله قصصا ، وأفصحهم منطقا ، وأبينهم كلاما » وما يروى عن براعته في الوعظ الديني أن أبا الهذيل العلاف (ت ٢٣٥هـ) من أكبر شخصيات المعتزلة في مدرسة البصرة ، والذي كان نسيج وحده ، وواحد دهره في البيان ومعرفة جيد الكلام ، حضر مجلسه ، وسمع قصصه بالعدل ، وحسن ثنائه على الله ووصفه له بالاحسان الى خلقه ، والتفضل على عبيده ، واساءتهم الى أنفسهم ، وتقصيرهم فيما يجب لله عليهم ، فبكي من شدة تأثره بصدق مشاعره ، وحسن بيانه . لذلك أشتهر أبو موسى المردار بمجالسه ووعظه حتى عرف « براهب المعتزلة »[١٣١] .

وكان من الطبيعي في خضم ذلك الحشد الهائل من الذين اشتغلوا بالقصص أن يظهر من بينهم من يتعصب لقوميته وجنسه دون الآخرين ، كما هو الحال في الفنون الأخرى ، كالشعر مثلا ، فكان أحد قصاص بني الهجيم بن عمرو التميمي يقول في قصصه اشارة الى ذلك التحزب : اللهم اغفر للعرب خاصة ، وللموالي عامة ، فأما العجم فهم عبيدك والأمر اليك[١٣٢] .

واذا كان التكسب بالقصص من أهم الأسباب والمظاهر التي أدت الى التغيير الذي حدث في منهج الكثير من المشتغلين بهذا الفن - كما رأينا - الا ان هذا الهدف لم يحل دون وجود بعض القصاص الذين ظلوا على العهد بهم ، ملتزمين بكل قواعد القصص

(١٣٠) رحلة ابن جبير - ص ١٨٥ - ١٨٧ .

(١٣١) طبقات المعتزلة لابن المرتضى - ص ٧٠ - ٧١ ، أبو الحسين عبدالرحيم الخياط - كتاب الانتصار - ص ٥٤ - ٥٥ ، الفرق بين الفرق - لعبدالقاهر البغدادي ص ١٦٤ - ١٦٦ .

(١٣٢) الكامل لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد - ج ١ ص ١٦ .

الديني وأصوله وسرابيه ، ويعتبر منصور بن عمار السلمي من أبرز هذا الصنف الذي جمع بين القصص المسجدي الذي سداه الوعظ بأمور الدين ، ولحمته التذكير بكتاب الله المبين ، وبين الرغبة في التكسب وجمع الثروة من هذا العمل الديني .

وتتحدث النصوص أن أبا السري منصور بن عمار الذي كان من أهل خراسان ، انتقل الى حاضرة الخلافة العباسية ، ونبغ فيها ، واتخذ لنفسه مجلسا في مسجدها يقص فيه على الناس ، فذاع صيته حتى بلغ مسامع الخليفة الرشيد ، فاستدعاه وسأله عن تفوقه ، فأجابه ابن عمار بأنه رأى في منامه رسول الله (صلعم) ، وكأنه قد تفل في فيه ، فانحل لسانه وحسن بيانه ، وانطلق بأذن الله . هكذا كانت سيرة الرسول الأعظم (صلعم) وما اشتهر به وعرف عنه مع أصحابه تحتل جانبا كبيرا من نفوس وعقول كبار الفقهاء والعلماء والمحدثين والقصاص والوعاظ وغيرهم من أمثال ابن عمار .

فلما راودته نفسه على الثراء وطلب المال رحل الى مصر ، وصادف وصوله وقت شدة وقحط ، فلما صلى مع الناس الجمعة في مسجد عمرو بالفسطاط ، اجتمع اليه الحاضرون وقص عليهم ، ودعا الله عز وجل بالاستسقاء ، ثم رمى بكسائه ودعاهم الى الصدقة ، فجعل الحاضرون يعطوه حتى كانت المرأة تلقي بخرصها وسخابها ، أي بقرطها وقلادتها ، فجمع مالا كثيرا ، وما كاد الناس يغادرون المسجد حتى استجابت السماء لدعائه ، فسقط المطر ، وارتوت الأرض ، فلما حان وقت العصر ، اجتمع اليه المصلون ، فحدثهم عن غربته ، فدفعوه الى فقيه البلد الكبير الليث بن سعد ، فلما سأله عن سبب قدومه الى مصر ، قال : طلبت اكتسب بها ألف دينار" ولما استمع الى قصصه أعجب بفصاحته وحسن بيانه ، وقال له: لا يحل لي أن اسمع مثل هذا الكلام وحدي ، فأخذ ابن عمار يقص على الناس وهو يعيش في كنف وجراية أشهر فقهاء مصر وأكثرهم ثراء ، ثم انتقل الى الاسكندرية وقص في مساجدها حتى ذاع أمره ، ولكنه عاد الى الفسطاط ، واتخذ لنفسه مجلسا ثابتا للقصص والوعظ في مسجدها الجامع ، فكان « شيئا عجيبا ، لم يقص على الناس مثله » .

ومما يوضح رسوخ قدمه في علوم الشرع ، ما روته النصوص عن اجابته لأبي عبدالرحمن بشر بن غياث المريسي ، الذي كتب اليه يسأله عن « خلق القرآن » فأجابه ابن عمار برسالة أظهرت صدق ايمانه ، وقوة حجته ، قال فيها : نحن نرى أن الكلام في القرآن بدعة اشترك فيها السائل والمجيب ، فتعاطى السائل ما ليس له ، وتكلف المجيب ما ليس عليه ، وما أعلم خالقا الا الله ، وما دون الله مخلوق ، والقرآن كلام الله ، ولو كان القرآن خالقا .

لم يكن للذين دعوه الى الله شافعا ، ولا بالذين ضيعوه ماحلا ، فانته بنفسك وبالمختلفين في القرآن الى أسمائه التي سماه الله بها لتكن من المهتدين « وذر الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » ولا تسم القرآن باسم من عندك فتكون من الضالين ، جعلنا الله واياك من « الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون » .

وقد قصدنا من ذكر هذه الرسالة الى بيان ما فيها من المعاني الدينية وما كان يدور في ذلك الزمان من أحداث لا سيما تلك المشكلة التي أثارها المعتزلة . هذا الى جانب أن تلك الرسالة قد تلقي بمزيد من الضوء على الأسباب التي تكون قد حدت بهذا العالم الفقيه الى الخروج من أرض العراق خلال تلك الفترة التي اشتهرت فيها محنة « خلق القرآن » والتي تعرض لها العديد من المشتغلين بالعلم ممن رفض هذه المقولة ، كما هو معروف . عندئذ لم يكن جمع المال هو الدافع الوحيد الذي كان يقف وراء رحيل ابن عمار عن العراق .

ومهما كان الأمر ، فقد مكث منصور بن عمار في مصر فترة من الزمن ، راوده بعدها الحنين الى بغداد ، فخرج اليها بعد ان تحققت رغبته فمنحه الليث بن سعد ألف دينار ، كما دفع اليه بنوه مثلها [١٣٣] .

فاذا انتقلنا الى نموذج آخر من القصاص الذين كانت لهم طموحات أخرى غير جمع المال ، نجد أبا عبدالله محمد الشيرازي ، الذي كان يعرف بالنذير الواعظ ، فقد اتخذ في بداية أمره طريق الزهد والعزوف عن مفاتن الدنيا سبيلا الى نفوس الناس والوصول الى أفئدتهم خلال مجالس قصصه التي كان يعقدها في حاضرة الخلافة العباسية بعد انتقاله اليها ، فتواضع في حياته ، وتبسط في مظهره حتى لبس المرقعة ، فافتتن أهل بغداد به ، وأقبلوا على مجلسه حتى قيل انه كان يحضره خلق لايحصون .

فلما ذاع صيته وكثر ماله عمّر مسجدا كان خرابا وسكنه مع مجموعة من الفقراء ، وبلغ من شغفه الشديد بالقصص أنه كان يعلو سطح المسجد في جوف الليل يذكر الناس ويقص عليهم طلبا للمال والشهرة ، فحصل على ثروة كبيرة ، فنزع المرقعة ، ولبس الثياب الناعمة الفاخرة ، وصار له أصحاب ومريدون كثيرون فأظهر لهم الرغبة في الخروج للغزو ، ولجمع المال والطمع في الغنائم ، فانضم اليه جمع من الاتباع ، رحل بهم الى الموصل ، ثم انتقل الى أذربيجان حيث تضاعف أصحابه بمن انضم اليهم من تلك النواحي ، فاشتد ساعده حتى كان يضاهي أمير المنطقة تكبرا وعظمة ، فكان تضرب له الطبول في أوقات الصلاة الى أن توفي هناك سنة ٤٣٩هـ [١٣٤] .

هكذا جعل القصص من أبي عبدالله محمد الشيرازي مثالا لا يكاد يكون فريدا في تاريخ المشتغلين بهذا الفن ، فكان نجاحه في مجالس وعظه وقصصه السبب المباشر في الكشف عن الوجه الآخر لشخصيته التي كانت تطلب الزعامة والرياسة وتعشق العظمة والسلطان وحب الظهور .

وقد لا نبتعد كثيرا عن الحقيقة اذا قلنا أن ابن سمعون البغدادي (ت ٣٨٧هـ) كان أعظم قصاص ومذكري القرن الرابع الهجري ، كما كان أبو القاسم القشيري النيسابوري (ت ٤٦٥هـ) أعلامهم منزلة في القرن التالي .

---

(١٣٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ٣ ص ٧١ - ٧٩ ، أبونعيم الاصبهاني - حلية الاولياء - ج ٧ ص ٣٧٠ .

(١٣٤) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد - ج ١ ص ٣٥٩ - ٣٦٠ ، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ، ج ٣ ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

أما الأول ، فهو أبو الحسين محمد بن احمد بن اسماعيل ، إمام القدوة ، الناطق بالحكمة ، الذي لم يخلف ببغداد مثله ، ذكره ابن خلكان فقال : كان وحيد دهره في الكلام على الخواطر ، وحسن الوعظ ، وحلاوة الاشارة ، ولطف العبارة . ولكي نتبين هذه الصفة الاخيرة التي كان يمتاز بها ابن سمعون في قصصه ، لا نجد أفضل مما روي عنه عندما حدث يوماً وهو على كرسيه في مجلس وعظه فقال : سبحان من أنطق باللحم ، وبَصَّرَ بالشحم ، وأسمع بالعظم ، اشارة الى اللسان ، والعين ، والأذن . فكانت هذه العبارات والاشارات يحق من لطائف اشاراته . فكان لأهل العراق فيه اعتقاد كثير ، ولهم به غرام شديد ، وتجلى ذلك في المقامة الرازية - الحادية والعشرين من مقامات الحريري - فقال مشيراً الى اقبال الناس عليه ، وتهافتهم على مجلسه : رأيت بها ذات بكرة زمرة أثر زمرة ، وهم منتشرون انتشار الجراد ، ومستنون استنان الجياد ، ومتواصفون واعظاً يقصدونه ، ويعطون ابن سمعون دونه [١٣٥] .

أما خليفته فهو أبو القاسم عبدالكريم بن هوزان بن عبدالملك القشيري ، مصنف الرسالة المشهورة ، أصله من قشير بن كعب ، قبيلة عربية ، قدم بعض رجالها خراسان كان من بينهم أجداده الذين استوطنوا ناحية أستو ، من ضواحي نيسابور ، التي خرج منها عدد من مشاهير العلماء الذين نسبوا اليها كالقشيري ، الذي أصبح - في زمانه - أستاذ الجماعة بها ، ذكره صاحب وفيات الأعيان فقال : كان علامة في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف ، جمع بين الشريعة والحقيقة ، كما كان له في الفروسية واستعمال السلاح يد بيضاء ، هكذا جمع الامام القشيري وتفوق في مختلف العلوم النقلية ، كما كان له في العلوم العقلية أيضاً باع طويل ، ولم تقتصر اهتمامات العالم الفقيه على تنمية هذا الجانب الفكري والعقلي فقط ، بل امتدت لتشمل كذلك متطلبات الجسم لتقوية بنيته ، فاتقن فنون القتال كالفروسية واستعمال السلاح . ولا شك أن هذا العلم الواسع والثقافة الشاملة والقوة والبأس ، قد أهلته لكي يصبح امام القصاص في زمانه ، وفارس الوعظ والتذكير المجلي في مجالسها حتى قيل في قوة ايمانه ، وصدق حديثه ، وسحر بيانه ، ووقع كلامه : « لو قرع الصخر بسوط تحذيره لذاب ، ولو ربط ابليس في مجلسه لتاب » .

وقد أشار الخطيب البغدادي الى قدومه لحاضرة الخلافة العباسية في سنة ٤٤٨هـ ، وقال أنه حدث بها ، وقص في مسجدها ، وكان في كل ذلك ثقة ، حسن الموعظة ، مليح الاشارة [١٣٦] .

فاذا وصلنا الى القرن السادس الهجري ، رأينا آخر صورة تقريباً وصل اليها مجلس القاص الواعظ المذكر ، فاتخذ المنبر مكاناً يقف عليه ، وفرشه بالبسط

---

(١٣٥) وفيات الاعيان لابن خلكان - ج ٤ ص ٣٠٤ ، الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد ج ١ ص ٢٧٤ - ٢٧٧ ، ابن العماد الحنبلي - شذرات الذهب ج ٣ ص ١٢٨ - ١٢٦ .

(١٣٦) وفيات الاعيان لابن خلكان ، ج ٣ ص ٢٠٥ - ٢٠٦ تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادي - ج ١١ ص ٨٣ ، ابن العماد الحنبلي - شذرات الذهب ج ٣ ص ٣٢٠ - ٣٢١ .

ليجلب لنفسه قدرا أكبر من الاحترام والتقدير ، واصطحب معه مجموعة من القراء ممن اشتهروا بحسن التلاوة ، قد يصل عددهم الى العشرين يتبادلون فيما بينهم القراءة بصوت جميل ، لاضفاء جو من المتعة الدينية على المجلس ، فلحلاوة الصوت من الأثر والتأثير ما لم يوجد في غيرها من المواهب ، فليس في الارض من لذة تكتسب من مأكل أوملبس أومشرب أو نكاح أو صيد الا وفيها معاناة على البدن ، وتعب على الجوارح ما خلا السماع ، فانه لا معاناة فيه على البدن ، ولا تعب على الجوارح ، وهل خلق الله شيئا أوقع بالقلوب ، وأشد اختلاسا للعقول من الصوت الحسن ؟ فما بالك اذا جاءك هذا الصوت بكلام الله عز وجل وبما تضمنته محكم آياته من قصص فيه من المواعظ والتذكير والأمل والرجاء والوعد والوعيد والترغيب والترهيب ؟ لا شك أنها ستثير كوامن النفس وتبكي المستمع على خطيئته ، وترقق قلبه من قسوته ، وتذكره نعيم الملكوت ، قال تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » (١٣٧) .

تلك كانت الصورة العامة لتطلبات مجلس القصص ، أما مضمونه ومحتواه ، فقد بينه العالم والفقيه المشهور أبو الفرج عبدالرحمن بن علي ، المعروف بابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) عندما كتب بحس المؤرخ وفكره ، وفن القاص وفلسفته عن كل ما يلزم القاص في القول والفعل والقصد ، وما يجب على المستمعين له بالمقابل ، حتى يكتمل العمل ويخرج متوافقا كالسيمفونية المعبرة التي يلعب فيها كل من بالمجلس وشارك فيه ، دوره بايقاع منتظم لا نشاز فيه ، وبذلك وحده تتم الفائدة وتؤتي مجالس القصص أكلها ، وتؤدي الغاية المنشودة منها .

يقول ابن الجوزي : ان الواعظ مأمور بأن لا يتعدى الصواب ولا يتعرض لما يفسد العوام بل يجذبهم الى ما يصلح بألطف وجه ، وهذا يحتاج الى صناعة فان من العوام من يعجبه حسن اللفظ ، ومنهم من يعجبه الاشارة ، ومنهم من ينقاد ببيت من الشعر ، فأحوج الناس الى البلاغة الواعظ ليجمع مطالبهم ، لكن ينبغي ان ينظر في اللازم والواجب وان يعطيهم من انبساط من اللفظ قدر الملح في الطعام ، ثم يجذبهم الى العزائم ويعرفهم الطريق الحق . ثم يستطرد ابن الجوزي مبينا أهمية معرفة التاريخ وسيرة الانبياء والرسل وغيرهم من السلف الصالح فيقول : ولقد رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب الا ان يمزج بالرقائق والنظر في سير السلف الصالحين ثم يبين اهمية سيرة النبي (صلعم) كنموذج يحتذى مما يوضح اهمية القصص القرآني ويذكر ان على القاص ايضا ان يتخذ من سيرة رسولنا الاعظم (صلعم) مثالا لكل ما يريد ان يبينه عن النفس الانسانية فيقول الفقيه الحنبلي دون حرج او تكلف (ومن اراد ان يرى التلطف بالنفس فلينظر في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فانه كان يتلطف بنفسه ويمازح ويخالط النساء ..... ويختار المستحسنات ويستعذب له الماء .

(١٣٧) الحشر / ٢١ .

ويختار الماء البارد والاوفق من المطاعم كلحم الظهر والذراع والحلوى . وهذا كله رفق بالناقة في طريق السير فأما من جرد عليها السوط فانه يوشك ان لا يقطع الطريق وقد قال - صلى الله عليه وسلم - ان هذا الدين متين فاوغلوا فيه برفق ، فان المنبت لا ارضا قطع ولا ظهرا ابقى (١٣٨) .

وأخيرا يبين العالم القاص المجرب نتائج هذه التعاليم او ما يمكن ان نسميه « نصائح الخبير المجرب » فيقول : واني مازلت أعظ الناس وأحرضهم على التوبة والتقوى فقد تاب على يدي أكثر من مائة الف رجل وقطعت من شعور الصبيان اللاهين اكثر من عشرة الاف طائلة وأسلم على يدي أكثر من مائة الف وجمعت من آلات الوعظ كتبا لم أسبق الى مثلها .

ومما تجدر الاشارة اليه ان ابن الجوزي حاول في كتاباته ان يعطي القارىء الصورة التالية لكل من القاص والمستمع ، فاستنكر بعض الافعال الشائعة والامور المتداولة التي كانت تجري في مجالس القصص كالتطريب والغناء في القراءة ، والسجع في الدعاء ، واستعانة القاص بأبيات من شعر العشق والمحبة وغيرها ، مما كان يثير الوجد في نفوس العوام فيمزقوا ثيابهم ويلطموا وجوههم ويسقطوا على الارض ، الى غير ذلك من الافعال التي نعتها بالمنكرات فقال : تأملت اشياء تجري في مجلس الوعظ يعتقدها العوام وجهال العلماء قربة وهي منكر ، وبعد وذاك ان القرىء يطرب ويخرج الالحان الى الغناء ، والواعظ ينشد بتطريب اشعار المجنون وليلى ، فيصفق هذا ويخرق ثوبه هذا ، يعتقدون ان ذلك قربة (١٣٩) .

ويمكننا ان نتساءل هنا :

الى أي حد الزم ابن الجوزي نفسه عند ممارسته العملية بتجنيب الامور والافعال التي وصفها بأنها بدع ومنكر وبعد عن الدين ، عندما وقف على الناس من فوق المنبر في مجالسه التي شهدتها أحياء بغداد وعاشها معه مئات المعجبين بشخصيته وبعلمه وبحديثه والمفتونين بوعظه وتذكيره ؟ .

لا نريد ان نتعجل الاجابة قبل ان نصحب القارىء في رحلة روحانية عبر القرون الخالية سطر احداثها شاهد عيان أتاحت له الظروف حضور مجالس ابن الجوزي الذي وصفه صاحب وفيات الاعيان بانه كان علامة عصره وإمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ (١٤٠) .

يحدثنا الرحالة الاندلسي محمد بن احمد بن جبير الكناني عن بعض مظاهر الحياة في عاصمة الخلافة العباسية وجوانبها المضيئة اثناء زيارته لها سنة ٥٨٠هـ حيث كانت شهرة ائمة الوعظ فيها قد طرقت اسماعه قبل قدومه اليها فذكر ابن جبير انه حضر جلسة للامام الشافعي رضي الدين القزويني في

(١٣٨) ابن الجوزي - صيد الخاطر - ص ١٠٠ ، ٢٦٦ ، ٢٤١ ، أنظر له أيضا ، كتاب القصاص والمذكرين ص ١٤٦ .

(١٣٩) ابن الجوزي ، صيد الخاطر - ص ٩٩ ، أنظر له أيضا ، كتاب القصاص والمذكرين ، ص ٩٥ - ٩٦ ، ص ١٢٠ .

(١٤٠) وفيات الاعيان لابن خلكان ، ج ٣ ص ١٤٠

« نظاميتها » المشهورة ، كما حضر أكثر من مجلس لابن الجوزي رئيس الحنابلة من بينها ذلك الذي كان يعقده كل خميس في رحاب قصر الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ) فلما أعجب بعلمه وفتن بقصصه ووعظه سعى الى مجلسه الثاني الذي كان يقيمه في ساحة قريبة من داره بالرصافة يوم السبت من كل أسبوع . ويبدو ان الرحالة الأندلسي قد شغف وأعجب بأسام الحنابلة أكثر من غيره من القصاص الذين استمع لهم وجلس اليهم ، فحضر ثلاثة من مجالس وعظه خلال الفترة القصيرة التي لم تتجاوز الثلاثة عشر يوما التي قضاها ضيفا على أهل مدينة السلام . .

سطر لنا الرحالة الأديب بقلمه المعبر وصفا دقيقا ومفصلا لكل ما كان يدور ويجري في مجالس وعظ ابن الجوزي ، جاء - في الواقع - تصويرا صادقا للمشاعر الانسانية التي أحسن ابن جبير وصفها ، وفي نفس الوقت صورة ناطقة للحياة الدينية في المجتمع البغدادي في تلك الفترة .

يقول ابن جبير : شاهدنا صبيحة يوم السبت مجلس الشيخ الفقيه الامام الأوحد جمال الدين أبي الفضائل بن علي الجوزي ، بازاء داره على الشط بالجانب الشرقي ، وفي آخره ، على اتصال من قصور الخليفة وهو يجلس به كل يوم سبت ثم يفيض في الاشادة بفضائل ابن الجوزي ومكانته وعلمه وحسن حديثه قائلا : شاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد في جوف القرا كل صيد ، آية الزمان ، وقرة عين الايمان ، رئيس الحنبلية والمخصوص في العلوم بالرتب العلية ، إمام الجماعة ، وفارس حلبة هذه الصناعة ، المشهود له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة ، مالك أزمة الكلام في النظم والنثر ، والغائص في بحر فكره على نفائس الدر . ثم يستطرد في وصف وقائع المجلس ، ولعل أبرز ما تحدث عنه ابن جبير في هذا المقام ، وصفه لمشاعر الناس وما فعلوه من شدة الوجد ، وعظيم التأثر ، وقد انعكس ذلك كله عليه هو أيضا فأشار الى أن أهوال الرحلة ومتاعبها تهون كلها مقابل الاستمتاع بحضور مثل هذا المجلس ، يقول ابن جبير : أتي ابن الجوزي بعد ان فرغ من خطبته برقائق من الوعظ ، وأيات بينات من الذكر طارت لها القلوب اشتياقا وذابت بها الأنفس احتراقا ، الى أن علا الضجيج ، وتردد بشهقاته النشيج ، وأعلن التائبون بالصياح ، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح ، كل يلقي ناصيته بيده فيجزها ، ويمسح على رأسه داعيا له ، ومنهم من يغشى عليه ، فيرفع في الأذرع اليه . ثم يستطرد قائلا : فشاهدنا هولا يملأ النفوس إنابة وندامة ، ويذكرها هول يوم القيامة ، فلو لم نركب ثبج البحر ، ونعتسف مفازات القفر الا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابحة والوجهة المفلحة الناجحة [١٤٩] .

ولزيادة الفائدة ، والاقناع قبل ان نجيب على السؤال الذي طرحناه قبل قليل ، رأينا أن ننقل للقارىء وقائع المجلس الثاني الذي حضره ابن

(١٤٩) رحلة ابن جبير - ص ٢٠٦ - ٢٠٨ .

جبير ، فيقول : ثم شاهدنا مجلسا ثانيا له ، بكرة يوم الخميس الحادي عشر لصفر بباب بدر في ساحة قصور الخليفة ومناظره مشرفة عليه ، وهذا الموضع من حرم الخليفة ، خص بالوصول اليه والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر ، الخليفة ووالدته ومن حضر من الحرم ، ويفتح الباب للعامة فيدخلون اليه وقد بسط بالحصر ، وجلوسه بهذا الموضع كل خميس ، فبكرنا لمشاهدته ، وقعدنا الى أن وصل هذا الحبر المتكلم ، فصعد المنبر ، وأرخى طيلسانه عن رأسه تواضعا لحرمة المكان ، وقد تسطر القراء أمامه على كراسي موضوعة فابتدروا القراءة على الترتيب ، وشوقوا ما شاءوا ، وأطربوا ما أرادوا ، وبدرت العيون بارسال الدموع ، فلما فرغوا من القراءة ، وقد أحصينا لهم تسع آيات من سور مختلفات ، صدع بخطبته الزهراء الغراء ، وأتى بأوائل الآيات في أثنائها منتظمات .

ثم يحدثنا الكاتب الأديب ، عن استعمال الفقيه القاص أسلوب السجع فيقول : ومشى الخطبة على فقرة آخر آية منها في الترتيب الى أن أكملها ، وكانت الآية « الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ، ان الله لذو فضل على الناس » فيادى على هذا السنن ، وحسن أي تحسين ، فكان يومه في ذلك أعجب من أمسه .

ولم يفت ابن جبير أن يشير الى دعاء القاص للخليفة العباسي في هذا المجلس ولأسرته ، فقال : ثم أخذ في الثناء على الخليفة ، والدعاء له ولوالدته ، وكنى عنها بالستر الأشرف ، والجناب الأرأف .

ويستطرد بعد ذلك الرحالة الأندلسي في وصف وقائع المجلس مبينا طريقة ابن الجوزي في وعظه ، وشدة تأثير حديثه في الناس وانفعالهم به وتجاوبهم معه ، كما حدث في المجلس السابق ، فيقول : ثم سلك سبيله في الوعظ ، كل ذلك بديهة لا روية ، ويصل كلامه في ذلك بالآيات المقروءات على النسق مرة اخرى ، فأرسلت وابلها العيون ، وأبدت النفوس سر شوقها المكنون ، وتطارح الناس عليه بذنوبهم معترفين ، وبالتوبة معلنين ، وطاشت الألباب والعقول ، وكثر الوله والذهول ، وصارت النفوس لا تملك تحصيلا ، ولا تميز معقولا ، ولا تجد للصبر سبيلا .

ثم أوضح ابن جبير في حديثه المشوق والمعبر كذلك ، ما جاء على لسان ابن الجوزي من شعر الشوق والمحبة ، ونفاذ سهام كلامه الموزون الى قلوب الحضور ، ولم يفت الكاتب الأديب أن يورد لنا مثالا من ذلك الشعر فيقول : وفي أثناء مجلسه ينشد بأشعار من النسيب مبرحة التشويق ، بديعة الترقيق ، تشعل القلوب وجدا ، ويعود موضعها النسيبي زهدا ، وكان آخر ما أنشده في ذلك :

أين فؤادي أذابه الوجد
وأين قلبي فما صحا بعد
ياسعد زدني جوى بذكرهم
بالله قل لي فديت ياسعد

ثم يبين الرحالة العربي أن ابن الجوزي لم يكتف بذكر هذين البيتين مرة واحدة ، بل رددها مرات عديدة حتى تأثر الواعظ نفسه ، وبدا عليه الانفعال الشديد ، كما ظهرت مثل هذه الانفعالات

أيضا على الحاضرين الذين استبد بهم الوجد ، فأجهشوا بالبكاء ، حتى ارتفع صوت نحيبهم ، وسقط بعضهم على الارض ، فيقول : ولم يزل يرددها والانفعال قد أثر فيه ، والمدامع تكاد تمنع خروج الكلام من فمه ، الى ان خاف الافحام ، فابتدر القيام ، ونزل على المنبر دهشا عجلا ، وقد أطار القلوب وجلا ، وترك الناس على أحر من الجمر ، يشيعونه بالمدامع الحمر ، فمن معلن بالانتحاب ، ومن متعفر في التراب .

لا شك انه يمكننا بعد هذا الوصف الحي ، والحديث المستفيض أن نجيب على سؤالنا فنقول دون تردد ، أو بعدا عن الحقيقة أن الاجابة بالنفي .

فابن الجوزي ان كان قد وضع معايير للقصاص وأخرى للمستمعين ، فانه لم يستطع أن يلتزم بها ، وبالتالي لا يمكنه أن يتحكم في مشاعر الناس وعواطفهم ، ولم يغفل ابن جبير عن ملاحظة ذلك عندما قال : وما كنا نحسب أن متكلما في الدنيا يعطي من ملكة النفوس والتلاعب بها ما أعطى هذا الرجل ، فسبحان من يخص بالكمال من يشاء من عباده ، لا إله غيره .

ويدلل على صحة رأيه قائلا : وشاهدنا بعد ذلك مجالس لسواه من وعاظ بغداد ، وكنا قد شاهدنا بمكة والمدينة مجالس أخرى ، فصغرت كلها بالنسبة لمجلس هذا الرجل الفذ ، ولم نستطب لها ذكر [١٤٢] .

وهكذا يتبين لنا رسوخ قدم ابن الجوزي وعلو كعبه في هذا الفن فلا غرابة ان يذاع صيته ، وترتفع منزلته ، ويتربع - بحق وجدارة - على عرش هذه الصناعة ، دون منافس أو شريك . فكان لابد لهذا العالم الواعظ القاص النابغ الذكي الأريب أن يحافظ على مكانته ، وينمي شهرته ، لذلك لا نستبعد أن يكون كبير القصاص ، وزعيم الوعاظ قد تراءى له أن أسباب ومقومات كل ما بلغه من مجد وفضل وعظمة وشهرة ، والمحافظة عليها كلها ، لا يمكن أن يتم إلا بممارسة تلك المحظورات ، ومن خلالها . وليس في ذلك ما يحث على الدهشة ،أو يثير العجب ، فتعامل القاص مع الناس واحتكاكه بالجماهير العريضة التي تتوافد دائما وباستمرار على مجالسه هو وحده الكفيل بلفت الأنظار اليه والحديث عنه ، كما رأينا في حالة ابن جبير نفسه ، ولكي يظل اسم القاص يتردد على ألسنة الناس بالمديح له ، والثناء عليه ، والاعجاب به ، فانه يتعين عليه أن يخاطب عقولهم ، وفي نفس الوقت لا يهمل أحاسيسهم وعواطفهم ، لا سيما وان غالبية من يواظب على حضور مجالس القصص ويداوم عليها هم من طوائف العامة التي تحتاج أكثر من غيرها من طبقات المثقفين وفئات المتعلمين الى ما يحرك نفوسهم ، واثارة الوجد في قلوبهم ، وهو ما يمكن ان نعبر عنه بغذاء الروح ، ولا نبالغ اذا قلنا أن هذا الغذاء أكثر طلبا لتلك الطوائف وأشد وقعا عليها من غذاء العقل ، هذا الى جانب ما يمكن ان يجنيه القاص ماديا من وراء مثل تلك الشهرة وعلو المنزلة التي تمتع بها ابن الجوزي ، وقد عبر هو نفسه عن ذلك عندما قال : لقد حسن الي الشيطان الانقطاع عن المجالس ، وقال : لا يخلو من تصنع للخلق ،

---

(١٤٢) رحلة ابن جبير - ص ٢٠٦ - ٢١٠ .

فقلت : أما زخرفة الألفاظ وتزويقها واخراج المعنى من مستحسن العبارة ، فضيلة لا رذيلة ، فدعني أجمع ما يسد خلتي ويصونني من مسألة الناس ، أما الانقطاع فينبغي أن يكون العزلة عن الشر لا عن الخير ، فتعليم الطالبين وهداية المريدين عبادة العالم (١٤٣) .

فاذا رجعنا بالحديث مرة أخرى الى مجالس ابن الجوزي نستكمل وقائعها الهامة ، نجد في حديث ابن جبير اشارة الى ما كان يدور فيها من أسئلة للحاضرين واجابة القاص الفقيه عليها ، وغالبا ما كان الناس يستفتونه في كل ما يعن لهم من أمور الشرع ، أو بعض القضايا الخاصة ، بالاضافة الى ما كان يدور في الأذهان ويشغل التفكير عن أمور الحكم والسياسة لا سيما ما يتعلق منها بالخلافة ، تلك المشكلة الأولى والمزمنة التي كانت تتردد باستمرار على ألسنة الناس خاصة بعد تعدد الفرق والمذاهب التي كان لكل منها رأي ووجهة نظر خاصة فيها . فيقول ابن جبير : وفي أثناء مجلسه يبتدرون المسائل ، وتطير اليه الرقاع ، فيجاوب بأسرع من طرفة عين . ثم يعلق الرحالة ، على أهمية تلك الأسئلة قائلا : وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل (١٤٤) . ومما يروى عنه في هذا الشأن انه سئل يوما من اهل السنة والشيعة عن المفاضلة بين ابي بكر وعلي فأجاب : افضلهما من كانت ابنته تحته ، ثم غادر المنبر ونزل من فوقه مسرعا حتى لا يراجعه احد فيما أجاب . فقالت السنة هو ابو بكر لان ابنته عائشة تحت رسول الله (صلعم) وقالت الشيعة هو علي لان فاطمة ابنة رسول الله (صلعم) تحته (١٤٥) هكذا تخلص ابن الجوزي بتلك الاجابة التي تدل على الحكمة والفطنة والذكاء ، فأرضى الطرفين اللذين كثيرا ما كانت المنافسة بينهما تحتاج الى رحابة الصدر ، وقوة الحجة وسرعة البديهة .

ومما يستحق الاشارة في هذا المقام هو ان اسئلة الناس من مجالس القصص كانت تمثل ركنا أساسيا فيها كما كانت الاجابة عليها من اهم عوامل المفاضلة بين القصاص بعضهم البعض لانها تدل على مقدار ما يتمتع به القاص من علم وسعة في الاطلاع ومعرفة بأمور الشرع ودراية بالقرآن والسنة بالاضافة الى قدرته على الاجتهاد والرأي .

فاذا واصلنا إمعان النظر والتدقيق في كل ما كان يجري في مجلس القصص لاستكشاف أهميتها وآثارها في حياة المجتمع الاسلامي كما هو الحال مثلا في مجالس ابن الجوزي نلاحظ انه اصبح لهذه المجالس ما يمكن ان نسميه « بالمنهج » الذي كان يتبعه كبار القصاص ويسير على مقتضاه مشهورو الوعاظ منذ اللحظة التي يرتقي بها المنبر الى ان ينزل عنه معلنا انتهاء المجلس .

(١٤٣) ابن الجوزي - صيد الخاطر - ص ٤١ - ٤٢ . أنظر كذلك ما ذكره عما كان يفعله بعض القصاص لاثارة عواطف الناس ومشاعرهم . أو لاستمالة قلوب النساء اللاتي كن يحضرن مجالسهم ، كالتزين بالثياب ، والتبخر بالزيت والتكون ايصفر وجهه - كتاب القصاص ص ٩١ - ٩٥ .

(١٤٤) رحلة ابن جبير - ص ٢٠٨ .

(١٤٥) ابن خلكان - وفيات الاعيان ج ٣ ص ١٤١ .

فاذا صعد القاص جلس ثم حيا الحضور بتحية الاسلام ، ثم يعطي الفرصة للقراء اللذين كانوا يصاحبونه للتلاوة بعد ذلك عليه ان يلقي ما كان يعرف بالخطبة ، التي كان يدعو فيها للامام والرعية ويفسر بعدها ما جاء من الآيات ، ثم يفتح باب الاسئلة للحاضرين ، بعد ذلك يأمر القراء بالتلاوة للمرة الثانية وبعدها تبدأ الفقرة الرئيسية في المجلس فينطلق في حديثه وقصصه ووعظه الذي يبين فيه للناس كل ما يهمهم ويفيدهم من أمور الدين والدنيا ، فاذا ما انتهى اعطى للحاضرين فرصة للسؤال عما يعن لهم أو عما جاء في وعظه وقصصه من امور واخيرا ينزل عن المنبر وينتهي المجلس .

وقد اشار الى هذا المنهج الذي كان يتبعه القصاص ابن جبير في حديثه عن المجالس التي حضرها لكبار الوعاظ والقصاص لا سيما خلال وجوده في الحجاز لاداء فريضة الحج ، او في بغداد التي اشتهرت بكبار ومشهوري وعاظها كما ذكرنا [١٤٦] .

من جهة اخرى فقد أشار الى هذا « المنهج » ابن الجوزي في مصنفاته التي اهتم فيها بالقصص والمذكرين ومجالسهم فقال « فاذا ارتقى القاص المنبر سلم على الحاضرين ثم يقرأ القراء على وجه الترتيل والتحزين لا على طريق الألحان . اذا فرغوا حمد الواعظ الله - عز وجل - وأثنى على رسوله وأصحابه ودعا للامام والرعية . فاذا كانت له صناعة في انشاء خطبه او كان يحفظ خطبة ذكرها ثم ذكر تفسير الآيات التي قرئت . فاذا انهى الكلام في التفسير أجاب عن مسائل ان سئل ثم امر القراء بالقراءة وبعدها يعظهم ثم يستطرد ليوضح طبيعة هذه المواعظ وما يجب ان يتناوله من امور الدين ، كالفرائض والمعاملات وغيرها ، بالاضافة الى ما يفيدهم في دنياهم فيقول : ويدرج في كلامه اخبار الوعد والوعيد والتشويق الى الجنة والتحذير من النار ويأمر بالمحافظة على الصلاة وينهى عن التواني عنها ، ويحث على اداء الزكاة ويذكر الوعيد لمن فرط فيها ، وكذلك الحج والصوم ويبالغ في ذكر بر الوالدين وصلة الرحم وفعل المعروف ، وينهى عن المنكر ، يخوف من الزنا وأكل الربا ويعلمهم عقود المعاملات ويذكر الاحاديث الوارده في جميع ما ذكرنا ، ويذكر حكايات الصالحين ما يصلح ذكره [١٤٧] .

ونريد مرة اخرى ان نقف هنا وقفة متأنية نشير فيها الى ان الحديث في مجالس القصص والوعظ في المعاملات كان هو الآخر من القضايا والمواضيع التي تلقى عناية واهتماما كبيرين لانه يمس الجانب المادي في الحياة التي اهتم بها الدين الاسلامي وميزته عن غيره من الديانات السماوية الكبرى السابقة عليه ، هذا بالاضافة الى ما لهذه المعاملات المالية من آثار بعيدة وعميقة في تحديد علاقات المسلمين ، بل والناس كافة بعضهم ببعض ، وقد تمتد هذه الآثار أيضا لتشمل القصاص وعلاقاتهم بالجماهير المترددة على مجالسهم . وتسوق لنا النصوص في هذا الشأن ما يؤيد ما ذهبنا

(١٤٦) رحلة ابن جبير - انظر الصفحات ١٨٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ - ٢١١ .

(١٤٧) ابن الجوزي ـ كتاب القصاص والمذكرين ص١٣٧ ـ ١٤٠

اليه ، فعندما قدم الفقيه المروزي المشهور ابو الحسين أردشير بن منصور، بغداد في سنة ٤٨٦هـ ، في طريقه لاداء فريضة الحج ، أعجب فقهاؤها بعلمه ، وفتنوا بحديثه ، ورغبوا أن يستفيد به العامة ، فعقد لهم مجالس للوعظ بالمدرسة النظامية كان يحضرها مشايخ الصوفية ، وكبار الأئمة في ذلك الوقت مثل الغزالي ، فأقبل الناس على مجلس القاص الزائر وازدحموا في حلقته ازدحاما منقطع النظير ، حتى روى ان ذرع الأرض التي كان يجلس فيها الرجال بلغ طولها مائة وخمسة وسبعين ذراعا ، وعرضها مائة وعشرين ، وأن من كان يحضر مجلسه من النساء أكثر من ذلك ، ولكن سرعان ما انقلب عليه بعض من كان يحضر مجلسه الذين كانوا - كما نظن - من اصحاب التجارة والنقود والمال عندما تحدث عن الحرام والحلال في البيع والشراء والمعاملات والقروض ، فنهي ان يتعامل الناس ببيع القراضة بالصحيح ، ورأى أنه ربا محرم ، فكانت هذه الفتوى بمثابة ناقوس الخطر الذي دق ايذانا بالرحيل رغم ذلك القبول العظيم ، فحورب الفقيه المروزي في رزقه ، ومنع من الوعظ ، وأخرج من البلد كلها [١٤٨] . وتدل هذه الحادثة على ان سيرة القصاص والمذكرين وعلاقتهم بالجماهير كانت تتأرجح بين القبول والرفض والرضا والكراهية والتقدير والاهمال بقدر حكمة الواعظ وحنكته وعلمه وثقافته وذكائه وفطنته .

من ناحية اخرى نلاحظ أن فريق القراء الذين قد يصل عددهم الى العشرين قارئا ، كان يزيد أو ينقص ، بحسب مكانة القاص وشهرته ، كما كان هؤلاء القراء في نفس الوقت يشكلون قاعدة أساسية ، وركنا هاما من أركان المجلس ، ويضفي وجودهم المزيد من الاهمية والتقدير والاكبار للقاص ولمجلسه على السواء ، ناهيك عما يتركونه بترتيلهم لآيات الذكر الحكيم من آثار جليلة في نفوس السامعين ، وقد أشار الى ذلك أيضا ابن جبير في وصف مجلس ابن الجوزي فقال : ويبتدىء القراء بالقرآن وعددهم نيف على العشرين قارئا ، فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن يتلونها على نسق بتطريب وتشويق ، فاذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية ، ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات الى أن يتكاملوا قراءة [١٤٩] .

كذلك غدا استعمال المنبر بدلا من الكرسي من الظاهر الجديدة في مجالس القصص ، وكان المتبع في أول الأمر أن يتحدث القاص الى الناس وهو قائم ، كما كان يفعل تميم الداري ، ومن جاء بعده ، الى ان ظهر استعمال الكرسي في العصر الأموي ، وأخيرا انتهى الأمر الى ارتقاء المنبر.

ويفهم من النصوص أن استعمال المنبر قد اقتصر على فئة معينة من القصاص والمذكرين ، فلم يكن يسمح بارتقائه الا لمن كان يتمتع بالعلم والفقه والفضل وغيرها من الصفات التي تحدثنا عنها في الشروط الواجب توافرها في القاص الناجح المبرز. فلما أشرفت الدولة على عمل القصاص وأصبح من

(١٤٨) الكامل في التاريخ - لابن الاثير ج ١٠ ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(١٤٩) رحلة ابن جبير - ص ٢٠٧ .

حق المحتسب ، بل ومن صميم اختصاصاته الاشراف عليهم واختبارهم ومؤاخذتهم . نظر صاحب الحسبة كذلك فيمن يسمح له منهم باستعمال المنبر ، ومن يمنع من ارتقائه ، يقول صاحب معالم القربة في أحكام الحسبة : ومن كانت الشروط فيه ، مكن من الجلوس على المنبر في الجوامع والمساجد وفي أي بقعة أحب ، ومن لا يدري ذلك وكان جاهلا بذلك منع من الكلام ، فان لم يمتنع وداوم على كلامه عزر ، ومن عرف شيئايسيرا من كلام الوعاظ وحفظ الأحاديث وأخبار الصالحين وقصد الكلام يسترزق به ويستعين على قوته فيبيح له بشرط ألا يصعد المنبر، بل يقف على قدميه . ثم يستطرد ابن الاخوة موضحا أسباب ذلك فيقول : فان رتبة صعود المنبر رتبة شريفة لا يليق أن يصعد عليه الا من اشتهر بما وصفناه ، ولكي يبين أهمية المنبر ، ومكانة من يقف عليه يقول : كان العصر الاول لا يصعد المنبر الا أحد رجلين ، خطيب في جامع يوم الجمعة أو يوم عيد ، أو رجل عظيم الشأن يصعد المنبر يعظ الناس ويذكرهم الآخرة وينذرهم ويحذرهم ويخوفهم ويحثهم على العمل الصالح ، وكان للناس بذلك نفع عظيم [١٥٠] .

ومن الجدير بالذكر ان ضرورة المنبر للقاص الكبير استدعت نصبه له واقامته لكي يقف عليه حتى اذا عقد مجلسه خارج المسجد ، كما ذكر صاحب معالم القربة قبل قليل ، وكما أشار أيضا ابن جبير في كلامه عن مجالس ابن الجوزي التي كان يعقدها في ساحة قصر الخليفة العباسي أو بالقرب من بيته .

وقد انتشرت هذه الظاهرة في بلاد الاسلام كلها على ما يبدو فيحدثنا ابن بطوطة في رحلته هو الآخر ، عندما زار الهند - في النصف الاول من القرن الثامن للهجرة - أن سلطانها أبو المجاهد محمد شاه الذي كان يستورد العلماء والفقهاء من البلاد الأخرى كخراسان والعراق والشام ومصر وبلاد المغرب ، ويوليهم الخطط الرفيعة ، كالقضاء والوعظ والقصص وغيرها وكان يفضلهم على أقرانهم من أهل البلد لعلمهم الوفير في أمور الدين والشرع ، كما كان يؤثرهم بعطائه واحسانه ، وأمر أن يسموا « الأعزة » بدلا من الغرباء حتى لا تتأثر مكانتهم الأدبية لدى العامة .

كذلك كان السلطان محمد شديد الرغبة في الاستفادة من علمهم وسماعهم وحضور مجالس قصصهم ووعظهم ، فلما أراد سماع أحدهم ، وكان يدعى ناصر الدين ، خلع عليه كسوة عظيمة ومنحه عطاء سخيا ، ثم أمر أن يقام له « السراجة » أي ما يشبه الخيمة الكبيرة ، ونصب للفقيه الواعظ فيها منبر صنع من خشب الصندل الابيض المقاصري وكسيت بعض أجزائه بصفائح من الذهب ثبتت بمسامير من نفس المعدن الثمين ، وألصق باعلاه حجر من الياقوت ، تقديرا من السلطان للعالم الواعظ ، واتخذ السلطان لنفسه سريرا في مواجهة المنبر ، وأحاط به خواصه وحاشيته ، كما حضر المجلس كبار رجال الدولة والعلماء والفقهاء ، ودعي الى هذا المجلس أيضا ابن بطوطة الذي استمع الى خطبة ناصر الدين

(١٥٠) ابن الاخوة - معالم القربة في أحكام الحسبة - ص ٣٢٩ .

ووعظه . فلما فرغ القاص من مهمته نزل عن المنبر ، فقام اليه السلطان وعانقه وأركبه قبلا ، وأمر جميع الحضور بالسير في ركابه ، الذين كان من بينهم الرحالة المغربي ، فساروا جميعا الى سراجة أخرى لتناول الطعام [١٥١] . هكذا كانت مكانة العلماء والفقهاء كبيرة سامية لدى سلاطين الهند ، كما كانت في بلاد العالم الاسلامي المختلفة ، كما كان استعمال المنبر من العلامات المميزة التي تدل على ماوصلت اليه مكانة القاص المرموقة ، وما بلغته شهرته من ذيوع وانتشار حصل عليهما بعد رسوخ قدمه وعلو كعبه في كل ما يحتاج اليه القصص من علم وفن وفضل .

القصص السياسي :

كان لأحداث الفتنة الكبرى التي بدأت في أواخر خلافة عثمان بن عفان ، آثار بعيدة وعميقة في تاريخ الاسـلام والمسلمين ، وفي مختلف الميادين السياسية ، والدينية والفكرية ، وغيرها ، والتي كان القصص من بينها أيضا .

ففي تلك الظروف السياسية المضطربة ، ووسط ذلك الصراع الرهيب على السلطة الذي قام بين الخليفة الشرعي علي بن أبي طالب وبين منافسيه ، لا سيما والي الشام ، معاوية بن أبي سفيان ، كان لابد للقصص الديني - كغيره من الفنون - أن يساير تلك الأجواء الملتهبة التي كانت تمر بها الدولة الاسلامية ، فتفرع عنه مسار جديد يتمشى مع الظروف السياسية المستجدة ، ويساير رغبات المتنافسين ، ويخدم أهدافهم أيضا .

ذكر المقريزي نقلا عن عبدالله بن مغفل قال : أمنا علي - رضي الله عنه - في المغرب ، فلما رفع رأسه من الركعة الثالثة ذكر معاوية أولا ، وعمرو بن العاص ثانيا ، وأبا الأعور ، يعني السلمي ثالثا ، وكان أبو موسى الرابع .

وفي رواية أخرى ذكرها المقريزي أيضا نقلا عن ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبي حبيب ، أن عليا - رضي الله عنه - قنت فدعا على قوم من أهل حربه ، فبلغ ذلك معاوية ، فأمر رجلا يقص بعد الصبح وبعد المغرب ، يدعو له ولأهل الشام ، فقال يزيد : كان ذلك أول القصص [١٥٢] . أما ابن الأثير ، فقد ذكر أن عليا كان اذا صلى الغداة قنت يدعو على خصومه من مؤيدي معاوية ، فلما بلغ ذلك معاوية فعل هو الآخر الشيء ذاته [١٥٣] . ويوضح القنوت في الصلاة والدعاء واللجوء الى الله سبحانه وتعالى فكرة الاحتساب في الأعمال الصالحات ، وعند المكروهات

---

(١٥١) رحلة ابن بطوطة - ج ٢ ص ٤١ ، ص ٤٣ .

(١٥٢) خطط المقريزي ج ٢ ص ٢٥٣ ، أنظر كذلك - كتاب الانتصار لابن دقماق - ص ٧٢ .

(١٥٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير - ج ٣ ص ٣٣٣ .
والمعروف أن النبي (صلعم) كان أول من قنت في الصلاة ، يدعو على أهل الشرك . فتحدث النصوص أنه (صلعم) أمد أربعين شابا من الأنصار ، ويروى أنهم كانوا أربعين فقط ، من توافروا على العبادة والنسك ، وعرفوا باسم « القراء » وقد بعثهم الرسول (صلعم) الى بعض القبائل العربية في نجد لدعوتها الى الاسلام ، فلقيهم المشركون عند بئر معونة - وهو ماء لسليم - فقتلوهم جميعا فيما عدا اثنان منهم تمكنا من العودة الى المدينة وأبلغا الرسول الله (صلعم) فحزن حزنا شديدا ، ويروى ←

أيضا ، أن يحتسب الانسان أجره على الله بالتسليم والصبر .

فاذا أخذنا بتلك النصوص ، وجدنا أنها تبين نشأة ما يمكن أن نسميه بـ « القصص السياسي » الذي أخذ طريقه الى الأمصار المختلفة ، عندما قنت معاوية ، كما فعل علي بن أبي طالب من قبل ، ودعا على خصومه السياسيين ، ولم يكتف والي الشام بذلك ، بل أمر أحد القصاص أيضا أن يتخذ له مجلسا بالمسجد الجامع بدمشق مرتين كل يوم ، مرة في الصباح ، والأخرى بعد صلاة المغرب ، يقص خلالها على الناس ما يزيد به موقفه من الخليفة الشرعي للمسلمين ، ثم يدعو له ولأهل الشام بالنصر والتأييد ، كما يدعو على خصومه بعكس ذلك .

هكذا أصبح القصص من الاعمال الرسمية التي يتولاها رجال متخصصون يأخذون عليه رزقا وأجرا ، وبعد أن آلت الخلافة الى معاوية ، زاد اهتمامه بهذا اللون من القصص ، فكان يحث العمال في البلاد المختلفة على ضرورة اتباع هذه السياسة والالتزام بها في مناطق عملهم ، فتحدثنا النصوص أنه أوصى المغيرة بن شعبة عندما استعمله على الكوفة سنة ٤١هـ ، قائلا له : لا تترك شتم علي وذمه ، والترحم على عثمان والاستغفار له ، والعيب لأصحاب علي ، والاقصاء لهم ، والاطراء بشيعة عثمان والادناء لهم (١٥٤) .

وقد ظل القصاص في مجالسهم ، والخطباء على منابرهم يطبقون تعاليم معاوية التي اصبحت ناموسا متبعا لدى من جاء بعده من الخلفاء فكلما رغب احدهم في مهاجمة خصومه قنت في صلاته ودعا عليهم وأمر القصاص بذلك ايضا . ومما يروى في ذلك ان عبدالملك بن مروان شكا الى العلماء ما انتشر عليه من امور الرعية وتخوفه من كل وجه عندما كثر الخارجون عليه والثائرون على دولته فأشار عليه قاضيه ابو حبيب الحمصي بأن يستنصر عليهم برفع يديه الى الله تعالى فكان يفعل ذلك وكتب الى القصاص في الامصار أن يفعلوه فكانوا يدورهم خلال مجالس قصصهم وفي صلاتهم بالغداة والعشي يرفعون ايديهم اثناء الدعاء على خصوم الخليفة (١٥٥) .

ظلت الامور تسير على هذا المنهج حتى ولي

انه كان يقنت في صلاة الصبح والمغرب ويدعو على القاتلين وكان يقول في دعائه : اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم عليك ببني لحيان ، ورعب ، ورعل ، وذكوان ، وعصية ، فانهم عصوا الله ورسوله ، اللهم عليك ببني لحيان ، وعضل ، والقارة . كما دعا لبعض الصحابة والمستضعفين والقبائل التي أزرته ووقفت بجانبه وكان يقول : اللهم أنج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبي ربيعة ، والمستضعفين من المؤمنين ، غفار ، غفر الله لها ، وأسلم ، سالمها الله . ويقال انه فعل ذلك خمسة عشر يوما ، وفي رواية شهر أو اربعين يوما حتى نزل قول الله تعالى : « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم ، فانهم ظالمون » (آل عمران / ١٢٨) .

أنظر عن قنوت النبي (صلعم) كتاب المغازي الواقدي ج ١ ص ٣٤٧ - ٣٥٠ ، أسباب النزول الواحدي ص ٨٠ - ٨١ ، صحيح البخاري ج ١ ص ١١٤ ، صحيح مسلم ج ٥ ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(١٥٤) تاريخ ابن الاثير ج ٣ ص ٤٧٢ . انظر كذلك ما ذكر عن موقف معاوية بن عبدالرحمن بن حسان - أحد رجالات ربيعة - عندما سأله عن علي فامتدح سيرته ورفض تهديد الخليفة الذي أمر زياد بن أبيه ، عامله بالعراق ان يقتله شر قتلة فقيل أنه دفنه حيا بقس الناطف ص ٤٨٦ .

(١٥٥) خطط المقريزي ج ٢ ص ٢٥٤ ، كتاب الاعتبار لابن منقذ ص ٧٢ .

الخلافة عمر بن عبدالعزيز (٩٩ - ١٠١هـ) الذي اشتهر بشدة التقوى وقوة الايمان حتى ملك عليه حسه من خشية الله وحساب الآخرة كل ما عداه من احاسيس وكان يقول : ايها الناس انكم ميتون ثم انكم مبعوثون ثم انكم محاسبون فلعمري لئن كنتم صادقين لقد قصرتم ولئن كنتم كاذبين لقد هلكتم [١٥٦] كما اثر عنه ايضا قوله : تهلك العامة بفعل الخاصة ولا تهلك الخاصة بفعل العامة ، والخاصة هم الولاة [١٥٧] .

لذلك كله كان لابد لهذا الخليفة - الراشد الخامس - أن يضع نهاية لذلك التقليد غير المحمود ، فبدأ بنفسه ، وترك الطعن في العلويين ، بل وفي الناس جميعا في خطبه ومواعظه ، وكتب الى عماله بتركه ايضا ، كما أمر في نفس الوقت أن يستبدل بعبارات الطعن ، قول الله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون » [١٥٨] فاستحسن الناس هذا الفعل منه ، وأكثروا من مدحه .

ومما تجدر الاشارة اليه أن هذا النص القرآني مازال الى اليوم وسيبقى الى ما شاء الله من أهم مستلزمات خطبة الجمعة في مساجد الاسلام في معظم البلاد ، لما تضمنه من المعاني السامية ، والدعوة الى الالتزام بتعاليم الدين كالحض على صلة الرحم ، وعمل الخير ، والنهي عن المحرمات والبعد عنها ، وعدم ظلم الناس ، وكلها من فضائل وأصول ديننا الحنيف .

ويبدو أن الأمر سار على هذا النحو في خلافة هذا الامام الزاهد ، فلما جاء خلفاؤه أعادوا الأمر الى سيرته الأولى كما هو الشأن في كل أمور الدولة الأخرى ، فلما انتقلت الخلافة الى البيت العباسي لم يغيروا شيئا ، ولكنهم حولوا الطعن الى الأمويين بصورة عامة دون استثناء ، وتشير النصوص الى أن المعتضد بالله أمر في سنة ٢٨٤هـ بانشاء كتاب يقرأ على الناس يبين فيه مثالب الأمويين - وأنه أخرج من خزانة التصير كتابا يرجع الى عصر الخليفة المأمون لكي يعمل له الكتاب والوزراء الكتاب الجديد على نسقه ، وقد وضعه له وزيره عبيدالله بن سليمان بن وهب ، وقد أشار فيه الى مآثر رسول الله (صلعم) وآل البيت ، والطالبين العباسيين ، بينما هاجم فيه الأمويين وطعن في خلافتهم ، الا أن هذا الكتاب لم يقرأ على الناس في المساجد لأن القاضي يوسف بن يعقوب خوف المعتضد من اضطراب العامة وامكانية انحيازهم الى العلويين الذين كانوا دائمي الثورة والخروج على الحكم العباسي ، فقال القاضي للخليفة محذرا : « اذا سمع الناس هذا كانوا اليهم أميل وكانوا هم أبسط ألسنة ، وأثبت حجة منهم اليوم » .

(١٥٦) الكامل للمبرد ج ١ ص ١٥٧

(١٥٧) سراج الملوك للطرطوشي - بهامش مقدمة ابن خلدون - ص ٩٤ .

(١٥٨) تاريخ ابن الاثير ج ٥ ص ٤٢ - ٤٣ ، النص القرآني من سورة النحل / ٩٠ .

وقد أقنعت هذه النصيحة المعتضد بالله العباسي ، وخشي ضياع الملك فأمسك عما كان ينتويه ، وبذلك لم يصل الى أسماع الرعية (١٥٩) .

لم يكن من المستغرب اذن أن يتخذ الفاطميون في مصر من القصص السياسي سبيلا لمنافسة العباسيين في العراق ، ويجدوا فيه أيضا ميدانا صالحا لنشر دعوتهم والترويج لها ، وفي نفس الوقت مناهضة الخلافة السنية في بغداد .

من كل ما سبق نلاحظ أن هذا اللون الجديد من القصص قد شق طريقه الى الحياة ، والظهور على مسرح الاحداث منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان ، فزاحم القصص الديني ، بل ربما أصبحا توأمين بعد أن تدخلت الدولة في تعيين القصاص والاشراف عليهم ومحاسبتهم ، ونلاحظ أنه في كثير من الأحيان كان يوكل القصص الى القضاة الذين وجد فيهم أولياء الأمر القدرة على النهوض بأعباء الاثنين معا : القصص والقضاء بين الناس ، مما يؤكد استمرار العلاقة بين القصصين : الديني والسياسي ، ويدل في نفس الوقت على اهمية هذا اللون الجديد من القصص . لذلك وجد بين الفقهاء والعلماء من قسم القصص الى نوعين :

الأول ، قالوا عنه هو قصص العامة ، والآخر أطلقوا عليه قصص الخاصة . فيقول الليث بن سعد ، إمام أهل مصر : ان قصص العامة هو الذي يجتمع اليه النفر من الناس يعظهم القاص ، ويذكرهم ، وذلك مكروه لمن فعله ، ولمن استمعه .

أما قصص الخاصة فهو الذي استحدثه معاوية ، ولى رجلا على القصص فاذا سلم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عز وجل ، وحمده ومجده وصلى على النبي (صلعم) ، ودعا للخليفة ولأهل ولايته وحشمه وجنوده ، ودعا على أهل حربه ، وعلى المشركين كافة (١٦٠)

قد يفهم من هذا القول أن قصص العامة الذي قال عنه الامام الليث أنه مكروه لمن فعله ولمن سمعه ، انه ذلك اللون من القصص الذي امتزجت فيه الاسطورة والخيال ، بالحقيقة والتاريخ ، فبعد عن المعنى الأصلي اللغوي لمفهوم كلمة « قصص » هذا من جانب ، ثم لاستغلال القصاص لبساطة العامة وسذاجة الجماهير ، والكذب عليهم وخداعهم لابتزاز أموالهم من جانب أخر ، ومما يروى في هذا الشأن أن بشارا بن برد ، الشاعر المشهور ، مر بقاص بالبصرة فسمعه يقول في قصصه لمن حضر مجلسه : من صام رجبا وشعبان ورمضان ، بنى الله له قصرا في الجنة ، صحنه ألف فرسخ في مثلها ، وعلوه ألف فرسخ ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصره عشرة فراسخ في مثلها . فالتفت الشاعر الضرير الى قائده وقال

(١٥٩) تاريخ الطبري ج ١٠ ص ٥٤ - ٦٣ ، تاريخ الخلفاء السيوطي ص ٣٦١ ، المختصر في تاريخ البشر لابي الفداء ج ٢ ص ٤٧ - ٥٨ .

(١٦٠) خطط المقريزي - ج ٢ ص ٢٥٣ انظر كذلك : ضحى الاسلام للاستاذ احمد امين ص ١٥٩ .

ساخرا متهكما على سذاجة السامعين وجهل وكذب القاص : يشت والله الدار هذه في كانون الثاني (١٦١).

لذلك كان من عمل المحتسب منع مثل هذه النوعيات من القصاص والوعاظ الذين مزجوا بكلامهم الأكاذيب والبدع التي تدل على ضحالة علمهم واستغلال الناس وابتزاز أموالهم . وقد أشار الى ذلك ابن الأخوة فقال : ومن المكروهات كلام القصاص والوعاظ الذين يمزجون بكلامهم البدع في القصص . فالقاص ان كان يكذب في أخباره فهو فسق ، والانكار واجب عليه . وكذا الواعظ المبتدع يجب منعه . فلا يجوز حضور مجلسه الا على قصد اظهار الرد عليه . فان لم يقدر ، فلا يجوز سماع البدعة . ثم يستشهد على ذلك بقول الله جل شأنه : « فاعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره » (١٦٢).

أما النوع الآخر ، وهو قصص العامة ، فعلى الرغم من امتزاجه بالأمور السياسية ، وظهور التملق لصاحب السلطان في ثناياه ، بالحث على تأييده ومناصرته ، والدعاء على خصومه ، الا انه ظل مصبوغا بالصبغة الدينية التي كانت تشكل الجانب المضيء فيه . فلقي قدرا غير قليل من اهتمام الناس ، فأقبلوا عليه ، وحرصوا على مجالسه لأنه لم يخل من الفائدة . لذلك رأينا اسناده الى القضاة أحيانا ، كما انصرف في أحيان أخرى الى أئمة المساجد الذين كانوا يختارون بعناية من ولي الامر ، ممن كان يتوافر فيهم معرفة أمور الدين وأحكام الشرع . يقول ابن عبدالحكم : عندما استبدل الخليفة المنصور عقبة بن مسلم الذي كان يؤم المسلمين في مسجد عمرو بالفسطاط بالقاص عبدالله بن عياش ، تأثر عقبة فقال : ومالي اعزل ! والله ما انا بصاحب خراج ، ولا حرب وانما انا قاص أصلي بالناس فان كنت أطول فأمروا أن أقصر قصرت ، وان كنت اقصر فأمروا أن اطول طولت (١٦٣).

كذلك حدثنا المقريزي انه عندما تولى ابو بكر محمد بن الحسن السوسي الصلاة والقصص في مصر في شعبان سنة ٤٠٣هـ نصب المصحف الذي يقرأ فيه بالمسجد العتيق بالفسطاط في مؤخرة الجامع حيال الفوارة واصبح ذلك كما قال اشهر من كتب في خطط مصر سنة متبعة لدى القصاص حتى زمانه (١٦٤).

---

(١٦١) الاغاني لابي الفرج الاصفهاني - ج ٣ ص ١٦٠ (طبعة القاهرة) والمعروف ان كانون الثاني هو من الشهور السريانية الشمسية التي تقع في فصل الشتاء وهو يوافق شهر يناير.

(١٦٢) ابن الاخوة - معالم القربة في احكام الحسبة - ص ٢٧٣ .

(١٦٣) فتوح مصر واخبارها لابن عبدالحكم - ص ٢٤٢ .

(١٦٤) خطط المقريزي - ج ٢ ص ٢٥٤ ، ابن دقماق الانتصار ص ٧٢ ، أنظر كذلك ، ما ذكره د . وديعة طه النجم في كتاب ، القصص والقصاص في الادب الاسلامي ص ٤٢ - حيث نقلت عن الابشيهي ان قصص العامة هو ما يقوم به القصاص الذين يستأكلون اموال الناس بالكلام بقصص العامة يعني حديث القاص الذي يطلب اليه ان يجلس الى الناس .

يتضح من النصين السابقين اهمية القاص وما كان يحظى به من رضا ولي الامر طالما كان متجاوبا مع سياسة الدولة منفذا لأوامرها مهتما باظهار شرعية الحكم وأحقية البيت القائم بالخلافة . ومما يؤكد ذلك كله ويثبته خضوع القاص حتى في الامصار البعيدة عن مركز الدولة لسلطة الخليفة مباشرة فكان للخلفاء دون غيرهم الحق في اختيارهم وتوليتهم وعزلهم . كما أوكلوا الى المحتسب مراقبته لان الخلافة كانت تجد - على ما يبدو - في هؤلاء القصاص اكثر من اي من عمال الدولة الآخرين القدرة على توجيه الناس ودفعهم للسير في الاتجاه الذي يتناسب مع مصالحها ويرضي أغراضها لذلك كان بعضهم يعمر في عمله فترات طويلة دون حاجة لاستبداله، ومما يروى في هذا الشأن ان سليمان بن عتر التجيبي الذي ادرك عمر بن الخطاب قد انتقل من الشام الى مصر بعد فتحها واشتهر فيها بالعبادة والنسك ، كما كان أول من قص بها سنة ٣٨هـ ، فلما انتقلت الخلافة الى معاوية جمع له القضاء والقصص مدة عامين ، ثم رأى الخليفة ان ينحيه عن القضاء لكي يتفرغ للقصص ، فاتخذ لنفسه مجلسا في مسجد عمرو بالفسطاط وظل يمارس هذا العمل ما يقرب من سبعة وثلاثين عاما .

ومما يؤثر عنه أنه كان يقص على الناس وهو قائم وذلك قبل ان يتخذ الكرسي او المنبر كما أوضحنا فيما سبق ، في حين كان هذا القاص في ذلك الوقت المبكر اذا دعا رفع يديه [١٦٥] .

فاذا عدنا الى مطلع هذا البحث رأينا القاضي عبدالرحمن بن حجيرة الذي جمع له والي مصر في خلافة عبدالملك بن مروان القضاء والقصص والاشراف على بيت المال . وقد رزقه امير البلاد عن كل عمل من هذه الاعمال الثلاثة مائتي دينار سنويا ، ثم شمله بعد ذلك باحسانه وكرمه ، فأوصل مرتبه الى الف دينار وهو دون شك دخل كبير بالنسبة للزمان الذي نتحدث عنه ، اذا علمنا ان المأمون العباسي في زمن لاحق - كما هو معروف - رزق ابا رجب العلاء بن عاصم الخولاني عندما ولاه القصص في مصر سنة ١٨٢هـ عشرة دنانير شهريا فقط وهذا بدوره يعتبر كبيرا بالنسبة لاول مرتب حصل عليه عامل من دولة الاسلام فعندما استعمل النبي (صلعم) عتاب بن أسيد على مكة بعد فتحها في السنة الثامنة للهجرة ، منحه درهما واحد في كل يوم أي ما يعادل دينارين اثنين شهريا فكان هذا الدرهم في ذلك الزمان كافيا لاستيفاء متطلبات المعيشة لوالي

(١٦٥) خطط المقريزي ج ٢ ص ٢٥٤ قد ذكره باسم سليمان على عكس المصادر الاخرى انظر . ابن عبدالحكم - فتوح مصر ص ٢٣١ - ٢٣٢ ، حسن المحاضرة السيوطي ج ٢ ص ١٣٦ ، د . جمعة طه النجم - القصص والقصاص - ص ٣٥

مكة فجمع عتاب قريشا في رحاب البيت العتيق وخطبهم معتزا بما أولاه به الرسول (صلعم) من فضل ورزق جعله غنيا عن سؤال الآخرين فقال : ايها الناس اجاع الله كبد من جاع على درهم فقد رزقني رسول الله (صلعم) درهما كل يوم ، فليست بي حاجة الى احد [١٦٦] .

قد يظن بعض الناس ان قصاص هذا الفن « القصص السياسي » قد خرجوا بمجالسهم عن نطاق المساجد لكن العكس هو الصحيح فقد ظل المشتغلون بالقصص السياسي يعقدون مجالسهم بالمساجد والجامعة منها كلما توافر وجودها لا سيما في صدر الاسلام .

ومع مرور الوقت وتقدم الزمن وانتشار هذا اللون وكثرة المشتغلين به وبالتالي زيادة المقبلين على مجالسهم غلبت الصنعة على القصاص ، كما انضم اليهم فريق القراء الذين كانوا يقرأون بتطريب والحان ، فزاد تأثير ذلك كله في النفوس ، فاذا ما استبد الوجد ببعض الناس فقدوا السيطرة على مشاعرهم وأتوا بحركات هستيريه وقد تكون بعيدة عن المألوف ولا تتناسب مع قدسية بيوت الله ، لذلك رأى بعض القصاص والمبرزين منهم الخروج الى الساحات الواسعة والاماكن الفسيحة كما كان يفعل ابن الجوزي ؛ لذلك ولأسباب أخرى عديدة أشرنا اليها في الصفحات السابقة كالرغبة في التكسب والكذب والجهل بأمور الدين وأحكام الشرع ، نادى بعض الفقهاء ببطلان هذا اللون من القصص وقالوا انه لم يكن معروفا زمن الرسول (صلعم) ولا ابي بكر ولا عمر وأشاروا الى ان نشأته كانت مع أحداث الفتنة - كما أوضحنا ايضا - ومن بين هؤلاء الامام الغزالي الذي اطلق على المشتغلين بهذا القصص السياسي اسم « المزخرفون » وبين الاسباب وقال بانحرافهم عن طريق الذكر المحمود فأصبح يشوب قصصهم ووعظهم الاختلاف والزيادة والنقص فاختلط فيه الصدق بالكذب ، والنافع بالضار [١٦٧] . ولذلك دعا ابن الجوزي القصاص الى عدم الخوض في أحداث الفتنة ، لما أدت اليه من انقسام في المسلمين ، وتفريق لكلمتهم ، ولم يكتف الفقيه القاص المؤرخ بذلك ، فأوجب عليهم الترحم على الصحابة والاشادة بفضلهم [١٦٨] ، وقد التزم هو بهذه الشروط كما يتضح من وصف ابن جبير .

ورغم كل ما قيل في القصص السياسي وما أخذ عليه فانه بقي متأثرا الى حد بعيد بالقصص الديني ممزوجا به - كما ذكرنا - ولارتباط السياسة بالملك أيضا ، فاذا كانت غاية الملك تنفيذ أحكام الله في

(١٦٦) أنظر على التوالي ، الكندي - كتاب الولاة وكتاب القضاة - ص ٣١٧ ، خطط المقريزي - ج ٢ ص ٢٥٤ ، حسن المحاضرة للسيوطي - ج ٢ ص ١٣٧ ، سيرة ابن هشام - ج ٤ ص ١٤٣ .

(١٦٧) احياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي - ج ٦ ص ٥٧ - ٥٩ .

(١٦٨) ابن الجوزي - كتاب القصاص والمذكرين ص ١٤٣ - ١٤٤ .

خلقه وعباده بكل ما فيها من خير ، ومراعاة لمصالح المسلمين ، فان السياسة هي الوسيلة والأداة لتطبيق هذه القوانين والأحكام .

وقد أشار المفكر والفيلسوف العربي المعروف ، ابن خلدون الى ذلك فقال : ان السياسة هي الخلال الحميدة للملك ، المتممة له ، ووجوده دون متمماته كالشخص المقطوع الأعضاء ، أو الذي يظهر عريانا بين الناس [١٦٩] . لذلك كان الحاكم دائما في حاجة الى هذا اللون من القصص السياسي لتظل صورته واضحة في عيون الناس بعيدة عن ظلال الشبهة وسوء الظن .

***

(١٦٩) مقدمة ابن خلدون - ص ٨٦

مطالعات

مبادئ التعلم في القرآن الكريم

محمد عثمان نجاتي
استاذ علم النفس بجامعة الكويت

نزل القرآن الكريم أساسا من أجل هداية الانسان وتوجيهه وتعليمه . ولذلك ، كان من الطبيعي ان يتضمن القرآن الكريم كثيرا من المعلومات عن الانسان . ففي القرآن الكريم معلومات في خلق الانسان وطبيعة تكوينه من مادة وروح ، وما ينشأ عن ذلك من صراع نفسي ، وعن الدوافع المختلفة الفسيولوجية والنفسية التي توجه سلوكه ، وعن الانفعالات المختلفة التي يشعر بها والتي تؤثر في حياته ، وعن وسائل اكتساب الانسان للمعرفة سواء عن طريق الادراك الحسي او العقل او عن طريق الالهام والرؤيا الصادقة . وفي القرآن الكريم ايضا معلومات عن نمو الانسان ومراحله ، وعن التعلم ومبادئه ، وعن الشخصية وانماطها وصفاتها المختلفة ، وعن تقويم الانسان وعلاجه النفسي وغير ذلك من المعلومات عن الحياة النفسية للانسان . ولن نستطيع في هذا المقال المحدد أن نتناول جميع ما جاء في القرآن الكريم من معلومات عن الحياة النفسية للانسان ، فهذا أمر يتجاوز كثيرا العدد المحدد لنا من صفحات في هذا المقال . ولذلك فسوف نكتفي في هذا المقال بتناول مبادىء التعلم التي وردت في القرآن الكريم . أما المعلومات الأخرى التي وردت في القرآن الكريم عن الحياة النفسية للانسان فقد تناولها الباحث في شيء من التفصيل في مكان آخر [١] .

---

(١) محمد عثمان نجاتي ، القرآن وعلم النفس . بيروت ، دار الشروق (تحت الطبع) ويعتبر هذا المقال عن مبادىء التعلم في القرآن الكريم مقتبس من هذا الكتاب المشار اليه .

ونحن اذا درسنا المنهج الذي اتبعه القرآن الكريم في دعوته لعقيدة التوحيد ، وفي تربيته للمؤمنين ، وغرس المبادىء والقيم الاسلامية في نفوسهم ، لاستطعنا ان نستخلص من هذا المنهج بعض المبادىء العامة لعملية التعلم التي استخدمها القرآن الكريم في تغييره لسلوك المؤمنين ، وفي تعليمهم العقائد والقيم الاسلامية .

وسنرى ان هذه المبادىء التي استخدمها القرآن الكريم في التربية الروحية للمؤمنين لم يكتشف علماء النفس عن أهميتها في التعلم الا أخيرا في اوائل القرن العشرين . وسنحاول فيما يلي أن نستعرض مبادىء التعلم في القرآن الكريم .

الدافع :

للدافع أهمية كبيرة في التعلم . فاذا توفر الدافع القوي للحصول على هدف معين توفرت الظروف المناسبة لكي يقوم الانسان ببذل الجهد الضروري لتعلم الطرق الصحيحة للوصول الى هذا الهدف . واذا جابه الانسان مشكلة وشعر بحاجة الى حل هذه المشكلة ، فانه يقوم في العادة بكثير من المحاولات لحل هذه المشكلة ، حتى ينتهي به الامر الى تعلم الحل الصحيح هذه المشكلة . وقد بينت كثير من الدراسات التجريبية التي أجريت حديثا على الحيوان والانسان اهمية الدافع في حدوث التعلم . وقد استخدم القرآن الكريم في تربيته الروحية للمسلمين اساليب مختلفة في إثارة دوافعهم الى التعلم . فاستخدم الترغيب والترهيب ، واستخدم القصص للتشويق ، كما استعان بالاحداث الجارية الهامة التي تثير دوافع الناس وانفعالاتهم ، وتجعلهم مهيئين لتعلم العبرة من هذه الاحداث .

أ - اثارة الدوافع بالترغيب والترهيب

حينما يكون لدى الانسان دافع قوي للحصول على هدف ما ، فان الحصول على هذا الهدف الذي يشبع دافعه يعتبر ثوابا اومكافأة تسبب له الشعور باللذة او السرور والرضا . والفشل في الحصول على هذا الهدف يعتبر نوعا من العقاب الذي يسبب له الشعور بالألم ، او الضيق والكدر . والانسان - وكذلك الحيوان - يميل بطبيعته الى ما يسبب له اللذة ، ويتجنب ما يسبب له الألم . ولذلك كان الانسان ميالا بطبيعته الى تعلم الاستجابات او الأفعال التي تؤدي الى الحصول على الثواب . والى تجنب الاستجابات أو الافعال التي تؤدي الى الفشل او العقاب . وقد اثبتت التجارب الكثيرة التي أجراها علماء النفس المحدثون هذه الحقيقة .

وقد اهتم القرآن الكريم في دعوته الى الايمان بعقيدة التوحيد باثارة دوافع الناس بترغيبهم في الثواب الذي سيحظى به المؤمنون في نعيم الجنة ، وبترهيبهم من العقاب او العذاب الذي سيلحق بالكافرين في نار جهنم . وآيات الترغيب التي تصف نعيم الجنة تبعث في المسلمين الامل في الحصول على هذا النعيم ، وتدفعهم الى التمسك بالتقوى والاخلاص في اداء العبادات والعمل الصالح ، والجهاد في سبيل الله ، وعمل ما يرضي الله

ورسوله ، آملين ان يكونوا من اهل الجنة . والآيات التي تصف عذاب جهنم تبعث فيهم الرهبة من هذا العذاب الاليم الذي ينتظر الكافرين والمنافقين والعاصين لأوامر الله تعالى ، ويدفعهم ذلك الى الابتعاد عن ارتكاب الذنوب والمعاصي وكل ما يغضب الله ورسوله ، آملين أن ينجيهم الله من عذاب جهنم . وهكذا كان المسلمون متأثرين بدافعين قويين ، أحدهما ، وهو دافع الرجاء في الثواب ، يدفعهم الى القيام بالعبادات والتكاليف وكل ما يأمرهم به الشرع . والآخر ، وهو دافع الخوف من العقاب ، يدفعهم الى تجنب القيام بالذنوب والمعاصي وكل ما ينهاهم عنه الشرع . وشعور الانسان بهذين الدافعين القويين المتكاملين والمتفقين في الهدف يجعلانه في حالة استعداد تام وتهيؤ كامل للطاعة التامة لله والرسول ، ولتلبية كل ما يطلب منه من واجبات ومسئوليات ، ولتعلم كل ما يوجهه اليه الاسلام من نظام جديد للحياة ، وطريقة جديدة في التفكير والسلوك ، ولتجنب كل ما ينهى عنه الله سبحانه وتعالى ورسوله صلوات الله وسلامه عليه .

ويلاحظ ان القرآن الكريم لا يعتمد فقط في اثارة الدافع لقبول الاسلام على تخويف الناس وترهيبهم من العذاب الأليم في نار جهنم ، وانما يعتمد ايضا في نفس الوقت على ترغيبهم في الاستمتاع بنعيم الجنة . وذلك لان استخدام الترهيب وحده ، او الترغيب وحده قد لا يكون مفيدا الفائدة المرجوة في تعديل السلوك وتوجيهه ، فاستخدام الترهيب وحده قد يؤدي الى طغيان الرهبة على النفس فتيأس من رحمة الله ، واستخدام الترغيب وحده قد يؤدي الى استيلاء الامل في رحمة الله على النفس بما قد يوكلها الى الدعة والتهاون والغفلة فتتمنى على الله ما ليس لها [2] . وفي هذا المعنى قال النبي صلوات الله عليه وسلامه : « ليس الايمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل . إن قوما ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحسن الظن بالله ، وكذبوا ، ولو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل له » [3] .

ولذلك ، فان القرآن الكريم لا يعتمد على الترهيب فقط ، او الترغيب فقط ، وانما يعتمد على مزيج منهما : الخوف من عذاب الله ، والرجاء في رحمته وثوابه . وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك في وصف اصفيائه من الانبياء وعباده الصالحين فقال عنهم :

« ... انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين » . [4]

« تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون » . [5]

---

(٢) محمد سعيد رمضان البوطي : منهج تربوي فريد في القرآن . مجلة الوعي الاسلامي (الكويت) السنة السابعة ، العدد ٨١ ، اكتوبر ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٣) عن البهي الخولي : آدم عليه السلام . الطبعة الثالثة . القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٩٧٤ . ص ١٨٥

(٤) الانبياء . ٩٠

(٥) السجدة . ١٦

وهذا المزيج من الخوف والرجاء كفيل باثارة الدافع القوي لدى المسلمين لتعلم ما جاء به الاسلام من نظام جديد في الحياة ، وما تضمنه ذلك من أساليب جديدة في التفكير والسلوك . ومن امثلة آيات الترغيب والترهيب التى تذكر النعيم الذي سيناله المؤمنون ، والعذاب الذي سيلحق بالكافرين في الحياة الاخرة :

« بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فاولئك اصحاب النار هم فيها خالدون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون » . (٦)

« وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة واجر عظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك اصحاب الجحيم » . (٧)

« فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا في آياتنا معاجزين اولئك اصحاب الجحيم » (٨)

« الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فاولئك لهم عذاب مهين » . (٩)

« ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون . فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون . واما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الاخرة فاولئك في العذاب محضرون » (١٠)

ولا تقتصر آيات الترغيب والترهيب في القرآن الكريم على ذكر النعيم الذي سيلقاه المؤمنون ، والعذاب الذي سيلحق بالكافرين في الحياة الآخرة فقط ، بل انه يذكر ايضا ما يناله المؤمنون من خير ، وما يلحق بالكافرين من ألم وعذاب في الحياة الدنيا ايضا . ومن أمثلة الآيات التي تذكر ما يناله المؤمنون من خير في الحياة الدنيا :

« وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا . ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين » . (١١)

---

(٦) البقرة : ٨١ ، ٨٢ .

(٧) المائدة : ٩ ـ ١٠ .

(٨) الحج : ٥٠ ، ٥١ .

(٩) الحج : ٥٦ ، ٥٧ .

(١٠) الروم : ١٥ ، ١٦ .

(١١) هود : ٥٢ .

« فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم باموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا » [١٢]

ومن أمثلة الآيات التي تذكر ما يصيب الكافرين من عذاب في الحياة الدنيا :

« .. ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة او تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله ان الله لا يخلف الميعاد » . [١٣]

« ولما جاء امرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا واخذت الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا في دارهم جاثمين » . [١٤]

ب - اثارة الدافع بالقصص :

والقصص من الوسائل الهامة التي استخدمها القرآن الكريم ايضا لاثارة الدافع للتعلم ، وذلك لما تثيره من التشويق لدى المستمعين ، ولما تستدعيه من الانتباه الى تتبع الأحداث التي تروى في القصة . وكان القرآن الكريم يبث في ثنايا القصص ما يريد أن يبلغه للناس من اغراض دينية متعلقة بالعقائد ، أو من عبر وحكم يريد أن يعلمها لهم .

« لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ... » [١٥]

وإن ما يمتاز به القصص القرآني من جمال فني يجعل ورود الأغراض الدينية الى النفس أيسر وتأثيرها في وجدانهم أعمق . [١٦]

ويلاحظ في بعض قصص القرآن الكريم انه يبدأ اولا بذكر ملخص القصة ، ثم يعرض بعد ذلك تفصيلات القصة من بدايتها الى نهايتها ، كما هو واضح مثلا في قصة « اصحاب الكهف » . وذكر ملخص القصة قبل سرد تفاصيلها انما يؤدي الى تشويق المستمعين واثارة انتباههم لتتبع تفاصيل القصة . [١٧]

ويلاحظ في بعض القصص الاخرى انها تبدأ اولا بذكر عاقبة القصة ومغزاها ، ثم تأتي بعد ذلك تفصيلات

---

(١٢) نوح : ١٠ - ١٢

(١٣) الرعد : ٣١

(١٤) هود : ٩٤

(١٥) يوسف : ١١١

(١٦) سيد قطب . التصوير الفني في القرآن . الطبعة الثالثة . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٥ ، ص ١٤٨

(١٧) المرجع السابق : ص ١٤٨ - ١٤٩

القصة ، كما هو ملاحظ في قصة موسى عليه السلام ، الواردة في سورة القصص . وذكر مغزى القصة اولا يؤدي ايضا الى اثارة تشويق المستمعين وانتباههم لتتبع وقائع القصة لمعرفة كيف تحققت هذه الغاية [١٨] .

جـ - الاستعانة بالاحداث الهامة :

ومن العوامل التي تساعد على اثارة الدوافع والانتباه وقوع بعض الاحداث او المشكلات الهامة التي تهز وجدان الناس وتثير اهتمامهم وتشغل بالهم . ويكون الناس عادة تحت تأثير هذه الاحداث الهامة التي تمر بهم في حالة تهيؤ واستعداد لتعلم العبرة المتضمنة في هذه الاحداث . وقد استعان القرآن الكريم بالاحداث الهامة التي كانت تمر بالمسلمين لتعليمهم بعض العبر المفيدة لهم في حياتهم . ومن الطبيعي ان يكون المسلمون في اوقات وقوع هذه الاحداث المثيرة لوجدانهم اكثر استعداداً ، واكثر قبولا لتعلم العبرة واستيعابها [١٩] . ومن امثلة ذلك ما حدث في غزوة حنين حين أعجب المسلمون بكثرتهم وقوتهم واطمأنوا الى انهم سينتصرون على الكفار ، ونسوا ان النصر بمشيئة الله وحده ، فأراد الله تعالى ان يعلم المسلمين ان الكثرة لا تؤدي بالضرورة الى النصر ، وانما ينصر الله من يشاء من عباده الذين يغمر الايمان والتقوى قلوبهم حتى ولو كانوا قلة . [٢٠]

« لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الارض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين ، ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين » [٢١]

التكرار :

ان تكرار عرض آراء وافكار معينة على الناس يؤدي عادة الى استقرار هذه الآراء والأفكار وتثبيتها في اذهان الناس . وقد بينت دراسات علماء النفس المحدثين اهمية التكرار في عملية التعلم . وقد فطنت المؤسسات التجارية والصناعية الى اهمية التكرار في تثبيت الفكرة في اذهان الناس ، فقاموا بانفاق الاموال الطائلة على الاعلانات التجارية التي تقوم بتكرار عرض افكار معينة على الناس بهدف التأثير في اتجاهاتهم لترويج سلعهم التجارية .

---

(١٨) المرجع السابق ، ص ١٤٩

(١٩) محمد شديد : منهج القرآن في التربية ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٩ ، ص ٢٧٧

(٢٠) عبدالفتاح جلال ، من الاصول التربوية في الاسلام ، من مطبوعات المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار في العالم العربي ، سرس الليان ، مصر ، ١٩٧٧ ، ص ١١٩

(٢١) التوبة : ٢٥ ، ٢٦

ونحن نجد في القرآن الكريم تكرارا لبعض الحقائق المتعلقة بالعقيدة والامور الغيبية التي يريد القرآن الكريم ان يثبتها في الاذهان ، كعقيدة التوحيد ، والايمان بالبعث ، ويوم القيامة ، والحساب ، والثواب والعقاب في الحياة الآخرة . ان كثيرا من آيات القرآن الكريم يكرر هذه المعاني لتثبيتها في الاذهان ، ومن امثلة تكرار عقيدة التوحيد ما جاء في سورة النمل ـ وهي سورة مكية ـ من تكرار عبارة « أإله مع الله » خمس مرات حتى تثبت هذه العقيدة في الاذهان .

« أمن خلق السماوات والارض وانزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله ، بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الارض قرارا ، وجعل خلالها انهارا ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزا ، أإله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون أمن . يجيب المضطر اذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الارض ، أإله مع الله ، قليلا ما تذكرون . أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ، أإله مع الله ، تعالى عما يشركون . أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والارض ، أإله مع الله ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » .(٢٢)

وتكررت الدعوة الى التوحيد وعبادة الله الواحد الأحد اربع مرات في سورة هود ، وهي مكية . فقد ذكر القرآن الكريم في هذه السورة ما قاله بعض الانبياء السابقين لاقوامهم حينما كانوا يدعونهم الى عقيدة التوحيد ، فذكر ما قاله نوح عليه السلام لقومه :

« ولقد ارسلنا نوحا الى قومه اني لكم نذير مبين ، أن لا تعبدوا الا الله .. » (٢٣) .

ثم ذكر القرآن الكريم ما قاله كل من هود وصالح وشعيب عليهم السلام الى اقوامهم بصيغة واحدة تكررت ثلاث مرات في السورة :

« والى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره .. » (٢٤)

« والى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره .. » (٢٥)

« والى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره .. » (٢٦)

---

(٢٢) النمل : ٦٠ ـ ٦٤

(٢٣) هود : ٢٥ ، ٢٦

(٢٤) هود : ٥٠

(٢٥) هود : ٦١

(٢٦) هود : ٨٤

كما تكررت عبارة « اعبدوا الله مالكم من إله غيره » مرتين في سورة « المؤمنون » وهي مكية ، وذلك في الآيتين رقم ٢٣ و ٣٢ .

ولقد جاء في القرآن الكريم ايضا تكرار لقصص الانبياء لكي تثبت في الاذهان حقيقة أن جميع الاديان من عند الله [٢٧] . فهو سبحانه وتعالى الذي أرسل جميع أنبيائه الى الناس في فترات التاريخ المختلفة لهدايتهم بدعوتهم الى التوحيد وعدم الشرك بالله ، ولكي يبين ايضا لكفار قريش المصير الذي لقيه من قبل من كذبوا الانبياء ، ويحذرهم من المصير الذي ينتظرهم اذا ماهم كذبوا النبي صلوات الله وسلامه عليه . فنجد ، مثلا ، في سورة القمر ، وهي مكية ، تكرارا لذكر العذاب الذي سيلقاه الكافرون ، ولانذار الله تعالى لهم بهذا العذاب ، وذلك بهدف اثارة انتباه كفار قريش وتذكيرهم بالمصير الذي لاقاه الذين كذبوا انبياءه من قبل ، وتحذيرهم من لقاء نفس هذا المصير اذا ما استمروا في تكذيبهم للنبي صلوات الله وسلامه عليه [٢٨] . فقد تكررت في هذه السورة الآية التالية ثلاث مرات :

« فكيف كان عذابي ونذر » . [٢٩]

كما تكررت الآية التالية اربع مرات في نفس السورة :

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » . [٣٠]

ويلاحظ ايضا في سورة المرسلات ، - وهي أيضا مكية - ان عبارة « ويل يومئذ للمكذبين » قد تكررت عشر مرات . وكانت هذه السورة تذكر كثيرا من النعم التي أنعم الله تعالى بها على الناس ، وكثيرا من النقم التي انزلها الله تعالى بهم ، فكانت هذه العبارة تأتي بعد كل نعمة يذكرهم الله بها ، وبعد كل نقمة يخوفهم منها ، وذلك ليثير انتباههم الى هذه النعم والنقم ليكون ذلك رادعا لهم عن التمادي في التكذيب ، وزاجرا لهم عن الاستمرار في الكفر . هذا فضلا عما في تكرار جملة واحدة عدة مرات خلال الكلام من تأثير خطابي أمر وهو مألوف للعرب معهود في خطبهم واشعارهم » . [٣١]

وفي القرآن الكريم أيضا آيات تتكلم عن البعث ، ويوم القيامة ، ويوم الحساب ، ونعيم الجنة وعذاب جهنم ،

---

(٢٧) سيد قطب ، مرجع سابق ، ص ١٠٩

(٢٨) انظر ايضا في هذا الموضوع : عبدالوهاب حمودة ، القرآن وعلم النفس ، القاهرة ، دار القلم ، ١٩٦٢ ، ص ٩٥ ، ٩٦

(٢٩) القمر : ١٦ ، ٢١ ، ٣٠

(٣٠) القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠

(٣١) عبدالوهاب حمودة ، مرجع سابق ، ص ٩٦ ، ٩٧

وخلق آدم وحواء ، وعداء إبليس لهما . ويهدف القرآن من تكراره لذكر هذه الامور الغيبية الى استقرار الايمان بها في النفوس ، والى تثبيت ما يبثه اثناء سرده لها من عقائد وعبر وعظات .

وليس تكرار القصص في القرآن الكريم تكرارا تاما ، وانما كان القرآن الكريم يذكر من القصة الاحداث التي تتفق مع سياق المعاني الواردة في السورة . واذا كرر القرآن حلقة من القصة فانه عادة ما يورد فيها شيئا جديدا لم يذكره من قبل ، ويحدث في الفاظها بعض التعديل ، وتقديم وتأخير مما تتطلبه العبرة المقصودة من ذكر القصة . فالقرآن الكريم لا يسرد قصص الانبياء باعتبارها تاريخا يراعي فيه الترتيب الزمني للوقائع ، وانما هو يذكرها لما في احداثها من عبر وعظات . ولذلك فهو يذكر من وقائع القصة ما يناسب العبرة التي يريد أن يبثها في الناس . (٣٢)

ولا شك أيضا في أن عرض بعض الأحداث او الافكار في صور أو صيغ مختلفة انما يؤدي الى اثارة الانتباه ، ويمنع من حدوث الملل الذي يمكن ان ينتاب الانسان اذا ما عرضنا عليه فكرة معينة عدة مرات في صورة واحدة لا تتغير . وقد بينت دراسات علماء النفس المحدثين والمتخصصين في الدعاية والاعلان اهمية تغيير الصيغة التي يعبر بها عن فكرة معينة لتجنيب الملل ، ولاثارة الانتباه وهو أمر يراعيه الان القائمون بالاعلان التجاري ..

الانتباه

ان الانتباه عامل هام في التعلم . فاذا لم ينتبه الانسان مثلا ، الى محاضرة ما ، فانه لا يستطيع ان يدرك ما تضمنته من معلومات ، وهو بالتالي لا يستطيع ان يتعلمها وان يتذكرها فيما بعد . ولذلك فان المعلمين والمربين يحرصون دائما على اثارة انتباه تلاميذهم حتى يمكنهم استيعاب الدروس وفهمها وتعلمها . ولقد كان استخدام القرآن الكريم للقصص ، كما أشرنا الى ذلك سابقا ، عاملا هاما في اثارة الانتباه الى ما تتضمنه من مواعظ وعبر ودعوة الى التوحيد . وقد نوه القرآن الكريم باهمية الانتباه في استيعاب المعلومات وذلك في قوله :

« ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او ألقى السمع وهو شهيد » [٣٣] .

وقد جاءت هذه الآية بعد آية أخرى ذكر الله تعالى فيها أنه اهلك قبل قريش أمما كثيرة من الكفار كانوا أشد منهم بطشا . ويشير الله تعالى في هذه الآية الى ان في ذلك عظة لكل من له عقل ، او استمع الى هذا الكلام وفهمه وهو حاضر الذهن مركز الانتباه .

ويشير القرآن الكريم ايضا الى اهمية الانتباه حينما ذكر في سورة المزمل ان القيام بعد النوم يجعل الانسان

---

(٣٢) عبدالوهاب حمودة - مرجع سابق ، ص ١٠٣ - ١٠٥

(٣٣) ق : ٣٧

اكثر انتباها لمعاني القرآن واكثر تفهما . ولعل ذلك راجع الى راحة الذهن بعد النوم من جهة ، والى الهدوء الذي يسببه الليل وعدم الانشغال بالامور المعيشية التي تشغل بال الانسان عادة اثناء النهار ، من جهة اخرى . يقول القرآن الكريم :

« ان ناشئة الليل هي أشد وطئا واقوم قيلا » . [٣٤]

واشار القرآن الكريم ايضا الى اهمية الانتباه في الفهم والتعلم بقوله :

« واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون » . [٣٥]

فالاستماع الى القرآن الكريم والانصات اليه يتضمن معنى الانتباه الى ما يقرأ من آياته لتدبر معناها وفهمها ، وتعلم ما فيها من عقائد وتعاليم وأوامر ونواه وعبر وحكم . ومن الواضح ان في ذلك اشارة الى اهمية الانتباه في الفهم والتعلم .

ومما يساعد على تركيز الانتباه ، ويسهل عملية التعلم عرض المعاني بطريقة مبسطة وموضحة وذلك بتمثيلها بأمور واقعية محسوسة حتى يمكن ادراكها وفهمها . ولهذا فان المعلمين الان كثيرا ما يستعينون بالوسائل البصرية والسمعية والتجارب العملية في شرح القوانين والنظريات العلمية مما يثير انتباه التلاميذ ويساعد على ادراكهم وفهمهم لها . والقصص والامثال في القرآن الكريم انما هي اساليب استخدمها القرآن الكريم لتجسيد المعاني العقائدية للدعوة الاسلامية وتقريبها الى الاذهان . فالسامع لقصص القرآن الكريم يتحول الى مشاهد لوقائع واحداث تتجسد فيها هذه المعاني [٣٦] ، ويؤدي ذلك بلا شك الى شد انتباهه الى هذه المشاهد التي تتوالى في الخيال واحدة بعد أخرى . وتؤدي الامثال ايضا في القرآن الكريم نفس هذا الدور ، فهي تقوم بتجسيد المعاني بتشبيهها وتصويرها باشياء محسوسة مما يجعلها اقرب الى ادراك الناس وفهمهم . [٣٧]

ومن امثلة ذلك المثال الوارد في سورة ابراهيم والذي يشبه فيه الله تعالى عدم انتفاع الكافرين بأعمالهم الخيرة في الدنيا لعدم قيامها على اساس من الايمان برماد يطير به الريح الشديد في يوم عاصف فلا يستطيع الانسان الامساك به :

---

(٣٤) المزمل : ٦ - قال ابن كثير في تفسير ذلك : والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان ، وأجمع على التلاوة . ولهذا قال تعالى (هي أشد وطئا وأقوم قيلا) أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار ، لأنه وقت انتشار الناس ولغط الاصوات وأوقات المعاش . تفسير ابن كثير ، ج ٤ ص ٤٣٥

(٣٥) الاعراف : ٢٠٤

(٣٦) محمد علي التسخيري : التوازن في الاسلام ، بيروت ، الدار الاسلامية ، ١٩٧٩ ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ ؛ سيد قطب ، مرجع سابق ، ص ٦٢ - ٧٣ .

(٣٧) محمد علي التسخيري ، المرجع السابق ، ص ١٤٢ - ١٤٣

« مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد » [٣٨] .

ومن أمثلة ذلك ايضا المثال الذي شبه به الله تعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة التي تفيد الناس بثمرها الطيب ، والضاربة بجذورها في عمق الارض ، والمرتفعة بساقها واغصانها في عنان السماء ، وتعطي ثمرها في كل وقت حدده الله بمشيئته . وكذلك كلمة التوحيد ثابتة في قلب المؤمنين ، ويصعد عمله الطيب الى الله تعالى ، وينال بركته وثوابه في كل وقت . كما شبه الله تعالى الكلمة الخبيثة بشجرة خبيثة اقتلعت من الارض فليس لها ثبات فيها . وكذلك كلمة الباطل داحضة لا ثبات لها [٣٩] .

« الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتي أكلها كل حين ، باذن ربها ، ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار » [٤٠] .

وتبدأ بعض سور القرآن الكريم بحروف مثل : الم ، المر ، المص ، الر ، كهيعص ، طسم . وقد ذكر المفسرون تفسيرات مختلفة للمراد من هذه الحروف . ومما قيل في تفسيرها ان المقصود منها اثارة انتباه المشركين للاستماع الى القرآن الكريم لما لها من جرس خاص . فقد كان المشركون قد تواصوا بعدم الاستماع الى القرآن الكريم ، وكان الابتداء بهذه الحروف يفتح لاستماعها اسماع المشركين ، حتى اذا ما استمعوا تلي عليهم القرآن الكريم المؤلف من هذه الحروف [٤١] .

ومما يثير الانتباه أيضا استخدام القسم فاتحة لبعض السور المكية . وقد ورد القسم في القرآن الكريم في بداية خمس عشر سورة [٤٢] . ومن امثلة ذلك « والصافات ، والذاريات ، والطور ، والنجم ، والسماء ذات البروج ، والسماء والطارق ، والفجر ، والعصر » . وكان ذلك مدعاة لجذب الانتباه الى الاستماع الى القرآن الكريم . « فان البدء به هو جذب لانتباه السامع لوقوع القسم على سمعه في شيء من الرهبة . فاذا حدث ذلك صحبه تهيؤ نفسي لتلقي ما يقال رخصوصا وان ما يقال مبني على قسم ، والقسم شيء يهول . وفي هذه الحال يكون الانسان اشد تأثرا بما يسمع مما لو فاتحته بما تريد عن طريق الجدل والنقاش » [٤٣] .

---

(٣٨) ابراهيم : ١٨

(٣٩) المنتخب في تفسير القرآن الكريم . الطبعة السادسة - المجلس الاعلى للشئون الاسلامية بوزارة الاوقاف بجمهورية مصر العربية ، ١٩٧٩ ، ص ٣٦٨

(٤٠) ابراهيم : ٢٤ - ٢٦

(٤١) تفسير ابن كثير : ج ١ ص ٣٧ ، تفسير المنار ج ١ ص ١٢٦

(٤٢) عبدالوهاب حمودة : مرجع سابق ، ص ١٦ - ١٧

(٤٣) المرجع السابق ، ص ١٦ - ١٧

وفضلا عن ذلك فان أسلوب القرآن الكريم الذي يتميز بالاعجاز البلاغي ، والايقاع الموسيقي انما يهز الوجدان ، ويشد اليه الانتباه ويمتاز اسلوب القرآن الكريم ايضا بتناسق الجرس اللفظي اروع التناسق مع المعاني ، التي تؤديها الالفاظ . مما يعطي للالفاظ بعدا آخر غير البعد الدلالي المعتاد ، واذا بالانسان يجد المعنى ضمن سماعه لصوت اللفظ وادائه [٤٤] . ولا شك ان ذلك يشد الانتباه ، ويخلق من الانسان احساسا بالموقف الذي يصوره القرآن الكريم ، مما يؤدي الى دقة الاستيعاب والفهم .

المشاركة الفعالة :

ان تعلم المهارات الحركية يقتضي ان يقوم التعلم باداء هذه المهارات بالفعل ، وان يتدرب عليها حتى يتقنها . وليست الممارسة العملية مهمة فقط في تعلم المهارات الحركية ، بل إنها مهمة ايضا في تعلم العلوم النظرية ، وفي تعلم السلوك الخلقي والفضائل والقيم وآداب السلوك الاجتماعي . فان أداء الفرد بنفسه لما يريد ان يتعلم يساعد على سرعة التعلم واتقانه . وقد تبين من نتائج احدى الدراسات التجريبية ان الافراد الذين كانوا يقرأون بانفسهم بعض الحروف والكلمات المقابلة لها كانوا أسرع في حفظها من الافراد الذين كانوا يستمعون فقط الى المجرب يقرأ عليهم هذه الحروف والكلمات ، كما كانوا يرونها في نفس الوقت تعرض امامهم على الشاشة بوساطة فيلم سينمائي [٤٥] . وقد بينت نتائج هذه التجربة اهمية المشاركة الفعالة في عملية التعلم .

ونحن نجد في القرآن الكريم تطبيقا لمبدأ المشاركة الفعالة . يتضح ذلك من الاسلوب الذي اتبعه القرآن الكريم في تعليم المسلمين الخصال النفسية الحميدة ، والاخلاق والعادات السلوكية الفاضلة عن طريق تدريبهم العملي عليها لما كلفهم القيام به من عبادات مختلفة . فالوضوء واداء الصلاة في مواعيد معينة كل يوم يعلم المسلمين النظافة والطاعة والنظام والصبر والمثابرة ، والصوم يعلمهم ايضا الطاعة والصبر على تحمل المشاق والعطف على الفقراء ، ومقاومة الدوافع والشهوات ، والحج يعلمهم ايضا الطاعة والصبر على تحمل المشاق ، ومقاومة شهوات النفس .

وقد عني القرآن الكريم عناية فائقة ، الى جانب تعليم المسلمين الايمان والعقائد الدينية بتوجيههم الى العمل الصالح . فالايمان الصادق يجب ان يعبر عنه في سلوك المؤمن وعمله ، وذلك بالتحلي بالاخلاق الفاضلة وحب الخير للناس ، وبالسبق الى أداء ما يرضي الله تعالى ورسوله عليه صلاة الله وسلامه . فقد ورد الايمان في كثير من آيات القرآن الكريم مصحوبا بالعمل الصالح . ومن امثلة ذلك :

---

(٤٤) محمد علي السمحوري ، مرجع سابق ، ص ١٤٣ - ١٤٤

(٤٥) محمد عثمان نجاتي ، علم النفس في حياتنا اليومية ، الطبعة الثامنة ، الكويت ، دار القلم ١٩٨٠ ص ١٩٥ - ١٩٧

« وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الانهار ... » [٤٦] .

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون » [٤٧] .

« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » [٤٨] .

« وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم اجورهم والله لا يحب الظالمين » [٤٩] .

« وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم » [٥٠] .

« وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من امرنا يسرا » [٥١] .

« واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » [٥٢] .

توزيع التعلم :

بينت الدراسات التجريبية التي قام بها علماء النفس المحدثون أن توزيع التعلم أو التدريب على فترات متباعدة يتخللها فترات راحة يساعد على سرعة التعلم وتثبيته في الذاكرة ، وأن التعلم الذي يحدث باستخدام طريقة التوزيع افضل كثيرا من التعلم الذي يحدث باستخدام طريقة التركيز ، وهو التعلم الذي يتم في فترة زمنية متصلة دون ان تتخللها فترات راحة . وقد طبق هذا المبدأ في القرآن الكريم اذ أنه نزل على فترات متباعدة في مدة طويلة من الزمن قدرها ثلاث وعشرون سنة ، وذلك حتى يستطيع الناس ان يتعلموه على مهل ، وان يستوعبوا معانيه ، وقد ساعد ذلك على اتقان تعلمه وفهمه وحفظه . ولو كان القرآن الكريم نزل كله دفعة واحدة لكان من الصعب تعلمه ، وفهم معانيه واغراضه .

« وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » [٥٣] .

---

(٤٦) البقرة : ٢٥

(٤٧) البقرة : ٨٢

(٤٨) البقرة : ٢٧٧

(٤٩) البقرة : ٥٧

(٥٠) المائدة : ٩

(٥١) الكهف : ٨٨

(٥٢) طه : ٨٢

(٥٣) الاسراء : ١٠٦ . جاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم في تفسير هذه الآية : « وقد فرقنا هذا القرآن ، ونزلناه منجما على مدة طويلة لتقرأه على الناس على مهل ليفهموه »

التدرج في تعديل السلوك

ان التخلص من بعض عاداتنا السيئة القوية التي مارسناها مدة طويلة من الزمن بحيث اصبحت ثابتة ومستقرة في سلوكنا ليس بالامر السهل بالنسبة لكثير من الناس ، اذ أن ذلك يحتاج الى ارادة قوية ، وجهد كبير ، وتدريب طويل ، وهذا أمر قد لا يطيقه كثير من الناس . ولذلك فان أفضل طريقة يمكن اتباعها للتخلص من عاداتنا السيئة المستحكمة هي ان نعمل على التخلص منها تدريجيا .

ان أحسن طريقة للتخلص من انفعال ما ، كانفعال الخوف مثلا ، هي ان نقوم بالتدريج باحلال انفعال معارض لانفعال الخوف كانفعال السرور او الحب مثلا محل الخوف حتى نصل في النهاية الى التخلص النهائي من الخوف . وقد بينت بعض التجارب التي أجراها بعض علماء النفس المحدثين انه أمكن بهذه الطريقة تخليص الطفل من خوفه من أحد الحيوانات وتعليمه حب هذا الحيوان بدلا من الخوف منه [٤١] . وبهذه الطريقة ايضا يمكن التخلص من عاداتنا السيئة بأن نحل محلها عادات معارضة ، وهو اسلوب يتبعه بعض علماء النفس المحدثين في العلاج النفسي .

ولقد كان للعرب قبل الاسلام بعض العادات السيئة المستقرة في سلوكهم ، ولم يكن من السهل في المرحلة الاولى من الدعوة الاسلامية لو طلب من المسلمين التخلي عن بعض عاداتهم السيئة القوية التي ألفوها مدة طويلة من الزمن ، ولذلك فقد اتبع الاسلام في علاج هذه العادات السيئة اسلوبين ، الاسلوب الاول هو تأجيل علاج هذه العادات حتى يستقر الايمان في قلوب المسلمين بحيث يمكن الاستعانة بقوة الايمان كدافع قوي يسهل عملية التخلص من العادات السيئة المستحكمة وتعلم عادات جديدة بدلا منها . ولهذا السبب كانت معظم آيات القرآن الكريم التي نزلت بمكة في المرحلة الاولى من الدعوة الاسلامية تتعلق اساسا بالدعوة الى عقيدة التوحيد . وكان الرسول عليه صلوات الله وسلامه يتعهد من يؤمن بدعوته بالتربية الروحية لترسيخ الايمان والتقوى في نفوسهم . ولا شك ان ذلك كان مرحلة ضرورية وهامة في الاعداد النفسي للمسلمين بحيث اصبحوا في حالة تهيؤ تام لتغيير سلوكهم وعاداتهم وأفكارهم ونظام حياتهم تغييرا كاملا . كما جعلهم ايضا في حالة استعداد لقبول الآيات التي نزلت فيما بعد للنهي عن عادات كانت شائعة بينهم ، ما كان المسلمون في اول عهدهم بالاسلام مستعدين لتقبلها بسهولة كالنهي عن الخمر والربا . ولكن بعد ان رسخ الايمان في قلوب المسلمين ، كان الايمان دافعا قويا الى الطاعة التامة لله وللرسول ، والى تقبلهم عن رضا كل ما يؤمرون به حتى ولو كان ذلك يتطلب منهم الامتناع عن عادات قديمة كانت قد استقرت في سلوكهم من قبل لسنوات طويلة . فحينما نزلت آيات تحريم الخمر امتنع المسلمون جميعا عن شربه ، وقاموا بسكب كل ما لديهم منه في شوارع المدينة .

---

(٤١) محمد عثمان نجاتي ، المرجع السابق ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

أما الاسلوب الثاني الذي استخدمه القرآن الكريم في علاج المسلمين من عاداتهم السيئة المستقرة القوية فقد كان عبارة عن التهيئة المتدرجة لنفوس المسلمين للتخلص من هذه العادات ، وذلك عن طريق التكوين التدريجي لاستجابة معارضة للاستجابة المطلوب التخلص منها . وقد اتبع القرآن الكريم هذه الطريقة في علاج مشكلة شرب الخمر ، فقد عمد القرآن الكريم في أول الأمر الى تنفير المسلمين من شرب الخمر ، وتكريههم لها ، دون ان يقوم بتحريمها تحريما تاما ، ثم تدرج الى التحريم التام . فكانت أول آية نزلت في الخمر تشير الى ان مضارها أكبر من نفعها ، وفي هذا تنفير للمسلمين منها ، وحث على الامتناع عن شربها ، وقد قام بعض الصحابة فعلا بترك شرب الخمر بعد نزول ، الآية ولكنهم لم يتركوها كلهم . قال تعالى :

« ويسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما » (٥٥) .

ثم انتقل القرآن الكريم بعد ذلك الى درجة اشد حزما في تنفير المسلمين من شرب الخمر وفي حثهم على الامتناع عنها ، حينما كان بعض الصحابة يأتون الى الصلاة وهم سكارى فيخطئون في قراءة القرآن ، فحرم عليهم القرآن الكريم ان يقربوا الصلاة وهم سكارى . وفي ذلك في الواقع تحريم لشرب الخمر في معظم اوقات اليوم .

« يا ايها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » (٥٦) .

ان الامتناع عن شرب الخمر خمس اوقات في اليوم ، وهي اوقات تشمل معظم ساعات اليوم تقريبا انما كان بمثابة تدريب للمسلمين للاقلاع عن شرب الخمر . وقد جعلهم هذا التدريب متهيئين نفسيا للانتقال الى المرحلة التالية وهي الامتناع نهائيا عن تعاطي الخمر ، وذلك حينما نزلت الآية التي حرمت الخمر تحريما تاما .

« يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون » (٥٧) .

ان هذا الاسلوب في التدرج في تحريم الخمر قام باضعاف حب المسلمين لها تدريجيا ، وأحل محل الحب استجابة معارضة له هي استجابة النفور والكره . وقد تمت هذه العملية تدريجيا حتى وصلت الى النهاية المطلوبة بنجاح تام . فلما نزلت آية التحريم حتى قام جميع مسلمي المدينة بالتخلص مما لديهم من خمر بسكبه في شوارع

---

(٥٥) البقرة : ٢١٩

(٥٦) النساء : ٤٣

(٥٧) المائدة : ٩٠ ، ٩١

المدينة . ولو كانت نزلت آية تحريم الخمر في مكة اثناء المرحلة الاولى من الدعوة الاسلامية لما كنا نتوقع ان يكون لها في نفوس المسلمين نفس التأثير الذي أحدثته حينما نزلت في المدينة في وقت كان فيه الايمان قد استقر قويا في قلوبهم ، وكان الامتناع عن شرب الخمر في بعض اوقات اليوم قد هيأهم للاقلاع النهائي عن شربها بمجرد نزول آية التحريم . ويروى عن السيدة عائشة رضي الله عنها انها قالت : « انما نزل اول ما نزل منه (أي القرآن) سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى اذا ثاب الناس الى الاسلام نزل الحلال والحرام . ولو نزل شيء : لا تشربوا الخمر ، لقالوا لا ندع الخمر ابدا . ولو نزل : لا تزنوا ، لقالوا لا ندع الزنا ابدا » [٥٨] .

وقد اتبع القرآن الكريم هذا الاسلوب ذاته في علاج الربا الذي كان متفشيا بين العرب في الجاهلية ، فقام بتحريمه تدريجيا . ويمكن ان نشير الى اربع مراحل مر بها تحريم الربا [٥٩] .

في المرحلة الاولى اظهر الله تعالى عدم رضاه عن الربا ، وذلك في قوله تعالى :

« وما اوتيتم من ربا ليربو في اموال الناس فلا يربو عند الله » [٦٠] .

وفي المرحلة الثانية نزلت آية كان فيها وعد لليهود بسبب ممارستهم للربا ، وفي ذلك تلويح بالتحريم ، وان لم يكن نصا صريحا بالتحريم .

« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ، واخذهم الربا وقد نهوا عنه واكلهم اموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذابا اليما » [٦١]

وفي المرحلة الثالثة حرم الله تعالى الربا الفاحش الذي كان يمارسه العرب في الجاهلية وذلك بقوله تعالى :

« يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » [٦٢] .

وفي المرحلة الرابعة حرم الله تعالى الربا تحريما قاطعا بقوله تعالى :

« « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بانهم قالوا انما البيع مثل الربا واحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ومن عاد فاولئك اصحاب النار هم فيها خالدون . يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار اثيم » [٦٣]

---

(٥٨) البخاري ، باب تأليف القرآن

(٥٩) مصطفى الرافعي ، الاسلام ومشكلات العصر ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٢ ، ص ٢٠٠ - ٢٠١

(٦٠) الروم ، ٣٩

(٦١) النساء ، ١٦٠ ، ١٦١

(٦٢) آل عمران ، ١٣٠

(٦٣) البقرة ، ٢٧٥ ، ٢٧٦

« يا ايها الذين امنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين . فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » (٦٤) .

وكانت الآية الاولى التي نزلت عن الربا وهي التي تشير الى عدم رضا الله سبحانه وتعالى عنه مكية . أما الآيات الأخرى التي نزلت بعد ذلك وخاصة آيات التحريم القاطع للربا فهي مدنية ، ومن ذلك يتبين ايضا ان التحريم القاطع للربا قد نزل ايضا بعد أن استقر الايمان في قلوب المسلمين .

والاسلوب الذي اتبعه القرآن الكريم في علاج تعاطي الخمر والربا هو التكوين التدريجي لاستجابة النفور والكراهية لهما حتى تصل الى درجة من القوة يمكنها ان تتغلب على استجابة الميل والحب لهما . وبذلك استطاع القرآن الكريم ان يعالج بنجاح هاتين العادتين القويتين المستقرتين في سلوك العرب . وان يقضي عليهما باسلوب مخطط في غاية الدقة والحكمة .

وقد توصل بعض المعالجين النفسيين حديثا الى اسلوب في العلاج النفسي مستمد من ابحاث سكنر B. F. Skinner وهو اسلوب يشبه كثيرا الاسلوب الذي استخدمه القرآن الكريم في علاج تعاطي الخمر والربا . ويعرف هذا الاسلوب في العلاج النفسي « بالتشكيل » . فاذا أردنا مثلا ، ان نعلم طفلا استجابة صحية فانه يمكن ان نقوم بتكوين هذه الاستجابة لديه تدريجيا. فمثلا ، ان الطفل الذي لم يتعلم من قبل النظافة والذهاب الى الحمام في الوقت المناسب ويكون قد تجاوز السن الذي يتعلم فيه معظم الاطفال ذلك ، فانه يمكن ان تعلمه ذلك بأن نبدأ باثابته باعطائه قطعة من الحلوى مثلا ، لمجرد ان يقوم باستجابة الذهاب الى الحمام . فاذا تعلم الطفل ذلك ، ينتقل العلاج الى الخطوة التالية وهي ان يطلب منه ان يذهب الى الحمام عند احتمال ظهور حاجته الى الاخراج بطريقة لا ارادية ، ثم يثاب الطفل عندما يتم الاخراج اثابة أكبر باعطائه قطعة اكبر من الحلوى ، وبثناء كبير من والديه . ثم اخيرا يثاب الطفل ثوابا اكبر اذا اخبر والديه بانه يحتاج الى الذهاب الى الحمام وقبل ان يتم الاخراج بطريقة لاارادية (٦٥) . ان هذا الاسلوب في العلاج يعتمد اساسا على التكوين التدريجي للاستجابة المطلوب تعلمها عن طريق التعلم التدريجي لانواع من الاستجابات المتوسطة والتي تتجه تدريجيا نحو تكوين الاستجابة المطلوبة . وهذا الاسلوب في العلاج يماثل الاسلوب الذي اتبعه القرآن الكريم في علاج تعاطي الخمر والربا .

واتبع جوزيف وولبه Joseph Wolpe ايضا طريقة التدريج في علاج الخوف المرتبط باشياء معينة وذلك عن طريق تكوين استجابة معارضة للخوف كالاسترخاء لسلسلة متدرجة من الاشياء المشابهة للشيء الاصلي

---

(٦٤) البقرة : ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٦٥) جوليان روتر : علم النفس الاكلينيكي . ترجمة عطية محمود هنا ، ومراجعة محمد عثمان نجاتي . الكويت ، دار القلم ، ١٩٧٧ ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

المثير للخوف ، ولكنها ترتب في نظام متدرج من اقلها اثارة للخوف الى اكثرها اثارة له ، وبحيث يكون الشيء الاصلي المثير للخوف والمطلوب علاج الفرد من الخوف منه في اعلى هذه السلسلة . ثم يبدأ العلاج بتعليم المريض الاسترخاء اثناء تخيل الشيء الأدنى في هذه السلسلة حتى يزول الخوف المرتبط به . ثم ينتقل العلاج الى تعليم المريض الاسترخاء اثناء تخيل الشيء الثاني في السلسلة والذي يثير قدرا أكبر من الخوف ، ويستمر العلاج حتى يزول الخوف المرتبط به . وهكذا يستمر العلاج بالتخلص التدريجي من الخوف المرتبط بهذه السلسلة المتدرجة من الاشياء المثيرة للخوف حتى ينتهي العلاج الى التخلص من الخوف المرتبط بالشيء الذي يوجد في قمة هذه السلسلة وهو الذي بدأ العلاج أساسا للتخلص منه [٦٦] .

ان اسلوب التدريج في تعليم الاستجابات الصحية او في العلاج النفسي الذي يرمي الى التخلص من بعض العادات او الانفعالات غير المرغوب فيها ، والذي توصل اليه علماء النفس المحدثون اخيرا قد سبق ان استخدمه القرآن الكريم منذ اربعة عشر قرنا من الزمان في علاج تعاطي الخمر والربا .

***

(٦٦) فيلكس كالمان ، علم نفس الشواذ ، ترجمة احمد عبدالعزيز سلامة ، ومراجعة محمد عثمان نجاتي ، الكويت ، دار القلم ١٩٧٧ ، ص ٢٣٣ - ٢٣٥ ؛ ريتشارد م . سوين ، علم الأمراض النفسية والعقلية ، ترجمة احمد عبدالعزيز سلامة ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٩ ، ص ٨١٦ - ٨٥٤ .